







# الحركة الصليبية

صفحة مشروطة في تاريخ الجهاد العربي  
في العصور الوسطى

## الجزء الأول

بتأليف

دكتور سعيد عبد الفتاح محمود

أستاذ كرمي بتاريخ العصور الوسطى  
كلية الآداب - جامعة القاهرة

الطبعة الثانية

١٩٧١

ملنزم الطبع والنشر

مكتبة الأملو المصرية

١١٥ شارع محمد علي - القاهرة

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٢٢٨ لسنة ١٩٧١

مطابع سجل العرب

# إِهْدَاءُ الْكِتَابِ

إِلَى

المؤمنين بـفلسطين العربية  
والمقوق أصحابها العرب





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

« لنجعلها لكم تذكرة وتميها أذن واعية »  
(الحاقة، ١٢)



(١)

ترجع أهمية الحروب الصليبية بالنسبة لنا إلى أنها تشكل تجربة في تاريخ العرب والإسلام جميعاً ، سواء في المشرق أو في المغرب . وهذه التجربة ليست من التجارب العابرة المحدودة الأثر والتأج ، وإنما هي تجربة كبرى خطيرة مليئة بالدروس والعظات ، مما يتطلب منا أن نتأملها ونبحثها في كل وقت — الآن وفي المستقبل — لنستفيد من أخطاء الماضي ونتجنبها ، ونواجه أخطار الحاضر وتغلب عليها ، وبذلك نحفظ للعرب حقوقهم وللعروبة كيانها ، ونضمن لأبنائنا حياة حرة كريمة في وطننا العزيز .

ثم إن ذبول الحروب الصليبية انتهت في القرن الخامس عشر تقريباً لتفصح عن نتائج عربية متناقضة بالنسبة للشرق العربي والغرب الأوربي . فإذا كانت هذه الحروب صفحة مثيرة في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، فما السر في أنها انتهت بتدهور وركود وانحلال استمر طويلاً عقبها في البلدان العربية ، في حين صحبت هذه الحروب وأعقبها مباشرة نهضة شاملة في الغرب الأوربي هي أساس نهضته الحديثة ؟ ؟ الواقع إن هذه الظاهرة تسترعى الانتباه وتستحق منا التفكير العميق . فقد تكون الحروب الصليبية في حد ذاتها مسؤولة عن الانهيار الذي تعرضت له البلدان العربية في أواخر العصور الوسطى بعد أن استنفدت جهود هذه البلدان في الدفاع عن كيانها ، وكرست مواردها ونشاطها للقضاء على الأخطبوط الصليبي الذي ثبت أقدامه في بقعة هي بمثابة القلب من الوطن العربي ، وأخذ يسعى من ذلك المركز المتوسط إلى تهديد بقية الشام والعراق ومصر والحجاز فضلاً عن المغرب والأندلس . ولعله من الواضح أنه كان من الصعب على العرب وسط ذلك الخطر الذي أحلق بهم في صميم بلادهم أن يشغلوا بالإنشاء والتعمير والنشاط الحضاري . على أنه ثمة حقيقة يجب أن

نذكرها دائماً من باب الأمانة التاريخية ، هي أن مظاهر الضعف والانحلال السياسي والتأخر الحضارى بدت فعلاً في بعض أجزاء الوطن العربى قبل وصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق بكثير ، وقبل بداية حركة الاسترداد في أسبانيا بكثير أيضاً . وإن من يتأمل أحوال المشرق العربى منذ القرنين التاسع والعاشر للميلاد ليسترعى نظره كثرة الثورات والخلافات المذهبية التى قامت في جوف الدولة العباسية ، فضلاً عن الانقسامات التى تعرضت لها تلك الدولة مما أدى إلى قيام دويلات مستقلة على حسابها في المشرق والشام ومصر وشمال إفريقيا . ولا شك في أن وقوع الخلفاء العباسيين أنفسهم تحت سيطرة البويهيين ثم السلاجقة إنما هو دليل واضح على ضعف الخلافة وانحلال المشرق العربى قبل بداية الحروب الصليبية بأمد طويل . فإذا انتقلنا إلى الأندلس ، فإننا نلاحظ أيضاً أن الضعف أخذ يسرى جثيثاً في جسم خلافة قرطبة منذ أوائل القرن الحادى عشر ، مما شجع القوى المسيحية في شمال أسبانيا على أن تعمل لطرده المسلمين من الأندلس .

فجنود الضعف امتدت في الوطن العربى إلى ما قبل الحروب الصليبية ، وليس حقيقة أن تلك الحروب وحدها هى المسئولة مسئولية تامة عن حالة الذبول التى تعرضت لها البلدان العربية في أواخر العصور الوسطى . وربما كان أقرب إلى الحقيقة أن نعرف بأن عوامل الضعف ومظاهره كانت موجودة فعلاً قبل بداية الحروب الصليبية ، ثم جاءت هذه الحروب لتستنفد ما بقى للوطن العربى من طاقة وجهد ، مما جعل معظم البلدان العربية — وبخاصة في الشرق الأدنى — تسقط فريسة سهلة أمام العثمانيين وحكمهم الرجعى المظلم .

أما عن أن الحروب الصليبية انتهت بنهضة الغرب الأوروبى نهضة كبرى . شاملة ، فهذه حقيقة ثابتة يؤكدها التاريخ . وإذا كانت بدور النهضة الأوربية

الحديثة قد بدأت قبل بداية الحركة الصليبية بقليل . فإن الحقيقة التي لا شبهة فيها ولا جدال حولها ، هي أن تلك البذور نمت نتيجة للاتصال بالحضارة العربية الإسلامية . فهذه الحضارة التي كانت باعتراف جميع الباحثين أعظم حضارة شهدتها العالم في الشرق والغرب طوال العصور الوسطى ، هي التي غذت بذور النهضة الأوروبية وأمدتها بما كانت تفتقر إليه تماماً من علوم ودراسات وفنون ومناهج بحث .

ومن المعروف أن هناك معابر أساسية انتقلت عنها حضارة العرب إلى الغرب الأوربي ، ولكن الثابت أن حركة ترجمة العلوم والمعارف العربية إلى اللاتينية نشطت بالذات على عصر الحروب الصليبية ، وأن المركز الأول لتلك الحركة كان أسبانياً حيث أخذ المسيحيون يحاربون المسلمين في قوة وعنف . وكما استولى المسيحيون على بلد إسلامي وجدوا أنفسهم أمام ثروة ضخمة من آلاف المخطوطات العربية في العلوم والفنون والآداب وغيرها من الدراسات . وهذا هو التفسير الصحيح لحقيقة النهضة الأوروبية الغربية التي صحبت الحركة الصليبية والتي ازدادت نمواً في أعقاب تلك الحركة مباشرة . هذا كله بالإضافة إلى أن الحروب الصليبية ألهمت الغرب الأوربي نظرة جديدة واسعة إلى الحياة ، وكان هذا الاتساع في الأفق والخروج بغرب أوربا من نطاق العزلة الواضحة التي عاش فيها المجتمع الأوربي في العصور المظلمة ، هو أهم ما أفادته أوربا من الحركة الصليبية ، فضلاً عن نمو روح الكشف والمغامرة عند الأوربيين .

(٢)

وسواء كان التاريخ يعيد نفسه أو لا يعيد ، فمن الواضح أن الأوضاع التي تحيط بالعالم العربي في الشرق الأدنى اليوم تجعلنا نشعر بأننا في وضع أقرب ما يكون إلى الوضع الذي عاش فيه أجدادنا العرب منذ ثمانية قرون ونصف ، الأمر الذي يتطلب منا دراسة الحركة الصليبية دراسة علمية دقيقة .

فإذا كنا نقف اليوم وجهاً لوجه أمام خطر إسرائيل التي أقامها الاستعمار في أرض فلسطين والتي يحرص الغرب دائماً على مسانبتها وإمدادها بالمال والسلاح والرجال ليتمكنوا من المضى في غيها وعدوانها ؛ فإن أجدادنا في نهاية القرن الحادى عشر وجدوا أنفسهم أمام دولة غربية قامت في البقعة نفسها من أرض الشام ، وحرص الغرب أيضاً على تزويدها بالرجال والسلاح والمساعدات ليضمن لها البقاء والاستمرار .

وإذا كانت إسرائيل تستهدف الآن — تحت ستار إقامة وطن قومي لليهود — السيطرة على جميع البلدان العربية في منطقة الشرق الأدنى ، مما يضمن إقامة دولة للصهيانية تمتد من النيل إلى الفرات ؛ فإن الصليبيين في العصور الوسطى لم يكادوا يثبتون أقدامهم في فلسطين حتى شرعوا يتوسعون شرقاً في إقليم الجزيرة والفرات وجنوباً في اتجاه مصر والنيل ، بل لقد ركبوا البحر الأحمر ووصلوا إلى شواطئ الحجاز لهدم الكعبة في مكة ومقام الرسول في المدينة .

وإذا كان التاريخ لا يبرأ حكام الدول العربية وساستها الذين استكانوا للاستعمار الغربي ولإسرائيل ، وتآمروا على فلسطين وأبنائها حتى تمكنت إسرائيل من الوقوف على قدميها ، فإن التاريخ أيضاً لا يفتقر لحكام المسلمين في مصر والشام والعراق « عدم اكتراثهم بالفرنج » عند وصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشام ، حتى أن

المؤرخ أبا الحسن يتساءل عن السبب في عدم خروج بعضهم لدفع الصليبيين « مع قدرتهم في المال والرجال ! » .

وإذا كانت البلدان العربية قد ابتليت اليوم ببعض الحكام الرجعيين الذين دفعهم الحرص على مصالحهم الخاصة إلى الاعتراف بإسرائيل عن طريق غير مباشر ، ومهادنتها علناً أو مخالفتها سرا ضد القضية العربية الكبرى ، وطلب معونتها - ومن ورأها الاستعمار الغربي - لضرب الحركات التحررية في الوطن العربي ؛ فإننا نسمع في عصر الحروب الصليبية عن معين الدين أنر حاكم دمشق الذي دفعته شهوة الحكم والخوف من تيار الوحدة الذي أوشك أن يعصف بملكه إلى مخالفة الصليبيين في بيت المقدس وطلب معونتهم ضد المنادين بوحدة الصف لمواجهة الخطر الصليبي ؛ بل لقد بلغ الأمر بمعين الدين أنر - وهو الحاكم المسلم - أن زار الصليبيين في مدنهم وحصونهم ليبارك جرائمهم ضد أبناء وطنه ودينه . وما يقال عن معين الدين أنر في دمشق يقال أيضاً عن ضرغام وشاور - وهما من وزراء الخلافة الفاطمية المتداعية في مصر - وعن الصالح إسماعيل الأيوبي صاحب دمشق ، وكلهم حالقوا الصليبيين وطلبوا معونتهم ضد القضية العربية .

وإذا كان أشد ما تحشاه إسرائيل - ومن ورأها الدول الغربية الاستعمارية اليوم - هو قيام وحدة عربية تجمع بين صفوف العرب وتضيف إلى وحدة الهدف وحدة الصف ؛ فإن الصليبيين في العصور الوسطى استماتوا في منع تحقيق وحدة الصف العربي ، وقاموا بحركة الوحدة العربية ، أولاً بين مدن بلاد الشام الإسلامية والعراق ، حتى إذا ما فشلوا في ذلك ورأوا أن نور الدين محمود نجح في ضم دمشق وتوحيد صف المسلمين في بلاد الشام ، استدار الصليبيون نحو مصر وحاولوا بمختلف الطرق منع الوحدة بين مصر والشام والعراق ، لأنه إذا تمت هذه الوحدة « فإن يبق لهم (لصليبيين) في بلادهم مقام » على قول أحد المؤرخين المعاصرين .

وإذا كان الاستعمار الغربي قد حرص بعد الحرب العالمية الأولى على أن يجعل إقليم الأردن تحت سيطرته ليستغل تلك المنطقة الشرقية من فلسطين في الفصل بين العراق والجزيرة العربية والشام ومصر ، وبذلك يحول دون قيام أية وحدة عربية في المنطقة ، ويجعل الوطن العربي في الشرق الأدنى دائماً أبداً ممزق الأوصال ، مما يتيح للاستعمار وصنيعته إسرائيل أن يلعبوا وفقاً لخواصها الأثر العربية؛ فإن الصليبيين ما كادوا يقيمون دولتهم في فلسطين حتى قاموا بالحاولة نفسها فسعى ملكهم بلدوين إلى السيطرة على الأردن ووادي عربة ، وشيد حصن الشوبك جنوبي البحر الميت ، ومن ذلك المركز سعى الصليبيون دائماً إلى قطع الاتصال بين مصر والجزيرة العربية والعراق والشام .

وهكذا يبدو أن التجارب التي تمر بها الأمة العربية اليوم ليست جديدة عليها ، فقد سبق أن تعرضت هذه الأمة للأساليب نفسها من الخيانات والألاعيب والدسائس والمؤامرات في عصر الحروب الصليبية . وبقى علينا اليوم أن نستفيد من هذه التجارب، مما يتطلب مناداة الحركة الصليبية دراسة علمية أمينه، لتتعظ من دروس الماضي وتأخذ منها عبرة، تعيننا في التغلب على أفدح خطر يواجه الأمة العربية اليوم ، وهو خطر إسرائيل وأعوانها من القوى الاستعمارية والرجعية .

( ٣ )

والواقع إن الوطن العربي شهد في عصر الحروب الصليبية مؤامرات عدة : مؤامرات من الغرب الأوربي لسلب العرب حريتهم وأرضهم . ومؤامرات من الصليبيين بالشام ضد وحدة الصف العربي . ثم مؤامرات من بعض حكام المسلمين



أنفسهم ضد إخوانهم في الوطن والدين . ولكن هل نجحت هذه المؤامرات ؟  
وإلى أى حد كان نجاحها أو فشلها ؟

إن نتيجة أى عمل هي التي تحدد مقدار ما أصابه هذا العمل من نجاح أو فشل .  
وهنا نجد الحروب الصليبية انتهت - بعد عدة قرون من الجهود الجبارة التي بذلها  
الدخلاء وصنائعهم - بالفشل ، وبطرد الصليبيين طرداً تاماً من الشام ، وتطهير  
الأرض الطيبة من أطماع الطامعين ، وعودة البلاد إلى أيدي أصحابها من العرب  
ومهما تعددت الأسباب التي أدت إلى هذه النتيجة ، فإننا يجب أن نذكر في  
مقدمتها وعى الشعب العربي ، وهو ذلك الوعي الذي برز قويا وبوضوح في كتابات  
المؤرخين المعاصرين ، أمثال ابن الأثير وأبي شامة وابن شداد وابن واصل ، ثم  
أبي المحاسن والمقريزي وغيرهم . وإن من يدرس تاريخ الحركة الصليبية يستوقف  
نظيره أحيانا نجاح الصليبيين في تفرقة الصف العربي عن طريق تخويف بعض  
الحكام العرب من إخوانهم ؛ ولكن ذلك كله لم يجد أمام إيمان العرب بوحدة  
الهدف ، تلك الوحدة التي غذاها شعور الإيمان بالله ثم الإيمان بالحق المقتضب .

وهكذا لم يرّض أى جزء من الشعب العربي أن يحكمه حاكم خان يحالف  
الصليبيين ويتآمر على حياة العرب وأرض العرب . نعم ؛ لم يرّض أهل دمشق  
عن حاكمهم معين الدين أنز الذي آثر أن يضرب عرض الحائط ببناء الضمير ،  
فرفض دعوة الوحدة وحالف الصليبيين في سبيل الاحتفاظ بملكه . وكان أن نار  
الأبرار من أهل دمشق على ذلك الوضع المشين ، واتصلوا مرأ بنور الدين محمود  
وأقروه على أن يتسلم بلادهم تحقيقا للوحدة الشاملة وتمهيدا للقيام بحركة الجهاد  
الكبرى ضد الصليبيين .

وعندما حاول الصالح إسماعيل صاحب دمشق أن يتآمر مع الصليبيين لغزو مصر (١٢٤٠ - ١٢٤٤)، وجمع جيشاً من أهل الشام سار به جنبا إلى جنب مع الجيش الصليبي لغزو أرض النيل، حدثت المفاجأة التي تتكرر اليوم عندما تلبأ بعض القوى الرجعية في الوطن العربي إلى ضرب الحركات التحررية. ذلك أن الجيش الشامي لم يكده يصل قرب غزة ويرى أمامه الجيش المصري، حتى انفض أهل الشام عن حاكهم الخائن ورفضوا أن يشتركوا مع العدو الدخيل ضد إخوانهم في العروبة « فسأقت عساكر الشام إلى عساكر مصر طائعة، ومالوا جميعاً على الفرنج فهزموهم !! »<sup>(١)</sup>.

وبفضل هذا الإيمان بوحدة الهدف والتمسك بوحدة الصف، أمكن للشعب العربي أن ينتصر في معركة الحروب الصليبية في العصور الوسطى. وعندما ينضج هذا الوعي أيضاً سيأتي عن قريب اليوم الذي يتمكن الشعب العربي المتحرر من أن ينتصر في معركته ضد إسرائيل والاستعمار الرجعية.

وسواء يبدأ تيار الوحدة من الفرات إلى النيل - كما حدث في القرن الثاني عشر - أو يبدأ من النيل إلى الفرات - كما يحدث اليوم - فالملهم هو أن يكون هذا التيار نابعا من جوف الوطن العربي وليس دخيلا عليه أو مفروضا على أبنائه في صورة أحلاف ينظمها الدخلاء والعملاء لخدمة أغراضهم وتنفيذ مشاريعهم الخيثة. وقد أثبت التاريخ دائماً أن هذه الوحدة المنبثقة من صميم الواقع العربي، المعبرة عن آماني الأمة العربية في تحقيق سلامتها والحفاظة على

---

(١) انظر: المقرئى، السلوك ج ١ ص ٣٠٥، أبو الحاسن: النجوم ج ٦ ص ٣٢٣

كيانها وطردهم الدخلاء الغاصبين من محيطها ، لا بد وأن تنتصر في تحقيق أهدافها رغم ما يصادفها من عقبات يحرص الدخلاء وأذنابهم على وضعها في طريق المؤمنين الأحرار .

والواقع إن أهم ما يسترعى انتباهنا عند دراسة تاريخ الحقبة الصليبية هو ذلك التوافق الشديد بين أجزاء الوطن العربي ، وتلك الاستجابة السريعة التي أحس بها كل عضو من أعضاء ذلك الجسد الكبير نحو بقية الأعضاء : فلا يكاد الصليبيون يغزون الشام حتى تخرج الجيوش من العراق لمنازلة الغزاة المعتسدين ، ولا يكاد الصليبيون يتحركون ضد مصر حتى تسرع جيوش الشام للذود عنها ، ولا يكاد الناصر صلاح الدين يثبت قدميه في مصر حتى يسخر جميع مواردها البشرية وطاقاتها المادية لطردهم الصليبيين من الشام ؛ ولا يكاد أرنأط حاكم الكرك الصليبي يخرج في البحر الأحمر لتهديد الحجاز حتى تشيد السفن في مصر وتحمّل على ظهور الجمال إلى البحر الأحمر لدفع الخطر عن الحرمين ؛ ولا تكاد الأخبار تصل إلى القاهرة بأن لويس التاسع ملك فرنسا قد نزل سنة ١٢٧٠ على رأس جيوشه في تونس حتى تتخذ الإجراءات السريعة لدفع عادية البغاه والاحتفاظ للمغرب بعروبته وحرية .

وهكذا ظل التجاوب سريعاً وتاماً بين جميع أجزاء الوطن العربي مشرقه ومغربيه ، الكل شعب واحد يحس بإحساس واحد ، بحيث لا يشكو عضو إلا استجاب له بقية الأعضاء في سرعة وإيمان . وهذا هو السر في انتصار العرب في المعركة الصليبية ، ونجاحهم في طردهم الدخلاء من أراضيهم .

( ٤ )

وفي هذا الكتاب حاولت أن أقوم بدراسة علمية أمينة للحركة الصليبية  
بمختلف أدوارها ومراحلها، معتمدا على ما أمكنتني الوصول إليه من وثائق  
ومخطوطات ومراجع معاصرة - عربية وغير عربية - فضلا عن المؤلفات  
الأوربية الحديثة .

والواقع إنه لن المؤسف حقاً أن تظل المكتبة العربية حتى اليوم خلوة من  
مؤلف واحد شامل يتناول تاريخ الحركة الصليبية ، مع ما لهذه الحركة من أثر  
بالغ وأهمية عظمى في تاريخ الشعب العربي وعلاقته بغرب أوروبا في العصور  
الوسطى . وفي الوقت الذي تطالعنا قوائم دور النشر في أوروبا وأمريكا كل عام  
بكتب جديدة عديدة تحمل اسما واحدا هو « الحروب الصليبية » ؛ إذا بالمكتبة  
العربية لا يوجد فيها حتى اليوم مؤلف حديث واحد يعالج تاريخ الحركة الصليبية  
بأكملها - من بدايتها حتى نهايتها - علاجا أميناً يعبر عن وجهة النظر العربية .

وكل ما هنالك هو بعض الكتب المترجمة إلى العربية عن اللغات الأوربية ،  
والتي تقف عند حد سرد آراء مؤلفيها من الأوربيين ووجهات نظرهم ؛ فضلا  
عما في بعضها من أخطاء وتحريفات لعدم الدقة في ترجمة أسماء المواضع والأعلام  
ووضعها في صيغتها العربية السليمة .

وإنني إذ أقدم لقراء العربية هذا الكتاب ليسد فراغا ملموساً في المكتبة  
العربية، أرجو أن يقبلوا عذري في تأخر صدوره . ذلك أنني وعدت قرأني بإصدار  
هذا الكتاب في أقرب فرصة منذ خمس سنوات . ويشهد الله على أنني لم أتخلل  
عن وعدى طوال هذه السنوات الخمس ، وإنما هي طبيعة الموضوع وكثرة أحداثه

وصعوبة تسميه وتبويبه ، وتشعب وثاقفه وأصوله ، هي التي استأثرت بكل جهدي ووقتي طوال هذه السنوات .

ولا أدعى أنني وفيت هذا الموضوع حقه من البحث ، وإنما هي محاولة أولى لدراسة تاريخ عصر من أهم عصور التاريخ العربي ، وأرجو أن تتبعها محاولات أخرى حتى يستوفى هذا الموضوع الهام حقه من الدراسة على أيدي المؤرخين العرب مثلما استوفى حقه من البحث على أيدي المؤرخين الأوربيين .

وقد دفعتني رغبتي في تسهيل مهمة من يتابع دراسة موضوع الحروب الصليبية إلى تذييل هذا الكتاب بتأمة كاملة للمراجع التي اعتمدت عليها في البحث ، فضلا عن تدعيم الكتاب بعدد لا بأس به من الخرائط والملامح والجداول المفيدة . ويؤسفني أنني لاحظت في بعض الكتب العربية الحديثة التي تعرضت لنواح من تاريخ الحروب الصليبية أن مؤلفيها أخطأوا في كتابة أسماء بعض المدن والأعلام الجغرافية لأنهم تملوها نقلا حرفيا من المراجع الأوربية دون أن يحاولوا البحث عن أصولها العربية . لذلك أوردت في نهاية الكتاب كشافا مرتبا ترتيبا أبجديا بأسماء المدن والمواقع الجغرافية ، كماوردت في الحوليات غير العربية والمراجع الأوربية ، وحثت اسم كل منها كما ورد في المراجع العربية المعاصرة تحقيقا دقيقا يستطيع أن يعتمد عليه من يبحث في موضوع الحروب الصليبية .

وكل ما أرجوه هو أن أكون قد وفتت فيما قصدته من خدمة الأمة العربية وتاريخها بإبراز صفحة من أروع صفحات البطولة التي يعتز بها كل عربي .

والله ولي التوفيق .

سعيد عبد الفزاح عاشور



## الباب الأول

### فلسفة الحركة الصليبية

« لكل نبي مستقر وسوف تعلمون »

( الأنعام ، ٦٧ )





## الفصل الأول

### ماهية الحركة الصليبية

أحوال الغرب الأوربي عند بداية الحركة الصليبية :

اعتاد المؤرخون أن يبدءوا الكلام عن الحروب الصليبية بالإشارة إلى أحوال الشرق الأدنى في القرنين العاشر والحادي عشر ، فيتعرضون للدولة العباسية أيام ضعفها حتى كان ظهور السلاجقة ، ثم ينتقلون إلى الصراع بين السلاجقة والبيزنطيين في آسيا الصغرى، وكيف أدت استغاثة البيزنطيين بالغرب الأوربي وبالبابوية عقب موقعة مانزكرت إلى إثارة الحروب الصليبية .

ومع اعترافنا بوجاهة اتخاذ أحوال الشرق الأدنى مدخلا للحروب الصليبية، إلا أننا نرى أن المدخل الطبيعي للموضوع يأتي من ناحية الغرب بالشرق . حقيقة إن الاستغاثة ضد المسلمين أتت من الشرق ؛ ولكن البواعث التي دفعت الغرب الأوربي إلى تلبية تلك الاستغاثة ، والإسراع بالاستجابة لها والرد عليها رداً عملياً ، هذه البواعث كلها غربية ولا يمكن فهمها إلا بالوقوف على أوضاع الغرب الأوربي وقت قيام الحروب الصليبية . ولا أقل من إلقاء نظرة سريعة على غرب أوروبا في العصور الوسطى لنستطيع فهم البواعث التي حركت الحركة الصليبية .

أعقب سقوط الإمبراطورية الرومانية في غرب أوروبا على أيدي الجرمان سنة ٤٧٦ فترة قائمة امتدت حتى القرن الحادي عشر ، وأطلق بعض المؤرخين

على تلك الفترة في التاريخ الأوربي اسم « العصور المظلمة ». ولم تقتصر مظاهر التأخر والانحلال التي أصابت المجتمع الأوربي في تلك الفترة على الانحلال السياسي ، وإنما امتد التدهور إلى الجوانب الاجتماعية والثقافية والإقتصادية . وإذا كان غرب أوروبا قد شهد صحوة ملحوظة على أيام شارلمان في أواخر القرن الثامن وأوائل التاسع ، فإن هذه الصحوة جاءت قصيرة العمر. ولم تلبث جموع الفايكنج أن أخذت تنزح من الشمال لتغير على مواطن الحضارة وتدمرها في غرب أوروبا ، في الوقت الذي أوغل الهنغارون في وسط القارة حتى شرق ألمانيا ، يخربون ويفسدون . وفي وسط تلك الأزمات تحايل الغرب الأوربي بالنظام الإقطاعي للحصول على قدر من الأمان والحماية ، فانحلت السلطات المركزية منذ القرن التاسع، واضطر الأباطرة والملوك إلى التنازل عن كثير من حقوقهم وسلطاتهم لأمراء الإقطاع . ولكن إذا كان كبار الأمراء الإقطاعيين قد نجحوا في حماية رعائهم من الهجمات الخارجية ، فإن أولئك الرعايا دفعوا الثمن غالباً في ظل نظام اعتمد في نلحة الأرض على الإقنان وعبيد الأرض وقام على أساس تحكم القوى في الضعيف .

ولم يكن في استطاعة البابوية والكنيسة الغربية أن تسهم بأي جهد لتعديل تلك الأوضاع ، لأن الكنيسة نفسها - التي ظلت منذ سقوط الامبراطورية الغربية في أواخر القرن الخامس تمثل أكبر قوة في المجتمع الغربي - تعرضت هي الأخرى لموجة جارفة من الانحلال والذبول في القرنين التاسع والعاشر ، فجرف التيار الإقطاعي رجال الدين وتصدع سلطان البابوية ، وانحط للمستوى الخلق لرجال الكنيسة<sup>(١)</sup> .

على أن تلك الغمة لم تلبث أن أخذت تنكشف في القرن الحادى عشر .

---

(١) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ١ ص ٢٤١ - ٣٤٢ .

ويميل بعض الباحثين إلى إعطاء سنة ١٠٠٠ للميلاد أهمية خاصة في تاريخ أوروبا، على أساس أن هذه السنة تمثل نقطة تحول كبرى في تاريخ الغرب الأوربي<sup>(١)</sup>. ومع أننا لا نؤيد مبدأ اختيار سنة بعينها لتحديد بداية حركة حضارية في التاريخ، إلا أنه لا يمكننا أن نتجاهل الصحوة الكبرى التي تعرض لها غرب أوروبا منذ القرن الحادى عشر، وهى الصحوة التى بلغت ذروتها فى القرن الثانى عشر واستمرت بعد ذلك حتى نبعث منها النهضة الأوربية فى القرن الخامس عشر<sup>(٢)</sup>. ويطلق المؤرخون على هذه الصحوة التى تعرض لها المجتمع الغربى منذ القرن الحادى عشر اسم « نهضة القرن الثانى عشر ». وليس هذا مجال الخوض فى تفاصيل هذه النهضة، وإنما تكفى الإشارة إلى أنها مست جميع أركان الحياة فى غرب أوروبا. فى المجال السياسى بدأت أوروبا تشعر بنوع من الاستقرار بعد أن انتهت إغارات الفيكنج، فأخذ ملوك الغرب يسعون سعياً حثيثاً لتدعيم سلطنتهم فى بلادهم. وفى المجال الثقافى أخذ الأوربيون يعملون فى نهم لتحصيل أكبر قدر من العلوم والمعارف التى استقوها وترجموها عن الكتب العربية، وبالتالي فقد بدأ التطور الذى نبتت منه الجامعات لأول مرة فى غرب أوروبا. وفى المجال الاقتصادى ظهر نشاط المدن وبخاصة فى شمال إيطاليا، وصحب هذا النشاط هجرة كثير من أقتان الأرض إلى المدن للعمل فيها مما أدى إلى تطور اجتماعى خطير<sup>(٣)</sup>.

ثم إن هذه الصحوة الكبرى التى تعرض لها المجتمع الأوربى منذ القرن الحادى عشر كان لها أيضاً مظهرها الواضح فى مجال الدين. ذلك أن

(1) Archer : The Crusades, p. 14.

(٢) سعيد عاشور : النهضة الأوربية ص ١١١ — ١١٢

(٣) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ٢ ص ٩٢ وما بعدها.

الكنيسة تعرضت عندئذ لحركة إصلاح شاملة تعرف باسم الحركة الكلوونية . وقد بدأت هذه الحركة بقصد إصلاح الحياة الديرية في القرن العاشر ، ولكن لم يلبث أن اتسع نطاقها في القرن الحادى عشر حتى أصبح هدفها الرئيسى إصلاح الكنيسة بوجه عام وعلاج الأمراض الخطيرة التى شكت منها الكنيسة عندئذ ، وأهمها السيمونية وزواج رجال الدين والتقليد العلمانى<sup>(١)</sup> . وإذا كانت الكنيسة قد أفلحت فى علاج السيمونية وزواج رجال الدين داخليا عن طريق عدة مجامع عقدت فى القرن الحادى عشر ، فإن السعى لحل مشكلة التقليد العلمانى أوقع الكنيسة فى صراع عنيف مع السلطة العلمانية ، وهو الصراع الذى نطلق عليه النزاع بين البابوية والإمبراطورية فى العصور الوسطى<sup>(٢)</sup> . وقد بدأت أولى حلقات هذا النزاع سنة ١٠٧٦ — أى قبل الحملة الصليبية الأولى بنحو عشرين عاماً — واستمر بعد ذلك سنوات طويلة ؛ وفيه جشدت كل من البابوية والإمبراطورية جميع قواها وإمكاناتها للتغلب على الطرف الآخر .

وخلاصة القول أن النهضة التى بدأت مظاهرها فى غرب أوروبا فى القرن الحادى عشر أمدت الغربيين بطاقة هائلة وأمدت الكنيسة بقوة جبارة كان لابد من استنفادها . ولعل هذا مما دفع بعض المؤرخين إلى القول بأن النزاع بين البابوية والإمبراطورية إنما جاء وسيلة لاستنفاد الطاقة التى تزود بها المجتمع الغربى منذ القرن الحادى عشر . على أنه كان من المتعذر أن تستنفد هذه الطاقة كلها محليا وفى صراع داخلى ، وصار لابد من البحث عن منفس خارجى لتوجيه قدر من تلك الطاقة إليه . وعندئذ ظهرت فكرة الحرب

(١) Thompson : The Middle Ages, vol. I, pp. 427--428.

(٢) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ١ ص ٣٤٥ وما بعدها .

الصليبية لتهيء للغرب الأوربي ميدانا واسعا يستغل فيه نشاطه المكبوت  
وحماسته المنطلقة .

### ماهية الحركة الصليبية :

ولعل السؤال الذى يواجهنا بعد ذلك هو : ما المقصود بالحركة الصليبية ؟  
الواقع إن الإجابة على هذا السؤال تعددت بتعدد النوافذ التى أطل منها المؤرخون  
على الموضوع ، فهناك من المؤرخين من نظر إلى الحروب الصليبية على أنها حلقة  
من حلقات الصراع بين الشرق والغرب ، وهو الصراع التتليدى القديم الذى  
ظهر بوضوح فى النزاع بين الفرس واليونانيين ثم بين الفرس والروم . ومن الواضح  
أن هذا الصراع القديم بين الشرق والغرب لا يمكن ربطه بأى عامل دينى ،  
حيث أنه دار فى عصور كان الشرق والغرب جميعاً وثنيين ؛ وربما بدا من  
الأرجح ربطه بالعامل الحضارى بوصفه صراعا بين حضارتين مختلفتين وعتلتين  
متباينتين وأسلوبين فى الحياة متباعدين . ويرى أنصار هذا الرأى أن الصراع  
بين الشرق والغرب ظل كالبركان يهدأ حيناً ويشور أحياناً ، حتى كانت نهاية القرن  
الحادى عشر فاشتد غلماؤه وثورانه ، وعندئذ وجد منفساً فى الحرب الصليبية .  
وزاد من حدة ثوران البركان فى تلك المرة أنه وجد سبباً جديداً قويا للخلاف  
بين الشرق والغرب ، هو الخلاف الدينى بين الإسلام والمسيحية .

وهناك فريق آخر من المؤرخين رأى أن الحركة الصليبية وما ارتبط بها من  
محاولات كبرى ومشاريع عديدة لغزو الوطن العربى — وبخاصة فى الشرق  
الأدنى — ليست فى حتمية أمرها إلا الحلقة الأخيرة فى سلسلة الهجرات الكبرى التى  
صحبت سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية<sup>(١)</sup> . ذلك أن سقوط تلك الإمبراطورية

(١) King : The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 15.

سنة ٤٧٦ أعقبت موجات من الهجرات التي قام بها المواطنون في بلاد الإمبراطورية الغربية . وقد تفاوتت هذه الهجرات في مداها الزماني وفي اتجاهاتها وأثرها ، ولكنها كلها أتت نتيجة الشعور بالفرز والقلق الذي نجم عن سقوط الإمبراطورية ، ودخول عناصر جديدة من الجرمان داخل أراضيها . وكان الناس في غرب أوروبا في العصور الوسطى يتصورون الإمبراطورية في صورة دعامة كبرى لا بد للعالم منها ولا حياة لهم بدونها ، لأنها تعنى الاستقرار والنظام والأمن والحضارة . وفي ضوء هذه العقيدة يمكننا أن نفسر شعور الفرز والرعب والقلق الذي انتاب الناس عندما سقطت الإمبراطورية في الغرب ، إذا رأوا في ذلك نذيراً بنهاية العالم وفنائه ، وظنوا أن الساعة لا بد وأن اقتربت . وبالإضافة إلى ذلك فإنه يلاحظ أن سقوط الإمبراطورية الغربية جاء مصحوباً بتدفق جموع الجرمان وقبائلهم داخل أراضي الإمبراطورية ، الأمر الذي ترتب عليه زعزعة أركان المجتمع الروماني القديم وقيام مجتمع جديد هو خليط من الرومان والجرمان . ولم يلبث الجرمان أن إعتنقوا المسيحية ، فأمدوا العالم الروماني بروح جديدة وحيوية دافقة ظهر أثرها في كثير من الهجرات التي اتجهت إلى شمال أفريقيا ، وإنجلترا وصقلية وجنوب إيطاليا . وينادي بعض الباحثين بأن الحركة الصليبية في حداثتها ليست إلا الحلقة الأخيرة في سلسلة الهجرات التي أعقبت سقوط الإمبراطورية الغربية في القرن الخامس .

وهناك فريق ثالث من المؤرخين يرى أن الحركة الصليبية ليست إلا إنطلاقة كبرى *decumanus fluctus* نتجت عن عملية الإحياء الديني التي بدأت في غرب أوروبا في القرن العاشر والتي بلغت أشدها في القرن الحادي عشر ، كما سبق أن أشرنا . ذلك أن حركة الإصلاح الكلوونية كانت في حقيقة أمرها حركة إحياء ديني بكل معاني الكلمة ، ترتب عليها عودة البابوية إلى سطوتها القديمة السابقة ، وتحقيق نوع من الإشراف المركزي الدقيق على كافة الكنائس الغربية ، وتقوية

الجهاز الكنسى وتدعيمه ، وربط أطرافه بالمركز الرئيسى فى روما ، ثم إثارة نوع من الحماسة الدينية بوجه عام فى الغرب الأوروبى . ومهما يكن من أسباب الحرب بين البابوية والإمبراطورية ، وعنف تلك الحرب ، فإن الاتجاه المتزن نادى دائماً بالألّا يحارب الأخأه . ولذلك ظهر شعور قوى فى القرن الحادى عشر بالرغبة فى العثور على منفس خارجى تستهلك فيه تلك الطاقة الهائلة التى نجمت عن حركة الإحياء الدينى فى غرب أوروبا فى القرنين العاشر والحادى عشر . وإذا كان الغربيون قد عرفوا الحج وزيارته الأماكن المقدسة بالشام منذ القرنين الرابع والخامس ، إلا أن مشاريع الحج ظلت فردية ، وإذا خرجت جماعة من غرب أوروبا للحج فإن عدد أفرادها كان لا يتجاوز غالباً أصابع اليد الواحدة<sup>(١)</sup> . أما القرن الحادى عشر فقد عرف لأول مرة ظاهرة الحج بالجملة « en masse » ، فكان يخرج للحج بضعة مئات تحت زعامة أسقف أو نبيل ، ويتجهون سوياً من غرب أوروبا فى صورة مظاهرة دينية سلمية قاصدين الأراضى المقدسة بالشام<sup>(٢)</sup> . ومن أبرز هذه الجماعات الكبرى ، تلك التى خرجت من نور منديا سنة ١٠٦٤ بزعامة رئيس أساقفة مينز ، ثم تلك التى خرجت بزعامة روبرت الأول أمير فلاندرز سنة ١٠٨٩<sup>(٣)</sup> .

ويرى هذا الفريق من المؤرخين أن الحروب الصليبية التى بدأت الدعوة لها سنة ١٠٩٥ ليست إلا استمراراً لحركة الحج الجماعى إلى بيت المقدس ، مع حدوث تطور فى الأسلوب ، وهو أن الحج الجماعى صار حربياً بعد أن كان سلمياً . ويدلل أصحاب هذه النظرية على رأيهم بأنه إذا كان عدد الحجاج الذين خرجوا سنة ١٠٦٤ مع رئيس أساقفة مينز قد بلغوا سبعة آلاف حملوا معهم بعض الأسلحة

(1) Iogra : Hist. des Croisades, pp. 3 - 11.

(2) setton : A Hist. of the Crusades, vol 1. p. 76.

(3) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 269,

للدفاع عن أرواحهم في الطريق ، فهل هناك فارق بين ذلك الموكب وأية حملة صليبية تالية سوى في الأسلوب الذي اتبعه كل فريق في بلاد الشام ؟ أما ذلك التطور في الأسلوب، فمرجه تلك الأخبار التي أخذت تصل إلى الغرب الأوربي عن سوء معاملة الحجاج المسيحيين بعد استيلاء السلاجقة على بيت المقدس سنة ١٠٧١م استيلاهم على أنطاكية سنة ١٠٨٥ وطرده البيزنطيين منها ، مما جعل الغرب يؤمن بأنه لا بد من استخدام القوة لتأمين عملية الحج إلى الشام<sup>(١)</sup> .

وأخيراً فلئن هناك رأى رابع أخذ به بعض الباحثين ، ورأى في الحروب الصليبية الوسيلة التي تتحارب بها الغرب الأوربي للخروج من أوضاع العصور الوسطى والانطلاق إلى حياة أوسع أفقاً . ذلك أن الغربيين ظلوا طوال العصور الوسطى يعيشون داخل دائرة معينة حددت أفقها الكنيسة تحديداً ضيقاً . وكان كل من يحاول الخروج عن هذه الدائرة يتعرض لعضب الكنيسة وطرده من رحمتها ، وبئس المصير . على أن الاتصالات التي تمت بين الغرب الأوربي والمسلمين — سواء المسلمين في الأندلس أو في المشرق — أظهرت للأوربيين أن الحياة أوسع أفقاً مما يظنون ، فأخذت نسبة كبيرة من الناس في غرب أوربا تشعر بضيق الحياة وشدة وطأة الكنيسة ورجاها . وهكذا جاءت بشائر النهضة الأوربية الوسيطة في القرن الحادى عشر مصحوبة برغبة الناس في التخلص من القيود المفروضة عليهم وتطلعهم إلى حياة أفضل . وكان من المتعذر في الظروف التي أحاطت بالناس في غرب أوربا في ذلك الوقت تحقيق أمنيتهم إلا بالمشاركة في حركة ضخمة — مثل الحركة الصليبية — تدعو لها البابوية وتؤيدها الكنيسة ، وفي الوقت نفسه تمكّنهم من الخروج إلى أرض الله الواسعة للوصول إلى حياة دينوية أفضل . وبعبارة أخرى

---

(1) Setton : op. cit., vol. I, p. 78.



تقد كانت الحروب الصليبية خير فرصة أتاحت للغربيين للجمع بين الخلاص في الدنيا والثواب في الآخرة .

هذه هي أهم النوافذ التي أطل منها الباحثون على الحروب الصليبية. ونستطيع نحن في ضوء الآراء السائدة وغيرها أن نعرف الحركة الصليبية بأنها :

« حركة كبرى نبعت من الغرب الأوربي للسيحي في العصور الوسطى ، واتخذت شكل هجوم حربي استعماري على بلاد المسلمين وبخاصة في الشرق الأدنى بتصد امتلاكها . وقد انبعثت هذه الحركة عن الأوضاع الفكرية والإجتماعية والإقتصادية والدينية التي سادت غرب أوربا في القرن الحادى عشر ، واتخذت من استغاثة المسيحيين في الشرق ضد المسلمين ستاراً دينياً للتعبير عن نفسها تصيراً عملياً واسع النطاق » .

#### أدوار الحركة الصليبية ومداهما الزمنى :

جرى الوضع في كتب التاريخ على تحديد المدى الزمنى للحركة الصليبية بين سنتى ١٠٩٥ ، ١٢٩١ . ولكن هذا التحديد في الواقع لايعنى سوى الدور الحاسم التقليدى في تلك الحركة ، وهو الدور الواقع بين الدعوة للحملة الصليبية الأولى وطرد الصليبيين نهائياً من بلاد الشام . وسنرى أن الحركة الصليبية بمعناها الواسع لها جذور ومقدمات سبقت سنة ١٠٩٥ زمنياً ، كما أن التيار الصليبي استمر بعد سقوط عكا سنة ١٢٩١ ، الأمر الذى ترتب عليه عدم توقف الحرب الصليبية طوال القرن الرابع عشر وشرط كبير من القرن الخامس عشر . ومن هذا يبدو أن تحديد المدى الزمنى للحركة الصليبية بين سنتى ١٠٩٥ ، ١٢٩١ إنما هو تحديد خاطئ لايقوم على أساس سليم ولايعتمد على دراسة الحركة الصليبية دراسة شاملة ، وإنما يكتفى بعلاج مبتور يشمل جزءاً من تلك الحركة ، لايعبر عن جذورها وأصولها من ناحية ولاعن ذيلها وبقاياها من ناحية أخرى .

ومن ناحية أخرى يلاحظ عدم صحة ماجرى العرف عليه من تحديد عدد الحملات الصليبية التي خرجت من الغرب إلى الشرق في المدة الواقعة بين نهاية القرن الحادى عشر ونهاية القرن الثالث عشر بثمان حملات . والواقع أنه غير معروف بالضبط لماذا فازت بعض الحملات بترقيم عددى في التاريخ دون البعض الآخر . فنجد وصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشام سنة ١٠٩٧ ، لم يرمع واحد دون مجيء جموع صليبية جديدة ، وبعض هذه الجموع فاقت في كثرة أعدادها وفي أهمية مآحقته من نجاح الحملات الصليبية المألوفة التي فازت بأرقام في التاريخ ، ومع ذلك فإن معظم هذه الجموع أو الحملات لم تمنح أرقاماً تضفى عليها قسطاً من الأهمية في التاريخ .<sup>(١)</sup>

أما الحملات الثمان التي فازت بأرقام عديدة ميزتها في التاريخ ، فقد أجهت أربع منها نحو الشام ( الأولى والثانية والثالثة والسادسة ) واثنان ضد مصر ( الخامسة والسابعة ) وواحدة ضد القسطنطينية ( الرابعة ) ، وأخرى نزلت بشمال افريقية ( الثامنة ) . ولا يعرف على وجه التحديد السبب في تمييز هذه الحملات بإعطائها أرقاماً عديدة دون غيرها من الحملات ، وإن كان يبدو أن السرفى هذا التمييز إنما يرجع إلى ما حصلت عليه من شهرة بسبب مآحقته من نجاح في الأراضى المقدسة ( مثل الحملة الأولى ) أو ما كان لها من اتجاه خاص جديد غير مألوف في غيرها من الحملات الصليبية ( الرابعة والخامسة )؛ أو لخروجها تحت زعامة كبار ملوك الغرب ( الثانية والثالثة والسادسة والسابعة والثامنة ) .

(1) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 3.

## الفصل الثاني

### بواعث الحركة الصليبية

يتضح من تعريفنا للحركة الصليبية أن هذه الحركة دفعتها بواعث حقيقية وأسباب قوية ، انبعثت من صميم المجتمع الأوربي الغربي . حقيقة إن الأباطرة البيزنطيين عندما تعرضوا لضغط السلاجقة وغزوم لأراضي الإمبراطورية استعانوا بالبابوية وطلبوا النجدة العاجلة من الغرب الأوربي ؛ ولكن لو لم يكن لدى الغرب عندئذ أسباب قوية جعلته يتحرك لسا لبى نداء الاستغاثة ولما استجاب لدعوة الامبراطورية البيزنطية في تلك السرعة والقوة .

وسنحاول في هذا الفصل أن نلقى نظرة سريعة على البواعث التي أدت بغرب أوروبا إلى القيام بحركة من أهم الحركات في تاريخ البشرية بوجه عام ، وفي تاريخ العصور الوسطى على وجه التحديد .

#### الباعث الديني :

اعتاد مؤرخو المدرسة القديمة أن ينظروا إلى الحروب الصليبية من زاوية واحدة هي زاوية الدين ، وأن يعالجوها علاجاً مبتوراً في ضوء العامل الديني وحده ؛ متجاهلين ما فاضت به الحركة الصليبية من بواعث سياسية واقتصادية واجتماعية وحضارية . من ذلك أن ريان Riant عرف الحروب الصليبية بأنها « حروب دينية استهدفت عن طريق مباشر أو غير مباشر الاستيلاء على الأراضي المقدسة بالشام » .<sup>(1)</sup>

(1) Archives de l'Orient Latin, I, ps. 2, 22,

حقيقة إن الحركة الصليبية لها في اسمها وطريقة الدعوة لها والروح التي  
كيفت بعض أحداثها ما يجعل الصفة الدينية واضحة فيها ؛ ولكن ليس معنى  
هذا أن التيار الديني هو المسئول الوحيد عند إثارة تلك الحركة والقوة الوحيدة  
الموجهة لها . وإن المدقق في تاريخ الحروب الصليبية ليستري نظره أن الروح  
الصليبية ذاتها كثيراً ما فترت في بعض حلقاتها ، وأن الباعث الديني كثيراً  
ما ذاب وسط التيارات السياسية والاقتصادية بوجه خاص <sup>(١)</sup> .

وللوقوف على قيمة الباعث الديني في الحركة الصليبية يجدر بنا أن نتأمل  
أوضاع الحياة في الغرب الأوربي في العصور الوسطى ، وما اعترى تلك الأوضاع  
من تطورات حتى أواخر القرن الحادى عشر ، وذلك حتى لا ننزلق في الطريق  
نفسه الذى انزلق فيه كثير من المؤرخين السابقين ؛ وهم الذين اعتادوا أن  
يستفتحوا كلامهم عن الحروب الصليبية بالمبالغة في سوء أحوال المسيحيين في  
البلاد الإسلامية في العصور الوسطى وما تعرضوا له من اضطهادات وحشية ،  
وكيف أن كنائسهم خربت، وأديرتهم أغلقت، وطقوسهم عطلت . . . فضلاً  
عما لاقاه حجاج بيت المقدس المسيحيين من عقبات، وما تعرضوا له من معاملة  
سيئة من حكام البلاد الإسلامية التي مروا بها .

ومن الواضح أن هذا المدخل للحروب الصليبية مدخل مضلل بعيد عن  
الحقيقة والتاريخ ، ليس فقط بسبب ما يشتمل عليه من مبالغات معظمها  
لا أساس له من الصحة ؛ بل أيضاً لأن الدخول إلى تاريخ الحركة الصليبية  
من هذا الباب الوهمى كفيلاً بأن يصرف الباحث عن المدخل الحقيقي للموضوع .  
فالقول بأن الحروب الصليبية أتت رد فعل للاضطهاد الذى تعرض له المسيحيون -  
الشرقيون والغربيون - في البلدان الإسلامية، إنما هو إدعاء باطل لا يتفق وروح

(1) Iorga : Breve Hist. des Croisades pp. 1-2.

الإسلام وطبيعة الدعوة إليه ، وما أحاط به القرآن أهل الكتاب من رعاية وعناية ، وما أمر الله به محمداً عليه الصلاة والسلام من دعوتهم إلى دينه بالحكمة والموعظة الحسنة « فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنا ما عليكم البلاغ ، والله بصير بالعباد <sup>(١)</sup> » .

ويثبت التاريخ أن المسيحيين عاشوا دائماً في كنف الدولة الإسلامية عيشة هادئة هانئة ، تشهد عليها الرسالة التي بعث بها ثيودسيوس بطريرك بيت المقدس سنة ٨٦٩ إلى زميله إجناتيوس بطريرك القسطنطينية ، والتي امتدح فيها المسلمين وأثنى على قلوبهم الرحيمة وتسامحهم المطلق ، حتى أنهم سمحوا للمسيحيين ببناء مزيد من الكنائس دون أى تدخل في شئونهم الخاصة . وذكر بطريرك بيت المقدس بالحرف الواحد في رسالته : « إن المسلمين قوم عادلون ، ونحن لانلقى منهم أى أذى أو تعنت <sup>(٢)</sup> حقيقة إن التاريخ يشير إلى تعرض المسيحيين أحياناً في بعض البلدان الإسلامية لنوع من الضغط أو الاضطهاد ، ولكن هذه حالات فردية . شذت عن القاعدة العامة التي حرص الإسلام دائماً عليها ، وهي التسامح المطلق مع أهل الكتاب . وإذا كان بعض المؤلّفين الأوروبيين قد تمسكوا بهذه الحالات الفردية وأرادوا أن يتخذوها دليلاً على تعسف حكام المسلمين مع المسيحيين في عصر الحروب الصليبية ، فإلّا هؤلاء الكتاب نسوا أو تناسوا ما صاحب إنتشار المسيحية ذاتها من اضطهادات ومجازر بدأت منذ القرن الرابع للميلاد واستمرت حتى نهاية العصور الوسطى . وحسبنا ما قام به خلفاء الإمبراطور قسطنطين الأول من اضطهادات لإرغام غير المسيحيين على إعتناق المسيحية ، وما قام به شارلمان في القرن الثامن من فرض المسيحية

(١) « وإن الذين أورتوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب . فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم ؛ وقل آمنتم بما أنزل الله من كتاب . وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم . لا حجة بيننا وبينكم ؛ الله يجمع بيننا وإليه المصير . » .  
(سورة الشورى ١٤ ، ١٥)

(2) Thompson: Economic and Social Hist. vol. 1, p. 385.

على السكسون والبافارين والآفار بحد السيف، حتى أنه قتل من السكسون وخدمهم في مذبحه فردن الشهيرة أكثر أربعة آلاف فرد جملة واحدة؛ وما ارتكبه الفرسان التيتون وفرسان منظمة السيف من وحشية وقسوة بالغة في محاولتهم نشر المسيحية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر بين البروسيين والتوانيين وغيرهم من الشعوب السلافية قرب شاطئ البحر البلطي<sup>(١)</sup>. هذا كله فضلاً عما أتاه المبشرون الجزويت في القرن السابع عشر من عنف لنشر المسيحية في الهند<sup>(٢)</sup>.

ويضيف أحد كبار المؤرخين الأوربيين إن حالات الاضطهاد الفردية التي تعرض لها المسيحيون في البلدان الإسلامية في الشرق الأدنى في القرن العاشر بالذات لا يصح أن تتخذ بأي حال سبباً حقيقياً للحركة الصليبية، لأن المسيحيين بوجه عام تمتعوا بقسط وافر من الحرية الدينية وغير الدينية في ظل الحكم الإسلامي، فلم يسمح لهم فقط بالاحتفاظ بكنائسهم القديمة، وإنما سمح لهم أيضاً بقتييد كنائس وأديرة جديدة جمعوا في مكنتبآها كتباً دنية متنوعة في اللآهوت<sup>(٣)</sup>. ومن الواضح أن مثل هذه الروح السامية التي عومل بها المسيحيون في البلدان الإسلامية لا ينتقص من قدرها إطلاقاً ما قام به رجل عرف بشذوذه — مثل الخليفة الحاكم بأمر الله — من تصرفات تجاه أهل الذمة. ولم يكده الحاكم يموت سنة ١٠٢١ إلا وعاد المسيحيون في مصر والشام يحظون بما ألفوه دائماً من رحابة صدر الإسلام والمسلمين، كما عقد الصلح بين الدولتين الفاطمية والبيزنطية، وصار البيزنطيون يشرفون على كنيسة التيامة في بيت المقدس، ثم وفد الحجاج كعادتهم يزورون الأماكن المقدسة في أمن وسلام<sup>(٤)</sup>.

(١) سعيد عاشور: أوربا المصور الوسطى ج ١ ص ٣٩، ١٩٤، ٦٤٣، ٦٤٩.

(٢) توماس أربولد: الدعوة إلى الإسلام ص ٣١.

(3) Vasiliev: Byzantine Empire, I, p. 393.

(4) Setton. op. cit, vol. I, p. 74.

وإذا كان دعاة الحروب الصليبية في أواخر القرن الحادى عشر قد دأبوا على الدعاية لحركتهم في غرب أوروبا عن طريق المناداة بأن أحوال المسيحيين في آسيا الصغرى والشام قد ساءت تحت حكم السلاجقة ، فإن هناك أكثر من مؤرخ أوروبى مسيحي منصف قرروا في صراحة تامة أن السلاجقة لم يغيروا شيئاً من أوضاع المسيحيين في الشرق ، وأن المسيحيين الذين خضعوا لحكم السلاجقة صاروا أسعد حالاً من إخوانهم الذين عاشوا في قلب الإمبراطورية البيزنطية ذاتها؛ « وأن ما اعترى المسيحيين في الشام وآسيا الصغرى من متاعب في ذلك العصر ، إنما كان مرده الصراع بين السلاجقة والبيزنطيين لأنه لا يوجد أى دليل على قيام السلاجقة باضطهاد المسيحيين الخاضعين لهم <sup>(١)</sup> » .

ولكن هل معنى كل ذلك أن الباعث الدينى ليس له أى أثر في تحريك الحروب الصليبية؟ وهل يفهم من كلامى السابق أن العامل الدينى يصح إهماله تماماً عند الكلام عن القوى التي وجهت الحركة الصليبية منذ القرن الحادى عشر؟  
الواقع أننى لم أقصد ذلك مطلقاً وإنما أردت أن أصحح اعتبارين طالما وقع فيهما كثيرون عندهم معالجة موضوع الحركة الصليبية . أما الإعتبار الأول فهو أنه ليس من الصواب إطلاقاً القول بأن هناك اضطهاد فريد في نوعه حل بالمسيحيين في البلدان الإسلامية في الشرق الأدنى في القرن الحادى عشر مما يصح أن يكون سبباً لا ستثارة الغرب الأوروبى . وإذا كان بعض دعاة الحملة الصليبية الأولى - وعلى رأسهم البابا أوربان الثانى نفسه - قد استغلوا فكرة الاضطهاد هذه للاستهلاك المحلى في الدعاية لمشروعهم في غرب أوروبا ، فإن عامة الناس في مختلف بلدان الغرب الأوروبى لم يكن يهمهم كثيراً أمر إخوانهم المسيحيين الشرقيين في البلدان الإسلامية . والاعتبار الثانى هو أنه لا صحة إطلاقاً للفكرة الخيالية

(1) Thompson : Economic and Social History of the Middle Ages, vol. I; p. 391.

التي ظلت سائدة أمدا طويلا والتي صورت الصليبيين الذين أخذوا يفدون من غرب أوروبا إلى الشرق الأدنى منذ نهاية القرن الحادى عشر فى صورة المسيحيين المخلصين، الذين جرفهم شعور التقوى والورع إلى هجرة الوطن والأهل والأحباب فى سبيل تحقيق رسالة دينية سامية ، وأنهم أعرضوا عن الدنيا ومتاعها من أجل غرض واحد هو خدمة الصليب والاستشهاد فى سبيله .

حقيقة إن العصور الوسطى فى الغرب الأوروبى عرفت فى التاريخ باسم «عصور الإيمان» ، وحقيقة إننا نسمع الكثير عن سلطان الكنيسة ورجالها على قلوب الناس فى غرب أوروبا فى تلك العصور ؛ وحقيقة إن التاريخ يثبت أن الكنيسة الغربية ممثلة فى شخص زعيمها البابا هى التي دعت للحرب الصليبية سنة ١٠٩٥، وأن هذه الدعوة ترتب عليها ما حدث من خروج الناس أفواجا فى شكل حملات صليبية ضخمة متلاحقة إلى الشرق الأدنى . ولكن فكرة شن حرب دينية على المسلمين واستخلاص الأراضى المقدسة منهم لم تكن الباعث الأول الذى دفع البابوية إلى القيام بتلك الدعوة ، ودفع جموع الناس - من أمراء وعامة - إلى تلبية نداء البابا فى سهولة ويسر، والخروج أفواجا من غرب أوروبا قاصدين الشرق الأدنى .

أما عن البابوية فكانت قد بلغت فى القرن الحادى عشر درجة خطيرة من القوة واتساع النفوذ، ما فتح أمامها آفاقا واسعة لتجعل سلطانها عالمية ، بمعنى أن يكون البابا - بوصفه خليفة المسيح والتدريس بطرس - الزعيم الروحي لجميع المسيحيين فى الشرق والغرب<sup>(١)</sup> . والمعروف أن البابوية ظلت دائما ترغب فى إخضاع الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية لزعامتها ، ولكن النزاع الذى استحكمت حلقاته بين الأباطرة البيزنطيين من ناحية والبابوية من ناحية أخرى، جعل من

(١) Vasiliev ; op. cit, II. p. 397



المتعذر حتى ذلك الوقت التيام بمحاولة جدية لتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية، وإزالة ما بينهما من شقاق<sup>(١)</sup> : وأخيرا جاء استنجد الأباطرة البيزنطيين بالغرب الأوربي ضد السلاجقة في القرن الحادى عشر ليتيح فرصة ذهبية للبابا للظهور فى صورة الزعيم الأوحى للشعب المسيحى كافة فى صراعه ضد المسلمين ، ولحاولة إدماج الكنيسة الشرقية فى الكنيسة الغربية تحت زعامة خليفة القديس بطرس ، على أن يتم ذلك كله تحت ستار محاربة المسلمين وحماية البيزنطيين واسترداد الأراضى المقدسة فى فلسطين<sup>(٢)</sup> .

هذا عن البابوية ، أما عن جمهرة الصليبيين الذين استجابوا لنداء البابوية وخرجوا قاصدين الشرق الأدنى ، فلم يكن الهدف الدينى هو الباعث الرئيسى الذى دفع الغالبية العظمى منهم إلى المشاركة فى الحركة الصليبية . وقد اعترف كثير من اللؤرخين الأوربيين الذين عالجوا هذا الموضوع بأن غالبية الصليبيين الغربيين النأين أسهموا فى الحركة الصليبية تركوا بلادهم إما بدافع الفضول أو لتحقيق أطماع سياسية ، وإما للخلاص من حياة الفقر التى كانوا يقيمونها فى بلادهم فى ظل النظام الإقطاعى ، وإما للتهرب من ديونهم الثقيلة أو محاولة تأجيل سدادها ، وإما فرارا من العقوبات المفروضة على المذنبين منهم ، وإما لتحقيق مكاسب سياسية واقتصادية فى بلاد الشرق<sup>(٣)</sup> . وأى وازع دينى كان عند ألوف الصليبيين الذين شاركوا فى الحملة الصليبية الرابعة ، والذين اتجهوا نحو القسطنطينية — وهو البلد المسيحى الكبير — لينهبوا كنائسها ، ويسرقوا أديرتها ويعتدوا على أهلها بالقتل والضرب وهم جميعاً إخوانهم فى الدين ؟؟ وهكذا يبدو أنه إذا أردنا أن

(١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ١٥٢-١٥٦ ، ٤٣٦-٤٣٧ .

(2) Ostrogorsky : Hist. of Byzantine State, p. 320.

(2) Thompson : op. cit., vol. I, p. 302

(٣٤ - المربوط الصلبي)

نعرف الأسباب الحقيقية للحركة الصليبية ، فعلمنا بالبحث في الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية في غرب أوروبا في القرن الحادى عشر .

### المبحث الاقتصادى

أثبتت الأبحاث الحديثة قوة العامل الاقتصادى وأهميته فى تحريك كثير من المهجرات والحروب الهامة فى التاريخ . ونحن مع اعترافنا بوجود بواعث عديدة للحركة الصليبية ، نميل إلى تأكيد أهمية العامل الاقتصادى بالذات فى تلك الحركة .

ذلك أن جميع الوثائق المعاصرة تشير إلى سوء الأحوال الاقتصادية فى غرب أوروبا — وبخاصة فرنسا — فى أواخر القرن الحادى عشر . فالمؤرخ المعاصر جيوبرت نوجنت Guibert Nogent يؤكد أن فرنسا بالذات كانت تعاني مجاعة شاملة قبيل الدعوة للحملة الصليبية الأولى ، فنذر وجود الغلال وارتفعت أسعارها ارتفاعا فاحشا مما ترتب عليه حدوث أزمة فى الخبز . وفى ضوء هذه الحقيقة يمكننا أن نفسر لماذا كانت نسبة الصليبيين الفرنسيين المشتركين فى الحملة الصليبية الأولى أكبر من الوافدين من أى بلد آخر من بلدان غرب أوروبا .

ومهما يقال من أن هذه الأزمة كانت مفتعلة ، افتعلها التجار المستغلون — وجاهم من اليهود — فالذى يهمننا هو أنه كانت هناك أزمة اقتصادية فعلا فى الغرب الأوروبى عند الدعوة للحملة الصليبية الأولى ، وأن هذه الأزمة ألجأت الناس إلى أكل الأعشاب والحشائش<sup>(١)</sup> . وزاد من سوء الأحوال الاقتصادية فى الغرب الأوروبى فى ذلك الوقت كثرة الحروب المحلية بين الأمراء الإقطاعيين ، وهى الحروب التى لم تنجح الكنيسة أو الملوك فى وقفها ، مما أضر بالتجارة وطرقتها

(1) Thompson : op. cit., I. p. 392

والزراعة وحقولها أبلغ الضرر . وهكذا جاءت الحروب الصليبية لتفتح أمام أولئك الجوعى فى غرب أوروبا باباً جديداً للهجرة ، وطريقاً للخلاص من الأوضاع الاقتصادية الصعبة التى عاشوا فيها داخل أوطانهم .

ولم يكن عجباً أن ضمت الحملة الصليبية الأولى جموعاً غفيرة من المعدمين والفقراء والمساكين وطريدى القانون . وجميعهم كانوا يفكرون بوحى من بطونهم لا بوحى من دينهم ، بدليل ما أتوه طوال طريقهم إلى النمسطونية من أعمال العدوان والسلب والنهب ضد الشعوب المسيحية التى مروا بأراضيها ، مما يتعارض مع أى وازع دينى .

ثم إن الباحث فى تاريخ الحركة الصليبية يلحظ حماسة منتظمة النظير من جانب المدن التجارية — فى إيطاليا وغير إيطاليا من الغرب الأوروبى — للمساهمة فى تلك الحركة، سواء بعرض خدماتها لنقل الصليبيين عن طريق البحر إلى الشرق، أو فى نقل المؤن والأسلحة وكافة الإمدادات إلى الصليبيين بالشام ، أو مساعدة الصليبيين فى الاستيلاء على الموانئ البحرية ببلاد الشام، وتقديم المعونة البحرية للدفاع عن هذه الموانئ ضد هجمات الأساطيل الإسلامية . وهنا أيضاً نستطيع أن نقرر أن جمهوريات إيطاليا البحرية لم تكن مدفوعة إلى تقديم جميع تلك المساعدات للصليبيين بوازع دينى ، وإنما جرت وراء مصالحها الاقتصادية الخاصة، ورأت فى الحروب الصليبية فرصة طيبة يجب اقتناصها لتحقيق أكبر قسط من المكاسب الذاتية على حساب البابوية والكنيسة والصليبيين جميعاً<sup>(١)</sup> . وسنرى فى صفحات هذا الكتاب أن البندقية لم تتورع عن تضليل حملة صليبية كبرى ، فوجهتها نحو غزو النمسطونية — وهو البلد المسيحى الآمن — بدلا من أن تتركها لتسير

(١) Heyd : Hist du Commerce, I, pp. 131 - 133.

في طريقها الطبيعي المرسوم لها ضد المسلمين . وكان ذلك عندما رأَت البندقية أن مصالحها المادية الصرنة تتطلب مهاجمة القسطنطينية وليس غزو مصر .

والواقع إن الصليبيين بالشام كانوا لا يمكنهم الاستغناء عن مساعدة أساطيل « الثلاثة الكبار » — البندقية وجنو وبيزا — حيث أن هذه الأساطيل قامت بدور زمال في ربط بلاد الشام الصليبية بالغرب الأوربي . وإذا كانت هذه الجمهوريات الإيطالية قد قدمت المساعدة المطلوبة للصليبيين ، فإنها لم تفعل ذلك إكراماً للكنيسة وإبتغاء ارضاء الله ، وإنما مقابل معاهدات عقدتها مع القوى الصليبية بالشام وحصلت بمقتضاها على امتيازات اقتصادية هامة . ففي معظم موانئ الشام ومدنه الكبرى التي استولى عليها الصليبيون ، تمتعت المدن الإيطالية التجارية بإعفاءات خاصة ، فضلاً عن شارع وسوق وندق وحمام ونخبز خاص بتجار المدينة الإيطالية التي قدمت خدماتها لحاكم الإمارة الصليبية التي يتبعها الميناء . ولم تلبث مرساليا بجنوب فرنسا أن حذت حذو المدن الإيطالية فحصلت على امتيازات كبيرة لتجارها في تديد المدن الصليبية بالشام ، إذ منح الملك بلدوين الثاني ملك بيت المقدس تجار مرساليا حياً خاصاً بهم في مدينة القدس ذاتها سنة ١١١٧ ، ثم أعفاهم الملك فولك من الضرائب بعد ذلك ، حتى لجأ الملك بلدوين الثالث سنة ١١٥٢ إلى منحهم امتيازات وإعفاءات من الضرائب في كافة الموانئ الصليبية في فلسطين .

وهكذا اصطيفت الحركة الصليبية من أول أمرها بصبغة اقتصادية استغلالية واضحة . فكثير من المدن والجماعات والأفراد الذين أبدوا تلك الحركة وشاركوا فيها ونزحوا إلى الشرق ، لم يفعلوا ذلك نلدمة الصليب وحرب المسلمين ، وإنما جرياً وراء المال وجمع الثروات وإقامة مستعمرات ومراكز ثابتة لهم في قلب الوطن العربي ، بغية استغلال موارده والمتاجرة فيها ، والحصول على أكبر قدر ممكن من

الثروة . حقيقة أن الإستعمار بمعناه الحديث لم تتضح معالمه إلا بعد الإنقلاب الصناعي في القرن الثامن عشر ، ولكن ليس معنى ذلك أن العالم لم يعرف الاستعمار منذ أيام النينيتيين واليونانيين التدامى . وفي العمود الوسطى كانت الحروب الصليبية « أول تجربة في الاستعمار الغربي قامت بها الأمم الأوروبية خارج حدود بلادها لتحقيق مكاسب اقتصادية واسعة النطاق » ؛ وذلك على قول أحد المؤرخين المحدثين (١) .

وليس أدل على سيطرة النزعة الاستعمارية الاستغالية على عقول كثير من أسهموا في الحركة الصليبية مما نشأ من منازعات ومخاضات - بل حروب أهلية - بين الصليبيين بعضهم وبعض في بلاد الشام . وقد استمرت هذه الحروب وبخاصة بين الثلاثة الكبار - البندقية وجنوا وبيزا - في أشد الأوقات حرجا بالنسبة للصليبيين ؛ أي في النصف الأخير من القرن الثالث عشر عندما أخذت البتايا الصليبية بالشام تتساقط في أيدي المسلمين واحدة بعد أخرى .

وعبثا ذهبت صيحات العتلاء من البوابات ورجال الدين وملوك قبرص ليوحد الصليبيون صفوفهم أمام الخطر الذي يوشك أن يعصف بهم جميعاً ؛ فقد كانت المنافسات التجارية والخصومات المادية بين الصليبيين الاستعماريين بعضهم وبعض أعمق جذوراً وأقوى أثراً وأكثر نفعاً من شعور الولاء للدين والكنيسة .

### الباعث الاجتماعي :

تألف المجتمع الأوربي في العمود الوسطى من ثلاث طبقات : طبقة رجال الدين - من الكنسيين والديرين - ، وطبقة الحارثين - من النبلاء

(1) Thompson : Economic and Social Hist. , 1, p 397.

والفرسان — ، وطبقة الفلاحين من الأبقان ورقيق الأرض . وكانت الطبقتان الأولتان أقيامة تمثل في مجموعها الهيمنة الحاكمة من وجهة النظر السياسية والأرستقراطية السائدة من وجهة النظر الإجتماعية ، في حين ظلت طبقة الفلاحين تمثل الغالبية للغلبة على أمرها ، والتي كان على أفرادها أن يعملوا ويشقوا ليسدوا حاجة الطبقتين الأولتين (١) .

والواقع إن آلاف الفلاحين عاشوا في غرب أوروبا عيشة منحطة في ظل نظام الضيقة ، حيث شيدوا لأنفسهم أكواخاً قذرة من جذوع الأشجار وفروعها غطيت سقفها وأرضيتها بالطين والقش ، دون أن تكون لها نوافذ أو بداخلها أثاث ، عدا صندوق صغير من الخشب وبعض الأدوات الفخارية والمعدنية (٢) . وكان معظم أولئك الفلاحين من العبيد والأبقان الذين ارتبطوا ارتباطاً بالأرض التي يعملون عليها ، وقضوا حياتهم محرومين من أبسط مبادئ الحرية الشخصية ، فكل ما يجمعه القن يعتبر ملكاً خاصاً للسيد الإقطاعي لأن القن محروم ، حتى من الملكية الشخصية (٣) .

ثم إن أولئك الفلاحين عاشوا مثقلين بمجموعة ضخمة من الالتزامات والخدمات ، فكان عليهم أن يقدموا خدمات معينة للسيد الإقطاعي مثل فلاحه أرضه الخاصة ، فزراعن تسخيرهم في أعمال شاقة مثل إنشاء طريق أو حفر خندق أو إصلاح جسر . كذلك كان على الفلاحين دفع مقررات معينة مثل ضريبة الرأس التي يتعين على كل قن دفعها سنوياً رمزاً لعبوديته ، هذا عدا الضرائب المفروضة

---

(١) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ٢ ص ٦٣ .

(2) Boissonade : Life and Work in Med. Europe. p 85

(٣) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ٢ ص ٧٧ — ٧٩ .

على ماشيته وما تنتجه أرضه من خضروات<sup>(١)</sup>. فإذا أضفنا إلى ذلك الاحتكارات العديدة التي ألزم الفلاحون بقبولها ، أدركنا مدى الهوان والذلة التي عاشت فيها غالبية الشعب الأوربي<sup>٢</sup> القرن الحادى عشر . فالسيد الإقطاعى صاحب الضيعة هو الذى يمتلك طاحونة وفرنا ومعصرة بل أحيانا البئر الوحيد فى الضيعة. وفى هذه الحالة يصبح كل قن ملزما باحضار غلته إلى طاحونة السيد لطحنها، ويحمل خبزه إلى فرن السيد لطبخه ، وكرومه وزيتونه وتفاحه إلى معصرة السيد لعصرها ... كل ذلك مقابل أجور معينة يقدمها الأبقان والفلاحون لسيدهم الإقطاعى ، وهم صاغرون . فإذا امتلك فلاح طاحونة يدوية أو غير ذلك من الأجهزة التى من حق السيد الإقطاعى وحده أن يحتكرها ، صار ذلك جرما خطيرا يحاكم عليه<sup>(٢)</sup> .

وهكذا ظلت الغالبية العظمى من الناس فى غرب أوروبا يقيمون حياة شاقة مليئة بالذل والهوان. وكان ذلك فى الوقت الذى علت الدعوة للحرب الصليبية ، فوجدت تلك الألوف من البؤساء فى الغرب الأوربي<sup>٣</sup> فرصتها قد حانت للتخلص مما كانت ترسف فيه من ذل العيش ونكد الدنيا . ومهما يكن فى الدعوة الجديدة من أخطار ، فإن أخطارها هانت أمام الفاقة والهوان والذلة التى كتب على جمهرة العوام أن يعيشوا فيها فى غرب أوروبا دون أمل فى الخلاص . فإذا ماتوا فى تلك الحرب الصليبية الجديدة فإن الموت كان أحب إليهم من حياة الجوع والذل والعبودية . وإن وصلوا إلى الأراضى المقدسة سالمين فإن حياتهم الجديدة لن تكون بأى حال أسوأ من حياتهم التى يقيمونها فعلا فى بلادهم الأصلية .

---

(1) Heston ; Economic Hist, of Europe, p. 95

(2) Painter ; Med. Society, p: 51

ومن هذا يبدو جلياً أنه إذا كانت ألوف العامة من أهل غرب أوروبا قد أسهموا في الحركة الصليبية ، فإنما دفعتهم إلى ذلك عوامل اجتماعية واقتصادية هامة ، فوجدوا في تلك الحركة منفذاً إلى حياة أفضل . ونستطيع أن نقرر أنه لو تيسرت لتلك الجموع في بلادهم الأصلية حياة حرة وقدراً مناسباً من كرامة العيش ، لما غامروا بترك أوطانهم جرياً وراء وعود خيالية أسرفت الكنيسة في تقديمها .

### الباعث السياسي :

ولكن إذا كانت الفاقة والحرمان والذل والهوان هي التي دفعت الغالبية العظمى من الصليبيين إلى الترحيب بالدعوة الجديدة والمشاركة في الحركة الصليبية بحثاً عن حياة أفضل ، فما الدافع الذي دفع عدداً لا بأس به من ملوك أوروبا وأمراءها وفرسانها إلى المشاركة في تلك الحركة ؟ .

أما عن ملوك الغرب الذين شاركوا في الحروب الصليبية مثل فردريك بربروسا وريشةارد قلب الأسد وفيليب أوغسطس وفردريك الثاني ، فيثبت التاريخ أن معظمهم لم يخرج من بلاده لحرب المسلمين إلا تحت ضغط البابوية وإلحاحها ، بل تهديدها . وربما كان هذا الحكم بعيداً عن الصحة في حالة واحدة هي حالة لويس التاسع ملك فرنسا ، الذي اشتهر بورعه وتقواه وتدينه حتى لقبه معاصروه بالقدس ، والذي أراد أن يعبر عن حماسه الدينية تعبيراً عملياً بالمشاركة في الحركة الصليبية مشاركة فعالة . أما من عداه فإن تاريخ البابوية وتاريخ غرب أوروبا وتاريخ الحركة الصليبية يشهد على السفارات العديدة التي دأب البابوات على إرسالها بين حين وآخر إلى ملوك أوروبا يلحون عليهم في الخروج على رأس جيوشهم إلى الشرق لمحاربة المسلمين .



وإن من يدرس تاريخ الغرب الأوربي في تلك الفترة من العصور الوسطى يعرف جيداً مدى قوة البابوية وعظم سلطانها ، وأن ملكاً من ملوك الغرب كان لا يستطيع أن يعصى لها أمراً أو يرد لها طلباً ، وإلا تعرض للحرمان والطرده من الكنيسة ورحمتها ، فلا يستطيع الاحتفاظ بعرشه أو بولائه لشعبه . وأبرز مثل لدينا الامبراطور فردريك الثاني الذى أخذ البابوات واحداً بعد آخر يلحون عليه فى الخروج على رأس حملة صليبية إلى الشرق ضد المسلمين . ولم يجد الإمبراطور دافعاً يدفعه للتياح بتلك الخطوة فظل يماطل مرة بعد أخرى والبابوية تتوعد وتهدد حتى أصدرت ضده قرار الحرمان ؛ وعندئذ خرج الإمبراطور — مكرهاً لا بطل — على رأس فئة قليلة من رجاله قاصدا الشام ، وبادر بمجرد وصوله إلى الاتصال بالسلطان الكامل الأيوبي ليشرح له موقفه وأنه « ماله غرض فى القدس ولا غيره وإنما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج »<sup>(١)</sup> .

هذا عن الملوك ، أما الأمراء الذين أسهموا فى الحركة الصليبية ، فمعظمهم كان يجرى وراء أطاع سياسية لم يستطيعوا إخفاءها قبل وصولهم إلى الشام وبعد استتارهم فيه . والمعروف أن النظام الإقطاعى ارتبط دائماً بالأرض ، وبتدر ما يكون الإقطاع كبيراً والأرض واسعة بتدر ما تكون مكانة الأمير سامية فى المجتمع . وفى ظل هذا النظام كانت المشكلة الكبرى التى يمكن أن تواجه الأمير أو الفارس هي عدم وجود إقطاع أو أرض له ، مما يجعله عديم الأهمية مسلوب النفوذ . وقد أدت طبيعة النظام الإقطاعى فى الغرب الأوربي إلى وجود عدد كبير من الفرسان والأمراء بدون أرض ، لأنه من التواعد الأساسية فى هذا النظام أن الابن الأكبر وحده هو الذى يرث الإقطاع ، فإذا مات صاحب الإقطاع انتقل الإقطاع بأكمله إلى أكبر أبنائه<sup>(٢)</sup> . ومن الواضح أن هذا المبدأ يعنى بقاء

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٣٠ .

(٢) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ٢ ص ٤٩

بقية الأبناء بدون أرض ، وهو وضع ممقوت في المجتمع الإقطاعي ؛ الأمر الذي جعل الفرسان والأمراء المحرومين من الأرض يتحايلون للتغلب على هذه العقبة عن طريق الزواج من وريثة إقطاع أو الالتجاء إلى العدوان والحرب للحصول على إقطاع . وكان أن ظهرت الحركة الصليبية لتفتح باباً جديداً أمام ذلك النقر من الأمراء والفرسان المحرومين من الأرض في غرب أوروبا ، فلبوا نداء البابوية وأسرعوا إلى المساهمة في تلك الحركة لعلمهم ينجحون في تأسيس إمارات لأنفسهم في الشرق تعوضهم عما فاتهم في الغرب . حتى أولئك الأمراء الذين كانت لهم إقطاعاتهم وأراضيهم في بلادهم الأصلية ، وجدوا في المشاركة في الحركة الصليبية فرصة طيبة لتحقيق مجد أكبر والحصول على جاه أعظم .

ولأدل على تغلب النزعة السياسية عند الأمراء الغربيين الذين أسهموا في الحركة الصليبية من الخلافات التي كثيراً ما دبت بينهم وبين بعض ، مما أنزل بالغ الضرر بالصالح الصليبي . وسنرى بين صفحات هذا الكتاب كيف أن أمراء الحملة الصليبية الأولى أخذوا يقسمون الغنيمة وهم في طريقهم إلى الشام ، أي قبل أن يستولوا على الغنيمة فعلاً ، وكيف استحكمت النزاع فيما بينهم أمام أنطاكية من أجل رغبة كل منهم في الفوز بها ، وكيف أن من استطاع منهم أن يحقق لنفسه كسباً في الطريق قنع بذلك الكسب وتخلي من مشاركة إخوانه الصليبيين في الزحف على بيت المقدس ، وهو الهدف الأساسي للحملة . كذلك سنرى أن الصليبيين بعد أن استقروا في بلاد الشام كثيراً ما دب الخلاف فيما بينهم حول حكم إمارة أو القوز بمدينة . وعبثاً حاولت البابوية أن تتدخل لفض بعض تلك المشاكل وتذكر الأمراء الصليبيين بالشام أن المسلمين يحيطون بهم ، وأن الواجب يستدعي تضامتهم لدفع الخطر عن أنفسهم . ولكن تلك الصيحات ذهبت مع الريح لأن هدف الأمراء كان ذاتياً سياسياً ، ولم يكن يهمهم كثيراً رضا البابا أو سخطه . بل إن بعض الأمراء الصليبيين بالشام لم يحجموا - كما سنرى - عن





## اليابُ الثاني

### المسلمون والمسيحيون حتى نهاية القرن الحادي عشر

« لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود  
والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين  
قالوا إنا نصارى، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم  
لا يستكبرون .»

( المائدة ، ٨٢ )



## الفصل الأول

الأستاذة الدكتورة  
إبراهيم حسن

## الإسلام والمسيحية

### التوسع الروماني وأثره في العالم المسيحي

شهد القرن السادس للميلاد حدثاً خطيراً في تاريخ البشرية، هو مولد خاتم النبيين محمد عليه الصلاة والسلام، ثم بعثه للتبشير ببداية جديدة شعارها [ لا إله إلا الله — محمد رسول الله ] . ولم تلبث هذه الدعوة أن نجحت في وضع حد للفوضى الاجتماعية والسياسية التي عاش فيها عرب شبه الجزيرة قرونًا عديدة، فصاروا يخضعون جميعاً لحكومة واحدة ويدينون بدين واحد في أجو من الوئام والألفة .

ولكن الرسالة الحمديّة لم يقصد بها العرب وحدهم، لأن الله سبحانه وتعالى أرسل محمداً شاهداً ومبشراً ونذيراً ليهدى الناس كافة إلى الإسلام. ولذلك غدت مهمة الرسول بعد أن استقرت له الأمور في شبه الجزيرة العربية أن يدعو بتبوية الأمم لاعتناق الإسلام والإيمان برسالته . ويبدو أن بعض السفراء الذين أوفدهم النبي عليه الصلاة والسلام إلى ملوك الدول المجاورة وحكامها صادفوا إعراضاً وأذى مما جعل النبي يعد العدة للجهاد، وإن كانت موجة الفتوح العربية لم تشتد وتوسع إلا بعد وفاة النبي نفسه سنة ٦٣٢ (١) .

وكان أن أخذ العرب يهاجمون الفرس والروم في وقت واحد، وهم أصحاب أكبر امبراطوريتين شهدها التاريخ في ذلك الوقت . وإذا كان الاحتكاك بين

(١) حسن إبراهيم حسن : الإسلام السياسي ج ١ ص ٢٧٠ .

المسلمين والروم قد بدأ فعلا في بادية الشام سنة ٦٢٩. إلا أن الحرب بين الطرفين لم تتخذ طابعا جديا إلا في عهد الخليفة أبي بكر الذي عهد إلى أبي عبيدة الجراح بمحاربة الروم وغزو الشام سنة ٦٣٢. وقد حاول هرقل امبراطور الروم إرسال قوة بتميادة أخيه تيودور لإيقاد موقف الامبراطورية المتداعى في نلسطين، ولكن القائد العربي خالد بن الوليد - الذي كان يعمل ضد الفرس في العراق - أتى مسرعا مما أدى إلى إنزال هزيمة ساحقة بالتوات البيزنطية في موقعة أجنادين سنة ٦٣٤<sup>(١)</sup>.

وعندما توفي أبو بكر في السنة السابقة خلفه عمر (٦٣٤ - ٦٤٤) الذي اتسعت الفتوح الإسلامية في عهده، فاستولى المسلمون على دمشق سنة ٦٣٥ ثم على حمص بعد قليل. وهنا أدرك هرقل خطر تلك الحركة الجديدة، فحشد ثمانين ألفا من رجاله لقتال العرب. ولكن خالداً أنزل هزيمة جديدة بالجيوش البيزنطية عند اليرموك سنة ٦٣٦<sup>(٢)</sup>. وقد خيل لهرقل في تلك المرحلة أن يتولى قيادة الجيش البيزنطي بنفسه ضد المسلمين، ولكنه سرعان ما أحس بعجزه عن النهوض بذلك الحمل الشاق بعد أن جاوز الخمسين من عمره ودب الخور في جسده. وإذا كان هرقل قد قضى سنتي ٦٣٥، ٦٣٦ في جبهة الشام، إلا أنه أيقن صعوبة مقاومة العرب، فترك بيت المقدس تقع في أيديهم (٦٣٧ - ٦٣٨). ولم تلبث المدن والمعازل الهامة الموجودة في أطراف العراق والشام - مثل ماردين والرها وميافارقين - أن سقطت في قبضة العرب (٦٣٨ - ٦٣٩) ثم استولى العرب على قيصرية سنة ٦٤٠، وبذلك فقدت الدولة البيزنطية آخر معاقلها جنوبى طرسوس<sup>(٣)</sup>.

وبعد ذلك جاء دور مصر ففتحها عمرو بن العاص سنة ٦٤١. ويعتبر فتح مصر بالذات دليلا واضحا على مدى نجاح تلك القوة الجديدة، كما يتخذ برهاناً

(١) ابن الأثير: السكامل في التاريخ حوادث سنة ١٣ هـ.

(٢) الواقدي: فتوح الشام ج ١ ص ١٦٥.

(٣) Vasiliev: op. cit., 1. p. 211



قويًا على مدى ضعف الإمبراطورية البيزنطية وأنحلالها السياسي<sup>(١)</sup>. وبعد أن فتح العرب برقة سنة ٦٤٣ توقفت موجة الفتوح العربية قليلا بسبب ما قام في جوف الدولة الإسلامية الناشئة من فتنة انهمت بقيام الخلافة الأموية في دمشق سنة ٦٦٠، ومن ثم استأنف العرب فتوحاتهم بنفس القوة والنشاط. ثم أخذ العرب في فتح ولاية إفريقية سنة ٦٦٤، حيث أسس عقبة بن نافع مدينة القيروان لتخلف قرطاجة حاضرة البلاد «فدخل كثير من البربر في الإسلام واتسعت خطة المسلمين، وقوى جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان»<sup>(٢)</sup>. وكانت حروب المسلمين في إفريقية طويلة وشاقة، لأنهم لم يصطدموا هناك بقوة الجيوش البيزنطية فحسب، بل كان عليهم أيضاً إخضاع البربر المعروفين بقوة المراس. ومهما يكن من أمر فإن قرطاجة سقطت أخيراً في يد حسان بن النعمان سنة ٦٩٧؛ وإن كان نفوذ الخلافة الإسلامية لم يستقر تماماً في شمال إفريقية قبل سنة ٧٠٨ بفضل جهود موسى بن نصير. على أن المسلمين لم يقنعوا بفتح شمال إفريقية حتى المحيط الأطلسي، وإنما تمكنوا من الاستيلاء على سردينيا سنة ٧١١، كما عبر طارق بن زياد المضيق الذي عرف باسمه واستطاع فتح أسبانيا فيما بين سنتي ٧١١، ٧١٣<sup>(٣)</sup>. وبتفتح أسبانيا بدت خسارة الكنيسة المسيحية واضحة جلية، إذ فقدت بلاداً ارتبطت بها أصول المسيحية الأولى مثل بلاد الشام ومصر، فضلاً عن بلاد أخرى كانت بمثابة أعضاء أساسية في العالم المسيحي مثل شمال إفريقية وأسبانيا. وفي جميع البلاد التي فتحها العرب أقبلت نسبة كبيرة من الأهالي على اعتناق الإسلام «عن اختيار وإرادة حرة»، كما يقول أحد المستشرقين<sup>(٤)</sup>.

(1) Butler ; The Arab Conquest of Egypt, p. 205

(٢) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٠ هـ .

(3) Dozy ; Moslems in Spain, p. 23٤

(٤) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٥١ .

والمعروف أن الإسلام احترم المسيحية احتراماً بالغاً ، وكرم نبيها عيسى بن مريم عليه السلام تكريماً لم يحظ به أحد غيره من الأنبياء السابقين ، فنادى القرآن بالسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً . ولكن المسيحيين المعاصرين لم يفهموا طبيعة الديانة الجديدة التي بشر بها محمد عليه الصلاة والسلام ، وكل ما أدركوه هو أن أتباع محمد خرجوا من شبه الجزيرة العربية ليلتبعوا بلداً بعد آخر من البلدان التي كانت المسيحية قد سبقت إليها ، وانتشرت فيها ، وصارت تعز ببقائها في حوزتها . وبعبارة أخرى فإن الكنيسة ورجالها لم يروا في الإسلام والمسلمين إلا خطراً جاثماً هددهم وهدد كياناتهم ، فراحت الكنيسة تدعى أن الإسلام إنما انتشر بجد السيف، وأن الغزوات الإسلامية إنما استهدفت إجبار الناس على اعتناق الديانة الجديدة . وهكذا خلطت الكنيسة ورجالها بين انتشار الديانة الإسلامية وانتشار نفوذ العرب السيامي ، وتجاهلت حقيقة كبرى اعترف بها جمهرة المستشرقين اليوم ، هي أن نفوذ العرب السياسي هو الذي انتشر بجد السيف، أما الديانة الإسلامية نفسها فلها من سلامة المنطق وقوة الحججة ما جعل غالبية أهل البلاد المفتوحة يدخلون في دين الله أفواجا<sup>(١)</sup> . ولو حاول رجال الكنيسة المعاصرون أن يفهموا طبيعة الديانة الإسلامية وروحها لوجدوا أكثر من آية في القرآن الكريم — وهو دستور الإسلام والمسلمين — تأمر الرسول بأن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن يجادلهم بالتي هي أحسن « فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » . ومهما يكن من أمر ، فإن رجال الكنيسة لم يستطيعوا حتى نهاية العصور الوسطى أن ينسوا الخسارة التي لحقت بهم وبكنيستهم نتيجة لانتشار الإسلام ، مما جعلهم يشعرون دائماً بالرغبة في الانتقام من الإسلام والمسلمين .

(1) Cam, Med. .slIH vol. 4, p, 330.

### الصراع بين المسلمين والبيزنطيين حتى القرن العاشر :

وكانت الدولة البيزنطية - أو دولة الروم - أقرب القوى المسيحية إلى حدود المسلمين ، إذ ربطتها بالدولة الإسلامية الناشئة علاقات مباشرة وفصلت بينهما حدود مباشرة أيضاً ، مما جعل الاحتكاك لا ينقطع بين القوتين . وعندما وجد المسلمون أن خصومهم يمتلكون قوة بحرية كبيرة هددت شواطئ دولتهم الجديدة ، أسرعوا إلى ممارسة ركوب البحر والاهتمام بأمر الأساطيل البحرية . ولم يلبث أن أصبح العرب قوة بحرية لها حسابها في البحر المتوسط ، فغزوا جزيرة قبرص سنة ٦٤٨ وأغاروا على الشواطئ الجنوبية لآسيا الصغرى عدة مرات ، حتى تمكنوا من إزال هزيمة كبرى بالأسطول البيزنطي في موقعة ذات الصواري سنة ٦٥٥ (١) .

وإذا كانت الظروف التي تعرضت لها الدولة الإسلامية عند منتصف القرن السابع قد حالت دون قيام العرب بمهاجمة القسطنطينية نفسها عقب موقعة ذات الصواري مباشرة ؛ فإن الأمويين لم يلبثوا أن استأنفوا مهاجمة الدولة البيزنطية براً وبحراً على نطاق واسع ، حتى وصلت إغارتهم إلى بحر إيجه سنة ٦٦٥ . ويبدو أن المسلمين كانوا قد أحرزوا عندئذ خبرة كافية بفنون البحر ، جعلتهم يعبرون إلى تراقيا (٦٦٨ - ٦٦٩) ويهاجمون القسطنطينية نفسها . كذلك أفاد العرب من استيلائهم على قبرص ورودس وغيرها من المواقع البحرية الحصينة في بحر إيجه ، فقاموا بعدة محاولات للاستيلاء على القسطنطينية استمرت خمس سنوات (٦٧٣ - ٦٧٨) ، ولم ينقذ عاصمة الامبراطورية البيزنطية عندئذ من السقوط في أيدي المسلمين سوى اختراع النار الإغريقية التي أنزلت بالسفن الإسلامية ضرراً جسيماً (٢) .

(1) Ostrogorsky ; Hist. of the Byzantine State, p- 104.

(2) Vasiliev ; op. cit., vol. I, p. 214.

وهكذا لم يكف المسلمون عن مهاجمة الدولة البيزنطية براً وبحراً حتى كان أوائل القرن الثامن ، وعندئذ اعتقد الخليفة الاموى سليمان بن عبد الملك (٧١٥ - ٧١٧) أن الوقت حان للقيام بحملة كبرى تمكن المسلمين من الإستيلاء على القسطنطينية والإحاطة بالإمبراطورية البيزنطية . وقد اختار الخليفة أخاه مسامة ليكون على رأس تلك الحملة التي شقت طريقها عبر آسيا الصغرى حتى بلغت البسفور وعبرته إلى الشاطئ الأوربي سنة ٧١٧ . وبينما أطبق المسلمون على القسطنطينية من ناحية البر ، أحكم الأسطول الإسلامي حصاره على المدينة من ناحية البحر حتى كادت القسطنطينية تقع في أيدي المسلمين لولا صمود الإمبراطور ليو الأيسورى واستعانته بالنارا الإغريقية التي لعبت دورها مرة أخرى في تشتيت سفن المسلمين . وعندما سمع الخليفة عمر بن عبد العزيز بحرج موقف القوات الإسلامية « أرسل إلى مسامة وهو بأرض الروم يأمره بالتفول بمن معه من المسلمين » ، فانسحب المسلمون سنة ٧١٨ ، بعد أن ظلوا على حصار القسطنطينية أكثر من عام (١) .

ويبدو أن فشل المسلمين في الاستيلاء على القسطنطينية في أوائل القرن الثامن شجع البيزنطيين على دفع خطر المسلمين تدريجياً عن آسيا الصغرى ، حتى غامر الامبراطور قسطنطين الخامس بشن هجوم على الشام سنة ٧٤٥ منهزماً فرصة الضعف الذى أمست فيه الخلافة الأموية في خريف عمرها . وفي العام التالى أحرز البيزنطيون نصراً بحرياً على المسلمين واستردوا منهم جزيرة قبرص (٢) . ثم لم تلبث سنة ٧٥٠ أن شهدت سقوط الخلافة الأموية وقيام الدولة العباسية في بغداد . وهنا نلاحظ أن اتخاذ الأمويين بلاد الشام مركزاً لهم جعلهم قريبين من آسيا الصغرى والأراضي البيزنطية ، بحيث كان الخطر الإسلامى على الدولة البيزنطية

(١) ابن الأثير : الكامل سنة ٩٩ هـ

(2) Cam. Med. Hist, vol 4, p. 12.

شديداً وملوساً في العصر الأموي . ولكن اتجاه العباسيين نحو العراق وبغداد جعل الدولة البيزنطية وأراضيها أكثر بعداً عن قلب الدولة الإسلامية، ومن ثم قل تهديد المسلمين لحدود الدولة البيزنطية بصورة واضحة في العصر العباسي .

وليس معنى هذا أن العداء توقف بين المسلمين والبيزنطيين بعد سنة ٧٥٠، إذ نسمع أن الامبراطور البيزنطي ليو الرابع هاجم المسلمين شرق الأناضول سنة ٧٧٨، فرد عليه الخليفة المهدي العباسي بمهاجمة أراضي البيزنطيين في العام التالي<sup>(١)</sup>. ثم اشتدت إغارات المسلمين على أراضي الدولة البيزنطية في عهد الخليفة هارون الرشيد، فاجتاحت الجيوش العباسية آسيا الصغرى سنة ٧٨٦ حتى بلغت البسفور، دون أن تستطيع الامبراطورة إيرين التغلب على ذلك الخطر، مما دفعها إلى شراء الصلح من المسلمين مرة بعد أخرى متابل تعهدا بدفع جزية سنوية ضخمة من المال .

وقد رفض الإمبراطور البيزنطي ثقفور الأول (٨٠٢ - ٨١١) الاستمرار في دفع الجزية التي تعهدت بها إيرين، مما جعل العباسيين يحدون هجماتهم على الدولة البيزنطية<sup>(٢)</sup>. وفي ذلك الوقت استطاع مسلمو الأندلس الاستيلاء على جزيرة كريت (٨٢٣ - ٨٢٥)، فظلت الجزيرة بأيدي المسلمين مدة تربو عن قرن وربع دون أن يستطيع الآباطرة البيزنطيون استرداد الجزيرة. ومن الواضح أن ضياع جزيرة كريت جاء ضربة قاسية للتجارة الامبراطورية في بحر إيجه، لاسيما وأن المسلمين من شمال أفريقيا غزوا جزيرة صقلية سنة ٨٢٧، مما مكّنهم من

(١) ابن الأثير : الكامل سنة ١٦٣ هـ ، سنة ١٦٥ هـ .

(٢) يروي ابن الأثير أن ثقفور بعد أن استتبته الأمور كتب إلى الرشيد يقول « من ثقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق؛ فبحمت إلبك من أموالها ما كنت حقيقاً تحمل أضعافه إليها، ولكن ذلك ضعف النساء وحمقهن؛ وإذا قرأت كتابي هذا فأردد ما حصل لك من أموالها؛ وافتد نفسك بما تقع به المصادر .ك . وإلا فلا سيف بيننا وبينك » .

السيطرة على طريق الملاحة في البحر المتوسط<sup>(١)</sup>. هذا إلى أن المسلمين الذين سيطروا على كريت استغلوا موقع تلك الجزيرة في تهديد قلب الامبراطورية البيزنطية كما حدث سنة ٩٠٤ عندما خرجت السفن الإسلامية من كريت لغزو مدينة سالونيك في البلقان ، ونجح المسلمون فعلا في السيطرة على هذه المدينة بعض الوقت في أوائل القرن العاشر<sup>(٢)</sup>.

وعندما ظن الامبراطور البيزنطي ثيوفيل (٨٢٩ - ٨٤٢) أن العباسيين أمسوا بعد وفاة الرشيد في حالة من الضعف لا تمكنهم من الدفاع عن دولتهم، أخذ يهاجم الدولة العباسية ، واستنزف الخليفة المأمون (٨١٣ - ٨٣٣) بآبواء بعض الهاربين من وجه الخليفة ، مما أثار حربا متقطعة بين الطرفين استمرت أكثر من ثلاثين سنة . وقد بدأ الخليفة المأمون بغزو الجهات القريبة من الدولة البيزنطية حتى وصلت جيوشه هرقله سنة ٨٣١ ، في الوقت الذي أغارت الأساطيل العباسية على الجزر القريبة من الشاطئ الغربي لآسيا الصغرى<sup>(٣)</sup> ويبدو أن حماسه الخليفة المأمون لحرب البيزنطيين دفعته إلى أن يتولى بنفسه قيادة ثلاث حملات في آسيا الصغرى ، فاستولى على ممرات طوروس ثم على مدينة الطوانة ( Tyana ) العظيمة التي اتخذها قاعدة لعملياته الحربية في تلك الجهات<sup>(٤)</sup> . على أن حسن حظ الامبراطور شاء أن يموت المأمون في تلك المرحلة بعد أن أرسل إليه ثيوفيل رسلا يطلبون الصلح ، فانسحبت الجيوش الإسلامية إلى طرسوس بعد أن أخلت البلاد التي فتحتها وراء جبال طوروس<sup>(٥)</sup>.

(1) Ostrogorsky ; op. cit, p. 182, 185.

(2) Schlumberger ; Recits de Byzance et des Croisades I, pp. 13 - 23.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنق ٢١٥ هـ ، ٢١٦ هـ .

(4) Cam. Med. Hist. vol. 4, ps 36, 128.

(٥) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٢١٨ هـ .

وكان أن ظهر ضعف الخلافة العباسية واضحا في عصر الخليفة المعتصم ، وعندئذ استطاع ثيوفيل أن يتحول من الدفاع إلى الهجوم ، فهاجم أعلى الشام وما بين النهرين حتى بلغ زبطرة وقتل من فيها من المسلمين ، وأغار على ملطية وغيرها من المدن والحصون المجاورة « وسبي المسلمات ومثل بمن صار في يده من المسلمين ، وسمل أعينهم وقطع أنوفهم وآذانهم » . ولم تلبث جرأة البيزنطيين في مهاجمة أراضي الدولة الإسلامية وإغاراتهم على مدينة زبطرة - مسقط رأس الخليفة المعتصم - أن استثارت الخليفة ، فنزل بنفسه إلى ميدان المعركة سنة ٨٣٨ على رأس جيش كثيف ، بعد أن أقسم على تدمير مدينة عمورية - مسقط رأس الامبراطور وأسرته - « وهى أشرف عندهم من القسطنطينية » . وقد أسرع ثيوفيل لإنتاذ بلدته ، ولكن الهزيمة حلت بجيوشه ، واستطاع المسلمون الاستيلاء على عمورية وقتل عدة آلاف من أهلها ، فضلا عن عدد كبير من أعيان الروم ساقهم المعتصم إلى سامرا (١) .

على أن وصول الجيوش الإسلامية إلى جوف آسيا الصغرى في النصف الأول من القرن التاسع لم تعبه مضاعفات خطيرة على الإمبراطورية ، لأن المعتصم اكتفى بالانتقام لمدينة زبطرة ثم قفل راجعا من حيث أتى ، وبذلك عادت الامبراطورية واستردت أراضيها في آسيا الصغرى حتى جبال طوروس . ولم يلبث أن ساعدت مشاغل كل من الخليفة المعتصم والامبراطور ثيوفيل على عقد هدنة بين الطرفين استمرت حتى وفاة الاثنين سنة ٨٤٢ (٢) .

(1) Diehl, Marçais ; Le Monde Oriental, pp. 312 - 313. &

ابن الأثير : السكامل : حوادث سنة ٢٢٣ هـ .

(2) Cam. Med. Hist. vol. 4, p. 131.

### ضعف الدولة الإسلامية وانقسامها :

على أن الموقف بين البيزنطيين والعباسيين في الشرق الأدنى لم يلبث أن تبدل في نهاية القرن التاسع، عندما فقدت الخلافة العباسية هيبتها وأحلت قوتها . ذلك أن الخليفة المعتصم العباسي ، أفرط في الاعتماد على الترك، الأمر الذي جعله يهجر بغداد وينقل عاصمته إلى سامرا سنة ٨٣٦ . ولم يلبث أن أصبح الخلفاء العباسيون أداة سهلة في أيدي أمراء الأتراك ، حتى غدت السلطة الفعلية في القرن العاشر في يد كبير أولئك الأمراء الذي اتخذ لقب «أمير الأمراء»<sup>(١)</sup> وزاد من ضعف الدولة العباسية عندئذ كثرة الثورات والخلافات الدينية مثل الحركة الخرمية التي تزعمها بابك الخرمي (٨١٦-٨٣٧) وحركة المعتزلة ، فضلا عن نشاط الشيعة في جوف الدولة . فإذا أضفنا إلى ذلك ثورة الزنج في جنوب العراق (٨٧٧-٨٨٣) وثورة القرامطة قرب واسط بالعراق سنة ٨٩٠ ، استطعنا أن نكون فكرة عامة عن عوامل انحلال الخلافة العباسية ومظاهر هذا الانحلال<sup>(٢)</sup> . وليس أدل على ضعف الخلافة العباسية وتفككها في تلك الفترة من الحركات الانفصالية التي قامت في جسم الدولة ، والتي أدت إلى ظهور وحدات سياسية مستقلة على حساب الخلافة ، مثل الدولة السامانية (٩٧١-٩٩٨) والدولة الزيارية (٩٢٨-١٠٤٧) والدولة الغزنوية (٩٦٢-١١٨٦) والدولة الحمدانية ، (٩٢٩-١٠٠٣) والدولة البويهية (٩٣٢-١٠٥٥) . ويهتمان هذه البيوت في المشرق السامانيون والبويهيون . أما السامانيون فقد غدت لهم السيطرة على الجزء الشرقي من بلاد فارس ، أعنى خراسان وبلخ وماوراءالنهر فضلا عن فرغانة وخوارزم . وقد اتخذ السامانيون بخارى وسمرقند مركزين

(1) Diehl, Marçais : op. cit, pp 378 - 381

(2) Cam. Med. Hist, vol 4, p. 276.



لحكمهم ، واستمروا يحكمون تلك المنطقة الفسيحة حكماً مستقلاً معظم القرن العاشر . وأما البويهيون — وهم من أصل فارسي أيضاً — فقد سيطروا على الجزء الغربي من بلاد فارس — أعنى عراق العجم وكرمان وخوزستان — كما سيطروا على العراق العربي بما فيه بغداد بين سنتي ٩٤٥ ، ١٠٥٥ . وفي تلك الفترة اتخذ أمراء بني بويه لقب إمرة الأمراء ، وسلبوا لأنفسهم كل ما للخلفاء العباسيين من سلطان ونفوذ ، حتى صار أمير الأمراء من بني بويه هو الحاكم الفعلي في الدولة<sup>(١)</sup> .

على أنه يلاحظ أن كلا من هذين البيتين — السامانيون والبويهيون — كانوا من أصل فارسي ، ومن ثم وجهوا جل عنايتهم نحو الأقاليم الفارسية من الدولة العباسية ، ولم يهتموا بالأقاليم العربية كالجزيرة وبلاد الشام ومصر . والواقع إن بلاد الشام ومصر لم تكونا أقل تعرضاً للفوضى والانتقام من بقية أجزاء الخلافة . ذلك أن الإخشيديين استقلوا بمصر والجزء الأكبر من بلاد الشام — حتى طرابلس وبيروت شمالاً — ( ٩٣٥ — ٩٦٩ ) . أما شمال الشام وإقليم الموصل فقد استقل بهما الحمدانيون ( ٩٢٩ — ١٠٠٣ ) الذين ظلوا في منازعات مستمرة مع البويهيين من ناحية والإخشيديين من ناحية أخرى<sup>(٢)</sup> . وزاد من الفوضى التي تعرضت لها بلاد الشام في تلك الفترة انتفاضة القبائل العربية ، فسيطر العرب الجنوبيون أو اليمينيون على جنوب الشام ووسطه حيث صارت الغلبة في فلسطين لبني طي وفي وسط الشام لبني كلب . أما عرب الشمال أو القيسيون فقد سيطروا على شمال الشام والجزيرة حيث ظهر من قبائلهم بنو كلاب وبنو نمير وبنو عقيل . وجميع هذه القبائل

(١) ابن الأثير : الكامل ، سنة ٣٢١ هـ .

(2) Cam. Med. Hist. vol. 4. p. 245

العربية ربطتها علاقات بالقرامطة ، بل إن بنى طى وبنى كلب شاركوا في ثورة القرامطة التي حدثت في مستهل القرن العاشر<sup>(١)</sup> .

أما الخلافة العباسية نفسها فاستمرت تنتقل أوضاعها في القرن التاسع من سبغ إلى أسوأ ، حتى تولى منصب الخلافة في مدى ثمان سنوات ( ٨٦١ — ٨٦٩ ) أربع خلفاء مات منهم إثنان مقتولين ، هما أبو عبد الله محمد المعتز بالله ، وأبو اسحق محمد المهتدي بالله .

### صحة الرواية البيزنطية في القرون العاشرة :

ولعل ذلك الانحلال الذي أصاب الخلافة العباسية والتفكك الذي اعترى وحدة الدولة الإسلامية هو الذي مكن الأباطرة البيزنطيين منذ منتصف القرن التاسع من الوقوف موقفاً أكثر حزمًا وصلابة من جيرانهم المسلمين . ولم يلبث أن تحول موقف الإمبراطورية البيزنطية في القرن العاشر من الدفاع إلى الهجوم ، وذلك عندما أدرك البيزنطيون أنهم لا يواجهون على حدودهم الشرقية دولة إسلامية موحدة مثلما كان الحال أيام الأمويين والعباسيين الأوائل ، وإنما صاروا لا يرون إلا دولة مفككة أضعفتها الإقتسامات السياسية والمذهبية . وكان ذلك في الوقت الذي استولت على العرش في القسطنطينية أسرة من أقوى الأسر في التاريخ البيزنطي ، هي الأسرة المقدونية التي نفذت في الدولة روحاً جديدة بفضل ماوفرت لها من استقرار داخلي وقيادة رشيدة<sup>(٢)</sup>

وهنا نلاحظ أن البلقان لم يعد في ذلك العصر مركز الروح الهلينية في العالم البيزنطي ، بعد أن اجتاحت أراضي البلقان كثير من الشعوب السلافية ، فضلا

(١) Setton : A Hist. of the Crusades, p. 87.

(٢) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٤١٧ وما بعدها .

عن البلغار . وكان أن ظهرت الأقاليم الآسيوية لتتحلف بالبلقان وتصبح مركزاً للروح الهلينية منذ القرن التاسع . ففي آسيا الصغرى بالذات ظلت التقاليد البيزنطية قائمة خالصة ، ومن آسيا الصغرى استمدت الإمبراطورية البيزنطية مواردها المالية والبشرية . ثم إن آسيا الصغرى هي التي أمدت الإمبراطورية ببحيرة البيوت الحاكمة والقادة الأقوياء مثل آل فوقاس وآل شمشةيق وآل كومنين<sup>(١)</sup> .

وكان أن بدأت جهود الدولة البيزنطية للتوسع على حساب المسلمين في أطراف آسيا الصغرى والشام في عهد قسطنطين السابع (٩١٣ - ٩٥٩) ثالث أباطرة الأسرة المتدونية . من ذلك أن الجيوش البيزنطية استطاعت تحت قيادة قائد أرميني الأصل - اسمه حنا كوركواس John Curcuas - الاستيلاء على أرضروم من المسلمين ، كما أجبرت حكام ملطية وديار بكر وميفارقين على دفع إتاوة للبيزنطيين<sup>(٢)</sup> . وعند ما ثارت ملطية على ذلك الوضع دمرها كوركواس سنة ٩٣٤ واستولى على الجهات المحيطة بها<sup>(٣)</sup> . وفي سنة ٩٤١ - ٩٤٢ استولى البيزنطيون على ميفارقين ، وعندئذ أسرع حاكم الرها المسلم إلى شراء مسالمة حنا كوركواس . ولم يلبث البيزنطيون أن استولوا على مرعش (٩٤٨ - ٩٤٩) ، كما استطاع القائد البيزنطي الجديد ليوفوقاس الاستيلاء على طرسوس عاصمة إقليم قبايقية ، ثم على ديار بكر وسيمساط سنة ٩٥٨ . وهكذا لم تحل سنة ٩٥٩ إلا وكان ليوفوقاس قد وصل على رأس الجيوش البيزنطية إلى ما وراء نهر دجلة<sup>(٤)</sup> .

على أن تلك الحروب لم تكن سوى مقدمة لحركة شاملة أزمعت الدولة البيزنطية القيام بها للانتقام من المسلمين مما حل بها على أيديهم طوال القرون

(١) Brehier : Vie et Mort. de Byzance, pp. 179 - 180

(٢) ابن الأثير : السكامل سنة ٣١٥ هـ .

(٣) Vasiliev : op. cit. I, p. 306.

(٤) Ostrogorsky : op. cit., p. 250

الثلاثة السابقة . وكان أن نجح القائد نتفور فوقاس في طرد المسلمين من جزيرة كريت سنة ٩٦١ ، ثم قام بغزو إقليم قيليقية الذي كان تابعاً لسيف الدولة الحمداني ، واستولى سنة ٩٦٢ على مركزين من أهم مراكز ذلك الإقليم هما عين زربة وسيس ؛ ومن هناك اتجه إلى أطراف بلاد الشام ليتنزع من سيف الدولة عين تاب ومنبج<sup>(١)</sup> . ثم اختار نتفور فوقاس ألا يعطى خصومه فرصة للاستعداد ، فزحف مباشرة — وبصحبه القائد حنا شمشتيق — على حلب ، واستولى عليها في أواخر ديسمبر سنة ٩٦٢ . وعند ما عجز نتفور فوقاس عن الاستيلاء على قلعة حلب ، اكتفى بتدمير المدينة « وأحرق المساجد » ، ثم قفل راجعاً إلى قيليقية ومعه عدد كبير من أسرى المسلمين<sup>(٢)</sup> .

وبعد أن عاد نتفور إلى القسطنطينية حيث توج إمبراطوراً ؛ رجع إلى الشام مرة أخرى ليغزو الحمدانيين سنة ٩٦٤ . وفي ذلك الوقت بالذات تعرض الحمدانيون لقطعنة من الخلف من جانب بني بويه ، إذ قام أمير الأمراء معز الدولة أبو الحسين أحمد بن بويه بانتزاع الموصل ونصيبين من الحمدانيين ، ولم يرد الموصل إليهم إلا بعد أن تسلم مبلغاً طائلاً من المال<sup>(٣)</sup> . وهكذا ظهر جلياً أن الظروف في العالم الإسلامي صارت مواتية لأن يقوم الإمبراطور البيزنطي بهجوم جديد ، فأرسل إنذاراً إلى الخليفة العباسي في بغداد يهدده بالويل والثبور وينذره بأن الجيوش البيزنطية لن تلبث أن تستولى على بلاد العراق والشام ومصر ، وأنه من الخير للخليفة أن ينسحب إلى بلاد الحجاز ويترك تلك البلاد لأصحابها القدامى من البيزنطيين ، ويهمننا في هذا الإنذار أنه كان يفيض بالروح الصليبية ، إذ ضمنه

(١) ابن الأثير : الكامل سنة ٥٣١ هـ .

(٢) Schlumberger : Nicephore Phocas, pp. 232 – 251. &

ابن الأثير : الكامل سنة ٣٥١ هـ .

(٣) ابن الأثير : الكامل حوادث سنتي ٣٤٧ – ٣٤٨ هـ .

الإمبراطور عبارات دينية حماسية ، وتهديد صريح بهدم الكعبة ونشر المسيحية في الشرق والغرب جميعاً<sup>(١)</sup> .

وكان جديراً بالمسلمين في تلك الظروف أن يفتقروا لأنفسهم ويتنبهوا لحقيقة الروح الجديدة التي أخذ يعمل بها البيزنطيون ، ولكن المسلمين ظلوا غارقين في خلافتهم الداخلية التي أنهكتهم وأضعفت قواهم . من ذلك أن السامانيين في خراسان أرسلوا نجدة عاجلة إلى الحمدانيين لتساعدهم في صد الخطر البيزنطي ، ولكن بدلاً من أن يستغل الحمدانيون تلك النجدة في غرض الجهاد ، أرادوا استخدامها في محاربة خصومهم أمراء بني بويه ، وعندئذ خمدت حماسة أولئك الخراسانيين وتفرقوا دون أن يشتركوا في قتال . وهكذا ثبت أن الخلافات الداخلية بين أمراء المسلمين كانت أقوى من أن تؤلف بين قلوبهم بدافع مواجهة الخطر المسيحي ؛ وفي ضوء تلك الانقسامات يمكن أن نفسر الانتصارات التي أحرزها البيزنطيون في القرن العاشر ، ثم تلك التي أحرزها الصليبيون الغربيون منذ نهاية القرن الحادي عشر<sup>(٢)</sup> .

أما تقفور فوقاس ، فقد أرسل أحد قواده لاسترداد جزيرة قبرس من المسلمين (٩٦٤ - ٩٦٥) ، حتى إذا ما تم له ذلك ، عاد مرة أخرى إلى غزو قيليقية بغية القضاء على نفوذ الحمدانيين فيها ، فاستولى على المصيصة وطرسوس<sup>(٣)</sup> . والواقع أن هاتين المدينتين لم تسقطا في أيدي البيزنطيين إلا بعد حصار طويل (١٣ يولية ٩٦٥) ، وعندئذ أرسل الإخشيدون نجدة لإتخاذ الموقف ، ولكن النجدة وصلت بعد فوات الأوان . وفي سنة ٩٦٦ عاد تقفور فوقاس إلى الإغارة

(١) Schlumberger ; Nicephore Phocas, pp. 427 - 430

(٢) Grousset ; Hist. des Croisades, I, p. XIII.

(٣) ابن الأثير : الكامل سنة ٣٥٤ هـ . ويروى ابن الأثير أن تقفور فتح المصيصة عنوة بالسيف « فقتل منهم مقتلة عظيمة » في حين استولى على طرسوس صلحاً « فلقبهم بالجليل وأمهم أن يحملوا من سلاحهم وأموالهم ما يطيقون »

على بلاد النهرين ، فهاجم آمد « ولم يمكنهم فتحها » ، فانصرف إلى دارا وقارب نصيبين حيث صادف البيزنطيون قافلة للمسلمين آتية من ميفارقين فنبهوها . ثم اتجه تقيفور إلى أطراف الشام حيث « نازلوا أنطاكية فأقاموا عليها مدة طويلة يتناولون أهلها ، فلم يمكنهم فتحها ، فخرّبوا بلدها ونهبوه وعادوا إلى طرسوس»<sup>(١)</sup> . وفي تلك الأثناء توفي سيف الدولة الحمداني في يناير سنة ٩٦٧ ، وخلفه في حكم حلب ابنه سعد الدولة أبو المعالي شريف (الأول) الذي عجز عن صد خطر البيزنطيين ، فضلا عن المنازعات التي دبت في تلك الفترة بين أبناء البيت الحمداني<sup>(٢)</sup> .

وفي سنة ٩٦٨ عاد تقيفور فوقاس إلى الشام « فلم يمنعه أحد ولا قتاله » فأغار على معرة النعمان وكفر طاب وشيزر التي أحرق مسجدها وحوله إلى رماد . ثم استولى على حماة وحمص وأحرقهما أيضاً . وبعد أن عاث تقيفور فوقاس فسادا في حوض نهر العاصي ، عبر الجبال إلى ساحل لبنان فاستولى على جبلة وعرقه وانظرطوس . أما اللاذقية فقد أسرع إليها باعلان خضوعه للامبراطور الذي لم يلبث أن عاد بعد قليل إلى القسطنطينية وصحبته خمسة آلاف أسير ، بعد أن « أقام في الشام شهرين يقصد أي موضع شاء ويحرب ما شاء ولا يمنعه أحد»<sup>(٣)</sup> . وعند عودة تقيفور ترك خلفه في بلاد الشام قوة كبيرة قرب أنطاكية . ولم تلبث هذه القوة أن تمكنت من الاستيلاء على أنطاكية في أول نوفمبر سنة ٩٦٩ فطرد البيزنطيون أهل أنطاكية المسلمين « وأخرجوا المشايخ والعجائز والأطفال من البلد وقالوا لهم: اذهبوا حيث شئتم» ، وأحلوا محلهم جموعا غفيرة من المسيحيين<sup>(٤)</sup> .

(١) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٣٥٥ هـ .

(٢) Cam. Med. Hist. vol. 5. ps. 246, 250

(٣) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٣٥٨ هـ .

(٤) Schlumberger : Un Empereur Byzantin au Dixieme Siècle, Nicephore Phocas p. 723 &

ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٣٥٩ هـ .

وكان لاستيلاء البيزنطيين على أنطاكية دوى هائل في العالم المسيحي - الشرق والغربي - نظراً لما لهذه المدينة من مكانة في تاريخ المسيحية . وباستيلاء البيزنطيين على أنطاكية بلغوا قمة حركتهم التوسعية على حساب المسلمين في القرن العاشر . وكان المفروض أن يأتي دور حلب بعد ذلك ، ولاسيما أن النزاع الداخلي بين صاحب الحق الشرعي في الحكم - سعد الدولة الحمداني - ومغتصب السلطة فيها - قرغوية (مولى سيف الدولة) - أثر تأثيراً خطيراً في أحوال حلب . ولكن يبدو أن أمر حلب استعصى على البيزنطيين ، فصالحوا قرغوية في يناير سنة ٩٧٠ «على هدنة مؤبدة» بشرط أن يدفع لهم مالا معيناً ويسهل لهم تموين جيوشهم في حالة خروجهم لغزو الشام<sup>(١)</sup> . ثم إن تنفور إستولى في السنة نفسها على ملاز كرد من أعمال أرمينية « فضيقوا على من بها من المسلمين وملكوها عنوة » . وهكذا لم يمت تنفور فوقاس إلا بعد أن دخل الجزء الشمالي من بلاد الشام بأكملها تحت سيطرة البيزنطيين الذين قويت هيبتهم « وعظمت شوكتهم وخافهم المسلمون في أقطار البلاد »<sup>(٢)</sup> .

وشاءت الظروف أن يشهد العالم الإسلامي في ذلك الوقت تطورا خطيراً ، إذ نجح الفاطميون في غزو مصر سنة ٩٦٩ والتضاء على حكم الإخشيديين فيها ، وبذلك أصبحت مصر - وما تحتها في الشام حتى دمشق - مركزاً لخلافة شيعية منافسة لخلافة بغداد السنية . وهكذا قدر للعالم الإسلامي أن يظل طوال قرنين (٩٦٩-١١٧١) منتسماً على نفسه بين خلافتين ومذهبين مختلفين ، الخلافة العباسية السنية في بغداد والخلافة الفاطمية الشيعية في القاهرة ، مما ترك أثراً خطيراً في قوة المسلمين في الشرق الأدنى ظهرت نتائجه فيما بعد على عصر الحروب الصليبية<sup>(٣)</sup> .

(١) يحيى بن سعيد الأنطاكي : التاريخ ١٣٤ - ١٣٦ ، ابن الأثير : الكامل . حوادث سنة ٣٥٩ هـ .

(٢) ابن الأثير : الكامل . حوادث سنة ٣٥٩ هـ .

(٣) Sttton : A Hist. of the Crusades, vol. I. p.p. 85-86

وقد أعقب نفقور فوقاس في عرش القسطنطينية الإمبراطور حنا شمشتيق (زمسكيس) الذي وجد في حروب سلفه ضد المسلمين ساقطة إسقند إليها. وصادف حسن حظ ذلك الإمبراطور أن الفاطميين واجهوا عندئذ متاعب همة في ممتلكاتهم بالشام، مما قلل من خطرهم على البيزنطيين في ذلك الدور. هذا إلى أن دمشق وقعت سنة ٩٧٤ في قبضة أحد المغامرين الأتراك واسمه انشكين الذي كان تابعاً للخليفة العباسي في بغداد، ثم تظاهر بالدخول في طاعة الفاطميين (١)، حتى رأى أخيراً أن يستفيد من الخصومة بين العباسيين والفاطميين فيعمل لحسابه الخاص ويستقل بدمشق لنفسه. (٢) ومن الواضح أن تلك الأحداث وما نجم عنها من فرقة في العالم الإسلامي أمدت الإمبراطور حنا الشمشتيق إمبراطور القسطنطينية الجديد (٩٦٩ - ٩٧٥) بفرصة مناسبة لتحقيق أطاعه.

وقد قام حنا بحملته الحربية الأولى في آسيا الصغرى سنة ٩٧٤، فبلغ حدود أرمينية التي كانت تحكمها عندئذ أسرة ملكية إقطاعية. وعندما علم ملك أرمينية - آشوت الثالث - بنية الإمبراطور البيزنطي في القيام بحرب صليبية ضد المسلمين، أظهر رغبته في مشاركة الإمبراطور مشاريعه وجهوده، وقدم للإمبراطور قوة حربية ضخمة تألفت من عشرة آلاف جندي لمساعدته في حملته (٣). وكان أن توجه الإمبراطور حنا على رأس تلك القوة المسيحية الضاربة إلى أطراف بلاد النهرين في خريف سنة ٩٧٤، حيث اضطرت ميفارقين وديار بكر إلى دفع إتاوة، ثم دخل البيزنطيون نصيبين في ١٢ أكتوبر بعد أن هجرها أهلها

---

(١) «وكتاب المعز (الفاطمي) مكاتبة على سبيل المدح والثناء والمفاظة والمدحجة والتبوية والاقتياد له والطاعة لأوامره» (ابن القلانسي ص ١٢).

(٢) محمد جمال الدين سرور: مصر في عصر الدولة الفاطمية ص ١٢٢.

(٣) ويثبت الخطاب الذي أرسله حنا الشمشتيق إلى حليفه ملك أرمينية عندئذ أن الإمبراطور البيزنطي كان يصدد القيام بحملة صليبية فعلا ضد المسلمين، ليسترد بيت المقدس وكنيسة القيامة من المسلمين (Vasiliev, op cit., 1, p. 310).



« فغنموا وسبوا وأحرقوا وخرّبوا البلاد » (١) هذا في الوقت الذي اضطّر أمير الموصل أيضاً إلى دفع إناوة للامبراطورية البيزنطية. وهكذا حقق الإمبراطور حنا الشمشقيق كثيراً من المكاسب دون عناء ، مما جعله يحلم حينئذ بالزحف على بغداد والاستيلاء عاها (٢).

وفي ربيع سنة ٩٧٥ أجه حنا الشمشقيق نحو الشام ، فغادر أنطاكية في إبريل مخترقا وادي نهر العاصي ، وعندئذ بادرت حمص إلى دفع الإناوة دون مقاومة. أما بعلبك التي أبدت نوعاً من المقاومة فقد عاقبها الامبراطور في قسوة ، ومنها أجه صوب دمشق . وكانت دمشق - كما سبق أن أشرنا - تحت سيطرة الأمير افتكين التركي الذي ظل يتأرجح بين إعلان ولائه للفاطميين حيناً وللعباسيين أحياناً ، حتى إذا ما أحس باقتراب البيزنطيين من مدينته ، رأى في تلك القوة الجديدة ما يمكنه من التخلص من نفوذ الفاطميين والعباسيين جميعاً ، فأعلن ولاءه للامبراطور البيزنطي وتعهد بدفع الجزية له (٣). ولاشك في أن هذه الخطوة من جانب افتكين ساعدته على الوقوف في وجه أطماع الفاطميين بوجه خاص ، في حين غدت سيادة الامبراطور البيزنطي على الأجزاء الداخلية من بلاد الشام شبه تامة بعد أن اعترفت له دمشق بالسيادة ودخلت انطاكية تحت سيطرته الفعلية ، كما أعلنت حلب تبعيتها للامبراطورية البيزنطية (٤). ومن دمشق أجهت الجيوش البيزنطية صوب طبرية ، حيث اتخذ الزحف البيزنطي طابعا صليبيا واضحا ظهر بجلاء في الرسالة التي أرسلها الامبراطور حنا إلى ملك أرمينية آشوت الثالث ، والتي ذكر له في عبارات عاطفية كيف أن رجاله

(١) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٣٦١ هـ .

(٢) Ostrogorsky : op, cit., P. 263.

(٣) يحيى بن سعيد الأنطاكي : التاريخ ص ١٤٥

(٤) عمر كمال توفيق : مقدمات المدوان الصليبي ص ١٤١ - ١٤٤ .

يزحفون نحو الأرض المقدسة التي شهدت مولد المسيح والتي دفن فيها ، مما ثبت صدق الروح الصليبية في تلك الحملة<sup>(١)</sup> . وكان أن شق حناطريقه إلى بيت المقدس دون أن يصادف مقاومة تذكر ، فتمهدت عكا بدفع الأموال للإمبراطور رمزا للتبعية ، وسقطت قيسارية في قبضة القوات الإمبراطورية . وإذا كانت الحامية الفاطمية في بيروت قد قاومت إلا أنه نجح في إخضاعها وأسر جزءاً كبيراً منها ، وبعد ذلك أجه الامبراطور صوب صيدا التي بادرت بدفع الأموال وإعلان الخضوع . ولم يستعص على الامبراطور سوى طرابلس بسبب حصانة موقعها ، إذ أنزلت حامية المدينة بمعاونة الأسطول الفاطمي المهزومة بالجيش الامبراطورية فعبّر حنا الشمشقيق عن غضبه بإتلاف الضياع المحيطة بها وتدمير بساتين الكروم والزيتون<sup>(٢)</sup> . على أن الإمبراطور حنا لم يستطع الوصول إلى بيت المقدس ، فاكتمل بإخضاع بعض القلاع والمراكز مثل بانياس ، ثم عاد إلى أنطاكية ومنها إلى القسطنطينية حيث مات في أوائل سنة ٩٧٦ . وكانت أقصى نتجة وصل إليها في بلاد الشام جنوباً هي صرح ابن عامر<sup>(٣)</sup> .

ومن الواضح أن الحرب التي شنها البيزنطيون على المسلمين سنة ٩٧٥ لم تحتمق هدفها الصائبي سوى تحميها جزئياً . نعم إنها أدت إلى سيطرة الإمبراطورية البيزنطية على أطراف حوض نهر العاصم فضلاً عن دمشق وطبرية والجزء الشمالي من ساحل بلاد الشام ؛ ولكن الامبراطور البيزنطي حنا شمشقيق ارتد مسرعاً قبل أن يؤمن هذه المكاسب ويصل إلى بيت المقدس ، ، فضلاً عن بقاء طرابلس - ذات الموقع الهام - في أيدي الفاطميين . لذلك ظلت الفكرة السائدة طوال

(1) Grousset : Hist. de l'Arménie, p. 484 f. &  
Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 148.

(٢) يحيى بن سعيد الأنطاكي : التاريخ ص ١٤٦

Cam. Med. Hist. vol. 4, p. 148.

(3) Cam. Med. Hist. vol 4, p. 148. & vol. 5, p. 249.

عصر الحروب الصليبية هي أن الصليبيين الغربيين وحدهم هم أصحاب الفضل في استرداد بيت المقدس من المسلمين ، وليس للبيزنطيين أى فضل سابق في ذلك .

ومهما يكن من أمر ، فإن هذه الحملات المبتورة التي قام بها الأباطرة البيزنطيون ضد المسلمين في القرن العاشر أدت إلى إشكالات ومناقشات قانونية طويلة فيما بعد ( ١٠٩٨ - ١٠٩٩ ) عندما اشتد النزاع بين البيزنطيين والصليبيين الغربيين حول ملكية المدن الكبرى ببلاد الشام . وإذا كان البيزنطيون قد استطاعوا إثبات حتمهم الشرعى في ملكية أنطاكية بحكم فتحهم لها في القرن العاشر ، فإنهم لم يستطيعوا بحال من الأحوال تطبيق هذا المبدأ على طرابلس وبيت المقدس (٢) .

أما عن الإمبراطورية البيزنطية ، فإن الامبراطور باسل الثانى - خليفة حنا الشه تشيق - قنع بالسيطرة المباشرة على أنطاكية وسيادته غير المباشرة على حلب . وقد استطاع سعد الدولة الحمدانى أن يتغلب على منافسيه داخل حلب ، ولكنه لم يستطع مقاومة النفوذ البيزنطى ، فاعترف هو الآخر بالتبعية للدولة البيزنطية . وربما رأى الحمدانيون عندئذ في تلك التبعية ضمانا كافيا لحماية أنفسهم من مطامع الفاطميين (٣) .

وفي ذلك الدور أخذ الفاطميون يشددون هجماتهم على دمشق ، الأمر الذى جعل افتكين يستنجد بالحسن بن أحمد زعيم القرامطة . ولكن الخليفة العزيز الفاطمى خرج بنفسه إلى الشام - ومعه القائد جوهر - واستطاع أن ينزل الهزيمة بقوات افتكين والقرامطة عند الرملة سنة ٩٧٨ ، وبذلك سيطر افتكين ونجح الفاطميون في تثبيت نفوذهم في دمشق . وبعد أن نجح الفاطميون في بسط سيطرتهم

(1) Grousset : Hist des Croisades, I, p. XV.

(2) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 250.

على دمشق وجنوب الشام، شرعوا في القيام بعدة هجمات ضد حلب ، ولكن البيزنطيين حموا أميرها سعد الدولة ثم ابنه وخليفته سعيد الدولة أبو الفضائل<sup>(١)</sup> . وهكذا تطور النزاع بين الحمدانيين والفاطميين إلى نزاع بين البيزنطيين والفاطميين . ويبدو أن مشاغل باسل الثاني في البلقان — وبخاصة من ناحية البلغار الذين هددوا الامبراطورية عندئذ تهديداً خطيراً — جعلته يحرص على عدم الدخول في حرب مكشوفة ضد الفاطميين ، فسعى لعقد هدنة سنة ٩٨٧ لمدة سبع سنوات مع الخلافة الفاطمية ، وتعهد باطلاق سراح من لديه من أسرى المسلمين ؛ فضلا عن الدعاء للخليفة العزيز الفاطمي في جامع القسطنطينية<sup>(٢)</sup> . على أن هذه الهدنة لم تستمر طويلا ، إذ أمر الخليفة العزيز قائده منجوتكين بالزحف على حلب بعد قليل ، فتعرضت حلب لحصار الجيوش الفاطمية حتى اضطر صاحبها سعيد الدولة أبو الفضائل إلى الاستنجاد مرة أخرى بالامبراطور البيزنطي باسل الثاني ، فكتب إليه يستنيره ويقول : « متى أخذت أنطاكية أخذت حلب ، ومتى أخذت حلب ، أخذت قسطنطينية »<sup>(٣)</sup> وكان باسل الثاني قد فرغ عندئذ من مشاكله في البلقان واطمأن مؤقتاً إلى جانب البلغار ، فحضر بنفسه إلى الشام سنة ٩٩٥ (٣٨٥ هـ) واستولى على شيزر من الفاطميين ، كما استولى على حمص ودمرها وكذلك أنظرطوس ، في حين صمدت طرابلس تلك المرة أيضاً واستطاعت حاميتها الفاطمية الدفاع عنها<sup>(٤)</sup> .

(١) قائمة الحمدانيين في حلب :

٩٤٤ — ٩٦٧	سيف الدولة أبو الحسن على
٩٦٧ — ٩٩١	سعد الدولة أبو المعالي شريف (الأول)
٩٩١ — ١٠٠١	سعيد الدولة أبو الفضائل سعيد

(٢) أنظر زامباور : معجم الأنساب ص ٢٠١ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٥١ — ١٥٢ .

(٤) المرجع السابق ص ١١٩ — ١٢٠ .

(٤) يحيى بن سعيد الأنطاكي : كتاب التاريخ ص ١٦٦ .

ولكن لم يكفد الإمبراطور باسل الثاني يرجع إلى بلاده ، حتى تمكنت الجيوش الفاطمية من إنزال هزيمة بحاكم أنطاكية البيزنطى ، مما استدعى عودة باسل الثاني إلى الشام سنة ٩٩٩ ، فاسترد شيزر ووطن فيها جالية من الأرمن ، وأحرق حمص واستولى على بعلبك . ولم يصادف باسل الثاني توفيقاً فى الأعمال الحربية التى قام بها بعد ذلك ضد المدن الساحلية ، كما فشل مرة أخرى أمام طرابلس<sup>(١)</sup> . وكان أن ارتد الإمبراطور البيزنطى إلى أرمينية ، وفى تلك المرة أتر عقد الصلح مع الفاطميين ليتفرغ مرة أخرى لخطر البلغار . وقد تم الصلح بين الطرفين فعلا ، وإن ظلت العلاقة سيئة بين الإمبراطورية البيزنطية من ناحية والخلافة الفاطمية من ناحية أخرى بسبب سياسة الخليفة الحاكم بأمر الله تجاه أهل الدمة . وهكذا ظلت العلاقات بين البيزنطيين والفاطميين تتحسن حيناً وتسوء أحياناً حتى قيام الحروب الصليبية<sup>(٢)</sup> .

والواقع أن جهود باسل الثاني فى الشام تعتبر خاتمة للحرب الصليبية التى قام بها البيزنطيون فى القرن العاشر ، وهى الحرب التى حالت دون امتداد النفوذ الفاطمى بالشام إلى ما وراء أنطاكية ، مع احتفاظ البيزنطيين بنوع غير واضح من السيادة على إقليم حلب . ويبدو أن سياسة التمعس التى اتبعتها الدولة البيزنطية فى القرن الحادى عشر أدت إلى تمكين الفاطميين من فرض سيادتهم على حلب سنة ١٠١٥ ، وظل النفوذ الفاطمى قائماً فيها حتى استطاع أحد زعماء قبيلة بنى كلاب - وهو صالح بن مرداس - أن يطرد الفاطميين منها ويؤسس ملكاً لبني مرداس فيها سنة ١٠٢٣<sup>(٣)</sup> . وقد ظل بنو مرداس يسيطرون على حلب

(1) Cam. Med Hist. vol. 4, p. 149 & Setton ; op' cit., I, ps. 75, 90.

(2) Vasiliev, op. cit; I, p. 311.

(٣) محمد جمال الدين سرور : مصر فى عصر الدولة الفاطمية ص ١٢٥ ، زامباور : معجم الأسرات ص ٥١ ، ٤٥

من سنة ١٠٢٣ حتى سنة ١٠٧٩ ، أى قرابة نصف قرن ، لم تبطل فيه المنازعات بينهم وبين الفاطميين بسبب السيادة على حلب . أما البيزنطيون فقد فقدوا كل نفوذ لهم في حلب ، لا سيما بعد أن استطاع شبل الدولة المردياسى أن ينزل هزيمة بالجيش البيزنطية سنة ١٠٣٠ « وغنم المسلمون جميع ما كان معهم » (١) .

على أن أحد القادة البيزنطيين - وهو جورج مانيا كس *Georgs Maniakes* حاكم سميساط - نجح في أن يحول دون امتداد نفوذ بنى مرداس إلى أنطاكية (٢) ولم يلبث هذا القائد البيزنطي أن استغل فرصة المنازعات الداخلية في الرها - حيث تولى الحكم فرع آخر من بنى كلاب - ليستولوا عليها من المسلمين سنة ١٠٣١ ، وعندئذ « قتل الروم المسلمين وخرّبوا المساجد » (٣) ولم تفلح النجدة السريعة التي أرسلها الفاطميون وبنو مرداس لإنقاذ الرها ، إذ تمكن القائد البيزنطي من تحقيق نجاح سريع بفضل المعونة الفعالة التي قدمها له أهل الرها من المسيحيين ، وهم خليط من السريان والنساطرة والأرمن . وهكذا ظلت الرها من الناحية العملية في حوزة الإمبراطورية البيزنطية حتى وصول الصليبيين في أواخر القرن الحادى عشر ، مما أثار حول ملكيتها مشكلة فقهية بين البيزنطيين والصليبيين ، لا تقل تعقيداً عن مشكلة أنطاكية .

على أنه يجدر بنا أن نشير إلى أن قوة الفاطميين لم تكن العامل الوحيد الذى صرف البيزنطيين منذ أوائل القرن الحادى عشر عن بلاد الشام ، وإنما كان هناك عامل آخر يتمثل فى انشغال الإمبراطورية البيزنطية بشئون أرمينية . وكان ملوك أرمينية بحكم جوارهم للخلافة العباسية من ناحية وللدولة البيزنطية من ناحية

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٢١ هـ .

(٢) *Cam. Med. Hist; op. cit, 4, p. 150.*

(٣) *Vasiliev : op. cit; I. p. 312 &*

ابن الأثير . الكامل ، حوادث سنة ٤٢١ هـ .

أخرى يقسمون ولاءهم بين الطرفين<sup>(٦)</sup>. وعلى الرغم مما انتاب أرمينية من ضعف وانحلال سياسي، إلا أن هذه المملكة بلغت في أواخر القرن العاشر درجة من الرخاء لم تتحقق لدولة أخرى مجاورة في الشرق. وقد ظهر أثر هذا الرخاء في التقدم الحضارى الذى أحرزته أرمينية في تلك الفترة، وبخاصة في ميادين العمارة والأدب والشعر وتدوين التاريخ...<sup>(٢)</sup>. ويبدو أن هذا الرخاء كان من العوامل التى أغرت الإمبراطور البيزنطى باسل الثانى على السعى فى ضم أرمينية إلى ممتلكاته. وقد ساعد باسل الثانى على تحقيق غرضه المنازعات والخلافات الداخلية فى أرمينية من ناحية، وتخوف الأرمن من الأتراك السلاجقة الذين أخذوا يهددون الحدود الشرقية لبلادهم من ناحية أخرى، مما جعل أرمينية تلقى بنفسها بين أحضان الإمبراطورية البيزنطية ١٠٢١<sup>(٣)</sup>. وقد تبدو هذه الخطوة مصدر قوة للطرفين، وضماناً لحماية أرمينية من خطر السلاجقة، ولكن الحقيقة هى أن أرمينية ألتقت عبئاً جديداً على الإمبراطورية البيزنطية، فى الوقت الذى ترتب على وضع أرمينية الجديد عدم استطاعتها القيام بأى إجراء سريع لمواجهة الأخطار المهددة لها دون الرجوع إلى القسطنطينية، مما جعلها طريقاً سهلاً مفتوحاً أمام الغزاة الوافدين من الشرق إلى جوف آسيا الصغرى.

### الحروب الصليبية فى الأندلس :

لم تعبر الروح الصليبية عن نفسها تعبيراً عملياً فى الشرق الأدنى فحسب، بل ظهرت واضحة فى المغرب أيضاً، حيث دارت منذ القرن الحادى عشر حرب بين

(1) Vasiliev : op. cit; vol. I, p. 314.

(٢) Grousset : Hist. de l'Arménie, p. 517 f.

(3) Ostrogorsky : op. cit; p. 278 & Vasiliev : op. cit; I, p. 315.

المسلمين والمسيحيين في الأندلس لم تنته إلا بعد عدة قرون بطرد المسلمين من أسبانيا .

ومن الملاحظات التي استرعت نظرنا أن المؤرخ ابن الأثير حرص على أن يفتتح كلامه عن الحروب الصليبية واستيلاء الصليبيين على أنطاكية سنة ٤٩١ هـ بالإشارة أولاً إلى الحروب بين المسلمين والمسيحيين في الأندلس وصقلية ، مما يوضح أن هذا المؤرخ الواسع الأفق ربط ربطاً قوياً بين أطراف الحركة الصليبية في أسبانيا وصقلية وشمال إفريقية والشام ، واتخذ الحروب الصليبية في الأندلس مدخلاً للحروب الصليبية بالشام (١) ،

والواقع إن إستيلاء المسلمين على أسبانيا في أوائل القرن الثامن للميلاد ، وإقامة دولة إسلامية قوية فيها ، كان أمراً لا يمكن أن ترضى عنه الكنيسة الغربية أو شعوب أوروبا المسيحية . فأسبانيا كانت من أولى البلاد الأوربية التي وصاتها المسيحية ؛ وغدت تحتل مكانة ظاهرة في العالم المسيحي الغربي بفضل ما صار فيها من أماكن مقدسة جعلت المسيحيين يحجون إليها من مختلف أنحاء الغرب الأوربي . لذلك ظلت القوى المسيحية في غرب أوروبا تتحين الفرصة المناسبة لاسترداد ذلك الجزء المفقود من الوطن المسيحي . وحسبنا ما قام به شارلمان من حرب ضد المسلمين في أسبانيا في أواخر القرن الثامن للميلاد ، وهي

---

(١) قال ابن الأثير الجزري في حوادث سنة ٤٩١ هـ : « وكان ابتداء ظهور دولة الفرنج واستبداد أمرهم وخروجهم إلى الإسلام وبلادهم واستيلائهم على بعضها — سنة ٤٧٨ هـ ، فلما حاصروا مدينة طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس — وقد تقدم ذكر ذلك — ثم قصدوا سنة أربع وثمانين وأربعمائة جزيرة صقلية وملكوها — وقد ذكرته أيضاً — وتطرفوا إلى أطراف إفريقية فلما حاصروا منها شيئاً وأخذ منهم ، ثم ملكوا غيره على ما تراه ، فلما كانت سنة تسعين وأربعمائة خرجوا إلى بلاد الشام . » (الكامل — حوادث سنة ٤٩١ هـ) .



الحرب التي حرصت أغنية رولان في القرن الحادى عشر على اكسابها طابعا صليبيًا واضحًا (١).

والمحوظ أن المسلمين في الأندلس لم يستطيعوا مطلقا في وقت من الأوقات أن يسيطروا سيطرة تامة على جميع أنحاء شبه جزيرة أيبيريا ، وإنما ظلت بعض الجهات - وبخاصة في الشمال الغربي - خارجة عن نفوذ المسلمين ، قامت بها أربع دويلات مسيحية هي : مملكة ليون ومملكة نافارى وكوتية برشلونة وكوتية قشتالة (٢) . ومن هذه الوحدات المسيحية انبعث الخطر الذى هدد المسلمين في الأندلس ، في الوقت الذى تدهورت الخلافة الأموية في قرطبة حتى سقطت فعلا سنة ١٠٣١ (٣) . ولم يلبث أن بلغ التوسع المسيحى على حساب المسلمين بالأندلس درجة خطيرة في عهد ألفونس السادس (الأذفونش) ملك ليون وقشتالة (١٠٦٥ - ١١٠٩) ، وهو الذى أوغل في وادى نهر تاجة حتى استولى على مدريد ثم على طليطلة نفسها سنة ١٠٨٥ ، وبذلك خسر المسلمون معقلا من أهم معاقلهم في الأندلس (٤) .

وكان لسقوط طليطلة سنة ١٠٨٥ دوى هائل في جميع أرجاء العالم المسيحى الغربى ، إذ استثار الشعور والحماسة لطرده المسلمين كلية من أسبانيا . أما في الجانب الإسلامى فإن ضياع تلك المدينة - التى هى « من أكبر البلاد وأحصنها » (٥) هز المسلمين جميعا في المشرق والمغرب ، وجعل مسلمى الأندلس يفكرون في طريقة فعالة لوقف الخطر المسيحى من ناحية واسترداد ما فقدوه من أراضى

---

(١) سبداشور: أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ١٩٢ - ١٩٣ ، ج ٢ ص ٢٤٨

(٢) Tont: The Empire and the Papacy. p. 366.

(3) Dozy: Spanish Islam, pp 589-592.

(4) Chapman: A Hist. of Spain p. 72.

(٥) ابن الأثير: الكامل حوادث سنة ٤٧٨ هـ .

وبلاد من ناحية أخرى . وهنا لم يتردد ملوك الطوائف في الاستعانة بالمرابطين في شمال إفريقيا ، وهم أقرب قوة إسلامية يمكنها أن تدفع خطر المسيحيين عن مسامى الأندلس<sup>(١)</sup> . ولم يلبث أن عبر يوسف بن تاشفين - ملك المرابطين - مضيق جبل طارق سنة ١٠٨٦ على رأس جيش كبير من البربر الأشداء، حيث التقى مع ألفونس السادس في موقعة الزلاقة في أكتوبر سنة ١٠٨٦ . وفي تلك الموقعة حلت الهزيمة ساحقة بالقشتاليين ، ففر ألفونس السادس مع فلول جيشه، تاركا خلفه عدة آلاف من القتلى والأسرى ، في حين قفل يوسف بن تاشفين راجعا إلى شمال إفريقيا<sup>(٢)</sup> .

وقد أدى تجدد الخطر المسيحي على المسلمين بالأندلس من ناحية ، واتساع الخلاف بين ملوك الطوائف المسلمين من ناحية أخرى إلى عودة يوسف بن تاشفين إلى الأندلس سنة ١٠٩٠ ليشن حربا على ملوك الطوائف المسلمين، فضلا عن المسيحيين . ولم يلبث المرابطون أن استولوا على بلاد الأندلس الإسلامية بأكملها، عدا مدينة طليطلة . وعندما دالت دولة المرابطين وحلت محلها دولة الموحدون في شمال إفريقيا ، فكر الموحدون - بوصفهم ورثة المرابطين - في ضم الأندلس إلى ملكهم ، واستطاع قائدهم عبد المؤمن أن ينجح في ذلك سنة ١١٤٦<sup>(٣)</sup> .

(1) Dozy : op. cit, p, p. 694-695.

(2) Cam. Med. Hist: vl 6, p. p 398-399, & Watts : Spain. P- 67 &

حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٢٧٦ .

(3) Cam. Modern Hist., vol. 6. p 407.

وفي ذلك الوقت كان المسيحيون في أسبانيا قد وجدوا بطلاً جديداً في شخص ألفونس الأول ملك أرغونه (١١٠٤ — ١١٣٤) . وقد استطاع ألفونس الأول هذا أن يواصل إغاراته العنيفة على المسلمين في الأندلس ، حتى وفاته أمام أسوار بلنسية سنة ١١٣٤<sup>(٢)</sup> . ولم تقتصر جهود المسيحيين في تلك الفترة على ما قامت به أرغونه وملوكها ، إذ استطاع ريمون برنجار الرابع — كونت برشلونة — أن يغزو طرطوشة سنة ١١٤٨ . أما في الجهة الغربية ، فقد تمكن الفونس الأول ملك البرتغال من التوغل داخل الأراضي الإسلامية وراء نهر تاجة<sup>(٣)</sup> .

وتمت أهمية خاصة للجهود الصليبية التي قام بها ألفونس الأول هذا ضد المسلمين بالأندلس ، هي أنه استعان سنة ١١٤٧ بأسطول صليبي يحمل جماعة من الإنجليز والفلمنكيين والألمان — كانوا في طريقهم إلى الشام للمشاركة في الحملة الصليبية الثانية — فاستوقفهم ألفونس الأول ، وتمكن بمساعدتهم من طرد المسلمين من لشبونة التي غدت عاصمة مملكة البرتغال الناشئة<sup>(٤)</sup> . وهكذا لم يقتصر ميدان الحروب الصليبية في ذلك العصر على المشرق والأراضي المتدسة ، بل شمل أيضاً المغرب وأسبانيا ؛ فأسهم الصليبيون الوافدون من إنجلترا وألمانيا في فتح لشبونة ، كما اشترك الصليبيون الفرنسيون في مساعدة برنجار كونت برشلونة وبروفانس ؛ هذا في الوقت الذي مد فرسان الداوية والأسبتارية نشاطهم إلى وادي نهر إبرو بأسبانيا ، فضلاً عن بلاد الشام<sup>(٥)</sup> . ولم تلبث هيئة الرهبان السسترشيان أن أقامت لنفسها مركزاً في أسبانيا سنة ١١٤٩ ، حيث أقاموا قوة حربية للدفاع عن مصالحهم

(1) Tout : The Empire and the Papacy, p. 470.

(2) Stephenson : Portugal, p. p. 18-19 & Chapman, op. cit. 76.

(3) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 194.

(4) King : The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 133

من ناحية ولحرب المسلمين من ناحية أخرى . ثم تكاثرت بعد ذلك في أسبانيا المنظمات الدينية ذات الصبغة العسكرية ، مثل هيئة القديس جوليان التي أسسها ملك ليون سنة ١١٥٢ ، والتي اتخذت بعد ذلك - سنة ١٢١٨ - اسم منظمة القنطرة ، وذلك عندما استولى المسيحيون على بلدة القنطرة الواقعة على نهر تاجة واتخذها أولئك الفرسان مركزاً لنشاطهم<sup>(١)</sup> .

ولم تردد البابوية في تشجيع تلك المنظمات التي نهضت في أسبانيا بالدور نفسه الذي قامت به الإسبترارية والداوية والتيتون في بلاد الشام . بل إن الفضل يرجع إلى البابا اسكندر الثالث والبابا أنوسنت الثالث في قيام أشهر منظمة دينية حربية عرفتها أسبانيا ، وهي منظمة سنتياجو . وبفضل نشاط هذه الهيئات وجهودها اشتدت حماسة المسيحيين في حرب المسلمين في الأندلس ، كما أخذ الطابع الديني يغلب على هذه الحرب ليجعل منها حرباً صليبية مقدسة لا تقل أهمية في نظر الأوربيين المعاصرين عن الحرب الصليبية الدائرة عندئذ في المشرق<sup>(٢)</sup> . وهكذا دخل الصراع بين المسيحيين في أسبانيا دوراً جديداً لم يعد فيه مجرد حروب محلية متفرقة بين حكام الفريقين ، وإنما أصبح صراعاً شاملاً بين حضارتين مختلفتين وديانتين سماويتين متباينتين ، خلا يتقاسمان النفوذ ويتنازعان السيادة على ذلك الركن الجنوبي الغربي من أوروبا طوال عدة قرون<sup>(٣)</sup> .

وفي هذه الحروب أظهر الموحدون مقاومة عنيفة ، حتى أنزلوا هزيمة ساحقة بالفرنس التاسع ملك قشتالة في موقعة الأرك سنة ١١٩٥<sup>(٤)</sup> . على أن البابا انوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦) - وهو صاحب الفضل في إثارة الحماسة الصليبية

(1) Tout : The Empire and the Papacy, p. 471.

(2) Chapman : op. cit. p. p. 94-96.

(3) Tout op cit. p. 471

(4) Cam. Med. Hist. vol. 6. p. 409.

في أسبانيا وتشجيع المتطوعين من أهالى البلاد الغربية على المشاركة في الحرب الدينية ضد المسلمين - لم يستطع أن يسكت على هزيمة الأرك . ولم يلبث هذا البابا أن أعلن الحرب الصليبية ضد مسلمى الأندلس ، فاجتمع عدد كبير من فرسان أوروبا للمشاركة في تلك الحرب تحت زعامة رئيس أساقفة ناربون<sup>(١)</sup> . وكان أن تضافرت في تلك الحرب جهود ملك أرغونة وملك نافارى وملك قشتاله ، مما ساعد على إنزال هزيمة كبرى بالموحدين في موقعة العتاب سنة ١٢١٢<sup>(٢)</sup> .

ولم تقم قائمة للموحدين بعد ذلك بالأندلس ، فأخذت المدن والمعازل الإسلامية تتساقط واحدة بعد أخرى في قبضة المسيحيين بحيث لم يتبق للمسلمين في أسبانيا عند منتصف القرن الثالث عشر سوى مملكة غرناطة الصغيرة في الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة . وفي تلك الرقعة الضئيلة بين جبال نيفادا والبحر ، قدر لبقايا دولة المسلمين أن تعيش فترة أخرى من الزمان بلغت نحو من قرنين ونصف<sup>(٣)</sup> .

---

(1) Painter : op. cil. p 195.

(2) Cam Med Hist, vol 6, p. 410

(٣) لين بول : العرب في أسبانيا ص ١٨٤ - ١٨٥ .

## الفصل الثاني

### الأتراك وإحياء قوة المسلمين

ظهور السلاجقة — طغرل بك :

في الوقت الذي تنازعت السيادة على المسلمين في الشرق الأدنى خلافتان ، إحداهما فاطمية شيعية والأخرى عباسية سنية ، وفي الوقت الذي ساءت أحوال هاتين الخلافتين ، الأولى بسبب سياسية الخليفة الحاكم بأمر الله وازدياد نفوذ الوزراء العظام ، والثانية بسبب تفاقم سلطان بنى بويه الذين سيطروا على الخلفاء العباسيين سيطرة تامة ؛ في ذلك الوقت ظهرت قوة فتية على مسرح الشرق الأدنى — هي قوة الأتراك — لتبث في العالم الإسلامي روحاً جديدة ، مما أدى إلى تغيير ميزان القوى مرة أخرى بين المسلمين والبيزنطيين في الشرق الأدنى<sup>(١)</sup> .

والمحوظ أن بنى بويه اعترافهم الضعف منذ أواخر القرن العاشر للميلاد بسبب المنازعات بين أمراءهم . وكان ذلك عندما ظهرت قوة أخرى في إيران — هي قوة الغزنويين الأتراك — الذين استطاعوا أن يقضوا على آخر الأمراء السامانيين سنة ٩٩٩ . ولم يلبث أن تمكن محمود الغزنوي (٩٩٨ — ١٠٣٠) من السيطرة على إقليم خراسان بأكمله ، كما انتزع من البويهيين جزءاً من عراق العجم ، مما يشير إلى ازدياد نفوذ العنصر التركي في العالم الإسلامي<sup>(٢)</sup> . وبينما واصل الغزنويون فتوحاتهم في شرق إيران والهند ، إذا بقبيلة أخرى — هي

(1) Cam, Med. Hist. vol 4, p. 302.

(2) Setton : A Hist. of the Crusades, vol. I, p. p. 139 - 140.

قبيلة السلاجقة - تخرج من منطقة الإستبس المحيطة ببحر آرال لتوغل في إقليم خراسان .

والسلاجقة قوم من الأتراك الغز ، نسبوا إلى جددهم سلجوق بن تغلق وعاشوا أول أمرهم في إقليم تركستان حتى نزحوا إلى بلاد الإسلام على حدود نهر سيحون ، وهناك اعتنقوا الديانة الإسلامية . وبعد وفاة سلجوق رحل السلاجقة إلى إقليم بخارى حيث ظلوا يتبعون الغزنويين تبعية غامضة ، حتى ثاروا عليهم في نهاية الأمر ، واستطاع زعيمهم طغرل بك الاستيلاء على نيسابور عاصمة خراسان سنة ١٠٣٨ (٤٢٨هـ) في الوقت الذي كان الغزنويون مشغولين عن تلك الأحداث بفتوحاتهم الجديدة في الهند<sup>(١)</sup> . وأخيراً تنبه السلطان مسعود الغزنوي إلى خطر السلاجقة ، فحاول أن يقضى على ذلك الخطر ولكن بعد فوات الأوان ، إذ أنزل به طغرل بك المهزومة في مايو سنة ١٠٤٠ وغنم السلاجقة « من العسكر المسعودي ما لا يدخل تحت الإحصاء » ؛ وبذلك تمت سيطرة السلاجقة على خراسان ، واقتصر نفوذ الغزنويين على أفغانستان<sup>(٢)</sup> . وعندما أدرك مسعود الغزنوي أنه من الصعب إخضاع السلاجقة عن طريق القوة ، حاول استمالهم ودفع خطرهم بالحيلة والسياسة ، فكتب إليهم يعدم « بالمواعيد الجميلة والخلع النفيسة ، وأمرهم بالرحيل إلى آمل الشط - وهي مدينة على جيحون - ونهاهم عن الشر والفساد » ولكن السلاجقة استخفوا بالرسول ، ولم يطمئنا إلى نوايا السلطان مسعود ووعوده ، وقالوا « نحن لا نطيعه ولا نثق إليه<sup>(٣)</sup> » .

وفي ذلك الوقت اختار بتمية زعماء السلاجقة من أسرة طغرل بك أن يعمل كل منهم لحسابه الخاص ، فأخذوا يتوسعون على حساب المسلمين والبيزنطيين

(١) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٤٣٢ هـ .

(2) Cam. Med. Hist. vol 4, p. p. 303-304

(٣) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٤٣٢ هـ .

جميعا ، ونجحوا فعلا في بسط سيطرتهم على أجزاء واسعة من فارس وشمال العراق وأرمينية وآسيا الصغرى . أما طغرل بك نفسه فقد نظم دولته الجديدة وأقر النظام فيها ، كما استولى على الرى سنة ١٠٤٢ — ١٠٤٣ ، وعلى أصبهان سنة ١٠٥٠ ، وأخذ الأخيرة حاضرة لدولته<sup>(١)</sup> . ومن ذلك المركز الجديد ، أخذ طغرل بك يتدخل في شئول الخلافة العباسية .

والواقع إن الخلافة العباسية كانت تمر عندئذ بمحنة قاسية ، بعد أن ظلت قرابة قرن — أى منذ سنة ٩٤٥ — ترزح تحت وصاية بنى بويه وسيطرتهم . ذلك أن بنى بويه عملوا على الحد من نفوذ الخليفة العباسي في بغداد ، فضلا عن البلاد الأخرى التابعة للدولة العباسية . ثم إن اعتناق بنى بويه للمذهب الشيعي وتعصبهم لذلك المذهب وإرغامهم السنيين على الاشتراك في أعياد الشيعة ، كل ذلك أدى إلى انتشار الفتن المذهبية في العراق<sup>(٢)</sup> . وكان أمير الأمراء من بنى بويه في أواسط القرن الحادى عشر هو الملك الرحيم أبو النصر خسرو فيروز (١٠٤٨-١٠٥٥) ، الذى ترك مقاليد الأمور لقمة من أعوانه ، ظهر منهم رجل مغامر اسمه المظفر أبو الحرث أرسلان المعروف بالبساسيري<sup>(٣)</sup> . ولم يتورع البساسيري هذا عن تدبير مؤامرة للقضاء على الخلافة العباسية وإدخال بغداد تحت لواء الخلافة الفاطمية ، بل إنه راسل فعلا الخليفة المستنصر الفاطمي في هذا الشأن<sup>(٤)</sup> . وإزاء ذلك انخطر لم يسع الخليفة القائم بأمر الله العباسي سوى أن يستنجد بالسلاجقة السنيين ، لمساعدته في إيقاد الخلافة العباسية . وفي الوقت الذى قصد البساسيري

(١) المرجع السابق ، حوادث سنة ٤٣٤ هـ ، سنة ٤٤٢ هـ .

(٢) يروى ابن الأثير في حوادث سنة ٤٤٥ هـ ( في هذه السنة في الحرم زادت الفتنة بين أهل الكرخ وغيرهم من السنة ، وكان ابتداءها أواخر سنة أربع وأربعين فلما كان الآن عظم الشر وأطرحت المراقبة للسلطان واختلط بالفريقين طوائف من الأتراك )  
(٣) وصفه ابن القلانسي (ص ٨٧) بأنه ( واحد من الفلمان الأتراك عظم أمره واستفحل شأنه ... واستولى على العباد والبلاد » .

(٤) جمال الدين سرور: النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ص ٩٨ — ١٠٠ .



دار الخلافة في بغداد « ونهبها وأحرقها ونقض أبنيتها واستولى على كل ما فيها »  
سار طغرل بك إلى بغداد سنة ١٠٥٥ ليقضى على البساسيري ويقتله. وهكذا حل  
السلاجقة محل البويهيين في الوصاية على الخلافة العباسية « وتقدم الخليفة إلى  
الخطباء بالخطبة لطرل بك بجوامع بغداد ، فخطب له يوم الجمعة »<sup>(١)</sup> .

ولا شك في أن ما قام به طغرل بك من إنقاذ الخلافة العباسية والمذهب  
السني أضعف عليه مكانة خاصة في العالم الإسلامي. هذا إلى أن طغرل بك استطاع  
بتلك الخطوة أن يحقق للمسلمين قدراً كبيراً من الوحدة هم أحوج ما يكونوا إليها  
عندئذ؛ فصارت إيران والعراق تؤلف وحدة كبيرة دانت بالزعامة الروحية للخليفة  
العباسي وبالزعامة الدنيوية للسلطان الساجوق<sup>(٢)</sup> . أما طغرل بك نفسه فقد خلع  
عليه الخليفة العباسي وأضفى عليه ألقاب التشرية ، كما زوجها الخليفة من ابنته<sup>(٣)</sup> .  
وهكذا تبدل الموقف في العالم الإسلامي عند وفاة طغرل بك سنة ١٠٦٣ ،

(١) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٤٤٧ هـ .

(2) Cam. Med. Hist. vol.4, p. 304

(٣) يلاحظ أنه إذا كان السلاجقة قد ظلوا في ذلك الدور الأول من تاريخهم قوة  
واحدة كبرى ، إلا أنهم لم يلبثوا أن انقسموا داخل هذا الإطار إلى خمسة بيوت :

١ - بيت طغرل بك وتسمى دولته دولة السلاجقة الكبرى ، وقد ملكوا  
خراسان والرى والعراق والجزيرة وفارس والأهواز ، واستمرت دولتهم من  
سنة ١٠٣٩ (٤٢٩ هـ) حتى سنة ١١٣٧ (٥٢٢ هـ) عندما سقطت على يد الخوارزمية .

٢ - بيت سلاجقة كرمان ، وهم عشيرة قاروت بك بن داود بن ميكائيل بن  
سلاجوق ، وهو أخو ألب أرسلان . واستمرت دولتهم من سنة ١٠٤١ (٤٣٢ هـ)  
حتى سقطت على يد الغز التتركان سنة ١١٨٧ (٥٨٣ هـ) .

٣ - سلاجقة عراق العجم وكردستان ، وقد استمرت دولتهم من سنة ١١١٧  
(٥١١ هـ) حتى سقطت على يد الخوارزمية سنة ١١٩٤ (٥٩٠ هـ) ،

٤ - سلاجقة الشام ، وهم من بيت تمش بن ألب أرسلان ، وقد بدأت دولتهم  
سنة ١٠٩٤ (٤٨٧ هـ) واستمرت حتى سنة ١١١٧ (٥١١ هـ) .

٥ - سلاجقة الروم بأسيا الصغرى ، وكانوا من بيت قتلش بن اسراييل بن  
ساجوق ، وقد بدأت دولتهم سنة ١٠٧٧ (٤٧٠ هـ) ولم تسقط إلا على يد الأتراك  
العثمانيين سنة ١٣٠٠ (٧٠٠ هـ) وبذلك كانت أطول دول السلاجقة عمراً .

( م ٦ - الحروب الصليبية )

فبعد أن كانت الامبراطورية البيزنطية تجدد على حدودها الشرقية في القرن العاشر دولة إسلامية منحلة سياسياً ، ومنقسمة على نفسها مذهبياً وحرانياً ، إذا بالعنصر التركي الذي ظهر على مسرح الأحداث في القرن الحادى عشر ييث فى الدولة الإسلامية ، روحاً جديدة وعزيمية قوية ، ويمهىء للمسلمين فى الشرق الأدنى قدراً من الوحدة مكنتهم من استئناف التوسع من جديد ، وبخاصة على حساب جيرانهم البيزنطيين . (١) وكان ذلك فى الوقت الذى دخلت الدولة البيزنطية دور ركود جديد ، بعد الصحوة التى مرت بها فى القرن العاشر ؛ مما أتاح فرصة مواتية للسلاجقة للتوسع على حساب البيزنطيين فى آسيا الصغرى توسعاً آمناً مطرداً فى القرن الحادى عشر . (٢)

على أنه ينبغى ألا نعتقد أن الغزو الساجوقى لأراضى الدولة البيزنطية اتخذ طابعاً إجماعياً مفاجئاً . ففند النصف الأول للقرن الحادى عشر اعتادت الدولة البيزنطية أن تتعرض بين حين وآخر لغزوات قام بها بعض المغامرين من الأتراك السلاجقة ؛ أمثال ابراهيم بن أينال وقتلمش . من ذلك ما قام به إبراهيم بن أينال سنة ١٠٤٨ من غزو أرمينية - التى كان الأباطرة البيزنطيون قد ضموا إلى دولتهم كما سبق أن أوضحنا - فأوغل السلاجقة فى الأراضى البيزنطية حتى وصلوا إلى ملاز كرد وأرزنو وبلغوا طرابزون على شاطئ البحر الأسود ، وعندئذ أكثر السلاجقة من «القتل فى الروم وهزموهم وأسروا جماعة كثيرة من بطارقهم» (٣) . ومع ذلك فإنه يبدو أن طغرل بك لم يكن راغباً فى فتح باب العداء عندئذ مع التسطنطينية ، فأمر بإطلاق سراح القائد البيزنطى الذى أسره ابراهيم

(1) Cam. Med. Hist. vol. 4, p. 302

(2) Vasiliev, op. cit., I, p. 355

(3) Grousset ; Hist. de l'Arménie, p. p. 595 - 596 &

ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٤٤٤ هـ .



ابن أئينال<sup>(١)</sup> ، وأرسل بعثة إلى القسطنطينية ، لعقد الصلح<sup>(٢)</sup> . وليس معنى ذلك أن الأمور هدأت سريعاً بين السلاجقة والبيزنطيين ، إذ استمر المغامرون من السلاجقة يشعلون نار الحرب مع البيزنطيين ، فاجتاح السلاجقة إقليم قرس سنة ١٠٥٢ ، بل إن طغرل بك نفسه غزا أرمينية سنة ١٠٥٤ ودمر ما صادفه من قرى ومزارع فيما بين بحيرة فان وجورجيا وأرزن<sup>(٣)</sup> ؛ وإن كانت الجيوش البيزنطية لم تتمكن بأى حال من الاستيلاء على ما نكرت ، فاكتمت بأن « حصرها وضيق على أهلها ، ونهب ما جاورها من البلاد وأخربها »<sup>(٤)</sup> . ومع أن الأتراك السلاجقة استطاعوا في عهد قسطنطين التاسع ( ١٠٤٢ - ١٠٥٤ ) مد إغاراتهم إلى جميع أنحاء أرمينية بغية السلب والنهب ، إلا أنهم لم ينجحوا في احتلال مركز قوى يثبتون فيه . على أن الموقف تغير عند ما اشتدت هجمات السلاجقة على أراضي الدولة البيزنطية بين سنتي ١٠٥٧ ، ١٠٨١ ، فاجتاحوا كبادوكيا ونهبوا ملطية ( أكتوبر ١٠٥٧ ) .<sup>(٥)</sup> وفي سنة ١٠٥٩ أوغل السلاجقة حتى سيواس وذبحوا فريقاً من أهلها ثم عادوا محملين بالأسلاب والغنائم . ومع ذلك فإنه يمكن القول بأن إغارات السلاجقة استمرت حتى وفاة طغرل بك سنة ١٠٦٣ تستهدف غالباً السلب والنهب دون أن يحاولوا الاستقرار وإقامة دولة لهم داخل أراضي الدولة البيزنطية<sup>(٦)</sup> .

(١) يذكر ابن الأثير أن طغرل بك أسر « قاربط ملك الأبخاز ، فبذل في نفسه ثلاثمائة ألف دينار وهدايا بمائة ألف فلم يجبه إلى ذلك » ( حوادث سنة ٤٤٠ هـ ) .  
(٢) ويقول المقرئ أن ملك الروم هو الذي أرسل يطلب الهدنة من طغرل بك وهداه « وعمر مسجد القسطنطينية وأقام فيه الصلاة والخطبة لطغرل بك » ( السالك ج ١ ص ٣٢ ) .

(3) Grousset ; Hist. de l'Arménie, p. p, 596 - 597.

(٤) ابن الأثير : السالك ، حوادث سنة ٤٤٦ هـ .

(5) Setton . op. cit.. I, p. p. 144-147.

(6) Grousset ; Hist. des Croisades, I, p. XXX,

### ألب أرسلان وموقعة مانزكرت:

وبوفاة طغرل بك وقيام خليفته ألب أرسلان (١٠٦٣-١٠٧٢) مكانه في الحكم ، دخلت سياسة السلاجقة تجاه الدولة البيزنطية دوراً جديداً، إذ غدت هذه السياسة تستهدف الاستيلاء على أراضي تلك الدولة وامتلاكها ، بدلا من مجرد القيام بإغارات محدودة للسلب والنهب. في سنة ١٠٦٥ استولى ألب أرسلان على آنى ثم على قرس ، وهما العاصمتان القديمتان لأرمينية ، والمركزان الأساسيان لقوة البيزنطيين ونفوذهم في الأقاليم الشمالية الشرقية من آسيا الصغرى (١). وبعد أن دمر السلطان ألب أرسلان مدينة آنى اضطر إلى العودة إلى فارس ليخضع بعض أقربائه الذين ثاروا ضده . ومنذ ذلك الوقت غدا الطريق مفتوحا أمام السلاجقة إلى داخل الأناضول ، بعد أن استولوا على قلب أرمينية ، فاستمروا منذئذ — دون أن يرتبطوا بخطة حربية معينة — يمتاحون القرى والضياع ، متجننين بقدر الاستطاعة المراكز القوية المحصنة ، حتى دمروا إقليم كبادوكيا بأكمله ، ثم وصلوا إلى قيصرية فخرّبوها سنة ١٠٦٧ ، واعتدوا على كنيسة القديس باسل (٢).

كل ذلك والامبراطور البيزنطي قسطنطين العاشر دوкас (١٠٥٩ - ١٠٦٧) جامد لا يتحرك ، ولا يحاول إنقاذ البناء الكبير الذي شيده أسلافه في القرن العاشر ، وبخاصة باسل الثاني .

على أنه لم يلبث أن تولى عرش الامبراطورية بعد ذلك رجل نشيط على جانب من الكفاية الحربية ، هو رومانوس الرابع (١٠٦٧ - ١٠٧١) فبدأ بإصلاح الأوضاع الداخلية في الدولة ، ثم أعاد تنظيم الجيش البيزنطي الذي غدت الفرق الأساسية فيه تتألف من جنود مرتزقة من النورمان الإيطاليين والتركمان الأسيويين

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٥٦ هـ .

(2) Vasiliev : op. cit., I, p. 355.

فضلا عن الفرنجة الغربيين . وبذلك الجيش غير المتجانس شرع الامبراطور رومانوس الرابع في استرداد الأناضول حتى الفرات شرقاً من جموع السلاجقة . وعلى الرغم من الظروف القاسية التي أحاطت برومانوس ومهمته ، إلا أنه نجح إلى حد كبير في تحقيق غرضه . هذا وإن كانت خفة الأتراك السلاجقة وسرعة حركتهم لم تمكنه من تنفيذ برنامجه وفق ما كان يشتهي (١) .

وقد سلك رومانوس الرابع طريق سيواس وقيصرية للوصول إلى مرعش على الحدود بين الشام وقيليقية ( سنة ١٠٦٨ ) . ولم تكد تنهى تلك السنة حتى كان الامبراطور قد وصل إلى منبج « في عسكر كثيف » على الضفة الغربية لنهر الفرات - وهناك ترك حامية في أرتاح شرق أنطاكية (٢) . ولكن جموع السلاجقة لم توقف نشاطها في تلك الأثناء ، وإنما واصلوا إغاراتهم المدمرة حتى نهبوا عمورية في قلب فريجيا ، وبذلك لم تعد أرمينية تقف حاجزا بين السلاجقة وقلب آسيا الصغرى ، وصارت مسالك تلك البلاد مألوفة لهم (٣) . على أنه إذا كان السلاجقة قد أوغلوا بهذه الصورة في قلب آسيا الصغرى ، إلا أنهم حرصوا دائماً على عدم الاصطدام بالجيش الامبراطوري ، حتى أنهم كثيراً ما كانوا يتركون خلفهم ما جمعوه من مغانم ومكاسب . ثم كان أن استطاع رومانوس الرابع - على الرغم من ثورة أحد زعماء النورمان المرتزقة في قيليقية - أن يطارد السلاجقة حول قيصرية وأن يوغل في غرب أرمينية ، وإن كان قد قلل من شأن هذه الانتصارات الهزيمة التي أنزلها السلاجقة بحاكم ملطية البيزنطى ، ثم استيلاء السلاجقة على تلك المدينة . وفي سنة ١٠٧٠ أنزل السلاجقة هزيمة

(1) Ostrogorsky : op. cit; p. 304.

(2) Groussel ; Hist. de l' Armenie, p. 626. &

ابن الأثير : الكامل ، سنة ٤٦٣ هـ .

(3) Vasiliev : op. cit. I, p. 355

أخرى بالقائد البيزنطي مانويل كومنين قرب سيواس وأسروا ذلك القائد . هذا مع ملاحظة أن الرها — في بلاد النهرين — ظلت طوال تلك الأثناء في قبضة البيزنطيين ، فصمدت لجميع الهجمات التي تعرضت لها من جانب السلاجقة (١) .

أما ألب أرسلان فكان قد انتهى في ذلك الوقت من تصفية المشاكل الداخلية في دولته ، فعاد من إيران وقد صمم على اتباع سياسة الجهاد الديني العام ضد الروم . وكان أن استولى ألب أرسلان على ملاز كرد (مانزكرت) سنة ١٠٧٠ ، وهي تقع شمالي بحيرة فان ، وكانت من البقايا الأخيرة التي تبقت للدولة البيزنطية في أرمينية ، ثم اتبع ذلك باسترداد ملطية مرة أخرى من البيزنطيين . وأخيراً قصد الرها « فحصرها فلم يظفر منها بطائل » ، وعندئذ اتجه ألب أرسلان على رأس قواته ضد حلب — وأميرها وقتئذ رشيد الدولة محمود المرديسي — فخضعت حلب للسلاجقة ، وأعان بنو مرديس تبعيتهم لألب أرسلان الذي « خلع على محمود ( المرديسي ) وأعادته إلى بلده » (٢) .

وفي تلك الأثناء شرع رومانوس الرابع في القيام بمحاولة جديدة لاسترداد أرمينية — وكان ذلك في ربيع سنة ١٠٧١ — فخرج على رأس جيش ضخم يتألف من مائة ألف مقاتل ، وإن كان معظم هذا الجيش مؤلفاً من مرتزقة من النورمان والتركمان ، مما جعله مفتقراً إلى حسن التنظيم . وعند وصول رومانوس الرابع إلى أرزن ارتكب خطأً كبيراً بتقسيم قواته ، فأرسل جزءاً من جيشه لمهاجمة مدينة خسلاط ، في حين سار هو هلى رأس بنية الجيش تجاه مانزكرت واستولى عليها فعلاً . ولم يكده ألب أرسلان يسمع تلك الأخبار حتى ترك حلب قاصداً أرمينية ، حيث اتبع السياسة التقليدية للسلاجقة ، وهي تجنب الإصطدام

(1) Grousset : L'Empire de Levant, p. 165.

(٢) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٦٣ هـ

بالجيوش البيزنطية . وعندما أرسل ألب أرسلان إلى الإمبراطور رومانوس الرابع يطلب مهادنته ، رد الإمبراطور قائلا « لاهدنة الإبارى » أى أنه ينوى غزو بلاد السلاجقة حتى يصل إلى قلب دولتهم بالرى ؛ وعندئذ انزعج السلطان ألب أرسلان ، ولم يعد هناك مفر من القتال (١) .

وفي ١٩ أغسطس سنة ١٠٧١ التقى ألب أرسلان بمخصمه رومانوس الرابع جنوبي ملاز كرد ( مانزكرت ) ، أو على وجه التحديد بين مانزكرت و خلاط . وفي الموقعة الحاسمة التي دارت بين الطرفين حلت الهزيمة بالبيزنطيين ، ووقع الإمبراطور رومانوس الرابع نفسه أسيراً « وقتل من الروم ما لا يحصى حتى امتلأت الأرض بجثث القتلى » (٢) . ويقال إن الإمبراطور البيزنطي أبل بلاء حسناً وحارب بشجاعة وبسالة حتى سقط فرسه قتيلاً من تحته ؛ ولكن الحياة لعبت دورها عندئذ في إضعاف قوة البيزنطيين ، إذ انقض عنهم جنودهم المرتزقة من التركان واستجابوا لنداء رابطة الدم فانضموا إلى جانب السلاجقة . بل إن بعض القادة البيزنطيين تخلوا عن إمبراطورهم في تلك اللحظة الحرجة فأشاعوا خبر الهزيمة والمعركة مازالت دائرة ، وعندئذ فر الجنود تاركين الإمبراطور يقع في قبضة أعدائه (٣) .

ومهما يكن من أمر ، فإن موقعة ملاز كرد ( مانزكرت ) كانت أكبر كارثة حلت بالإمبراطور البيزنطي حتى نهاية القرن الحادى عشر . وليس هذا مجال الإفاضة في أثر الموقعة في التاريخ البيزنطي ، وإنما تكفى الإشارة إلى أنها جاءت دليلاً على نهاية دور الدولة البيزنطية في حماية المسيحية من ضغط الإسلام ؛ وفي حراسة الباب الشرقى لأوروبا من غزو الأسيويين ، وبذلك صار على الغرب

---

(١) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٦٣٣ هـ .

(٢) للرجع السابق والسنة نفسها .

(3) Vasiliev : op. cit. I, p 356.



الأوربي أن يقوم بدوره في هذا المضمار بدلا من اعتماده حتى ذلك الوقت على الإمبراطورية البيزنطية . وبعبارة أخرى فإن موقعه مائز كرت تبرر — في نظر كثير من المؤرخين — ما حدث سنة ١٠٩٥ من دعوة للحرب الصليبية في الغرب الأوربي ، على أساس أن هذه الدعوة إنما جاءت رد فعل للكارثة التي حلت بالدولة البيزنطية سنة ١٠٧١<sup>(١)</sup> .

على أنه ثمة حقيقة أخرى أ كسبت موقعة ملازكرد (مانزكرت) أهميتها الخطيرة في التاريخ ، هي أن المجتمع البيزنطي كان قد بلغ عندئذ درجة من الانحلال جعلته لا يقدر خطورة تلك الكارثة . حقيقة إن انتصار السلاجقة في ملازكرد كان لا يعنى — بالنسبة لأقربهم المحدود في ذلك الوقت — أكثر من امتلاكهم أرمينية ثم أنطاكية والرها . وفي ضوء هذه الحقيقة عامل السلطان ألب أرسلان أسيره الإمبراطور رومانوس الرابع معاملة طيبة ، فأحسن وفادته ثم أطلق سراحه بعد ثمانية أيام من أسره ، وأعادته إلى بلاده معززا ؛ بعد أن جهزه بعشرة آلاف دينار يستعين بها على السفر<sup>(٢)</sup> ويبدو أن كل ما كان يطمع فيه ألب أرسلان هو أن تقف الامبراطورية البيزنطية موقف الحياد إزاء جهود السلاجقة لتوحيد الدولة الإسلامية في الشرق الأدنى ، وأن يقوم الامبراطور برد خصوم السلطان الفارين من وجهه إلى الأراضى البيزنطية<sup>(٣)</sup> . وهكذا بدلا من أن يستغل ألب أرسلان انتصاره في محاولة احتلال بقية آسيا الصغرى ، إذا به يتجه سنة ١٠٧٢

(1) Ostrogorsky, op. cit. p. 305

(٢) يروى ابن العبري أن ألب أرسلان عندما رأى الإمبراطور الأمير وبخه وقال له : « ألم أرسل لك في المهادنة فأبيت ؟ » فقال : دعنى من التوبيخ وافعل ما تريد . فقال السلطان « ما عزمت أن تفعل بى إن أسرتنى ؟ » فقال « القبيح ا » قال له : « فما تظن أننى أفعلك بك ؟ » قال « إما أن تقتلنى وإما أن تشرفنى فى بلادك ، والآخرى بميدة هى العفو وقبول الأموال واصطناعى نائبا عنك » . قال « ما عزمت على غير هذا » . ففداه بألف ألف دينار . وأن يطلق كل أسير عنده من المسلمين . ( ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ١٨٥ ) .

(3) Setton : op. cit. ps. I; 149, 193.

إلى الأطراف الشرقية من دولته لإخضاع بلاد ما وراء النهر ( جيحون )<sup>(١)</sup> .  
ولكن البيزنطيين — بانشقاقهم وانقسامهم على أنفسهم — هم الذين وسعوا  
الخرق وضاعفوا من خطر الهزيمة ؛ فلم يكفهم ضياع أرمينية ، وإنما تسببوا في  
فتح أبواب آسيا الصغرى على مصاريعها أمام السلاجقة . ذلك أن أخبار كارثة  
ملازكرد لم تكذب على القسطنطينية حتى أعلن ميخائيل السابع امبراطورا  
( ١٠٧١ — ١٠٧٨ ) . وعند إطلاق سراح رومانوس الرابع ألقى القبض عليه  
وسملت عيناه ، وعلى تلك الصورة توفي رومانوس بعد ما أبداه من شجاعه في  
مازكرد<sup>(٢)</sup> .

أما ألب أرسلان فقد قتل سنة ١٠٧٣ أثناء حروبه في بلاد ما وراء النهر  
( جيحون ) ، فخلفه ابنه ملكشاه ( ١٠٧٢ — ١٠٩٢ ) الذي ثبت دعائم دولة  
السلاجقة حتى اتسعت في عهده وامتدت من حدود الصين شرقا حتى بحر مرمرية  
غربا .<sup>(٣)</sup> ومع ذلك فإنه من الخطأ الاعتقاد في أن امتداد دولة السلاجقة غربا  
على عهد ملكشاه إنما جاء ثمرة جهوده الشخصية ، لأنه من الحقائق التي تسترعى  
انتباهنا أن هذا السلطان لم تطأ قدمه أرض الأناضول ، وإنما قام بمواصلة  
الحرب ضد البيزنطيين أحد أقارب ملكشاه وهو سليمان بن قتلش الذي تمكن من  
بسط نفوذ السلاجقة على ثلاثة أرباع آسيا الصغرى تقريبا<sup>(٤)</sup> . وساعد سليمان

(١) ابن الأثير : الكامل ، سنة ٤٦٣ — ٤٦٥ هـ .

(٢) Vasiliev : op. cit. I, p. 356.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، سنة ٤٦٥ هـ . ابن العبري ص ١٨٦

(٤) حدث في أواخر أيام السلطان طغرل بك أن انشق عليه أحد أبناء عمومته

وهو قتلش بن إسرائيل بن سلاجوق ، ونزح إلى المنطقة الجبلية الواقعة جنوبي بحر قزوين ومعه  
بعض التركمان . ولم يلبث قتلش أن أعلن الثورة على ألب أرسلان . واختار أبناء قتلش — ومع  
كل منهم عصبية من التركمان — أن يحتموا بجبال آسيا الصغرى وفيانها . وقد ظهر من هؤلاء  
الأبناء سليمان بن قتلش الذي أخذ يعمل على التوسع في آسيا الصغرى لحسابه الخاص  
ضد ملكشاه والبيزنطيين جميعاً ؛ مما يعتبر مقدمة لدولة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى .

« Setton ; op. cit. I p. 150 » .

ابن قنلمش في تحقيق سياسته الحالية التي أمست عليها آسيا الصغرى من انحلال اجتماعى ونقص فى السكان ، بعد أن هجر كثيرون أرضهم ، وبخاصة فى الجهات الشرقية والشمالية من شبه الجزيرة ، مما ترك الطريق مفتوحا أمام السلاجقة لاحتلال الضياع الخربة التى هجرها أصحابها من البيزنطيين فى آسيا الصغرى .

### توسع السلاجقة فى آسيا الصغرى :

ثم كان أن قامت حرب أهلية جديدة داخل الدولة البيزنطية ، مكنت السلاجقة من الاستيلاء على فريجيا وبيثنيا حتى بحر مرمره ، ومن الاستيلاء على ليديا وأيونيا حتى بحر إيجه . وحسبنا دليل على انحلال أوضاع الامبراطورية البيزنطية فى القرن الحادى عشر أنه تولى عرش الامبراطورية فى مدى ست وخمسين سنة ( ١٠٢٥ - ١٠٨١ ) ثلاثة عشر امبراطورا منهم امرأتان ، بمعدل أربع سنوات تقريبا لكل امبراطور ، مما يشهد على حالة عدم الاستقرار التى كانت تعيش فيها الامبراطورية فى ذلك العصر . ثم إن جميع أولئك الأباطرة — باستثناء واحد أو اثنين — كانوا على قدر ضئيل من القدرة والكفاية ، مما أتاح فرصة طيبة للطامعين من حكام المدن والولايات للثورة والاستقلال عن الحكومة المركزية فى القسطنطينية<sup>(١)</sup> .

وقد حدث فى مستهل سنة ١٠٧٨ أن خرج نيقفور ( Nicephorus Botaneiates ) - حاكم إقليم عمورية فى فريجيا - على الأمبراطور ميخائيل السابع دوقاس . ولم يتردد نيقفور الثائر فى إعلان نفسه إمبراطورا باسم نيقفور الثالث ، بل إنه استعان بالسلاجقة الذين تدفقوا على غرب آسيا الصغرى واستولوا باسم الحاكم الثائر على كثير من المدن مثل نيقية ونيقوميديا وخالقدونيا والبسفور . وكانت هذه أول مرة يحتل فيها السلاجقة نيقية بوصفهم حماة الامبراطورية ، أى باسم الإمبراطور

(1) Chalandon ; Regne d'Alexis Comnenie, p. I. f.

تقفور الثالث (١٠٧٨).<sup>(١)</sup> وإذا كانت تلك المدن قد ظلت من الناحية الشكلية تابعة للامبراطورية البيزنطية ، إلا أن الحاميات الامبراطورية الجديدة التي قامت فيها جاءت من نوع غريب ، إذ تألفت من رجال يدينون بالإسلام ويجدون لذة في الإغارة على القرى والضياع المجاورة للنهب والتدمير ، فضلا عن أنهم قطعوا الاتصال بين القسطنطينية وداخية الأناضول . ولم تكتمل تنهية سنة ١٠٧٨ إلا وكانت حامية نيقية الساجوقية قد رفعت راية العصيان في وجه تقفور الثالث الذي أقامها في تلك المدينة .<sup>(٢)</sup> وفي تلك المرة لم يعدم السلاجقة وسيلة للعثور على خائن بيزنطي جديد — اسمه تقفور أيضاً *Nicephorus Melesenus* عمد اتفاقية مع سليمان بن قتلش ، فتعهد الأخير بمساعدة الثائر في الاستيلاء على القسطنطينية مقابل حصول السلاجقة على نصف المدن والأقاليم التي سبق أن ساعدوا تقفور الثالث في الإستيلاء عليها<sup>(٣)</sup> .

وكان أن أفلح تقفور الثائر من كوس سنة ١٠٨١ ومعه جموع جديدة من السلاجقة ، فاحتلوا نيقية وبيثينا بأكملها . وكان احتلال السلاجقة لتلك المركز وغيرها نهائياً وثابتاً في تلك المرة . ولكن إذا كان السلاجقة قد باشروا نشاطهم الحربي عندئذ بوصفهم حلفاء لتقفور الثائر ، إلا أنه حدث في السنة نفسها (سنة ١٠٨١) أن صفت الامبراطورية مشاكها الداخلية بإعلان ألكسيوس كومنين امبراطورا أوحداً ، ودخول تقفور الثائر في طاعة الامبراطور الجديد ، وعندئذ رفض السلاجقة وزعيمهم سليمان بن قتلش الاعتراف بأى حق للامبراطورية البيزنطية في المدن والأراضي التي احتلوها في آسيا الصغرى .<sup>(٤)</sup> وقد اختار سليمان بن قتلش الساجوقية مدينة نيقية لتكون مركزاً له ، وهي المدينة التي أصبحت

(1) Vasiliev : op. cit., I, p. 357.

(2) Ostrogorsky ; op. cit., p. p. 308-309

(3) Ostrogorsky : op. cit., p. 308

(4) Vasiliev. op. cit. I, p. 357.

أول عاصمة لسلطنة سلاجقة الروم في الأناضول ، حتى حلت محلها قونية فيما بعد ( ١٠٨١ - ١٣٠٢ ) . كذلك خسر البيزنطيون في ذلك الوقت نيقوميديا التي لم يستطع الامبراطور ألكسيوس كومنين استردادها إلا بعد أن توفي سليمان سنة ١٠٨٦ م . ثم كان أن احتل الأتراك السلاجقة مدينة أزمير على بحر إيجه ، فقام أميرها التركي زاخاس بإنشاء أسطول مكنه من غزو الجزر الكبيرة القريبة من شاطئ آسيا الصغرى ، بل لتهدد القسطنطينية ذاتها<sup>(١)</sup> . وفي الشمال الشرقى من شبه الجزيرة استطاعت أسرة دانشمند التركمانية تأسيس إمارة قوية حول قيصرية وسيواس وأماسيا ، وكانت هذه الإمارة مستقلة عن سلطنة الروم وتابعة للسلطان ملكشاه مباشرة<sup>(٢)</sup> . ولا شك في أن هذه الإمارات العديدة التي نشأت في ظل حركة التوسع السلجوقي ، والتي أخذت كل منها تعمل لحسابها الخاص تحت ستار سلجوقي عام ، أقول إن هذه الإمارات جعلت مهمة استرداد آسيا الصغرى صعبة وشاقة أمام المسيحيين<sup>(٣)</sup>

وهكذا كان الأتراك — عند قيام ألكسيوس كومنين امبراطور أعلى الدولة البيزنطية سنة ١٠٨١ — هم السادة الحقيقيون في آسيا الصغرى من القرات شرفا حتى بحر مرمرة غربا<sup>(٤)</sup> . على أنه من المهم أن نلاحظ أنه لم توجد وحدة تربط أولئك الأتراك ، وإتماظل الأمراء المحليون — مثل زاخاس أمير أزمير ، ودانشمند في كابا دو كيا — لا يعترفون بالطاعة لسليمان بن قنالمش . وبعبارة أخرى فقد ظلت آسيا الصغرى دون سلطة سياسية موحدة تسيطر عليها حتى قيام سلطنة قونية سنة ١٠٩٢ على يد قانج أرسلان الأول ، ابن سليمان<sup>(٥)</sup>

(1) Ostrogorsky : op cit, p 319.

(2) Grousset : L'Empire du Levant, p p. 170 - 173,

(3) Cam, Med, Hist, vol. 4, p. 331

(4) Setton : op. cit: vol 1, p. 213.

(5) Cam. Med. Hist, vol. 4, p. p. 331-332.

أما سواحل آسيا الصغرى - السواحل الشمالية المطلّة على البحر الأسود بما فيها طرابيزون ، والسواحل الجنوبية المطلّة على البحر المتوسط حتى قيلقية - فقد ظلت في قبضة البيزنطيين . ولعله ما يسترعى انتباهنا أنه بينما كانت نيقية على مشارف البسفور بيد الأتراك السلاجقة منذ سنة ١٠٨١ ، فإن هناك مدن أخرى متطرفة في الشرق - في الشام مثل أنطاكية، وشرقي الفرات مثل الرها - بقيت تابعة للدولة البيزنطية ، فقامت بها حاميات بيزنطية وزعماء من الأرمن يعترفون بالسيادة للقسطنطينية ، واستمرت أنطاكية على ذلك الوضع حتى سنة ١٠٨٥ والرها حتى سنة ١٠٨٧<sup>(١)</sup>.

ولم تلبث أن أخذت المدن الكبرى في آسيا الصغرى تستسلم واحدة بعد أخرى للأتراك بعد أن خربت الأراضي المحيطة بها بسبب كثرة ما تعرضت له من هجمات، مما جعل كثيراً من أهالي المدن والضياع البيزنطيين يهجرونها ويتركونها قاعاً صيفياً ليحتلها الأتراك . ويبدو أن سليمان بن قنالمش حرر كثيراً من عبيد الأرض الذين كانوا يفلحون ضياع كبار الملاك البيزنطيين في آسيا الصغرى ، وبذلك اكتسب ولاء تلك الفئة التي طالما قاست الكثير من الاستعباد والظلم . ولعل هذه الحقائق كلها هي التي جعلت من الصعب على آل كومنين وعلى رجال الحملات الصليبية التي أخذت تفد من الغرب منذ أواخر القرن الحادى عشر استرداد أراضي الأناضول من الأتراك، بعد أن انتشرت فيها قبائل السلاجقة والتركان وضربوا فيها خيامهم حتى غدت وكأنها قطعة من مراعى القرعيز<sup>(٢)</sup>.

(1) Chalandon : Regne d'Alexis Comnene, p. 12

(2) Grousset : L'Em

## الفصل الثالث

### الشرق الأدنى في أواخر القرن الحادى عشر

#### النورمانه فى آسيا الصغرى :

استعان الإمبراطور البيزنطى رومانوس الرابع بمجموع من النورمان المرتزقة ، الوافدين من صقلية وجنوب إيطاليا ، وكان يرجو أن يتمكن بفضل هذه القوة من صد خطر السلاجقة فى آسيا الصغرى<sup>(١)</sup> . وقد برز من هؤلاء الغامرين النورمان رجل طموح اسمه رسل باليل *Roussel de Bailleul* أراد أن يستغل الصراع بين البيزنطيين والسلاجقة فى الشرق لتحقيق مكاسب خاصة لنفسه ، ففكر فى إنشاء دولة مستقلة فى الأناضول على حساب البيزنطيين والسلاجقة جميعاً<sup>(٢)</sup> . ولم يلبث رسل باليل أن أعلن عصيانه سنة ١٠٧٣ فأخضع لحسابه الخصاص الجهات المحيطة بقونية وأنقره ، وأخذ يوجه هجماته ضد البيزنطيين حيناً والسلاجقة أحياناً . وهكذا وجد القائد البيزنطى اسحق كومنين - الذى كان مكلفاً بمحاربة السلاجقة فى آسيا الصغرى - نفسه بين نارين مما أوقعه أسيراً فى قبضة السلاجقة<sup>(٣)</sup> .

ولم يستطع الإمبراطور البيزنطى ميخائيل السابع السكوت عن خيانة رسل ، وهو المفروض أن يكون أجيبراً للامبراطورية خاضعاً لها مطيعاً لأوامرها ، فأرسل الإمبراطور حملة جديدة ضد رسل بقيادة حنادوقاس عم الإمبراطور . ولكن هذه الحملة منيت هى الأخرى بالهزيمة جنوبى عمورية ، وأسر القائد البيزنطى تلك المرة

(1) Setton : op, cit. I. p. 200

(2) Brehier : Vie et Mort de Byzance I. p. 283

(3) SchLumberger : Recits de Byzance et des Croisades, p, 82.

أيضاً<sup>(١)</sup> . ولم يلبث أن ازداد بأس رسل وبطشه بعد أن شعر بقوته وتفوقه على الإمبراطورية الهزلية ، فشق طريقه إلى البسفور في مواجهة القسطنطينية ؛ حيث أحرق بعض القرى البيزنطية . ثم إن رسل لجأ إلى إعلان أسيره حنا دوقاس إمبراطوراً حتى يكسب نفسه وحكمه صبغة شرعية<sup>(٢)</sup> .

وهنا خشى الامبراطور ميخائيل السابع أن يفعل النورمان بالأناضول مثلما فعلوا في البلقان ، لذلك استنجد بالسلجقة ضد النورمان مما أنزل أبلغ الضرر بالنفوذ البيزنطى ، لما ترتب على ذلك من تثبيت أقدام الأتراك السلجقة في آسيا الصغرى<sup>(٣)</sup> . ذلك أن سليمان بن قتلش عقد اتفاقية مع الامبراطور البيزنطى سنة ١٠٧٤ تعهد فيها السلجقة بتقديم المساعدة المطلوبة للإمبراطورية ، بشرط استيلائهم على الأراضي التي يفتحنها . ولم يكن مع رسل دى باليل أكثر من ثلاثة آلاف من المغامرين النورمان ، فلم يستطع الصمود في وجه السلجقة وحلت به الهزيمة ، وإن كان قد استطاع أن يحتفظ لنفسه برقعة ضيقة من الأرض قرب سيواس ، ومن هناك أخذ يحاول مرة أخرى ضرب البيزنطيين بالسلجقة وتهديد موانئ البحر الأسود . وصادف عندئذ وصول قائد ساجوق جديد إلى الأناضول — هوتش — الذي أخذ بدوره يساعد البيزنطيين ، فاستدرج رسل باليل حتى قبض عليه ثم سلمه للقائد البيزنطى الجديد فى آسيا الصغرى ، وهو ألكسيوس كومنين الذى غدا امبراطوراً فيما بعد<sup>(٤)</sup> .

وهكذا استسلم أتباع رسل من النورمان فى آسيا الصغرى ، وفشلت تلك المحاولة التى قام بها النورمان لإقامة دولة لهم فى الأناضول ، وذلك قبل أن يقيم

(1) Osirogorsky : op. cit. p. 307.

(2) Brehier ; Vie et Mort de Byzance, p. 284

(3) Schlumberger : Recits de Byzance, p. p. 84 - 85

(4) Brehier : op. cit. p. 284



الصلبييون النورمان إمارتهم في أنطاكية بعشرين سنة . ومهما يكن من أمر ، فإن أهمية حركة رسل باليل ترجع إلى كونها أول محاولة قام بها بعض الغربيين لتثبيت أقدامهم في الشرق الأدنى في عصر الحروب الصليبية ، فضلا عما ترتب عليها من ازدياد نفوذ السلاجقة في آسيا الصغرى (١) .

### دولة الأرمن الأولى في طوروس :

اتخذت حركة انتشار السلاجقة في آسيا الصغرى اتجاهها أفتياً من الشرق إلى الغرب ، عبر أرمينية وكبادوكيا وفريجيا وبيثينيا وأيونيا، حتى شملت جميع الجهات الشمالية والوسطى من شبه الجزيرة . أما الأقاليم الجنوبية والشرقية من آسيا الصغرى — حول طوروس وملطية ثم الرها وأنطاكية — فلم يتجه إليها السلاجقة في أول الأمر ، مما أدى إلى عزل تلك للمنطقة عن بقية بلاد الإمبراطورية البيزنطية ، ثم وقوعها بين شقي الرحي في الصراع التأم بين البيزنطيين والسلاجقة في آسيا الصغرى . ولم تلبث هذه الأقاليم أن أصبحت مركزا لحركة إحياء أرمينية فريدة في نوعها وذات أهمية بالغة بالنسبة لتاريخ الحروب الصليبية ، لأنها تفسر لنا السهولة التي استطاع بها الصليبيون بعد عشرين سنة الوصول إلى الجزيرة والشام والاستيلاء على الرها وأنطاكية (٢) .

وكانت الإمبراطورية البيزنطية قد منحت ملوك أرمينية وأمرائها ضياعاً واسعة في إقليم كبادوكيا ، مما ترتب عليه هجرة أعداد كبيرة من الأرمن إلى ذلك الإقليم في شرق آسيا الصغرى (٣) . ولكن توسع الأتراك السلاجقة في كبادوكيا واستقرارهم في ذلك الإقليم ، جعل أولئك الأرمن يبحثون عن مأوى

(1) Grousset : L'Empire du Levant p. p. 168-169

(2) Grousset : Hist. de l'Arménie, p. 554.

(3) Setton : op. cit p. 179.

جديد، فأتجهوا نحو إقليم قيليقية الجبلية في جنوب شرق آسيا الصغرى، وتركزوا في الجهات المحيطة بملطية والرها وأنطاكية (١) .

وليس هناك من شك في أن تلك الهجرة الأرمنية ترتب عليها تغيير معالم المنطقة ، فضلاً عن أن الحكومة البيزنطية — رغم عداؤها التقليدي للأرمن بسبب الخلاف المذهبي بين الكنيستين (٢) — استطاعت أن تجد في ذلك الركن الجنوبي الشرقي من آسيا الصغرى جنوداً اعتمدت عليهم في مواجهة الغزو الساجوقى . ويأتى فيلاريتوس براخاموس Philaretos Brakhamios (٣) على رأس زعماء الأرمن الجسورين الذين أفادوا من عجز الإمبراطورية البيزنطية عن حماية أراضيها في جنوب شرق آسيا الصغرى . وكان هذا القائد الأرمنى قد عمل تحت قيادة الإمبراطور رومانوس الرابع ، حتى إذا ما حلت هزيمة مانزكرت بذلك الإمبراطور سنة ١٠٧١ ، رفض فيلاريتوس الاعتراف بالإمبراطور الجديد ميخائيل السابع (٤) .

وهنا يلاحظ أن الأرمن في شرق آسيا الصغرى استخفوا بالبيزنطيين بعد هزيمة مانزكرت سنة ١٠٧١ . وفي الوقت نفسه عمل الأرمن على استرضاء السلاجقة بقدر المستطاع ومهادتهم (٥) . ولم يلبث فيلاريتوس أن دعم مركزه حول مرعش ورعبان والإبلستين ، حيث أقام إمارة قوية مستقلة عن الحكومة البيزنطية ، ازدادت منعة بعد أن نجح في استرداد ملطية التي كان السلاجقة قد استولوا عليها سنة ١٠٦٩ . وعندما ظهرت قوة فيلاريتوس واتضح أهميته ، دخل في تبعيته بعض زعماء الأرمن المجاورين ؛ الذين كانوا بدورهم قد انتزعوا أجزاء متفرقة من قيليقية . وهكذا أصبح فيلاريتوس يسيطر على ثلاث مدن رئيسية

(1) Iorga : L'Armenie Cilicienne p. p. 87 - 88

(2) Idem, p. 89.

(٣) أطلق عليه ابن الأثير اسم القلادروس ( الكامل ، حوادث سنة ٥٠٠ هـ )

(4) Brehier: op. cit. p. 284,

(5) Cam. Med. Hist, vol, 2, p. 260

في قيليقية، هي طرسوس والمصيصة وعين زربة. وفي سنة ١٠٧٧ أرسل فيلاريتوس أحد رجاله للاستيلاء على الرها من البيزنطيين، فحاصرها ستة أشهر، حتى استسلمت له المدينة أخيراً بفضل مساعدة من بداخلها من الأرمن. أما أنطاكية فقد قتل آخر حاكم بيزنطي عليها سنة ١٠٧٨، فخشى أمراء المدينة وأهلها — ومعظمهم من الأرمن — أن يستولى السلاجقة المسلمون عليها؛ ولذلك سلموها مختارين لفيلاريتوس<sup>(١)</sup>.

والواقع إن المسيحيين في أنطاكية والرها وغيرها من المدن والأقاليم الشرقية التابعة للدولة البيزنطية، وجدوا أنفسهم وسط محيط واسع من الأتراك السلاجقة، بعد أن قطع الطريق بينهم وبين قلب الامبراطورية البيزنطية، مما تعذر معه وصول نجدات إليهم من القسطنطينية. لذلك لم يجدوا أمامهم مخرجاً سوى تكوين إمارات صغيرة مستقلة تحت زعامة الأرمن وقيادتهم، وهم الفريق الوحيد بين المسيحيين الشرقيين في تلك المنطقة الذين احتفظوا بكيانهم وروحهم الحربية<sup>(٢)</sup>.

وهكذا وضع فيلاريتوس أساس دولة أرمنية جديدة في جنوب شرق آسيا الصغرى، وهي الدولة التي اكتمل نموها فيما بعد — أي في القرن الثالث عشر — على عصر روبان وهيثوم ملوك أرمنية الصغرى<sup>(٣)</sup>. حقيقة إن الأباطرة البيزنطيين — أوعلى وجه التحديد — الثلاثة الأوائل من آل كومنين (١٠٨١-١١٨٠) استردوا جزء من تلك الدولة الأرمنية التي وضع أساسها فيلاريتوس؛ ولكن ذلك لم يحل دون استمرار دولة الأرمن في طوروس<sup>(٤)</sup>. ولم يلبث الامبراطور نتفور الثالث (١٠٧٨-١٨٠٩) أن اتبع سياسة حكيمة استهدفت تدعيم

(1) Krehler : op. cit. p. 285.

(2) Grousset : L'Empire du Levant, p. 180

(3) Jorga : L'Arménie Cilicienne, p. 89.

(4) Vasilev : op. cit. vol. 2. p. 415.

العلاقات الطيبة مع ذلك الزعيم الأرمني ، في الوقت الذي أظهر فيلاريتوس من جانبه إعتدالا وحكمة ، فاعترف بسيادة الامبراطورية ، وإن كان قد ظل مستقلا من الناحية العملية . ثم إن فيلاريتوس كان حذراً تجاه جيرانه المسلمين ، فاعترف في حكمه للجهات القريبة من الموصل بالتبعية لبني عقيل ؛ وهم أمراء الموصل العرب <sup>(١)</sup> . ويذكر المؤرخ ميخائيل السرياني أن فيلاريتوس أراد أن يؤمن ممتلكاته من ناحية السلطان ملكشاه أيضا ، وأنه كان مستعدا - إذا دعى الأمر - للاعتناق الإسلام في سبيل خدمة مصالحه الخاصة <sup>(٢)</sup> .

على أن السلاجقة كانوا لا يمكن أن يفوضوا البصر تماما عن تلك الإمارة الأرمنية التي اعترضت طريق توسعهم إلى الشام . لذلك انتهز سليمان ابن قلمش الساجوقى فرصة الاضطراب الذي حدث في دولة فيلاريتوس نتيجة لتآمر ابنه ضده ، وباغت أنطاكية « وماسكها سرقة » سنة ١٠٨٥ ، أى قبل استيلاء رجال الحملة الصليبية عليها بثلاث عشرة سنة <sup>(٣)</sup> . وهنا نلاحظ أن قصر المدة بين استيلاء السلاجقة المسلمين على أنطاكية سنة ١٠٨٥ وفتح الصليبيين لها سنة ١٠٩٨ أمر له دلالاته بالنسبة لدارس تاريخ الحروب الصليبية ، لأن تلك الفترة القصيرة لم تكف لحو معالم الحكم البيزنطى وإزالة بقايا الإدارة البيزنطية

---

(١) سيطر العقيليون على الموصل سنة ٩٩٦ على يد الأمير حسام بن القاسم ، وظلوا يحكمون هذه المدينة حتى سنة ١٠٩٦ عندما انتزعها منهم كريبسا ( لربوقا ) الساجوقى . وفي الفترة التي تسلكها عنها كان حاكم الموصل من بني عقيل وهو شرف الدولة أبو الكرام مسلم أمير الموصل من سنة ١٠٦١ حتى ١٠٨٥ .

(٢) كذلك يؤكد المؤرخ ابن الأثير أن فيلاريتوس ( القلادروس ) مثل بين يدي السلطان ملكشاه ، وأن الأخير « أمره على انزها فلم يزل عليها حتى مات وأخذها الأمير نزار ( بزاق ) » .

( السكامل ؛ حوادث سنة ٥٠٠ هـ ) .

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١١٧ .

من المدينة ، مما جعل الدولة البيزنطية تتمسك بحقها الشرعى فى أنطاكية ، وتصر على ذلك الحى منذ اليوم الأول الذى قامت فيه إمارة أنطاكية الصليبية (١)

وثمة ملاحظة أخرى هى أن الإمارة الأرمينية التى أقامها فيلاريتوس لم تندثر تماماً من صفحة التاريخ فى عصر الحروب الصليبية ، لأنه فى الوقت الذى سقطت أنطاكية فى أيدى المسلمين ثم الصليبيين ، احتفظ أحد الأرمن من رجال فيلاريتوس — واسمه جبريل — بملطية ، وإن كان قد أعلن ولاءه للسلاجقة (٢) . ومثل ذلك حدث أيضاً فى الرها ، فباستثناء فترة قصيرة احتل فيها الأمير التركى بوزان (١٠٨٧ — ١٠٩٤) مدينة الرها ؛ استطاع ثوروس — وهو قائد أرمنى آخر كان أبوه من رجال فيلاريتوس — أن يحكم المدينة حتى وصول الصليبيين (٣) حقيقة إن تتش — أخو السلطان ملكشاه — استولى على الرها سنة ١٠٩٤ ، ولكنه أقر ثوروس فى حكم المدينة (٤) .

وهكذا مهد الحكم الأرمنى فى شرق آسيا الصغرى وأطراف العراق والشام لحكم الصليبيين الغربيين ، كما سيتضح لنا عند دراسة تاريخ الحملة الصليبية الأولى وتأسيس إمارة الرها الصليبية سنة ١٠٩٧ . كذلك مهد ذلك الحكم الأرمنى لنشأة مملكة أرمينية الصغرى الصليبية فى أواخر القرن الثانى عشر ، وهى المملكة التى قامت فى الركن الجنوبى الشرقى لآسيا الصغرى ، ونهضت بدور بارز فى تاريخ الحروب الصليبية بل فى تاريخ الشرق الأدنى فى تلك الحقبة ، كما سنشرح ذلك بالتفصيل فيما بعد .

(1) Grousset : Hist. des Croisades I, p. XL III.

(2) Setton, op. cit, I, p. 299

(3) Chalandon : Hist. de la Première Croisade, p. 175&

Runciman : A Hist. of the Crusades, I, p. 75.

(٤) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٤٨٦

### الملاحقة وبعث الشام :

يلاحظ أن استيلاء الأتراك على أنطاكية لم يتم دون إثارة عدة خلافات في صفوف المسلمين في الشرق الأدنى . ذلك أن فيلاريتوس رضى بأن يحكم أنطاكية بوصفه تابعا للأمير الموصل شرف الدولة مسلم بن قريش العميلي ، وأن يدفع لهذا الأمير جزية، إشارة لتلك التبعية . ويبدو أن شرف الدولة أراد أن يستفيد من حالة عدم الاستقرار السائدة في المنطقة المحيطة به لإقامة دولة قوية تمتد من كردستان إلى شمال الشام ؛ ولذلك تحالف مع السلاجقة سنة ١٠٧٨ للمساعدة على حلب من بني مرداس ، وهم القبيلة العربية المنافسة الذين ظلوا يحكمون حلب منذ نصف قرن<sup>(١)</sup> .

وفي ذلك الوقت حضر إلى الشام الأمير السلجوقي تاج الدولة أبوسعيد تتش ابن السلطان العادل ألب أرسلان، وأخو ملكشاه<sup>(٢)</sup> . وكان سبب حضوره إلى الشام أن أخاه ملكشاه « أقطع الشام ومايفتحه في تلك النواحي »<sup>(٣)</sup> . وكان أن بدأ تتش بمحاصرة حلب بمساعدة الأمير شرف الدولة مسلم ، ولكن مسلم لم يلبث أن أدرك خطورة سياسته لما يترتب عليها من تثبيت أقدام السلاجقة في بلاد الشام . لذلك أسرع مسلم العميلي إلى التخلي عن تتش الذي لم يستطع الاستيلاء على حلب بمفرده فرفع الحصار عنها وأجه جنوبا صوب دمشق .

وقد أسرع مسلم من الاستفادة من الموقف في شمال الشام عقب انسحاب تتش ، فاستولى على حلب سنة ١٠٧٩ من صاحبها سابق المرادسي ، وبذلك أصبح مسلم

---

(١) كان أمير بني مرداس في حكم حلب عندئذ هو أبو الفضائل سابق بن محمود ، وهو آخر أمراء تلك الأسرة (١٠٧٦ - ١٠٧٩) .

(٢) انظر زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ص ٢٠٤ .

(٣) يلقب ابن القلاندي تاج الدولة تتش بلقب السلطان (ذيل تاريخ دمشق ص ١١٢) .

(٣) النويري : نهاية الأرب ج ٢٥ ورقة ٣١ ، ابن الأثير : الكامل : حوادث سنة ٤٧١ هـ .

العقيلي سيد حلب والموصل، واعتقد أن في استطاعته مقاومة السلاجقة والحد من نفوذهم. ثم إن الأمير مسلم لم يكتف بأب خدع تنش أخا السلطان ملكشاه واستولى على حلب عن طريق تلك الخدعة، وإنما دخل أيضاً في صراع مكشوف مع سليمان بن قتلش الذي سبق أن رأينا جهوده في فتح الأناضول. ذلك أن سليمان استولى في أوائل سنة ١٠٨٥ على أنطاكية من فيلاريتوس، وهي المدينة التي ادعى بنو عقيل أحقيتهم في ملكيتها، وبذلك بدأ الصراع بين سليمان بن قتلش من جهة والأمير شرف الدولة مسلم من جهة أخرى، وهو الصراع الذي لم ينته إلا باستيلاء السلاجقة على الشام<sup>(٢)</sup>. وقد دارت معركة ضخمة بين الطرفين المتنازعين قرب أنطاكية في صيف سنة ١٠٨٥ انتهت بهزيمة الأمير مسلم ومقتله، وعندئذ توجه سليمان بن قتلش مباشرة لحصار حلب<sup>(٣)</sup> التي قاومت الحصار بقيادة الشريف حسن الحنيتي<sup>(٤)</sup>.

أما تنش — أخو ملكشاه — فكان في تلك الأثناء قد استولى على جزء كبير من بلاد الشام، فأجبه بعد فشله في الاستيلاء على حلب إلى دمشق سنة ١٠٧٩ حيث وجد أنصارا للسلاجقة.

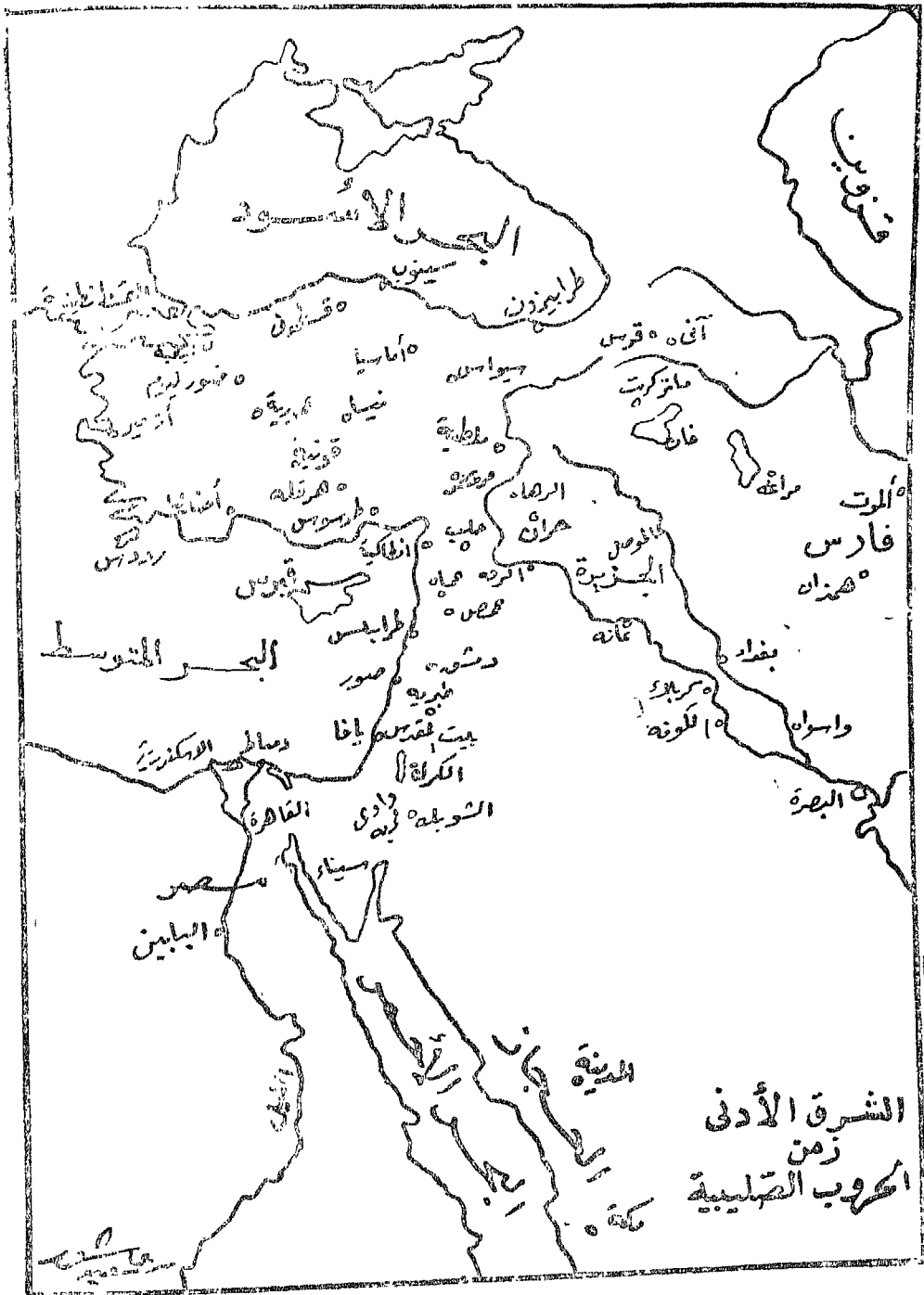
ذلك أن أحد القادة الأتراك من أتباع السلطان ألب أرسلان — واسمه أنسز ابن أوق — كان قد قام قبل ذلك بسبع سنوات بغزو فلسطين ودمشق لحسابه الخاص<sup>(٥)</sup>. ولم تنته سنة ١٠٧١ إلا وكان أنسز قد استولى من الفاطميين على الرملة وبيت المقدس وفلسطين بأكملها، عدا أرسوف. وفي سنة ١٠٧٥-١٠٧٦ استولى أنسز أيضاً على دمشق والمنطقة المحيطة بها. وعندما ثارت بيت المقدس

(1) Setton : op. cit., 1, p. p. 150-152.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ج ٢ ص ٩١ -- ٩٢ (مطبوع)

(٣) وهو الشريف أبو علي الحسن بن هبة الله الهاشمي المعروف بالحنيتي.

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٩٨ — ٩٩.



البحر الأحمر

البحر الأبيض المتوسط

البحر المتوسط

طرابلس

قسطنطينية

أثينا

دمشق

حلب

الرها

ماتركوت

بغداد

الجزيرة

الرها

ماتركوت

ألموت

فارس

ههزان

البحر المتوسط

طرابلس

بغداد

بغداد

دمشق

بغداد

بغداد

بغداد

مصر

بغداد

بغداد

الشرق الأدنى

زمن

الحروب الصليبية



ضده وأعلنت تبعيتها للخليفة الفاطمي ، أخضعها أنسز في عنف وأحدث فيها  
مذبحة رهيبة سنة ١٠٧٦ - ١٠٧٧

على أن أنسز لم يلبث أن فشل في محاولته غزو مصر سنة ١٠٧٧ بعد أن  
تصدى له أمير الجيوش بدر الجمالي وأنزل به الهزيمة<sup>(١)</sup> . ويبدو أن هذا النصر  
الذي أحرزه بدر الجمالي شجعه على إرساله حملة لاسترداد دمشق ، فشرع الفاطميون  
في حصارها فعلا ، في الوقت الذي أخذ تتش يزحف من حلب إلى دمشق ، مما  
جعل الناطميين يؤثرون الانسحاب ، في حين رحب أنسز بمقدم تتش « وخدمه  
وبذل له الطاعة والمناصحة وسلم البلد إليه »<sup>(٢)</sup> . ومع ذلك ، فإن تتش لم يرض  
بأن يكون أنسز إلى جانبه في دمشق ، ففكر في التخلص منه ، وقتله فعلا سنة  
١٠٧٩ ، وبذلك لم يعد هناك من ينافس تتش في دمشق « فأحسن السيرة في أهله  
وعدل فيهم » . وبذلك صار تتش يسيطر على الأقاليم الوسطى من بلاد الشام ،  
وكان ذلك في الوقت الذي استنجد به أهل حلب سنة ١٠٨٦ ضد سليمان  
بن قتلمش الذي أخذ يحاصر مدينتهم في شدة وعنف<sup>(٣)</sup> .

وهكذا أصبحت المعركة المقبلة في شمال الشام محصورة بين اثنين من أمراء  
السلطنة ، أحدهما سليمان بن قتلمش فاتح الأناضول من نيقية إلى انطاكية ، والثاني  
هو تتش أخو السلطان ملكشاه نفسه . وكان أن اصطحب تتش قائده ارتق  
ين أكسب — الذي أقطعه بيت المقدس — واتجه نحو حلب لنزاعه سليمان تلك

(1) Setton ; op. cit. I. p. 94.

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٠٩ - ١١٢ . ويروي الزيوري أن  
أنسز صاحب دمشق أرسل إلى تتش « يستنجد على العساكر المصرية لأنهم أقدموا حصارته  
بدمشق من قبل أمير الجيوش بدر الجمالي » .

(نهاية الأرب ج ٢٥ ورقة ٣٢) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٧١ هـ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٥ (مطبوع) .

المدينة الهامة . وفي المعركة التي دارت بين الطرفين قرب حلب، انهزمت قوات سليمان الذي خر قتيلا في المعركة سنة ١٠٨٦<sup>(١)</sup> . ومن الواضح أن مقتل سليمان بن قتلش ترتبت عليه نتائج خطيرة بعيدة الأثر . ذلك أنه لم يخلف سوى طفلا صغيرا هو قليج أرسلان داود ، مما جعل الأناضول يبقى بين سنتي ١٠٨٦ ، ١٠٩٢ دون حاكم قوى من السلاجقة ، فأنهت الفرصة لصغار الأمراء من التركمان للظهور . ثم إن عدم وجود رجل قوى من زعماء السلاجقة في الأناضول في تلك الفترة بالذات أمر له أهميته العظمى بالنسبة للحملة الصليبية الأولى، لأنه مكن الصليبيين عند وصولهم إلى آسيا الصغرى من أن يشقوا طريقهم في غير صعوبة كبيرة إلى الشام ، فاستولوا على نيقية ، وأحرزوا انتصارهم على السلاجقة في موقعة صور ليوم ، كاسيلي . هذا كله بالإضافة إلى أن مقتل سليمان بن قتلش عند حلب أثار الفرقة في صفوف السلاجقة ، وجعل سلاجقة الروم لا يغفرون لأقربائهم سلاجقة فارس والشام ذلك الجرم . ولذلك لم يقدر للسلاجقة مطلقا أن يتحدوا جميعا لمواجهة الخطر الصليبي ، ولم يحاول أبناء بيت ملكشاه وشمش أن يتعاونوا مع سلاجقة الروم -- وهم خلفاء سليمان بن قتلش -- لإقامة جبهة قوية تحول دون وصول الصليبيين إلى الشام . وهكذا شاء حسن حظ الصليبيين أن يواجهوا كل فرع من بني سلاجق على انفراد ، مما مكنتهم من إنزال الهزيمة بكل بيت من بيوتهم على حدة<sup>(٢)</sup> .

أما عن تنش فيبدو أن انتصاره أمام حلب جعله سيد الموقف في بلاد الشام بأكملها . هذا وإن كان أخوه الأكبر السلطان ملكشاه قد أخذ يتخوف من اتساع نفوذه ، ولذا لم يتركه ينعم بالشام منفردا . وقد استغل ملكشاه فرصة إصرار أهل حلب على ألا يسلموا مدينتهم إلا للسلطان ملكشاه نفسه ، واتجه من

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٩٦ — ٩٧ (مطبوع) .

2 - Grousset : Hist. des Croisades. I, P XLVI.

عاصمته أصبهان إلى حلب عن طريق الموصل ، وذلك ليقوم بتنظيم أوضاع بلاد الشام<sup>(١)</sup> . ولم يلبث أن استولى على قلعة جعبرو على منبع<sup>(٢)</sup> ، حتى إذا ما اقترب ملكشاه من حلب رأى تتش أنه من الحكمة أن يبتعد عنها<sup>(٣)</sup> . وكان أن دخل السلطان ملكشاه حلب ليعيد توزيع الإمارات الشامية ، ففتح حلب لحاجبه المخلص قسيم الدولة آقسنقر مؤسس البيت الزنكي ( سنة ١٠٨٧ ) « فعمرها وأحسن السيرة فيها »<sup>(٤)</sup> ؛ ثم توجه ملكشاه بعد ذلك إلى أنطاكية ، فسلمها من الحسن ابن طاهر وزير سايمان بن قتلش . ثم اتجه إلى السويدية - وهي ميناء انطاكية التريب - فصلى على شاطيء البحر « وحمد الله على ما أنعم عليه مما تملكه من بحر المشرق إلى بحر المغرب »<sup>(٥)</sup> :

أما الرها فقد منحها ملكشاه لقائد آخر من الأتراك اسمه بوزان ( بزنان ) ، في حين صارت أنطاكية التي ظلت دون حاكم منذ وفاة سليمان بن قتلش - من نصيب قائد تركي آخر هو مؤيد الدولة ياغى سيان<sup>(٦)</sup> . وبذلك لم يبق لتتش سوى دمشق وفلسطين ، كما ظلت بيت المقدس بيد الأمير أرتق ، الذي خلفه بعد وفاته سنة ١٠٩١ ابنه سكان الأول . وهكذا استطاع ملكشاه أن يمنع أخاه تتش من إقامة دولة كبيرة موحدة بالشام<sup>(٧)</sup> . وكما أن ظهور تتش

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٩٩ - ١٠٠ ( مطبوع ) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٧٩ هـ .

(٣) يروى ابن واصل أن الأمير أرتق أشار عندئذ على تاج الدولة تتش « بأن يكبس السلطان » ؛ ولكن تتش رد قائلا « لا أكسر جاه أخى الذى أنا مستظل بظله ، فإننا يمود على بالوهن أولا » .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٨ - ( مطبوع ) .

(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٧٩ هـ .

(٦) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٠١ ( مطبوع ) .

(٧) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٩ ( مطبوع ) .

على مسرح الأحداث في شمال الشام سنة ١٠٨٦ أدى إلى مقتل سليمان بن قتلش مما ترتب عليه حرمان آسيا الصغرى من رجل قوى يتزعم السلاجقة ضد خطر الصليبيين المقبل ، فكذلك جاء تدخل ملكشاه بعد ذلك ضد تنش حائلا دون قيام سلطنة للأتراك في الشام ، مما جعل هذه البلاد تعافى الكثير من فوضى الانقسامات . وفي كلتا الحالتين استفاد الصليبيون من ذلك النزاع والاقسام بين أمراء آسيا الصغرى والشام. هذا بالإضافة إلى أن السلطان ملكشاه اصطحب معه عند عودته إلى فارس الأمير الصغير قاج أرسلان بن سليمان بن قتلش<sup>(١)</sup> .

على أن تلك الأوضاع لم ترض تنش ، فلجأ إلى السياسة ، وتوجه إلى أخيه السلطان ملكشاه في بغداد سنة ١٠٩١ واسترضاه، وأستأذنه في التوسع ببلاد الشام على حساب الفاطميين، وعندئذ أذن له ملكشاه بالعود ، « وأمر آقسنقر صاحب حلب وتوران (بوزان) صاحب الرها أن يسيرا في خدمة أخيه (تنش) بعساكرهما إلى أن يستولى على ما هو للمستنصر العاوي صاحب مصر بساحل الشام ، ويتوجها معه إلى مصر ليملكها ! »<sup>(٢)</sup> وكان أن بدأ تنش بمحاصرة حمص حتى استولى عليها من صاحبها ابن ملاعب « وكان الضرر به وبأولاده عظيما على المسلمين » وأسر ابن ملاعب نفسه وولديه ، ثم استولى تنش على عرقه وأقاميه وحاصر طرابلس ، ولكنه لم يلبث أن انصرف عنها<sup>(٣)</sup> .

وهكذا غرقت بلاد الشام في بحر من الفوضى بسبب المنازعات بين السلاجقة بعضهم وبعض ، وبين السلاجقة والفاطميين ، وبين كل من السلاجقة والفاطميين

---

(١) استطاع قاج أرسلان بن سليمان بن قتلش العودة بعد ذلك إلى ملكه الذي ورثه عن أبيه بآسيا الصغرى ؛ وقد عرف قاج هذا في التاريخ باسم « ابن سليمان » كما أطلقت عليه الحوليات الصليبية المعاصرة اسم « سليمان » . انظر :

Setton, : op cit; vol. I, p. 163.

(٢) النويري : نهاية الأرب ج ٢٥ ورقة ٣٢ (مخطوط) .

(٣) المرجع السابق ورقة ٣٢-٣٣ .

من ناحية والبيوت العربية التي كونت لنفسها إمارات مستقلة ببلاد الشام من ناحية أخرى . وزاد من خطورة تلك الفوضى التي عمت بلاد الشام عندئذ ، أنها جاءت في الوقت الذي أخذ الخطر الصليبي يلوح في سماء الوطن العربي في الشرق الأدنى .

### نفظك دولة السلجوقية :

يبدو أن ملكشاه كان يحلم وهو في حلب سنة ١٠٨٧ بإقامة دولة إسلامية واسعة تركية - عربية ، على غرار الدولة العباسية بمناحيها العربي والفارسي - أيام ازدهارها ونضرتها . وكان أن عهد ملكشاه فعلاً بشئون الحكم في دولته إلى أحد رجاله المؤمنين بهذه الفكرة ، وهو الوزير الشهير نظام الملك أبو علي الحسن بن اسحق الطوسي . على أن هذا الوزير اعتمد على العنصر التركي في تنفيذ سياسته ، وهؤلاء الأتراك كانوا سنيين متشددين ، مما أغضب العنصر الفارسي الشيعي في الدولة . وهكذا لم يهدأ الشيعة إلا بعد مقتل نظام الملك في خريف سنة ١٠٩٣ بيد رجل دباي من الباطنية ، مما أحدث فراغاً ضخماً ؛ بل هزة عنيفة بجسم دولة السلاجقة <sup>(١)</sup> ، وذلك « لما كان عليه (الوزير نظام الملك) من حسن الطريقة وآثار العدل والنصفة والإحسان إلى أهل الدين والفقه والتراّن والعلم ، وحب الخير وحميد السياسة » <sup>(٢)</sup> . أما ملكشاه فكان قد زوج ابنته للخليفة العباسي المقتدى ، وأنجبت هذه الزيجة طفلاً صغيراً اسمه جعفر <sup>(٣)</sup> ، مما أثار في نفس ملكشاه رغبة قوية في أن يتولى هذا الطفل الخلافة فيجمع بين ملكي العباسيين والسلاجقة . ولتحقيق هذه الأمنية اكتفى ملكشاه بأن جعل أصهبان مقره الصيفي ،

- 
- (١) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٢ .
  - (٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢١ .
  - (٣) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٤٨٠ هـ

في حين نقل مقره الشتوي إلى بغداد ، ثم لم يلبث أن دعا الخليفة العباسي إلى التنازل عن الخلافة لإبنه جعفر . ولم تمض على هذه الدعوة بضعة أيام إلا وتوفي ملكشاه في نوفمبر سنة ١٠٩٣ ، وقيل إن الخليفة العباسي دس له السم (١) .

وقد جاءت وفاة السلطان ملكشاه إيذاناً بتفكك إمبراطورية السلاجقة . ذلك أن السلطان ملكشاه كان له ثلاثة أبناء أشقاء هم بروكياروق ( بركيارق ) ومحمد وسنجر . على أن ملكشاه كان قد تزوج زوجة جديدة أنجبت له سنة ١٠٨٧ إبناً رابعاً هو محمود الذي كان في الخامسة من عمره تقريباً عند وفاة أبيه . وسرعان ما دب النزاع بين محمود الصغير وأمه تركان خاتون من ناحية ، وبركياروق ( بركيارق ) أكبر أبناء ملكشاه — وكان في الخامسة عشر من عمره — من ناحية أخرى (٢) . وانتهى النزاع بأن احتفظ محمود بأصبهان وفارس ، على أن تكون بنية الدولة السلاجقية بما فيها لقب السلطنة من نصيب بركياروق . على أن محمود وأمه لم يلبثا أن توفيا بعد قليل — خلال سنة ١٠٩٤ — وعندئذ اتجه بركياروق « في الحال إلى أصبهان فدخلها وملكها » (٣) .

ولكن الخطر الأكبر الذي هدد بركياروق جاء من ناحية عمه تنش ، الذي لم يرض عن التنظيم الذي أجراه أخوه ملكشاه في بلاد الشام سنة ١٠٨٦ — ١٠٨٧ . ففي الوقت الذي كان تنش يؤمل أن تكون بلاد الشام كلها من نصيبه ؛ إذا بالسلطان ملكشاه — كما مر بنا — يعطي حلب لحاجبه آقسنقر ، وبذلك لم يبق لتنش سوى دمشق وأواسط الشام . لذلك لم يسكد تنش يسمع

(١) اختلفت روايات المؤرخين في سبب وفاة ملكشاه ، فذكر ابن الأثير مثلاً ( حوادث سنة ٤٨٥ هـ ) أنه خرج للصيد فعاد مريضاً ، وأن سبب مرضه أنه أكل من لحم الصيد دون أن يستوفي اللحم المضجج « فثقل مرضه ، وكانت حمى محرقة » . انظر أيضاً ابن العبري ص ١٩٤ .

(٢) عن أحداث هذا النزاع ، انظر ابن الأثير : حوادث سنة ٤٨٥ هـ .

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٧ .

بوفاة أخيه ملكشاه حتى أسرع إلى الاستفادة من حالة الفوضى وعدم الاستقرار التي أمست فيها الدولة السلجوقية لتحقيق مطامعه ، فاستولى على هيت « وعاد إلى دمشق يتجهز لطلب السلطنة »<sup>(١)</sup> . وبعد أن جمع تتش عساكره « وأخرج الأموال » اتجه نحو حلب حيث طلب من أفسنقر الاستسلام له . وعلى الرغم مما كان يضمه آفسنقر من عداة لتتش ، إلا أنه لم يجرأ على المعارضة ، لأنه رأى « اختلاف أولاد صاحبه ملكشاه وصغرهم ، فعمل أنه لا يطيق دفع تتش فصالحه وصار معه ، وأرسل إلى ياغى سيان صاحب أنطاكية وإلى بوازن صاحب الرها وحران ، يشير عليهما بطاعة تاج الدولة تتش حتى يرواما يكون من أولاد ملكشاه »<sup>(٢)</sup> وهكذا خضع آفسنقر وياغى سيان وبوازن — أى حلب وأنطاكية والرها — للأمير تتش « وخطبوا له في بلادهم » ؛ فجمع تتش هذه القوى الثلاثة وزحف بها على فارس يعني الحصول على السلطنة . وفي الطريق استولى تتش على الرحبة « وخطب لنفسه بالسلطنة » ، ثم صار إلى نصيبين « ففتحها عنوة وقهراً وقتل من أهلها خلقاً كثيراً » (فبراير ١٠٩٣) كما عزل إبراهيم ابن قریش العقيلي أمير الموصل واستولى عليها (ابريل ١٠٩٣) وبذلك انتهت أسرة ابن عقيل في الموصل<sup>(٣)</sup> . كذلك استولى تتش على ميفارقين من حكاهما بنى مروان والأكراد<sup>(٤)</sup> ، وبعد ذلك دخل فارس عن طريق أذربيجان خلع بركياروق .

ولم يكد تتش يقترب من خصمه حتى حدثت المفاجأة ، إذ تخلى عنه آفسنقر

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٦ هـ . ويذكر ابن الأثير أن تتش كان في طريقه إلى بغداد لمقابلة أخيه ملكشاه ، وبينما هو في هيت بلغته وفاة أخيه السلطان فعاد إلى دمشق .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٦ هـ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٠٨ .

(٤) كان آخر حكام بنى مروان في ميفارقين هو أبو المظفر منصور ، (١٠٧٩ —

١٠٩٣) — انظر زامباور : معجم الأنساب ص ٢٠٧ .

أمير حلب وبوزان أمير الرها « وسار إلى بركياروق » ، وبذلك لم يبق مع  
تنش إلا ياغي سيان أمير أنطاكية . وكان انسحاب آقسنقر وبوزان محطما لخطة  
تنش، الذي آثر أن ينسحب بسرعة عائدا إلى الشام في حين « انبسطت  
يد بركياروق واستقامت أحواله » ودخل بغداد دخول الظافر في نهاية سنة  
١٠٩٣ (١) .

وكان أول ما فكر فيه تنش عند عودته إلى الشام هو الانتقام من آقسنقر  
أمير حلب وبوزان أمير الرها، بعد أن خاناه وتحليا عنه وقت الشدة . لذلك بدأ  
تنش بمهاجمة حلب في صيف سنة ١٠٩٤ ، وعندئذ اتحد آقسنقر وبوزان ، في  
حين أرسل بركياروق إليها نجدة قوية بقيادة الأمير كربغا (كربوقا) . (٢)  
ولم تلبث أن دارت المعركة بين الطرفين قرب حلب ، فانتصر تنش انتصارا  
حاسما ووقع آقسنقر في يده فقتله على الفور (٣) ، في حين فرت فلول الجند المنزهدين  
إلى حلب حيث اعتصموا بها وأرسلوا إلى السلطان بركياروق يطالبون النجدة .  
على أن تنش أسرع إلى اللحاق بهم فاستولى على حلب ، وعندئذ وقع في يده  
كربغا وبوزان ؛ فضربت عنق بوزان صاحب الرها وحمل كربغا أسيرا إلى  
حمص (٤) .

وبعد أن قضى تنش في حلب بضعة أيام زحف على الفرات ، فاستولى على  
حران والرها ، ثم « سار إلى الديار الجزرية فملكها جميعا ، ثم ملك ديار بكر  
وخلاط » ؛ وبعد ذلك قصد فارس لئلا يفتك بركياروق فخضع له أذربيجان واحتل

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٠٩ — ١١٠ (مطبوع) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٢٥ (مطبوع) .

(٣) بروي ابن العديم أنه عندما وقع آق سنقر في يد تنش، سأله الأخير « لوظفرت  
بي ما كنت صنعت ؟ » قال : « كنت أقتلك » فقال له : « فأنا أحكم عليك بما كنت  
تحمك على » فقتله .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٢٧ (مطبوع) .



هذات والرى (١). وكان الموقف حاسماً بالنسبة لبركياروق ، فأجبه من أصبهان إلى الرى لمواجهة خصمه ، ودارت المعركة قرب الرى فى أوائل سنة ١٠٩٥ . وللمرة الثانية تعرض تنش لخيانة بعض أعوانه المقربين إليه « فانهزم عسكر تاج الدولة تنش واستبيح ونهب ، وقتل فى ذلك اليوم تاج الدولة وخواصه فى الحرب » (٢). وهنا نلاحظ أن أعوان تنش وأمرأه كانوا يتخلون عنه ساعة الشدة لتسوته وعنفه وبأسه ، مما جعلهم يحشون على أنفسهم وعلى مطامعهم منه . وعلى العكس أدى ضعف بروكياروق ولين عريكته إلى اتجاه الأمر نحوه؛ حيث أن شخصيته ستمكنهم من تحقيق مطامعهم الشخصية . وهكذا جاء انتصار بركياروق إذانا بأحلال قوة السلاحته فى الوقت الذى بدأت الاستعدادات للحرب الصليبية تجرى فى الغرب الأوروبى (٣) .

ثم إن بركياروق (بركيارق) اكتفى بحكم فارس وبغداد ، دون أن يحاول ضم بلاد الشام إليه . وكان تنش قد ترك ولدين هما فخر الملك رضوان وشمس الملك دقاق ، فأخذ الأول ملك حلب وأخذ الثانى ملك دمشق (٤) ، وذلك دون أى اعتراض أو تدخل من جانب بركياروق . وكان كل ماطلبه بركياروق من رضوان هو إطلاق سراح كربغا الذى كان تنش قد سجنه بعد أسره . ولم يكده يفرج عنه حتى حصل كربغا على إذن من بروكياروق

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٥ ورقة ٣٤ (مخطوط).

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٣ ص ١١٩ (مطبوع) .

ويروى ابن القلانسى أن رأس تنش قطع « وظيف به فى العسكر ، ثم حمل إلى بغداد وظيف به فيها » (ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٠) .

(3) Grousset ; Hist. des Croisades, I, p. LI.

(٤) قتل رضوان أخويه أباطال و بهرام . أما أخوه الثالث دقاق فقد راسله ساوتكين الخادم — نائب تنش فى دمشق — ودعاه لتسلم المدينة . وكان أن غادر دقاق حلب سراً « وهرب إلى دمشق من غير أن يعلم به أحد » ؛ وعندئذ أرسل رضوان قوة للحاق به ، ولكن تنش وصل سالماً « وصارت دمشق وبلادها بحكمه » (ابن العديم زبدة الحلب ج ٢ ص ١٢١ — مطبوع) .

للاستيلاء على الموصل فحاصرها بضعة أشهر واستولى عليها من آخر أمرائها العرب من بني عتميل ، وهو الذي كان تنش قد تركه بالموصل . أما في القطاع الشرقي من دولة السلاجقة ، فقد منح بروكياروق أخاه سنجر ملك خراسان وماوراء النهر<sup>(١)</sup> .

وهكذا لم تحل سنة ١٠٩٦ إلا وكانت دولة السلاجقة قد انقسمت إلى خمس ممالك متنافسة ، هي : سلطنة فارس (أصبهان) وعلى رأسها السلطان بروكياروق نفسه الذي كانت له السيطرة على بغداد ؛ ومملكة خراسان وما وراء النهر وعلى رأسها أبو الحرث سنجر ؛ ومملكة حلب وعلى رأسها رضوان بن تنش ؛ ومملكة دمشق وعلى رأسها دقاق بن تنش ؛ وأخيراً سلطنة سلاجقة الروم وعلى رأسها قلج أرسلان بن سليمان بن قتلش . هذا مع ملاحظة أن بيت دانشمند التركاني في كابا دوكيا أفاد من الفترة التي قضاها قلج أرسلان في الأسر لتحقيق استقلال ذاتي ، مما زاد من حدة الانقسام في آسيا الصغرى . وخلاصة القول أنه إذا كان السلاجقة قد أثبتوا في وقت من الأوقات أنهم سيوف الإسلام الزائدون عنه ، فإن هذه القوة لم تلبث أن انقلبت وتفتت عند فجر الحركة الصليبية ، مما صار له أكبر الأثر في نجاح الحملة الصليبية الأولى.<sup>(٢)</sup>

وليت الانقسام والانحلال الداخلي في دولة السلاجقة قد وقف عند ذلك الحد بل لقد حدث سنة ١٠٩٩ أن ثار محمد تبر وهو أخ ثالث لبركياروق<sup>(٣)</sup> ؛ مما جعل بلاد فارس والعراق مسرحاً للحروب بين الآخرين ، حتى انتهى الأمر بالصلح بينهما في أوائل سنة ١١٠٤ ، فاحتفظ بروكياروق بأصبهان وفارس وعراق العجم على أن تكون

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٠ هـ .

(٢) Gibb : The Damascus Chronicle, p. 14.

(٣) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

« السلطنة له » ، وأخذ محمد تبر أذربيجان وأرمينية وديار بكر والموصل <sup>(١)</sup> ؛ في حين ظل الأخ الثالث - وهو أبو الحرث سنجر - يحكم خراسان وما وراء النهر <sup>(٢)</sup> . ولا شك في أن تلك الحروب الطويلة بين الإخوة دت إلى تخطيم البيت السلجوقي من ناحية ، وبقاء سلطنة فارس مقسمة بين ملكيات ثلاث مستقلة من الناحية العملية من ناحية أخرى . أما الخليفة العباسي في بغداد فقد انتهى فرصة الصراع بين بركياروق وأخوته ، وما نجم عن ذلك الصراع من إضعاف قوة الطرفين ، وعمل على تحرير نفسه من سيطرة السلاجقة جميعاً ، « وقطع دعوة الترك من بغداد » <sup>(٣)</sup>

ومن جهة أخرى فإن قبيلة بني مزيد البدوية على الضفة الغربية لنهر الفرات استغلت الظروف التي أحاطت بالسلطان بركياروق واستتلت عن سلطانه . وقد بنى شيخ هذه القبيلة - وهو صدقة بن منصور بن ديس بن مزيد الأسدي - منزلة الحلة سنة ١١٠١ واتخذها مقراً له . وبذلك قامت إمارة عربية امتدت من هيت إلى الكوفة وواسط ، وصارت خطراً تهدد الأتراك وحال دون استمرار سيطرتهم على العروبة وأرضها <sup>(٤)</sup> . ولم يتردد أمراء الحلة في سبيل تحقيق هذه الغاية في محالفة الصليبيين ، كما سيلي فيما بعد .

أما في بلاد الشام ، فإن السيادة السلجوقية أخذت تنحسر سريعاً . ذلك أن ابني تنش - وهما رضوان صاحب حلب (١٠٩٥-١١١٣) ودقاق صاحب

---

(١) ذكر ابن العبري أن ممتلكات محمد تبر هي « ديار بكر والجزيرة والموصل والشام » ومن الواضح أن ذكر الشام هنا غير صحيح حيث كانت دمشق وحلب في حوزة ابني تنش . ( تاريخ مختصر الدول ص ١٩٧ ) .

(٢) ابن القلانبي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٧ ، ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ .

(٣) النوبري : نهاية الأرب ٢٥ ورقة ٢٧ .

(٤) المرجع السابق ورقة ١٢ .

دمشق (١٩٠٥-١٠١٤) لم يتمتعا بالمقدرة السياسية التي تمكنهم من مواجهة الأوضاع القلقة التي عاشت فيها بلاد الشام في أواخر القرن الحادى عشر وأوائل الثانى عشر. ولعل أكبر مظهر لانحلال سلطان السلاجقة فى بلاد الشام والعراق وغيرهما عندئذ هو ظهور عدد كبير من البيوت الحاكمة لا تجمعها رابطة إلا الاتصال بالبيت السلجوقى. ومن تلك البيوت ظهرت وحدات سياسية أطلق عليها اسم الأتابكيات وعلى أصحابها اسم الأتابكة؛ وبعض هذه الوحدات صغير جداً لا يتعدى أسوار مدينة أو قلعة واحدة. وأتابك لفظ تركى معناه «مرى الملك»، فكان آل سلجوق إذا امتاز أحد قادتهم وأرادوا تشریفه أضفوا عليه هذا اللقب إمعاناً فى تكريمه<sup>(١)</sup>. ومن أظهر تلك الأتابكيات أتابكية دمشق، ومؤسسها ظهير الدين طغتكين الذى كان مملوكاً ثم قائداً للملك تتش، وأتابكا لابنه دقاق أى مريباً له. وقد استمرت هذه الأتابكية من سنة ١١٠٤ حتى سنة ١١٥٤. أما أتابكية الموصل فمؤسسها عماد الدين زنكى بن آقسنقر، وقد استمرت من سنة ١١٢٧ حتى سنة ١٢٦٢<sup>(٢)</sup>. وعدا ذلك وجد عدد كبير من الأتابكيات التى أخذت تظهر تباعاً على أنقاض دولة السلاجقة فى الشام وسنجار والجزيرة وأربل وأذربيجان وفارس وغيرها<sup>(٣)</sup>.

أما فلسطين، فقد سبق أن أشرنا إلى أن تتش كان قد أقطعها قائده التركمانى أرتق، الذى خلفه سنة ١٠٩١ ولداه ستمان (سكمان) وإيلغازى (إيل غازى). ولكن حدث سنة ١٠٩٨ أن أفاد الفاطميون من تعرض السلاجقة لغزو الصليبيين، فخرج من مصر جيش فاطمى تحت قيادة الوزير الأفضل نفسه لمحاصرة بيت المقدس « ونصب عليه المناجيق »، حتى اضطر الأراتقة إلى الانسحاب من المدينة فى

(1) Setten : op. cit, vol. I, p. 162.

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ٣٤ وما بعدها.

(3) Gibb : op. cit, p. 23,f.

أغسطس من العام نفسه . ولم تلبث بقية فلسطين أن سقطت بعد ذلك في أيدي الفاطميين <sup>(١)</sup> . هذا إلى أن الوزير الأفضل أرسل من مصر إلى رضوان ملك حلب يدعوه إلى طاعة الخليفة المستعلي بالله الفاطمي وإقامة الدعوة له ، ووعد الأفضل رضوان أن يمدّه بالمساعدة ضد خصومه ، فاستجاب رضوان لذلك « وتقدم بالدعوة للمصريين على سائر منابر الشام التي بيده ... للمستعلي ثم للأفضل ثم لرضوان ... » هذا ، وإن كان رضوان لم يستمر على ذلك الوضع سوى بضعة أسابيع أعاد بعدها الدعوة « للامام المستظهر (العباسي) ثم للسلطان بركياروق ثم لنفسه <sup>(٢)</sup> » .

ومن جهة أخرى فإن الفاطميين استغلوا تفوقهم البحري على السلاجقة وظلوا يسيطرون على ساحل الشام <sup>(٣)</sup> . هذا وإن كان الفاطميون قد خسروا طرابلس قرب منتصف القرن الحادي عشر عندما استقل بها أحد أتباعهم ، وهو القاضي الشيعي ابن عمار أبو طالب . وقد استطاع ابن عمار هذا وخليفته جلال الملك أبو الحسن على (ت ١٠٩٨) ثم اخبر الملك أبو علي عمار (١٠٩٨ — ١١٠٨) أن يجعل من طرابلس إمارة غنية اشتهرت بمدرسها التي حوت مكتبة ضمت عشرة آلاف مجلد . على أن قيام هذه الإمارة البحرية الصغيرة لا يخفى الحقيقة الواقعة ، وهي زيادة تفتت بلاد الشام سياسياً . ولا شك في أن عملية التجزئة التي تعرضت لها بلاد الشام على ذلك الوجه ؛ في الوقت الذي شق الصليبيون طريقهم إلى بلاد الشام ، كانت من العوامل الرئيسية التي ساعدت الصليبيين في تحقيق أطماعهم . وقد أدرك هذه الحقيقة وذكرها المؤرخ الصليبي وليم الصوري <sup>(٤)</sup> .

(١) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٤٩٣ هـ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلاب ج ٢ ص ١٢٩ ( مطبوع ) .

(٣) يذكر ابن الأثير ( السكامل ، حوادث سنة ٤٨٢ هـ ) أن الجيش الفاطمي الذي خرج من مصر في تلك السنة استولى على صور وصيدا وعكا وجبيل « واستعمل أمير الجيوش على هذه البلاد الأمراء والعمال » .

(4) Guillaume de Tyr (Rec. Hist. Cr. Occid II.) 1015-1016.

ولم يكن ملك السلاجقة في الأناضول أقل تفتتاً عندئذ من بقية دول السلاجقة في الشرقين الأدنى والأوسط . ذلك أن مملكة السلاجقة في آسيا الصغرى لم تلبث أن تدهور بها الحال عقب الخاتمة المؤلمة لحياة مؤسسها سليمان بن قتلش ، وهو الذى قتله تنش — كما سبق أن ذكرنا — سنة ١٠٨٦ . ومنذ تلك السنة حتى سنة ١٠٩٣ ظل ابن سليمان الصغير ، وهو قلعج أرسلان ، شبه أسير في فارس ، تحت رقابة ملكشاه . وفي تلك الفترة التى قضتها آسيا الصغرى دون سلطان ، عمل الأمراء المحليون — مثل أبى القاسم أمير نيقية وزاخس أمير أزمير والملك غازى بن دانشمند أمير كبادوكيا — على الاستئثار عملياً<sup>(١)</sup> . وكانت نيقية عاصمة السلاجقة في الأناضول ، ومن ثم فقد أخذ أميرها أبو القاسم يحلم بأن يحل محل بيت سليمان بن قتلش في حكم آسيا الصغرى . ولم تقف أحلام أبى القاسم عند هذا الحد ، بل بات يحلم أيضاً بالاستيلاء على القسطنطينية ، وشيد أسطولاً لهذا الغرض ولكن البيزنطيين حطموا أسطوله<sup>(٢)</sup> .

وعندما استرعت أطماع أبى القاسم السلطان ملكشاه ، أرسل ضده حملة حاصرته في نيقية سنة ١٠٨٦ ، مما جعل أبا القاسم يستنجد بالإمبراطور البيزنطى . ألكسيوس كومنين . وبعد ذلك بقليل عاد ملكشاه وأرسل إلى الأناضول حملة كبيرة على رأسها بوزان أمير الرهاللتضاء على أبى القاسم والاستيلاء على نيقية<sup>(٣)</sup> . وقد حاول بوزان أن يقنع ألكسيوس كومنين بالتخلي عن مساعدة أبى القاسم مقابل التعهد برد بعض الأراضى التى فى حوزة السلاجقة للبيزنطيين<sup>(٤)</sup> . ولكن ألكسيوس أدرك أنه من الخير أن يجاوره أمير صغير مثل أبى القاسم بدلاً من السلطان ملكشاه ، وفعلاً قدم الإمبراطور البيزنطى مساعدته لأبى القاسم ، وبفضل هذه

(1) Cam. Med. Hist. vol. 4. p. 331.

(2) Setton : op. cit, vol I, p. 215 - 216.

(3) Chalandon, Alexis Comnene, p. 102.

(4) Idem. p. 125.

المساعدة تمكن الأخير من الدفاع عن نيقية ؛ ورفع حصار بوزان عنها .  
ولم يلبث أبو القاسم أن طلب عفو ملكشاه ودخل في طاعته ، فقتله الأخير  
سنة ١٠٩٢<sup>(١)</sup> .

وعند وفاة ملكشاه سنة ١٠٩٢ أطلق خليفته بركياروق سراح قلج  
أرسلان بن سليمان بن قتلش ، الذي غدا حاكم نيقية وزعيم سلاحجة الروم .  
وإذا كان الامبراطور ألكسيوس كومنين قد نجح في تلك الفترة في انتزاع بعض  
مراكز من السلاحجة في آسيا الصغرى ، فإن زاخاس أمير أزمير كان أكثر خطورة  
على الامبراطورية البيزنطية ، إذ شيد أسطولا واستولى به على عدة جزر هامة مثل  
لسبوس وخبوس وساموس وروودس . ولم يلبث أن ازداد الخطر على الدولة البيزنطية  
عندما تزوج قلج أرسلان من ابنة زاخاس أمير أزمير . على أن اسحق كومنين  
استطاع بسياسته الماكرة أن يفرق بين الطرفين ، أي بين قلج أرسلان وحميه ،  
وأن يجعل قلج أرسلان يتقلب ضد حميه ، في الوقت الذي كان زاخاس يحاصر  
أبيدوس ، وهي مفتاح الدردنيل . ولم يلبث أن استدرك قلج أرسلان زاخاس وقتله ، وبعد  
ذلك تم الوصول إلى تسوية بين قلج أرسلان من ناحية والامبراطور ألكسيوس  
كومنين من ناحية أخرى<sup>(٢)</sup> .

أما الركن الشمالى الشرقى من آسيا الصغرى فلم يكن فيه لقلج أرسلان أى  
نفوذ ، إذ قامت هناك إمارة الدانشمند ( ١٠٦٣ — ١١٧٤ ) التى أسسها الأمير  
التركانى أحمدغازى ، التى قامت على حساب الممتلكات البيزنطية فى كابادوكيا  
وأماسيا وأنجرا ونكسار (قيصرية الجديدة)<sup>(٣)</sup> . وكان الدانشمند يعترف بالتبعية

(1) Cam. Med. Hist. vol. 4, p. 331.

(2) Vasiliev : op. cit., I, p. 385 & Brehier : Vie et Mort de Byzance, p. 304.

(3) Setton : op. cit. vol. I. p. p. 163 - 164.

للسلطان ملكشاه سلطان السلاجقة في فارس ، وبالتالي لم يعترف مطلقا بسيادة سليمان بن قتلش . وقد قام ابن الدانشمند وخليفته الملك غازي بجمشتكين ( ١٠٨٤ - ١١٢٦ ) بالاستيلاء على قسطنطين من البيزنطيين . وكان التنافس وسوء العلاقات مستحكما دائما بين السلاجقة في الأناضول من ناحية ، وإمارة الدانشمند التركمانية من ناحية أخرى ، بحيث لم تتحد القوتان إلا عندما أحسنا بأن الجيوش الصليبية توشك أن تعصف بهما جميعا (١) .

وهكذا نخرج مما سبق بأن توسع السلاجقة جهة الغرب توقف حوالى سنة ١٠٩٥ ، مما جعل الظروف مناسبة لأن تسترد الدولة البيزنطية سيادتها على الأقل على الجهات الساحلية في يثنيا وأيونيا . وكان البيزنطيون والأتراك متعادلين في القوة في ذلك الوقت على الرغم من انقسام الأتراك على أنفسهم . ولكن بوصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق لمساعدة البيزنطيين بدأت كفة المسيحيين ترجح على كفة الأتراك المسلمين .

### الشقاق بين المسيحيين الشرقيين :

وإذا كان الانقسام بين البيوت العربية والتركية في العالم الإسلامي قد مهد لانتصار الصليبيين ؛ فإن الشقاق في العالم المسيحي بين الكنائس الشرقية سهل وقوعها تحت حماية الكنيسة الرومانية الغربية ، أو بعبارة أخرى ساعد هذا الشقاق الأخير على قيام دولة للصليبيين الكاثوليك في الشرق . ذلك أن العداء المذهبي بلغ أشده بين البيزنطيين والأرمن والسريان يعاقبة ، وذلك عقب حركة التوسع البيزنطية في الشرق في القرن العاشر ، مما جعلهم يتعرضون جميعا لسكارثة

(1) Grousset : Hist. des Croisades I, p.p. LVII - LVIII.



مشتركة في القرن الحادى عشر ، ولا يستفيد من هذا الموقف سوى الغربيين الكاثوليك<sup>(١)</sup> .

من ذلك أنه لم يكذب يمشى قليل على ضم أنطاكية للامبراطورية البيزنطية في عهد حنا شمشقيق ، إلا وبدأ رجال الدين البيزنطيون حملة اضطهاد ضد إخوانهم رجال الدين الأرمن . كذلك حدث بعد أن اتخذ الأرمن آنى عاصمة لهم<sup>(٢)</sup> ، أن تعرض بطرس الأرمنى ثم ابن أخيه جاجك الأول (٩٩٠ - ١٠٢٠) لمتاعب جديدة بقصد إجبارهم على التسليم بمبادئ الكنيسة الأرثوذكسية . أما الملوك الذين تخلوا عن ممالكهم الوراثية للامبراطورية البيزنطية ليأخذوا بدلانها إقطاعات في كابا دو كيا ، فقد وجدوا أنفسهم فريسة لضغط الأباطرة البيزنطيين حتى يعتنقوا مذهب الكنيسة الأرثوذكسية . ولذلك نجد المؤرخين المعاصرين من الأرمن - مثل متى الرهاوى - يظهرن ارتياحهم للكارثة التي حلت بالبيزنطيين في مانزكرت ، بل لقد بلغ بهم الأمر إلى مديح ملكشاه والاطراء عليه لما حققه من راحة بال للأرمن<sup>(٣)</sup> . وقد اتهم البيزنطيون القوات الأرمينية التي اشتركت في موقعة ملازكرت بأنها تقهقرت ولم تثبت ، كما أنه حدث بعد موقعة مانزكرت أن انتقم المهاجرون الأرمن في كابا دو كيا باضطهاد رجال الدين الأرثوذكس . من ذلك أن جاجك الثانى ملك آنى السابق قبض على مطران قيصرية الأرثوذكسى وحبسه في جوال محكم ومعه كلب شرس حتى قضى نحبه . وكان أن رد

(١) عن أصول الانشقاق بين السكيسيتين الأرمينية والبيزنطية انظر :

Grousset ; L'Empire du Levant p.p. 76 - 78.

(٢) كانت مدينة آنى أول عاصمة للأرمن في مقرهم الجديد في جنوب شرق آسيا للصغرى قبل أن ينقلوا عاصمتهم إلى سيس فيما بعد، وما زالت بعض أسوار هذه المدينة وآثارها قائمة تشهد على رقى مستواهم الحضارى في القرنين العاشر والحادى عشر. انظر

Schlumberger ; Recits I, p. 127 & Vassiliev, op. cit, I. p. 314.

(3) Mathieu d'Edesse (Rec, Hist, Cr, Doc, Arm. p.p. 46 - 48).

البيزنطيون على ذلك بأن نصبوا كميناً للملك جاجك الثاني حتى تصيدوه .  
وقتلوه سنة ١٠٧٩ (١) .

ولم يكن حقن<sup>١</sup> المسيحيين السريان على البيزنطيين أقل شدة ، لاسيما بعد أن استرد البيزنطيون أنطاكية والرها . وهنا أيضاً أساء رجال الدين البيزنطيون إلى الكنيسة المحلية . لذلك لم يتمالك ميخائيل السرياني نفسه من الفرح عندما حلت الهزيمة بالامبراطور البيزنطي رومانوس الثالث على يد المسلمين<sup>٢</sup> قرب حلب سنة ١٠٣٠ (٢) . وتعتبر كتابات ميخائيل السرياني تعبيراً صادقاً عن استيائه لأن البيزنطيين يضطهدون السريان واليعاقبة ، وقال إنه لذلك يفضل سيطرة الأتراك السلاجقة على حكم البيزنطيين لأن الأتراك ينهبون ويسلبون ولكنهم لا يتعرضون للعقيدة ، في حين أن اضطهاد البيزنطيين لحرية العقيدة أشد نكابة وأسوأ أثراً .

وهكذا يبدو كيف أن الحركة التي قامت بها الامبراطورية البيزنطية في القرن العاشر لاسترداد أراضيها وتوطيد نفوذها في شرق آسيا الصغرى وفي بلاد الشام أدت إلى استياء مختلف العناصر التي كان من الممكن أن تظل حليفاً طبيعياً للامبراطورية ضد الصليبيين الكاثوليك . وقد كان لهذا الشعور أثره في تسهيل قيام الامارات اللاتينية في الشرق ، لأن الأرمن والسريان واليعاقبة لم يشعروا بنفور من الصليبيين الغربيين مثلما نفروا من البيزنطيين الأرثوذكس . وكان أن نظر الأرمن في قيليقية والرها إلى الصليبيين الغربيين على أنهم محرورهم وحلفائهم ، كما أن عصر الحروب الصليبية شهد تقارباً ملحوظاً بين الكنيسة الأرمنية والبابوية<sup>(٣)</sup> هذا في الوقت الذي أحسن الصليبيون

(1) Gréusset ; Hist. de l'Arménie, p.p. 620 - 622.

(2) Runciman : A History of the Crusades, I, p. 75.

(3) Iorga : L'Arménie Cilicienne. p. 91.

الغرييون معاملة الأرمن والسريان بوجه عام ، ووجدوا فيهم حلفاء طبيعيين ليس ضد المسلمين فحسب ، بل ضد البيزنطيين<sup>(١)</sup> .

### الدولة البيزنطية بين السلاجقة والنورمان:

لم تقتصر الكوارث التي تعرضت لها الدولة البيزنطية في النصف الثاني من القرن الحادى عشر على ما فعله الأتراك بالأقاليم الآسيوية للإمبراطورية ، وإنما تعرضت الأقاليم الأوروبية في ذلك الوقت أيضاً لخطر النورمان ، مما أوقع القسطنطينية بين نارين .

والمعروف أن القرن الحادى عشر شهد هجرة جموع غفيرة من النورمان الوافدين من دوقية نورمانديا في غرب فرنسا إلى جنوب إيطاليا ووسطها فضلاً عن صقلية . وكان زعيم تلك الجموع سنة ١٠٤٢ ولیم هوتفيل ، ولكن الفضل يرجع إلى روبرت جويسكاردي في تأسيس دولة النورمان في إيطاليا وصقلية ، بعد أن تم إعلانه دوقاً على أبوليا وكالبريا سنة ١٠٥٩<sup>(٢)</sup> . وحسب روبرت جويسكاردي هذا أنه انتزع من البيزنطيين آخر معاقلهم في إيطاليا مثل أوترنتو وبرنديزي سنة ١٠٦٢ ثم بارى عاصمتهم سنة ١٠٧١ ، أى في نفس الوقت الذى تعرضت الجيوش البيزنطية في آسيا الصغرى لكارثة مازكرت على أيدي السلاجقة<sup>(٣)</sup> . ولعل هذه الحقيقة الهامة هى التى جعلت المؤرخ فاسليف يقرر خطورة سنة ١٠٧١ بالذات في التاريخ البيزنطى بأجمعه<sup>(٤)</sup> . وبعد أن نجح النورمان أيضاً في انتزاع صقلية من المسلمين ، أخذوا يوجهون أبصارهم نحو الشاطئ الشرقى للبحر الأدرياتي للاستيلاء على أيروس ومقدونيا ، بل لقد طمعوا في القسطنطينية نفسها ، ثم باتوا

(1) Setou : A Hist. of the Crusades, vol. 2, p. 634.

(٢) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٣٣٠ — ٣٣١ :

(3) Haskins : The Normans in European History, p 200, f.

(4) Vasiliev, op. cit, I, p. 361.

يحلجون بمواصلة الحرب ضد المسلمين في الشرق ، إتماماً لحربهم ضد المسلمين في صقلية (١) .

وفي الوقت الذي نزل فريق من النورمان بزعماء وليم هوتفيل وروبرت جويسكارد في إيطاليا البيزنطية ، أتجه فريق آخر من المغامرين النورمان نحو الدولة البيزنطية نفسها ودخلوا في خدمتها جنداً مرتزقة . وقد رأينا كيف أفاد هذا الفريق الأخير من الكارثة التي حلت بالبيزنطيين على أيدي السلاجقة ، وحاولوا أن يؤسسوا لأنفسهم إمارات مستقلة في آسيا الصغرى . وأوضح مثل لهذا النوع من المغامرين النورمان رسل باليل الذي سبق أن أشرنا إليه ، والذي صار في وقت ما مهيمنا على إقليم كبادوكيا والجهات المجاورة (١٠٧٣ - ١٧٠٤) (٢) . وكان أن حاول روبرت جويسكارد أن يخذل رسل باليل ، ويقوم دولة نورمانية في الأناضول على حساب البيزنطيين والسلاجقة جميعاً . لذلك أنزل روبرت قواته في صيف سنة ١٠٨١ عند افلونا ومنها أتجه إلى دورازو حيث هزم قوات ألكسيوس كومنين واستولى على ذلك الموقع الهام في أوائل سنة ١٠٨٢ (٣) . وبعد ذلك زحف روبرت على القسطنطينية مباشرة ولكنه اضطر أثناء زحفه عليها إلى العودة إلى إيطاليا حيث كانت أحوالها تستدعي وجوده ؛ فترك قيادة قواته في البلقان في صيف سنة ١٠٨٢ لابنه بوهموند الذي صار فيما بعد بطلاً من أبطال الحملة الصليبية الأولى (٤) .

وقد استطاع بوهموند أن ينزل الهزيمة بألكسيوس كومنين أكثر من مرة ، كما استولى على عدة مراكز هامة في أيروس ومقدونيا وتساليا ، بحيث أوشكت الامبراطورية على السقوط في أيدي النورمان ، مما جعل ألكسيوس كومنين

(1) Longnon : Les Francais d'Outremer au Moyen - Age. p. p. 26 - 28.

(2) Grousset : L'Empire du Levant, p. p. 168 - 169.

(3) Cam. Med. Hist. vol 4, p. 329.

(4) Ostrogorsky ; op. cit, p. 317.

يسرع إلى الاستنجاد بسلیمان بن قنتمش زعيم سلاجقة الروم ، الذى أمد الإمبراطور بسبعة آلاف رجل . وبفضل هذه النجدة استطاع الإمبراطور البيزنطى أن يواجه الموقف وأن يحرز انتصاراً على بوهيموند فى تساليا ، فعاد بوهيموند إلى إيطاليا لإحضار إمدادات جديدة ( سنة ١٠٨٣ )<sup>(١)</sup> .

ولم يلبث أن حاول روبرت جويسكارد وابنه بوهيموند معاودة الكرة ، وتحدياً الأسطول البندقى — الحالف للبيزنطيين — قرب كورفو<sup>(٢)</sup> ؛ ولكن الحرب طالت بين الطرفين على سواحل ابيروس حتى توفى روبرت فى صيف ١٠٨٥ ، فانسحب النورمان بعد ذلك من البلقان عائدين إلى إيطاليا<sup>(٣)</sup> .

ومع ذلك فإن خلفاء روبرت من ملوك النورمان — وبخاصة بوهيموند — لم ينسوا مطلقاً طريق الشرق ، وهو الطريق الذى لم تلبث الحروب الصليبية أن أمدتهم بفرصة طيبة لاختراقه . والواقع إن المشاركة فى الحركة الصليبية كانت بالنسبة لبوهيموند تجديداً لحملة ١٠٨١ ، ومحاولة أخرى لتأسيس مملكة للنورمان فى المشرق ، وهو الأمر الذى تحقق فعلاً باستيلاء النورمان على أنطاكية ، وإقامة إمارة لهم فيها .

(1) Vasiliev; op. cit, II, p. 381.

(2) Chalandon ; Regne d'Alexis Comnene, p.p. 70 - 71.

(3) Cam. Med. Hist, vol. 4, p. 330.



## الباب الثالث

### الحجّة الصليبية الأولى

« واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد »

[ إبراهيم : ١٥ ]





## الفصل الأول

### الدعوة للحملة

البابا أوربان الثاني وإعلانه الحرب الصليبية :

أوضحنا فيما سبق أن الحروب الصليبية بمعناها الشامل بدأت فعلا قبل القرن الحادى عشر، أى قبل أن يدعو البابا أوربان الثانى سنة ١٠٩٥ للحملة التى عرفت فى التاريخ باسم الحملة الصليبية الأولى . فمذ توسع للمسلمين فى حوض البحر المتوسط ، والحروب لم تنقطع بينهم وبين المسيحيين الأوربيين . وقد اتخذت تلك الحروب صبغة دينية فى كثير من أدوارها ، واشتهر من بين ميادينها آسيا الصغرى وأسبانيا وشمال أفريقية وصقلية ، فضلا عن بعض جزر البحر المتوسط ، مثل صقلية وكريت (١) .

على أنه بحلول القرن الحادى عشر واتجاه الغرب الأوروبى نحو إرسال حملات كبرى لاسترداد بيت المقدس من المسلمين ، بدأت المرحلة النشطة فى الحركة الصليبية . والواقع أنه منذ كارثة مانزكرت التى حلت بالدولة البيزنطية سنة ١٠٧١ وأباطرة الدولة الرومانية الشرقية لا ينقطعون عن طلب النجدة العاجلة من البابوية ضد السلاجقة المسلمين . من ذلك أن الإمبراطور ميخائيل السابع ( ١٠٧١ - ١٠٧٩ ) ألح على البابا جريجورى السابع ( ١٠٧٣ - ١٠٨٥ ) فى إرسال نجدة سريعة لإنقاذ الإمبراطورية البيزنطية وأراضيها فى آسيا الصغرى ، ووعد ميخائيل بأن يرد الجليل للبابوية بالعمل على إزالة الخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية (٢) .

(1) Iorga : Breve Hist. des Croisades, p. 15. & L'Arménie Cilicienne, pp. 16 - 17.

(2) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 270.

( م ٩ - الحروب الصليبية )

ويقال إن البابا جريجورى السابع — بما عرف عنه من حماسة دينيه فائقة — استجاب لتلك الدعوة ، وأرسل إلى ملوك أوروبا وأمرائها يوضح لهم سوء موقف المسيحيين فى الشرق ، ومآتانه الإمبراطورية البيزنطية من آلام وأخطار نتيجة لتوسع الأتراك المسلمين ؛ ولكن دعوة البابا ذهبت مع الريح. هذا إلى أن البابوية شغلت فى ذلك الدور بالصراع ضد هنرى الرابع إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة حول مشكلة التقليد العلمانى ، مما جعل الإمبراطورية البيزنطية تقف وحيدة أمام خطر السلاجقة<sup>(١)</sup> . وهكذا استمرت الأوضاع حتى عزل ميخائيل السابع سنة ١٠٧٩ ، وحل محله الإمبراطور نقفوز الثالث (١٠٧٩ — ١٠٨١) ، الذى أطاحت به هو الآخر ثورة قام بها الجيش وانتهت بإعلان الكسيوس كومنين إمبراطورا (١٠٨١ — ١١١٨)<sup>(٢)</sup> .

وكان الإمبراطور الكسيوس رجلا قديراً ، حاول أن يعالج مختلف المشاكل الداخلية والخارجية التى واجهت الإمبراطورية البيزنطية فى ذلك الوقت . وعندما واجه الكسيوس مشكلة السلاجقة وجد أنه لا قبل له بهم ، فاتجه من جديد نحو البابوية ، وتابع سياسة تجاه البابا أوربان الثانى (١٠٨٨ — ١٠٩٩) تتصف بالرونة المطلقة واللباقة الفائقة<sup>(٣)</sup> . وهنا يبدو أن فكرة إرسال حملة صليبية إلى الشرق — بالصورة التى تم عليها الأمر فعلاً — هذه الفكرة لم تكن من ابتكار الإمبراطور الكسيوس كومنين أو بطرس الناسك ، وإنما الذى يرجع إليه الفضل فى ابتكار هذه الفكرة وتنفيذها هو البابا أوربان الثانى نفسه . ففى ضوء ما سمعه هذا البابا عن اضطهاد الأتراك السلاجقة للمسيحيين والحجاج ، بدأ أوربان الثانى يفكر فى مشروع لطرد المسلمين من آسيا ، بنفس

(1) Vasiliev, op. cit; I, p. 358.

(2) Chalaudon ; Regne d'Alexis Comnene, p.p: 47 - 50.

(3) Ostrogorsky ; op cit; p.p: 316 -320.

الجهد والعزيمة التي يجرى بها طردهم من أسبانيا . هذا بالإضافة إلى ماسبق أن أثمرنا إليه من وصول البابوية عندئذ إلى درجة كبيرة من سعة النفوذ والسلطان، مما جعلها تفكر في انهماز فرصة تلك الحرب ضد السلاجقة لبسط سيطرتها على الكنيسة الشرقية<sup>(١)</sup> .

والواقع إن البابا أوربان الثاني كان أصلح شخصية معاصرة لتنفيذ المشروع الصليبي الجديد ؛ إذ كانت لديه الجرأة على الدعوة للحرب الصليبية ورعايتها، فضلا عما عرف به من بعد النظر ومقدرة في اختيار الرجال وتوجيههم والتأثير عليهم . ثم إن البابا أوربان الثاني لم يقل مرونة عن الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين ، فلم يكد ذلك البابا إلى منصب البابوية حتى فتح باب المفاوضات مع الإمبراطور البيزنطي لتسوية المشاكل المعلقة بين الطرفين ، كما رفع قرار الحرمان الذي كان موقعا على ذلك الإمبراطور<sup>(٢)</sup> الأمر الذي أدى إلى نوع من التقارب بين الكنيستين الشرقية والغربية ، وإلى منح الكنائس الكاثوليكية في البلاد الأرثوذكسية قسما من الحرية في تصريف شئونها . وفي سنة ١٠٩٠ أرسل الإمبراطور ألكسيوس كومنين سفارة إلى البابا أوربان الثاني تحمل له اخلاص الإمبراطور ومحبه<sup>(٣)</sup> .

على أن تبادل السفارات والجماعات لم يكف لتخليص آسيا الصغرى من خطر السلاجقة ، لذلك أراد الإمبراطور البيزنطي استقلال تلك العلاقات الطيبة مع البابوية للحصول على مساعدة عملية من الغرب ضد المسلمين ، فأنهز فرصة عقد مجمع ديني برئاسة البابا في بيا كنزا - بشمال إيطاليا - في مارس سنة ١٠٩٥ ، وأرسل بعثة من القسطنطينية لحضور المجمع وطلب مساعدة البابا<sup>(٤)</sup> . وقد نجح

(1) Setton : op. cit; I. p.p. 226 - 227.

(2) Brehier : Vie et Mort de Byzance, p. 307.

(3) Runciman : op. cit. I, p p. 101 - 102.

(4) Chalandon : Alexis Comnene, p. 156.

مبعوثو الإمبراطور في إقناع البابا بأن السلاجقة لا يهددون الدولة البيزنطية وحدها وإنما يهددون المسيحية جمعاء ، وأن قوتهم أخذت في الضعف والانحلال بحيث تكفي ضربة واحدة قوية للأجهزة عليهم ، وأنه لو لا حاجة الإمبراطورية البيزنطية إلى الرجال ومسئولياتها الجسيمة في حماية حدودها على امتداد الدانوب ، لقامت وحدها بتوجيه ضربة قاضية ضد السلاجقة . وكان أن آمن البابا أوربان الثاني بضرورة معاونة الإمبراطورية البيزنطية ضد المسلمين ؛ فضلا عما وجدته في هذه الفكرة من توجيه جهود الأمراء والفرسان وجهة صالحة تخفف من الحروب والمنازعات المحلية الدائرة بينهم في غرب أوروبا . وازداد إيمان بقية رجال الكنيسة الغربية بتلك الفكرة عندما سمح للمندوبين البيزنطيين بالكلام في المجمع للتدليل على وجهة نظرهم<sup>(١)</sup> .

على أن البابا أوربان الثاني اختار أن يحيط مشروعه الجديد بالسرية التامة ، وأخذ يقلب الفكرة في ذهنه ، وهو في طريقه إلى كليرمونت لعقد مجمع ديني للنظر في بعض المسائل الكنسية المتباينة ، ومن جملتها توقيع عقوبة الحرمان على ملك فرنسا فيليب الأول . وعندما انعقد هذا المجمع الديني في كليرمونت في نوفمبر سنة ١٠٩٥ ، انقضت الأيام التسعة الأولى منه في مناقشة المسائل الكنسية المتعددة ، حتى إذا ماتم ذلك وجه البابا دعوته في اليوم العاشر إلى المسيحيين جميعاً للاتحاد لاستخلاص الأراضي المقدسة من المسلمين<sup>(٢)</sup> . وقد عرض البابا على المجتمعين - في أسلوب بلاغي جذاب - مدى ماتعانيه الأراضي المقدسة وحجاجها من متاعب بسبب سيطرة المسلمين عليها ، الأمر الذي صار يتطلب من المسيحيين الغربيين الإصرار لنجدة إخوانهم في الشرق . ونلاحظ أن أوربان الثاني وجه دعوته هذه للقادرين والفقراء سواء ، لترك الجميع مشاغلهم في غرب أوروبا ويوجهون

(1) Cam. Med. Hist. vol. 4, p. 272.

(2) Michaud : Hist. des Croisades. I, p.p. 92 - 94.

جهودهم ضد المسلمين في الشرق ، حيث يرعاهم الله ويبارك جهودهم ويفخر ذنوبهم ؛ ثم نادى البابا بالإسراع في تقديم النجدة بحيث يكون جميع المتطوعين على أهبة الرحيل إلى الشرق مع بداية فصل الصيف<sup>(١)</sup> .

وخلاصة القول أننا نخرج من أقوال المؤرخين المعاصرين الموثوق فيهم أن فكرة الحرب الصليبية نبتت من خطبة البابا أوربان الثاني في مجمع كليرمونت ، ولم تنشأ — كما ظن البعض — من دعوة بطرس الناسك ومواعظه . ذلك أن نداء البابا لم يلبث أن صادف استجابة من جمهور الحاضرين في كليرمونت ، فصاحوا جميعاً صيحة رجل واحد : « هذه مشيئة الله Deus Io volt » ، وجاءت هذه الصيحة إباناً ببداية صفحة جديدة في تاريخ الحركة الصليبية قدر لها أن تستمر عدة قرون<sup>(٢)</sup> .

ولم يكد البابا أوربان الثاني يفرغ من خطبته التي دعا فيها الحرب المسلمين ، حتى جثا أدهمار — أسقف بوى Puy — أمام قدمي البابا راجياً أن يكون له شرف المساهمة في الحرب المقدسة ضد المسلمين ، وبذلك صار ذلك الأسقف أول من افتتح قائمة المتطوعين ، واختاره البابا أوربان مندوباً بابوياً في الحملة الأولى<sup>(٣)</sup> . وكان معنى حرص البابوية على تعيين مندوب عنها يرافق الصليبيين في رحلتهم إلى الشرق ، أنها أرادت تهيئة إشرافها وسيطرة الكنيسة على الحركة الصليبية وعلى الأراضي التي سيفتحها الصليبيون . وفعلا حدث بعد ذلك — عقب استيلاء الصليبيين على بيت المقدس — أن نادى المطران دايمبرت Daimbert بأن هذه المدينة إنما من نصيب البابوية ، ودخل في نزاع بسبب ذلك الموضوع مع بلدوين الأول مؤسس مملكة بيت المقدس الصليبية<sup>(٤)</sup> .

1 - Chalandon : Hist. de la Premiere Croisade, p. p. 37 - 41

2 - Vasiliev : op. cit; II, p. 402.

3 - Cam. Med. Hist., vol 5. p. 273.

4 - Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 4

وجدير بالملاحظة أن أحداً من كبار الأمراء العلمانيين لم يكن حاضراً مجمع كليرمونت ليبدى استعداداه للمشاركة في تلك الحرب المنتظرة ضد المسلمين في الشرق . وقد أحس البابا أوربان الثاني من أول الأمر بأن مشروعه الصليبي في حاجة إلى تأييد من القوى العلمانية ، فجمع الأساقفة وأصدر المجمع قراراً بأن كل من يشترك في الحرب المقدسة تغفر له ذنوبه ، فضلاً عن أن ممتلكات الصليبيين ستوضع تحت حماية الكنيسة ورعايتها طوال مدة غيابهم<sup>(١)</sup> . كذلك استقر الرأي على أن يحيك كل محارب صليباً من القماش الأحمر على رداءه الخارجى من ناحية الكتف رمزاً للحركة التي اشترك فيها والفكرة التي خرج ليحارب من أجلها . ثم إن كل من يضع هذا الصليب بغية المشاركة في الحرب المقدسة ، عليه أن يتجه فوراً إلى الشرق ، فإذا تردد وعاد دون أن يؤدي واجبه أو أظهر تقاعساً عن تأدية ذلك الواجب ، فإنه يتعرض لعقوبة الحرمان<sup>(٢)</sup> .

ولكن هيمنة الكنيسة على تلك الحركة الصليبية لم تلبث أن تعرضت لهزة عنيفة عندما أعلن أحد كبار أمراء فرنسا — وهوريوند الرابع أمير تولوز وبروفانس (١٠٨٨ — ١١٠٥) — عزمه على المشاركة في المشروع الصليبي الذي دعا له البابا . ولم تكن هذه المرة الأولى التي أعلن فيها ذلك الأمير الحرب على المسلمين ، إذ سبق له أن شارك في حربهم في أسبانيا ، كما يروى ميخائيل السرياني أن ريموند سبق أن حج إلى بيت المقدس<sup>(٣)</sup> . وهكذا تجمعت عوامل كثيرة لتجعل الزعامة العسكرية للحملة الصليبية المقبلة لريموند ، على أن تبقى الزعامة الروحية للمندوب البابوي أدهمار .

أما عن البابا أوربان الثاني فلم يكتب بما قاله في كليرمونت ، وإنما أخذ ينتقل

1 - Chalandon : Hist. de la Premiere Croisade, p p. 44 — 45.

2 - Runciman ; op. cit., I, p. p. 108 — 109.

3 - Michel Le Syrien : (Rec. Hist. Cr. Doc. Arm.) I, p. 327.

بين المدن والبلدان داعياً للحرب الصليبية ، فعقد مجمعاً في ليموج Limoges (ديسمبر ١٠٩٥) ، وكرر الدعوة نفسها في أنجرز ومان وتورز وبواتيه وبوردو وتولوز وغيرها (يناير - يونيو ١٠٩٦) . وأخيراً اصطحب البابا معه الأمير ريموند الرابع في مجمع نيم (يوليه ١٠٩٦) مما ثبت أن هذا الأمير قام مع البابا بدور جذرى في الإعداد للحملة الصليبية الأولى ، وإن لم يعين رسمياً قائداً لتلك الحملة<sup>(١)</sup>، ثم إن ريموند هو الذى نبه البابا إلى ضرورة الاعتماد على مساندة قوة بحرية لتنفيذ مشروع الحرب الصليبية ، فأرسل أوربان الثانى مبعوثين إلى جنوا طالباً مشاركتها في المشروع الصليبي الكبير . ولم يلبث الجنوية أن استجابوا لدعوة البابا ، فأعدوا اثنتى عشرة سفينة حربية لمساندة الحملة ، فضلاً عن ناقلة كبيرة<sup>(٢)</sup> . وبذلك حققت جنوا لنفسها سبقاً كبيراً مكنها من اكتساب حقوق في بلاد الشام ، وهى حقوق لم يستطع البيازنة أو البنادقة الظفر بها إلا بعد جهد طويل<sup>(٣)</sup> .

وأخيراً عاد البابا أوربان الثانى إلى إيطاليا في أواخر سنة ١٠٩٦ بعد أن تأكد من نجاح مشروعه الصليبي ، إذ أقبل بعض الأمراء وكثير من الناس على المشاركة في الحركة الجديدة ، ليس فقط من البلدان القريبة - مثل فرنسا وإيطاليا وأسبانيا - بل أيضاً من البلدان البعيدة مثل سكتلند ودانمرك وغيرها<sup>(٤)</sup> .

### صحة الامامة، الدعاة :

أثارت دعوة البابا أوربان الثانى حركة شعبية ضخمة ترتبط في التاريخ عادة باسم بطرس الناسك . ذلك أنه إذا كان البابا قد طلب من الأساقفة الدعوة

1 - Cam, Med. Hist. vol. 5, p. 273.

2 - Heyd : Hist du Commerce, I, p. 133.

3 - Setton : op, cit.; I, p. 252.

4 - Runciman, op, cit.; I, p. 112.

للحرب الصليبية ، فإن الأمر لم يقتصر عليهم ، وإنما ظهرت طائفة جديدة من الدعاة قاموا بجهد كبير واسع النطاق في الدعاية لمشروع الحرب المقدسة . ويذكر التاريخ دائماً على رأس هؤلاء الدعاة اسم بطرس الناسك ، وهو رجل متقدم في السن حاول أن يقوم بالحج إلى بيت المقدس ولكنه تعرض في الطريق لضغط الأتراك فعاد إلى بلده دون أن يحقق أمنيته ، مما ترك أثراً في نفسه<sup>(١)</sup> . ويبدو أن حماسة بطرس الناسك وفصاحته وهيئته الغريبة - بثيابه المهلهلة وقدمية العاريتين وحماره الأعرج - جعلت منه شخصية ذات تأثير خطير على جماهير العامة والدهماء في غرب أوروبا ، بحيث أنهم كانوا لا يكادون يستمعون لحديثه حتى تغلب عليهم الحماسة ، فيجتمعون في سرعة غريبة ويشرعون في الزحف صوب الشرق ، دون إعطاء البابا والأمراء أدنى فرصة لتنظيم الحركة الصليبية تنظيمًا جدياً من الناحيتين السياسية والحربية<sup>(٢)</sup> .

وقد مضى بطرس الناسك في دعوته بقوة ، فطاف بمختلف أقاليم فرنسا مثل أورليان وشامبني واللورين ، وخرج من هذه الأقاليم بعدد ضخم من الأتباع - حوالي خمسة عشر ألفاً - اصطحب بعضهم نساءهم وأطفالهم . وهنا نكرر أن فصاحة بطرس الناسك وقوة تأثيره لم تكن وحدها العوامل التي أدت إلى استجابة تلك الجموع الغفيرة من الفقراء والمعدمين للدعوة الصليبية . فهناك الظروف القاسية التي عاش فيها الفلاحون في غرب أوروبا في تلك الفترة ، والتي كان لها أكبر الأثر في ترحيبهم بالدعوة الصليبية بوصفها طريقاً للخلاص مما كانوا يقاسون من أهوال . فكثير من الأراضي الزراعية تعرضت للخراب نتيجة لغزوات الفيكنج وغيرهم من البرابرة ، فقلت الأقوات في الوقت الذي ازدادت أعداد السكان . ثم إن الحروب والمنازعات بين الأمراء والإقطاعيين أسهمت في الإخلال

1 - Sclifon : op. cit; I, p. 78.

2 - Grousset : Hist des Croisades, I, p. 5.



بالأمن وتعريض أرواح الناس للهلاك وممتلكاتهم للنهب ، مما جعل الغالبية العظمى من أهالي غرب أوروبا يعيشون في حال يرثى له من الفقر والحرمان والخوف دون أن يجدوا أى ضمان لحماية أرواحهم وممتلكاتهم وأرزاقهم<sup>(١)</sup> . فإذا أضفنا إلى ذلك كله النكبات الطبيعية والاقتصادية التي عانى منها الغرب الأوربي وقت الدعوى للحرب الصليبية ، أدركنا السر الحقيقي لإقبال كثير من الفلاحين والمعدمين على المشاركة في تلك الحرب ، إذ لا داعي للخوف من الموت ومن حرب المسلمين وهم في حال أقرب إلى الموت فعلا . وكل ما هنالك هو أنه بدلا من أن يموت الرجل من الجوع في بلده محملا بما عساه ارتكبه من ذنوب في حياته ، فإن من الأفضل أن يموت في حرب متمدسة مما يضمن له غفران ذنوبه ودخوله الجنة<sup>(٢)</sup> .

وفي الوقت الذي كان بطرس الناسك ماضيا في دعوته في الغرب الأوربي، ظهر زعيم آخر من زعماء العامة اسمه والتر الملقب بالفلس . وسرعان ما قاد والتر أتباعه عبر هنغاريا ثم أراضي الدولة البيزنطية . وفي الطريق نست تلك الجوع أنهم يخترقون بلاداً مسيحية ، فأخذوا ينهبون ويسلبون ويعتدون على الأهالي الآمنين<sup>(٣)</sup> . ومع ذلك فقد رحب الحكام البيزنطيون في البلقان بتلك الجوع الصليبية رغم مظهرها الرث الذي يدل على سوء تنظيمها وجهل أفرادها بأبسط مبادئ القتال . وهكذا شق الصالبيون طريقهم إلى صوفيا وأدرنة حتى بلغوا القسطنطينية في يولييه سنة ١٠٩٦ ، وهناك سمح لهم الامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين بالانتظار خارج أسوار العاصمة حتى وصول بطرس

1 - Michaud : op. cit, Tome, I, p. p. 105 - 106.

2 - Runciman : op. I, p. p. 114 - 115.

3 - Vasiliev : op. cit; vol. II, p. 404.

الناسك . ولا بد أن يكون الامبراطور قد تأكد في تلك الأثناء من سوء استعداد أولئك الصليبيين وحاجتهم إلى التنظيم<sup>(١)</sup> .

أما بطرس الناسك فقد غادر كولونيا في إبريل سنة ١٠٩٦ على رأس جموعة مخترقاً ألمانياً وهنغاريا ، حتى وصلوا إلى الحدود الهنغارية البيزنطية . وقبل أن يغادر الصليبيون بلدة سملين Semlin الهنغارية وقع خلاف بينهم وبين الهنغارين بسبب الحصول على الميرة اللازمة لهم ، فلم يكن من الصليبيين إلا أن أحدثوا مذبحاً رهيبة في تلك البلدة الهنغارية أسفرت عن قتل أربعة آلاف من أهلها الأبرياء<sup>(٢)</sup> . ولا شك في أن هذه الجريمة البشعة التي أتاها الصليبيون كان لها أثرها في إثارة رغبة البيزنطيين وتشككهم في تلك الجوع التي أتت إلى الشرق لتحارب باسم المسيح والمسيحية ، وفي الوقت نفسه لم تتورع عن ذبح آلاف المسيحيين الأبرياء . لذلك رأى الإمبراطور البيزنطي ألا يترك لأولئك الصليبيين فرصة للعبث بأراضي الإمبراطورية ومدنها ، ووضع خطة استهدفت تخليص الإمبراطورية البيزنطية من شرهم في أقصر مدة ممكنة . وفعلاً تولى بعض الموظفين البيزنطيين قيادة الصليبيين سريعاً صوب القسطنطينية ، وإن كان أتباع بطرس الناسك قد استمروا في طريقهم إلى البسفور يهبون ويسلبون كل ما وصل إلى أيديهم ، فهبوا بلجراد ونيش وغيرها من المدن والقرى الآهلة ، حتى وصلوا في نهاية المطاف إلى أسوار القسطنطينية في أول أغسطس سنة ١٠٩٦ حيث وجدوا والتر المفلس وجموعه في انتظارهم<sup>(٣)</sup> .

وعلى الرغم من البوادر السيئة التي بدرت من الصليبيين أثناء عبورهم أراضي الإمبراطورية الشرقية ، إلا أن الإمبراطور ألكسيوس كومنين أحسن

1 - Chalandon : Premiere Croisade, p. p. 61 - 62.

2 - Albert d'Atx : Hist. Occid, IV, p. 276.

3 - Cam. Med. Hist, vol 5, p. p. 275 - 276.

استقبال بطرس الناسك، وقدم له ولأتباعه النصح بالابتعاد عن العبور إلى آسيا الصغرى قبل أن تصل إليهم إمدادات وقوات نظامية من الغرب تساعدهم على الصمود في وجه الأتراك السلاجقة<sup>(١)</sup>. على أن انتظار تلك الجموع أمام أسوار القسطنطينية لم يلبث أن سبب متاعب جمة للدولة، إذ أخذ الصليبيون يواصلون نهب القرى والضياع المجاورة، ويعتدون على الأهالي ويسلبونهم أقواتهم وأمتعتهم، بل إن الكنائس لم تسلم من اعتداءات أولئك الرعايا<sup>(٢)</sup>.

وهكذا أحس الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين وشعبه بخيبة أمل واضحة، بعد أن طلبوا من البابوية إمدادهم بجيوش حربية منظمة تساعدهم في دفع خطر المسلمين، فإذا بهم يفاجئون بوصول آلاف من الدهماء، دخلوا أراضي الإمبراطورية ليحصلوا على الغذاء والكساء إن لم يكن بالطريق السامى فليكن عن طريق السلب والنهب والاعتداء على رعايا الإمبراطور الآمنين<sup>(٣)</sup>. وأمام ذلك الخطر الجديد بدأ ألكسيوس كومنين يعيد النظر في سياسته، فدفعه الخوف على عاصمته إلى الإسراع بنقل الصليبيين إلى الشاطئ الآسيوى للفسفور، وبدأت هذه العملية فعلا في أوائل أغسطس سنة ١٠٩٦. ومع ذلك فإن الإمبراطور ألكسيوس استمر يحسن النصح للصليبيين، فأشار عليهم بالتجمع والانتظار عند أحد المراكز الحصينة قرب البسفور، حتى تأتيتهم الإمدادات والجيوش النظامية من الغرب<sup>(٤)</sup>. ولكن جموع العامة لم يستطيعوا ضبط أنفسهم والكف عن النهب والسلب، فاستمروا يعتدون على المزارع والضياع والقرى والكنائس القريبة، وأخذوا يوسعون دائرة نشاطهم دون أن يدروا أن نيقية — قاعدة

(1) Chalandon : *Premiere Croisade*, p p. 76 - 77.

(2) Brehier : *Vie et Mort de Byzance* p. 310.

(3) Runciman : *op. cit.*; I, p.p. 115 - 116.

(4) *Cam. Med. Hist.*; vol. 5, p. 276.

السلطان قلعج أرسلان بن سليمان بن قتلش — على بعد عدة كيلو مترات فقط منهم (١) .

ولم تلبث أن بدأت المناوشات بين الصليبيين من جهة والآراك السلاجقة من جهة أخرى . وقد أحرز الصليبيون بعض انتصارات محلية في تلك المناوشات الأولى ، مما جعلهم يغترون بقتوتهم ويتمادون في الإغارة على أراضي السلاجقة . وفي أكتوبر سنة ١٠٩٦ انتهز الصليبيون فرصة ذهاب بطرس الناسك إلى القسطنطينية لمقابلة الإمبراطور البيزنطي وقرروا الزحف على نيمية<sup>(٢)</sup> . وكانت عدة الصليبيين خمسة وعشرون ألفاً منهم خمسمائة فارس فقط على أكثر تقدير ، والباقون من المشاة المعدمين الذين لا يربطهم نظام ولا توحد بين صفوفهم قيادة . وعندما باغت السلاجقة الصليبيين أثناء زحفهم ، لم تستطع غالبية العامة المقاومة ، فأعمل فيهم السلاجقة ذبحاً وتفتيلاً بحيث لم ينج من ذلك الجمع الحاشد من الصليبيين إلا نحو ثلاثة آلاف . وقد أسرع الإمبراطور ألكسيوس كومنين — عندما سمع نبأ الكارثة — إلى إرسال بعض سفنه الحربية تحمل إمدادات إلى الصليبيين ولكن ذلك كان بعد فوات الأوان ؛ فحملت فلول الصليبيين إلى القسطنطينية حيث ظلوا في رعاية الإمبراطور حتى وصول حملة الأمراء (٣) .

وهكذا أخفقت حملة العامة التي قادها بطرس الناسك والستر المقلس . ولم تكن بقية الحملات المماثلة التي قادها فولكمار Volkmar وجوتشوك Gottschalk وإمبخ Emich أحسن حالا ، بل على العكس صارت كلها وصمة سوداء في تاريخ الحركة الصليبية (٤) .

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 8.

(2) Vasiliev : op. cit; II, p. 405.

(3) Ostrogorsky : op. cit, p. 321.

(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 9.

## الصليبيون واليهود :

انتشر اليهود على هيئة جاليات عديدة على طول الطرق التجارية في غرب أوروبا . وقد ظل هؤلاء اليهود طوال العصور الوسطى على صلة وثيقة بإخوانهم يهود الشرق - في البلدان الإسلامية أو في الدولة البيزنطية - مما قوى مركزهم التجارى والاقتصادى، ومكنهم من القيام بنشاط مالى كبير وتأسيس عدة بيوت لإقراض الأموال للأمرء والفرسان وغيرهم<sup>(١)</sup> . ومن المعروف عن اليهود في كل زمان ومكان أنهم لا يرحون من يتعامل معهم ، فوقع في شباكهم عدد كبير من المدنيين في أوروبا العصور الوسطى ، وهؤلاء ساءت أحوالهم المادية نتيجة للفوائد الباهظة التى فرضها اليهود عليهم . ثم جاءت الحروب الصليبية لتضيف إلى قائمة المدنيين عدداً كبيراً من الفرسان ، الذين اضطروا إلى اقتراض المال لإعداد العدة وتجهيز أنفسهم بالسلاح اللازم للحرب المقدسة ؛ مما أثار نوعاً من الاستياء العام ضد أولئك المرايين المستغلين في غرب أوروبا على عصر الحركة الصليبية<sup>(٢)</sup> .

ثم إن موقف اليهود أنفسهم من مشروع الحرب الصليبية كان موقفاً معادياً . ففي ديسمبر سنة ١٠٩٥ كتب اليهود في شمال فرنسا إلى إخوانهم في ألمانيا يحذرونهم من أن الحركة الصليبية ستعود بالضرر على اليهود ؛ وبالتالي فقد أخذ اليهود - عن طريق خلاياهم وجالياتهم المنبثقة في مختلف أجزاء الغرب الأوروبى - يعرقلون جهود الصليبيين . وكان أن انتشرت إشاعات مؤداها أن جودفرى بوايون - الذى كان يعد عدته للمشاركة في الحرب الصليبية - قد أقسم على أن يفتقم للمسيح بقتل جميع اليهود . وعندما انتشرت هذه الشائعة ، لجأ يهود

1 - Pirene : Economic and Social Hist. of Med. Europe. p. 133.

2 - Thompson : Economic and Social Hist. of the Middle Ages p. 394.

مميز وكولونيا في حوض الراين إلى أسلوبهم الرخيص الذي لا يعرفون غيره حتى اليوم ، فجمعوا الأموال وقدموها لجودفري<sup>١</sup> بوايون على سبيل الرشوة ليعدل عن نواياه<sup>(١)</sup>.

على أن مثل هذه الحلول كانت لا يمكن أن تنجح في جعل أتباع الكنيسة — وهم في موجة حماسهم الدينية — ينفرون لليهود مسلحهم تجاه المسيحيين والمسيحية . وإذا كانت الحركة الصليبية قد أيقظت في المسيحيين روح الانتقام من أعدائهم ، فلماذا يختص المسيحيون المسامين بذلك العداوة ويتركون اليهود ؟ أليس اليهود هم الذين صلبوا المسيح عليه السلام ؟ ألم يكن اليهود هم الذين حاولوا سحق المسيحية وهي في المهد ؟ أليسوا هم الذين اضطهدوا المسيحيين الأوائل وشردهم وحرصوا عليهم الحكام الرومان ليعملوا فيهم قتلا وتذبيحاً ؟<sup>(٢)</sup> وهكذا لم يكن منتظراً أن تمر موجة الحماسة الصليبية بسلام دون أن يصيب اليهود في أوروبا شيئاً من رشاشها .

وكان أن تجمع في حوض الراين في إبريل سنة ١٠٩٦ جمع من الصليبيين الألمان ، زاد عددهم على عشرة آلاف ، تحت قياده فولكار ، ومن هناك شرعوا في الزحف شرقاً للحاق ببطرس الناسك . وفي الوقت الذي شمت تلك المجموعة طريقها نحو براغ ، إذا بمجموعة أخرى تتكون بعد قليل في حوض الراين بزعمامة الأمير إميخ Emich<sup>(٣)</sup> . وقد استهل إميخ هذا نشاطه الصليبي في أوائل مايو سنة ١٠٩٦ بمهاجمة اليهود في مدينة سبير Spier ونهب أموالهم وقتل اثني عشر يهودياً ، في حين لم ينقذ الباقي سوى أسقف المدينة الذي استظلمهم بحمايته . ولم يكد إميخ وجموعه يصلون بعد ذلك إلى ورمز حتى انتشرت إشاعة بأن اليهود قتلوا

1 - Runciman : op. cit; I, p. p. 135 — 136

2 - Cary : A Hist. of Rome, p p. 589 — 590.

3 - Setton : op cit, I, p. p. 263 — 265.

مسيحياً وحفظوا جثته في إناء به ماء ليستخدموا ذلك الماء في تسميم آبار المدينة<sup>(١)</sup>. وسرعان ما أدى انتشار هذه الإشاعة إلى اشتراك الفلاحين من الجهات والضواحي القريبة مع رجال إميخ في إحداث مذبحه كبرى باليهود (٢٠ مايو) ، هلك فيها أكثر من خمسمائة يهودي<sup>(٢)</sup>. ثم اتجه إميخ بعد ذلك إلى مينز حيث أغلق رئيس الأساقفة أبواب المدينة في وجه الصليبيين . على أن اقتراب رجال إميخ من مينز أدى إلى حركة ضد اليهود قتل أثناءها أحد اليهود ، وعندئذ فتح الناس أبواب المدينة للصليبيين الذين اقتحموا المباني التي اختبأ فيها اليهود وقتلواهم ، في حين أعلن بعضهم اعتناقه المسيحية لينجو من ذلك المصير الرهيب . وقد قدر عدد قتلى اليهود في حوادث مينز وحدها بألف قتيل<sup>(٣)</sup> . ولم تكن حوادث مينز هي الأخيرة بالنسبة لليهود في حوض الراين ؛ وإنما اتجه إميخ ورجاله بعد ذلك صوب كولونيا حيث قتلوا بعضهم ، ثم قصدوا القسطنطينية بعد ذلك عن طريق هنغاريا .

وسرعان ما وصلت أخبار ما فعله إميخ باليهود إلى مسامع بعض الجماعات الصليبية التي سبقت إلى الشرق ، ففعل فولكار وأتباعه باليهود في براغ مثلما فعله إميخ بهم في مدن الراين ( ٣٠ يونيو ) . وقد حاول فولكار أن يكرر التمثيلية ضد اليهود في مدن هنغاريا ، ولكن الهنغاريين لم يسمحوا له بذلك ، وهاجموه وأعوانه من الصليبيين فقرقوهم وقتلوا كثيرا منهم . وعندما أتى بعد ذلك إميخ ورجاله إلى هنغاريا ، قابلهم الهنغاريون بنفس الأسلوب ، مما أدى إلى تدمير حماة إميخ وفولكار في هنغاريا<sup>(٤)</sup> .

1 - Grousset : Hist: des Croisades, I, p. 10.

2 - Cam. Med. Hist., vol 5, p 277.

3 - Albert d'Aix, IV, p. p. 292 - 293.

4 - Runciman : op. cit; I, p. p. 134 - 141.

هذا ، وقد استمر شعور العداء تجاه اليهود في غرب أوروبا طوال عصر الحروب الصليبية . ولم تكن البايوية نفسها أقل عداء لليهود ، فأصدر البابا أنوسنت الثالث سنة ١٢١٥ مرسوماً بايوياً يحد من استغلال اليهود للصليبيين سواء في عمليات الإقراض أو رهن الممتلكات أو غير ذلك<sup>(١)</sup> .

---

1 - Thompson : Economic and Social Hist, p. 409.



## الفصل الثاني

### الأمراء الصليبيون والدولة البيزنطية

جودفري بوابورد وألكسيوس كومنين :

في الوقت الذي أخذت حملات العامة من المدمين والفوغاء يذبحون في اليهود ويعتدون على الشعوب الأوربية المسيحية التي سلكوا أراضيها ، جرى تنظيم الشطر الثاني من الحملة الصليبية الأولى - وهو الشطر المعروف بحملة الأمراء - وإعداد ه إعداداً رتيباً . والواقع إن الشطر الخاص بالأمراء في الحملة الصليبية الأولى تألف من عدة حملات أو جموع ، لكل منها طابعها المميز الذي لازمها منذ أول الأمر ، وميز نشاطها في الشرق<sup>(١)</sup> . وبعبارة أخرى فإن الروح الإقطاعية بدت واضحة في الشطر النظامي من الحملة الصليبية الأولى ، إذ تولى زعامتها عدة أمراء لكل منهم اتجاهاته وجنده وسياسته الخاصة ، مما جعل تلك الحملة في حقيقة أمرها عبارة عن عدة حملات ربما عملت أحياناً في اتجاهات متعارضة<sup>(٢)</sup> .

أما المجموعة الأولى من حملة الأمراء فكان على رأسها جودفري بوايون أمير لوثرنجيا وبرفتمته أخوه بلدوين البولوني ، فضلاً عن عدد آخر من كبار الأمراء<sup>(٣)</sup> . ويبدو أن المسكاة البارزة التي تمتع بها جودفري بوايون في الإمبراطورية المقدسة ، وأهمية الإمارات التي شارك أصحابها في تلك الحملة ، جعلت لها مكانة خاصة دفعت كثيراً من الفرسان إلى الانضمام إليها ، فاكتملت طابعاً مميزاً من أول

(1) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. p. 279-280.

(٢) حسن حبشى : الحرب الصليبية الأولى ص ٦٥

(٣) Michaud : Hist des Croisades, I, p. p. 146-147.

(١٠٠ م - الحروب الصليبية)

الأمر<sup>(١)</sup>. هذا مع ملاحظة أن معظم المشتركين في هذه الحملة كانوا من القطاع اللاتيني في الأمبراطورية الرومانية المقدسة ، ولم يكن من القطاع الألماني سوى القليل ، مما جعل الطابع العام لحملة جودفري بوايون فرنسا . وقد ظهر أثر ذلك عندما استقر أولئك الصليبيون ببلاد الشام ، إذ سرعان ما ذلت العلاقات الاقطاعية التي ربطتهم بإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، وأقاموا ملكية جديدة في بيت المقدس وفق النظم والتقاليد الفرنسية<sup>(٢)</sup>

وكانت حملة جودفري بوايون أول حملة صليبية نظامية شقت سبيلها إلى الشرق . وقد سلكت طريق هنغاريا — مثل حملات العامة التي سبقتها — في وقت كان الهنغاريون مازالوا يحملون كثيراً من الحقد والضعينة للصليبيين ، بعد الضرر الذي لحق بهم على أيدي جموع بطرس الناسك وفولكار وإميخ<sup>(٣)</sup> . لذلك رأى جودفري أن يبذل تلك المخاوف عند الهنغاريين قبل أن يعبر بلادهم ، فعقد اجتماعاً مع كولمان ملك هنغاريا على الحدود الهنغارية الألمانية . وفي ذلك الاجتماع قدم جودفري أخاه بلدوين البولوني ليظل رهينة لدى الملك الهنغاري حتى يتم انتقال قواته عبر الأراضي الهنغارية . وفي الوقت نفسه أصدر جودفري أوامر مشددة لرجاله ليحول بينهم وبين أعمال النهب والعدوان على الأهالي أو ممتلكاتهم<sup>(٤)</sup> .

وبوصول جودفري بوايون إلى الحدود البيزنطية في أواخر نوفمبر سنة ١٠٩٦ بدأت « المسألة الصليبية » في تاريخ الدولة البيزنطية . ففي ذلك الدور بالذات وضع الأمبراطور ألكسيوس كومنين سياسة ثابتة تجاه الصليبيين ، وهي السياسة

(1) Punciman : op. cit; I, p. 147.

(2) Grousset : op. cit; I, p. 12.

(3) Setton : op. cit; I, p. 268.

(4) Albert d'Aix, IV, p. p. 299-305.

التي لم يتخل عنها خلفاؤه أباطرة القسطنطينية طوال قرن من الزمان . ذلك أن ألكسيوس كومنين أراد أن يستغل الحركة الصليبية ويسخرها لتحقيق أهدافه ومصالح دولته الخاصة ، فلما فشل في ذلك انقلبت سياسته تجاه الصليبيين إلى عداء صريح <sup>(١)</sup> . وقد بدأ الإمبراطور البيزنطي بإرسال رسل إلى جودفري بوايون لاستقباله فيما بين بلغراد ونيش ، وهناك عقدوا معه اتفاقية تمهيدية باسم الإمبراطور ، تعهد فيها جودفري بمدح رجاله من القيام بأى عمل من أعمال السلب والنهب داخل أراضي الإمبراطورية ، مثلما فعل أتباع بطرس الناسك وغيرهم من جموع العامة . وفي مقابل ذلك تعهدت الإمبراطورية بمداد الصليبيين بكل ما يلزمهم من تموين ، حتى وصولهم إلى جبهة الحرب ضد السلاجقة <sup>(٢)</sup> . وعلى أساس الاتفاقية السابقة استأنف الصليبيون طريقهم حتى وصلوا إلى شاطئ بحر مرمرة حيث توقفوا قليلاً للراحة على شاطئه عند بلدة سليمانيا Selymbria ، وكان ذلك حوالى منتصف ديسمبر سنة ١٠٩٦ . على أنه حدث في ذلك المكان أن أفلت زمام الصليبيين فترة من يد جودفري ، وفقدوا روح النظام التي تحلوا بها حتى ذلك الوقت ، فقام رجال جودفري بنهب سليمانيا <sup>(٣)</sup> . ومهما يكن من أمر ، فإن أهم ما كان يعنى الإمبراطور البيزنطي في ذلك الدور هو تحديد الجانب القانوني للعلاقة بينه وبين الصليبيين . فالحرب الصليبية جاءت شيئاً جديداً على الغرب الأوربي ، في حين كان الصراع ضد المسلمين أمراً مألوفاً للبيزنطيين منذ القرن السابع . وهكذا أراد الإمبراطور البيزنطي أن يتصور حملة جودفري بوايون في صورة نجدة سريعة وصلته وسط معركة طويلة ضد المسلمين ، لنصرة المسيحية وطرد السلاجقة من الأراضي التي احتلوها في آسيا <sup>(٤)</sup> .

(1) Chalandon : Regne d'Alexis Comnene, p. 164-165.

(2) Albert d'Aix, IV, p. 299-305.

(3) Idem, p. 304-305.

(4) Brehier : op. cit; p. 310

والواقع أنه منذ وصول حركة الفتوح الإسلامية إلى شواطئ البحر المتوسط في القرن السابع ، والدولة البيزنطية في صراع ضد المسلمين لا يكاد يهدأ قليلاً حتى يشتد طويلاً . ومنذ توسع السلاجقة في الشرق الأدنى ، والدولة البيزنطية تتحمل وحدها الضربة تلو الأخرى من جراء ذلك التوسع . وبعبارة أخرى فإن الدولة البيزنطية — وليس الغرب الأوربي — هي التي تولت عبء الدفاع عن الأماكن المقدسة في الشرق ضد المسلمين طوال عدة قرون ؛ فلا أقل من أن يتولى الإمبراطور البيزنطي قيادة الجيوش الصليبية التي أخذت تغد من الغرب الأوربي منذ أواخر القرن الحادي عشر لمحاربة المسلمين (١) .

وربما أراد الإمبراطور ألكسيوس كومنين أن يجعل من جودفري بوايون صورة للقائد النورمانى رسل باليل الذى سبق أن حضر على رأس جموعه لمحاربة السلاجقة تحت راية الإمبراطور البيزنطى . وكل ما هنالك هو أن جودفري جاء أكثر قوة وعتاداً من سلفه رسل باليل ، مما جعله يبدو أعظم نفماً للإمبراطورية البيزنطية وأكبر قدرة على خدمة أغراضها . وفى الوقت نفسه أدرك ألكسيوس أن قوة جودفري من الممكن أن تجعله أكثر خطراً على الإمبراطورية ومصالحها (٢) . ولعل الدرس الذى أخذته الإمبراطورية من ثورة رسل باليل عليها واغتصابه أراضيها وانضمامه إلى السلاجقة ضدها ، هذا الدرس لم تكن الإمبراطورية البيزنطية قد نستته بعد عندما وصل جودفري بوايون على رأس جيوشه إلى أراضى الإمبراطورية فى أواخر القرن الحادى عشر . لذلك حرص الإمبراطور ألكسيوس على ألا تتكرر مأساة رسل باليل ، وبدأ يتصرف تجاه جودفري فى شىء من الحزم ، فطلب منه أن يقسم يمين الولاء للإمبراطور ، بمعنى أن يقسم القائد الصليبي أن يكون تابعاً للإمبراطور البيزنطى .

(1) Grousset, op. cit., I, p. 16.

(2) Chalandon : Premiere Croisade, p p. 119-121.

في الأراضي الآسيوية التي عساه ينجح في استردادها من المسلمين<sup>(١)</sup>.

هذه هي وجهة نظر الامبراطور ألكسيوس كومنين - ويبدو أنه لم يستهدف أى هدف آخر عدا إقناع جودفرى بالولاء للامبراطورية ورد الأراضي التي يستردها من السلاجقة في آسيا. وهذا الأمر وحده كان كافياً لتحديد العلاقة بين الامبراطورية البيزنطية من ناحية والصليبيين الغربيين من ناحية أخرى . وكان الإمبراطور ألكسيوس - عندما سمع بما فعله الصليبيون في سليمان - قد أرسل إلى جودفرى طالباً منه ردع قواته عن النهب ، والحضور ومعه رجاله أمام أسوار القسطنطينية ، فحضر جودفرى على رأس قواته وعسكروا أمام سور العاصمة في ديسمبر سنة ١٠٩٦ ، وعندئذ أرسل ألكسيوس إلى جودفرى مرحّباً داعياً إياه لمقابلته ، ليتسم له يمين الولاء<sup>(٢)</sup>. على أن جودفرى بوايون رفض تلك الدعوة ، لأنه بحكم مركزه في الإمبراطورية المقدسة ، وبحكم تبعيته للامبراطور الغربي كان يتعذر عليه أن يقسم يمين التبعية والولاء للامبراطور البيزنطي<sup>(٣)</sup> . وكيف كان يستطيع أمير أن يوزع ولاءه بين الإمبراطور هنرى الرابع في الغرب والإمبراطور ألكسيوس كومنين في الشرق ، مع ما بين الإمبراطوريتين من تنافر؟ وأخطر من هذا ، كيف يستطيع جودفرى - وهو الأمير الكاثوليكي الذي وفد على رأس حملته تنفيذاً لدعوة البابا أوربان الثاني - أن يقدم ولاءه

(1) Runciman : op. cit; I. p. 149

(2) Chalandon : Alex & Comnenes, p. 176.

(٣) أشار ابن الأثير إشارة سرية إلى ما نشأ من خلاف بين زعماء الحملة الصليبية الأولى والإمبراطور البيزنطي ، واشترط الإمبراطور على أولئك الزعماء تسليمه ما يفتحونه من بلاد وعلى أن يقسموا له يمين الولاء . فقال في حوادث سنة ٤٩١ هـ : « فلما عزم الفرنج على قصد الشام ساروا إلى القسطنطينية ليمروا الحجاز إلى بلاد المسلمين ويسيروا في البر فيكون أسهل عليهم . فلما وصلوا إليها ؛ منهمم ملك الروم من الاجتياز ببلادهم ، وقال : لا أمسكنكم من العبور إلى بلاد الإسلام حتى تحلفوا أنكم تسلموا لي أنطاكية . »

(الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩١ هـ) .

للإمبراطور البيزنطي حامى الكنيسة الأرثوذكسية ، مع ما بين الكنيستين الشرقية والغربية من شقاق ونفور ؟ فإذا أضفنا إلى ذلك رغبة جودفرى فى عدم توريط زملائه الأمراء الصليبيين اللاحقين به ، أدركنا حرج موقفه وأسباب تمنعه عن تلبية دعوة الإمبراطور البيزنطي<sup>(١)</sup> . لذلك أخذ جودفرى يماطل فى تحديد موعد المقابلة مع الإمبراطور حتى تصل بقية الجيوش الصليبية من الغرب ، فيتخذ الأمراء الغربيون موقفاً موحداً تجاه الإمبراطور البيزنطي ويضطرونه إلى التنازل عن مطالبه . وهذا وإن كانت بعض المراجع تعلق بمنع جودفرى عن مقابلة الإمبراطور بأنه كان يخشى على نفسه من غدر الإمبراطور ، وأنه طلب رهاش تبقى لدى رجاله لحين عودته إليهم سالمًا ، وهو الطلب الذى اعتبره الإمبراطور إهانة له ، وماسا بشرفه<sup>(٢)</sup> .

وعندما ضاق ألكسيوس بتسويق جودفرى ، وأدرك أنه يماطل لكسب الوقت اتخذ قراراً خطيراً هو منع تموين الصليبيين ، فرد الصليبيون على ذلك بنهب الضواحي المحيطة بالقسطنطينية مما جعل الإمبراطور يعدل بسرعة عن قراره<sup>(٣)</sup> . وفى الوقت نفسه عمل الإمبراطور على استرضاء الصليبيين بالسماح لهم بالإقامة فى ضاحية بيرأ Pera - من ضواحي القسطنطينية - حتى يحتموا بها من قسوة الشتاء من ناحية ، وحيث يسهل على الإمبراطور مراقبتهم والإشراف عليهم من ناحية أخرى<sup>(٤)</sup> .

على أن هذه الإجراءات من جانب ألكسيوس لم تحل المشكلة ، إذ ظل جودفرى بوايون طوال الأشهر الثلاثة الأولى من سنة ١٠٩٧ قابلاً مع جنوده

(1) Runciman : op. cit; I, P. p. 149-150.

(2) Cam, Med Hist vol. 5, p 281.

(3) Brehier : op. cit; p. 311.

(4) Chalandon : Alexis Comnene, p. p. 178-179.

في بيرا ، ورفض أن يؤدي يمين الولاء للإمبراطور البيزنطى أو حتى يقبل دعوته لتقابلته . وعندما أحس الإمبراطور بأن الصليبيين النورمان تحت قيادة بوهيموند في طريقهم من إيطاليا إلى القسطنطينية عن طريق مقدونيا ، فكر في إجراء سريع للحيلولة دون التقاء هاتين المجموعتين من الصليبيين ، فنع التموين عن قوات جودفرى مرة أخرى ( أوائل إبريل سنة ١٠٩٧ ) مما أدى إلى صدام جديد بين البيزنطيين والصليبيين . وكان أن هاجم الصليبيون البيزنطيين في بيرا ، وبعد ذلك انسحبت قوات جودفرى منها بعد أن نهبتها وأحرقتها وأخذت تعيثُ فساداً في المناطق القريبة من القرن الذهبى ، بل لقد هاجمت أسوار القسطنطينية نفسها <sup>(١)</sup> . وإزاء ذلك اضطر الإمبراطور البيزنطى إلى أن يأمر جيشه بمهاجمة الصليبيين لدفع خطرهم ، ففر رجال جودفرى ولم يستطيعوا الصمود أمام الجيش البيزنطى . وهكذا أدرك جودفرى بوايون حقيقة قوته ولم يجد بداً من مسالة الإمبراطور <sup>(٢)</sup> .

وأخيراً اضطر جودفرى بوايون إلى قبول شروط الكسيوس كرمين ، فقصده القصر الإمبراطورى لتقديم ولاءه للإمبراطور البيزنطى وإعلان وضع حملته الصليبية في خدمة الامبراطورية لاسترداد الأراضى التى اغتصبها السلاجقة من الإمبراطورية <sup>(٣)</sup> . وبعبارة أخرى فقد تعهد جودفرى بوايون بتسليم الامبراطور جميع الأراضى التى كانت ملكا للامبراطورية البيزنطية قبل موقعة مانزكرت ، والتى سيستردها الصليبيون من السلاجقة . ومعنى ذلك أن الاتفاق لا يشمل فقط البلاد والمدن الواقعة فى الأناضول مثل نيقية ، بل يشمل أيضاً البلاد والمدن الواقعة فى أطراف الشام والعراق مثل أنطاكية والرها . وهكذا جاءت تلك الاتفاقية

(1) Albert d'Aix, p. p. 307—308.

(2) Runciman : op. cit; I, p. 151.

(3) Guillaume de Tyr, I, p. p. 87—88.

التي تمت في أبريل سنة ١٠٩٧ واضحة حاسمة ، مما جعل الإمبراطورية البيزنطية تعتمد عليها وتمسك بها في المطالبة بحقوقها من الصليبيين طوال القرن الثاني عشر . وزاد من تعقيد المشكلة أن الإمبراطورية البيزنطية اختارت ألا تفسر الاتفاقية السابقة في ضوء ما كان للإمبراطورية من ممتلكات في القرن الحادي عشر - على عهد باسل الثاني - وإنما في ضوء ما كان للإمبراطورية قديماً من أملاك واسعة في الشرق على عهد الإمبراطور جستنيان . وفي تلك الحالة لم تكف الإمبراطورية بالمطالبة بحقها في أنطاكية والرها ، وإنما طالبت أيضاً ببيت المقدس وطرابلس . على أننا سنرى أن الصليبيين ما كادوا يثبتون أقدامهم في تلك المدن ويستولون عليها ، حتى تناسوا كل ما للإمبراطورية من حقوق وكل ما قدموه لها من وعود مما أثار مشاكلاً طويلة بين الجانبين طوال القرن الثاني عشر<sup>(١)</sup> .

ومهما يكن من أمر ، فإن يمين الولاء الذي أقسمه جودفري بوايون جعل منه - ولو من الناحية الأدبية - تابعاً للإمبراطورية البيزنطية . وكان أن غمر الإمبراطور ألكسيوس الأمير جودفري بالهدايا الثمينة والخيول المطهمة ، كما غالى في إمداد الجيش الصليبي بالإمدادات السخية<sup>(٢)</sup> . وفي عاشر أبريل سنة ١٠٩٧ أمر ألكسيوس كومنين بنقل جودفري وجيشه إلى الشاطئ الآسيوي حيث انتظر جودفري وصول الحملة النورمانية . ولم يكذب يتم نقل جيش جودفري إلى البر الآسيوي حتى وصل جيش النورمان بقيادة بوهيموند إلى أسوار القسطنطينية ، وبذلك يكون ألكسيوس كومنين قد نجح في تنفيذ خطته الخلاصة بعدم اجتماع الحملتين - حملة جودفري وحملة بوهيموند - أمام أسوار عاصمته ، ليتمكن من مفاوضة كل فريق على حدة<sup>(٣)</sup> .

(1) Grousset : op. cit. I, p 19.

(2) Michaud : Hist. des Croisades. I, p. 176.

(3) Chalandon : Alexis Comnene, p. 183.



### برهيموند النورمانى وألكسيوس كومنين :

كان ذلك فى مستهل سنة ١٠٩٦ عندما أخذ برهيموند النورمانى - أكبر أبناء روبرت جويسكارڊ - يحاصر مدينة أمالفى التى ثارت ضد النورمان فى إيطاليا . وفى تلك الأثناء ترامت إلى مسامع برهيموند أن جيوشاً غفيرة خرجت من فرنسا ولوثرنجيا وألمانيا فى طريقها إلى بيت المقدس<sup>(١)</sup> . ولم يكد برهيموند يتأكد من طبيعة تلك الحركة وأهدافها حتى ترك حصار أمالفى وأزمع هو الآخر الخروج إلى الشرق على رأس حملة نورمانية كبيرة ، وبصحبه ابن أخته تسكرد وغيره من أمراء النورمان فى جنوب إيطاليا وصقلية . وفى نوفمبر سنة ١٠٩٦ نزلت الحملة النورمانية فى أفلونا Avlona على شاطئ ألبانيا ، ومنها اخترقت البلقان شرقاً عن طريق تراقيا إلى القسطنطينية<sup>(٢)</sup> .

على أن حملة النورمان الصليبية سرعان ما سببت فزعاً للبلاط البيزنطى أكثر من حملة جودفرى . فهل حقيقة أن الحملة النورمانية الكبيرة ليست إلا مجرد حملة صليبية استهدفت حرب المسلمين ، أم أن لها أغراض وأهداف وأطماع أخرى فى قلب الدولة البيزنطية نفسها ؟ إن النورمان بالذات لهم سوابق خطيرة فى الهجوم على الإمبراطورية البيزنطية ، فضلاً عن أن هذه الحملة جاء على رأسها ابن روبرت جويسكارڊ الذى مازالت محاولته لغزو الدولة البيزنطية وتهديد القسطنطينية نفسها سنة ١٠٨١ ماثلة فى أذهان البيزنطيين<sup>(٣)</sup> . هذه هى المحاولات التى أثارها حملة برهيموند فى نفوس المعاصرين داخل الإمبراطورية البيزنطية ، وهى مخاوف أثبتت الأحداث بعد قليل عدم صحتها ، لأن برهيموند

(1) Setton : op. cit, p. 155.

( ) Runciman : op. cit. I, p 155

(3) Cam Med. Hist. vol. 5, p. 282.

نفسه كان يدرك تماماً عدم مناسبة الوقت للقيام بمحاولة توسعية جديدة على حساب الدولة البيزنطية في البلقان ، وأن أية محاولة من هذا النوع تحت ستار الحرب الصليبية ستقابل بالاستهجان في جميع أنحاء العالم المسيحي وستسئ إلى النورمان بإساءة بالغة . وربما كان أقرب إلى الصواب القول بأن بوهيموند رأى في الحروب الصليبية في الشرق فرصة تمكنه من تحقيق ما فشل رسل باليل فيه ، وهو إقامة إمارة للنورمان في آسيا على حساب السلاجقة والبيزنطيين جميعاً ؛ ولتكن هذه الإمارة الجديدة في أنطاكية<sup>(١)</sup> .

وهكذا سار بوهيموند على رأس جموعه قاصداً القسطنطينية ، وفي أثناء سيرهم في البلقان نجح بوهيموند في كبح جماحهم ، فمنعهم من الاعتداء على الأهالي وأمواهم ، بل على العكس كثيراً ما أظهر البيزنطيون وأهل البلقان عداوتهم للنورمان ، في الوقت الذي قابل بوهيموند تلك الإساءات بشيء من ضبط النفس والتسامح حتى لا يثير شكوك الإمبراطورية<sup>(٢)</sup> . وبهذه السياسة الحكيمة نجح بوهيموند في كسب ثقة الإمبراطور ألكسيوس كومنين ، الذي أمر بإمداد القوات النورمانية بكل ما احتاجت إليه من ميرة طوال طريقها إلى القسطنطينية<sup>(٣)</sup> .

وعندما اقترب النورمان من القسطنطينية في أبريل سنة ١٠٩٧ طلب بوهيموند مقابلة الإمبراطور ألكسيوس ليصالحه ويعبر له عن إخلاصه ونواياه الطيبة ، فوافق الإمبراطور على شرط أن يدخل بوهيموند القسطنطينية بمفرده ويترك جيشه خارجها . والواقع إن بوهيموند بالذات كان أخطر الزعماء الصليبيين في نظر الإمبراطور البيزنطي ، ليس بسبب التجارب المريرة السابقة التي ذاقها الإمبراطورية البيزنطية من النورمان ومطامعهم فحسب ؛ وإنما أيضاً

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 21.

(2) Chalandon : Premiere Croisade, p.p. 133-136.

(3) Gesta Francorum, p. p. 20-21.

بسبب كفاية قوات بوهموند وحسن إعدادها وتنظيمها وقوة تسليحها ، مما جعل الحملة النورمانية تبدو قوة رهيبة داخل أراضي الدولة البيزنطية<sup>(١)</sup> .

على أن تطور الأمور سرعان ما أظهر أن شيئاً من هذه المخاوف لم يتحقق ، إذ أطاع بوهموند رغبة الإمبراطور وتقدم إلى القسطنطينية بمفرده تاركا قيادة الجيش النورمانى لابن أخته تنكرد . والواقع إن بوهموند أظهر حكمة بالغة في ذلك الدور ، إذ كان يدرك قوة الإمبراطورية البيزنطية ، وأن الصليبيين دون مساعدتهم لن يستطيعوا تحقيق هدف واحد من أهدافهم في الشرق ، فضلا عن أن النزاع بين الصليبيين والبيزنطيين لن يعود إلا بالخسارة على الطرفين ، في حين من الممكن أن يحقق التحالف بين الطرفين نتائج مفيدة للمسيحيين أجمعين . هذا كله بالإضافة إلى ما كان يرمى إليه بوهموند من كسب مساعدة الإمبراطور البيزنطى ليتمكن عن طريق هذه المساعدة من تحقيق أطماعه في الشرق ، وهى المطامع التى تتلخص فى فرض نوع من الزعامة على بنية زعماء الصليبيين من ناحية ، وفى إنشاء مملكة لبوهموند فى الشرق تغنيه عن المنازعات التى دبت فى إيطاليا وصقلية بين أفراد البيت النورمانى عقب وفاة أبية روبرت جويسكارد ، من ناحية أخرى<sup>(٢)</sup> .

وكان أن تمت المقابلة بين بوهموند والإمبراطور ألكسيوس كومنين فى جو مشبع بالود والتفاهم . وسرعان ما أقسم بوهموند بيمين الولاء للإمبراطور وأعلن تبعيته له ، فغمره — هو الآخر — بالأموال والهدايا الثمينة . ولما كانت هذه التبعية تحمل بين طياتها مبدءاً الحذر من أطماع بوهموند ونشاطه فى الشرق ، لأنه سيفتح ما يفتحه من بلاد باسم الإمبراطور البيزنطى ، فإن بوهموند رأى أن يحتاط لنفسه ومستقبله ، فطلب من ألكسيوس منحه إقطاعاً كبيراً فى

(1) Runciman : op. cit, I, p. 157.

(2) Chalandon : Premiere Croisade, p. 132.

إقليم أنطاكية . وهنا لبي الإمبراطور طلب بوهيموند ، فوعده بمنطقة واسعة حول أنطاكية طولها مسيرة خمسة عشر يوماً وعرضها مسيرة ثمانية أيام<sup>(١)</sup> . وبذلك تكون هذه الاتفاقية قد حددت مولد إمارة أنطاكية النورمانية ، وهي الإمارة التي صار لها شأن كبير فيما بعد في تاريخ الصليبيين بالشام .

أما ما طلبه بوهيموند من الإمبراطور بخصوص تعيينه قائداً عاماً للقوات الإمبراطورية في آسيا ، فإن ألكسيوس كومنين لم يمكنه أن يحقق ذلك الطلب بحكم تشككه في الصليبيين عامة والنورمان خاصة . ولذلك أجاب على بوهيموند بأن الوقت لم يحن بعد للبت في ذلك الموضوع وأنه من الممكن أن يصل بوهيموند إلى تحقيق رغبته هذه عن طريق إثبات ولائه وحسن نيته<sup>(٢)</sup> .

وبفضل سياسة بوهيموند وحسن تصرفه وبعد نظره ، سارت الأمور بين السلطات البيزنطية من ناحية والنورمان من ناحية أخرى على خير ما يرام ، فانتقلت حملة النورمان إلى الشاطئ الآسيوي في ٢٦ أبريل لتحتل مكانها إلى جانب حملة جودفري بوايون . هذا مع ملاحظة أن بقية زعماء الحملة النورمانية — وبخاصة ريتشارد دي سالرنو وتنكرد — تجنبوا قسم يمين الولاء للإمبراطور البيزنطي ، وعبروا البسفور على رأس الجيش النورمانى إلى آسيا الصغرى دون أن يرتبطوا بأى رباط مع الإمبراطور<sup>(٣)</sup> .

### ريموند دي تولوز وألكسيوس كومنين :

أما المجموع الصليبية الوافدة من إقليم بروفانس ، فقد وصلت إلى الأراضي

(1) Gesta Francorum, p. 31.

(2) Brehier : op. cit; p. 312.

(3) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 282.

البيزنطية في الوقت نفسه تقريبا الذي شهد وصول حملة النورمان . وكانت هذه الحملة البروفسالية تحت زعامة ريموند الرابع أمير تولوز وبروفانس . ولما كانت البابوية تطمع دائما في الاحتفاظ بسيطرتها على الحركة الصليبية ، فقد أوفد البابا مع ريموند الرابع الاسقف أدهار - أسقف بوى - ليكون مندوبا يمثل البابوية في زعامة الصليبيين بالشرق<sup>(١)</sup> . وقد بارحت تلك الحملة الغرب في اكتوبر سنة ١٠٩٦ فاجتازت شمال إيطاليا إلى كرواتيا فدلماشيا وألبانيا ومقدونيا ثم القسطنطينية ، دون أن تصادف عقبات كثيرة في الطريق فيما يختص بناحية التموين . وكل ما هنالك هو أن الأهالي في الإمبراطورية البيزنطية أظهروا أحيانا شعور العداء تجاه الصليبيين ، لاسيما وأن قوات ريموند نفسها كانت غير منظمة وجنحت للنهب والعدوان مما جعل البيزنطيين لا يترددون في ردعهم<sup>(٢)</sup> .

وعندما اقتربت الحملة من القسطنطينية دعا الإمبراطور ألكسيوس كومنين زعيمها ريموند لتقابلته بمفرده في العاصمة ، فتمت المقابلة في أواخر ابريل سنة ١٠٩٧ ، وعندئذ طلب الإمبراطور من ريموند أن يقسم له يمين الولاء والتبعية مثلما فعل من سبقه من زعماء الجموع الصليبية . وهنا وجد ريموند نفسه في مركز لا يحسد عليه . ذلك أنه كان يطمع في الحصول على زعامة الصليبيين جميعا في الشرق بحكم صلته بالبابوية ومرافقه المندوب البابوي لملته ، وهو شرف لم تحظ به بقية الحملات الصليبية السابقة . ولكن هذه الزعامة التي اعتمدت على تأييد البابوية لا يمكن أن تتفق ويمين الولاء للإمبراطور البيزنطي ، راعي الكنيسة الأرثوذكسية . هذا إلى أن ريموند كان يرى في بوهموند النورمانى غريمه ومنافسه الأول . فإذا كان هذا المنافس قد نجح فعلا في اكتساب صداقة

(1) Iorga : Breve Hist. des Croisades, p. 51.

(2) Grossset : Hist. des Croisades I, p. p. 24-25.

الإمبراطور البيزنطى وتأييده ، فإن معنى قبول ريموند أن يقسم يمين الولاء للإمبراطور هو أنه سيضطر في المستقبل إلى قبول العمل تحت زعامة غريمه بوهيموند ، وهو مالا يمكن أن يقبله<sup>(١)</sup> . لذلك كله رفض ريموند بشدة تلبية رغبة الامبراطور ، وقالها في صراحة أنه لم يحمل الصليب ليخضع لسيد غير السيد المسيح ، ولم يغادر بلاده ليحارب من أجل سيد غير السيد المسيح<sup>(٢)</sup> . ثم إن ريموند استنكر أن يدخل في تبعية الامبراطور ، في حين يظل الأخير قابعا في القسطنطينية لا يريد أن يرافق الصليبيين في حرب المسلمين . لذلك أعلن ريموند أنه مسنعد لإعلان تبعيته للإمبراطور البيزنطى إذا خرج الامبراطور على رأس الصليبيين بنفسه وتولى قيادتهم في الحرب الصليبية<sup>(٣)</sup> .

ومنрган ما تأزم الموقف بين ريموند من جهة والامبراطور ألكسيوس من جهة أخرى ، مما أندر بحدوث صدام مسلح بين الطرفين . وهنا تدخل جودفري بوايون وقال لريموند أنه من الحماقة أن يفكر في شن الحرب على المسيحيين في القسطنطينية ، في الوقت الذى يربط السلاجقة المسلمون على بعد عدة كيلو مترات قليلة من نيقية<sup>(٤)</sup> . أما بوهيموند الثورمانى الذى كان قد سوى أمور مع الامبراطور ، فقد أعلن في صراحة وقوفه إلى جانب ألكسيوس كومنين في حالة وقوع صدام مسلح بين الطرفين . وأخيرا اضطر ريموند تحت تأثير الضغط الواقع عليه إلى الوصول إلى اتفاق مع الامبراطور البيزنطى ، حقيقة إن ريموند أبقى بتاتا أن يقسم يمين الولاء والتبعية للإمبراطور ، ولكنه وافق على أن يقسم على احترام حياة الامبراطور وشرفه ، وألا يقوم هو ورجاله بعمل يسىء إلى الامبراطور<sup>(٥)</sup> .

(1) Runciman : op. cit; I, p. 163.

(2) Raymond d'Aigles (Hist. Occid, III), p. 238.

(3) Cam Med. Hist, vol. 5, p. 283.

(4) Raymond d'Aigles p, 238.

(5) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 283.

ولم تلبث أن تحسنت العلاقات بين الامبراطور البيزنطي وريموند بفضل جهود  
أدهمار المنسوب البابوي<sup>(١)</sup>. هذا إلى أن ريموند أتيحت له فرصة عقد اجتماع منفرد  
مع ألكسيوس كومنين، وفي ذلك الاجتماع صرح الامبراطور بتخوفه من بوهيموند  
والنورمان، وأنه لا يمكن أن يتخذ بوهيموند زعامة القوات الامبراطورية في آسيا.  
وعندما سمع ريموند تلك التصريحات من فم الامبراطور طاب قلبا وهدأ نفسا،  
وبدأ يدرك أنه من الممكن أن يجد في الامبراطور البيزنطي حليفا قويا ضد بوهيموند  
وأطماعه. ومنذ تلك اللحظة تبدلت سياسة ريموند تجاه الامبراطورية البيزنطية  
تبدلا تاما<sup>(٢)</sup>.

الأستاذ الدكتور

البحر المحيبي

الحملة الفرنسية والكبوس كومنين :

وأخيرا وصلت مجموعة رابعة من الصليبيين لتلتقي مع بقية الجموع الصليبية على  
شاطئ السفور. وقد تألفت هذه الحملة من الفرنسيين تحت زعامة روبرت أمير  
نورمنديا — وهو ابن وليم الفاتح —، وصهره إيتين (ستفن) أمير بلوا وشارتر<sup>(٣)</sup>.  
وبعد أن مرت الحملة بإيطاليا حيث باركها البابا أوربان الثاني، استقلت السفن من  
برنديزي إلى البلقان في أوائل ابريل سنة ١٠٩٧، فأرست في دورازو ومنها  
اخرقت البلقان إلى القسطنطينية. ويبدو أن ألكسيوس كومنين لم يواجه من تلك  
الحملة متاعب وصعوبات مثلما لاقى من الحملات السابقة<sup>(٤)</sup>. ولم يمانع زعيما هذه  
الحملة — كونت نورمنديا وكونت بلوا — مطلقا في أن يقسمائمين الولاة والتبعية

(1) Sclon : op. cit., I, p. p. 287-288.

(2) Runciman, op. cit; I, p- 164.

(3) Michaud : Hist des Croisades, I, p. 178.

(4) Foucher de Chartres (Hist. Occid. III), P. p. 331-332.

للإمبراطور البيزنطي ، ولذا حرص الإمبراطور على أن يصدق عليهما وعلى رجالهما الإمدادات والمؤن والإغاثات فضلا عن الأموال والخيول المطهمة<sup>(١)</sup> . وبعد أن قضى هؤلاء الصليبيون أسبوعين في القسطنطينية ، عبروا البسفور إلى آسيا الصغرى وأسرعوا في اللحاق ببقية الصليبيين الذين كانوا قد شرعوا فعلا في حصار نيقية<sup>(٢)</sup> .

---

(1) Chalandon : Alexis Comnene, p. P. 188-189.

(2) Brehier : op. cit; p. cit; p. 312.



## الفصل الثالث

### الحملة الصليبية الأولى وسلاجقة الروم

الاستيلاء على نيقية وتعلمها للبيزنطيين :

أقسم جميع زعماء الحملة الصليبية الأولى — باستثناء ريموند وتنكرد —  
يمين الولاء والتبعية للامبراطور البيزنطي ألكسيس كومنين ، وتعهدوا له برد  
كافة الممتلكات البيزنطية القديمة التي يستطيعون استردادها من السلاجقة ، من  
نيقية حتى أنطاكية . وفي مقابل ذلك تعهد الامبراطور البيزنطي بمساعدة الصليبيين  
في مهمتهم بكل قواه ، وأن يسهم هو الآخر بدوره في الحرب الصليبية ، وأن  
يهدم بفرق من الجيش البيزنطي في حالة عدم تمكنه من مراقبتهم شخصيا<sup>(١)</sup> .  
ويميل بعض المؤرخين إلى الظن بأن اتفاقية شاملة بهذا المعنى تم إبرامها في منتصف  
مايو سنة ١٠٩٧ بين الامبراطور ألكسيوس كومنين والأمير بوهيموند، الذي  
كان يحاول الظهور دائماً في صورة الخليف الأول للامبراطور البيزنطي<sup>(٢)</sup> .

وأخيراً تجمعت القوات الصليبية كلها على الشاطئ الآسيوي قرب أزمير،  
حيث حضر بطرس الناسك لمقابلة الأمراء ومعه حطام حملة العامة . وهناك تم  
الاتفاق على أن يبدأ الصليبيون بالهجوم على مدينة نيقية ، المركز الرئيسي لقلج  
أرسلان الأول ومقر حكمه . ومن الواضح أن الصليبيين كانوا لا يستطيعون المضى  
في جوف آسيا الصغرى تاركين خلفهم نيقية بأيدي السلاجقة ، مما يهددهم ويهدد  
خطوط مواصلاتهم مع الامبراطورية البيزنطية لخطر جسيم . لذلك صدرت

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 27.

(2) Chalandon : Alexis Comnene p. 188.

الأوامر إلى الصليبيين في أواخر ابريل سنة ١٠٩٧ بالزحف على نيقية لاستخلاصها من السلاجقة . وقد أمد الامبراطور البيزنطي الصليبيين بالآلات الحصار والطعام والمؤن ، ولكن لم تشارك سوى فرقة صغيرة من القوات البيزنطية في حصار نيقية ، وهي المدينة القوية التحصين<sup>(١)</sup> .

وفي ذلك الوقت كان قلعج أرسلان متغيبا عن نيقية ، حيث دخل في نزاع في كابادوكيا مع بنى دانشمند حول مدينة ملطية . ويبدو أن قلعج أرسلان لم يهتم كثيرا بأبناء الغزو الصليبي ، إذ ظن أن الأمر لا يعدو وصول بعض جموع أخرى من العامة غير المدربين ، من عينة أتباع بطرس الناسك الذين قضى عليهم السلاجقة في سهولة تامة<sup>(٢)</sup> هذا إلى أن عيون الإمبراطور البيزنطي وجواسيسه أعطوا قلعج أرسلان صورة غير حقيقية عن الخلافات المستحكمة بين الامبراطور من جهة والأمراء الصليبيين من جهة أخرى ، مما جعل السلطان السلجوقي يطمئن إلى أن الصليبيين لن يصلوا بأي حال إلى نيقية ، بدليل أنه ترك زوجته وأولاده وأمواله داخل أسوار المدينة ولم يحاول نقلهم منها<sup>(٣)</sup> .

ولكن قلعج أرسلان لم يلبث أن أدرك جدية الأمر ، وأن جيوش الصليبيين تلك المرة غير جيوش بطرس الناسك في المرة السابقة ، فأرسل قوة على عجل للدفاع عن نيقية وإيقادها . على أن تلك القوة لم تصل نيقية إلا بعد فوات الأوان ، لأن الصليبيين كانوا قد أدركوا نيقية في ٦ مايو سنة ١٠٩٧ وحاصروها ، وأخذوا يهاجمونها بعد أسبوع<sup>(٤)</sup> . ثم كان أن حضر السلطان قلعج أرسلان نفسه في حوالي ٢١ مايو وبدأ بمهاجمة الصليبيين فور وصوله ، ولكنه أدرك بعدمعركة قصيرة أنه من الخير له أن ينسحب لأن قوة الصليبيين أعظم مما كان يتوقع . وإذا

(1) Cam. Med Hist, vol. 5. p. 285

(2) Seïton : op. cit; I, p. p. 288-289.

(3) Runciman ; op. cit; I, p. 176-177

(4) Grousset : Hist. des Croisades I p. 29.

كانت خسارة السلاجقة قد جاءت كبيرة في تلك المعركة ، فإن خسارة الصليبيين كانت فادحة أيضاً ، ومع ذلك فإن انتصارهم أحيى روحهم المعنوية وبث فيهم قوة جديدة<sup>(١)</sup> .

وفي تلك الأثناء لم يتقاعس الامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين عن مساعدة الصليبيين وإمدادهم بالمؤن والزاد ، كما أرسل أسطولاً صغيراً من السفن إلى البحيرة التي تقع عليها مدينة نيقية لتسهيل تزويد الصليبيين بالمؤن والإمدادات<sup>(٢)</sup> . وعندما يئست حامية نيقية من وصول إمدادات إليها من قلع أرسلان بدأت تفكر في الاستسلام. ولكن أهل نيقية من الأتراك خشوا عنف الصليبيين وانتقامهم ، فأخذوا يتصلون سرا برجال الامبراطور البيزنطي لعله يكون أكثر رحمة بهم من الصليبيين . هذا في الوقت الذي كان ألكسيوس كومنين متخوفاً من نوايا ريموند وتنكرد — بعد أن رفضا أن يقسما له يمين الولاء والتبعية — وخشى أن يعارض هذان الأميران في تسليم نيقية عقب سقوطها للامبراطورية أو يتعرض الصليبيون للمدينة بالسلب والتدمير<sup>(٣)</sup> . لذلك تدخل الإمبراطور البيزنطي بسرعة ، وفاوض حامية نيقية على أساس تأمين أرواح أهل المدينة من الأتراك . ولم يلبث أن فوجيء الصليبيون بارتفاع الأعلام البيزنطية فوق نيقية دون أن يعلموا شيئاً عن المحادثات السرية التي دارت بين حامية المدينة من ناحية والامبراطور البيزنطي من ناحية أخرى . وبذلك عادت نيقية إلى أحضان الدولة البيزنطية في ٢٦ يونية سنة ١٠٩٧ ، أي بعد ستة عشر عاماً من احتلال السلاجقة لها<sup>(٤)</sup> .

(1) Albert d'Aix, p p. 320-321.

(2) Gesta Francorum, p. 37.

(3) Chalandon : Alexis Comnene, p. 190

(4) Brehier : op. cit, p. 312.

ولم يستطع الصليبيون إخفاء استيائهم من مسلك الإمبراطور البيزنطي  
تجاة أسرى نيقية ، إذ ضايقتهم تسامح الامبراطور مع الأسرى واستعداده  
لإطلاق سراح زوجته قلعج أرسلان وأولاده دون فدية. وكان الامبراطور ألكسيوس  
— من معاملاته العديدة مع المسلمين — يدرك أهمية العفو عند المقدرة ، ويقدر  
قيمة التسامح مع خصمه المغلوب ، ولكن الصليبيين الغربيين لم يفهموا ذلك المنطق  
واعتبروا مسلك الإمبراطور خيانة لهم وللنقضية الصليبية<sup>(١)</sup>.

وقد أسرع الإمبراطور ألكسيوس كومنين إلى دعوة زعماء الحملة  
الصليبية — غداة الاستيلاء على نيقية — للاجتماع به قبل أن يأذن لهم بالتوغل  
في آسيا الصغرى . وفي ذلك الاجتماع جدد الزعماء الصليبيون يمين الولاء  
للإمبراطور. وكان بوهموند أسبق الأمراء الصليبيين إلى تلبية دعوة الامبراطور  
والاستجابة له ، في حين امتنع تنكرد وريموند عن الارتباط بيمين الولاء  
للإمبراطور<sup>(٢)</sup> . ويبدو أن جميع زعماء الصليبيين — باستثناء تنكرد وريموند —  
أدركوا أهمية الامبراطورية البيزنطية ومساعدتها لهم في مشروعهم الخطير<sup>(٣)</sup> .  
حقيقة إن الامبراطور ألكسيوس لم يرافق الصليبيين بنفسه أثناء زحفهم على  
قونية ، ولكنه أمدهم بفرق من الجيش البيزنطي لمؤازرتهم وإرشادهم ، فضلا  
عن تقديم الإمدادات والمؤن لهم. وفيما عدا ذلك يبدو أن الصليبيين والبيزنطيين  
تقاسموا مهمة محاربة الأتراك في الأناضول ، فبينما انصرف الصليبيون إلى محاربة  
السلاجقة في فريجيا واختاروا الزحف على ضور ليوم وقونية ، إذا بالإمبراطور  
ألكسيوس كومنين يوجه جهوده نحو طرد الأتراك من الشواطئ الغربية لآسيا  
الصغرى أي من أقاليم مسيا Mysie وأيونيا وليديا<sup>(٤)</sup> .

(1) Runciman, op. cit, I, p. p. 180—182.

(2) Chalandon : Alexis Comnene, p. 193.

(3) Chalandon : Premiere Croisade, p. 167.

(4) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 31.

وخلاصة القول أنه مهما يقال في استياء الصليبيين من مسلك الامبراطور البيزنطى - سواء عند الاستيلاء على نيقية أو عند توزيع الأسلاب والفنائم أو فيما يختص بمعاملة أسرى المسلمين - فإن سقوط نيقية نفتح في الصليبيين روحا وعزيمة شجعتهم على المضى قدما في طريقهم ، بعد أن أدركوا خرافة الفكرة القائلة بأن السلاجقة لا يهزمون<sup>(١)</sup> . ثم إن الغرب الأوروبى قابل أبناء سقوط نيقية بالفرح الكبير ، فتشجع من كان محجما عن المشاركة في الحركة الصليبية ، وأخذت الإمدادات تترى تباعا على الصليبيين وهم في طريقهم إلى الشام . أما المدن الإيطالية التى ظلت حتى ذلك الوقت تقف موقفا حذرا من الحركة الصليبية ، فلم تلبث أن تشجعت ونظرت إلى الأمر نظرة جديدة جعلتها تسهم إسهاما فعليا في تلك الحرب<sup>(١)</sup> .

### موقعة صور ليوم والاستيلاء على قونية :

ثم كان أن غادر الصليبيون نيقية واستأنفوا سيرهم عبر فرجيا في أواخر يونيو سنة ١٠٩٧ ، وهم يفيضون حماسة وقوة . ولم يلبث الصليبيون أن انقسموا إلى شعبتين ، وذلك لتسهيل عملية التموين أثناء الزحف من ناحية ، وللقضاء على نفوذ سلاجقة الروم في أكبر مساحة ممكنة من ناحية أخرى ؛ فسارت إحدى الشعبتين في الاتجاه الشمالى الشرقى والأخرى في الاتجاه الجنوبى الشرقى ، على أن يلتقيان في صور ليوم . وقد ضمت الشعبة الأولى النورمان جميعا ، أى نورمان إيطاليا بزعامة بوهيموند وتنسكررد ، ونورمان في فرنسا بزعامة روبرت ؛ في حين كان على

(١) ويقال إن الإمبراطور ألكسيوس كومنين حرص على ألا يتعرض نيقية لعدوان الصليبيين ونهبهم إياها فلم يسمح لهم بدخول المدينة إلا على هيئة جماعات صغيرة ولمدة محددة .  
• Cam, Med. Hist. vol 5, pp. 285 .  
(2) Runciman : op. cit; I, pp. 182-183. & Setton : op. cit; I p. 291.

رأس الشعبة الثانية المنذوب البابوى أدهار ومعه من الأمراء جودفرى بوايون وريموند .

ولم يكد الفريق النورمانى من الصليبيين يصل إلى مرتفعات ضورليوم حتى وجد نفسه فى مأزق خطير<sup>(١)</sup> . ذلك أن ستموطنيقية جعل البيتين الكبيرين من الأتراك فى آسيا الصغرى - وهما البيت الساجوقى وبنودانشمند - يعقدان هدنة فيما بينهما لمواجهة ذلك الخطر المشترك الجديد ، فأحمد السلطان قلع أرسلان مع الأمير غازى بن دانشمند لسد الطريق فى وجه الصليبيين . وهكذا اجتمعت جميع قوى الأتراك فى آسيا الصغرى لهزيمة الصليبيين فى سهول ضورليوم (٣٠ يونية) ، فوجد بوهيموند نفسه فى خطر محقق جعله يطلب النجدة على عجل من بقية الجيوش الصليبية التى تعمل فى الأناضول<sup>(٢)</sup> . على أن وصول جودفرى بوايون ثم بقية القوات الصليبية تباعاً ، غير مصير المعركة المقبلة وقلبها رأساً على عقب ، إذا دارت الدائرة فى أول يوليو سنة ١٠٩٧ على الأتراك وانتصر الصليبيون وغنموا كميات ضخمة من المؤن والغنائم . ولا تخفى علينا أهمية موقعة ضورليوم ، إذا جاءت بمثابة إعلان آخر للعالم بظهور قوة جديدة على مسرح الشرق الأدنى هى قوة الصليبيين الغربيين الذين أثبتوا تفوقهم الحربى على القوة التى طالما عجزت أمامها الجيوش البيزنطية ، وهى قوة السلاجقة<sup>(٣)</sup> .

وبعد أن استراح الصليبيون يومين عند ضورليوم ، واصلوا زحفهم فى ٤ يوليو فى الاتجاه الجنوبى الشرقى عبر فريجيا . ويبدو أن الصليبيين صادفوا كثيراً من المتاعب فى تلك المرحلة بسبب صعوبة الأرض وقلة الزاد وندرة الماء وارتفاع درجة حرارة الصيف ، حتى هلكت معظم خيولهم ودوابهم ، ولم يجدوا ما يحمل متاعهم

(1) Albert d'Aix, p. p. 328-329.

(2) Guillaume de Tyr I p. p. 129-130.

(3) Grousset : op. cit I 35.

وأثقالهم<sup>(١)</sup>. ومع ذلك استمر الصليبيون يقاسون الأمرين في زحفهم حتى وصلوا أخيراً — حوالى منتصف أغسطس سنة ١٠٩٧ — إلى سهول قونية الغنية بكلها وشجرها .

ولم ير الصليبيون ما يدل على أن السلاجمة اعتزموا الدفاع عن قونية ، وإنما ظهر أن الخطة التي وضعها قلعج أرسلان عقب الكارثة التي حلت بمجوشه في صورليوم ، استهدفت الانسحاب إلى الداخل وإخلاء المدن أمام الصليبيين . وكان أن دخل الصليبيون قونية ليجدوها خالية الوفاض من الناس والزاد ؛ اللهم إلا من بعض الأرمن الذين قدموا النصح للصليبيين بأخذ كميات كافية من الماء قبل أن يتبلوا على اجتياز الصحراء المقفرة الواقعة بين قونية وهرقلة<sup>(٢)</sup> .

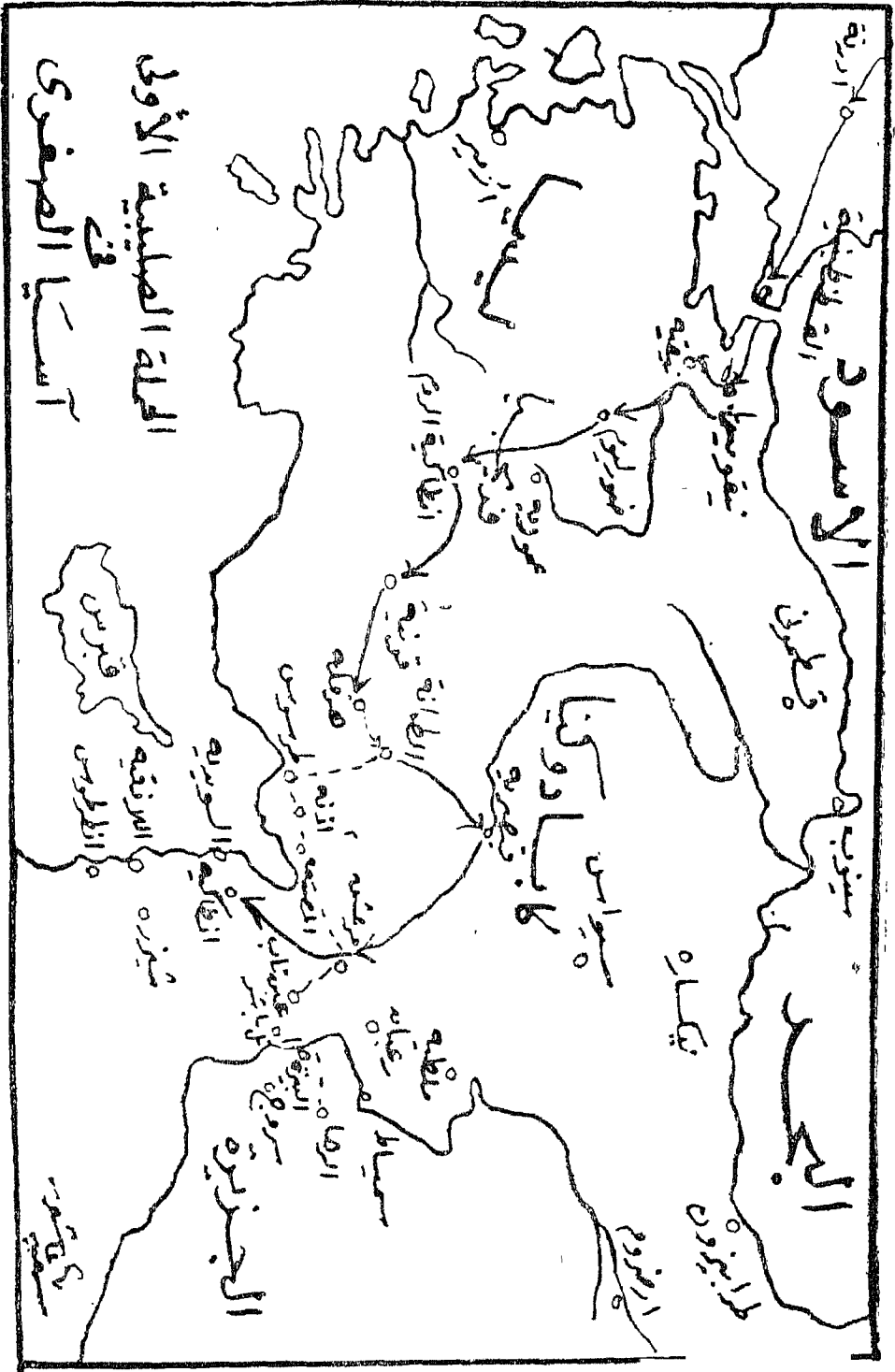
وقد حاول السلاجمة القيام بمحاولة أخيرة لصد الصليبيين عند هرقلة ، ولكن محاولتهم باءت بالفشل<sup>(٣)</sup> . وبعد أن استراح الصليبيون بضعة أيام قليلة في هرقلة انقسموا مرة أخرى إلى شعبتين ، فانشق تنكر دومه بلديون — شقيق جودفري بوايون — واتجهوا في حوالى منتصف سبتمبر سنة ١٠٩٧ صوب قيليقية في الركن الجنوبي الشرقى لآسيا الصغرى ، في حين اتخذ بتمية الصليبيين — وعلى رأسهم المندوب البابوي وجودفري نفسه وبوهيموند وريموند — طريقاً شمالياً شرقياً صوب قيصرية التي استولوا عليها في ٢٧ سبتمبر سنة ١٠٩٧<sup>(٤)</sup> ومن قيصرية اتجه الصليبيون صوب الجنوب الشرقى ، فاستولوا في أوائل أكتوبر على بلاكنتيا — وهي قلعة أرمنيية في جبال طوروس ذات موقع هام — كان بنو دانشمند يحاصرونها عندما أنقذها الصليبيون . وقد طالب القائد البيزنطي المرافق للصليبيين

(1) Gesta Francorum, p. 55.

(2) Gesta Francorum; p. p. 55-57

(3) Setton : op. ; vol I; p. 295.

(4) Gesta : Francorum, p. 61.



البحر الأسود

قسطنطينية

البحر الأحمر

بغداد

الجزيرة

قسطنطينية

القدس

القاهرة

الجزيرة

الرحلة الصليبية الأولى

في آسيا الصغرى



تسليمه تلك القلعة باسم الامبراطور ، فوافق الصليبيون على ذلك ، مما يثبت وفاءهم بتعهداتهم للامبراطور حتى تلك المرحلة (١).

وبعد أن مر الصليبيون ببعض القرى والضياح الأرمينية حيث رحب بهم الأرمن وأظهروا لهم الود والصدقة ، اخترقوا مجموعة من سلاسل طوروس العالية للوصول إلى مرعش . وكانت مرعش مدينة أرمينية معظم سكانها من الأرمن ، فرحبوا بالصليبيين عند وصولهم إليها في ١٣ أكتوبر سنة ١٠٩٧ ، واعتبروهم منقذين لهم وحماة للمسيحية في تلك الجهات . وهناك أيضاً حافظ الصليبيون على كلمتهم وسلموا مرعش للسلطات البيزنطية (٢) . ومن مرعش اتجه الصليبيون نحو الشام ، فوصلوا جسر الحديد على نهر العاصي شرقي أنطاكية في ٢٠ أكتوبر ، وبذلك بدأ الغز والصلبي للشام (٢) .

وقبل أن نتبع الغزو الصليبي للشام ، يصح أن نلقى نظرة سريعة على جهود الامبراطور ألكسيوس كومنين في استرداد أيونيا وفريجيا ، وجهود تنكرد وبلدوين البولوني في قيليقية وإقليم الرها .

### صملة ألكسيوس كومنين في أيونيا وفريجيا :

لا شك في أن سقوط نيقية عاصمة قلعج أرسلان ، ثم هزيمة قلعج أرسلان نفسه في موقعة ضورليوم بعد ذلك ، كان بمثابة طعنة قاتله لهيبة تلك الأسرة السلجوقية ومكاثمها في الأناضول . وكما أن سقوط نيقية في أيدي السلاجقة سنة ١٠٨١ أدى إلى استيلائهم في سهولة على جميع الأجزاء الغربية من الأناضول ،

(1) Grousset : Hist. des Croisades. I; p. 38.

(2) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 287.

(3) Michaud : op cit; p. p. 237-239.

فكذلك جاء استيلاء البيزنطيين على هذه المدينة سنة ١٠٩٧ بداية لاسترداد الامبراطورية البيزنطية لذلك الجزء الغربي من الأناضول برمته (١) .

وعندما أوغل الصليبيون في قلب دولة قليج أرسلان دون أن يصادفوا مقاومة تذكر ، وجد صفار الأمراء الأتراك على شاطئ بحر إيجه - مثل أمير أزمير وأمير إفسوس - أنفسهم مقطوعين عن الدولة الساجوقية ، فلم يستطيعوا المقاومة طويلاً (٢) . ولاشك في أن الإمبراطور ألكسيوس كومنين هو الذي أفاد من تلك الأوضاع ، فلم يلبث غداة الاستيلاء على نيقية أن أرسل إلى أيونيا جيشاً يقوده صهره حنا دوقاس وأسطولا تحت قيادة كازباكس Kaspaخ . (٣) كذلك صحب جيشه السابق مجموعة من أسرى السلاجقة في نيقية ، وبصفة خاصة زوجة السلطان قليج أرسلان نفسه . ولم تلبث هذه الخطة أن أفلحت وأحرزت نجاحاً كبيراً ، إذ استسلم فوراً أمير أزمير ثم تبعه أمير إفسوس (٤) .

وفي ربيع سنة ١٠٩٨ بدأ حنا دوقاس يعمل لاسترداد إقليم ليديا وغرب فريجيا من الأتراك . وبعد أن نجح القائد البيزنطي في استرداد تلك الجهات حتى أضاليا ، اتجه صوب الشمال الشرقي حيث أنزل هزيمة بالأتراك عند بلوادين Bulwadin . وفي تلك الأثناء كان الامبراطور البيزنطي قد احتل بثنيا التي أخلاها الأتراك عقب موقعة صورليوم . وهكذا تم للبيزنطيين استرداد الجزء الغربي من الأناضول (يونية ١٠٩٨) ، ولم يبق أمام الامبراطور ألكسيوس كومنين سوى الاتجاه نحو قيليقية والشام للحاق بالصليبيين الغربيين أمام أنطاكية (٥) .

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p.41.

(2) Chalandon : Alexis Comnene. p. 195.

(3) Runciman : op. cit; I, p. 194,

(4) Chalandon : Alexis Comnene. p. p. 196-198.

(5) Brehier : op. cit, p. p. 312-313.

وهنا نلاحظ أن نجاح الدولة البيزنطية في استرداد الأناضول إنما يعتبر فتيحة مباشرة من نتائج الحملة الصليبية الأولى ، وهي نتيجة لها من الأهمية التاريخية ما لا يقل عن غزو فلسطين نفسها على أيدي الصليبيين . وتبدو هذه الأهمية بوضوح عند المقارنة بين ما كانت عليه خريطة الشرق الأدنى سنة ١٠٩٥ ، وبين ما صارت إليه سنة ١٠٩٨ . ففي سنة ١٠٩٥ كانت الحدود التركية البيزنطية تمر بمدينة نيقية ونيوميديا ، أى على مسافة قصيرة من بحر مرمرية والبسفور ، في حين آل حكم أزمير وإفسوس إلى أمراء من الأتراك . أما في سنة ١٠٩٨ فكان قد تم طرد الأتراك من بونيا وأيونيا وليديا وفريجيا ، ومن ثم عادت إلى هذه الأقاليم الحياة البيزنطية والحضارة البيزنطية لتعيش في ظلها من جديد مدة ثلاثة قرون ونصف . ويكفي للدلالة على الأهمية التاريخية لهذا التطور أن نشير إلى أنه عندما سقطت القسطنطينية سنة ١٢٠٤ في أيدي رجال الحملة الصليبية الرابعة ، لم تجد الحضارة البيزنطية والتراث البيزنطي مأوى تأوى إليه وتعيش فيه سوى تلك الأقاليم الآسيوية التي تم استردادها نتيجة لجهود الحملة الصليبية الأولى .

وهكذا كانت الحملة الصليبية الأولى خير أداة استطاعت أن تتأثر بها الدولة البيزنطية لنفسها مما حل بها على يد السلاجقة منذ موقعة مانزكرت سنة ١٠٧١<sup>(١)</sup> .

---

(1) Grousset : Hist des Croisades I p. p. 42-43.

## الفصل الرابع

### تأسيس إمارة الرها الصليبية

نجاح تنكرد وبلدوين البولوني في استرداد قيليقية :

رأينا كيف اختار بلدوين البولوني - أخو جودفري بوايون - ، ومعه تنكرد ابن أخت بوهيموند النورمانى - أن ينفصلا في ١٤ سبتمبر سنة ١٠٩٧ عن بقية الجموع الصليبية لغزو قيليقية وانتزاعها من الأتراك السلاجقة<sup>(١)</sup> .

والواقع أن هذين الأميرين اشتهرا بأنهما أكثر أمراء الحملة الصليبية الأولى حبا للمخاطرة والمجازفة ، حتى أن الحرب الصليبية كانت في نظرهما لاتعدو مجرد مغامرة سياسية وحرية لغزو الشرق . وقد رأى هذان الزعمان أنه من الخطأ اتخاذ الطريق الطويل حول كبادوكيا مارين بقمصرية ومرعش ؛ لأن هذه الدورة الطويلة ليس لها إلا مبرر واحد هو الرغبة في تنفيذ الاتفاقية بين الصليبيين والبيزنطيين وتحطيم قوة الأتراك تماما في الأناضول ، وتمكين الإمبراطورية البيزنطية من بسط سيطرتها على الأقاليم التي عرفت فيما بعد اسم «أرمينية الصغرى» التي كانت تسكنها عناصر مسيحية .

على أن تنكرد كان لا يزال حتى ذلك الوقت ممتنعا عن الاعتراف بالاتفاقية بين الصليبيين والبيزنطيين، ومن ثم كان حرا في تصرفاته<sup>(٢)</sup> . ويبدو أن بلدوين البولوني شارك تنكرد في كثير من آرائه ووجهة نظره ، ومن ثم تجنب الإنسان طريق كبادوكيا واتجها مباشرة نحو سهول قيليقية الخصب التي كانت دائما موضع

(1) Chalandon : Premiere croisades, p. 172.

(2) Setton : op. cit I. P, 296.

نزاع بين زعماء الأرمن في طوروس من ناحية وأمراء السلاجقة من ناحية أخرى،  
بصرف النظر عن حقوق الدولة البيزنطية نفسها في تلك المنطقة<sup>(١)</sup>.

وكان إقليم قيليقية، الذي طالما دمرته الحروب بين البيزنطيين والمسلمين،  
قد عمرته هجرة أرمينية ضخمة في القرن الحادى عشر، عندما اضطرت جموع  
غفيرة من الأرمن - أمام غزو السلاجقة - إلى هجرة بلادهم حول بحيرة فان  
في أواخر القرن الحادى عشر والاتجاه جنوباً صوب قيليقية. ولم يلبث أن صار  
ذلك الإقليم فيما بين سنتى ١٠٧٧، ١٠٨٣ جزء من ممتلكات فيلاريتوس.  
- المغامر الأرمنى الذى سبق الكلام عنه - والذى استطاع أن يؤسس أول دولة  
أرمينية في تلك المنطقة<sup>(٢)</sup>. وبستوط دولة فيلاريتوس استطاع الأتراك السلاجقة  
أن يخضعوا الجزء الأعظم من سهول قيليقية، وبخاصة مدينتى المصيصة وطرسوس.  
ومع ذلك فقد تمكن بعض زعماء الأرمن الاحتفاظ باستقلالهم محتمين بجبال  
طوروس، ومن هؤلاء روبان Roupen الذى كان من رجال كاكج الثانى آخر  
ملوك الأرمن، وانتهى به الأمر إلى أن استقر حوالى سنة ١٠٨٠ داخل جبال  
طوروس إلى الشمال الشرقى من سيس. وبعد روبان خلفه ابنه قسطنطين الأول  
(١٠٩٢ - ١١٠٠) الذى استطاع أثناء قيامه بمطاردة الأتراك أن يوسع منطقة  
نفوذه في جميع أنحاء قيليقية. وثمة زعيم آخر من زعماء الأرمن الذين لاذوا بجبال  
طوروس في تلك الفترة هو أوشين (ت ١١١٠) مؤسس بيت هيثوم الشهير في  
تاريخ أرمينية الصغرى؛ وكان هذا الزعيم الأخير يسيطر على مدينة أذنه<sup>(٣)</sup>.  
وعلى هذه الصورة وجدته كرد وبلديون البولونى قيليقية عند وصولها إليها  
في أواخر سنة ١٠٩٧، وبصحبتهما بعض الأعوان والمرشدين الأرمن الذين سهلوا

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 43 .

(2) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 43.

(3) Iorga : L'Arménie Cilicienne, p. p. 88-91.

لها مهمة الزحف<sup>(١)</sup> . وربما كانت كثرة الأرمن المسيحيين في قيليقية من العوامل الرئيسية التي سهلت مهمة تنكرد وبلدوين البولوني ، لأن معظم سكان المدن والقلاع في ذلك الإقليم — كما لاحظ المؤرخ الصليبي وليم الصوري — كانوا من الأرمن ، حتى ولو كانت تلك المدن والقلاع خاضعة للاتراك وبها حاميات تركية<sup>(٢)</sup> .

لذلك كان أول مفاعله تنكرد عندما شرع في حصار مدينة طرسوس هو الاتصال بأهلها الأرمن ( ٢١ سبتمبر سنة ١٠٩٧ ) . ويبدو أن وصول جموع أخرى من الصليبيين بزعامة بلدوين البولوني قد أفرغ حامية المدينة التركية ، فانهزت فرصة الليل وفرت منها ، وعندئذ أسرع سكان المدينة — من الأرمن والبيزنطيين — إلى دعوة الصليبيين إلى دخول مدينتهم . وللمرة الأولى تردد تنكرد في تسليم طرسوس لمندى الامبراطور البيزنطي — أسوة بما فعل الصليبيون حتى ذلك الوقت في كافة المدن التي استولوا عليها — لأن تنكرد كان يطمع في فتح قيليقية لحسابه الخاص ، لاسيما وأنه لم يقيد نفسه بالاتفاقية التي عقدها الصليبيون مع الدولة البيزنطية<sup>(٣)</sup> .

والواقع أنه بوصول الصليبيين إلى قيليقية ، بدأت تظهر في وضوح أطماع الأمراء في تأسيس إمارات خاصة لهم في الشرق . من ذلك أن بلدوين البولوني عز عليه أن ينفرد تنكرد بمدينة طرسوس وأراد أن ينازعه ملكية هذه المدينة ، عندما نصحه أحد الأرمن المرافقين له بأن يترك طرسوس لتنكرد ويتجه هونحو إقامة إمارة لنفسه في مدينة الرها. على أن تنكرد كان أسبق إلى التنازل والتسامح

(1) Raoul de Caen : (Hist, Occid, Tome III) p. 634 &

Albert d'Aix : Hist, Occid, IV. p. 683.

(2) Guillaume de Tyr, I, p. 140.

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 46.

فترك طرسوس واتجه صوب أذنه<sup>(١)</sup> . وكان هناك نحو ثلثمائة رجل من أتباع تنكرد قد تخافوا عند طرسوس ، فرفض بلدوين أن يسمح لهم بدخول المدينة أو أن يمدحهم بالزاد ، وأجبرهم على المبيت في ضيعة قريبة مكشوفة حيث دهمهم الأتراك أثناء الليل وقتلواهم عن آخرهم<sup>(٢)</sup> . وقد أثارت هذه الكارثة حنق الصليبيين جميعا على بلدوين البولوني وجماعته بوصفهم المشولين عما حل بتلك المجموعة من الصليبيين من قتل على يد الأتراك.

على أنه مما دعم نفوذ بلدوين في تلك الفترة وصول أسطول قوى إلى شاطيء قيليقية ، يحمل مجموعة كبيرة من الصليبيين ، معظمهم من الأراضي المنخفضة بزعامة ونمار البولوني Winemar of Bologne - وهو قرصان محترف - قدم لبلدوين البولوني ثلثمائة جنديا لمساعدته ، ثم أبحر بعد ذلك ليساعد تنكرد في الاستيلاء على الاسكندرونة<sup>(٣)</sup> أما تنكرد فكان في تلك الأثناء قد انصرف من طرسوس إلى أذنه ، ومنها إلى المصيصة التي كانت في قبضة الأتراك رغم أن غالبية سكانها من الإرمين (أوائل أكتوبر ١٠٩٧)<sup>(٤)</sup> . وعند المصيصة ظهر التنافس مرة أخرى بين تنكرد من جهة وبلدوين البولوني من جهة أخرى ، إذ لم يلبث أن ظهر الأخير أمام المصيصة لينافس تنكرد في الاستيلاء عليها<sup>(٥)</sup> . ولكن تنكرد كان قد استولى على المصيصة فعلا بمساعدة أهلها من الأرمن ، فأغلق أبوابها في وجه بلدوين الذي اضطر إلى المرابطة بقواته خارجها . وكان أن حدث صدام بين القوتين ، ولكنه انتهى بالصلح السريع<sup>(٦)</sup> .

وهنا تؤكد مرة أخرى أن النزاع بين تنكرد وبلدوين البولوني إنما كان

(1) Cam. Hist. vol 5. p. 288.

(2) Albert d'Aix, Hist. Occid, IV, p. p. 346-347.

(3) Riant : Les Scandinaves en Terre Sainte, p. 134.

(4) Cam : Med. Hist. vol. 5, p. 288.

(5) Chalandon : Hist. de la Premiere Croisade, p. p. 172-173

(6) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 22.

يحمل بين طياته معنى خفيا ، وهو بداية محاولات أمراء الصليبيين لإنشاء إمارات لهم في الشرق <sup>(١)</sup> . ذلك أن المفروض - حسب الاتفاقية المعقودة بين الامبراطور ألكسيوس وزعماء الصليبيين - أن تسلم قيليقية للامبراطورية، وبناء على ذلك لم يحتفظ الصليبيون في المدن الأرمينية الرئيسية الثلاث في قيليقية - وهي طرسوس وأذنه والمصيصة - سوى بحاميات قليلة العدد والأهمية . وحوالى سنة ١١٠٠ أرسل الأمبراطور ألكسيوس كومنين حملة تسلمت المدن الثلاث السابقة . وإذا كان تنكرد قد إستولى على هذه المدن مرة أخرى سنة ١١٠١ ، فإن البيزنطيين عادوا واحتلواها سنة ١١٠٤ <sup>(٢)</sup> وهكذا استمر الحال، حتى أدى النزاع بين زعماء الصليبيين بعضهم وبعض من ناحية ، وبينهم وبين البيزنطيين من ناحية أخرى ، إلى تمكين الأرمن من إقامة دولة قومية خاصة بهم في الطرف الجنوبي الشرقي من آسيا الصغرى ، وهي مملكة أرمينية الصغرى .

### بلدوين البولونى وأمراء الأرمه في طوروس والجزيرة :

لم يحاول بلدوين البولونى أن ينفذ في قيليقية مشروعه الخاص بإنشاء إمارة صليبية أرمينية يتولى حكمها ؛ وإنما ظل محتفظاً لنفسه بسرية المشروع حتى منتصف أكتوبر سنة ١٠٩٧ عندما التقى بأخيه جودفرى بوايون وبقية الجيش الصليبي الكبير عند مرعش . ولم يلبث بلدوين أن انشق بعد يومين عن بقية الصليبيين تحت ستار حماية ميسرة الصليبيين الزاحفين على أنطاكية، ليبحث لنفسه عن إمارة جديدة صالحة في البلاد الأرمينية <sup>(٣)</sup> .

والملاحظ أنه إذا كانت هجرة الأرمن في القرن الحادى عشر قد غيرت

(1) Setton : op. cit; vol, I, p 296.

(2) Chalandon : Alexis Comnene, p, p, 221-223.

(3) Albert d'Aix : Hist, Occid, III, p XXVII.



وجه قيليقية ، إلا أن أثر تلك الهجرة كان أقل وضوحاً في الأجزاء الشرقية الممتدة حتى الجزيرة وشمال الفرات ، أى في الجهات المحيطة بملطية وسميساط ومرعش وعين تاب وتل باشر والرها . على أنه لا ينبغي أن يفوتنا أن هذه المنطقة كانت قبل قليل جزءاً من الإمارة الإرمينية التي أقامها فيلاريتوس والتي سبق أن أشرنا إليها ، حتى إذا ما سقطت فيلاريتوس ، حل محله في تلك البلاد بعض زعماء محليين من أتباعه <sup>(١)</sup> وفي ذلك الميدان صمم بلديون على أن يعمل ، لا سيما وأن أمراء الأرمن المحليين فرحوا بمجيء الصليبيين واعتبروا أن العناية الإلهية قد أرسلتهم لإتقاذهم مما يلاقونه من ضغط المسلمين المحيطين بهم . وإذا كان هناك ثمة احتمال بأن اتجه بلديون إلى تلك المنطقة الأرمينية لم يكن اعتباطاً ، وإنما جاء بناء على رغبة حكام الإمارات الأرمينية فيها واتصال بعضهم ببلديون أثناء وجوده في قيليقية ، فإن هذا الاحتمال يقويه أن الأرمن كانوا دائماً تواقين إلى الحصول على مساعدة الغرب والبابوية ، بدليل ما هو معروف من إرسالهم أحد الأساقفة الأرمن إلى البابا جريجورى السابع — قبل ذلك بعشرين سنة — لطلب مساعدته ، عندما بلغهم أن ذلك البابا يفكر في إرسال حملة لمساعدة المسيحيين في الشرق <sup>(٢)</sup> . ولا أقل من أن نلقى نظرة سريعة على أحوال الأرمن ، في تلك المنطقة الممتدة من شمالي الشام إلى شمال الجزيرة ، لنذكر الأساس الذي قامت عليه أولى الإمارات الصليبية في منطقة الشرق الأدنى .

أما ملطية فقد انتقلت السطة فيها إلى أحد أولئك المغامرين الأرمن من رجال فيلاريتوس ، واسمه جبريل . وقد حاول جبريل هذا أن يحتفظ بحسن العلاقات مع الإمبراطورية البيزنطية ، فاعتنق المذهب الأرثوذكسى ليجتمع بين

(1) Grousset : L'Empire du Levant; p.p. 182—183.

(2) Ranciman : op. cit. I. p.p. 202—203.

جنسه الأرمني ومذهبه الشرقي البيزنطي<sup>(١)</sup>. على أن السلاجقة لم يلبثوا أن أحاطوا بأراضيه من جميع النواحي ، مما دفع جبريل إلى الإسراع بالدخول في تبعية السلطان الساجوق والخليفة العباسي . ولهذا الغرض أرسل جبريل زوجته إلى بغداد لإعلان تلك التبعية ، وعادت الزوجة وهي تحمل لزوجها تأكيداً بضمان بقاءه في إمارته<sup>(٢)</sup>. ثم إن جبريل لم يتردد في مقاومة الأتراك عندما هددوا إمارته . ومن ذلك أنه حدث سنة ١٠٩٦ أن تعرضت ملطية لحصار قلعج أرسلان سلطان سلاجقة الروم ، وعندئذ أبى جبريل في إصرار تسليم مدينته . وإذا كان السريان في ملطية قد أظهروا دائماً عداوة للحكم البيزنطي الأرمني ، حتى أن حنا سميدزيم السريان في ملطية اتصل فعلاً بالسلاجقة ، إلا أن جبريل أحبط تلك المحاولة وأعدم حنا في أوائل يولية سنة ١٠٩٦<sup>(٣)</sup>. وهكذا حتى تعرض السلاجقة لضغط الصليبيين ، ونزلت الكوارث تترى على قلعج أرسلان في نيقية وضورليوم وغيرها ، فخفف ضغط السلاجقة مؤقتاً عن ملطية ليهدها الخطر التركي من ناحية أخرى ، هي ناحية التركان من بني دانشمند في سيواس . ذلك أن صاحب سيواس — الملك غازي كشتكين — لم يلبث أن اتمهز فرصة ماحل بالسلاجقة من مصائب ليحاول أن ينفرد هو بملطية . وقد استمر الملك غازي يهدد ملطية ثلاث سنوات متتالية ، مما جعل حاكم ملطية يتجه نحو الصليبيين طالباً المساعدة<sup>(٤)</sup>.

أما مرعش فقد رأينا كيف سلمها الصليبيون لندوب الإمبراطور البيزنطي بعد أن خاصوها من الأتراك في أكتوبر سنة ١٠٩٧ . على أن الإمبراطور ألكسيوس كومنين أدرك أن المدينة أرمينية قلباً وقلباً ، ومن ثم رأى أن

(1) Guillaume de Tyr (Hist. Occid) Tome, lp. 437.

(2) Michel Le Syrien, III, II, p. 179.

(3) Grousset: Hist. des Crisades I, p. 50.

(4) Michel Le Syrien, p. 167.

يعهد بحكمها إلى أحد الزعماء الأرمن واسمه ثاتول Thatoul — الذى ظل يحكم  
مرعش حتى انتزعها منه الصليبيون سنة ١١٠٤<sup>(١)</sup>.

وفى شرقى مرعش ظهر مغامر أرمنى آخر — هو كوغ باسيل — الذى  
بسط سيادته على قلعتى كيسون (كيسوم) ورعبان، قرب بهسنى، وكوغ باسيل  
هذا أخو باكراد الذى رافق بلدين البولونى بعد نيتية<sup>(٢)</sup>، والذى وجه نظره  
نحو تلك المنطقة الأرمينية. ويبدو أن هذين الأخوين كانا يتمتعان بنفوذ واسع  
ومكانة خاصة فى تلك المنطقة<sup>(٣)</sup>.

أما الرها فكان يحكمها زعيم أرمنى آخر هو ثوروس Thoros ابن هيثوم؛  
الذى كان أيضاً من رجال فيلاريتوس. وكانت الرها بعد وفاة فيلاريتوس قد  
خضعت للسلاجمة فترة عصبية من تاريخها عندما منحها السلطان ملكشاه للأمير  
بوزان سنة ١٠٨٧. على أن النزاع الذى استحكم فى تلك الفترة بين أمراء  
السلاجمة مكن ثوروس من الوصول إلى حكم الرها سنة ١٠٩٥، وإن كان قد  
تجنب الدخول فى صراع مباشر مع السلاجمة أنفسهم، ولو بشراء مساعدة بعض  
قبائلهم بالممال<sup>(٤)</sup>. وفى الوقت نفسه اعتمد ثوروس على سند شرعى فى حكم الرها  
هو الاعتراف بالتبعية للإمبراطور البيزنطى<sup>(٥)</sup>. ومع كل ذلك فإن الرها ظلت  
مهددة باستمرار من جانب السلاجمة نظراً لإحاطتهم بها، مما جعل ثوروس ينظر  
بعين الرضا إلى وصول الصليبيين إلى الشرق الأدنى.

هذا من ناحية الأرمن، أما من ناحية الصليبيين فيلاحظ أنهم أيضاً كانوا

(1) Chalandon : Les Comnènes, II, p. 105.

(١) يذكر ابن العبرى أن كوغ باسيل معناها « اللص باسيل لأنه سرق عدة قلاع  
من الثغور فتملكها الارمن إلى الآن ». .  
(ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٩ ) .

(3) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 23.

(4) Guibert de Nogent, III, p. 156.

(5) Mathieu d'Edesse (Doc. Arm), I, p. 35.

في حاجة ماسة إلى مساعدة الأرمن في تلك المنطقة . وهكذا وقف المسيحيون الأرمن على مشارف الشام ليفتحوا أبواب الوطن العربي في الشرق الأدنى أمام الصليبيين ، لاسيما وأن معظم سكان الأجزاء الشرقية من آسيا الصغرى وشمال الجزيرة كانوا فعلا من الأرمن المسيحيين ، رغم تفوق الأتراك الحربى والسياسى في تلك الجهات<sup>(١)</sup> . وكانت هذه الظاهرة أشد ماتكون وضوحا في منطقة تل باشر - على الطريق بين الرها وأنطاكية - وفي منطقة الراوندان على الطريق بين مرعش وأنطاكية . وإلى هذه المنطقة بالذات اختار باكراد - الرفيق الأرمنى لبلدوين البولونى -- أن يوجهه عند مترك الأخير مرعش<sup>(٢)</sup> .

### بلدوين البولونى والرها:

استطاع الأمير بلدوين أن يحرز تقدما كبيرا ، وأن يستولى على كثير من المواقع والمدن والقلاع في شمال الجزيرة ، وذلك بفضل مساعدة العنصر الأرمنى الذى كانت له السيادة في تلك الجهات ، والذى نظر إلى تقدم الصليبيين بعين الرضا للخلاص من حكم الأتراك المسلمين<sup>(٣)</sup> . وهكذا لم يصادف بلدوين البولونى صعوبة ، في الاستيلاء على تل باشر والرواندان ، بفضل مساعدة الأرمن وثورتهم ضد الحاميات التركىة من ناحية وضعف تلك الحاميات من ناحية أخرى . وقد أراد بلدوين أن يكافئ رفيقه الأرمنى باكراد ، فمنحه حكم الراوندان ، ولكنه عاد وتشكك في ولاء باكراد له فاعتقله<sup>(٤)</sup>

وفي تلك الأثناء كان ثوروس حاكم الرها قد سمع بنجاح الصليبيين في

(1) Guillaume de Tyr : I. p. 153.

(2) Steuenson : op. cit. p. 23.

(3) Ibid

(4) Michaud : op. cit, I, p. 228.

الاستيلاء على تل باشر من السلاجقة ، فأرسل إلى بلدين يدعوهم للحضور إلى الرها لمساعدته ( فبراير ١٠٩٨ ) . وكان ثوروس رجلاً مسناً ، ليس له ولي يرثه في أمارته ، فخشى أن تضيع الرها من يد المسيحيين ويستولى عليها الأتراك المسلمون (١) . وزاد من مخاوف ثوروس أن كربغا ( كربوقا ) صاحب الموصل كان يعد عندئذ جيشاً كبيراً لإنقاذ إنطاكية من الخطر الصليبي ، مما جعل ثوروس يتخوف من أن يكتسح ذلك الجيش — وهو في طريقه إلى الشام — الرها وغيرها من الإمارات الأرمنية (٢) .

ومهما يكن من أمر ، فإن تلك الاستغاثة صادفت هوى في نفس بلدين البولوني ، لما فيها من تحقيق لأطماعه السياسية ، فأسرع إلى الرها في فبراير سنة ١٠٩٨ على رأس قوه صغيرة من ثمانين فارساً ؛ واستطاعت تلك القوه أن تفلت من الوقوع في قبضة حامية سيمساط التركية . وكانت فرحة أهل الرها وحكامها بتلك النجدة عظيمة ، فاستقبلوها استقبالاً حافلاً (٣) كما استقبلها رجال الدين الأرمن بغبطة بانفة ، مما يشير إلى أنه لم تكن هناك فجوة واسعة بين الكنيستين الأرمنية واللاتينية ، مثما كان بين الكنيسة الأرمنية من ناحية والأرثوذكسية اليونانية من ناحية أخرى (٤) .

والواقع إن سيمساط — بمن فيها من أتراك — كانت العدو اللدود لإمارة الرها الأرمنية . ولذلك طلب ثوروس حاكم الرها من بلدين أن يبدأ بمهاجمة تلك المدينة ، فاستجاب بلدين لذلك الطلب وأخذ يهاجم سيمساط في النصف

(1) Matthieu d'Edesse (Doc. Ar.), I. p. 35.

(2) Runciman: op. cit, I. p. p. 203-204.

(3) Matthieu d'Edesse, I, 36.

(4) Guillaume de Try. I. p. 156.

وجدير بالذكر أن ابن الأثير عندما أشار إلى امتلاك الصليبيين الرها قال «إنهم ملكوا مدينة الرها بمكاتبة من أهلها لان أكثرهم أرمن ، وليس بها من المسلمين إلا القليل » .

( السكامل ، حوادث سنة ٤٩٤ هـ ) .

الثانى من فبراير سنة ١٠٩٨ . وقد ساعد بلديون فى تلك العملية جيش من الأرمن ، وتمكن بفضل هذه المساعدة من الاستيلاء على الضياع المكشوفة التابعة لسيساط . وبينما المحاربون المسيحيون مشغولين بنهب تلك الضياع ، إذا بقوة من الأتراك تباغتهم وقتل نحو ألف من الأرمن (١) .

ويبدو أنه من الصعب تحديد موقف بلديون البولونى من ثوروس أمير الرها فى تلك المرحلة ، وإن كان من الراجح أن فرار جنود الرها من معركة سيمساط جعل بلديون يفكر فى ضرورة تحويل إمارة الرها الأرمنية إلى إمارة لاتينية — أرمنية . أما ثوروس فكانت فكرته الأولى عند ما استنجد ببلديون هى أن يجعل منه قائد الجيش وأن يجعل من الصليبيين جنداً مرتزقة يعملون تحت إمرته ، ويدافعون عنه وعن بلده مقابل ثمن يتفق عليه . ولكن بلديون كان لا يمكن أن يرضى بذلك الوضع الذى يتعارض مع أطماعه وآماله . ويقال إن البحث فى هذا الموضوع بالذات كان قد تم أثناء وجود بلديون فى تل باشر قبل حضوره إلى الرها ، وأن بلديون اشترط عندئذ أن يتبناه ثوروس ويتخذة إبناً ووريثاً وشريكاً له فى حكم الرها . ولم تكن هذه الشروط قاسية بالنسبة لثوروس لعدم وجود أبناء له يرثونه فى حكم الرها من ناحية ؛ ولتقدم سنه من ناحية أخرى (٢) . ولما كان ثوروس أشد ما يكون حاجة إلى مساعدة بلديون ، فقد انتهى الموقف بأن تبني ثوروس بلديون ونادى به وريثاً له فى حكم الرها ، وتمت مراسم التبنى وفقاً للتقاليد المعمول بها فى الكنيسة الأرمنية فى القرن الحادى عشر (٣) .

وهكذا صار هناك نوع من الوصاية الصليبية اللاتينية على إمارة الرها الأرمنية ؛ وبحكم هذه الوصاية أصبح العنصر اللاتينى هو الوريث الطبيعى

(1) Grousset : op. cit, I, p. 55.

(2) Runcimen : op. cit, I, p. 204.

(3) Guibert de Nogent : Hist. Occid, IV, p. 165.

للعنصر الأرمني في حكم الرها. على أنه يبدو أن الأرمن كانوا منقسمين على أنفسهم داخل الرها ، بل لقد نغم بعضهم على ثوروس بسبب اعتناقه المذهب الأرثوذكسي واعترافه بنوع من التبعية للإمبراطور البيزنطي. هذا فضلا عن عجز ثوروس عن حماية محاصيل الأهالي ومتاجرهم من عدوان السلاجقة ، وتعسفه في جمع الضرائب والأموال من الأهالي الخاضعين<sup>(١)</sup> . ولم تلبث أن أتاحت الفرصة لأهل الرها للتعبير عن استيائهم بوصول بلدوين إليهم ، فقامت ثورة عارمة في الرها في مارس سنة ١٠٩٨ ، وهي الثورة التي انتهت بقتل ثوروس وانتقال مقاليد الأمور في الرها إلى يد بلدوين البولوني .

ومع أن أقوال المؤرخين المعاصرين تشهد كلها على أن تلك الثورة كانت داخلية ، حركها وأشعلها فريق من أهل المدينة الأرمن<sup>(٢)</sup> ، إلا أننا لا يمكن أن نبرأ بلدوين تماما من تهمة المشاركة - ولو بنصيب محدود - في تحريض الثوار ، ومن تهمة التفريط في حياة ثوروس ودمه ، وعدم القيام بواجبه كاملا في حمايته . ولا أدل على صحة هذا الاتهام من سياسة بلدوين في الرها ، إذ حرص دائما على أن يكتسب مكانة شعبية في نفوس الأهالي ، فضلا عن أنه لم يحاول أن يسرع لإنتفاذ ثوروس من يد الثوار ، بل على العكس نصحه بالتسليم<sup>(٣)</sup> وبالإضافة إلى كل ذلك فقد أشارت بعض المراجع إلى اتصال المتآمرين على حياة ثوروس ببلدوين سراً في ليلة من ذات الليالي ، وأنهم عرضوا عليه تفاصيل مؤامرتهم ، ووعدوه بتسليمه زمام الحكم في المدينة عقب التخلص من ثوروس<sup>(٤)</sup> .

ومهما يكن من أمر ، فقد أدت ثورة مارس سنة ١٠٩٨ إلى أن أصبح

(1) Michaud : op. cit, I, 233.

(2) Albert d'Aix, p. 354-355  
& Guillaume de Try; I, p. 206.

(3) Runciman : op. cit, I, p. 206.

(4) Matthieu d'Edesse, I, p. p. 37-38.

بلدوين البولوني سيد الرها وحاكمها وصاحب السلطان فيها . وهكذا استطاع بلدوين أن يحقق آماله وأن يصل إلى أهدافه ، بل إنه كان أول أمير بين زعماء الحملة الصليبية الأولى استطاع أن يتمكن لنفسه في الشرق ويحقق أطباعه السياسية بتأسيس إمارة لنفسه ينفرد بحكمها . حقيقة إن الرها لم تكن في الأراضى المقدسة ذاتها ، ولكن أهميتها في تاريخ المسيحية الأول معروفة<sup>(١)</sup> . هذا فضلا عن أن موقعها في شمال الجزيرة جعل تلك الإمارة الصليبية الجديدة على جانب كبير من الأهمية في حماية ممتلكات الصليبيين بالشام ضد أى هجوم يأتى من الشرق .

ومن الواضح أن بلدوين لم يكن حريصا على الوفاء بتعهداته للامبراطور البيزنطى ، فتناسى أنه وريث ثوروس الذى ربطته بالإمبراطورية البيزنطية علاقة تبعية واضحة<sup>(٢)</sup> . ثم إن الظروف التى أصبح فيها بلدوين البولوني سيد الرها ساعدته على اتخاذ هذا الموقف من الامبراطورية البيزنطية ، لأنه تولى مقاليد الأمور فى الرها نتيجة لثورة شعبية وبتفويض من أهل المدينة ، مما جعله يتحلل من أى قيد يربطه بالعرش البيزنطى ، فى الوقت الذى كان بلدوين متحررا فعلا من التزامات الاتفاقية التى عقدها زعماء الصليبيين فى القسطنطينية ، مع الامبراطور ألكسيوس كومنين . وهكذا يبدو أنه إذا كانت حكومة ثوروس اتصفت بمسحة بيزنطية أرمنية ، فإن حكومة بلدوين صارت ذات صبغة لانيقية أرمنية . وتبدو أهمية ذلك كله فى أن اتفاقية القسطنطينية بين زعماء الصليبيين والامبراطور البيزنطى تم خرقها فعلا فى الرها ، قبل أن يستولى الصليبيون على

---

(١) كانت مدينة الرها من أول البلدان التى قامت بها جالية مسيحية كبيرة فى الشرق الأدنى ، كما ترجمت فيها أجزاء من العهد الجديد إلى اللغة السريانية فى القرن الثانى للميلاد انظر :

( Burkitt : Early Eastern Christianity ).

(2) Runciman : op. cit., I, p. 206.



أنطاكية ويدخلوا في نزاع حول ملكيتها مع الامبراطورية البيزنطية<sup>(١)</sup>. أما الامبراطور ألكسيوس كومنين فلم يكن عندئذ في مركز يسمح له بتأكيد حقوقه في الرها، لبعدها عن مركز قوة الامبراطور، ولذلك فضل ألكسيوس أن يتغاضى مؤقتاً عما جرى في الرها من أحداث وعن استقلال بلدين بها حتى تمكنه الظروف في المستقبل من تأكيد حقوق الامبراطورية في تلك المنطقة بصورة عملية<sup>(٢)</sup>.

وسرعان ما أحس بلدين بضرورة القيام ببعض الأعمال التي تعلق من شأنه في نظر رعاياه الجدد من الأرمن وتضفي على حكمه في الرها قسطاً من الشرعية والأهمية. لذلك أخذ بلدين يجدد جهوده للاستيلاء على سميساط، وهي المدينة التي كان وقوعها على الضفة المقابلة للقرات، مهدداً للرها. وكان أن وفر أمير سميساط التركي على بلدين عناء الحرب؛ إذ أدرك ذلك الأمير صعوبة الدفاع عن إمارته بعد أن تبدلت الأوضاع في الرها، فعرض على بلدين شراء سميساط مقابل عشرة آلاف دينار من الذهب. ولم يجد بلدين صعوبة في الحصول على هذا المبلغ إذ كان في خزانة أمير الرها الراحل - ثوروس - مبالغ طائلة، دفع منها بلدين الثمن المطلوب واستولى على سميساط. وقد وجد بلدين في قلعة سميساط عدداً كبيراً من الأسرى والرهان الأرمن - معظمهم من أبناء الرها - فردهم إلى أهلهم وذويهم، مما أكسبه شعبية كبيرة بين أهل الرها<sup>(٣)</sup>.

على أن أهل الرها لم يقنعوا بالاستيلاء على سميساط وإنما طمعوا في إخضاع مركز آخر قريب في الجنوب الشرقي، هو حصن سروج على بداية الطريق الموصل إلى حلب. وكان صاحب تلك القلعة عندئذ هو نور الدولة بك بن بهرام ابن

(1) Grousset: op. cit, I, p. p. 60-61.

(2) Setton: op. cit, vol. I, p. 304.

(3) Guillaume de Try, I, p. 159.

أرتق ، أى أنه انتسى إلى الأرائقة وهم بيت من التركان ظلوا يسيطرون على بيت المقدس ، حتى إذا ما تعرضوا لضغط الفاطميين نزحوا إلى الشمال الشرقى ، حيث أسسوا عدة إمارات فى ديار بكر وشمال الجزيرة<sup>(١)</sup> . ويبدو أن ملك لم يدرك طبيعة الإمارة الصليبية الجديدة التى قامت فى الرها ، وظن أن بلدوين لا يعدو أن يكون مغامراً من نوع رسل باليل ، فأرسل إليه يطلب منه المعونة ضد رعاياه من العرب الذين رفضوا دفع ما عليهم من أموال . وكان أن زحف بلدوين على سروج ومعه آلات الحصار ، فخاف أهلها وأرسلوا رسلهم إليه يعلنون رغبتهم فى تسليم المدينة واستعدادهم لدفع الجزية . وهكذا استولى بلدوين على سروج ، فقبل ملك وضمها إلى أملاكه<sup>(٢)</sup> . ولا شك فى أن الاستيلاء على سروج جاء متمماً لفتح الرها ومؤمناً لهذه الإمارة الجديدة<sup>(٣)</sup> .

وقد أكمل بلدوين سيطرته على تلك المنطقة بالاستيلاء على البيرة سنة ١٠٩٩ ، وهى قاعة على نهر الثرات ذات موقع حربى هام ، على الطريق بين الرها وعينتاب (عين تاب)<sup>(٤)</sup> . على أنه لم يلبث أن تخلى عن البيرة لأحد زعماء الأرمن المحليين ، كما سنرى فيما بعد .

أما عن سياسة بلدوين فى حكم الرها فقد قامت على أساس الربط بين العناصر المختلفة التى صارت تتألف منها الإمارة ، وبخاصة الصليبيين الغربيين من

---

(١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٧ ، ٢٠٢ .

(2) Albert d'Aix (Hist. Occid IV) p. p. 356-357 & 445-446.

(٣) أما رواية ابن الأثير عن استيلاء بلدوين على سروج ، فيقول فيها إن النزاع

لم يكن بين بلدوين وملك بن بهرام ، وإنما بين بلدوين وسقمان (سكان) بن أرتق نفسه ، وهو الذى كان فى وقت ما صاحب بيت المقدس . ويذكر ابن الأثير أن سقمان هذا حاول غزو الرها بجيش كبير من التركان ، ولكنه هزم واستولى الفرنج على

سروج ، وقتلوا كثيراً من أهلها وسبوا حريمهم ونهبوا أموالهم » .

( ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٤ هـ ) .

(4) Grousset ; L'Empire du Levant, p. 402.

ناحية والأرمن من ناحية أخرى . وقد ضرب بلدين نفسه مثلاً لهذا الترابط بزواجه من الأميرة أردا Arda ، وهي ابنة أحد زعماء الأرمن<sup>(١)</sup> . على أنه إذا كانت سياسة بلدين قد استهدفت الربط بين العنصرين ، إلا أنه من الواضح أن بلدين نفسه كان حريصاً في الوقت ذاته على أن يظل العنصر الأرمني خاضعاً للعنصر اللاتيني الغربي . لذلك جذب بلدين إلى الرها عدداً كبيراً من الصليبيين الغربيين وأغدق عليهم المنح والأموال . ولكن هؤلاء عاشوا بعيدين عن الاختلاط بالأرمن ، مما أساء كثيراً إلى شعورهم<sup>(٢)</sup> . ذلك أن الصليبيين الغربيين لم يلبثوا أن أصبحوا بمثابة أرستقراطية عسكرية في الرها ، تحكم شعباً من الأرمن يشغل أفراده بالتجارة والزراعة . حقيقة إن هذه الأرستقراطية لم تضطهد الأرمن مذهبياً — مثلاً كان يفعل البيزنطيون — فظل التسامح الديني يسود العلاقات بين اللاتين والأرمن ، ولكن سرعان ما استولى الوافدون الجدد من الصليبيين على الضياع الزراعية التابعة للرها خارج أسوارها ، واضطر من عليها من الفلاحين الأرمن إلى العمل في ظل قيود النظم الاقطاعية المعروفة في الغرب الأوربي ، فضلاً عن أن الضرائب التي ظل يدفعها أهل الرها لم تحف عما كانت عليه أيام ثوروس<sup>(٣)</sup> .

لذلك لا عجب إذا استاء الأرمن من حكم الصليبيين ، وأخذوا يدبرون مؤامرة للتخلص من ذلك الحكم ، فاتصلوا بالأرانتة سرّاً للحصول على المساعدة . ولكن هذه المؤامرة أحبطت وعوقب زعمائها عقاباً قاسياً في ٢٦ ديسمبر سنة ١٠٩٨<sup>(٤)</sup> .

(1) Guillaume de Tyr. p. 402.

(2) Michaud : op. cit, I. p. 235.

(3) Runciman : op. cit, I. p. 211.

(4) Albert d'Aix, p. 443. & Guillaume de Tyr p. 285.

## الفصل الخامس الحملة الصليبية الأولى وسلاجقة فارس

الصليبيون أمام أنطاكية :

وفي الوقت الذي كان بلدوين البولوني يعمل في محيط الأرمن بالجزيرة ، زحف بقية الجيش الصليبي الكبير على شمال الشام قاصداً أنطاكية ، وهي العاصمة البيزنطية القديمة لذلك الإقليم . وقد أحدث وصول الصليبيين إلى مشارف الشام هلعاً كبيراً في قلوب الأهالي ، لأن كثرة أعدادهم وطبيعة زحفهم جعلت الناس يشعرون أنهم أمام خطر جديد من نوع غير عادي . وعبر عن ذلك ابن القلانسي بقوله إن الصليبيين وصلوا « في عالم لا يحصى عدده كثرة وتتابعت الأنباء بذلك ، فقلق الناس لسماعها وانزعجوا لاشتهارها . »<sup>(١)</sup> وكان الصليبيون قد غادروا مرعش في أكتوبر سنة ١٠٩٧ بعد أن تزودوا بالطعام والماء ثم استولوا على حصن بغراس وقلعة أرتاح في الطريق . ولم تلبث أن وصلت طلائع الجيش الصليبي بقيادة بوهيموند مدينة أنطاكية في ٢١ أكتوبر<sup>(٢)</sup> .

أما عن مدينة أنطاكية هذه فقد ذكرنا أن آخر حكامها من قبل الامبراطورية البيزنطية كان فيلاريتوس الأرمني ، حتى انتزعها منه زعيم سلاجقة الروم سليمان بن قتلش في فبراير سنة ١٠٨٥ . وعندما تغلب تنش أخو السلطان ملكشاه على سليمان هذا وقتله سنة ١٠٨٦ صارت أنطاكية من أملاك تنش ، حتى اختار أخوه السلطان ملكشاه أن يأخذها منه ويعطيها لأحد رجاله

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٤ .

(٢) ابن العديم : زبدة الخلب ج ٢ ص ١٣١ ( مطبوع ) .

من التركان ، وهو ياغي سيان سنة ١٠٨٧<sup>(١)</sup> . وكان ياغي سيان هذا على درجة من الكفاية مكنته من اكتساب رضاء تنش بعد وفاة ملكشاه ، حتى إذا ما توفي تنش ظل ياغي سيان محتفظاً بأنطاكية ، دون أن يستطيع ملك حلب — رضوان بن تنش — انتزاعها منه . وهكذا قدر لذلك الأمير التركاني — ياغي سيان — أن يظل محتفظاً بأنطاكية ليتولى الدفاع عنها ضد جحافل الصليبيين<sup>(٢)</sup> .

ولم يكن الشقاق بين ياغي سيان أمير أنطاكية وسيدته رضوان بن تنش . ملك حلب هو العامل الوحيد الذي سهل مهمة الصليبيين في شمال الشام ؛ وإنما حدث في السنة نفسها التي أخذت الجيوش الصليبية تتدفق من غرب أوربا إلى الشرق ( ١٠٩٦ — ١٠٩٧ ) أن قامت حرب أهلية بين ابني تنش — رضوان ملك حلب ودقاق ملك دمشق — بسبب رغبة الأول في انتزاع دمشق من أخيه<sup>(٣)</sup> . وكان أن زحف رضوان — يصحبه ياغي سيان — على دمشق لطرده دقاق منها ، ولكنه فشل في ذلك وارتد « عائداً إلى حلب خائباً في الأمر الذي طلب<sup>(٤)</sup> » ولم يلبث أن ترك ياغي سيان جانب رضوان وانضم إلى أخيه وغيره دقاق ، وأغراه على أن يقوم بمهاجمة رضوان في حلب . ولكن دقاق فشل هو الآخر في هجومه على حلب ، على الرغم من مساعدة ياغي سيان له<sup>(٥)</sup> .

---

(١) ذكرته بعض المراجع باسم ياغي بسان ؛ وقال الدكتور زكي محمد حسن : إن هذا النطق للاسم هو الأصح ( زامباور : معجم الانساب ص ٢٢١ )  
ومع اعترافنا بصحة هذا الرأي ؛ إلا أننا آثرنا استخدام الصيغة الشائعة للاسم في غالبية المصادر المعاصرة .

(٢) حسن حبشى : الحرب الصليبية الاولى ص ١١١ — ١١٢  
(٣) « وقد كان الملك فخر الملوك رضوان بن تاج الدولة صاحب حلب مائلاً إلى دمشق ومحباً لها ومؤثراً للعود إليها ، ولا يختار عليها سواها ، لمعرفته بحسناً وترعرعه فيها » . ( ابن القلانسي : ١٣١ — ١٣٣ ) .  
(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٢

هذه هي بعض الأحداث التي كانت تجرى على مسرح الشام ساعة وصول الصليبيين إليها في أكتوبر سنة ١٠٩٧،<sup>(١)</sup> ومنها يتبين أن ياغي سيان بخيانته لسيدته ملك حلب حرم من الحصول على مساعدة أقرب القوى الإسلامية إليه عندما دهمه الخطر الصليبي في أنطاكية. ويقول ابن العديم أن استبداد ياغي سيان وتعسفه آثار استيلاء المسيحيين في شمال الشام وبخاصة في أرتاح، مما جعلهم يفرحون لظهور الصليبيين ويطلبون العون منهم<sup>(٢)</sup>.

أما مدينة أنطاكية نفسها فكانت من أقوى مدن ذلك العصر تحصيناً، بحيث لا يمكن مقارنتها في مناعتها وقوة تحصينها إلا بالقسطنطينية<sup>(٣)</sup>. ذلك أن الجبال العالية أحاطت بها من جهتي الجنوب والشرق، في حين كان يحدها من جهة الغرب مجرى نهري العاصي، ومن الشمال مستنقعات وأحراش، فضلاً عن قلعة حصينة يصعب الاستيلاء عليها<sup>(٤)</sup>. وعندما وصل بوهموند ومعه رجاله من النورمان إلى أنطاكية اتخذوا مواقعهم في الجهة الشمالية للمدينة، أي عند باب بولس. ثم جاء بعد ذلك روبرت أمير فلاندرز، وروبرت أمير نورمانديا، وهيو أمير فرمندوا، وستفن (إتين) أمير بلوا، فالتخذوا جميعهم مواقعهم بين باب بولس وياب الكلب. أما ريموند والمندوب البابوي أدهار ومعهم فرسان بروفانس، فاستقروا أيضاً على مقربة من باب الكلب، إلى الجهة الغربية منه. وأخيراً عسكر جودفري بوايون في الجهة الشمالية الغربية، أي في مواجهة باب الجنينة<sup>(٥)</sup>.

---

(١) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر؛ حوادث سنة ٤٩١ هـ.

(2) Stevenson ; The Crusaders, p. 25.

(٣) « وفعل أهل أرتاح مثل ذلك، واستدعوا المدد من الفرنج. وهذا كله لتبجح سيرة ياغي سيان وظلمه في بلاده ». ابن العديم: زبدة الحلب ٢ ص ١٣١ — مطبوع.

(4) Grousset : Hist, des Croisades I, p. 72.

(٥) ذكر ياقوت الحموي عن أنطاكية « ولم تزل أنطاكية قصبة العواصم —

وكانت غالبية أهل أنطاكية في ذلك الوقت من السريان والأرمن . وعندما علم ياغي سيان صاحب أنطاكية باقتراب الصليبيين «خاف من النصارى الذين بها» ولذلك أخرجهم بحجة حفر خندق يحمى المدينة ؛ ولما أرادوا دخول أنطاكية ، عند العصر منعهم وتركهم يشتركون مع الصليبيين في حصارهم ، في حين تحفظ هو على أهلهم « وكف أيدي المتطرفة إليهم » (١) .

هذه هي الرواية العربية عن موقف أهل أنطاكية المسيحيين . أما الرواية اللاتينية فتختلف تماماً لأنها تقول إن «الأرمن والسريان الذين كانوا بداخل المدينة أسرعوا بالخروج والهروب منها تاركين خلفهم نساءهم وأولادهم بالمدينة ، فاستفسروا منا عن هدفنا وأمدونا بمعلومات عن كافة أسرار المدينة » (٢) . ومن هاتين الروايتين المتناقضتين يبدو لنا أن أهل أنطاكية ، من السريان والأرمن تنازعهم تياران متعارضان ، فقرروا الانتظار حتى يروا من المنتصر وعندئذ ينضمون إلى جانبه . هذا إلى أنه من المرجح أن يكون ياغي سيان قد اتخذ إجراءات تعسفية ضد المسيحيين في أنطاكية عند ما علم باقتراب الصليبيين ، فزج بالبطرق في السجن ، وطرده كثيراً من أعيان المسيحيين ، واستولى رجاله على كتدراثة القديس بطرس واتخذها اسطبلًا لخيوله (٣) .

ومهما يكن من أمر فإن حصار الصليبيين لأنطاكية ، استمر سبعة أشهر - من ٢١ أكتوبر سنة ١٩٠٧ حتى ٣ يونيو ١٠٩٨ (٤) - وكان من الممكن ألا

— من الثغور الشامية . وهى من أعيان البلاد وأمهاتها . . . وأنطاكية بلد عظيم ذو سور وفصيل ، ولسوره ثلاثمائة وستون برجاً يطوف عليها بالنوبة أربعة آلاف حارس . . . وشكل البلد كنصف دائرة قطرها يتصل بجبل ، والسور يصعد مع الجبل إلى قلته فتمم الدائرة . . . »

(معجم البلدان ص ٢٦٧ — طبعة بيروت) .

(1) Guillaume de Tyr I, p. p. 174-175.

(٢) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ .

(3) Gesta Francorum, p. 69.

(4) Runciman : op. cit, I, p. 214.

تطول مدة الحصار على هذا النحو لو أن الصليبيين باغتوا المدينة بالهجوم فور وصولهم ولم يضيعوا وقتاً طويلاً في الانتظار والتفكير ، لاسيما وأن جميع الشواهد تشير إلى حالة الفزع والارتباك التي استولت على الأتراك في أنطاكية عند ملامعها بوصول الصليبيين . وزاد من موقف الصليبيين قوة أنهم آمنوا طريق الانصال فيما بينهم وشاطئ البحر ، وذلك عند ما وصل إلى ميناء السويدية — عند مصب نهر العاصي — في حوالي ١٧ نوفمبر سنة ١٠٩٨ أسطول جنوى يحمل إمدادات هامة للصليبيين (١) .

وهنا تجدر الإشارة إلى أنه بينما كانت الجيوش الصليبية تخترق الأناضول في طريقها إلى الشام ، دأبت الأساطيل الإيطالية والفرنسكية والسكندناوية على مساعدة الصليبيين (٢) . من ذلك أن المغامر ونمار البولوني استطاع أن يستولى في أغسطس سنة ١٠٩٧ على ميناء اللاذقية من الأتراك . وبعد ذلك بعدة شهور — أرى في ربيع سنة ١٠٩٨ — زار اللاذقية أسطول إنجليزي بقيادة إدجار اثلنج وروبرت جودفنسن (٣) .

أما ياغى سيان ، فقد حاول في تلك الأثناء الحصول على مساعدة جيرانه المسلمين . وكان من الطبيعي ألا يطمع في مساعدة رضوان ملك حلب بعد أن تخلى عنه في العام السابق ، فأرسل ابنه شمس الدولة إلى دقاق ملك دمشق ، كما أرسل إلى جناح الدولة أمير حمص وكربغا أتابك الموصل ، فضلاً عن سلطان سلاجقة فارس والخليفة العباسي ، « وإلى سائر البلاد والأطراف بالاستصراخ والاستنجد والبعث على الخوف إلى الجهاد . وقصد تحسين أنطاكية وإخراج

(١) حدد ابن الأثير مدة الحصار بتسعة أشهر (الكامل - حوادث ٤٩١ هـ) .

(2) Raymond d'Agiles. (Hist, Occid, III), p. 242 & Carfo (Hist, Occid, V), p. 50.

(3) Heyd : Hist. du Commerce, I, p. 133.



النصارى منها»<sup>(١)</sup>. وفي الوقت نفسه أعد ياغى سيان عدته لحصار طويل، فشحن القلاع بالجنود والمقاتلين، واختزن داخل أسوار المدينة المؤن الكافية<sup>(٢)</sup>. وعندما طال حصار أنطاكية، أخذ الصليبيون يوجهون جزءاً كبيراً من نشاطهم نحو القرى والضياح القريبة — وبخاصة في حوض نهر العاصى — لنهبها والحصول على الميرة والغذاء. ويبدو أن ياغى سيان أحس بابتعاد تلك القوة من الصليبيين، فخرج فجأة من المدينة وقام بهجوم مباغت على بقية الصليبيين، وكاد ينجح في تفرقة شملهم لولا مهارة ريموند التي أنقذت الموقف، وعندئذ عاد ياغى سيان ورجاله إلى داخل المدينة<sup>(٣)</sup>. وفي ذلك الوقت تجمعت إقرب شيزر نجدة إسلامية لإنقاذ أنطاكية، على رأسها دقاق السلجوقي ملك دمشق وبصحبته طغتكين أتابك، وأمير حمص العربي جناح بن ملاعب. وعندما علم هؤلاء الأمراء المسلمون أن جزءاً من الجيش الصليبي بقيادة بوهموند النورمانى وروبرت أمير فالاندرز — يزحف على امتداد نهر العاصى، قرروا الخروج الملاقاة، فدارت معركة بين الطرفين عند البارة في نهاية ديسمبر سنة ١٠٩٧<sup>(٤)</sup>. وفيهم مما ذكره ابن العديم أن المسلمين تفوقوا على الصليبيين في ذلك الاشتباك، وأنهم قتلوا منهم جماعة<sup>(٥)</sup>.

ويبدو أن تلك المعركة نهت الصليبيين إلى عدم المغامرة بالابتعاد عن مراكزهم جنوباً، فاكثروا بالإشارة شرقاً حتى معرة مصرين حيث «قتلوا من وجدوا وكسروا منبرها»<sup>(٦)</sup> على أن هذه الانتصارات المحلية لم تحقق للصليبيين ما كانوا

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٤ .

(٢) Runciman : op. cit 1, p. 215.

(٣) Idem, p. 202.

(٤) Stevenon : op. cit. p. 96.

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٢ (مطبوع).

(٦) المرجع السابق ج ٢ ص ١٣٢ .

يرجونه من زاد وطعام، فعادوا إلى أنطاكية «منتصرين ولكن الأيدي خاوية»، على قول أحد المؤرخين الغربيين المعاصرين<sup>(١)</sup>. وهكذا أخذ شهب الجماعة يهدد الصليبيين أمام أنطاكية، ولم تسكنهم المعونة المتقطعة التي كانت تأتيهم من قبرس والغرب حيناً، وتقطع أحياناً. وتحت تأثير الجوع والإنهاك نشبت الفوضى وسوء النظام بين الجند<sup>(٢)</sup>. وفي تلك الظروف الحرجة والأوضاع الصعبة، أخذ بعض الصليبيين يهرون من المعركة ويتسللون خفية. ولم تقتصر هذه الظاهرة على الجند المغمورين، بل إن بطرس الناسك نفسه ووليم النجار أمير ميلون Melun اختفيا فجأة، فجد تنكرد في أثرها حتى قبض عليهما وأعادهما إلى بوهيموند الذي وبخهما علناً لهروبهما، وأخذ عليهما تعهداً بعدم ترك الجيش الصليبي حتى يتم الاستيلاء على بيت المقدس<sup>(٣)</sup>.

### س بوهيموند ومشكلة أنطاكية:

وفي وسط تلك المخاطر والأوضاع الصعبة التي أحاطت بالصليبيين أمام أنطاكية، أخذ بوهيموند يبدو في صورة الرجل التوى الذي تركزت فيه آمال الصليبيين. ولكن بوهيموند لم يعمل في ذلك الدور لوجه الله والصليبيين فحسب، ولم يبذل ما بذله من جهود حرصاً على ولائه للامبراطور البيزنطي، وليس له إلى

(1) Raymond d'Aigles. (Hist. Occid., III), p. 245.

(2) Guillaume de Tyr, I, p. 148.

والمعروف أن بطرق بيت المقدس السابق — وهو سيمون — كان مقياً عند ذنب قبرس فدأب على إرسال المؤن والمأكولات والبيد من الجزيرة إلى الصليبيين أمام أنطاكية؛ لأنه رأى في انتصار الصليبيين الغربيين — رغم اختلاف المذاهب — انتصاراً مسيحياً، ونيلاً من المسلمين. انظر:

(Runciman: op. cit., I, p. p. 222 — 223)

(3) Gesta Fratrum, p. p. 77 — 79.

ماشاء الله ثمار جهده وجهود الصليبيين. وإذا كان بوهيموند قد حافظ حتى ذلك الوقت على تعهده الذي قطعه على نفسه في التسطنطينية للامبراطور ألكسيوس كومنين ، وسلم للامبراطور كل ما استولى عليه من بلاد في آسيا الصغرى ؛ فإن هذه السياسة كانت لا يمكن أن تستمر . وهكذا أخذت سياسة بوهيموند تجاه ألكسيوس والإمبراطورية البيزنطية تتغير أثناء حصار أنطاكية ، وهو التغيير الذي ترتب عليه حدوث تحول خطير في تاريخ الحروب الصليبية . ذلك أن بوهيموند أدرك أن الإمبراطور البيزنطي لن يوافق مختاراً على منحه أنطاكية ، فلا مانع إذا من أن يحصل عليها رغم إرادة الإمبراطور (١) .

وقد نفذ بوهيموند خطته في براءة فائزة ، فاختر أصعب أوقات الحصار وأشدّها حرجاً — في أوائل يناير سنة ١٠٩٨ — ليعلم أنه أزمع الانسحاب والعودة إلى إيطاليا ، وأنه لا يستطيع الاستمرار في تلك العملية الحربية الطويلة التي لم يكن مستعداً لها ، ولا يمكنه أن يصبر على رؤية رجاله وفارسائه وخيوله ، وهم يتساقطون كل يوم صرعى من الجوع أمام أسوار أنطاكية (٢) . ومن الواضح أن هذا التهديد الخطير كان يعنى تعريض الصليبيين جميعاً لكارثة محتمة ، لأن بوهيموند ورجاله صاروا بمثابة العمود الفقري للتوات الصليبية المحاصرة لأنطاكية . لذلك أمرع جميع الزعماء الصليبيين — فيما عدا ريموند — ونوسلوا إلى بوهيموند حتى لا يتركهم أمام أنطاكية ، ووعدوه بتسليمه أنطاكية فور الاستيلاء عليها . وكان ذلك هو كل ما استهدفه بوهيموند من وراء مناورته ، فلم يبق له بعد ذلك سوى إظهار مقدرته وكفائته في الاستيلاء على أنطاكية (٣) .

(١) أشار ابن القلانسي إلى نقص الصليبيين للمهد الذي قطعه على أنفسهم الإمبراطور البيزنطي ، ولكنه أخطأ فقال : إنهم امتنعوا عن تسليمه نيقية .

( ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٥ ) .

(2) Grussat : Hist. des Croisades , p. 79.

(3) Chalandon : Alexis Comnene, p. 201 & Premicre Croisade, P. 193.

ثم إن بوهيموند أدرك جيداً أن وجود قوات بيزنطية بقيادة تاتكيوس Tatikion أمام أنطاكية بحجة مساعدة الصليبيين في الاستيلاء على المدينة، سيفسد عليه خطته ، لأن القائد البيزنطي سيطلب عند سقوط أنطاكية بتنفيذ العهد الذي قطعه الزعماء الصليبيون على أنفسهم للإمبراطور البيزنطي<sup>(١)</sup> . لذلك أخذ بوهيموند يستفز القائد البيزنطي . وعندما ذهب تاتكيوس يشكو ويطلب المساعدة من بقية الزعماء الصليبيين ؛ كان بوهيموند قد أحكم خطته ، فآهمه أولئك الزعماء بأنه يتآمر مع الأتراك سراً ضد الصليبيين وأنه يخون القضية الصليبية في الخفاء . وعندئذ لم يسع تاتكيوس سوى أن يفكر في النجاة بنفسه ، فانسحب فوراً عن طريق ميناء السوبدية إلى جزيرة قبرص<sup>(٢)</sup> . والواقع إن اتهام تاتكيوس كان يعنى اتهام الامبراطورية البيزنطية كلها ، فتحول شعور الصليبيين نحوها إلى عداوة ، وأخذوا في أزمتهام أمام أنطاكية يلقون باللوم على الإمبراطور البيزنطي ودولته ، ويقولون أنه لو كان الإمبراطور ساعدهم باخلاص لما وصلوا إلى الحالة السيئة التي أمسوا فيها ، ولوجدوا على الأقل ما يسد رمقهم من زاد وميرة . وهكذا دفع هذا الشعور كافة الأمراء الصليبيين إلى التنكر لعودهم للإمبراطور البيزنطي ، على أساس أن البيزنطيين أنفسهم هم الذي بدءوا بنقض اتفاقية التسطنطينية ، فتحلوا عن مساعدة الصليبيين وإمدادهم بما يحتاجون إليه من معونة ، فضلاً عن أن مندوب الامبراطور لم يثابر مع الصليبيين أمام أنطاكية ، وإنما تركهم ولاذ بالقرار<sup>(٣)</sup> . وبذلك نجح بوهيموند في إحكام خطته ولم يبق في طريقه ما يحول دون تسلمه أنطاكية فور سقوطها في أيدي الصليبيين .

(1) Brehier : op. cit. p. 312

(2) Setton : op. cit. I, p. p. 313-314.

(8) Runciman : op. cit. I, p. p. 224.

### مشروع التحالف بين الصليبيين والفاطميين :

على أن الشيء الذي يسترعى العجب حقاً ، هو أن المسلمين ظلوا حتى ذلك الوقت لا يدركون طبيعة الحركة الصليبية وهدفها ، بدليل أن الفاطميين في مصر فكروا في مشروع لتتحالف مع تلك القوة الجديدة التي ظهرت في بلاد الشام ، ضد خصومهم من أهل السنة ، أعنى الخلافة العباسية في بغداد والأتراك السلاجقة في الشام<sup>(١)</sup> .

وكان صاحب السلطة الفعلية في مصر عندئذ هو الوزير الأفضل شاهنشاه ابن بدر الجمالي الذي ظل يحكم البلاد طوال عهد الخليفة الفاطمي المستعلي (١٠٩٤-١٠١١) والعشرين سنة الأولى من حكم الخليفة الأمر ، أي حتى سنة ١١٢١ . ويبدو عدم إدراك الأفضل لخطية الحركة الصليبية من أنه عند مارأى الصليبيين يهاجمون الأتراك السلاجقة — أعداء الدولة الفاطمية الألداء — فكر في أن يقيم تحالفاً بينه وبين الصليبيين ، بحيث تكون أنطاكية للصليبيين وتكون يد القدس للفاطميين<sup>(٢)</sup> . وربما استند الأفضل في تفكيره هذا إلى بعض السوابق التاريخية لأن الدولة البيزنطية أيام صحوتها في القرن العاشر لم تتعدأ ملامكها في بلاد الشام مدينة أنطاكية ، فظن الأفضل أن أولئك الصليبيين إنما أتوا في نهاية القرن الحادى عشر ليفعلوا في بلاد الشام مثما فعل نففور فوقاس وحنا الشمشتميق في نهاية القرن العاشر<sup>(٣)</sup> .

ولم يشأ الأفضل أن بضيع الوقت ، وإنما انتهز فرصة الفوضى التي أصابت العالم الإسلامي في الشرق الأدنى في أواخر القرن الحادى عشر ، نتيجة لوصول

(1) Chalandon : *Premiere Croisade*, p. 196.

(2) Stevenson : *op. cit.*; I, p. 26.

(3) Grousset : *Hist. des Croisades*, I, p. 83.

الصلبيين ، وأرسل جيشاً تمكن من فتح بيت المقدس سنة ١٠٩٨ « وملكه  
وتسلم محراب داود من سكان »<sup>(١)</sup> . وفي تلك الأثناء كانت سفارة فاطمية من  
قبل الأفضل قد وصلت إلى معسكر الصليبيين أمام أنطاكية (يناير — فبراير  
١٠٩٨) . وهناك في المراجع ما يشير إلى أن الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس  
كومنين كان قد نصح الصليبيين منذ وجودهم في القسطنطينية ، بأن يحاولوا  
مخالفة الفاطميين في مصر . ومع أنه لا يوجد لدينا دليل يثبت استجابة الصليبيين  
لتلك النصيحة في ذلك الوقت ، إلا أن بعض المراجع الصليبية أشارت إلى أنهم  
أرسلوا من نيقية سفارة إلى مصر<sup>(٢)</sup> . وإذا كان هذا الرأي ليس له ما يؤيده في  
بقية المراجع الصليبية ، إلا أن الصليبيين لم ينسوا نصيحة الإمبراطور البيزنطي  
مما جعلهم يرحبون بالسفارة التي أرسلها إليهم الأفضل في أوائل سنة ١٠٩٨ أمام  
أنطاكية<sup>(٣)</sup> . ولعل هذه الأحداث كلها تعطينا فكرة واضحة عن مدى انقسام  
العالم الإسلامي على نفسه في ذلك الحين بين سنة وشيعة ، وترك وعرب ، وما سببه  
هذا الانقسام من خسارة للساميين جميعاً ، الأمر الذي مكن الدخلاء  
من تحقيق مكاسب كبيرة على حساب الجميع . وتصور لنا المراجع اللاتينية المعاصرة  
هذا الانقسام بوضوح ، ومدى غبطة الفاطميين لما حل بالسلاجقة من كوارث  
بلى أيدي الصليبيين<sup>(٤)</sup> .

ومهما يكن من أمر فقد صحح حساب الأفضل في أول الأمر ، لأن الأتراك  
كانوا مشتغلين بالغزو الصليبي وإقامة جبهة في الشمال ضد الفرنجة الغزاة ، فلم يتمكنوا  
من إرسال نجدة لا قربأهم في بيت المقدس ترد عادية الفاطميين . وفي الوقت  
نفسه استفاد الصليبيون فائدة كبرى من تلك الخطوة التي اتخذها الفاطميون ،  
لأن تهديد الأفضل لفلسطين وبيت المقدس سبب إرتباك الأتراك السلاجقة في

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٥ .

(2) Runciman · op. cit; I, p. p. 230.

(3) Riant : Inventaire des lettres des Croisades, I, p 162.

(4) Guillaume de Tyr, I, p. p. 191—192.

أشد الأوقات حرجاً<sup>(١)</sup> . هذا فضلاً عن أن السفارة التي أرسلها الفاطميون إلى الصليبيين عند أنطاكية ، أ كسبت أولئك الآخرين وضعا سياسيا معترفا به في ركن هام من أركان العالم الإسلامي . ويذكر ابن الأثير كيف أخذ الصليبيون ينهضون بدورهم في مهارة بالغة عندئذ ، فلم يكتفوا ببث شعور الطمأنينة في نفوس الفاطميين ، وإعطائهم صورة غير حقيقية عن مشروعاتهم في بلاد الشام ، وإنما حاولوا أيضا أن يسدلوا غشاوة على أبصار سلاجقة دمشق ؛ فأرسلوا إلى دقاق يطمئنوه على مصيره، ويؤكدون له أنهم لا يطمعون إلا في استرداد الأماكن والبلدان التي كانت تابعة للبيزنطيين فيما مضى ؛ أي الرها وأنطاكية واللاذقية<sup>(٢)</sup> . وبعد هذه الخطوة حاول الصليبيون أيضاً استمالة رضوان ملك حلب ، حتى إذا ما فرغوا من أمره هو الآخر استطاعوا مواجهة القوى الإسلامية منفردة والتهم إماره بعد أخرى ومدينة تلو مدينة من الإمارات والمدن الإسلامية بالشام .

#### تدخل رضوان ملك حلب ، موقفه العمومي :

ويبدو أن تلك الخطوة الصليبية قد نجحت إلى حد كبير، إذ هدأ دقاق في دمشق، وظل حيناً بعد حين في البارة لا يحاول التدخل لدفع خطر الصليبيين عن أنطاكية . أما أخوه رضوان ملك حلب ، فعلى الرغم من علاقته السيئة مع ياغى سيان ، إلا أنه كان لا يستطيع أن يستمر طويلاً في موقفه السلبي تجاه أنطاكية . ذلك أن ياغى سيان كان قبل كل شيء تابعاً وفصلاً لرضوان ، في الوقت الذي

---

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 84-85.

(٢) « وكان الفرنج قد كتبوا صاحب دمشق بأننا لا نأخذ ولا نقصد غير البلاد التي كانت بيد الروم ولا نطلب سواها ، مكرراً منهم وخديعة حتى لا يساعدوا أصحاب أنطاكية » .  
( ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ ) .

كانت أنطاكية جزءاً من نصيب رضوان في الدولة السلجوقية<sup>(١)</sup> وكان ياغى سيان قد أرسل ابنه ليستحث القوى الإسلامية القريبة ويطلب منها العمل لإنقاذ أنطاكية ، فاتجه الابن إلى حلب لاسترضاء رضوان مرة أخرى والإعتذار له عما فات . وأخيراً وجد رضوان أنه لا بد أن يقنأسى الماضى ، وصمم على أن يسرع إلى إنقاذ أنطاكية ، وصاحبه في حملته سكان ( ستمان ) ابن أرتق من ديار بكر ، وأمير حماه ، فضلاً عن قوات أخرى من حمص ومن الأرائقة في إقليم الجزيرة<sup>(٢)</sup> . وقد اجتمعت هذه القوات الإسلامية كلها في حارم وهي قلعة تقع على بعد ثلاثين كيلو متراً تقريباً من أنطاكية ، إلى الشرق منها . أما الخطة التي وضعها المسلمون فخلاصتها أن تهاجم تلك الجيوش أنطاكية فجأه في الوقت الذي تخرج جيوش ياغى سيان من المدينة لمهاجمة الصليبيين من الاتجاه المقابل ، وبذلك يقع الصليبيون بين نارين<sup>(٣)</sup> .

على أن المسيحيين في حلب وحارم — وبخاصة السريان والأرمن — علموا بتلك الخطة . فأرسلوا سراً إلى الصليبيين أمام أنطاكية في أوائل فبراير سنة ١٠٩٨ يخبرونهم بكل تلك التفاصيل حتى لا يؤخذون على غره<sup>(٤)</sup> وكان أن وضع بوهيموند خطة سريعة لمواجهة الموقف فترك المشاهير جرسون معسكر الصليبيين ويتابعون حصار أنطاكية في حين خرج هو على رأس حوالى سبعمائة فارس لصد المسلمين ( ٨ فبراير ١٠٩٨ ) واختار الصليبيون موقعاً حصيناً بين بحيرة العمق من ناحية ومجرى نهر العاصى من ناحية أخرى<sup>(٥)</sup> . وفي اليوم التالى دارت الموقعة

(1) Setton : op. cit; I, p. p. 315.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب سنة ٤٩١ هـ .

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 86

(4) Guillaume de Tyr, I, p. 194.

(5) Chalandon : Premiere Croisade p, p 195.



وانتهت في سرعة باندحار المسلمين الذين ارتدوا نحو حصن حارم ، وفي أعتابهم الصليبيون . وعند ما رأيت حامية حارم حرج الموقف لاذت هي الأخرى بالفرار بعد أن أشعلت النار في الحصن ، وبذلك استولى الصليبيون على حارم بمساعدة أهلها من السريان والأرمن<sup>(١)</sup> . وكان استيلاء الصليبيين على حارم نصراً كبيراً نظراً لأهميتها في حماية أنطاكية من ناحية حلب<sup>(٢)</sup> .

وفي تلك الأثناء وجدت حامية أنطاكية بقيادة ياغي سيان أن الوقت مناسب للتقيام بهجوم مفاجئ في غيبة الفرسان الصليبيين ، فخرج ياغي سيان فعلاً وقام بهجومه ، ولكن مشاة الصليبيين تصدوا له وقاوموه واستمر الصراع حاداً بين الطرفين حين عودت الفرسان ظافرين يحملون رؤوس ضحاياهم في معركة العمق ؛ فقدفوا بها داخل أسوار المدينة ليعلم ياغي سيان بما حل بخلفائه<sup>(٣)</sup> .

### سقوط انطاكية

وعند ما رأى ياغي سيان أن الهزيمة حلت بالخليين مثلما حلت بالدماشقة من قبل ، أرسل نداءً جديداً إلى بركياروق سلطان سلاجقة فارس وتابعه كربوغا (كربوقا) أتاتك الموصل . وسرعان ما انتشرت إشاعة بين الصليبيين تفيد بأن جيشاً كبيراً من الترك بقيادة كربوغا في طريقه إليهم ؛ مما جعل الصليبيين يفكرون في طريقة عاجلة للاستيلاء على أنطاكية بعد أن ثبت أن طول مدة الحصار ليس في صلاحهم<sup>(٤)</sup> .

(١) ابن العديم : زبدة الحلب سنة ٤٩٦ هـ

Guillaume de Tyr, I, p. 196.

(2) Stevenson : op. cit, p. 27.

(3) Cesta Francorum, p. p. 80—86.

(4) Michaud : op. cit, I, p. p. 264—267.

والواقع إن كربوغا كان قد أعد عدته فـمـلا لـجـدة أنطاكية ، ولكنه توقف في الطريق لمحاولة الاستيلاء على الرها من بلدوين ، وبذلك أضع الأسابيع الثلاثة الأخيرة من شهر مايو في حصار الرها دون جدوى ، مما أعطى الصليبيين أمام أنطاكية فرصة طيبة من الوقت<sup>(١)</sup> . وكان أن شيد الصليبيون قلعة على تل قريب من أنطاكية كانت به مقابر للمسلمين ، فاستغلوا ما عليه من أحجار في بناء تلك القلعة التي مكنتهم من إحكام الحصار على المدينة<sup>(٢)</sup> . وعندما تم بناء القلعة في ١٩ مارس ، اكتمل حصار أنطاكية وأصبح من الصعب تسرب المؤن والإمدادات إليها أو خروج أهلها منها لرعى ماشيتهم في المراعى القريبة<sup>(٣)</sup> . وصادف عندئذ وصول أسطول انجلىزى من عدة سفن إلى ميناء السويدية في ٤ مارس سنة ١٠٩٨ يحمل كثيراً مما افتقر إليه الصليبيون من زاد وسلاح وآلات للحصار ، كما وصل إلى نفس الميناء قبل ذلك — أى في أواخر نوفمبر من العام السابق — أسطول جنوى من ثلاث عشرة سفينة — مما يشير إلى ازدياد أهمية العامل البحرى تدريجياً في خدمة الصليبيين ومساعدتهم<sup>(٤)</sup> .

وفي تلك الأثناء لم تتوقف الاشتباكات بين الأتراك وحامية أنطاكية من جهة والصليبيين من جهة أخرى . ويبدو أن كفة الصليبيين كانت هى الراجحة في تلك الاشتباكات ، حتى اطمأنوا أخيراً إلى أن حصارهم لأنطاكية أصبح تاماً ، بعد أن أمنوا اتصالهم بالبحر عن طريق ميناء السويدية من جهة وإمارة الرها التي غدا يحكمها واحد منهم ، هو بلدوين البولونى من جهة أخرى . ويشهد المؤرخون المسلمون بأن ياغى سيان لم يهمل الدفاع عن المدينة ،

(1) Runciman. op. cit.; I, p. 231.

(2) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 291.

(3) Runciman : op. cit; I, p. p. 228, & Cam. Med. Hist; vol 5, p. 292.

(4) Guillaume de Tyr, I. p. 108.

وأنه أظهر من الشجاعة « وجوده رأيه وحزمه واحتياطه ما لم يشاهد من غيره »<sup>(١)</sup>. على أن الخيانة لم تلبث أن لعبت دورها في سقوط أنطاكية . ذلك أنه وجد في المدينة رجل اسمه نيروز — ويعرف بالزراد — كان ياغى سيان قد صادره « وأخذماله وغلته ، فحمله الحق على أن كاتب يميند (بوهيموند)<sup>(٢)</sup> ». ويبدو أن نيروز هذا كان قد اعتنق الإسلام ونال ثقة ياغى سيان ، حتى عهد إليه بحراسة أبراج المدينة في الجهة الجنوبية . ولم يلبث ذلك الأرمني ،السيحي الأصل ، أن غلبت عليه روح الخيانة فانصل بأبناء جلدته من الأرمن ، وأمكنه عن طريق وساطة بعضهم مراسلة بوهيموند سرأ<sup>(٣)</sup> ، فقال له « أنا في البرج الذلاني ، وأنا أسلم إليك أنطاكية إن أمنتني وأعطيني كذا وكذا » . وكان أن واقفه بوهيموند وبذل له « مالاً وإقطاعاً »<sup>(٤)</sup> . على أن بوهيموند احتفظ لنفسه بسر المؤامرة ، ورفض أن يذيعه على الأمراء « وكنتم أمره عن باقي الفرنج » ؛ كما أخذ يحسم لأمر الصليبيين خطورة موقف الصليبيين ويطلب منهم الموافقة على تحقيق حلمه الكبير ، وهو إعطاؤه أنطاكية والسماح له بإنشاء إمارة لنفسه فيها ثمناً لجهوده في إنقاذهم من ذلك الموقف الخطير<sup>(٥)</sup> . ولم يلبث أن وافق الأمراء على طلبات بوهيموند تحت تأثير الظروف السيئة التي بات فيها الصليبيون ، فضلاً عن الخوف من الإشاعات التي انتشرت بين صفوف الصليبيين والتي أكدت أن كربوغا أنابك الموصل ترك حصار الرها وأخذ يزحف في طريقه إلى أنطاكية لتخليصها من الصليبيين (نهاية مايو) .

(١) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٣ — ١٣٤ (مطبوع) .

ويؤكد المؤرخ الصليبي وليم الصوري أن نيروز الزراد هذا أرمني الأصل .  
Guillaume de Tyr, I, p. 212.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٤ (مطبوع) .

(٤) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ .

(٥) Gesta Francorum, p. 100.

ويبدو أن وصول تلك الأخبار إلى الصليبيين فت في عضدهم ، حتى بدأ كثيرون منهم يتسربون طالبين العودة إلى بلادهم<sup>(١)</sup> . ومن هؤلاء إثنين دى بلوا الذى أتجه إلى اسكندرونة في ٢ يونيو على رأس أعداد كبير من رجاله الفرنسيين بعد أن ملوا طول الحصار في تلك الظروف الصعبة ، وعملوا حساباً للخطر الجديد الذى أوشك أن يحل بهم على يد كربوذا . ولو كان إثنين دى بلوا انتظر عدة ساعات لغير رأيه في الانسحاب ، إذ حدث مساء اليوم نفسه الذى انسحب فيه أن زحف الصليبيون على البرج الذى كان به الخائن نيروز الزراد . ولم يلبث الصليبيون أن دخلوا أنطاكية في صباح اليوم التالى بعد أن فتحت أمامهم أبوابها ، فهرع إليهم أهل المدينة من السريان والأرمن يرحبون بهم ويساعدونهم في التعرف على خفاياها وفي قتل من فيها من المسلمين<sup>(٢)</sup> . وقد حاول ياغى سيان نفسه الفرار مع جملة من فر من الأتراك ؛ ولكنه سقط عن فرسه « قتلته الأرمن وحملوا رأسه إلى الفرنج »<sup>(٣)</sup> . وكان أن تطرف الصليبيون في قتل من وجدوه بأنطاكية من المسلمين « قتل وأمر وسبي من الرجال والنسوان والأطفال ما لا يدركه حصر »<sup>(٤)</sup>

هذا إلى أن خبر سقوط أنطاكية أثار موجة من الذعر في البلدان الإسلامية القريبة « فهرب من كان بها من المسلمين وتسلمها الأرمن »<sup>(٥)</sup> . ولا شك في أن سقوط أنطاكية كان له دوى هائل في العالم المسيحى لا يفوقه إلا أثر سقوط بيت المقدس نفسها في أيدي الصليبيين . فأنطاكية مدينة قديمة لها تاريخها الحافل

(1) Runciman : op cit, I, p. p. 232-233.

(٢) ابن الأثير : السكامل حوادث سنة ٤٩١ هـ &

Guillaume de Tyr I, p. 231.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٥ ( مطبوع )

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٥ .

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٥ ( مطبوع )

وأهميتها الكبرى في نظر المسيحيين . ويكفي أنها كانت ثالث مدن العالم في عصر الإمبراطورية الرومانية ؛ فضلا عن أنها المدينة التي أطلق فيها على أتباع المسيح لأول مرة اسم المسيحيين ، والتي أسس فيها القديس بطرس أول أسقفية له . وقد ظلت أنطاكية تتمتع بشهرة واسعة حتى استولى عليها المسلمون في القرن السابع ، وعندئذ غدت ملتقى الحضارتين اليونانية والعربية ، والمركز الرئيسي للتبادل التجاري بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية<sup>(١)</sup> .

### تدخل - صلاحية فارون ، حملة كربوغا

وأينا كيف أضع كربوغا عدة أسابيع في حصار الرها ، مما أعطى الصليبيين فرصة ثمينة مكنتهم من الاستيلاء على أنطاكية . وقد دفع ذلك المؤرخ ولیم الصوري إلى القول بأن دفاع بلدين أمير الرها ومقاومته هي التي أقتت الصليبيين أمام أنطاكية<sup>(٢)</sup> ، ولم يلبث أن وجد الصليبيون أنفسهم غداة استيلائهم على أنطاكية أمام مهام عاجلة خطيرة ، فأمرعوا إلى إعداد عدتهم للدفاع عن المدينة ضد هجوم كربوغا المنتظر ، وفي الوقت نفسه كان عليهم أن ينظفوا المدينة على عجل من أثر اللذبة الرهيبة التي أحدثوها في أهلها من المسلمين ، فمجلوا بدفن جثث القتلى ومواراتها في التراب حتى لا تكون سبباً في انتشار الوباء<sup>(٣)</sup> ، وبينما الجند يقومون بتلك الأعمال ؛ عكف أدهمار — ومعه رجال الدين — على إعداد كتدرائية

(١) « ودعى التلاميذ مسيحيين في أنطاكية أولا » .

( سفر أعمال الرسل ١١ ، ٢٦ ) .

(٢) Runciman : op. cit; 1, p. p. 213.

(٣) Guillaume de Tyr. I, p. p. 216—217.

(٤) تدرت للرايع الصليبية عدد المسلمين الذين ذبحهم الصليبيون في أنطاكية

بعشرة آلاف .

(Michaud : op. cit, 1, p. 292.)

القديس بطرس وغيرها من الكنائس التي سبق أن استولى عليها السلاجقة ، لتعود إلى وظيفتها الأولى بوصفها دور عبادة للمسيحيين ، كذلك أخرج البطريرق الأرثوذكسي حنا الرابع من سجنه الذي وضعه فيه ياغي سيان . وأعيد إلى كرسي البطريرقية في أنطاكية — رغم أنه يمثل الكنيسة الشرقية — وذلك حتى ترد تعليمات من البابوية في ذلك الشأن<sup>(١)</sup> :

ولم يكد الصليبيون ينهضون بتلك الأعباء العاجلة عقب استيلائهم على أنطاكية ، حتى دهمهم الخطر المنتظر من جانب كربوغا . وكان كربوغا بعد مغادرته إقليم الفرات قد توقف قليلا عند مرج دابق حيث اجتمع مع دقاق بن تنش ملك دمشق وطفتكين أنابك وأرسلان تاش صاحب سنجار وسكان بن أرتق « وغيرهم من الأمراء ممن ليس مثلهم »<sup>(٢)</sup> أما رضوان ملك حلب فظل معاديا لأخيه دقاق في تلك الأوقات الحرجة التي شهدت تقرير مصير الشام الإسلامية . ولكي يرد كربوغا على موقف رضوان هذا ورفضه الانضمام إلى الحلف الإسلامي لإنتاذا أنطاكية ، ضم إليه الأمير العربي جناح الدولة حسين صاحب حمص ، وهو من قبيلة بني ملاعب وكان قد تزوج أم رضوان أي أرملة تنش<sup>(٣)</sup> .

وهكذا اجتمع الجيش السلجوقي الكبير في مرج دابق ، ومنها أخذ يرحل على أنطاكية عن طريق نهر العاصي . وكان الصليبيون قد تركوا حامية صغيرة عند جسر الحديد — إلى الشمال الشرقي من أنطاكية — فقتل المسلمون رجالها عن آخوهم في ٤ يونيو سنة ١٠٩٨<sup>(٤)</sup> ؛ ثم لم تلبث أن ظهرت طلائع الجيش

(1) Runciman, op. cit. I. p. 237.

(٢) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ .

(٣) ذكر ابن العديم أن رسل الملك رضوان كثير ترددهم في تلك الأثناء على

كربوغا ، الأمر الذي أخاف دقاق وأثار الظنون في نفسه .

• زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٦ — مطبوع )

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٦ ( مطبوع ) .

السلجوقى أمام سور أنطاكية . وقد حاول السلاجقة اقتحام أنطاكية عن طريق قلعتها التي كانت لا تزال « باقية في أيدي المسلمين » وساعدهم في ذلك شمس الدولة بن ياغى سيان ، ولكن كربوغا فشل في تحقيق تلك الخطة<sup>(١)</sup> ، وعندئذ لجأ إلى تجويع الصليبيين داخل المدينة بإحكام الحصار عليها . ولتحقيق ذلك اختار كربوغا أن يعسكر في السهل الممتد جنوبي أنطاكية عند باب البحر<sup>(٢)</sup> ؛ كما ولى على قلعة أنطاكية أحمد بن مروان . وهكذا ظل الصليبيون محصورين داخل أسوار أنطاكية، قرابة ثلاثة أسابيع (٨-٢٨ يونية) ، فساعت حالتهم وبدأ بعض أعيانهم في الفرار ، في حين أخذت السفن الراسية بالسويدية تتلعق عائدة وعليها من استطاعت حملة من الفارين<sup>(٣)</sup> .

ولعله من الواضح كيف اذتلب الوضع وصار الصليبيون محاصرين داخل أنطاكية والمسلمون خارجها يطوقونها ويعملون على تجويع من بداخلها ؛ وذلك بعد أن كان الصليبيون يحاصرون أنطاكية ويعملون على قطع الزاد عن ياغى سيان وحاميته من السلاجقة<sup>(٤)</sup> . وتشير المراجع إلى أن الصليبيين داخل أنطاكية تعرضوا للأزمة قاسية بسبب قلة الغذاء والمؤن « فعدم التوت عندهم حتى أكلوا الميتة » ، وبلغ ثمن رغيف الخبز الصغير ديناراً والبيض الواحدة دينارين . ولم تكن هذه الأسعار في متناول غالبية الصليبيين ، فاضطر بعضهم إلى العيش على أوراق الأشجار ، فضلاً عن « الميتات والدواب »<sup>(٥)</sup> . وفي وسط تلك الأزمة أخذ كثير

(١) المرجع السابق ص ١٣٦-١٣٧ ابن الأثير : الكامل، سنة ٤٩١ هـ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٧ (مطبوع) .

(٣) Cam. Med. Hist; vol. 5, p. 292.

(٤) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٦ .

(٥) ابن العديم زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٧ . أما ابن الأثير فيقول عن الصليبيين داخل أنطاكية عندئذ « ليس لهم ما يأكلونه ، وتقوت الأفوياء بدواهم ، والضعفاء بالميتة وورق الشجر » .

( ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٩١ هـ ) .

من الفرسان يعبرون عن ندمهم على ترك بلادهم ، والحضور إلى الشرق ، بل لقد جاهر بعضهم بأن إيتين دى بلوا كان على حق عندما انسحب أثناء حصار الصليبيين لأنطاكية وقتل راجعاً إلى بلاده<sup>(١)</sup> .

ولم يبق أمل للصليبيين في أنطاكية للخلاص من تلك الحنة التي أمت بهم سوى حضور الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين ليطن كربوغا وجيوشه من الخلف . لذلك استنجد الصليبيون بالإمبراطور الذي استجاب لندائهم وخرج على رأس جيشه قاصداً أنطاكية مخترقاً آسيا الصغرى<sup>(٢)</sup> . ولكن لم يلبث أن التقى بالإمبراطور في آسيا الصغرى إيتين دى بلوا وبعض زملائه ، فأخبروه أن السلاجقة استردوا أنطاكية وأبادوا الصليبيين فعلاً، وإنهم عندئذ في طريقهم إلى آسيا الصغرى لضرب الإمبراطور وجيوشه قبل أن يصل إلى أنطاكية<sup>(٣)</sup> . وكان أن اهتز الامبراطور لتلك الأخبار ورأى أن يعدل خطته سريعاً ، لأن سلامة جيوشه وبلاده أهم بكثير من سلامة أنطاكية والصليبيين ، ولذلك قتل راجعاً ولم تفاجح الجهود التي بذلت لحملة على المغني في طريقه إلى أنطاكية<sup>(٤)</sup> . ولا شك في أن عودة ألكسيوس كومنين جاءت ضربة خطيرة للصليبيين المحصورين داخل أنطاكية ، كما كان لتلك العودة أثرها في تشجيع كربوغا . وسرعان ما بدأ اليأس ينتاب كثيراً من الصليبيين ، فخارت قواهم وتسألوا من المواقع الأمامية ليحتموا بمنازل المدينة ودورها ، مما دفع الأمير بوهموند إلى إشعال النار في المدينة في ١٢ يونية ليحرق منازلها ويجبر الصليبيين القابعين داخلها على الخروج إلى المتاريس الأمامية للدفاع عن أسوار المدينة<sup>(٥)</sup> .

(1) Runciman op. cit, I, p. 238.

(2) Guillaume de Tyr p. p. 250-354 & Gesta Francorum, p. p. 141-147.

(3) Michaud : op. cit, I, p p. 300-302.

(4) Gesta Francorum, p. p. 147-149.

(5) Guillaume de Tyr I, p. 255:



ويرى ابن القلانسي وابن العبري أن الصليبيين داخل أنطاكية بلغوا درجة من اليأس جعلتهم يفكرون في الاستسلام، ولكن كربوغا رفض أن يعطيهم الأمان ليخرجوا من أنطاكية، وقال لهم « لا تخرجون إلا بالسيف »<sup>(١)</sup>. وعندما مرض ريموند - القائد الأعلى للقوات الصليبية - حل محله بوهيموند في حوالي ٢٠ يونية، وعندئذ أخذ بوهيموند بحماسة المعروفة يرفع من الروح المعنوية للصليبيين ويعدم لخوض معركة فاصلة مع المسلمين<sup>(٢)</sup>.

وليس معنى سوء حال الصليبيين داخل أنطاكية أن المسلمين تمتعوا بجمحة متأسكة؛ بل على عكس ظل المسلمون في ذلك الدور الحاسم يعانون خلافاً واضحاً في صفوفهم مما عاد عليهم بالخسارة. ذلك أن رضوان ملك حلب رفض - كما سبق أن ذكرنا - المشاركة في الحلف الإسلامي للعمل على استرداد أنطاكية من الصليبيين؛ هذا على الرغم من أن تأمين مستقبله ومستقبل إمارته كان يحتم عليه أن يتخذ موقفاً أكثر اتزاناً وحكمة؛ بعد أن صارت حلب واقعة بين الرها في الشرق وأنطاكية في الغرب، وكلاهما ستط في قبضة الصليبيين<sup>(٣)</sup>. ولعل عدم وجود رضوان مع المسلمين أمام أنطاكية، وعدائه لأخيه دقاق ملك دمشق الذي رافق كربوغا، كان من العوامل التي خلقت جوّاً من التلق والاستياء في صفوف المسلمين. ولما أحس كربوغا بحاجته إلى مساعدة رضوان، بدأ يسعى للاتصال به، وعندئذ « توهم دقاق من ذلك! »<sup>(٤)</sup>. وفي الوقت نفسه أحس دقاق برغبته في العودة إلى دمشق لمراقبة توسع الفاطميين في فلسطين، وهو التوسع الذي سبب له قلقاً بالغاً<sup>(٥)</sup>. ومن جهة أخرى فإن جناح الدولة حسين - أمير

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٦، ابن العبري، تاريخ مختصر الدول

ص ١٩٦.

(2) Michaud · op. cit; I, p. 304.

(3) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 93.

(٤) ابن العديم: زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٦ (مطبوع).

(5) Runciman : op. cit; I, p. 246

(م ١٤ - الحركة)

حصص العربي الذي أسهم مع كربوغا في حصار أنطاكية — ظل يشعر بتلق دائم بسبب الخوف من انتقام يوسف بن أبق أمير الرحبة ومنبج الذي كان على اتفاق مع رضوان . بل لقد بلغ الأمر بالمسلمين أمام أنطاكية أن انقسموا على أنفسهم، فظهر الشقاق بين أتراك كربوغا من ناحية والعرب بزعامة وثاب بن محمود من ناحية أخرى « وجرت بين الأتراك والعرب الذين مع وثاب منافرة عادوا لأجلها . وتفرق كثير من التركان بتدبير الملك رضوان ورسالته »<sup>(١)</sup> . أما اللورخ أبو الفداء، فيعطل روح التباض والفرقة التي سادت زعماء المسلمين أمام أنطاكية بأن « كربوغا أساء السيرة فيمن اجتمع معه من الملوك والأمراء المذكورين، وتكبر عليهم ؛ فنخبث نياتهم على كربوغا »<sup>(٢)</sup> .

وفي الوقت الذي كان معسكر المسلمين يعاني ذلك التصدع والشقاق ، أخذ يوهيموند ينفخ في الصليبيين روحاً جديدة . وكان أن أرسل يوهيموند سفارة من رجلين — أحدهما بطرس الناسك — إلى كربوغا يوم ٢٧ يونية لإقناعه بترك الحصار ، ولكن كربوغا — رغم ما كان يعانيه من تفكك في معسكره — أصر على استسلام الصليبيين دون قيد أو شرط<sup>(٣)</sup> . وبذلك لم يعد أمام يوهيموند سوى الحرب، فأمر رجاله بالخروج من أنطاكية في ٢٨ يونية سنة ١٠٩٨ للدخول في معركة فاصلة ضد المسلمين . وكان من الممكن للمسلمين القضاء على الصليبيين عند خروجهم من أنطاكية جماعات صغيرة ، إذ « خرجوا في اليوم الخامس من الباب متفرقين خمسة وستة ونحو ذلك . فقال المسلمون لكربوغا ينبغي أن تقف على الباب فنقتل كل من خرج فإن أمرهم الآن وهم متفرقون سهل ، فقال لا تفعلوا أمهالهم حتى يتسكامل خروجهم فنقتلهم » . وبذلك أضع

(١) ابن العديم . زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٦ (مطبوع).

(٢) أبو الفداء : المختصر، حوادث سنة ٤٩١ هـ .

(3) Chalandon : Premiere Croisade, p. 220.

كربوغا الفرصة ، إذ تكامل الصليبيون وأنزلوا الهزيمة بالمسلمين « لما عاملهم كربوقا أولاً من الاستهانة لهم والإعراض عنهم »<sup>(١)</sup> .

وهكذا حلت الهزيمة بجيش كربوغا ، فانفض عنه كثير من الأمراء ، وكان التركان أول من « عاث في المعسكر فانهزم »<sup>(٢)</sup> ؛ في حين ظل سكيان بن أرتق وجناح الدولة « آخر من انهزم » من الأمراء ، وعند فرارهما من الميدان لجأ كربوغاهو الآخر إلى الفرار ، وبذلك عمت الكارثة<sup>(٣)</sup> . ثم إن التعليمات التي صدرت إلى الصليبيين جعلتهم لا يلتفتون إلى الأسلاب والغنائم ، وإنما واصلوا مطاردة فلول المسلمين ، واشترك معهم في تلك المطاردة أهل المنطقة من السريان والأرمن ، فظلوا يتعقبون الجند المنهزمين ويعملون فيهم قتلاً ، حتى جسر الحديد وحارم شرقاً<sup>(٤)</sup> ، « ونهب من المسلمين من الآلات والخيام والكرراع والغلات ما لا يحصى ، ومن انقطع من المعسكر نهبه الأرمن »<sup>(٥)</sup> .

وبذلك لم يحقق الصليبيون انتصاراً على سلاجقة الروم وحدهم ، وإنما أيضاً على سلاجقة الشام وفارس ، فعاد كربوغا إلى الموصل تحوطه خيبة الأمل ، وعاد دقاق إلى دمشق يجر أذيال الفشل . أما أحمد بن مروان قائد قلعة أنطاكية فقد أدرك عبث المقاومة ولكنه رفض تسليم القلعة لريمووند وأصر على تسليمها لبوهيموند نفسه<sup>(٦)</sup> .

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ

وقد ذكر ابن العديم أن بعض الأمراء أشاروا على كربوغا بأن لا يمكن الصليبيين من الخروج « ويقتلوا أولاً فاولاً فلم يرج المسلمون على شيء من ذلك لانهم أيقنوا بالظفر بالفرنج ، وخرجوا بأجمعهم في خلق عظيم » . ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٧ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٧ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ

(4) Gesta Francorum, p. 159.

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ص ١٣٧ (مطبوع) .

(٦) يروي ابن العديم أن الصليبيين أسنوا أحمد بن مروان وأنزلوه في دار بأطاكية =

الانتافس بين بومونيد النورمانى وبومونيد الصنجلي حول أنطاكية :  
تأكد استيلاء الصليبيين على أنطاكية وقلعتها بعد أن حلت الهزيمة بالجيش  
السلجوقى، واتضح عجز بركيارق سلطان سلاجقة فارس ودقاق ملك دمشق عن  
وقف الغزو الصليبي. وإذا كان بركياروق (بركيارق) قد هزم أديباني شخص  
تابعه كروبوغا، فإن دقاق هزم شخصياً أمام أنطاكية. وبانتصار الصليبيين على  
سلاجقة فارس والشام أصبح الطريق إلى بيت المقدس مفتوحاً أمام الصليبيين،  
لأن أنطاكية بالذات تعتبر « مفتاح بلاد الشام » على قول بعض المؤرخين (١).  
وكان يجب على الصليبيين — برا بتسمهم الصليبي — ألا يضيعوا وقتاً طويلاً  
وأن يبدءوا بالزحف مباشرة على بيت المقدس، ولكنهم لم يفعلوا ذلك وأضاعوا  
سنة أشهر، وهم واقفون حيث هم في إقليم أنطاكية يبحثون في مشا كلهم  
الداخلية (٢).

والواقع أن الصليبيين وجدوا أنفسهم أمام مشا كل ضخمة عقب انقضاء  
موجة الفرح الأولى التي عمتهم بعد الانتصار على خطر كروبوغا وضممان الاستيلاء  
على أنطاكية. حقيقة إنهم استولوا على قلعة المدينة واستحكاماتها وأسوارها سليمة،  
ولكن حماية تلك الأسوار الطويلة والحصون العديدة تتطلب عدداً كبيراً من  
الرجال الحاربين، في الوقت الذي تناقص عدد الصليبيين، فضلاً عن أنه كان  
مطلوباً منهم أن يحشدوا كل مالديهم من قوى للاستيلاء على بيت المقدس.  
ثم إن الصليبيين لم يجدوا في أنطاكية شيئاً من مخازن الميرة والثون التي ظلوا يحملون  
« وأطلقوا أصحابه وسيروا معهم من يوصلهم إلى أعمال حلب، فخرج الارمن فأخذوا  
بعضهم وقتلوا بعضهم ولم يسلم منهم إلا القليل ».

( ابن المديم . زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٧ — ١٣٨ ) .

Chalandon : Premiere Croisade, p. 181.

(2) Brousset : Hist des Croisades, I, p. 108.

بها طويلاً . وبالإضافة إلى ذلك تمتد وجد الصليبيون بداخل أنطاكية عدداً كبيراً من المسيحيين الشرقيين ، وهؤلاء — وبخاصة السريان — لم يطمئن الصليبيون إلى شعورهم وإحلاصهم<sup>(١)</sup> . وأخيراً فإن المشكلة الكبرى التي استنفدت كثيراً من الوقت والجهد كانت تحديد مصير أنطاكية نفسها . فلن تنتقل ملكية هذه المدينة الهامة؟ وهل تكون من نصيب الصليبيين أو البيزنطيين؟ وإذا احتفظ بها الصليبيون فمن من إمرائهم أولى بها؟<sup>(٢)</sup> .

والواقع إن حقوق الامبراطورية البيزنطية في إقليم أنطاكية ، كانت واضحة لاشبهة فيها ، ليس فقط لأن الدولة البيزنطية ظلت تمتلك إقليم أنطاكية حتى الغزو السلجوقي سنة ١٠٨٥ ، بل أيضاً وقتاً للاتفاقية المعقودة بين زعماء الصليبيين والامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين في التسطنطينية سنة ١٠٩٧ ، وهي الاتفاقية التي كان بوهيموند نفسه أول من أقرها<sup>(٣)</sup> . ولكن يبدو أن بوهيموند عندما تعهد سنة ١٠٩٧ برد أملاك الامبراطورية البيزنطية ومدنها كان يأمل في أن يعينه ألكسيوس كومنين نائبا عنه في حكم بلاد الشام التي كانت قديماً جزءاً من الإمبراطورية ، فلما خاب أمل بوهيموند وأحس أنه تحمل العبء الأكبر في الاستيلاء على أنطاكية ، قرر في نفسه أن يتحطل من تعهده السابق للامبراطورية وأن يتخذ سياسة معادية للدولة البيزنطية ومصالحها<sup>(٤)</sup> .

وكان أن طلب بوهيموند في أواخر شهر يونيو سنة ١٠٩٨ من بقية زعماء الصليبيين تسليمه ما بأيديهم من أبواب المدينة وأبراجها وتحصيناتها، فقبلوا جميعاً

(1) Runciman : op. cit, I, p. 236.

(2) Cam. Med. Hist, vol 5, p. p. 294-295.

(3) Chalandon : Alexis Comnene, p p 203-205,

(4) Vasilev : op cit; I, p. p. 408-409, &

Ostrogorsky : op. cit, p. 323. &

Cam. Med. Hist, vol. 5, p. 294.

باستثناء ريموند الصنجيلي الذي أخذ ينازع بوهموند أنطاكية<sup>(١)</sup>. وقد أكد بعض المؤرخين الصليبيين المعاصرين أنه عقب أن حلت الهزيمة بكر يوغا، أطلق الصليبيون على بوهموند لقب « أمير أنطاكية » اعترافاً منهم بأن الفضل الأول في الاستيلاء على المدينة من المسلمين إنما يرجع إليه<sup>(٢)</sup>.

ولكن ريموند الصنجيلي لم يكن أقل من بوهموند النورمانى في الاستئثار بأنطاكية، ولذلك رفض أن يتخلى عن المواقع التي احتلها رجاله في المدينة. وهكذا صارت أنطاكية، قسمة بين بوهموند وريموند، فاحتل الأول الأجزاء الشمالية والشرقية والوسطى من المدينة بما فيها القلعة، في حين احتل ريموند القطاع الجنوبي الغربي من المدينة<sup>(٣)</sup>.

على أن الانقسام الداخلى بين بوهموند وريموند كان لا يخفى الوجه القانونى لمشكلة أنطاكية، أى أحقية الدولة البيزنطية فى تملك المدينة وفقاً لاتفاقية القسطنطينية سنة ١٠٩٧. وإذا كان بعض زعماء الصليبيين قد نكثوا بعهدهم وطمعوا فى الاستيلاء على أنطاكية، فإن الامبراطور البيزنطى نفسه لم يكن أقل تنكراً لعهد؛ لأنه لم ينفذ من جانبه شروط الاتفاقية السابقة ولم يحضر على رأس جيوشه لمساعدة الصليبيين الغربيين، وبخاصة فى الحنة التي تعرضوا لها عندما دهمتهم جيوش كروغا أمام أنطاكية<sup>(٤)</sup>. لذلك عقد الصليبيون مجلساً فى مستهل شهر يوليو سنة ١٠٩٨، حضره جميع زعمائهم، وقرر المجلس إيفاد رسولين إلى الامبراطور الكسيوس كومنين لدعوته باسم الصليبيين للحضور لتسلم أنطاكية

(1) Raymond d'Agiles, p. 262.

وريموند هذا هو ريموند الرابع كونت تولوز وقد نسب إلى مقاطعة Saint-Gilles بفرنسا، فحرف العرب هذه النسبة الى الصنجيلي.

(2) Grousset : Hist. des Croisades. I, p, 109.

(3) Guillaume de Tyr p. 274.

(4) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 294.

وقال للاتفاقيه المعقودة بين الطرفين . وقد هلك أحد هذين الرسولين في الطريق ، في حين وصل الآخر إلى القسطنطينية في أواخر يولييه (١) . على أنه يلاحظ أن رسالة الصليبيين إلى الامبراطور ألكسيوس كومنين كانت تحوى ركنين أساسيين متكاملين : فهي تعرض على الامبراطور استلام أنطاكية ، ولكنها تشترط عليه الحضور شخصيا على رأس حملة بيزنطية لمساندة الصليبيين في الزحف على بيت المقدس (٢) .

ولو اغتم الامبراطور ألكسيوس كومنين تلك الفرصة الذهبية وقصد أنطاكية فورا على رأس جيشه لاستطاع أن يقضى على أطماع يوهيموند وريموند جميعا . ولا يخفى علينا أن الصليبيين عندئذ كانوا قد بلغوا ادرجة شديدة من الوهن والضعف بعد ما لاقوه من مشاق أثناء زحفهم في آسيا الصغرى ، وما بذلوه من جهد وتضحيات أمام أنطاكية ، مما جعلهم في حاجة ماسة إلى إمدادات من الإمبراطور البيزنطي تعينهم على مواصلة الزحف على بيت المقدس (٣) . كذلك لا يخفى علينا أن موافقة بقية زعماء الصليبيين على تسليم أنطاكية للامبراطور البيزنطي بالشرط السابق لم يكن الدافع اليها حرصهم على الوفاء بالالتزامات التي قطعوها على أنفسهم في القسطنطينية سنة ١٩٠٧ ، بقدر ما كان الأمل في الحصول من الامبراطور البيزنطي على المساعدة المحتاجين إليها مقابل إعطائه المدينة (٤) . والواقع إنه من الصعب تفسير موقف ألكسيوس كومنين السلبى من ذلك

(1) *Cesta Francorum*, p. 161.

ويلاحظ أن رواية ألبرت اختلفت عن الرواية السابقة، إذ قال: إن الرسولين اللذين أوفدهما الصليبيون إلى الامبراطور كلفا باخطارها أنه حنت بوعوده للصليبيين، وبناء على ذلك فانهم صاروا في حل من تعهداتهم له.

(Albert d'Aix, p. 434).

(2) *Guillaume de Tyr*, p. 277.

(3) *Brehier* : op. cit; p. 314

(4) *Chalandon* : *Alexis Comnène*; p, p, 204—205.

العرض السخى الذى يتسكنه من استرداد شمال بلاد الشام، فضلاً عن تمكينه من الإشراف على فتح بيت المقدس؛ لاسيما وأن تجربته حتى ذلك الوقت مع الصليبيين كانت ناجحة وأتاح له فرصة طيبة لاسترداد جزء كبير من أراضي الامبراطورية المفقودة فى الأناضول. ويبدو أنه اطمئن إلى تعهدات الصليبيين وقسمهم، وظن أنهم سيستمررون فى سياستهم التى أتبعوها فى آسيا الصغرى؛ فبفتحون البلاد ليسلمونها للامبراطورية لثمة سائفة، وأعتقد أنه بعد أن يفرغ الصليبيون من فتح بلاد الشام وفلسطين، ستكون هذه البلاد — بحكم موقعها الجغرافى وروابطها التاريخية بالامبراطورية البيزنطية — تابعة للامبراطورية البيزنطية، أو على الأقل سيكون حكامها من الصليبيين التابعين للامبراطور المعترفين له بالولاء. ولذلك اختار الامبراطور أن يصمت مؤقتاً ولا يرد على رسالة الصليبيين<sup>(١)</sup>.

وأخيراً أفاق الإمبراطور ألكسيوس كومنين بعد فوات الفرصة. ذلك أن الصليبيين قرروا فى أبريل سنة ١٠٩٩ الزحف على بيت المقدس بعد أن ظلوا فى أنطاكية أكثر من تسعة أشهر. وفى الوقت الذى اتخذ الصليبيون قرارهم بالزحف على بيت المقدس، تلموارد الإمبراطور البيزنطى على رسالتهم<sup>(٢)</sup>. وفى تلك الرسالة أعلن الإمبراطور الموافقة على مشاركة الصليبيين فى الزحف على بيت المقدس إذا سلموه أنطاكية، ولكنه طلب منهم انتظاره حتى شهر يوليو<sup>(٣)</sup>. ومن الواضح أن رد الإمبراطور البيزنطى جاء متأخراً، أى بعد أن مرت أشهر طويلة استطاع خلالها بوهيموند أن يثبت مركزه فى أنطاكية، بحيث أصبح من الصعب على الإمبراطور البيزنطى زحزحته من ذلك المركز. هذا إلى أنه فى الوقت

(1) Grousset : *Hist. des Croisades* I, p. 112.

(2) Setton : *op. cit.* ; I, p. 329.

(3) Raymond d'Agiles, p. 246. & Guillaume de Tyr, p. 307



الذي أخذ الإمبراطور ألكسيوس كومنين بعد الفرجة بالحضور لمساعدتهم على انتزاع فلسطين من الفاطميين ، إذا به يعقد اتفاقاً سرّياً مع الفاطميين في مصر ضد الصليبيين . وشاء سوء حظه أن تقع رسالة بهذا المعنى موجهة من الإمبراطور إلى الوزير الأفضل في أيدي الصليبيين عقب موقعة عسقلان مباشرة (١) .

ومن الواضح أن الصليبيين الغربيين كانوا يتصرفون في حكمه بالغة تجاه الإمبراطورية البيزنطية . ولأدلى على محاولة الفرنجة إثبات حسن نواياهم تجاه القسطنطينية من معاماتهم لطرق أنطاكية حنا الرابع الأرثوذكسي ، الذي عذبه الأتراك كثيراً وسجنوه طوال حصار الصليبيين للمدينة ، حتى إذا ماسقت أنطاكية في أيديهم احتفى به الصليبيون حفاوة بالغة ، وأقاموا حفلا كبيرا ثبتوه فيه رئيساً لكنيسة أنطاكية (٢) . كذلك لم يتعرض الصليبيون لأتباع المذهب الأرثوذكسي في البلاد التي استولوا عليها ، وإنما تركوا حرية العقيدة لجميع المسيحيين ، بما في ذلك السريان والأرمن ، وسمحوا لهم باصلاح كنائسهم وزخرفتها بالقسيفساء والايقونات والصور وغيرها . أما رجال الدين الأرثوذكس أنفسهم ، فقد تركهم الصليبيون في مناصبهم ولم يتعرضوا لهم ، وكل ما هنالك هو أنهم عينوا بعض رجال الدين من الكاثوليك في الأسقفيات الشاغرة (٣) .

على أن هذه السياسة الودية تجاه الإمبراطورية البيزنطية وكنيستها لم تلبث أن تبدلت عندما تكاسل الإمبراطور ألكسيوس كومنين في الحضور إلى الشام لمساندة الصليبيين ؛ ثم عندما اكتشف الصليبيون اتصاله مع الفاطميين في مصر . من ذلك أن بوهيموند عندما ثبت مركزه في أنطاكية لجأ إلى خلع حنا الرابع بطرك أنطاكية الأرثوذكسي وأحل محله بطرقا كاثوليكياً (٤) .

(1) Chalandon : Alexis Comnene p. 207.

(2) Aldert d'Aix : p. 433.

(3) Guillaume de Tyr, p. 274.

(4) Courouset : Hist. des Croisades I, p. 114.

ومها يكن من أمر ، فإن الصليبيين بوجه عام رأوا أن ينتظروا الامبراطور ألكسيوس كومنين ؛ حتى إذا ما حل يوم ٣ يولية ١٠٩٨ ولم يحضر ، عقد زعمائهم مجلساً لتحديد موعد الزحف على بيت المقدس ، واختير أول شهر نوفمبر لذلك ، حتى تكون حرارة الصيف قد خفت حدتها وأصبح الجو ملائماً لحركة الجيوش الصليبية (١) .

### انهزال البارة وصعرة النعمان :

تعرض الصليبيون للخمول خلال المدة الطويلة التي قضوها في شمال الشام ، فقترت الحماسة الصليبية في نفوسهم ، وظهر شعور عام بالاستكاثة بينهم ؛ وبدأ كل واحد من أمرأهم يعتقد أن دوره في الحرب الصليبية ينتهي بتأسيس إمارة مناسبة لنفسه في الشرق ، مما هدد الحملة الصليبية الأولى بالفتت في شمال الشام . وقد حرص بوهيموند في تلك المرحلة على أن يبدو دائماً في صورة أمير أنطاكية وحاكمها الأوحده ، ففتح الجنوبية في ١٤ يولية براءة خواتهم الحق في سوق خاص بهم وكنيسة ، فضلاً عن ثلاثين بيتاً من بيوت أنطاكية . وبذلك ضمن مناصرة الجنوبية له واعتماده عليهم وعلى مساعدتهم للإحتفاظ بمواصلاته مع صقلية وإيطاليا (٢) .

وربما كان الرجل الوحيد الذي ظل يوحد بين صفوف الصليبيين في ذلك الوقت دون أن تكون له مطامع الأمراء الشخصية هو المندوب البابوي أدهمار ، الذي حرص على أن يؤلف بين قلوب أمراء الصليبيين ويوجههم نحو عمل يتفق وطبيعة المهمة الصليبية التي أتوا من أجلها إلى الشرق . على أن تعدد المعارك في

(1) Runciman : op. cit. I, p 250.

(2) Heyd : op. cit; Tome I, p. 134.

ساحة أنطاكية وكثرة القتلى والجيف ، نتج عنه انتشار وباء في معسكر الصليبيين ذهب ضحيته بضعة آلاف من الصليبيين من بينهم أدهمار نفسه (أول أغسطس سنة ١٠٩٨) . وقد دفع ذلك الوضع الصليبيين إلى القيام بغزوات وجولات قريبة خارج أنطاكية — ليبتعدوا عن منطقة الوباء <sup>(١)</sup> .

ومن تلك الغزوات الصغيرة التي قام بها الصليبيون عندئذ ، خروج فارس من أتباع ريموند الصنجلي — إسمه ريموند بليه Raymond Pilet — على رأس قوة صغيرة في منتصف يولييه سنة ١٠٩٨ مخترقا طريق معرة مصرين بقصد احتلال معرة النعمان وتل منس ( تلمنس ) ، وهي الجهات الواقعة إلى الجنوب الشرقي من أنطاكية ، أى داخل نطاق ممتلكات رضوان ملك حلب السلجوقي . ويفهم من رواية ابن العديم أن الفارس ريموند كان على صلة بالسريان والأرمن في تلك النواحي قبل أن يقوم بمحملته ، وأنهم شاركوه في الزحف ، مما سهل له مهمته <sup>(٢)</sup> . ولكن رضوان أسرع بإرسال « قطعة من عسكر حلب إليهم » ، فالتقى الحلبيون بالصليبيين بين تل منس ومعرة النعمان ، وعندئذ لم يقو الصليبيون على مقاومة الجيش الحلبي من جهة ، وحرارة الجو مع قلة الماء من جهة أخرى ، « فانهزم الفرنج وبقي الرجال منهم ، قتل منهم زائدا عن ألف رجل ، وحملت رؤوسهم إلى معرة النعمان » ، في حين ارتد ريموند إلى تل منس .

أما جودفرى بوايون فقد خشي على نفسه من الوباء الذى انتشر فى أنطاكية ، فقصده أخاه بلدوين فى الرها ، الذى أعطاه تل باشر والراوندان

(1) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 295. & Michaud : op. cit: I, p, 333.

(٢) « وزحفوا مع أهل تلمنس وجميع نصارى بلد المعرة على المعرة وقتلواها » . ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٨ (مطبوع)

Gesta Francorum, P. P. 162—165.

(أوائل أغسطس ١٠٩٨)<sup>(١)</sup> . هذا في حين أجه بوهيموند إلى قيليقية حيث دعم الحاميات الصليبية التي تركها تنكرد في طرسوس وأذنه والمصيصة أو فرسين في الخريف السابق ، وتأكد من ولائها له ، مما يشير إلى أنه كان ينوي إدخال إقليم قيليقية في حيز الإمارة التي ينوي إقامتها لنفسه في أنطاكية<sup>(٢)</sup> .

وفي سبتمبر سنة ١٠٩٨ عاد جودفري بوايون إلى أنطاكية حيث نظم مع ريموند الصنجيلي حملة اكتسبت طابعاً غريباً ، لأن الصليبيين قاموا فيها بالدفاع عن عمر والى عزاز ضد رضوان ملك حلب<sup>(٣)</sup> . وكان حصن عزاز هذا يقع على بعد أربعين كيلواً متراً تقريباً شمالي حلب ، على الطريق الرئيسي بين أنطاكية من ناحية والرها وتل باشر من ناحية أخرى . وعندما عصى عمر والى عزاز سيده رضوان ، أرسل الأخير جيشاً لمحاورة ، وعندئذ لم يسع عمر سوى طلب النجدة من جودفري<sup>(٤)</sup> ! وأكثر من هذا أن عمر أرسل إبنته محمود ليظل رهينة عند جودفري ضماناً لإخلاصه وإثبات عدم نيته في التفرير بالصليبيين<sup>(٥)</sup> . ولم يكن في وسع جودفري أن يشن حرباً على حلب دون الاستعداد الكافي ، فحصل على مساعدات قوية من بوهيموند ومن أخيه بلدوين في الرها ، وعندئذ رفع رضوان الحصار عن عزاز وسحب قواته إلى حلب . على أن جودفري بوايون لم يقتنع بذلك وإنما رأى أمامه فرصة لتحقيق بعض الأطماع الصليبية في شمال الشام ، ولذلك استمر في طريقه إلى عزاز ، حيث خرج عمر والى الحصن لاستقباله ، وترجل أمامه من فوق فرسه ، وأعلن تبعية له (منتصف سبتمبر ١٠٩٨)<sup>(٦)</sup> .

(1) Sett n : op. cit; I, p. 325.

(2) Runciman : op. cit; I, p. 254 & Stevenson : The Crusaders. p 29.

(3) Sett n : op. cit, I, p. 325.

(٤) ابن المديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٤١ (مطبوع).

(5) Michand : op. cit; I, p. 339.

(6) Albert d'Aix, p. 439 & Guillaume de Tyr p. 283.

ولم يغفر رضوان صاحب حلب لعمر نعلته هذه ، فما زال به حتى أخذ عزاز منه وقتله في حلب (١) .

وفي نهاية سبتمبر قام ريموند الصنجيلي بحملة على البارة ، وهي مدينة تابعة لمملكة حلب تقع شرقي نهر العاصي بين جسر الشغور (الشغور) ومعرة النعمان (٢) . ويبدو أن رضوان لم يقيم بأية محاولة للدفاع عن البلدة فاستولى عليها ريموند في حوالي ٢٥ سبتمبر «وعاقب الرجال والنساء واستصفي أموالهم وسبي بعضاً وقتل بعضاً» ؛ فضلاً عن أنه حول جامعها الكبير إلى كنيسة (٣) .

عل أن تلك الغزوات الحلية التي قام بها الصليبيون في ذلك الدور لم تكن في حقيقة أمرها إلا وسيلة لقضاء الوقت حتى يحين موعد الزحف على بيت المقدس . ولم تلبث أن تهيأت الظروف لذلك الزحف باقتضاء فصل الصيف واعتدال درجة الحرارة ، فعقد الصليبيون مجلساً في ٥ نوفمبر سنة ١٠٩٨ بكنيسة القديس بطرس بأنطاكية ، وأجمع الزعماء جميعاً على استئناف الزحف نحو بيت المقدس ، ما عدا بلدوين الذي كان مشغولاً بتنظيم إمارته في الرها (٤) .

ومن الواضح أن هذا القرار لم يلبث أن أثار أمم الصليبيين من جديد مشكلة أنطاكية ووضعها القسانوني ، لاسيما وأن بوهيموند — يسانده معظم الأمراء — ظل متمسكاً بحقه في السيطرة على المدينة ، في حين نازعه ريموند ذلك الحق . حقيقة إن الصليبيين حاولوا التهرب مرة أخرى من تلك المشكلة وتأجيلها من جديد . بأن أرسلوا إلى البابا في ١١ سبتمبر يخبروه بوفاة مندوبه أدهاروبيليون منه الحضور شخصياً لزيارة كنيسة القديس بطرس في أنطاكية ، بوصف البابا

(١) ابن العميد : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٤١ .

(٢) Chalandon : Première Croisade p. p. 248-249.

(٣) ابن العميد : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٤١ .

Gesta Francorum p. p. 167-169.

(٤) Michaud : op. cit: 1, p. p. 346-347.

ورث القديس بطرس في كرسية . ولكن الصليبيين أنفسهم كانوا واثقين من أن البابا لن يستطيع تلبية دعوتهم، ومن ثم لن تحل مشكلة أنطاكية على يد البابا، مما يتطلب التفكير في وضع حل لها على يد زعماء الصليبيين أنفسهم (١).

وعندما أدرك بوهيموند أنه لن ينال أنطاكية برضاء الإمبراطور البيزنطي، صمم على أن يمتلكها رغم إرادة الإمبراطور، فتحولت سياسته من مهادنة الإمبراطورية واحترام حقوقها إلى معاداتها وسلب حقوقها، وعندئذ انقلبت سياسة ريموند هو الآخر فأصبح من المنادين بالتمسك بحقوق الإمبراطورية البيزنطية واحترام الاتفاقية التي عقدها الصليبيون مع الإمبراطور البيزنطي سنة ١٠٩٧ (٢). وهكذا انقلب الموقف رأساً على عقب، فصار بوهيموند — وهو أول من عقد اتفاقاً مع الإمبراطور البيزنطي تعهد له فيه بالولاء — ينادى بالخروج عن ذلك الاتفاق، في حين أمسى ريموند — وهو الأمير الوحيد من أمراء الحملة الذي لم يتقيد بالاتفاقية السابقة ولم يقسم يمين الولاء للإمبراطور — هو المدافع عن حقوق الإمبراطورية والمنادى باحترام الاتفاقية التي عقدها الصليبيون مع ألكسيوس كومنين . وبذلك أدت مشكلة أنطاكية إلى تعقيد الموقف بين الصليبيين والبيزنطيين، فضلاً عن تعقيد الموقف بين زعماء الحملة الأولى بعضهم وبعض (٣).

وكان أن طال الجدل والنقاش بين زعماء الحملة الصليبية الأولى حول مصير أنطاكية، وعندئذ استاء الجند وبقية الفرسان، وأعلنوا أن الوقت قد حان ليبروا بقسمهم الصليبي ويستردوا بيت المقدس، فأندروا الزعماء بأنهم إذا استمروا في منازعاتهم الخاصة حول المسألة الأنطاكية، فإن الصليبيين جميعاً سيتركونهم

(1) Runciman : op. cit; I, p. 256.

(2) Brehier : op. cit; p. 314.

(3) Grousset : His. des Croisades, I, p. 120.

في أنطاكية ويتجهون رأسا إلى بيت المقدس؛ ولكنهم لن يفعلوا ذلك إلا بعد أن يدمروا أسوار أنطاكية ويتركونها للزعميين المتنازعين - ريموند وبوهيموند - مكشوفة عارية أمام المسلمين والبيزنطيين جميعا (١) .

ولاشك في أن هذا التهديد أثار مخاوف بوهيموند وريموند جميعا، فضلا عن بقية الأمراء الذين خشوا على مصيرهم ومستقبل الحملة، ومن ثم بدأت المساعي الجدية للوصول إلى حل لتلك الأزمة . ويبدو أن بوهيموند وريموند خشيا عندئذ أن ينفذ الصليبيون تهديدهم، فتوصلا إلى اتفاق سريع في نهاية نوفمبر لشغل الصليبيين وتوجيههم وجهة تنفق ورغبتهم في مهاجمة المسلمين . أما هذه الوجهة فكانت معرة النعمان، التي سبق أن هاجمها الصليبيون في شهر يوليو وباء هجومهم بالفشل (٢) . وعندما هاجم الصليبيون معرة النعمان استغاث أهلها بالملك رضوان صاحب حلب وجناح الدولة صاحب حمص « فلم ينجدهم أحد » (٣) . ولم يكن للاهالي من القوة والإمكانات ما يمكنهم من المقاومة طويلا ، فاضطروا إلى التسليم للصليبيين في ١١ ديسمبر (٤) ، وعندئذ لم يحترم الصليبيون الأمان الذي أعطوه لأهل معرة النعمان ، وإنما « غدروا بهم ورفعوا الصليبان فوق البلد ، وقطعوا على أهل البلد القطنع ، ولم يقوا بشيء مما قرروه ؛ ونهبوا ما وجدوه ، وطالبوا الناس بما لا طاقة لهم به » (٥) . وتضيف المراجع الصليبية إلى ذلك أن الصليبيين

(1) Gesta Francorum, p. 171.

(2) Stevenson : op. cit, p. 30.

(٣) ابن الاثير : السكامل ، سنة ٥٤٩١ .

ابن العديم : زبدة العلب ح ٣ ص ١٤١ - ١٤٢ .

(4) Albert d' Aix, p. 268 & Gesta Francorum, p. 175.

(٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٦ ، وقد قدر ابن العديم عدد قتلى المسلمين في معركة معرة النعمان بأكثر من عشرين ألف رجل وامرأة وصبي ؛ في حين قدرهم ابن الاثير بما يزيد عن مائة ألف

أحرقوا المعرة أولا عن آخر (١) .

على أنه على الرغم من اشتراك بوهموند وريموندسوي في الاستيلاء على معرة النعمان ، إلا أن الحزازات استمرت قائمة بين الرجلين بسبب مشكلة أنطاكية . ويبدو أن ريموند نفسه أدرك أن هذه المشكلة طالت أكثر مما ينبغي وأنه لا بد من وضع حد سريع لها ، ولذلك دعا الأمراء إلى الاجتماع به في أوائل يناير سنة ١٠٩٩ ، وعرض عليهم مبالغ ضخمة من المال ليكتسبهم إلى جانبه ويعلنون زعما أو حذا للصليبيين جميعا ؛ ولكن عرضه قوبل بفتور من جانب الأمراء (٢) . وأخيرا رأى ريموند أن الموقف لم يعد يحتمل التأجيل بعدما عم الاستياء جميع صفوف الصليبيين ، فخرج ريموند من معرة النعمان في ١٣ يناير سنة ١٠٩٩ على رأس جيوشه معلنا الزحف على بيت المقدس ، وتبعه بقية الصليبيين ، ما عدا بوهموند الذي اختار البقاء بأنطاكية (٣) . وهكذا حلت المشكلة بين ريموند و بوهموند بأن أصبح ريموند الزعيم الذي لا ينافسه أمير آخر في قيادة الحملة الصليبية ، في حين قنع بوهموند بتحقيق حلمه في امتلاك أنطاكية (٤) .

وأخيرا تحركت الحملة الصليبية الأولى نحو بيت المقدس ، بعد أن ظلت قرابة خمسة عشر شهرا في شمال الشام ( أكتوبر ١٠٩٧ - ديسمبر ١٠٩٨ ) (٥) .

(1) Chalandon : *Premiere Croisade* . p. p. 249.

(2) *Gesta Francorum* . p 279.

(3) Michaud : *op. cit.* I. p. p. 345 - 347.

(4) *Cam. Med. Hist.* vol. 5. p. 295.

(5) *Setton* : *op. cit.* I. p. 327.



## الباب الرابع

### سقوط بيت المقدس

« لتبلىوني في أموالكم وأنفسكم  
ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب  
من قبلكم ومن الذين أشركوا  
أذى كثيراً ، وإن تصبروا  
وتتقوا فإن ذلك من عزم  
الأمور » .

[ آل عمران : ١٨٦ ]



# الفصل الأول

## الطريق إلى بيت المقدس

### الصليبيون والامارات العربية في أواسط بطرد الشام :

اتجه ريموند على رأس الصليبيين من معرة النعمان إلى كفر طاب، وهي قلعة على بعد عشرين كيلومتراً إلى الجنوب، حيث مكثوا هناك حتى ١٦ يناير ١٠٩٩، وفي تلك الفترة لحق بهم روبرت النورمانى وتنسكر د. و بوصول الصليبيين إلى تلك المنطة بدأت الاتصالات بينهم وبين البيوت العربية الصغيرة التي انتهزت فرصة انحلال قوى السلاجقة لتؤكّد استئلالها ببعض المدن مثل حمص وطرابلس وشيزر<sup>(١)</sup>. و جدير بالذكر أن أولئك الأمراء العرب كان مسالكهم تجاه الصليبيين مختلفاً تماماً عن مسالك الأتراك الذين لم يعرفوا سوى السيف، في حين أدرك الأمراء العرب في الشام خطورة الموقف وعدم وجود قوة إسلامية كبرى قريهم تحميهم من ذلك الخطر، فأثروا اتباع سياسة مرنة استهدفت الاتفاق مع الصليبيين وقبول ما تقدموا به من عروض<sup>(٢)</sup>.

من ذلك أن الأمير عز الدين أبو العساكر سلطان بن منقذ - صاحب شيزر (١٠٩٨ - ١١٥٤) - أجرى اتصالات مع ريموند عندما كان الأخير في كفر طاب، وتعهد له بالألا يعترض طريق الصليبيين عند اختراقهم إقليم شيزر وأن يقدم لهم ما يحتاجون إليه من غداء وميرة، فضلاً عن أنه أرسل إليهم في ١٧ يناير سنة ١٠٩٩ دليلين ليرشدا الصليبيين في عبورهم إقليم العاصي. وقد تم

(1) Setten : op. cit , 1, P. P, 164 - 165,

(٢) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ٦٥ ، ٨١ وما بعدها .

فعلا تنفيذ تلك الاتفاقية ، مما يدل على اتجاه الأمراء العرب في ذلك الدور نحو مسالمة الصليبيين ، رغم ما تعرض له المسلمون من اعتداءات على أيديهم (١) . ثم كان أن اختار بعض الصليبيين - وعلى رأسهم ريموند الصنجبلي - أن يتجهوا إلى الشمال الغربي ليستولوا على جبلة ، وهي مدينة ساحلية تقع جنوبي اللاذقية ، وكانت تابعة لصاحب طرابلس ابن عمار (٢) . وقد رأى هذا الفريق من الصليبيين أنه من الممكن الحصول على ما يحتاجون إليه من تموين وإمدادات - من قبرص والدولة البيزنطية فضلا عن الغرب الأوربي - إذا هم سلكوا طريق الساحل ، وذلك بفضل مساعدة الأساطيل الغربية التي اتخذت السويدية واللاذقية قواعد لها (٣) . ومعنى هذه الخطة أن يسلك الصليبيون إلى بيت المقدس طريق الساحل - وهو طريق طويل متعرج - فيستولون في طريقهم على جبلة وانظر طوس وطرابلس وبيروت وصيدا وصور وعكا .

ولكن تنكرد خالف ذلك الرأي بعد أن أدرك النقص الكبير في عدد الصليبيين بحيث لم يعد الجيش الصليبي يضم سوى ألف فارس وخمسة آلاف من المشاة المسلحين (٤) . ومن الواضح أن اتخاذ الطريق الساحلي إلى بيت المقدس كان يستلزم حصار جميع الموانئ السابقة مما يستنفد تضحيات كثيرة ووقتا طويلا ، بحيث يصل الصليبيون في نهاية المطاف إلى بيت المقدس وقد تضاعل عددهم

(1) Guillaume de Tyr, p. 295 & Gesta Francorum, p. 181 & Raymond d'Agiles, p. p. 272-273.

ولم يذكر ابن الأثير هذه التفاصيل التي وردت في الزاجع العربية، وإنما اكتفى بعبارة «وراساهم منقذ صاحب شيزر فصالحهم عاينها» .

(السكامل ؛ حوادث سنة ٤٩١هـ) .

(٢) كان يحكم طرابلس وقت الغزو الصليبي لبلاد الشام جلال الملك أبو الحسن علي بن محمد بن عمار الذي توفي سنة ١٠٩٩، فخافه أخوه أبو علي فخر الملك ابن عمار .  
( انظر زامباور : معجم الأنساب ص ١٦٠ ) .

(3) Heyd : op, cit, I, p. 134.

(4) Chalandon : Premiere Croisade, p. p. 253.

وأنهكهم التعب ، وأعطوا خصمهم وقتاً كافياً للاستعداد للاقتحام ، مما يجعل مهمتهم في الاستيلاء على بيت المقدس — وهى هدفهم الأساسى — من الصعوبة بمكان . أما إذا سلك الصليبيون الطريق الداخلى المباشر إلى بيت المقدس فإنهم سيتجنبون كثيراً من المشا كل السابقة ، حتى إذا ما استولوا على المدينة المتمدسة ، سهل عليهم بعد ذلك اقتزاع بقية المدن الساحلية — مثل طرابلس وصور وعكا — واحدة بعد أخرى (١) .

وقد أدرك بقية الصليبيين أئزان رأى تنسكرد ، فقررُوا اتخاذ أقصر الطرق الداخلية إلى بيت المقدس ، مع الاقتراب بين حين وآخر من شاطئ البحر كلما استدعت ظروف التموين ذلك . وفعلاً استأنف الصليبيون زحفهم وقتماً لتلك الخطة ، ففروا بمصياف فى ٢٢ يناير سنة ١٠٩٩ ، وعندئذ خرج إليهم أميرها العربى ، وعقد معهم اتفاقية . ثم اتجهوا نحو بعين ومنها إلى سهل البقاع ، حيث فرح الصليبيون بما صادفوه من خيرات وفيرة . وقد احتفى أهالى تلك المنطقة من العرب المسلمين بحصن الأكراد وسط ذلك السهل ، ومعهم ما استطاعوا حمله من ثروة ومال ، فأتجه إليهم الصليبيون وحاصروهم حصاراً محكمًا حتى سقط الحصن فى أيديهم فى ٢٩ يناير سنة ١٠٩٩ . وهناك استقبل الصليبيون رسل جناح الدولة أمير حمص ، الذين وفدوا محملين بالهدايا ليخطبوا ود القرنجة حتى لا يتعرضون لبلدهم بسوء .

(1) Raymond d'Aigles p. 273

(2) Stevenson op. cit; I, p. 31.

(3) Gesta Francorum, p. p. 183-185.

ويذكر ابن الأثير أن الصليبيين «ساروا إلى حمص وحاصروها فصالحهم صاحبها جناح الدولة» . (السكامل، سنة ٤٩١ هـ) .

## الحملة الصليبية الأولى وبنو عمار :

وبعد أن غادر الصليبيون حصن الأكراد اتجهوا نحو عرقة ، وهي مدينة صغيرة . تقع شمالي طرابلس وتقعها<sup>(١)</sup> . وكانت إمارة طرابلس عندئذ خاضعة لبني عمار — كما سبق أن أشرنا — فأسرع صاحبها أبو علي فخر الملك بإرسال الرسل إلى ريموند لعقد اتفاقية تعهد فيها الأمير العربي بدفع الأموال للصليبيين ، كما أسرع برفع أعلامهم على سور مدينته وغيرها من المواضع التابعة له إشارة إلى ولائه للصليبيين<sup>(٢)</sup> . أما ريموند الصنجيلى فقد أرسل من جانبه رسلا إلى طرابلس للاتفاق مع أميرها فخر الملك ؛ وعندئذ استرعى نظر رسل الصليبيين ثروة طرابلس وغناها ، وطمعوا في زيادة الجزية ، وأشاروا على ريموند أن يهاجم عرقة التابعة لإمارة طرابلس ، كنوع من الضغط على أميرها فخر الملك حتى يزيد من قيمة الجزية التي تعهد بدفعها للصليبيين . وسرعان ما صادفت هذه الفكرة قبولا حسنا ، لاسيما وأن عرقة نفسها تتمتع بأهمية كبيرة لوقوعها وسط إقليم غني بمياهه وثروته الطبيعية<sup>(٣)</sup> .

وفي الوقت الذي اتجه جزؤ من الجيش الصليبي لحصار عرقة ، اتجه فريق آخر نحو انظرطوس ، واستولوا عليها في حوالي ١٧ فبراير سنة ١٠٩٩ . وكانت انظرطوس هذه ميناء صغير على شاطئ البحر ، تابع لبني عمار ، وأدى استيلاء الصليبيين على ذلك الميناء إلى سهولة تموينهم بواسطة الأساطيل الإيطالية والبيزنطية<sup>(٤)</sup> . هذا فضلا عن أن الاستيلاء على انظرطوس ساعد الصليبيين بعد قليل في الاستيلاء على مرقية ، إلى الشمال منها .

(1) Michaud : op. cit, I. p. 349.

(2) Raymond d'Agiles, p. 275.

(3) Grousset : Hist. des Croisades I, p p. 132-133.

(4) Raymond d'Agiles, p 2.0.

على أن الصليبيين لم يقنعوا بذلك ، وإنما حدث في الوقت الذي أخذ ريموند ورجاله يحاصرون عرقه ، أن أتجه جودفري بوايون وروبرت دي فلاندرز لحصار جبلة ، وهي التي كان مفروضا هي الأخرى أن تكون تابعة لأمير طرابلس ، ولكن القاضي أبو محمود عبيد الله بن منصور استطاع أن يستقل بها عن نفوذ بني عمار . وقد استمر حصار جبلة من ٢ إلى ١١ مارس ، وانتهى بعقد اتفاق بين أبي محمود قاضي جبلة والصليبيين<sup>(١)</sup> ، تمهد فيه الأول بدفع جزية من المال والخليل . وبعد ذلك أتجه جودفري وروبرت إلى عرقه تلبية لنداء ريموند الذي طلب مساعدتهما<sup>(١)</sup> .

وعلى الرغم من أن الصليبيين جمعوا قواتهم أمام عرقه في ١٤ مارس ، وعلى الرغم من سهولة تموين الصليبيين عن طريق البحر ، ووفرة ما حصلوا عليه من خيرات في إقليم طرابلس ، إلا أن حصار عرقه طال دون نتيجة<sup>(٢)</sup> . وفي تلك الأثناء دأبت بعض جموع من الصليبيين على الإغارة على الضياع والقرى القريبة من طرابلس ، ثم تعود إلى عرقه محملة بالأسلاب . ولم يلبث أن اعترض جودفري بوايون على الاستمرار في حصار عرقه ، بعد أن « حصروها أربعة أشهر وثقبوا سورها عدة ثقب ، فلم يقدروا عليها »<sup>(٣)</sup> . وقد نادى جودفري بأن الوقت الذي أضعه الصليبيون في تلك العملية الحربية لا يعادل بأي حال من الأحوال الفائدة المرجوة من وراء الاستيلاء على تلك المدينة الصغيرة . لذلك أصر جودفري على أن يترك الصليبيون حصار عرقه في الحال ليواصلوا زحفهم على بيت المقدس<sup>(٤)</sup> . ومن الثابت أن ريموند أخذ في تلك المرحلة يندم على استعائته بجودفري

(1) Gesta ; Francorum, p. 187. & Albert d'Aix ; p. 453.

(2) Stevenson ; op. cit; I, p. 31;

(٣) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٤٩١ .

(4) Raymond d'Agiles, p. 278 & Albert d'Aix, p. p. 454-455.

وروبرت واستحضرهما من جيلة لعاوته . فحتى ذلك الوقت - ومنذ أن زحف الصليبيون من أنطاكية - كان ريموند هو زعيم الصليبيين الزاحفين على بيت المقدس ، حتى أن تنكرد نفسه اعترف له بتلك الزعامة مقابل مبلغ كبير من المال . أما وقد حضر جودفري ، فإن نفوذه أخذ يطفى على نفوذ ريموند ، وانضم تنكرد وروبرت إلى جانب جودفري ، مما أضر ضرراً بليفاً بمركز ريموند الصنجيلي ومكانته (١) .

وزاد الموقف توتراً بين ريموند وجودفري وصول بثثة من قبل الامبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين - فى حوالى ١٠ أبريل سنة ١٠٩٩ - تحمل رسالة منه إلى زعماء الصليبيين وهم رابضون أمام عرقه . وقد استهل الامبراطور رسالته بتذكير الصليبيين بالاتفاقية بينهم وبينه سنة ١٠٩٧ ، ثم عبر عن استيائه لأن بوهيموند نكث بعهده للامبراطور بعد أن كان أول من أقر الاتفاق معه ، فاستأثر بأنطاكية وأصر على أن يجعل من نفسه سيداً عليها . وأخيراً عرض الامبراطور على الصليبيين أن ينتظروه حتى أواخر يونيو ليحضر إليهم بنفسه ، ويشترك معهم فى الزحف على بيت المقدس ، ويتحمل عنهم كل أعباء الحرب ونفقاتها (٢) .

ومن الواضح أن هذا العرض من جانب الامبراطور البيزنطى بدا طيباً لأول وهلة ، لأنه سيؤدى إلى إنشاء جبهة مسيحية قوية فى الشرق الأدنى ، لا يستطيع المسلمون التغلب عليها أو مقاومتها . هذا فضلاً عن أن حضور الامبراطور بنفسه سيهيب على الصليبيين قيادة عليا قوية ، وهو الأمر الذى باتوا يفتقرون إليه منذ وفاة أدهار - المندوب البابوى - فى أنطاكية . لذلك رحب ريموند الصنجيلي بفكرة انتظار الامبراطور ، وربما رأى فى ذلك الحل فرصة طيبة

(1) Runciman : op. cit, I, p. 271-272.

(2) Guillaume de Tyr, p. 307.



للاستعانة بالأمبراطور في توطيد زعامته على الصليبيين من ناحية<sup>(١)</sup> ، فضلا عن استخدام قوى الصليبيين أثناء فترة الانتظار في الاستيلاء على عرقه ليتخذها — بالإضافة إلى أنظرطوس — نواة للإمارة التي أخذ يحلم بتأسيسها لنفسه في طرابلس<sup>(٢)</sup> ، من ناحية أخرى .

على أن غالبية الأمراء الصليبيين — وعلى رأسهم جودفري بوايون — عارضوا فكرة انتظار الأمبراطور البيزنطي ، ونادوا بالزحف فورا على بيت المقدس . وكانت حججهم في ذلك قوية وهي أن العرض البيزنطي جاء متأخرا بعد فوات الأوان ، فضلا عن أن الأمبراطور ألكسيوس كثير ما وعدوا خلف ، وطالما خدع الصليبيين بمساعدته ومناهم بالأمانى المعسولة دون أن يحقق وعوده . وكان آخر ما يذكره الصليبيون للامبراطور البيزنطي أنه وعدهم بالحضور لمساعدتهم في أنطاكية فانتظروه وأضاعوا الأشهر الطويلة ، ولكنه لم يحضر<sup>(٣)</sup> . هذا كله بالإضافة إلى أن الصليبيين أخذوا يحسون في ذلك الوقت بما كان هناك من اتصالات بين الامبراطور البيزنطي والفاطميين . ذلك أن الفاطميين دهشوا عندما وجدوا الصليبيين يتقدمون جنوبا صوب فلسطين ، فأرسلوا إلى الامبراطور ألكسيوس يسألونه عما إذا كانت تلك الحركة تعمل لحسابه، ولكنه أنكر علاقته بها<sup>(٤)</sup> .

ومهما يكن من أمر ، فإن جودفري بوايون — يسانده روبرت دي فلاندرز — استطاعا إجبار ريموند الصنجي على احترام رأى جموع الصليبيين في الزحف دون إبطاء على بيت المقدس ، مما أكسب جودفري محبة الصليبيين وتقديرهم<sup>(٥)</sup>

(1) Chalandon ; Alexis Comnene , p. 214-215.

(2) Grousset : Hist. des Croisades, I; p 138.

(3) Michaud ; op cit; p. p. 361.

(4) Runciman : op. cit; I, p. 272.

(5) Albert d'Aix, P.P. 455 & Raymond d'Agiles P. 289.

وكان أن اضطر ريموند إلى رفع الحصار عن عرقه في ١٣ مايو سنة ١٠٩٩ ،  
وبذلك فشلت تجربته في استخدام الصليبيين في تأسيس دولة لنفسه على شاطئ  
الشام ، مثلما فعل بوهيموند في أنطاكية<sup>(١)</sup> .

ولاشك في أن إخفاق الصليبيين في الاستيلاء على عرقه بعد ذلك الحصار  
الطويل ، وما ظهر في صفوفهم من خلافات وتيارات متعارضة أثناء الحصار ،  
كل ذلك أدى إلى تقوية مركز أمير طرابلس ابن عمار ، الذي لم يلبث أن  
سحب عروضه السابقة على الصليبيين قبل أن يرفع هؤلاء حصارهم عن عرقه .  
ولكن قيام الصليبيين بالهجوم على طرابلس ، وإنزالهم الهزيمة بالمسلمين في أواخر  
شهر مارس وأوائل أبريل ، كل ذلك جعل ابن عمار يعود إلى رشده ويركن  
إلى مسألة الصليبيين ، فتعهد بالاستمرار في دفع الجزية ، كما دفع غرامة حربية  
باهظه<sup>(٢)</sup> لهم . وقد اكتفى الصليبيون بذلك ، فغادروا إقليم طرابلس في ١٦ مايو  
سنة ١٠٩٩ ، وتولى إرشادهم بعض الأدلاء من طرابلس نفسها حتى وصولهم مساء  
١٩ مايو أمام بيروت<sup>(٣)</sup> .

### الفاطميون وبيت المقدس:

يعجب المؤرخ أبو المحاسن من موقف الفاطميين وعدم مشاركتهم القوى  
الإسلامية التي نهضت للدفاع عن أنطاكية ضد الصليبيين ، فيقول « ولم ينهض  
الأفضل بإخراج عساكر مصر ، وما أدري ما كان السبب في عدم إخراجه مع  
قدرته على المال والرجال !! »<sup>(٤)</sup> . ثم يسترسل أبو المحاسن في وصف سوء حال

(1) Stevenson: op. cit, P.32.

(2) Raymond d'Agiles P 285 & Guillaume de Tyr P. P.  
3 08-309.

(3) Albert d'Aix, P. P, 458 & Gesta Francorum P. 193.

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤٧ .

الصلبيين عندما زحفوا على الشام ، وكيف أن المسلمين في العراق والشام حاولوا صدّهم ، « كل ذلك وعساكر مصر لم تهباً للخروج »<sup>(١)</sup> .

والحقيقة هي أن الفاطميين لم يفهموا الحركة الصليبية على حقيقتها — كما سبق أن أشرنا — وانتهزوا فرصة ما حلّ بالسلاجقة في شمال الشام ليستردوا فلسطين وبيت المقدس ؛ ظناً منهم أنه بات من الميسور تحقيق مكاسب سريعة على حساب السلاجقة والبيزنطيين والصلبيين جميعاً . ولأقلّ لإثبات صحة هذا الرأي من إلقاء نظرة عامة سريعة على التطورات التي مرت بها فلسطين قبيل وصول الصليبيين مباشرة إلى بيت المقدس .<sup>(٢)</sup>

ذلك أننا رأينا كيف استطاع الأتابك أئمز بن أبق أن يستولى على بيت المقدس باسم السلطان ألب أرسلان من الفاطميين سنة ١٠٧١ ، ومن ثمّ ظلّ أئمز هذا يحكم فلسطين منذ تلك السنة حتى سنة ١٠٧٩ ، عندما آلت فلسطين إلى تنش الذي عين أحد رجاله التركان — وهو أرتق بن أكسب مؤسس بيت الأراتقة — حاكماً على بيت المقدس . وعندما وفاة أرتق هذا سنة ١٠٩١ حلّ محله ابنه سكران تحت سيادة تنش ثم تحت سيادة ابنه دقاق بن تنش ملك دمشق<sup>(٣)</sup> .

على أن الفاطميين لم يستطيعوا أن يسكتوا مطلقاً عن ضياع بيت المقدس من أيديهم ؛ وكذلك رحبوا بتقدم الصليبيين في منطقة الشرق الأدنى على حساب الأتراك ؛ ووجدوا في ذلك فرصة طيبة لاسترداد حقوقهم الضائعة في فلسطين . بل إن المؤرخ ابن الأثير لم يتردد في اتهام الفاطميين بأنهم هم الذين دعوا الفرنجة

(١) المرجع السابق ج ٥ ص ١٤٨ .

(٢) للوقوف على حقيقة موقف الدولة الفاطمية من الحركة الصليبية ، انظر :  
سميد عبد الفتاح عاشور : شخصية الدولة الفاطمية في الحركة الصليبية (بحث نشر  
في مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد ١٦ ، ١٩٦٩) .

(٣) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

إلى بلاد الشام ليساعدونهم ضد الأتراك السلاجقة<sup>(١)</sup>. وبعبارة أخرى فإن الفاطميين لم يروا في الانتصارات التي أحرزها الصليبيون في صور ليوم وأنطاكية كارثة عامة حلت بالمسلمين ، وإنما وجدوا فيها أمنية عزيزة هي تخليص الشرق الأدنى من سيطرة الأتراك السنيين الذين سادوه قرابة نصف قرن من الزمان ، استثاروا فيها كراهية العرب المسلمين جميعاً ، الشيعة والسنة سواء .

وهكذا أحس الفاطميون بالسعادة والغبطة في تلك اللحظة التي وجدوا نفوذ الأتراك قد انهار ، دون أن يستطيع رضوان ملك حلب أو دقاق ملك دمشق أو حتى السلطان بركياروق نفسه أن يمنع تقدمهم أو يقف في طريقهم . وربما اعتقد الفاطميون أن ساعة الانتقام من الأتراك قد أذرت ، الإنتقام للعنصر العربي بوجه عام ، والشيعة بوجه خاص<sup>(٢)</sup> . ولم يكذب محل الصليبيون بإقليم أنطاكية ، حتى أسرع الوزير الفاطمي الأفضل شاهنشاه — حاكم مصر الفعلي عندئذ (١٠٩٥-١١٢١) — إلى بذل كل جهد ممكن لعقد تحالف بين الفاطميين والصليبيين ضد العدو المشترك للطرفين ، وهم الأتراك السلاجقة ؛ ووصلت رسل الأفضل فعلاً إلى الصليبيين أمام أنطاكية أثناء حصارهم لها في أوائل سنة ١٠٩٨ . أما العرض الذي تقدم به الأفضل للصليبيين فكان واضحاً بسيطاً ، خلاصته أن يتعاون الطرفان في القضاء على السلاجقة ، ثم تقسم الغنيمة بعد ذلك بينهما بحيث يكون القسم الشمالى (سوريا) للصليبيين ، والقسم الجنوبي (فلسطين) للفاطميين<sup>(٣)</sup> . وليس أدل من هذا العرض على جهل الفاطميين بحقيقة الحركة الصليبية وعدم إدراكهم أن الصليبيين لم يتركوا بلادهم في غرب أوروبا ويتحملوا ما حملوه في الشرق إلا لاستخلاص

---

(١) «وقيل: إن أصحاب مصر من البلويين لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنها واستيلائها على بلاد الشام إلى غزة، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم من دخول الأقيسيس (أتسز) إلى مصر وحصرها، خافوا فأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليلكوها ويكونوا بينهم وبين المسلمين !»  
( ابن الاثير : السكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٠ هـ ) .

(2) Grousset ; Hist, des Croisades I, P. P. 144-145.

(3) Setton ; op. cit ; I, P. 316.

الأراضي المقدسة في فلسطين . ففلسطين بوجه عام وبيت المقدس بوجه خاص هما الهدف الأول الرئيسي للصليبيين . هذا وإن كان الصليبيون قد أظهروا مهارة سياسية ملحوظة حتى ذلك الوقت تجاه الفاطميين ، فاخترتوا أن يتركوهم على عمامهم ولم يفصحوا لهم عن نواياهم تجاه فلسطين، بل أرسل الصليبيون سفارة إلى القاهرة — ردا على سفارة الأفضل — تؤكد التعاون بين الطرفين للقضاء على العدو المشترك<sup>(١)</sup>.

على أن الوزير الأفضل لم يشأ أن ينتظر وصول الصليبيين إلى فلسطين، وإنما اختار أن يعمل فوراً . وكان الأفضل قد استولى على مدينة صور « بالسيف » في ربيع سنة ١٠٩٧ من الأراتقة ، ولكنه لم يحاول أن يهاجم بيت المقدس عندئذ وترك ذلك للوقت المناسب<sup>(٢)</sup>. ولم يلبث أن حان ذلك الوقت المناسب في صيف سنة ١٠٩٨ والصليبيون مازالوا متعثرين في منطقة أنطاكية ؛ فخرج الأفضل على رأس جيوشه ، واستطاع أن يسترد بيت المقدس من سكان ( ستمان ) الأرتقي وأخيه إيلغازي في ٢٦ أغسطس سنة ١٠٩٨<sup>(٣)</sup>. وقد « أحسن الأفضل إلى ستمان وإيلغازي ومن معهما وأجزل لها العطاء » ، كما سمح لها الأفضل بالخروج من بيت المقدس ، فأتجه الأخوان نحو دمشق ومنها إلى الجزيرة حيث استطاعا أن يؤسسا إمارة لبني أرتق هناك<sup>(٤)</sup> أما فلسطين فقد غدت جزءاً من الدولة الفاطمية ، ولم تسكد تحل سنة ١٠٩٨ إلا وكانت حدود تلك الدولة قد امتدت إلى نهر الكلب شمالا ومجرى الأردن شرقاً<sup>(٥)</sup>.

(١) Michaud ; op. cit., I, P 362.

(٢) ابن ميسر : تاريخ مصر ، حوادث سنة ٤٩٠ هـ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

(٤) هـ فساروا إلى دمشق ثم عبر الفرات، فأقام ستمان ببلد الرها وسار إيلغازي

إلى المراق « ( ابن الأثير : الكامل ؛ سنة ٤٩٢ هـ ) .

انظر كذلك ابن ميسر ، حوادث سنة ٤٩١ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق

ص ١٣٥ - ١٣٨

(٥) Setton ; op. cit; vol; I; P. 316.

ولكن إذا كان الفاطميون قد ظنوا أنهم استفادوا من حالة الفوضى التي  
أمسى فيها العالم الإسلامي نتيجة لوصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق ، فإن  
الحقيقة المرة لم تلبث أن صدمتهم . فالصليبيون والفاطميون تحالفوا ضد العدو  
المشترك وهم الأتراك ، ولكن باستيلاء الصليبيين على أنطاكية والفاطميين على  
بيت المقدس ، غدا الخليقان وجهاً لوجه ، ولا مناص من حدوث صدام بينهما .  
وعندما أدرك الأفضل أن بيت المقدس هو الهدف الأساسي للصليبيين أرسل إليهم  
سفارة وصلتهم قرب طرابلس ، تحمل الهدايا النفيسة والأموال الضخمة لكل  
واحد من زعماء الصليبيين ؛ كما تحمل لهم عرضاً من الخليفة الفاطمي خلاصته أن  
يسهل لهم مهمة الحج على شكل مجموعات من مائتي أو ثلاثمائة حاج بشرط  
ألا يكونوا مسلحين<sup>(١)</sup> . ولكن الصليبيين ردوا عليه بأنهم سيتمكنون من الحج  
فعلا ، ولكن بمعونة الله . وكان معنى ذلك بداية الحرب بين الصليبيين  
والفاطميين من أجل بيت المقدس<sup>(٢)</sup> .

### سقوط بيت المقدس :

بسط الفاطميون سيادتهم على فلسطين وساحل الشام جنوبي نهر الكلب ؛  
ولكنهم — فيما يبدو — لم يتركوا قوات كافية لتدعيم نفوذهم في تلك الجهات والدفاع  
عنها ؛ وذلك باستثناء حامية بيت المقدس من ناحية وبعض المراکز الساحلية  
التي ظل الأسطول الفاطمي قادراً على إمدادها بالرجال والزاد من ناحية أخرى<sup>(٣)</sup> .  
وكانت هذه المراکز الأخيرة أول ما تعرض لهجوم الصليبيين بحكم مرورهم بها بعد  
أن غادروا طرابلس في طريقهم إلى بيت المقدس . وهنا نجد معظم تلك المواضع

(1) Michaud ; op. cit, I, P. P. 362-363.

(2) Guillaume de Tyr, I, P, P. 305-306.

(3) Runciman, op. cit, I. P. 275.

الساحلية تحاول أن تحذو حذو طرابلس نفسها ، فتحصل على مسالة الصليبيين بأحسن الشروط الممكنة . من ذلك أن أهل بيروت عندما أحسوا باقتراب الصليبيين منهم ، عرضوا عليهم إمدادهم بالتموين فضلا عن تقديم مبلغ كبير من المال ، كل ذلك مقابل تعهد الصليبيين بعدم الاعتداء على البساتين ومزارع الكروم والغلال المملوكة للعرب (١). وأكثر من هذا فقد تعهد أهل بيروت بالدخول في طاعة الصليبيين والاعتراف بالتبعية لهم ، إذا هم نجحوا في احتلال بيت المقدس (٢). وهذا بعكس ما حدث عندما مر الصليبيون بصيدا ( ٢٠ مايو سنة ١٠٩٩ ) إذ اعتدت حامية صيدا على بعض الجند الصليبيين ، مما جعل هؤلاء يتلفون المزارع المجاورة ويعتدون على الضياع القريبة (٣) .

وبعد ذلك مر الصليبيون بصرفند وصور حيث انضم إليهم ( ٢٣ مايو سنة ١٠٩٩ ) بعض الفرسان النادمين من الرها وأنطاكية لمساعدتهم . وقد التزم الصليبيون طريق الساحل بعد صور، فمروا بعكا التي قام حاكمها بتموين الصليبيين، كما تعهد بالدخول في طاعتهم إذا استولوا على بيت المقدس (٤) . وهكذا مضى الصليبيون في تقدمهم فمروا بتيسارية في ٢٦ مايو، ثم بأرسوف بعد ذلك بتليل (٥). ولم يحاول الصليبيون بعد ذلك الاتجاه إلى يافا ، وإنما اختاروا أن يتركوا الطريق الساحلي ويشقوا سبيلهم داخل البلاد إلى بيت المقدس مباشرة . ومع ذلك فإن الصليبيين كانوا حريصين دائما على ألا ينقطع الطريق بينهم وبين البحر ، فاحتلوا

(1) Setton ; op. cit. P. 341.

(2) Albert d'Aix : P. 458.

3) Guillaume de Tyr. p 311.

(٤) تختلف رواية ابن الأثير عن ذلك ، إذ قال إن الصليبيين « حصروا عكا فلم يقدروا عليها » ( السكامل ، سنة ٤٩٢ هـ ) . والرواية الأولى هي التي أجمعت عليها المراجع الصليبية .

(5) Albert d'Aix p. 460.

الرملة التي هجرها أهلها وتركوا فيها حامية صغيرة (١). وعلى مقربة من الرملة كانت اللد وبها كنيسة القديس جرجس (جورج) التي أقامها البيزنطيون . فلما علم أهل تلك الناحية باقتراب الصليبيين أحرقوا الكنيسة ، ولكن الصليبيين رمموها ، وأقاموا أسقفا كاثوليكيا على إقليم اللد والرملة ، اتخذ كرسيه في كنيسة القديس جرجس (٢) .

وأهم ما حدث في تلك الفترة التي قضاها الصليبيون في الرملة ( أوائل يونية سنة ١٠٩٩ ) ، أنهم عقدوا مجلسا للحرب ، ناقشوا فيه عدة مسائل ، أهمها الرأي القائل بأن يبدأ الصليبيون بمهاجمة الفاطميين في مصر ، على أساس أن مفاتيح بيت المقدس موجودة فعلا في القاهرة ، وأنه إذا أراد الصليبيون أن ينعموا بحياة آمنة مستقرة في بيت المقدس ، فعليهم أن يؤمنوا أنفسهم بالاستيلاء على اللد (٣) وسنرى فيما بعد أن هذه الفكرة ظلت مسيطرة على عقول زعماء الحركة الصليبية طوال عصر الحروب الصليبية ، حتى وضعت موضع التنفيذ أكثر من مرة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر . ولكن من الواضح أن الظروف التي أحاطت بالصليبيين فعلا في نهاية القرن الحادى عشر لم تسمح مطلقا بتلك المغامرة ، لأن مملكة بيت المقدس لم تكن قد قامت بعد ، ولأن أقدام الصليبيين لم تكن قد ثبتت في فلسطين مثلا صار عليه الوضع في القرن الثالث عشر (٤) .

وكان أن تقرر الزحف على بيت المقدس مباشرة ، فترك الصليبيون الرملة في ٦ يونية سنة ١٠٩٩ . وفي الطريق التقوا ببعض المسيحيين الوافدين من

(1) Steven on : The Crusaders in the East, p' 33 .

ويقول أبو المحاسن : إن الصليبيين أخذوا الرملة « وقت إدراك الغلة » أى وقت الحصاد .

( النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٥٠ ) .

(2) Gesta Francorum; p. 193 & Guilaume de Tyr, p. 313.

(3) Raymond d'Agiles, p, 299

(4) Albert d'Aix, p. 292.



بيت لحم ، وهؤلاء استحثوا جودفرى بوايون على الإسراع إلى بيت المقدس ، لأن الفاطميين يتوعدون المسيحيين ويتأهبون للثأر منهم ، فضلا عن أنهم استحضروا عمالا من مصر لتقوية الاستحكامات في بيت المقدس (١) . لذلك أرسل جودفرى فرقة من الفرسان بقيادة تنكرد إلى بيت لحم ، حيث استقبلهم المسيحيون على اختلاف مذاهبهم استقبالا حافلا ، مهللين بأن ساعة الخلاص قد حانت ، وأنهم جميعا أتباع المسيح ورعاياه ، لافرق بين كاثوليك وأرثوذكس وسريان (٢) . وبعد ذلك غادر تنكرد بيت لحم للملاقة ببقية الجيش الصليبي ، بحيث لم يحل يوم ٧ يونيه ، إلا وكان الصليبيون جميعا أمام أسوار بيت المقدس . وهنا أفاض المؤرخون الصليبيون في وصف مشاعر الصليبيين وأحاسيسهم عندما وجدوا أنفسهم أمام تلك المدينة المقدسة ، وما أثارته رؤياها في نفوسهم من ذكريات حبيبة إلى قلوبهم (٣) .

وفي تلك الأثناء كان افتخار الدولة — حاكم بيت المقدس من قبل الوزير الأفضل (٤) — قد اتخذ كافة الاستعدادات لمواجهة الصليبيين ، فسمم الآبار ، وقطع موارد الماء وأخفى المواشى (٥) ، وطرد جميع من بالمدينة من المسيحيين ، فضلا عن اهتمامه بتقوية التحصينات والتأكد من سلامة الأسوار ، معتمدا في الدفاع عن بيت المقدس على حامية كبيرة من الجنود المصريين والسودان (٦) .

ولم يكفد الصليبيون يشرعون في حصار بيت المقدس في ٧ يونيه سنة ١٠٩٩ ،

(1) Ibid.

(2) Foucher de Chartres (Hist. Occid. III), pp. 354-355.

(3) Guillaume de Tyr, p. 318.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ ، أبو الحسن : النجوم ج ٥ ،

ص ١٤٨ .

(5) Gesta Francorum, p.199, & Raymond d'Agiles p. 293-294.

(6) Foucher de Chartres (Hist. Occid) III, p. 359.

(١٦ م — الحلقة)

حتى أخذوا يهاجمون المدينة معتمدين على عدد كبير من آلات الحصار والهدم<sup>(١)</sup>. وفي حوالى منتصف يونية وصلت ميناء يافا بعض السفن الجنوية التي استطاعت الاستيلاء على المدينة في سهولة بعد أن هجرها أهلها من المسلمين عندما علموا باقتراب الصليبيين من أرسوف<sup>(٢)</sup>. ومن الثابت أن تلك السفن الجنوية أحضرت للصليبيين كثيراً مما كانوا يحتاجون إليه من عدد الحصار ومواد التعمين<sup>(٣)</sup>، الأمر الذى جعلهم أمام بيت المقدس يحرصون على تأمين الطريق بينهم وبين يافا ليتمكنوا من الحصول على المساعدات التى تجلبها لهم الأساطيل الغربية<sup>(٤)</sup>. ولاشك فى أن تلك المعونة البحرية كان لها أثرها الفعال فى تدعيم مركز الصليبيين، وفى إمدادهم بما احتاجوا إليه، مما مكّنهم من مواصلة الحصار والهجوم، فى الوقت الذى كانت الحامية الفاطمية محصورة داخل أسوار بيت المقدس ومقطوعة من العالم الخارجى تماماً<sup>(٥)</sup>.

وكان أن طال حصار الصليبيين لبيت المقدس واشتدت حرارة الصيف، مما أثار أعصابهم وجدد المنازعات فيما بينهم حول مصير بيت المقدس وملكية بعض المراكز الهامة الأخرى مثل بيت لحم. ولم تلبث أن انتشرت إشاعة قوية بين الصليبيين مؤداها أن جيشاً فاطمياً كبيراً قد خرج من مصر فى طريقه إلى بيت المقدس لتخليصها، مما جعل الصليبيين يفسكرون فى القيام بمحاولة قوية للاستيلاء على المدينة<sup>(٦)</sup>. وقد عمل الصليبيون برجين يطلان على سور المدينة، أحدهما بباب صهيون والآخر بباب العمود، فأحرق المسلمون البرج الأول وقتلوا من فيه. أما البرج الثانى فقد زحف به الصليبيون حتى ألصقوه بالسور « وحكموا به البلد وكشفوا من

(1) Gesta Francorum p. 195.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

(3) Heyd : Hist. du Commerce, I, p. p. 134-135. & Cam. Med. Hist, vol. 5. p. 268.

(4) Gesta Francorum, p. 199.

(5) Chalandon : Premiere Croisade. p. p. 269-271.

(6) Runciman : op. cit; I. p. p. 283-284.

كان عليه من المسلمين ، ثم رموا بالمجانيق والسهام رمية رجل واحد ؛ فانهزم المسلمون . . . »<sup>(١)</sup>

وقد حدث ذلك الهجوم الشامل الذى قام به الصليبيون على بيت المقدس ليلة ١٤ يوليو سنة ١٠٩٩ ، ثم اشتد الهجوم واتخذ طابعاً عنيفاً صباح اليوم التالى ، أى الجمعة ١٥ يوليو ، وهو اليوم الذى استطاعوا فيه اقتحام المدينة بعد حصار دام « نيفا وأربعين يوماً »<sup>(٢)</sup> . ولم يسع الجند المدافعون عن بيت المقدس من المسلمين سوى الفرار عندئذ للاحتباء بالمسجد الأقصى والدفاع عنه ، فتبعهم الصليبيون واقتحموا المسجد وأحدثوا بداخله مذبحاً وحشية رهيبية « حتى أن جنودنا كانوا يخوضون حتى سيقانهم فى دماء المسلمين ! ! »<sup>(٣)</sup>

وفى الحال أخذ جو دفرى بوايون يقسم العمل على الأمراء ، فأرسل بعضهم لفتح باب العمود حتى يدخل منه بقية الصليبيين إلى داخل المدينة ، فى حين قام البعض الآخر - مثل تنسكرد - باحتلال قبة الصخرة . والمعروف أن قبة الصخرة كانت غنية بما فيها من تحف ثمينة سال لها لعاب الصليبيين فنهبوها عن آخرها<sup>(٤)</sup> . على أن استيلاء الصليبيين على بيت المقدس لم يتم فى سهولة ودون مقاومة ، إذ صادف الصليبيون مقاومة شديدة فى القطاع الجنوبى . أما افتخار الدولة - حاكم المدينة الفاطمى - فقد احتفى مع طائفة من الجند بمحارب داود حيث « اعتصموا به وقتلوا فيه ثلاثة أيام » ، ولكنهم لم يلبثوا أن ألقوا السلاح بعد

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤٨ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

(3) *Gesta Francorum*, p. p. ٢03-205.

(٤) « أخذوا (الصليبيون) من عند الصخرة نيفاً وأربعين قنديلاً من الفضة ، وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم ، وأخذوا تنوراً من فضة وزنه أربعون رطلاً بالشامى ، وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلاً ، وغنموا منه ما لا يقع عليه الإحصاء ... »

ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ ، ابن الجوزى : مرآة الزمان سنة ٤٩٢ هـ .

أن « بذل لهم الفرنج الأمان »<sup>(١)</sup> . وفعلاً أطلق الصليبيون سراحهم وسمحوا لهم بالخروج إلى عسقلان ، فكانوا الفئة الوحيدة من مسلمي بيت المقدس التي نجت من وحشية الصليبيين<sup>(٢)</sup> .

ومع ذلك فإن إطلاق سراح حاكم بيت المقدس لم يكف لحو أثر الجريمة البشعة التي اقترفها الصليبيون في بيت المقدس ، وقتلهم آلاف الأبرياء من المسلمين بغير ذنب . ذلك أن الصليبيين لم يتركوا مسلماً في الطرقات أو البيوت أو المساجد إلا قتلوه واستباحوا دمه ، دون أن يفرقوا بين رجل وامرأة وطفل . ولم يرع الصليبيون حرمة المسجد الأقصى فأجهزوا على كل من احتفى به من المسلمين وعددهم أكثر من سبعين ألفاً « منهم جماعة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ، ممن فارق الأوطان وجاوروا بذلك الموضع الشريف » ومهما يكن في هذا الرقم الذي ذكره المؤرخون من مبالغة ، فإن جميع الدلائل تشير إلى وحشية الصليبيين وعظم الجرم الذي اقترفوه في بيت المقدس<sup>(٣)</sup> .

ولم يحاول المؤرخون الصليبيون أنفسهم إنكار الحقيقة ، فذكر وليم الصوري أن بيت المقدس شهد عند دخول الصليبيين مذبحه رهيباً حتى أصبح البلد « مخاضة واسعة من دماء المسلمين أثارت خوف الفزاة واشتمت زاهم »<sup>(٤)</sup> . كذلك

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

(٢) المرجع السابق & p. 205. Gesta Francorum .

(٣) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

(٤) لم يذكر هذا الرقم من ضحايا المسلمين المؤرخون المسلمون - مثل ابن الأثير -

فحسب ، بل ذكره أيضاً المؤرخون المسيحيون الشرقيون مثل ابن العبري اللطفي الذي ذكر بالنص الواحد « ولبت الفرنج في البلد أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين ، وقتل بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً » (ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٧) .

كذلك ذكر متى الرهاوي أن عدد من قتلهم الصليبيون من المسلمين زاد على خمسة وستين ألفاً .  
(Doc. Arm, I, p, 45)

5) Guillaume de Tyr, I, p. 354.

ذكر مؤرخ صليبي حضر تلك الأحداث أنه عندما زار الحرم الشريف غداة المذبحة الرهيبة التي أحدثها الصليبيون ؛ لم يستطع أن يشق طريقه وسط أشلاء المسلمين إلا في صعوبة بالغة ، وأن دماء القتلى بلغت ركبتيه<sup>(١)</sup> . ولم يكن اليهود أحسن حالا من المسلمين ، إذ « جمعوا اليهود في الكنيسة وأحرقوها عليهم »<sup>(٢)</sup> .

ولعل هذا مما دفع بعض المؤرخين الأوربيين والمحدثين إلى الاعتراف بأن مذبحة يوليو سنة ١٠٩٩ كانت لطخة عار في تاريخ الحملة الصليبية الأولى<sup>(٣)</sup> . وإذا كان المسلمون قد تطرفوا أحيانا - فيما بعد - في معاملة الصليبيين ، فإن هذا التطرف لم يكن إلا رد فعل لمذبحة بيت المقدس سنة ١٠٩٩ ، وهي المذبحة التي ظلت تثير الأذى في قلوب المسلمين حتى طرد الصليبيين نهائيا من الشام<sup>(٤)</sup> .

أما الدولة الفاطمية ، فقد تلقت تلك الأخبار في برود ، وظلت تغض في سباتها العميق . وكذلك بغداد حيث اتجه قاضي دمشق زين الدين أبو سعد الهروي ليخبر الخليفة العباسي بالكارثة التي حلت بالمسلمين في الشام . وهناك في بغداد اجتمع « المستنفرون » من دمشق ؛ « وحضروا في الديوان ( الخلفي ) وقطعوا شعورهم واستغاثوا وبكوا ، وقام الناضي في الديوان ، وأورد كلاما أبكى الحاضرين<sup>(٥)</sup> » . كل ذلك والخلافة العباسية لم تحرك ساكنا . وكذلك السلطان

(1) Raymond d'Agiles, p. 300.

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٧ .

أبو المحاسن : البجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٥٠ .

Michaud : op, cit, I, p. p. 4 4 425.

(3) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 161 &

Runciman : op, cit. I p. 278.

(4) Runciman : op cit, I, p. 287.

(٥) ابن الجوزي : مرآة الزمان سنة ٤٩٢ هـ .

بركياروق « ووقع التقاعد » (١).

والواقع أنه إذا كان ثمة خطر سيهدد الصليبيين فيما بعد ، فإن السحب التي ،  
انذرت بذلك الخطر لم تتجمع إلا بعد أن نجح الصليبيون في تثبيت أقدامهم  
في بلاد الشام .

---

(١) وقد قال أبو الظفر الأيوودي شعرأفي عدم أكثراث الخلافة العباسية، واعتقاد  
المسلمين عندئذ على البكاء والنحيب :

وشر سلاح المرء دمع يفيضه	إذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فايها بني الإسلام إن وراءكم	وقائسح تلحق الدرى بالمناسم
وكيف تنام العين ملء جفونها	على هفسوات أيقظت كل نائم
وإخوانكم بالشام أضحى مقيلهم	ظهور المذاكي أو بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وأنتم	تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
أرى أمتي لا يشرعون إلى العدى	رماحهم والدين واهى الدعائم
ويجتنبون النار خوفاً من الردى	ولا يحسبون العار ضربة لازم
أترضى صناديد الأعراب بالأذى	وينفضى على ذل كجاة الأعاجم

## الفصل الثاني

### تنظيم الفتح

بيت المقدس غمارة اسرة بطر الصليبيين عليها :

أثار نجاح الحملة الصليبية الأولى في تحقيق أهدافها الروحية والحربية مشكلة أساسية ، هي تحديد وضع البلاد التي فتحتها الصليبيون ، وطريقة تنظيمها ، وكيفية بناء دولة غربية على أرض شرقية ، تتألف من تلك العناصر المشتتة المتباينة التي جرفها تيار الدعوة الصليبية من غرب أوروبا ليلقى بها جميعا في صعيد واحد (1) . حقيقة إن الحملة الصليبية جاءت وليدة المصادفات التاريخية ، كما أن نجاحها أيضاً تم نتيجة المصادفات التاريخية ، إذ نبئت الدعوة الصليبية في الوقت الذي ضعفت الدولة البيزنطية وانحلت قوى الأتراك السلاجقة . ولكن كان لزاما على الصليبيين الأوائل بعد ما حققوه من نجاح في الشام أن يقدموا سياسة متكاملة بعيدة الهدف ، تخلق دولة ثابتة في بيت المقدس من تلك العناصر المتباينة التي تألفت منها الحملة الصليبية الأولى . وإذا كان من الصعب أن يتم هذا العمل بسهولة أو دفعة واحدة أو على يد فرد واحد ؛ فإن التاريخ يشهد على أن الفضل الأول في وضع أساس ذلك البناء يرجع بدون شك إلى بلدوين الأول ( ١١٠٠ — ١١١٨ ) . أما الفترة الواقعة بين سقوط بيت المقدس في أيدي الصليبيين سنة ١٠٩٩ وقيام بلدوين الأول في حكمها سنة ١١٠٠ ، فكانت فترة انتقال ، أو على الأصح فترة توفيق بين الميول الانفصالية للأمرء ورجال الدين من جهة والأوضاع

(1) Richard . Le Royaume Latin de Jerusalem p. p. 28-29 .

التي تتطلبها قيام ملكية مدعمة النفوذ والسلطان من جهة أخرى . وفي فترة الانتقال هذه ، قام جودفري بوايون بالوصاية على بيت المقدس<sup>(١)</sup> .

وكانت المشكلة الداخلية الكبرى التي واجهت الصليبيين بعد أن انهبوا من ذبح جميع من في بيت المقدس من المسلمين ، هي عدم وجود زعيم أو رئيس أو قائد لهم يعترفون جميعاً بزعامته ، ويعهدون إليه بتنظيم جهودهم فضلاً عن تنظيم البلاد التي فتحوها<sup>(٢)</sup> . وهنا أحس الصليبيون بعظم الخسارة التي أصابتهم بوفاة أدهار المندوب البابوي ، وهو الذي كان حتى وفاته يقوم بدور الزعيم الروحي للصليبيين ، فضلاً عن أنه كان يؤلف بين أمراء الصليبيين تحت زعامته . ولكن وفاة أدهار في أنطاكية في أول أغسطس سنة ١٠٩٨ - كما مر بنا - أدت إلى افتتار الحملة الصليبية الأولى إلى زعامة روحية ، كما أصبحت تلك الحملة من - الناحية السياسية - لانهدو مجرد حلف بين الأمراء يتصف بالفوضى وسوء النظام لعدم وجود رأس تزعم الحلف وتنسق بين جهود أعضائه وآرائهم<sup>(٣)</sup> . ولم تلبث أن ظهرت الاتجاهات الشخصية قوية عند الأمراء ، فأخذ بعضهم يتخلى عن موكب الحملة ويتوقف في الطريق لتحقيق كسب خاص ، مثلما فعل بلدوين البولوني في الرها وبوهيموند في أنطاكية ، وما أراد أن يفعله جودفري بوايون في جبلة ، وريموند في عرقه<sup>(٤)</sup> .

وأخيراً لم يبق مع الحملة عند سقوط بيت المقدس سوى جودفري بوايون ، لأن ريموند منعه من التوقف في جبلة ، وريموند لأن جودفري بدوره منعه من التوقف في عرقه وطرابلس ؛ فضلاً عن تنكرد وروبرت دي فلاندرز وروبرت

(1) Grousset · Hist. des Croisades · I, pp. 164-165.

(2) Runciman · op. cit, I, p. 289.

(3) Runciman : op. cit, I, p. 289.

(4) Chalandon : Premiere Croisade, p. 278-279,



النورمانى . وهؤلاء الأمراء هم الذين دخلوا كنيسة التيامة فى بيت المقدس مساء يوم ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩ وأيديهم ملطخة بدماء ضحاياهم من أهل المدينة الأبرياء ليبتهلوا إلى الله ويطلبون حسن ثواب الدنيا والآخرة<sup>(١)</sup> .

### موردرى والوصاية على بيت المقدس :

ثم كان أن اجتمع زعماء الحملة الصليبية فى ١٧ يولية لتنظيم فتحهم الجديد. وهنا بدأت المشكلة الأولى وهي هل يكون زعيم الدولة الجديدة من العلمانين أو الكنسين؟ ومن الواضح أن الكنيسة الغربية كان لها سند واضح فى المطالبة بالإشراف على بيت المقدس، لأن البابا أوربان الثانى هو صاحب الفضل فى الدعوة للحرب الصليبية<sup>(٢)</sup>. ولو كان الزعيم الروحى للحملة الصليبية الأولى — وهو المندوب أدهار — حياً ، لأمكن أن يتولى الزعامة العليا فى تلك الدولة الجديدة ، بحكم مكانته وشخصيته وأترانه من جهة ؛ وما قام به من دور بارع فى توجيه الأمراء المشتركين فى الحملة وحفظ التوازن بينهم من جهة أخرى<sup>(٣)</sup> . وشاءت الظروف أن يكون كرسى بيت المقدس خالياً عند سقوطها فى أيدي الصليبيين، لأن بطرق المدينة الأرثوذكسى — سيمون (سمان أو شمعون) — مات فى قبرس قبل استيلاء الصليبيين على بيت المقدس، وبذلك أصبحت يد الصليبيين مطلقة فى تعيين أحد رجال الدين الكاثوليك بطرقاً على بيت المقدس<sup>(٤)</sup> .

(1) Guillaume de Try, I, p. 357.

(2) Michaud op. cit, I, 428 429,

وقد توفى البابا أوربان الثانى فى ٢٩ يولية سنة ١٠٩٩ ، أى بعد سقوط بيت المقدس فى أيدي الصليبيين بأسبوعين ، وذلك قبل أن يسمع الخبر الذى طالما تمناه منذ دعا للحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٥ .

(3) Setten : op. cit, I, p, 338.

(4) Albert d'Aix (Hist. Occid, VI); pp 489,

على أنه من الواضح أن فكرة قيام حكومة دينية في بيت المقدس تخضع لإشراف الكنيسة وهيمنة رجال الدين وتوجيههم ، كانت فكرة خاطئة ، ولا يمكن تنفيذها ، وإذا نفذت كان لا يمكن لها البقاء . ذلك أن قيام دولة لاتينية من المسيحيين الغربيين في بقعة بمثابة القلب من العالم الإسلامي ، أمر يحتاج إلى قيادة حربية علمانية للدفاع عن هذه الدولة ضد أعدائها المحيطين بها . ولذلك سرعان ما استبعد الصليبيون من حسابهم هذه الفكرة ، لا سيما وأنه لم يكن صاحبهم الزعيم الديني الرشيد الذي يصلح لتلك الزعامة<sup>(١)</sup> .

وكان أن اتجهت الآراء نحو اختيار أحد الأمراء العلمانيين لينظم أمور الفتح الجديد . وهنا بدأت مشكلة أخرى ، هي أي الأمراء يفضل الآخريين ليكون زعيماً للدولة بيت المقدس الصليبية ؟ إن تمجّل روبرت النورمانى وروبرت دى فلاندرز العودة إلى غرب أوروبا ، جعل الأمر محصوراً بين اثنين ، هما ريموند وجودفري<sup>(٢)</sup> . وليس هناك من شك في أن ريموند كان أوفر ثروة وأكثر قوة من منافسه ، هذا فضلاً عن قوة شخصيته ومروته السياسية وبعد نظره الذي جعله يؤثر التحالف مع الدولة البيزنطية<sup>(٣)</sup> . على أن قوة هذا الأمير من ناحية وعدم حب الأمراء والفرسان له من ناحية أخرى ، جعلت الأمراء يتخوفون من اختياره . هذا إلى أن سياسته تجاه الإمبراطور ألكسيوس كومنين ، وإفراطه في التودد إليه والتحالف معه أثارت استياء كثير من الصليبيين ؛ حتى فرسانه ورجال جيشه . ومع ذلك فإن بعض المؤرخين الصليبيين يؤكدون أن تاج بيت المقدس عرض عليه ، ولكنه رفضه<sup>(٤)</sup> . وهكذا لم يبق هناك سوى جودفري

(1) Grousset : Hist. des Croisades I; pp. 156-167.

(2) Arcier : The Crusades. p. 93.

(3) Runciman , op. cit. I. p. 291.

(4) Raymond d'Agiles, p. 301 & Albert d'Aix, p. 485.

دى بوايون الذى رفض هو الآخر هذا الشرف فى أول الأمر ؛ ولكن بقية الزعماء أجبروه على قبول حكم بيت المقدس فى ٢٢ يوليو سنة ١٠٩٩<sup>(١)</sup> .

ولم تكن مهمة جودفرى بوايون بالمهمة السهلة الهينة ، إذ كان عليه أن يعانى الكثير بسبب عدم إخلاص ريموند بوجه خاص . هذا إلى أن جودفرى لم تكن له من المؤهلات الموروثة أو المكتسبة ما يجعله يمتاز عن غيره من الأمراء الصليبيين ، بل على العكس لقد اختاره الأمراء ورجال الدين لما لمسوه فى أخلاقه من لين وسهولة تمكنهم من تحقيق مآربهم دون أن يخشوا خطرا من جانبه .

ومهما يكن من أمر ، فالملاحظ أن جودفرى لم يحمل لقب ملك بيت المقدس . وقد جرت الأساطير بأن التاج عرض عليه ولكنه « رفض أن يرتدى تاجا من الذهب فى المكان الذى ارتدى المسيح تاجا من الشوك »<sup>(٢)</sup> لذلك أكتفى جودفرى بأخذ لقب متواضع هو « حامي بيت المقدس *Advocatus Sancti Sepulchri*<sup>(٣)</sup> » ومن الواضح أن اختيار جودفرى هذا اللقب جاء اعترافا منه بأن الدولة الجديدة ليست لها الصفة السياسية البحتة ، وأن لها صفتها الدينية التى تجعل للكنيسة نوعا من الإشراف عليها . وهكذا أدى تواضع جودفرى إلى تأخير قيام ملكية قوية منظمة تستطيع بيت المقدس فى ظلها أن تعيش وسط الأخطار الجسيمة المحيطة بها<sup>(٤)</sup> .

(1) Iorga : Hist. des Croisades, p. 67.

(2) Michaud : op. cit, I, p 436.

(3) Runciman op. cit, I pp. 292-293.

(4) Grousset : op. cit, I, p. 171.

### اختيار أرنولف مالكورن بطريرقا على بيت المقدس:

وكان أن أخذ رجال الدين في بيت المقدس يزدادون قوة أمام ذلك الحاكم الطيب، بعد ما مسوه فيه من لين العريكة . وعندما اجتمع رجال الكنيسة في أول أغسطس سنة ١٠٩٩ لاختيار بطرق لبيت المقدس ، وقع اختيارهم على أرنولف مالكورن<sup>(١)</sup> . وقد احتج أبناء بروفانس من الصليبيين على ذلك الاختيار ، وحاولوا تجريح أرنولف، والقول بأن انتخابه غير قانوني لعدم صلاحيته وسوء سلوكه أثناء زحف الصليبيين على بيت المقدس ؛ ولكن كل هذه الطعون لم تجد ، لاسميا وأن عدم اختيار ريموند حاكما أضعف من مكانة رجاله أبناء إقليم بروفانس<sup>(٢)</sup> .

على أن البطارق الجديد كان من جانبه معتدلا ، فلختر ألا يتحجم نفسه في مشا كل مع جودفري ، وإنما قصر نشاطه على المسائل الكنسية . وقد وجه كل اهتمامه إلى إضفاء صبغة لاتيانية على كرمى بيت المقدس ، فزود كنيسة القيامة بأجراس لإعلان مواعيد الصلاة — وهو أمر كان المسلمون قد حرموه على المسيحيين في بيت المقدس — ؛ واستبعد التساوسة الأرثوذكس من تلك الكنيسة ، مما أثار استياء أهل بيت المقدس من المسيحيين المحليين<sup>(٣)</sup> . وكان بعض التساوسة الأرثوذكس عند خروجهم من بيت المقدس أيام افتخار الدولة الفاطمية قد أخفوا صليب الصلبوت — أو الصليب الأعظم — الذى يقال إن المسيح عليه السلام قد صلب عليه ، ولكن أرنولف أجبرهم عند عودتهم على

(1) Richard : Le Royaume Latin, p. 93.

(2) Raymond d'Agiles, p. 302.

(3) Runciman, op. cit, I. p. 294.

إظهاره<sup>(١)</sup> . ولم يعد أمام الأرثوذكس في بيت المقدس سوى قبول ذلك الوضع الجديد بعد أن تفرق زعمائهم الدينيون، وأصبح من المستحيل عليهم تعيين بطرق لهم يستطيع الصمود أمام البطرق الكاثوليسكي الجديد<sup>(٢)</sup> .

---

(1) Raymond d'Agiles. p. 302.

(2) Michaud : op. cit. I, p. 438.

## الفصل الثالث

### إتمام غزو فلسطين

#### امتداد نابلس :

بعد أن استقرت الأمور للصليبيين في بيت المقدس على النحو الذي وضعناه ، صارت الخطوة التالية أمامهم هي الاستيلاء على بقية مدن فلسطين ، حيث لم يمتلكوا منها حتى ذلك الوقت سوى بيت المقدس وبيت لحم والمد والرملة ويافا<sup>(١)</sup> . ويبدو أن الصاميين لم يصادفوا صعوبات كبيرة في تلك المهمة ، لأن سقوط بيت المقدس أحدث موجة من الرعب في نفوس أهالي المدن والقرى المجاورة ، فضلا عن خلوتك المدن من وسائل الدفاع . وكان أن أسرع أهالي نابلس إلى الاستسلام ، وأرسلوا وفداً إلى الصليبيين يدعونهم لتسليم المدينة ، فتسلم تنكرد نابلس في غير صعوبة في أواخر يوليو سنة ١٠٩٩<sup>(٢)</sup> .

ولم يكف تنكرد يفرغ من تلك المهمة ، حتى تلقى رسالة عاجلة من جودفري بوايون في ٤ أغسطس - الذي كان في بيت المقدس - يطالب منه التوجه مباشرة صوب شاطئ البحر للتأكد من صحة الأخبار القائلة بأن حملة فاطمية وصلت من مصر إلى أرض فلسطين . لذلك أسرع تنكرد ومعه فرسانه إلى قيسارية ، ومنها اتجهوا جنوباً على امتداد الشاطئ حتى الرملة للبحث عن الحملة الفاطمية ، حتى عثروا على عدد كبير من الكشافين الفاطميين فيما بين يافا والرملة ، فقبضوا عليهم وعرفوا منهم أن جيشاً فاطمياً كبيراً على رأسه الوزير الأفضل في طريقه

(1) Grousset ; L'Empire du Levant, p. 197.

(2) Gesta Francorum p. 209 & Guibert de Nogent; p. 304.

فعلا إلى عسقلان لاسترداد بيت المقدس . وفي الحال أرسل تنكرد رسالة عاجلة إلى جودفري بوايون يطلب منه الحضور بسرعة ومعه كافة مقاتلي الصليبيين<sup>(١)</sup> .

موقعة عسقلان ١٢ أغسطس ١٠٩٩ :

والواقع أن الوزير الأفضل لم يكف عن الاستعداد لمقابلة الصليبيين منذ أن سمع بزحفهم على بيت المقدس، فجمع رجاله وخرج من مصر ليحول دون استيلائهم عليها ، ولكنه وصل عسقلان في ٤ أغسطس « وقد فات الأمر » ، أي بعد أن استولى عليها الصليبيون بعشرين يوما<sup>(٢)</sup> . وهكذا أصيب الأفضل بخيبة أمل كبيرة بعد أن كان يعتقد في وقت ما أن الصليبيين سيقنعون بالاستيلاء على شمال الشام ، ويحرضون على صداقة الفاطميين بوصفهم حلفائهم الطبيعيين ضد الأتراك السلاجقة . ولم يسع الأفضل عند وصوله عسقلان سوى أن يرسل « رسولا إلى الفرنج يوبخهم على ما فعلوه »<sup>(٣)</sup> .

ولكن يبدو أن الوزير الأفضل لم يكن قديراً في ميدان الحرب بتدراهمو معروف عنه من مهارة سياسية وإدارية ؛ إذ يروى صاحب مرآة الزمان أنه بعد وصوله إلى عسقلان أضع وقتاً ثميناً « ينتظر الأسطول في البحر والعرب »<sup>(٤)</sup> . وفي الوقت الذي كان الأفضل منتظراً في عسقلان اكتشف الصليبيون أمره فبادروا

(١) Gesta Francorum p. 209.

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٧ .

(٣) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٤٦٣ . (Rec. Hist, Orient III)

(٤) ابن الجوزي : مرآة الزمان ص ٥٢٠ (Rec Hist Orient III) &

وابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٧ .

وجدير بالذكر أن أبا المحاسن يقول : إن الأفضل جد في السير حتى وصل إلى القدس ثانياً يوم فتحه « فقصده الفرنج وقتلوه فلم يثبت لهم ودخل عسقلان بعد أن قتل من أصحابه عدد كبير » على أنه لا يوجد في بقية المراجع ما يؤكد رواية أبي المحاسن من أن الأفضل قصد بيت المقدس أولاً ثم ارتد عنها إلى عسقلان (أبو المحاسن النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤٩) .

بالمهجوم لأنه خير وسائل الدفاع<sup>(١)</sup>. ولم يلبث أن أسرع جودفري بوايون في الانضمام إلى تنكرد ، فخرج من بيت المقدس يوم ٩ أغسطس ومعه البطرق أرنولف وروبرت دى فلاندرز ، وقصدوا الرملة حيث تأكدوا من وصول الفاطميين إلى عسقلان . وبعد قليل لحق ببقية القوى الصليبية روبرت النورماندى وريموند الصنجيلى ومعهما رجالهما<sup>(٢)</sup>.

ولم يكد يجتمع شمل القوى الصليبية قرب الرملة في ١٠ أغسطس حتى أخذوا يرضفون جنوباً في اتجاه عسقلان حيث باغتوا القوات الفاطمية ، على قول ابن الأثير<sup>(٣)</sup> . وفي المعركة التي دارت بين الطرفين في ١٢ أغسطس سنة ١٠٩٩ حلت الهزيمة بالفاطميين وتشقت شملهم بعد قليل ، حتى أن بعضهم لم يجسد مفراً سوى البحر ، فألقوا بأنفسهم في اليم حيث غرقوا ؛ في حين احتفى البعض الآخر « بشجر الجميز ، وكان هناك كثيرا ، فأحرق الفرنج بعض الشجر حتى هلك من كان فيه » . أما الوزير الأفضل فقد هرب إلى عسقلان ومعه بعض رجاله ومنها ركبوا سفينة في البحر فارين إلى مصر . وهكذا « تمكنت سيوف الإفرنج من المسلمين ، فأتى القتل على الراجل والمطوعة وأهل البلد، وكانوا زهاء عشرة آلاف نفس ، ونهب العسكر »<sup>(٤)</sup>.

ومن الواضح أن النصر المعنوي والأدبي الذي حققه الصليبيون في عسقلان فاق بكثير الغنائم المادية التي غنموها<sup>(٥)</sup> فكما أن الهزيمة التي حلت بكربوغا على أيدي الصليبيين سنة ١٠٩٨ أخرجت السلاجقة من معركة الشام، فكذلك أدى

(1) Stevenson : op cit, I, p 35

(2) Gesta Francorum, p 117 & Guillaume de Tyr. p 380

(٣) ابن الأثير : السكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٧ .

ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٤٦٤ .

Gesta Francorum pp 217-219 & Albert d'Aix p p 497

(5) Cam Med Hist vol 5 p 297



انتصار الصليبيين في موقعة عسقلان إلى القضاء على هيبة الفاطميين بفلسطين<sup>١</sup>، فلم يجرؤوا بعد ذلك على مهاجمة الصليبيين، وقبعوا في مصر يشاهدون مدن فلسطين وهي تنساقط واحدة بعد أخرى في أيدي الغزاة. وبعبارة أخرى فقد أصبحت يد الصليبيين طليقة في فلسطين منذ انتصارهم في عسقلان، مثلما صارت يدهم طليقة في شمال الشام عقب انتصارهم على كربوغا<sup>(١)</sup>.

وكان أن بدأ جردفري بوايون بحصار عسقلان نفسها، فوجد أهل عسقلان أنفسهم أمام الأمر الواقع، وأرادوا الإستسلام فوراً دون مقاومة، لولا أنهم خشوا أن يحل بهم ما حل بأهل بيت المقدس في الحرم الشريف من قتل وذبح. وكان أهل عسقلان قد لسوا ما فعله ريموند الصنجيلي (Saint - Gilles) مع اقتنار الدولة - القائد الفاطمي الذي احتسى مع فريق من رجاله في محراب داود ساعة سقوط بيت المقدس -، إذ آمنهم ريموند حتى خرجوا سالمين إلى عسقلان<sup>(٢)</sup>. لذلك وثق أهل عسقلان في ريموند دون غيره من زعماء الصليبيين، وأرسلوا إليه يطلبون منه تسلم بلدهم بشرط أن يؤمنهم على أرواحهم وحرّياتهم<sup>(٣)</sup>. وعندما قبل ريموند الصنجيلي الدعوة، خشى جودفري أن ياجأ ريموند إلى إنشاء إمارة لنفسه على شاطئ فلسطين في مواجهة بيت المقدس، مما يحرم دولة بيت المقدس الناشئة من شواطئها الطبيعية على البحر، وبالتالي يقطع الصلة بينها وبين الغرب. لذلك طلب جودفري من ريموند أن يتخلى عن عسقلان لأنها ستكون تابعة لبيت المقدس، فاستاء ريموند الصنجيلي وفضل أن تبقى عسقلان في أيدي المساهين عن أن يستولى عليها جودفري. وهكذا انسحب ريموند، وحرص بقية الأمراء على الانسحاب معه، بعد أن أوعز إلى أهل عسقلان

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 175.

(2) Setton : op. cit; I, p. p. 337.

(3) Runciman , op. cit; I, p. 297.

بالثبات والمقاومة . أما جودفرى فقد وجد نفسه وحيداً أمام عسقلان التي اشتد أهلها في المقاومة ، فاضطر إلى أن ينسحب بدوره من أمامها<sup>(١)</sup> .

وفي تلك الأثناء انصرف ريموند الصنجيلى نحو أرسوف محاولاً الاستيلاء عليها عن طريق تأمين أهلها ، ولكن جودفرى ظل واقفاً له بالمرصاد ، فلحق به وأصر على أن أرسوف هي الأخرى تتبع بيت المقدس . وللمرة الثانية انسحب ريموند الصنجيلى نحو الشمال بعد أن حرض أهل أرسوف على المقاومة وعدم الاستسلام لجودفرى<sup>(٢)</sup> . ومن هذا يتضح كيف أدى انقسام الصليبيين على أنفسهم ، والمنافسة بين زعمائهم ، إلى عدم تمسكهم عندئذ من الاستيلاء على موانئ فلسطين ، بل إن بلداً مثل عسقلان كان من الممكن أن يستولى عليه الصليبيون في سهولة سنة ١٠٩٩ لم يستطيعوا امتلاكه بعد ذلك إلا سنة ١١٥٣ !! . وطوال تلك السنوات ظلت عسقلان قاعدة للقوات المصرية ، تخرج منها الحملات للغارة على بلاد الصليبيين القريبة . وربما كان المسئول عن كل ذلك هو تقاعس الصليبيين عن إقامة ملكية صليبية مهمة الجانب في بيت المقدس ، بطبيعتها للجميع ويأترون بأمرها<sup>(٣)</sup> .

ولم يلبث جودفرى أن ارتاح من منافسة بقية الأمراء المناوئين بعد أن أبحر كثير من الصليبيين عائدين إلى الغرب ، معتقدين أنهم أوفوا بتسليمهم الصليبي وأن مهمتهم انتهت بالاستيلاء على بيت المقدس<sup>(٤)</sup> . وعلى رأس هؤلاء كان روبرت النورمانى وروبرت دى فلاندرز ، ومعهما جميع أتباعهما . أما الموانئ الهامة في أواسط بلاد الشام — وهى عكا وصور وصيدا وبيروت وطرابلس —

(1) Raoul de Caen (Hist. Occid, III). p. 703.

ويذكر ابن الأثير أن الصليبيين لم يتخلوا عندئذ عن عسقلان إلا بعد أن « بذل لهم أهلها قطيعة اثني عشر ألف دينار وقيل عشرين ألف دينار سم عادوا إلى القدس والله أعلم » .

(2) Albert d'Aix, p. 498.

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 180.

(4) Stevenson : op. cit, p. 36.

قتد بقيت في أيدي المسلمين ، إذ سيطر الفاطميون أو أتباعهم على الموانئ الأربعة الأولى ، في حين كانت طرابلس في قبضة بني عمار . ومع ذلك فإنه يبدو أن موقعة عسقلان كان لها رد فعل قوى ، بحيث لم تتردد السلطات الإسلامية الحاكمة في تلك الموانئ في تقديم كافة التسهيلات للصليبيين ليحصلوا على ما يلزمهم من مواد تموينية ، وذلك قبل أن يستولى الصليبيون على جبلة واللاذقية<sup>(١)</sup> .

أما عن ريموند الصنجيلي ، فبعد أن وصل إلى اللاذقية ، اختار أن يبقى في شمال الشام ليعمل — بمساعدة حلفائه البيزنطيين — على الحد من قوة بوهيموند أمير أنطاكية . ومهما يكن من أمر ، فإنه لا يخفى علينا أن عودة كثير من الصليبيين إلى الغرب الأوربي في تلك المرحلة — أي عقب سقوط بيت المقدس مباشرة — ترك الدولة الجديدة التي ولدت في الشرق في حاجة ماسة إلى الرجال والمقاتلين ، في الوقت الذي أحاط بها أعداؤها من كل جانب<sup>(٢)</sup> .

### تذكروا اهتمام إقليم الجليل :

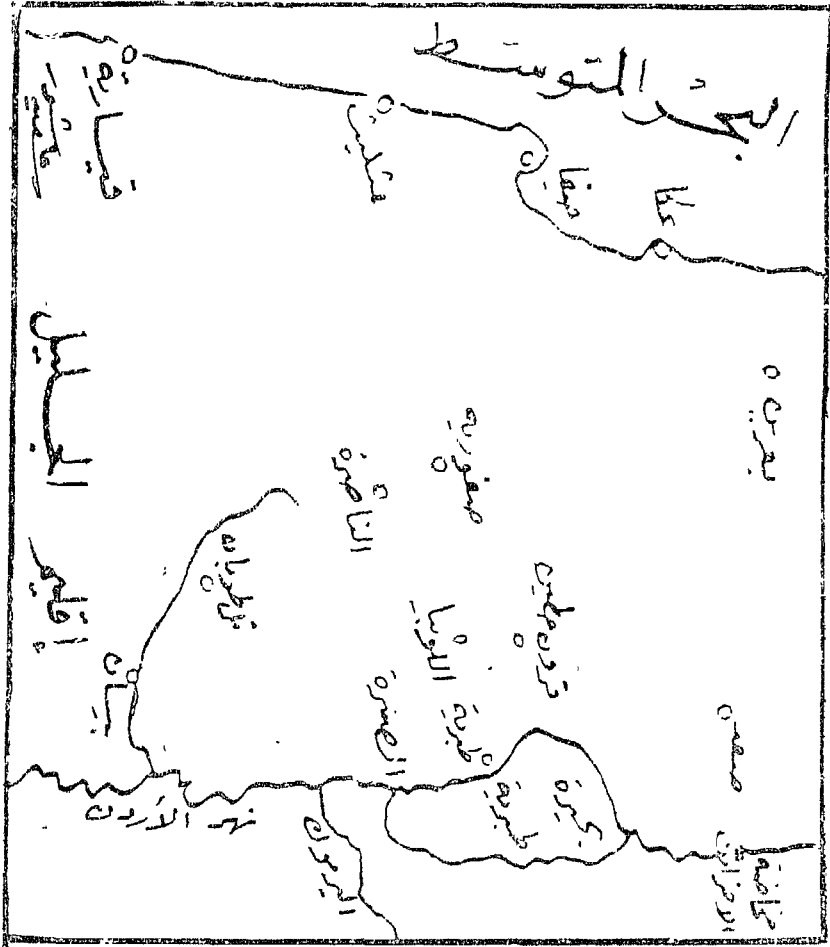
وأخيراً لم يبق إلى جانب جودفري بوايون سوى تنسكرد؛ ذلك الأمير النورمانى الذى لم يتعجل العودة إلى إيطاليا وظل يعمل في فلسطين تحت رئاسة جودفري . وكان أن عهد جودفري إلى تنسكرد بفتح إقليم الجليل واحتلاله ، على أن يعطيه إياه ويصبح أميراً عليه تابعاً لجودفري<sup>(٣)</sup> .

وكان إقليم الجليل قبيل وصول الصليبيين إلى فلسطين موضع نزاع وتنافس بين دقاق صاحب دمشق والفاطميين ، ولكن دقاق لم يتمكن من احتلال ذلك

(1) Albert d'Aix, p. 499-500.

(2) Iorga: Hist. des Croisades, p. 67.

(3) Raoul de Caen, p. 703 Guillaume de Tyr, I, p. 384.



الإقليم عقب هزيمة الفاطميين في عسقلان ، مما سهل مهمة تنكرد<sup>(١)</sup> . وهكذا استطاع الصليبيون فتح إقليم الجليل بسرعة ، على الرغم من قلة المقاتلين وحاجة تنكرد إلى الرجال ، فاحتلوا مدينة طبرية في سهولة بعد أن هرب منها أهلها المسلمون وظلت فيها أقلية من السريان ، ثم حصن تنكرد مدينة طبرية تحصيناً قويا حتى يتخذها مركزاً لإمارته الجديدة<sup>(٢)</sup> . وفي الجنوب الشرقي من الجليل احتل تنكرد بيسان ، وهي مدينة حصينة ذات موقع هام يمكن الإشراف منها على الضفة الشرقية لنهر الأردن . وطوال تلك الأثناء لم يكف تنكرد عن القيام بإغارات عدوانية على البلدان الإسلامية المجاورة ؛ فتارة يعتدى على الجهات التابعة لسلاجقة دمشق ؛ وأخرى يعتدى على المدن والقرى التابعة للدولة الفاطمية<sup>(٣)</sup> .

على أن تناقص الصليبيين يوماً بعد يوم جعل موقف جودفري وتنكرد في غاية الخطورة ، إذ لم يبق لدهم سوى بضعة مئات من الجند ؛ في حين أخذ الباقون يبحرون بالجملة عائدين إلى بلادهم في غرب أوروبا . وهكذا عاشت دولة بيت المقدس الصليبية في تلك المرحلة على ذكرى انتصارات الصليبيين في أنطاكية وبيت المقدس وعسقلان ، فلم تستطع أن تجعل احتلالها لفلسطين فعلياً ، واكتفى الصليبيون بوضع حاميات في المدن الرئيسية مثل بيت المقدس وبيت لحم والخليل والرملة واللد ويافا ونابلس وبيسان وطبرية والناصرية . أما الأراضي والقرى والمزارع المحيطة بتلك المدن ، فقد ظلت في أيدي أصحابها العرب . ويمكن تشبيه المراكز الصليبية في الشام عندئذ بالجزر الصغيرة المتناثرة وسط محيط واسع من الأعداء الذين ظلوا يتحينون الفرصة المناسبة للانتقام واسترداد حقوقهم المسلوقة من الدخلاء الغاصبين<sup>(٤)</sup> .

(1) Runciman : op. cit, I, p. 304.

(2) Albert d'Aix, p. p. 217-218.

(3) Guillaume de Tyr, I, p. 384.

(4) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 181.

### الاتفاقيات التجارية بين الصليبيين وموانئ فلسطين العربية :

لم يكن للدولة التي أقامها الصليبيون في بيت المقدس سوى منفذ واحد على البحر ، هو ميناء يافا . ولما كانت هذه الدولة محاطة بأعداء من الداخل ، فقد صار لزاما على جودفري بوايون أن يقوى الصلة بين بيت المقدس والعالم الخارجي عن طريق البحر ، ولذلك أخذ يفكر في الاستيلاء على أرسوف - شمالي يافا - وهي التي لم يستول عليها الصليبيون في أغسطس سنة ١٠٩٩ نتيجة للنزاع بين جودفري وريموند الصنجيلي<sup>(١)</sup> . على أن إمكانيات جودفري كانت قد ضعفت كثيراً ، وتناقص رجاله بشكل ملحوظ ، في الوقت الذي افتقر إلى أسطول يحكم الحصار على أرسوف من ناحية البحر . ولذلك فشلت الحملة الصغيرة التي أرسلها جودفري في ديسمبر سنة ١٠٩٩ للاستيلاء على أرسوف وعادت تبحر أذبال الفشل مما يشهد على مدى ضعف الصليبيين في بيت المقدس عندئذ<sup>(٢)</sup> .

أما جودفري فاكتفى بأن ترك في الرملة - على مقربة من أرسوف - بضعة مئات من رجاله تهديد أرسوف بين حين وآخر ، وشن غارات عدوانية على ضواحيها . وكان أن استطاعت هذه القوة الصليبية أن تغفر في فبراير سنة ١١٠٠ ببعض أهالي أرسوف الذين خرجوا لمباشرة نشاطهم السلمي في مزارعهم القريبة ، فانقمت الصليبيون من أسرى المسالمين انتقاما وحشيا بأن قطعوا أنوفهم وأقدامهم وأيديهم<sup>(٣)</sup> . ولما كانت أرسوف تابعة للدولة الفاطمية ، فإن أهلها أرسلوا سفارة عاجلة إلى الوزير الأفضل لطلب المعونة ، وعندئذ اكتفى الأفضل بأن بعث إليهم قوة صغيرة من ثلثمائة جندي . وقد تشجع أهل أرسوف

(1) Stevenson : op. cit, p 39.

(2) Albert d'Aix, p. p. 507-511.

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 182

عند وصول تلك النجدة إليهم عن طريق البحر وشرعوا في القيام بهجوم مضاد ضد الصليبيين ، ولكنهم وقعوا في كمين نصبه الصليبيون في مارس سنة ١١٠٠ ، مما جعل أهل أرسوف يؤمنون بعدم جدوى الحماية الفاطمية ، وأنه لا مفر من الدخول في تبعية الصليبيين ، حتى يتمكنوا من فلاحه أراضيهم القريبة . وهكذا انتهى الأمر بأن ذهبت سفارة من أهل أرسوف إلى جودفرى بوايون في أواخر مارس سنة ١١٠٠ تحمل إليه مفاتيح أبواب المدينة وقلاعها ، وتعرض عليه الدخول في تبعيته ودفع جزية مالية رمزاً لهذه التبعية<sup>(١)</sup> .

وفي تلك الأثناء ، دأب الصليبيون منذ يناير سنة ١١٠٠ على العمل في تحصين يافا وتقوية استحكاماتها . وساعد جودفرى في هذه المهمة الأسطول البيزى<sup>(٢)</sup> . ولم تلبث يافا بعد تحصينها أن صارت لها السيطرة على شاطئ فلسطين بأكملها ، كما فاقت في قوتها مينأى عسقلان وعكا التابعين للدولة الفاطمية<sup>(٣)</sup> . وبعبرة أخرى فإن يافا أصبحت مركزاً للنشاط تجارى وحرى كبير بعد أن صارت الميناء الرئيسى للدولة بيت المقدس الصليبية ، فتمصدها السفن التجارية من مختلف أنحاء العالم المسيحى ، وبخاصة من جنوا والبندقية وبيزا ، لإحضار الحجاج من ناحية وإمداد بيت المقدس بما احتاجت إليه من إمدادات من ناحية أخرى<sup>(٤)</sup> .

على أن تحصين يافا على ذلك الوجه سبب متاعب خطيرة للممتلكات التابعة للدولة الفاطمية بجنوب فلسطين ، إذ اتخذ الصليبيون يافا مركزاً لشن إغارات مستمرة على تلك الممتلكات . وهكذا بدأ اليأس يدب في قلوب أهل المدن الإسلامية

(1) Albert d'Aix p. p. 513-514.

(2) Heyd : op. cit. I, p. 135.

(3) أشار ابن الأثير إلى جهود جودفرى في تحصين يافا فقال : إنه «عمر مدينة يافا وسلمها إلى قيص من الفرنج اسمه طنكرى (تنكرد) . الكامل ؛ حوادث ٤٩٤ هـ .

(4) Grousset : Hist. des Croisades. I. p. 183. &

Heyd : op. cit. I, p. 136.

في فلسطين بعد أن تأكدوا من عجز الدولة الفاطمية عن حمايتهم ، فلم تمض مدة طويلة حتى أعلن حكام عسقلان وقيسارية وعكا تبعيتهم لدولة الفرنجة ، ودفعوا جزية مشتركة شهرية قدرها خمسة آلاف دينار رمزاً لتلك التبعية ، فضلاً عما تعهد المسلمون بتقديمه من مواشى وغللال وزيت وغيرها من الفروض العينية<sup>(١)</sup>. كذلك سارع كثير من مشايخ العرب وزعمائهم في الجهات الداخلية إلى عقد مثل تلك الاتفاقيات الودية مع حكومة بيت المقدس الصليبية ، ليضمنوا سلامة قوافلهم ومتاجرهم. وهنا نلاحظ أن جميع تلك الاتفاقيات التي عقدها المسلمون في فلسطين مع جودفري حاكم بيت المقدس سنة ١١٠٠ — سواء تلك التي أبرمتها المدن الساحلية أو شيوخ القبائل الداخلية — كان لها جانبها التجاري ، فضلاً عن الجانب السياسي ، مما جعل البضائع المختلفة — من توابل وغللال وبيض وطيور ومنسوجات ومواشى — تتدفق على بيت المقدس ويافا ؛ وبذلك توافر لدولة الصليبيين في بيت المقدس قسط وافز من الاستقرار والثبات<sup>(٢)</sup>.

على أنه يلاحظ أن هذه الاتفاقيات السياسية والتجارية التي عقدت بين العرب والصليبيين في فلسطين ، والتي حققت قسطاً من السلام المؤقت بين الطرفين ؛ لم تمتد لتشمل شئون البحر والملاحة . من ذلك ما ذكره بعض المؤرخين من أن الصليبيين حرموا على عرب فلسطين أى تبادل تجارى عن طريق البحر مع بقية العالم الإسلامى . واستطاع الصليبيون أن ينفذوا خطتهم هذه عن طريق بعض الاتفاقيات التي عقدها مع الجمهوريات الإيطالية صاحبة التفوق البحرى في البحر المتوسط عندئذ<sup>(٣)</sup>. وقد ترتب على ذلك عدم إمكان حصول مواشى فلسطين العربية على ما يلزمها من إمدادات ومؤن من دمياط والاسكندرية ؛ مما أدى

(1) Aldert d'Aix, p. 515.

(2) Albert d'Aix, p. 516.

(3) He, d: op. cit. I, p. p. 134 - 136.



إلى إضعافها تم سقوطها في نهاية الأمر دون عناء في أيدي الصليبيين. وفي الوقت نفسه أفاد الصليبيون والتجار الإيطاليون من تلك السياسة لأنهم ضمنوا تركيز النشاط التجاري في بلاد الشام في أيديهم<sup>(١)</sup>. وكانت السفن الغربية التي تتولى حراسة شواطئ فلسطين تنصيد كافة المراكب الإسلامية الوافدة من الاسكندرية ودمياط وتونس، لتصادرها وتقتل بحارتها. ومع ذلك فإن تلك الاعتداءات البحرية على السفن الإسلامية لم تعكر صفو السلام الذي تم بين المسلمين والصليبيين سنة ١١٠٠، فأخذ عرب عسقلان يذهبون في أمان إلى مناطق الفرنجة للمتاجرة، في حين كان المسيحيون يقصدون عسقلان لتفشاء مطالبهم دون خوف<sup>(٢)</sup>.

### سيطرة الفرنجة على إقليم السواد :

وهكذا غدا جودفري بوايون على درجة من القوة وثبات المركز مكنته — بمساعدة تنكرد — من بسط سيطرته على إقليم السواد (سواد طبرية)، شرقي بحيرة طبرية، وهو الإقليم الذي كان تابعا لدقاق ملك دمشق. ذلك أن تنكرد استطاع في مايو سنة ١١٠٠ أن يخرج على رأس مائتين من فرسان الصليبيين وألف من مشاتهم ليقوم باغارات مدمرة في إقليم السواد، استمرت ثمانية أيام وأنزلت كثيراً من الأضرار — في الأرواح والأموال — بأهل الإقليم من العرب<sup>(٣)</sup>. وعندما طلب أمير السواد — وهو الذي أطلق عليه الصليبيون اسم المزارع السمين — النجدة من سيده دقاق ملك دمشق، أمده الأخير بنحو خمسمائة فارس، فاستطاعت هذه القوة الصغيرة من الدماشقة أن تهاجم مؤخره

(1) Runciman : op cit; I p. 310.

(2) Albert d'Aix, p. 516.

(3) Grousset : Hist des Croisades, 1. p. 186.

قوات تنكرد وجودفرى وأن تطلق سراخ من لديهم من أسرى المسلمين، غير أن الدماشقة لم يستطيعوا مواصلة هجومهم فانسحبوا عائدين من حيث أتوا، في حين عرج تنكرد على مدينة طبرية ليستريح فيها بضعة أيام قبل أن يقوم بهجومه التالي الذى لم يكتف فيه بتخريب إقليم السواد، وإنما أوغل حتى اقترب من دمشق نفسها<sup>(١)</sup>.

وكان أن أرسل تنكرد سفارة من ستة فرسان إلى دمشق، تحمل إنذاراً إلى دقاق باعتناق المسيحية أو ترك دمشق فوراً، فاستاء دقاق من تلك الجرأة ورد عليه بأن أنذر الرسل بالقتل إن لم يعتنقوا الإسلام؛ فقبل أحدهم ذلك وأعدم الخمسة الباقون. وعندما علم جودفرى وتنكرد بذلك، خرجا على رأس جميع قواتهما، واستمر الصليبيون يعيشون فساداً فى الجهات والضياع والمزارع المحيطة بدمشق قرابة أسبوعين. وعندئذ أدرك أمير السواد أن دقاق عاجز عن حمايته، فاعترف بالتبعية لتنكرد ووافق على دفع جزية له<sup>(٢)</sup>.

وعند عودة جودفرى بوايون إلى بيت المقدس عن طريق الساحل مارا بعاكسا وقيسارية، أسرع أمير قيسارية— بوصفه تابعا لجودفرى— إلى إقامة وليمة حافلة له. وهكذا أصبحت دولة بيت المقدس الصليبية بمثابة ملكية فرنجية إقطاعية، يحوطها عدد من الإمارات الإسلامية التابعة لها<sup>(٣)</sup>.

---

(1) Runciman : op. cit, I, p. 310—311.

(2) Albert d'Aix, p. p. 518—519.

(3) Grousset : op. cit, p. 187.

## الفصل الرابع

### بطرقيّة بيت المقدس

دايمبرت البيزى والحروب الصليبية :

كان من المتوقع عقب استيلاء الصليبيين على بيت المقدس أن تقوم بها حكومة دينية يرأسها أحد رجال الكنيسة ، حيث أن البابوية هي التي دعت للحرب الصليبية وحددت للصليبيين الهدف الذي وصلوا إليه فعلا . ولكن ظهر أنه من الصعب تحقيق هذه الفكرة بعد وفاة المندوب البابوي أدهار ، إذ لم توجد بين صفوف الصليبيين بالشام شخصية كنسية لها من المكانة والنفوذ مايساعد على تحقيق ذلك الحلم . ومع ذلك فإن تلك الفكرة لم تمت تماما ، لاسيما وأن جودفري بوايون لم يتخذ لقب ملك وإنما اكتفى بلقب « حامي بيت المقدس » ، وبذلك استبعدت على الأقل فكرة قيام ملكية علمانية في بيت المقدس . وكان ذلك هو الموقف في فلسطين عندما وصل إلى الشام دايمبرت رئيس أساقفة بيزا (١) .

والمعروف أن البيزانة قاموا بدور ملحوظ في الحروب الصليبية منذ بدايتها ، فشاركوا مشاركة فعالة في حرب المسلمين بأسبانيا طوال القرن الحادى عشر (٢) . ثم كان أن وقف دايمبرت رئيس أساقفة بيزا إلى جانب البابا أوربان الثانى فى مشروع الصليبي الكبير لاسترداد الأراضى المقدسة بالشرق . وسرعان ما أثبت دايمبرت كفاية سياسية ومهارة نادرة جعلته يحتل مكانة ظاهرة فى

(1) Michaud : op. cit, II, p. 9

(2) Heyd : op. cit, I, p. p, 121 - 122.

الأحداث التي أخذت تجرى عند نهاية القرن الحادى عشر . ذلك أنه قام بدور المندوب البابوى فى الحرب الصليبية التى شنها الفونس السادس ملك قشتالة على المسلمين فى أسبانيا . ويبدو أنه نجح فى القيام بذلك الدور ، الأمر الذى جعل البابا أوربان الثانى يعينه مندوباً بابوياً فى الأراضى المقدسة بدلا من أدهمار الذى توفى فى أنطاكية ، وذلك على الرغم مما أحاط بدايمةبرت من شائعات عن عدم استقامته وانحراف مسلكه<sup>(١)</sup> . ولم يلبث أن خرج دايمةبرت على رأس أسطول بيزى من مائة وعشرين سفينة فى صيف سنة ١٠٩٩ متجها نحو الشام . ومن الواضح أن جمهورية بيزا كانت تقف بأجمعها خلف دايمةبرت ، إذ رأى البيازنة فى المهمة الجديدة التى أسندت إليه فرصة طيبة للحصول على قسط من الامتيازات ، ولا سيما إذا استطاع دايمةبرت أن يسبق الصليبيين إلى فتح بيت المقدس . ولكنه لم يكد يصل على رأس سفنه إلى اللاذقية حتى كان كل شىء قد انتهى باستيلاء الصليبيين فعلا على بيت المقدس فى ١٥ يوليو<sup>(٢)</sup> .

ومع ذلك فإن بوهموند النورمانى أميراً أنطاكية أسرع إلى الترحيب بالبيازنة ، سوأراد أن يستغل تلك القوة الكبيرة فى بسط نفوذه على الأطراف الشمالية لبلاد الشام ؛ لاسيما وأن بوهموند كان مفتتراً إلى قوة بحرية تمكنه من تقويض النفوذ البيزنطى من الجهات الساحلية<sup>(٣)</sup> ، حيث استطاع بعض حلفاء الدولة البيزنطية مثل الأمير الإنجليزى إدجار إيثلنج Edgar Aetheling وريموند الصنجلي السيطرة على اللاذقية . لذلك عقد بوهموند اتفاقاً مع دايمةبرت للاستيلاء على اللاذقية ذات الموقع البحرى الهام . وتعتبر هذه الاتفاقية الحلقة الأولى من سلسلة الاتفاقيات

(1) Runciman I, p. 299.

(2) Grousset : op. cit, I, p. 191

(3) Albert d'Aix, p. p. 500-501.

التي عقدتها بيزا مع الصليبيين في الشرق لتحقيق مكاسب واحتكارات تجارية (١).

وفي ذلك الوقت وصل ريموند الصنجيلي وروبرت دي فلاندرز وروبرت النورمانى إلى جبلة ، فاستاءوا استياء بالغا لهجوم بوهموند ودايمبرت على اللاذقية ، لأن ريموند بالذات كره أية زيادة لنفوذ بوهموند ، فضلا عما يسببه الهجوم على اللاذقية من تعكير صفو العلاقات بين الصليبيين والإمبراطورية البيزنطية ؛ في الوقت الذي كان الصليبيون دائماً بدأفى حاجة إلى معونة البيزنطيين (٢) ولم يكن من الحكمة مطلقاً أن يبدأ المندوب البابوى دايمبرت أعماله في الشرق بالعدوان على الإمبراطورية البيزنطية ، مما يزيد شقة الخلاف بين الشرق والغرب المسيحيين ، وبين الدولة البيزنطية والصليبيين في الشام ، ثم بين الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية .

ولإزاء ذلك الاستياء الذى أبداه ريموند و زميلاه ، اضطر بوهموند ودايمبرت إلى رفع الحصار عن اللاذقية ، فدخّلها ريموند وأعوانه ، حيث رحب به الأهالى ورفعوا علمه إلى جانب علم الأمبراطور البيزنطى (٣) . وبعد ذلك أبحر روبرت دي فلاندرز وروبرت النورمانى عائدين إلى الغرب عن طريق القسطنطينية ، فى حين بقى ريموند الصنجيلي فى اللاذقية (٤) .

---

(1) Heyd : op. cit., I, p. 135.

(2) Chalandon : Alexis Gommene, p. 218.

(3) cf. uciman ; op. cit., I, p. 301.

(4) Guibert de Nogent, p. 232.

### دايمبرت وبوهيموند في بيت المقدس

على أنه يلاحظ أن بوهيموند الأنطاكي لم يحقق حتى ذلك الوقت قسمه الصليبي الخاص بزيارة بيت المقدس ، لذلك لم يكبد يصل إلى أنطاكية عمائداً من حصار اللاذقية حتى اصطحب دايمبرت واتجه الإثنان نحو بيت المقدس . ولايستبعد أن يكون بوهيموند — بعد أن لمس المساعدة التي قدمها له البيزنطية ضد البيزنطيين عند اللاذقية — قد وعد دايمبرت بمساندته في المناداة به بطرقا على بيت المقدس . ومن يدري ، فقد تكون البطرقية هي الخطوة الأولى للوصول بدايمبرت إلى حكم بيت المقدس نفسها وإقامة حكومة ثيوقراطية فيها ، ولاسيما وأن جودفري لم يعتمد في حكمه على حق ورأى شرعى ، فضلا عن ضعفة واعتلال صحته . ولما كان بلدوين أمير الرها قد شغل هو الآخر بإمارته عن الحج إلى بيت المقدس ، فقد دعاه بوهيموند لمصاحبته ، هو ودايمبرت ، فوعد بالحقاق بهما<sup>(١)</sup>

وكان أن خرج بوهيموند ودايمبرت من اللاذقية ، فاتبعوا الطريق الساحلى حتى يكونا على مقربة من الأسطول البيزى الذى سار بجذأتهما . وبعد أن مرا بجبله التى كانت تابعة للأمير طرابلس ، أدركا بانياس ، حيث التقى بوهيموند ودايمبرت ببلدوين ، ثم استأنف الأصحاب الثلاثة سيرهم جنوبا ، ومعهم عدد كبير من أتباعهم الرجال والنساء ، حتى قدر موكبهم ببضعة آلاف<sup>(٢)</sup> . وقد مروا بأنطرسوس ، وصادفوا في طريقهم كثيراً من المتاعب بسبب اشتداد البرد في جبال لبنان من جهة ، وبسبب الشهور العداوى الذى قوبلوا به والذى حرمهم من الحصول على ما يلزمهم من تموين من جهة أخرى . وهكذا حتى وصلوا

(1) Scotton : op. cit I, p. 377.

(2) Fulcher of Chartres, p. . 322 - 326.

إلى طرابلس فقدم لهم ابن عمار صاحب المدينة ما كانوا في حاجة إليه من ميرة وغذاء<sup>(١)</sup>. على أنه لا يوجد في المراجع ما ثبت أن حكام بيروت وصور وعكا التابعين للخلافة الفاطمية — فعلوا مثلما فعل صاحب طرابلس ، فتعرض موكب الصليبيين مرة أخرى للعناء بسبب صعوبة الحصول على التموين ، واستمر الأمر على ذلك حتى وصلوا إلى بيت المقدس في ٢١ ديسمبر سنة ١٠٩٩<sup>(١)</sup>.

وقد سر جو دفرى عندما رأى ذلك العدد الضخم من الصليبيين يصلون إلى بيت المقدس ، لأنه كان فعلا في حاجة ماسة إلى الرجال ، وصار يأمل في إقناع بعض أولئك الصليبيين بالبقاء في بيت المقدس بعد الحج . ويبدو أنه نجح إلى حد كبير في ذلك ، إذ اختار بعض الصليبيين أن يظلوا في خدمة جو دفرى عقب عودة بوهيموند وبلدوين إلى الشمال<sup>(٢)</sup>.

على أن وصول بوهيموند وبلدوين ودايمبرت إلى بيت المقدس أمر له أهمية وخطورة في تاريخ الحركة الصليبية ، لأن هذا الحدث يشير إلى نهاية الفترة القلقة التي أعقبت وصول الصليبيين إلى الشام ، وهي الفترة التي تطلبت وضع الفتوح الصليبية في إطار معين ثابت . هذا إلى أن وصول أولئك الزعماء الثلاثة سويا أثار الشعور بوجود نوع من الترابط أو التفاهم بينهم ، فضلا عن أن ظهور دايمبرت والبيازنة على مسرح بيت المقدس جاء إعلانا لسيادة الغربيين على البحر ودليلا على أن الصلة بين الفرنجة في الشام وبين العالم اللاتيني الغربي لن تنقطع<sup>(٤)</sup>.

(1) Archer : The Crusades, p. p. 98—99.

(2) Fulcher of Chartres, I, p. p. 326 — 332.

(3) Runciman : op, cit, I, p. 303,

(4) Grousset : Hist, des Croisades, I, p 193.

### دايمبرت بطريرك بيت المقدس :

وكانت المشكلة الأولى التي صار على زعماء الصليبيين حلها هي تحديد العلاقة بين جودفرى حامى بيت المقدس من ناحية ، وأميرى أنطاكية والرها من ناحية أخرى . فهل من حق حامى بيت المقدس أن يباشر نوعاً من الأولوية والرأسية على أميرى أنطاكية والرها ؟ إن جودفرى بوايون لم يتمتع بلقب ملك ، وإنما اكتفى — كما سبق أن ذكرنا — بلقب متواضع هو حامى بيت المقدس ؛ وهذا اللقب فيما يبدو كان لا يمكن أن يخوله حق الزعامة على بقية الأمراء الصليبيين بالشام ؛ مما جعل العلاقة بين الجانبين تتميز بنوع من الغموض والميوعة حتى قيام مملكة بيت المقدس الصليبية فيما بعد<sup>(١)</sup> .

على أنه يلاحظ من جهة أخرى أن مجيء دايمبرت إلى بيت المقدس عاقب — ولو إلى حين — التطور نحو قيام ملكية صليبية فيها . حقيقة إن هذا التطور كان طبيعياً وأمرأً ضرورياً في دولة اعتمدت في بنائها على الحرب وعاشت في خوف دائم بسبب شعورها بأنها غريبة وسط مجتمع معاد يحيط بها . ولكن كان لابد لكي يتم هذا التطور من أن يكون بطرق بيت المقدس ضعيفاً ، حتى لا يقف في طريق السيادة العلمانية ونموها . وهنا تبدو أهمية وصول دايمبرت في ذلك الوقت بالذات ، لأنه أعلن في بيت المقدس أن انتخاب أرتولف مالسكورن بطرقاً عمل باطل وغير قانونى ، مما أدى إلى عزله ، وشغور كرسي بطريركية بيت المقدس . ومن الواضح أن دايمبرت لا بد وأنه رسم تلك الخطة مع بوهيموند أثناء الطريق من أنطاكية إلى بيت المقدس ، فانفعا على الضغط على جودفرى الذى كان محتاجاً إلى معونة البيازنة البحرية من ناحية وإلى مساعدة بعض الفرسان الذين يمكن أن يمدده بهم بوهيموند من ناحية أخرى<sup>(٢)</sup> .

(1) Richard ; Le Royaume Latin de Jérusalem, p. p. 92 — 93.

(2) Setton : op. cit. I, p. p. 377.



وهكذا أتاحت الفرصة لدايمبرت ، فاعتمد على رجاله البيازنة فضلاً عن بوهيموند، حتى تم انتخابه بطرّقاً على بيت المقدس في أواخر ديسمبر سنة ١٠٩٩<sup>(١)</sup> . ولم يلبث أن رجع جو دفرى وبوهيموند أمام البطرّق الجديد — مثلما رجع الأفضال الإقطاعيون أمام سيدهم — طالبين منه تقليدهم حكم بيت المقدس وأنظاكية على التوالي<sup>(٢)</sup> . ومعنى ذلك أن بطرّق بيت المقدس أصبح السيد الأعلى في البلاد المقدسة ، وممثل المسيح فيها ، وذلك بوصفه بطرّقاً على تلك المدينة من ناحية ، ومندوباً بابوياً اختاره البابا — وهو خليفة القديس بطرس — لينوب عنه في الأرض المقدسة من ناحية أخرى . وبذلك صار على بقية الأمراء العلمانيين أن يدينوا له بالطاعة والاحترام وأن يتسلموا منه تقاليدهم الخاصة بقيامهم في حكم إماراتهم . ثم إن بطرّق بيت المقدس الجديد — وهو الرجل القوى الذي ساندته أساطيل بيزا وجيوش بوهيموند — لم يجد أمامه في بيت المقدس أميراً علمانياً قوياً يحد من نفوذه ويوقفه عند حده ؛ لأن جو دفرى نفسه كان معروفاً بضعفه وطيبته وحرصه على استرضاء الكنيسة ورجالها ، وربما ظن أن هذا هو الطريق الوحيد لإكساب حكمه صبغة شرعية ثابتة<sup>(٣)</sup> . وخلاصة القول ، فإن اختيار دايمبرت بطرّقاً على بيت المقدس جاء مظهراً لقيام حكومة ثيوقراطية جديدة في المدينة المقدسة<sup>(٤)</sup> . وبعد أن تمت تلك الخطوة التي غيرت وجه الدولة الصليبية الجديدة في بيت المقدس ، عاد بلدوين وبوهيموند إلى أمارتيهما في الشمال في أول يناير سنة ١١٠٠ . وقد حاول دقاق ملك دمشق أن يظفر بالأميرين عند بعلبك ، ولكنهما أفلتا من قبضته وعادا سالمين<sup>(٥)</sup> . وربما لم يكن لهذه المحاولة في حد ذاتها أهمية سوى أنها

(1) *Gesta Francorum*. (Hist. Occid. III), p. 519.

(2) Albert d'Aix, p. p 511-512 & Guillaume de Tyr, p. 387.

(3) Michaud : op. cit, II, p p 9-10.

(4) Grousset : op. cit, I, p. 195.

(5) Guillaume de Tyr p. p. 387-388

نهب الصليبيين إلى أن بقاء دمشق وعكا وغيرها من المدن الواقعة في وسط بلاد الشام بأيدي المسلمين ، كان يشكل خطراً جسيماً على الصليبيين ، ويفصل بين الإمارات الصليبية في شمال الشام ، وبيت المقدس في الجنوب . أما بوهموند فقد كسب كثيراً من وراء الدور الذي قام به في مساعدة دايمبرت ، لأنه ضمن تأييد بطرق بيت المقدس له في حالة تعرضه لهجوم من جانب الإمبراطور البيزنطي . وعلى أساس هذا التأييد ، اتخذ بوهموند لنفسه لقب « أمير » أنطاكية ، كما اتخذ ابن أخته تنكرد لقب « أمير » الجليل ، إشارة منه إلا أنه لا يتبع جودفرى ، وإمبا دايمبرت! (١) .

ولم يلبث أن استحكمت النزاع في بيت المقدس بين جودفرى ودايمبرت في فبراير سنة ١١٠٠ ، وذلك عندما أصر الأخير على أن يأخذ جزءاً من بافوا جزءاً من بيت المقدس (٢) . وقد وافق جودفرى على ذلك ، بل لقد وافق على أن يستولى البطارق على حكم المدينتين بعد وفاته أو بعد أن يستولى جودفرى على مدينتين بدلتهما من المسلمين . ولكن دايمبرت كان لا يستطيع الانتظار وأخذ يتعجل القضاء على كل أثر لنفوذ السلطة العلمانية في بيت المقدس (٣) .

ومهما يكن من أمر ، فإن جودفرى بوايون لم يلبث أن مرض بالحمى ، ثم مات بعد بضعة أشهر ، مما أثار مشكلة اختيار من يحل محله في المطالبة بحقوقه ووساطاته في بيت المقدس (٤) .

(1) Runciman : op. cit, I, p. 306.

(2) Michaud : op. cit; II, p. 10.

(3) Guillaume de Tyr, p. p. 388 - 390.

(٤) أجمعت المراجع العربية والصليبية على أن جودفرى توفي بالحمى ، وهذا يخالف الرواية التي ذكرها ابن الأثير وهي أنه مات مقتولاً بسهم أصابه أثناء حصار عكا (الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٤ هـ) .

## تذكروا وفتح صيفنا :

أما عن المسلمين في المدن الساحلية ، فقد قاموا في تلك الأثناء بإغارات من أرسوف وعسقلان على المراكز الصليبية القريبة . ولم تقو الحامية التي تركها الصليبيون في الرملة على الصمود أمام تلك التهديدات ، فأسرت إلى طلب المعونة من جودفري . وقد أسرع جودفري بوايون — بمساعدة البيازنة — إلى تحصين يافا في أوائل سنة ١١٠٠ . ويبدو أن تلك التحصينات التي قام بها الصليبيون ، بالإضافة إلى مارآه المسلمون من مجيء بوهموند ودايمبرت إلى بيت المقدس على رأس قوة كبيرة ، هي التي جعلت أمراء أرسوف وعسقلان وقيسارية وعكا يسارعون إلى طلب الصلح مقابل أموال معينة تعهدوا بدفعها (١) .

ولم يلبث أن وصل إلى يافا في يونيو سنة ١١٠٠ أسطول بندق من مائتي سفينة . ومن الواضح أن هذه الحملة البندقية الضخمة إنما أتت إلى الشرق للمشاركة في الحرب الصليبية من ناحية ولتحقيق ما يمكن تحقيقه من مكاسب للبندقية في الشرق من ناحية أخرى ، وذلك أسوة بما فعلته بقية الجمهوريات الإيطالية التجارية في عصر الحروب الصليبية (٢) . وقد عرض البنادقة خدماتهم على دولة بيت المقدس الصليبية للمساهمة في حرب المسلمين ، بشرط أن يكون لهم الثلث في كل مدينة يساعدون في الاستيلاء عليها ، ليتخذوا من ذلك الثلث حياً تجارياً لهم يباشرون منه نشاطهم التجاري . فإذا نجحوا في الاستيلاء على طرابلس كانت المدينة بأكملها لهم ، مع تعهدهم بدفع ضريبة سنوية رمزاً للتبعية لدولة بيت المقدس . وفي مقابل كل ذلك وضع البنادقة أنفسهم وخدماتهم تحت تصرف الصليبيين حتى ١٥ أغسطس (٣)

(1) Stevenson : op. cit, p. 40

(2) Runciman : op. cit, I, p. 312-313.

(3) Heyd; op. cit, I, 136.

وكان أن بدأ البنادقة يحاصرون عكا من ناحية البحر ، في الوقت الذي أخذ مرض الموت يزداد وطأة على جودفرى بوايون ، فقام دايمبرت بطرق بيت المقدس وتنكرد بالمساهمة في حصار عكا من ناحية البر<sup>(١)</sup> . ولم تلبث أن جاءت الأخبار بوفاة جودفرى في ١٨ يولية سنة ١١٠٠ وعندئذ اقترح دايمبرت وتنكرد على البنادقة ترك عكا وتوجيه الجهود ضد حيفا ، حيث أن هذه الأخيرة أقرب إلى بيت المقدس وأكثر نفعاً للصليبيين . وكانت حيفا تابعة عندئذ للدولة الفاطمية ، وللفاطميين فيها حامية صغيرة ، ولكن معظم سكانها من اليهود الذين كرهوا المسيحيين كراهية شديدة ، ومن ثم أبدوا مقاومة عنيفة<sup>(٢)</sup> .

وعندما انتشرت الشائعات بأن حيفا أوشكت على السقوط في أيدي الصليبيين ، علم تنكرد بأن جودفرى بوايون أوصى قبل وفاته بأن تكون هذه المدينة من نصيب أمير آخر اسمه جالدمار ؛ وعندئذ هدد تنكرد بالانسحاب وأعان أنه ان يعمل لحساب غيره ، لاسيما وأن حيفا كانت الثغر الطبيعي لإمارته في الجليل<sup>(٣)</sup> . ولكن البطرق دايمبرت استرضى تنكرد بسرعة ووعده بحيفا ، فضاعف تنكرد جهوده حتى سقطت حيفا في أيدي الصليبيين في أغسطس سنة ١١٠٠ . وبذلك اكتملت إمارة الجليل بعد أن حصلت على ثغر لها على البحر ، وإن كان تنكرد نفسه لم يهنأ طويلاً بذلك النصر ، إذ لم تلبث الظروف أن اضطرت به إلى نقل نشاطه إلى مسرح آخر<sup>(٤)</sup> .

(1) Translatio Sancti Nicolai Venetiam (Hist. Occid. Tome V), P. p, 272-275.

(2) Albert d'Aix; p' 521.

(3) Setton : op. cit; I, p. 380.

(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 290.

## الباب الخامس

### تأسيس مملكة بيت المقدس الصليبية

﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين  
أعمالا . الذين ضل سعيهم في  
الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم  
يحسنون صنعا ﴾

[ الكهف : ١٠٣ - ١٠٤ ]



## الفصل الاول

### النزاع بين بلدوين و بطرق بيت المقدس

البطرق دايمبرت يفرضه نفسه على دولة بيت المقدس :

كان حكم جودفرى بوايون فى بيت المقدس بمثابة حل وسط بين النظامين الملكى والثيوقراطى ، وفيه ترضية—ولو جزئية—لمطامع الأمراء ومطامع رجال الكنيسة ؛ ولذلك أثار موت ذلك الرجل مشكلة كبرى حول الوضع المتبل لدولة بيت المقدس الصليبية وكيف يكون نظام الحكم فيها<sup>(1)</sup> . ويتولى المؤرخ وايم الصورى إن جودفرى بوايون أوصى قبل وفاته بأن يخلفه البطرق دايمبرت فى حكم بيت المقدس ، وذلك فى حالة عدم وجود ورثة مباشرين لجودفرى نفسه<sup>(2)</sup> . ومن الواضح أن تنفيذ هذه الوصية كان يعنى تحويل حكومة بيت المقدس إلى حكومة ثيوقراطية فعلا ، أى حكومة دينية ترتبط بالكنيسة ، وهو ماسعى إليه دايمبرت منذ أمد بعيد .

على أن قيام حكومة ثيوقراطية فى بيت المقدس واستبعاد كل فكرة تستهدف نظاما ملكيا وراثيا ، كان أمرا صعب التحقيق . ذلك أن المدة القصيرة التى تولى فيها جودفرى بوايون حكم بيت المقدس كانت كافية لتجعل فرسانه

(1) Stevenson : op. cit. p. 42.

(2) Guillaume de Tyr p. 40<sup>b</sup>.

وهناك رأى آخر فى المراجع يؤكد أن جودفرى بوايون أوصى فعلا لأخيه بلدوين أمير الرها بان يرثه فى حكم بيت المقدس . أنظر :

يؤمنون بضرورة قيام ملكية وراثية في بيت المقدس. هذا فضلا عن أن أرنولف مالكورن — البطرق السابق لبيت المقدس الذي خلفه دايمبرت — كان له انصاره من رجال الدين ، وهؤلاء شابعوا فكرة قيام ملكية علمانية وراثية في بيت المقدس ، لالشيء سوى التشفق في دايمبرت والوقوف في وجهه أطاعه وآماله<sup>(١)</sup> .

ومهما يكن من أمر ، فإن وجه الأهمية في ذلك الموقف هو أن المؤمنين بنظام الملكية الوراثية اتجموا جميعا بأفكارهم وقلوبهم نحو بيت بوايون ، وأرادوا أن تكون الملكية المنشودة محصورة في ذلك البيت بالذات . وكان أن أحاطوا نواياهم بالسرية التامة المطلقة ، فأوفدوا من قبلهم أستقف الرملة ومعه اثنتان<sup>٣</sup> من الفرسان لمقابلة بلدين أمير الرها لمطالبته بالحضور على وجه السرعة لاستخلاص حقوقه وتولى السلطة ، بوصفه الوريث الشرعي لدولة الفرنجة في بيت المقدس بعد وفاة أخيه جودفري<sup>(٢)</sup> .

وهنا فكر دايمبرت في وسيلة يضيع بها على بلدين فرصة الاستئثار بحكم بيت المقدس ، فلم يجد بداً من الاستفادة بأحد كبار الأمراء الصليبيين ممن يعتبرون أندادا لبلدين نفسه . وفعلا اتصل دايمبرت بصديقه بوهيموند أمير أنطاكية ، بوصفه القوة الوحيدة التي تستطيع أن تقف في وجه بلدين وبحول دون وصوله إلى حكم بيت المقدس . هذا فضلا عن أن دايمبرت كان له أنصار بين أمراء بيت المقدس أنفسهم ، من بينهم تنكرد ابن أخت بوهيموند<sup>(٣)</sup> . وقد عرف عن تنكرد هذا الجسارة وسرعة البت ، زيادة على أنه صار من أقوى أمراء دولة بيت المقدس بعد تأسيسه إمارة الجليل . وكان أن انفق تنكرد مع دايمبرت على عرض حكم

(1) Albert d'Aix : p. 5<sup>o</sup>6.

(2) Michaud : op. cit; 11, p. 19.

(3) Stevenson : op. cit; p. 42.



بيت المقدس على بوهيموند بوصفه القوة الكبرى التي يمكنها، الوقوف في وجه بلديون من ناحية ثم مساعدة دايمبرت من ناحية أخرى<sup>(١)</sup>. ويتضح من الرسالة التي بعث بها دايمبرت وتنكرد إلى بوهيموند أن الغرض منها كان استثارة الأخير، وأنه لو قدر لخطه دايمبرت النجاح لأدت إلى إثارة حرب أهلية بين الصليبيين في بلاد الشام، أعنى بين بلديون أمير الرهامن جانب وبوهيموند أمير أنطاكية من جانب آخر، مما يؤدي بالصليبيين جميعاً في الشرق إلى كارثة كبرى. وفي وسط تلك الإزمة إزداد وضوح الرأي الذي نادى به عقلاء الصليبيين، وهو ضرورة قيام ملكية قوية في بيت المقدس توحد بين صفوف الصليبيين من جهة وتحول دون فتك المسلمين أو البيزنطيين بهم من جهة أخرى<sup>(٢)</sup>.

ومهما يكن من أمر فإن حسن حظ الصليبيين شاء ألا تصل الرسالة التي بعث بها دايمبرت إلى بوهيموند، إذ وقع حامل الرسالة قرب اللاذقية في أيدي رجال ريموند الصنجيلي، المنافس اللدود لبوهيموند<sup>(٣)</sup>. ولعلنا نذكر كيف أصر بوهيموند على حرمان ريموند من أي حق في أنطاكية عقب سقوطها، مما أثار شعور المرارة والكراهية في قلب الأخير. حقيقة أن بوهيموند علم بالأحداث الجارية في بيت المقدس عن طريق آخر، ولكن ذلك كان في الوقت الذي حلت به كارثة كبرى جعلته عاجزاً حتى عن مجرد الحركة. ذلك أنه حدث في شهر يوليو سنة ١١٠٠ — أي في الوقت الذي توفي جودفري بوايون — أن كان بوهيموند في طريقه إلى ملطية ليقدم النجدة لأميرها الأرمني ضد الأتراك من أتباع الملك

(1) Guillaume de Tyr, p. 406.

(2) Richard: Le Royaume Latin p. p 62-63.

(3) Albert d'Aix, p. 521

ويلاحظ أن ريموند نفسه لم يسكن موجدًا عدتد في بلاد الشام، وإنما كان متغيباً في زيارة القسطنطينية، بناء على دعوة من الإمبراطور البيزنطي.

(Runciman: op. cit., I, p. 318-319.)

غازي كشتكين بن الدانشمند صاحب سيواس ، فوقع بوهيموند أسيراً في قبضة كشتكين ، ولم تفلح الجهود التي بذلها الصليبيون لإنتقاذه (١). وهكذا قدر لبوهيموند أن يظل أسيراً ثلاث سنوات في قلعة نيكسار قرب شاطئ البحر الأسود (٢)؛ مما ترك الطريق مهدداً أمام بلدوين ليصل إلى عرش بيت المقدس والمعروف عن بلدوين أنه كان رجلاً ذكياً طموحاً لا تقوته فرصة الدعوة التي وصلته من أنصاره في بيت المقدس ، فصمم منذ اللحظة الأولى على أن يضع خدماته وجهوده ويستخر شخصيته الفذة في خدمة دولة الصليبيين الناشئة في فلسطين ، مما جعله من أعظم الشخصيات الصليبية التي شهدها بيت المقدس في عصر الحروب الصليبية (٣)

والواقع أن بلدوين امتلك من الشجاعة والقوة والإخلاص، ما كفله النجاح والتغلب على خصومة (٤) ، وتبدولنا أخلاقه في وضوح من تصرفه عندما سمع بما حل ببوهيموند على يد الملك غازي كشتكين بن الدانشمند أمير سيواس التركياني. ذلك أن بوهيموند عندما وقع في الأسر أرسل رسالة سرية إلى بلدوين أمير الرها مستنجداً به، ومع الرسالة خصلة من شعره الذهبي لتكون دليلاً على صدق الرسول. ولم يكذب بلدوين يتأكد من صحة الخبر حتى أسرع على رأس عدد كبير من فرسانه في اتجاه ملطية. لإدراك كشتكين وفك أسر بوهيموند (٥) ولكنه لم يكذب يصل إلى ملطية حتى كان التركياني قد أسرعوا بالإنصراف عنها متجهين إلى سيواس، ومنها إلى نيكسار قرب البحر الأسود. وكل ما استطاع بلدوين أن يفعله هو تخليص ملطية من التركياني ، وعندئذ أعلن أمير ملطية الأرمني ولاءه وتبعيته لبلدوين، الذي ترك

(١) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٩٣ هـ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ( Hist. Or. III, p. 589 )

ويلاحظ أن ابن العديم ذكر أن بوهيموند وقع أسيراً في معركة دارت

بأرض مرعش .

(3) Cam. Med. Hist. vol. 5, P. 304,

(4) Setton : op. cit. P. 381

(5) Runciman : op. cit. I, P 321.

بضعة مئات من فرسانه لحماية ماطية ، ثم عاد إلى إمارته في الرها دون أن يستطيع أن يجازف بنفسه ويتبع التركمان في عمر دارهم لإنقاذ بوهيموند<sup>(١)</sup> .

على أن بلدوين لم يكذب يستقر في إمارته بالرها بعد عودته من الشمال حتى تلقى في أواخر أغسطس وأوائل سبتمبر سنة ١١٠٠ الرسالة التي بعث بها أنصاره في بيت المقدس يخبرونه فيها بما كان من موت أخيه جودفري ، ويطلبون منه الحضور على وجه السرعة لتسلم مقاليد الأمور في المدينة المقدسة . وهنا أظهر بلدوين أسفه لموت أخيه أكثر من فرحه للاستيلاء على إرثه<sup>(٢)</sup> . ولم يشأ بلدوين أن يضيع الفرصة التي أتاه القدر بها للفوز بحكم بيت المقدس ، فغادر الرها نحو المدينة المقدسة في ٢ أكتوبر سنة ١١٠٠ بعد أن عهد يشئون الرها إلى قريبه بلدوين دي بورج ، وترك له قوة كبيرة من الفرسان والمشاه للدفاع عن الإمارة إذا هدها خطر<sup>(٣)</sup> .

وهكذا ساعدت الظروف بلدوين على اتمام رحلته الموقفة الى بيت المقدس ، إذ لو كان بوهيموند حراً طليماً ووصلته رسالة دايمبرت ، لسبب له كثيراً من المضايقات . ولكن الأمر لم يتف عند حد أسر يوهيموند ووقوع الرسالة في يد رجال خصمه ريموند فحسب ، بل إن أهل أنطاكية من الصليبيين ، حملوا بلدوين جيلاً كبيراً لمروءته ومحاولته فك أسر أميرهم<sup>(٤)</sup> لذلك لا عجب إذا استقبلت أنطاكية بلدوين — وهو في طريقه الى بيت المقدس — استقبالا حماسياً طيباً ؛ فقتضى بها ثلاثة أيام ثم غادرها في ١٥ أكتوبر متبعاً طريق الساحل ، فربا بالاذقية حيث التقى بالمدوب البابوي موريس دي بورتو Maurice de Porto الذي

(1) Albert d'Aix, P. p. 525—526.

(2) Foucher de Chartres (Hist. Occid. III). P. 373.

(3) Cam. Med. Hist. vol. 5 P. 301

(4) Grousset : Hist. des Croisades' I. P 208.

كان قد وصل إلى الشام منذ قريب . ويبدو أن بلدوين واجه بعد أن غادر اللاذقية بعض الأخطار من جانب سلاجقة دمشق الذين حاولوا قطع الطريق عليه ؛ ولكنه مر بسلام حتى وصل إلى مدينة طرابلس في ٢١ أكتوبر بعد أن بلغ رجاله درجة خطيرة من الإعياء<sup>(١)</sup> . وفي طرابلس أكرمه أميرها العسري أبو علي بن عمار ، وأمدّه ورجاله بما كانوا في حاجة ماسة إليه من ميرة وغذاء ، وتعهد بأن يحيطه علماً بتحركات عدوها المشترك ، وهو دقاق ملك دمشق السلجوقي<sup>(٢)</sup> . وليس هذا مجال الخوض في العلاقات بين القوى الإسلامية ببلاد الشام في ذلك الوقت ، ولكن تكفي الإشارة إلى أن العداء الشديد استحكم عندئذ بين سلاجقة دمشق من ناحية وبنى عمار في طرابلس من ناحية أخرى ، الأمر الذي دفع العرب في طرابلس إلى السعي لمخالفة القوى الصليبية المجاورة للوقوف في وجه سلاجقة دمشق<sup>(٣)</sup> .

ومهما يكن من أمر ، فإن بلدوين استطاع أن ينجو من شباك دقاق ملك دمشق بفضل مساعدة ابن عمار . وكان دقاق قد خرج وبصحبه جناح الدولة أمير حمص العربي ، لاصطياد بلدوين عند مصب نهر السكب في مكان ضيق بين الجبال والبحر<sup>(٤)</sup> . ولكن المعركة انتهت بهزيمة الدماشقة ونجاة بلدوين ، الذي غنم قدراً لا بأس به من الغنائم والأسلحة والخيول<sup>(٥)</sup> . وهكذا استأنف بلدوين طريقه إلى بيت المقدس ، بعد أن أثرت هزيمة الدماشقة في أمراء الموانئ الفاطمية

(1) Guillaume de Tyr, I, P. 407 & Albert d'Aix, P. 528.

(2) Histoire d'Eracles I, P 407 & Gesta Francorum P 520

(3) Foucher de Chartres p 374-376

(4) Guillaume de Tyr p 407

(٥) يفهم من الإشارة الموجزة التي أوردتها ابن الأثير عن تلك الموقعة أن دقاق هو الذي انتصر « على الفرنج » ؛ وهذا غير صحيح .

( ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٤٩٤ هـ ) .

على الساحل — مثل بيروت وصيدا وصور وعكا — قدموا للبلدوين ما أحتاج إليه من زاد وميرة (١).

### قيام مملكة بيت المقدس الصليبية

وأخيرا نجح بلدوين في الوصول إلى حيفا، وهي أول مدخل للصليبيين في فلسطين. وقد سبق أن أوضحنا أن حيفا كانت تابعة لتنكرد حليف دايمبرت — ولكن تنكرد كان لحسن الحظ متغيباً عندئذ في بيت المقدس لمساعدة حليفه في السيطرة على المدينة المقدسة. ولم يستطع أتباع تنكرد في حيفا أن يمنعوا الزاد والتوين عن بلدوين أو معارضته — بوصفه على الأقل أميراً صليبياً، فضلاً عن أنه أخو سيدهم السابق جودفري — فحصل بلدوين على ما لزمه من زاد، ثم توجه إلى يافا، أكبر ثغر للصليبيين عندئذ في فلسطين (٢). ومن يافا توجه بلدوين إلى بيت المقدس، حتى إذا ما اقترب منها في حوالي ١٠ نوفمبر سنة ١١٠٠ خرج المسيحيون من أهل المدينة — على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم — لاستقباله استقبالا رائعاً، بوصفه أخو جودفري ووريثه؛ بل لقد نادوا جميعاً به — داخل المدينة المقدسة ذاتها — ملكاً وسيداً عليهم (٣).

وهكذا لم يقدر للحكومة الثيوقراطية التي أراد البطرق دايمبرت إقامتها في بيت المقدس أن تعيش أكثر من خمسة شهور، إذ لم يستطع دايمبرت الوقوف أمام الرأي العام المسيحي، واضطر إلى الانسحاب إلى كنيسة جبل صهيون (٤) وكانت ساعة الثأر قد حانت بالنسبة لأرنولف مالكورن — بطرق بيت المقدس

(١) *Alpert d'Aix. p. p. 528-530*

(٢) *Foucher de Chartres, P. 377*

(٣) *Guillaume de Tyr. P. 410*

(٤) *Idem p. 411.*

السابق الذى عزله دايبرت — فجمع حوله رجال الدين لتقديم كل مساعدة ممكنة لبلدوين . على أن بلدوين كان من الحرص بحيث لم يشأ أن يتعجل عزل دايبرت من كرسى بيت المقدس ، وذلك خوفاً من إحداث فتنة داخلية فى تلك الفترة الحساسة من تاريخ المملكة الوليدة ، وإنما اختار أن يقوم عندئذ بما أسماه المؤرخون نزهة حربية فى المناطق القريبة ، أى حول عسقلان والخليل وبيت لحم<sup>(١)</sup> . ذلك أنه خرج فى ١٥ نوفمبر على رأس مائة وخمسين فارساً وخمسمائة من المشاة ، فأدب العربان الذين دأبوا على تهديد طريق الحجاج إلى بيت المقدس ، كما أغار على بعض المراكز قرب البحر الميت . وأخيراً عاد إلى بيت المقدس فى ٢١ ديسمبر سنة ١١٠٠<sup>(٢)</sup>

وعند عودة بلدوين إلى بيت المقدس تم الصلح والاتفاق بينه وبين دايبرت . وهنا نلاحظ أن دايبرت كان رجلاً له مكانته وأهميته بالنسبة للصليبيين فى الشام ؛ فقد رأينا أنه قبل مجيئه إلى الشرق كان رئيس أساقفة بيزا ، أى الزعيم الروحى لتلك المدينة الإيطالية صاحبة الدور الهام فى قصة الحروب الصليبية . ولم يكن فى استطاعة الصليبيين فى الشام أن يستغنوا مطلقاً عن مساعدة الأسطول البيزى ، تلك القوة البحرية الضاربة التى كان فى وسعها الوقوف فى وجه السفن الفاطمية ومنعها من التردد على بيروت وصور وعكا وعسقلان وغيرها من الموانئ التى ظلت بأيدي المسلمين فى الشام حتى ذلك الوقت<sup>(٣)</sup> . هذه الاعتبارات وغيرها لم تغب مطلقاً عن فكر بلدوين ، وهو الرجل الحصيف البعيد النظر ، فأثر منذ اللحظة الأولى أن يقف موقفاً معتدلاً بعيداً عن التطرف من دايبرت ، مما جعل

(1) Albert d'Aix p. p. 533 - 536.

(2) Stevenson ; op. cit. p. p. 43 - 44.

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 216.

الأخير يحنح تلقائياً نحو الاستسلام ويوافق على مبدأ التتويج في بيت المقدس .

وكان أن تم ذلك التتويج في يوم عيد الميلاد في ديسمبر سنة ١١٠٠ في كنيسة العذراء بيت لحم ، فوضع دايمبرت التاج على رأس بلدوين ليكون أول ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية<sup>(١)</sup> . وبتتويج بلدوين تبذرت جميع آمال دايمبرت ، وزالت نهائياً فكرة قيام حكومة ثيوقراطية في بيت المقدس<sup>(٢)</sup> .

أما عن تنكرد ، فكانت وفاة جودفري ، وما أعتب تلك الوفاة من أحداث ، بمثابة كارثة حلت به . ذلك أن تنكرد الذي جعله جودفري أميراً على الجليل والذي استولى على حيفا بعد ذلك ، أصبح بدون شك الرجل الثاني في دولة بيت المقدس . على أن ظهور بلدوين على مسرح الأحداث بعد وفاة أخيه جودفري جاء في حد ذاته طالعاً سيئاً بالنسبة لتنكرد ، بسبب الخلاف بين تنكرد وبلدوين ، وهو خلاف قديم يرجع إلى أيام التنافس بينهما حول الاستيلاء على قسطنطينية والمصيصة سنة ١٠٩٧ . ثم كان أن راهن تنكرد على الحصان الخاسر ، فحاول أن يشد أزر دايمبرت وأن يحول دون وصول بلدوين إلى بيت المقدس بمختلف الطرق ، ولكنه فشل في كل ذلك ، وانتهى الأمر بتسيام بلدوين ملكاً على بيت المقدس<sup>(٣)</sup> . وهكذا صار من الصعب على تنكرد أن يصبح تابعاً لبلدوين ، وأن يعلن ولاءه له بعد ما أظهره نحوه من ألوان العداوة والخصومة الشديدة ؛ بل إنه رفض الحضور لمقابلة الملك الجديد عندما استدعاه أكثر من مرة لمقابلته في يناير سنة ١١٠١<sup>(٤)</sup> .

(1) Stevansen : op. cit. p. 44.

(2) R chard : Le Royaume Latin. P 63.

(3) Setton : op. cit. I, P. 381

(4) Runciman : op. cit; I. P 325

وفي وسط تلك الأزمة المستحكمة بين بلدوين وتسكرد ، تلقى الأخير رسالة في مارس سنة ١١٠١ من الصليبيين في أنطاكية ، يطلبون منه الحضور إليهم للقيام بالوصاية على إمارتهم أثناء أسر خاله بوهيموند . وكانت هذه الدعوة حلاً ناجحاً للموقف ، إذ رحب تسكرد بتلك الفرصة التي ستخلصه من موقفه الحرج مع بلدوين ، وفي الوقت نفسه ستمكنه من بسط سيادته على شمال الشام . ولم يلبث أن تم الصلح بين تسكرد وبلدوين ، فتنازل تسكرد لملك بيت المقدس عن الجليل وطبرية وحيفا ، بشرط واحد هو أن يسترد تلك المناطق مرة أخرى إذا عاد قبل انقضاء ثلاث سنوات وثلاثة أشهر . وهكذا غادر تسكرد فلسطين في مارس سنة ١١٠١ ليباشر نشاطاً من نوع آخر في شمال الشام<sup>(١)</sup> .

---

(١) Albert d'Aix; p. p. 537-538.



## الفصل الثاني

### بلدوين الأول والفاطميون

#### متاعب الصليبيين في الشام :

أجمع المؤرخون على أن جودفري وايون كانت تنقصه صفات السياسي الناجح ، فدفعه العناد إلى الوقوع أحياناً في خصومات عنيفة مع زملائه من أمراء الصليبيين ، وفي الوقت نفسه جعلته تقواه يرضخ للكنيسة أكثر مما ينبغي ، مما عرض دولة بيت المقدس الصليبية لخطر التصدع .

وعلى العكس منه كان أخوه بلدوين الأول الذي امتلك من الحصافة وبعد النظر والحكمة ، فضلاً عن الشجاعة ، ما جعل منه حاكماً ناجحاً<sup>(١)</sup> . لذلك جاءت وفاة جودفري وتوزيع بلدوين ملكاً على بيت المقدس بمثابة عملية إنقاذ للصليبيين ولدولتهم الوليدة . ومع ذلك فقد كان الطريق أمام بلدوين الأول طويلاً وشاقاً ، ولم تكن المهمة التي أمامه — وهي الخاصة بتدعيم أسس البناء الذي أقامه الصليبيون بالشام — بالأمر الهين ، بسبب الأزمات العديدة التي واجهت الصليبيين في بداية القرن الثاني عشر<sup>(٢)</sup> .

والواقع إن الأزمة الشديدة التي عاناها الصليبيون عندئذ في بلاد الشام لم تكن بسبب قلة الطعام وندرة الزاد، وإنما كانت في حقيقة أمرها أزمة في المقاتلين والرجال . ذلك أن الصليبيين لم يؤسسوا ما أسسوه من إمارات إلا بعد

(1) Cam. Med Hist. vol 5, p. 304,

(2) Runciman: op. cit; II, p. 3.

أن ضحوا بعدد كبير من رجالهم حتى أصيبوا بنقص خطير في الفرسان ، في الوقت الذي كان بقاؤهم يتوقف على القتال والحرب <sup>(١)</sup> . ولعل خير دليل على افتقار الصليبيين في ذلك الدور الأول من تاريخهم بالشام إلى الرجال ، أنه حدث عندما أسر بوهيموند أمير أنطاكية ، أن أتباعه لم يجدوا بينهم فارساً يستطيع النهوض بعبء الدفاع عن الإمارة ، فاستنجدوا بابن أخته تنكرد الذي كان عليه أن يختار بين الجليل وأنطاكية . ولم يكد تنكرد ينتقل إلى أنطاكية حتى أصيب الصليبيون في الجليل بخيبة أمل كبيرة وأحسوا أنهم حرموا من جهود رجل ، والرجال قليل <sup>(٢)</sup> .

حقيقة إن الأساطيل الغربية الوافدة من إيطاليا وبروفانس وغيرهما، أخذت تجلب باستمرار حجاجاً من الغرب ، ولكن هذه الأساطيل كثيراً ما تعرضت لإغارات البحرية الإسلامية بشمال إفريقية ، فإذا وصل الحجاج سالمين إلى يافا ، فإنهم كانوا لا يسمون في كثير من الحالات من إغارات البدو فيما بين يافا وبيت المقدس ، بحيث لا يصل منهم في النهاية إلى المستعمرات الصليبية إلا قلة قليلة <sup>(٣)</sup> . فإذا أضفنا إلى ذلك اتساع مساحة الأراضي التي سيطر عليها الصليبيون بالشام ، أدركنا في النهاية، خطورة الوضع الذي أضحت فيه الإمارات الصليبية، لأن عدد للدافعين كان لا يتناسب إطلاقاً واتساع الملكات الصليبية <sup>(٤)</sup> . هذا في الوقت الذي كانت تلك الإمارات أشبه شيء بحجز منعزلة وسط محيط إسلامي مترامي الأطراف، مما يجعلنا نقرر أن احتفاظ الصليبيين بكيانهم في تلك الظروف لم يكن مرده إلى قوتهم ، بل إلى ضعف القوى الإسلامية في الشرق الأدنى وتفككها

(1) Stevenson op. cit; p. 39.n. 1.

(2) Setton ; op. cit; 1, P. 382.

(3) Grousset : Hist: des Croisades, I; p. 218—219.

(4) Grousset : L'Empire du Levant, P. P. 198—199.

وانقسامها على أنفسها<sup>(١)</sup>. ولو أقام المسلمون في الشرق الأدنى — أو على الأقل في العراق والشام ومصر — جبهة متحدة، لاستطاعوا في غير عناء كبير القضاء على تلك الجماعات الصليبية المتناثرة في بلاد الشام وتطهير الوطن العربي منها قبل أن يستفحل خطرهما .

وفي مثل تلك الظروف كان من المتعذر على بلدوين الأول ملك بيت المقدس أن يتبع طريقة الحرب المنظمة مع القوى الإسلامية المجاورة له ، كما كان من المستحيل أن يقيم حاميات قوية على أطراف دولته في فلسطين ؛ وإنما كان الطريق الوحيد أمامه هو أن يتبع أسلوب الحرب السريعة الخاطفة ، وأن يجعل من جيشه وحدة متحركة تنتقل بسرعة من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب حسب الحاجة ، مكنتها بإقامة نوع من الخنادق الصغيرة على الحدود لمراقبة تحركات القوى الإسلامية المجاورة<sup>(٢)</sup> .

ومهما يكن من أمر ، فإن الإلتصارات السريعة الخاطفة التي حققها الصليبيون في الشام على أيام جودفري ، وانتصار بلدوين على دقاق ملك دمشق عند نهر السكلب ؛ حققت للصليبيين قسطا من المهابة في نظر القوى الإسلامية المجاورة<sup>(٣)</sup> . ولم يكذب يتم تنويع بلدوين الأول ملكا على بيت المقدس حتى قام بمهاجمة قبيلة عربية كبيرة كانت تعبر الأردن في ربيع سنة ١١٠١ ، فقتل معظم رجالها ، وسبق النساء والأطفال أسرى مع الغنائم الوفيرة . وكان من جملة الأسرى زوجة أحد شيوخ القبيلة وهي على وشك الوضع ، فلما علم بلدوين بأمرها أطلق سراحا ومعها خادماتها وجملين وقدر من الزاد . ولم تلبث أن وضعت في الطريق

(1) Runciman. op. cit, II. P. 4-5

(2) Guillaume de Tyr, I, P, P. 414-415.

(3) Runciman : op. cit, II, p. 71.

وعادت إلى زوجها الذي سعى إلى بلدوين ليشكره ويرجو أن يرد له الجليل في يوم من الأيام<sup>(١)</sup>. ويهمنان هذه القصة الآن أن إغارة بلدوين على تلك القبيلة العربية وما فعله بأفرادها من قتل وأسر، جاءت لتزيد من خطره في نظر جيرانه المسلمين. ولم تلبث الموانئ الساحلية في فلسطين - وهي عسقلان وقيسارية وعكا وصور - أن أرسلت مندوبين عنها في مارس سنة ١١٠١ إلى الملك بلدوين الأول، تحمل إليه الهدايا والجزية، وتطلب منه المهادنة لتمكن من مباشرة نشاطها الاقتصادي والمتاجرة مع القرنجة. وبذلك لم يبق سوى دقاق ملك دمشق السلجوقي الذي أوفد سفارة إلى بلدوين لشراء الأسرى الذين أسرهم بلدوين في موقعة نهر الكلب، وتم فعلا تسليم هؤلاء الأسرى لدقاق مقابل مبلغ كبير من المال<sup>(٢)</sup>.

### استيلاء بلدوين الأول على أرسوف وقيسارية :

وضع بلدوين الأول عند تنويعه ملكا على بيت المقدس خطة استهدفت ضم جميع شواطئ فلسطين المواجهة لمملكته؛ وذلك لتأمين طريق الحجاج من ناحية ولتنشيط التجارة مع العرب من ناحية أخرى، مما يوفر للمملكة الصليبية كثيرا من أسباب القوة<sup>(٣)</sup>. وإذا كان تنفيذ تلك الخطة قد تطلب معاونة القوى البحرية الإيطالية، فإن حسن حظ بلدوين أمده بأسطول جنوى وصل إلى حيفا عند منتصف مارس سنة ١١٠١، ومنها أبحر إلى يافا في منتصف

(1) Guillaume de Tyr. p 415.

(٢) ابن القلانسي : ص ١٣٦ - ١٣٧ .

Albert d'Aix, p. p. 541-542.

(3) Runciman : op. cit, II. p. 7.

الشهر التالي<sup>(١)</sup> . وكان أن افترض بلدوين تلك الفرصة المواتية فذهب إلى يافا لمقابلة الجنوية ، واصطحبهم معه إلى بيت المقدس ، حيث احتفلوا جميعا بإحياء عيد الفصح ، ثم بدأت المفاوضات حول الثمن الذي يرتضيه الجنوية لقاء مساعدتهم بلدوين على تحقيق غرضه . ولم يلبث أن تم الاتفاق بين الطرفين على أن يقدم الجنوية معونتهم البحرية مقابل حصولهم على ثلث الغنائم من المنقولات . فضلا عن شارع من شوارع السوق في كل مدينة يستولون عليها ليتخذونه مركزا يباشرون منه نشاطهم التجاري<sup>(٢)</sup> .

وقد اختار بلدوين أن يبدأ بمهاجمة أرسوف ، ذلك الميناء الذي ظل تابعا للدولة الفاطمية ، والذي لم يستطع الصليبيون الاستيلاء عليه من قبل بسبب افتقارهم إلى المساعدة البحرية . ولم تستطع أرسوف الصمود ثلاث المرة ، فاستسلمت في أواخر أبريل سنة ١١٠١<sup>(٣)</sup> . وبعد أن ترك بلدوين حامية في أرسوف اتجه براً وبجذائه الأسطول الجنوي في البحر قاصدا قيسارية . وكانت قيسارية أيضا — من الناحية الاسمية على الأقل — تابعة للدولة الفاطمية ، ولكنها لم تستطع المقاومة طويلا فاستولى عليها الصليبيون « بالسيف » في ١٧ مايو سنة ١١٠١<sup>(٤)</sup> . وتشير المراجع الغربية إلى أن الصليبيين أحدثوا مذبحا وحشية في قيسارية فقتلوا كثيرا من أهلها الأبرياء ، وأعتب ذلك توزيع الغنائم وفقا للاتفاقية المعقودة مع الجنوية<sup>(٥)</sup> . وعندما احتوى بعض أهالي قيسارية بجماع المدينة لاحتمهم الصليبيون وذبحوهم داخل الجامع عن آخرهم دون أن يفرقوا

(1) Costaró ; Liberatio Civit. Orientis ( Hist Occid V ).  
p. p 60 - 61.

(2) Guillaume de Tyr, p 419.

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٩ & ٦٢

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٦٧

(5) Foucler de Chartres, 389 - 390.

بين الرجال والنساء والأطفال ، حتى تحول الجامع إلى بركة كبيرة من دماء قتلى المسلمين<sup>(١)</sup> .

### الحمد الفاطمية على الشام سنة ١١٠١ ؛ موقعة الرملة الأولى

على أن استكانة الفاطميين ، والجود الذي انتابهم عقب سقوط بيت المقدس في أيدي الصليبيين لم يستمر طويلا . وإنما اختار الوزير الأفضل أن يرسل حملة كبيرة إلى فلسطين في ربيع سنة ١١٠١ ، بقيادة المملوك سعد الدولة القواسي الذي كان جاكم بيروت من قبل<sup>(٢)</sup> . وقد تجمعت هذه الحملة في عسقلان ، التي صارت بمثابة مركز انطلاق جميع الحملات التي خرجت من مصر ضد الصليبيين في تلك المرحلة . على أن الحملة المصرية أضاعت كثيرا من الوقت في عسقلان ، فقضى الجيش الفاطمي عدة أشهر بلا عمل ، ربما في انتظار إمدادات جديدة ، تأتية من مصر ؛ مما أتاح فرصة كافية للبلدوين استعداد فيها وجمع قواته ووضع خطته<sup>(٣)</sup> وأخيرا تحركت الجيوش الفاطمية في أوائل سبتمبر بعد أن وصلت الإمدادات المطلوبة ، فأجهت إلى منطقة الرملة حيث تستطيع تهديد كل من يافا وبيت المقدس . وكانت الأخبار قد وصلت بلدوين بأن المسلمين لم يقصدوا مجرد إغارة محلية ، وإنما استهدفوا الوصول إلى بيت المقدس ذاتها ، فأسرع إلى عقد مجلس حربي في يافا في أوائل سبتمبر سنة ١١٠١ ، وتقرر في ذلك المجلس أن يبدأ الصليبيون بمراجعة المسلمين فوراً<sup>(٤)</sup> . ومن المرجح أن يكون بلدوين قد أدرك خطر المهمة التي عليه أن يواجهها ، إذ كانت قوته محدودة لم تتجاوز مائتين وستين فارسا وتسعمائة من

(1) Albert d'Aix, P. P. 453—454.

(٢) ابن الاثير : السكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

(3) Stevenson ; op. cit; p. p. 44—45.

(4) Runciman : op. cit. II, p. 74

المشاة ، وهى قوة صغيرة بلا شك ، إذا قيست باعداد الجيش الفاطمي الغفيرة من العرب والسودان<sup>(١)</sup> . ولكن بلدوين أخذ يشجع رجاله وذكرهم بأنهم إذا ماتوا فأما سيلحتمون بالشهداء والقديسين ، وإذا انتصروا فسيكوفون قد أدوا خدمة للمسيح وكنيسته ليس بعدها خدمة<sup>(٢)</sup> .

وهكذا تقدم الصليبيون يحملون صليب الصليبوت وعلى رأسهم بلدوين ورجال الدين ، حتى التقى الخصمان فى صباح ٧ سبتمبر فى السهل الواقع إلى الجنوب الغربى من مدينة الرملة . ولم يلبث أن تصدع الجيش الفاطمى الكبير فى تلك الموقعة ، وانتصر الصليبيون بفضل تماسكهم ووحدته صفوفهم وإحكام خطتهم . وقد قتل من المسلمين عدد كبير ، فى حين فر الباقون تجاه عسقلان بعد أن سقط قائد الحملة . سعد الدولة القواسى — صريعا فى المعركة<sup>(٣)</sup> . واستمر الصليبيون يطاردون المسلمين حتى أسوار عسقلان ، فى حين عاد بلدوين لتوزيع الغنائم — وما أكثرها — ؛ إذ ترك المسلمون خلفهم كل ما معهم من سلاح ومؤن وعدد وآلات (٧ سبتمبر سنة ١١٠١) « فملك الفرنج جميع ما للمسلمين »

ولم يكذب بلدوين الأول يفرغ من تحقيق ذلك النصر الكبير ، حتى وصلته الأخبار بأن حملة صليبية خرجت من غرب أوروبا فى طريقها إلى الأراضى المقدسة ، ولكن الأتراك السلاجقة قضوا عليها . وقد وصلت فلول تلك الحملة وبعض

(1) Albert d'Aix, p. 549.

(2) Foucher de Chartres, p. 392.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

(4) Albert d'Aix, P. 553 & Guillaume de Tyr. P. 426.

وابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

ويلاحظ أن رواية أبى المحاسن عن هذه الموقعة غير صحيحة ، إذ يقول إن المسلمين ثبتوا « وحملوا على الفرنج فهزموهم إلى قيسارية ، ويقال إنهم هزموا من الفرنج ثلثمائة ألف ، ولم يقتل من المسلمين سوى مقدم عسكرهم سعد الدولة القواسى المذكور ونفر يير » .

(المنجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٥٢) .

(5) Runciman. op. cit; I. p. 76.

أمراءها إلى أنطاكية ، ومنها إلى بيت المقدس للحج . وبعد أن احتفل أولئك الصليبيون بإحياء عيد الفصح ( سنة ١١٠٢ ) شرع معظمهم في العودة إلى غرب أوروبا ، في الوقت الذي كان الفاطميون يستعدون لإنفاذ حملتهم الثانية إلى فلسطين (١) .

### الحملة الفاطمية الثانية سنة ١١٠٢ ؛ موقعة الرملة الثانية

والواقع أن الوزير الأفضل لم يستطع صبرا على الهزيمة التي لحقت بجيوشه على أيدي الصليبيين ، فأسرع إلى إعداد حملة أخرى كبيرة من العرب والسودان ، واجتمعت هذه الحملة التي بلغت عشرين ألف رجلا في عسقلان في منتصف مايو سنة ١١٠٠ ، تحت قيادة شرف المعالي ابن الوزير الأفضل (٢) . وقد اتبعت هذه الحملة الطريق نفسه الذي اتبعته الحملة السابقة ، فأبحه الجيش الفاطمي من عسقلان إلى الرملة واللد ويازور ، ومن هناك أجهوا من جديد لتهديد يافا وبيت المقدس .

وكان الملك بلدوين الأول قد اتخذ اهيمته ، فحشد في يافا بضعة آلاف من الصليبيين ، ولكن يبدو أنه اغتر بانتصاره السابق واستخف بأمر الفاطميين ، فخرج من بيت المقدس ( ١٧ مايو ) في قافلة من الفرسان تبلغ مائتي فارس ، قاصدا الرملة (٣) . وكان بلدوين يسير على رأس رجاله في غير نظام فيما بين يازور والرملة ، عندما تعرضوا لهجوم المسلمين . وربما ظن المسلمون أن تلك الشرذمة من فرسان الصليبيين ليست إلا مقدمة لجيش صليبي كبير آت في أعقاب الملك ، فاختاروا أن يباغثوا الملك ورجاله فورا قبل أن يلحق به بقتية جيشه . ولم يكن في استطاعة بلدوين وفرسانه الثبات أمام الجموع الإسلامية « فانهزم الفرنج وقتل

(1) Guillaume de Tyr, I, p. 428.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ

(3) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 231.



منهم مقتله عظيمة»<sup>(١)</sup> ، وفر بعضهم إلى يافا ، في حين لجأت البقية الباقية — ومن ضمنهم الملك بلدوين نفسه — إلى الرملة (١٧ مايو سنة ١١٠٢)<sup>(٢)</sup> .  
والمعروف أن الرملة مدينة صغيرة ضعيفة التحصين ، كان في استطاعة المسلمين أن يستولوا عليها ويدخلوها في غير عناء ليقبضوا على غريمهم ملك بيت المقدس ، ولكن غروب الشمس وحلول الظلام جعلهم يؤجلون ذلك إلى الصباح التالي<sup>(٣)</sup> . وبينما بلدوين يقضى ليلته في الرملة لا يغمض له جفن في انتظار مصيره في الصباح التالي ، إذا بفكرة الهروب في منتصف الليل تراود نفسه . ويقال إن الذي أوحى إليه بهذه الفكرة وساعده في تنفيذها هو شيخ العرب الذي كان بلدوين في العام السابق قد أكرم زوجته الشابة وأطلق سراحيها من الأسر ، فيحفظ له الشيخ ذلك الجليل وأتى ليساعد بلدوين في محنته<sup>(٤)</sup> . ومهما يكن من أمر فالهم هو أن بلدوين «تسكروا وخرج منها إلى يافا» ، وكان فراره ليلا ، وبذلك استطاع أن يفلت من مطاردة الفاطميين الذين لاحقوه عندما سمعوا خبر فراره<sup>(٥)</sup> .  
أما الرملة فسقطت في يد الفاطميين في ١٩ مايو سنة ١١٠٢ ، فقتلوا معظم من فيها من فرسان الصليبيين الذين كانوا صحبة بلدوين<sup>(٦)</sup> . ويؤكد ابن الأثير أن المسلمين قتلوا داخل الرملة «أربع مائة صبيرا وأرسل ثلثمائة إلى مصر»<sup>(٧)</sup> .

(١) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

(2) Albert d'Aix, P. 593.

ويذكر ابن الأثير في موضع آخر أن بلدوين كان في سبعمائة فارس ، ولم يكن في مائتي فارس كما ذكر المؤرخون الغربيون . كما يذكر أنه عندما حلت الهزيمة بالصليبيين اختفى بردويل في «أجمة قصب» فأحرقها المسلمون ولحقت النار بعض جسده وفر إلى الرملة .

(السكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ) .

(3) Setton : op. cit, vol. I, p. 365

(4) Guillaume de Tyr, I, p. 414-415.

(٥) ابن الأثير السكامل ، سنة ٤٩٥ هـ .

(6) Foucher de Chartres, p. 402.

(٧) ابن الأثير السكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

ولم تلبث الجيوش الفاطمية أن حاصرت يافا في الوقت الذي كانت مطاردة بلدوين تجرى على قدم وساق . وعندما سمع بلدوين — وهو في طريقه إلى يافا — خبر تعرض يافا لحصار المسلمين ، اتجه نحو أرسوف شمالى يافا ( ١٩ مايو سنة ١١٠٢ )<sup>(١)</sup> . وكانت فرحة الصليبيين في أرسوف بالغة عندما رأوا أمامهم بلدوين على قيد الحياة ، بعد أن انتشرت الشائعات بنجر مقتله . وسرعان ما بدأت عملية تجميع الجيوش الصليبية لمواجهة الفاطميين ، في حين استطاع بلدوين أن يدخل يافا عن طريق البحر ، ولحقت به كثير من الإمدادات الصليبية<sup>(٢)</sup> . وشاءت الصدفة أن تصل إلى ميناء يافا في أواخر شهر مايو مائتي سفينة ، تحمل عددا كبيرا من الجنود والحجاج الإنجليز . وشقت هذه السفن طريقها إلى الميناء مختزقة حصار الأسطول الفاطمي ، وبذلك حصل بلدوين في يافا على ما كان يلزمه من معونة عاجلة<sup>(٣)</sup> . وفي ٢٧ مايو سنة ١١٠٣ خرج بلدوين من يافا على رأس قواته لمهاجمة القوات الفاطمية المحاصرة للمدينة ، وما هي إلا بضعة ساعات حتى نجح الصليبيون بفضل تنظيمهم في إنزال الهزيمة بالجموع الفاطمية التي ولت الأدبار نحو عسقلان<sup>(٤)</sup> .

ويروى ابن الأثير أنه عندما سمع الوزير الأفضل بهزيمة ابنه شرف المعالي ، أسرع بإرسال حملتين ، إحداهما برية تحت قيادة المملوك تاج العجم ، وتألفت من

(1) Albert d'Aix, p. 595.

(2) Michaud : op. cit, II. p. 30

(3) Runciman : op. cit, II. p. 79-80.

ويذكر ابن الأثير أن الخلاف دب بين أمراء الجيش الفاطمي عقب النصر الذي أحرزوه على الصليبيين في الرملة ، فرأى فريق منهم الاتجاه إلى يافا « فيينا هم في هذا الاختلاف إذ وصل إلى الفرنج خلق كثير في البحر قاصدين زيارة البيت المقدس ، فبرز بهم بلدوين ( بلدوين ) للغزو . . . » ( السكامل ، حوادث سنة ٩٦٤ هـ ) .

(4) Foucher de Chartres P. P. 404-405 &

Guillaume de Tyr, P. 435.

أربعة آلاف فارس؛ والأخرى بحرية برئاسة القاضي ابن قادوس<sup>(١)</sup>. ولكن الشيء الذي كان ينقص الفاطميين عندئذ لم يكن كثرة الرجال وإنما إحكام الخطة الحربية؛ إذ رفض تاج العجم معاونة ابن قادوس وقال له «ما يمكنني أن أنزل إليك إلا بأمر الأفضل. ولم يحضر عنده ولا أعانه. فأرسل القادوسى إلى قاضى عسقلان وشهودها وأعيانها وأخذ خطوطهم بأنه أقام على يافا عشرين يوما واستدعى تاج العجم فلم يأت، ولا أرسل رجلا»<sup>(٢)</sup>.

وفى تلك الأثناء أرسل بلدوين الأول رسالة عاجلة إلى تنكرد الوصى على أنطاكية، وإلى بلدوين دى بوج أمير الرها الجديد، يطلب منهما إمداده بنجدة سرية<sup>(٣)</sup>. ولم تلبث هذه النجدة التى بلغت خمسمائة من الفرسان وألف من المشاة أن وصلت يافا فى سبتمبر سنة ١١٠٢ وعلى رأسها أميرا أنطاكية والرها<sup>(٤)</sup> وكان من الممكن أن يصبح لتلك التجمعات الصليبية شأن كبير لو أن الفاطميين ثبتوا فى القتال فى معركة فاصلة ضد الصليبيين؛ ولكن الجيوش الفاطمية عقب هزيمتها أمام يافا آثرت الانسحاب — وفى أعقابها الصليبيون — حتى عسقلان. وفى وسط تلك الأزمة طلب الأفضل من شمس الملوك دقاق صاحب دمشق المدد ضد الصليبيين، ولكن دقاق «اعتذر عن ذلك ولم يحضر»<sup>(٥)</sup>.

على أن اجتماع تنكرد وبلدوين دى بوج مع الملك بلدوين الأول أثار عدة مشكل حساسة، محورها تحديد العلاقة بالضبط بين إمارتى أنطاكية والرها من ناحية ومملكة بيت المقدس الصليبية من ناحية أخرى. على أنه يبدو أن أهم

(١) ابن الأثير: الكامل؛ حوادث سنة ٤٩٦ هـ

(٢) للرجع السابق

(3) Stevenson : op. cit; I, p. 46.

(4) Albert d'Aix, p. 597 & Raoul de Gaen, p. 707

& Rec. Hist. Or, p. 494)

(٥) ابن ميسر: تاريخ مصر سنة ٤٩٦ هـ.

ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٤٩٦ هـ.

مسألة أثيرت في تلك المناسبة ، كانت رغبة الملك بلدوين في التخلص من دايمبرت بطرق بيت المقدس الذي توج بلدوين مكرها والذي أحاطت الشبهات تصرفاته وسلوكه . وقد أرسل البابا باسكال الثاني مندوبا إلى بيت المقدس للتحقيق في ذلك الموضوع ، وعندئذ أوضح بلدوين للمندوب البابوي سوء تصرفات دايمبرت وتآمره ضد الملك وجشعه. وجاءت هذه الاتهامات مقرونة بالأدلة الدامغة، مما جعل المندوب البابوي يصدر حكمه باعفاء دايمبرت من منصبه ، فغادر دايمبرت بيت المقدس إلى أنطاكية ، حيث عهد إليه تفكر د برعاية كنيسة القديس جورج ( جرجس ) في المدينة سنة ١١٠٢<sup>(١)</sup>.

على أن تفكر د انهمز فرصة حضوره إلى مملكة بيت المقدس في العام نفسه لنجدة الملك بلدوين من جديد ، وأحضر معه دايمبرت ليطالب بإعادته إلى بطرقة بيت المقدس ، كشرط أساسي لاعتزازه بالولاء لملك بيت المقدس. وقد عارض بلدوين ذلك الطلب ، حتى انتهى الأمر بعقد مجمع ديني في بيت المقدس أقر عدم صلاحية دايمبرت لشغل تلك الوظيفة الدينية<sup>(٢)</sup> . ولم يلبث أن عاد دايمبرت إلى إيطاليا سنة ١١٠٤ حيث حاول أن يحصل على تأييد البابوية لإعادته إلى كرسي بيت المقدس ، ولكنه توفي في يوفية سنة ١١٠٧<sup>(٣)</sup>.

أما تفكر د وبلدوين دي بورج فقد استاء لعدم تلبية رغبتهما الخاصة بإعادة دايمبرت إلى كرسيه البطرق ، وانسجبا إلى إمارتيهما في الشمال ( حوالي ١٠ أكتوبر سنة ١١٠٣ ) ، دون أن يعترفا بالتبعية للملك بلدوين .

---

(1) Run-iman, op. cit, II, p 81-82.

(2) Richard : Le Royaume Latin, p. 94.

(3) Alb. ri d'Aix, P. P. 598-600.

## بلدوين الاول وفتح عكا

من الملاحظ في تاريخ مملكة بيت المقدس الصليبية أنها ظلت دائماً تشعر بحاجة ملحة إلى ربط نفسها بالبحر ربطاً قوياً ، وإلى تأمين اتصالها بالشاطئء تأميناً ثابتاً ؛ لأن البحر بالنسبة لها كان بمثابة الرئة التي تتنفس بها تلك المملكة والشريان الذي ربطها بقلب العالم الغربي وتزود عن طريقه بما يحتاج إليه من إمدادات بشرية ومادية . لذلك لم تنفع مملكة بيت المقدس بالموافى المحدودة التي استوتت عليها من المسلمين حتى ذلك الوقت ، وهي يافا وأرسوف وقيسارية وحيفاً ؛ وظلت تطمع في الاستيلاء على بقية موانئ فلسطين العربية مثل عسقلان وعكا وصور وصيدا وبيروت ، وكأها كانت تابعة للفاطميين<sup>(١)</sup> . حقيقة إن سيطرة الفاطميين على هذه الموانئ صارت شكاية ، ولكن من يدري ، فربما أصبحت سيطرتهم فعلية في المستقبل القريب ، وعندئذ يمكن أن يستغها المساهون في طعن مملكة بيت المقدس الصليبية في الصميم عن طريق قطع الشريان الذي يربطها بالغرب الأوربي . ومثال ذلك ما حدث في شتاء سنة ١١٠٢ عندما جنحت على شاطئء الشام بضعة سفن تحمل حججاء عائدین إلى الغرب الأوربي ، فأسرت الساطات الفاطمية في صيدا وعكا وعسقلان من بها من حججاء ، ويبيع معظمهم في أسواق الرقيق بالقاهرة<sup>(٢)</sup>

وكان أن شرع الملك بلدوين الأول في ربيع سنة ١١٠٣ يحاصر عكا لأول مرة « وضيق عليها وكاد يأخذها » . ولكن عكا — كما هو معروف عنها في جميع عصور التاريخ — من أحصن موانئ الشام . ولم تلبث أن وصلتها

(1) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 239.

(2) Albert d'Aix, P. P. 600-601.

« النجيدات من سائر السواحل » ، وجاءت إليها السفن الفاطمية من صور وصيدا ، وعندئذ أدرك الملك بلدوين أن الاستيلاء على عكا ان يتم في سهولة ، فرفع الحصار عنها وعاد من حيث أتى<sup>(١)</sup> . ومن الواضح أن عجز بلدوين الأول أمام عكا في تلك المرة إنما يرجع إلى عدم وجود قوة بحرية تسنده وتشد أزر قواته البرية . وقد ظهرت الحاجة إلى القوة البحرية مرة أخرى عند ما أرسل الوزير الأفضل حملته البرية — التي سبقت الإشارة إليها — ضد يافا في أغسطس سنة ١١٠٣ . ولكن الخلاف بين التائدين الفاطميين أدى إلى فشل الحملة كما أوضحنا . ثم لم يلبث أن أدى وصول الملك بلدوين الأول إليها في أكتوبر سنة ١١٠٣ إلى رفع الحصار البحري عنها<sup>(٢)</sup> .

وأخيراً أتاحت الفرصة لبلدوين الأول في أوائل مارس سنة ١١٠٤ ، عندما وصلت إلى اللاذقية عمارة جنوية تألفت من عدد كبير من السفن ، مما ضمن للصليبيين سيادة فعلية على شواطئ الشام<sup>(٣)</sup> . وكان ذلك الأسطول الجنوى قد وصل إلى اللاذقية يحمل كثيراً من « التجار والأجناد والحجاج وغير ذلك » فاستعان به ريموند الصنجيلي في القيام بهجوم فاشل على طرابلس « فلم يروا فيها مطعماً » ؛ وعندئذ انتقل الصليبيون إلى جبيل وحاصروها وقاناوها حتى طلب أهلها الأمان وسلموا . ولم يف الصليبيون بالأمان والعهد فاعتدوا على أهل جبيل « وأخذوا أموالهم واستنقذوها بالعموبات وأنواع العذاب<sup>(٤)</sup> » . ولم يكف الأسطول الجنوى يفرغ من مهمته في جبيل حتى استعان به الملك بلدوين الأول

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ &

Foucherde Charites, n. 406.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ . &

Alberl d'Aix, P. P. 603-604.

(3) Heyd : op cit, I, p. 139.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٧ هـ . &

Runciman. II. p. 60.

في مهاجمة عكا في أواخر مايو سنة ١١٠٤ . وقد دافع عن عكا حاكمها الفاطمي زهر الدولة الجيوشي<sup>(١)</sup> ، الذي « قاتل حتى عجز » ولكنه لم يقو على مقاومة الحصار المحكم الذي فرضه الصليبيون على عكا من ناحيتي البر والبحر ، فاضطر إلى التسليم « وملك الفرنج البلد بالسيف قهراً<sup>(٢)</sup> . » وتذكر المراجع الصليبية أن الجنوية نقضوا العهد الذي أعطاه بلدوين لأهل المدينة ، فاعتدوا على أرواح السكان وممتلكاتهم مما أثار غضب الملك بلدوين ونقمته<sup>(٣)</sup> .

ومهما يكن من أمر ، فإن سقوط عكا جعل للصليبيين السيادة على شواطئ فلسطين ، بعد أن حرم الأسطول الفاطمي من أهم قواعده بالشام . أما الجنوية فكان بلدوين قاد ، وعدمهم بإعطائهم ثلث عكا ليكون حياً تجارياً لهم ، وفعلاً نفذ وعده كما منحهم ثلث قيساريه وأرسوف أيضاً<sup>(٤)</sup> . أما عن المسلمين فإن خسارتهم في عكا كانت فادحة ، ويبدو ذلك فيما أظهره المؤرخون المسلمون من أسف عميق لعجز الفاطميين عن حماية موانئ الشام التي أخذت تتساقط واحد بعد آخر في أيدي الصليبيين . من ذلك ما يقوله أبو المحاسن عن الخليفة الأمر الفاطمي أنه كان « يتناهى في العظمة ويتعاقد عن الجهاد ... وكان فيه تهاون في أمر الغزو والجهاد حتى استولت الفرنج على غالب السواحل وحصونها في أيامه ... ولم ينهض لقتال الفرنج البتة وإن كان أرسل مع الأسطول عسكرياً فهو كلاً شيئاً ..!! »<sup>(٥)</sup> .

(١) اسمه بنا ، ويعرف بزهر الدولة الجيوشي نسبة إلى ملك الجيوش الأفضل .  
(٢) هذه رواية ابن الأثير (السكامل، سنة ٤٩٧ هـ) . وتذكر بقية الروايات أن الجيوشي طلب الأمان وأنه أجيب إلى طلبه . ولكن يلاحظ أن رواية المؤرخ أبي المحاسن تختلف عن الرواية السابقة التي أجمع عليها المؤرخون الغربيون؛ إذ يذكر أبو المحاسن أن الجيوشي « طلب الأمان له وللمسلمين فلم يعطوه لما علموا من أهل مصر أنهم لم ينجدوه » .  
(النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٨٨) .

(3) Albert d'Aix: p. 606-607.

(4) Guillaume de Tyr: I, p. 445.

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٧٨ .

### الحملة الفاطمية سنة ١١٠٥، صوقعة الرملة الثالثة :

وفي تلك الأثناء لم يتخل الوزير الأفضل عن فكرة إرسال حملة كبيرة لطرد الصليبيين من الشام . وكان أن قام بمحاولة أخيرة في هذا الصدد في صيف ١١٠٥، فجمع في عسقلان جيشاً كبيراً بلغ خمسة آلاف جندي من المصريين والسودان فضلاً عن الفرسان العرب ، ووضع ذلك الجيش تحت إمرة أحد أبنائه وهو سناء الملك حسين <sup>(١)</sup> . وفي الوقت نفسه استعد الأسطول الفاطمي لمساندة الجيش من ناحية البحر . ولم يتردد الوزير الأفضل في طلب المساعدة من سلاجقة دمشق السنين ، على الرغم من الخصومة المذهبية بينهم وبين الفاطميين الشيعة ؛ فعرض على طغتكين — الذي آلت إليه السلطة في دمشق بعد وفاة دقاق بن تاج الدولة تنش في صيف سنة ١١٠٤ -- أن يساعده في قتال العدو المشترك . وفعلا استجاب طغتكين لنداء الفاطميين ، فأرسل إليهم أحد رجاله - وإسمه « أصبحهد صباوا » - ومعه ألف وثلثمائة فارس ؛ وربما كانت هذه أول محاولة عملية يشترك فيها المسلمون في مصر والشام ضد الصليبيين <sup>(٢)</sup> .

وعندما علم بلدوين الأول بتلك الأحداث ترك يافا، وخرج على رأس جيشه إلى الرملة حيث يستطيع من ذلك المكان حماية يافا من ناحية وبيت المقدس من ناحية أخرى . وسرعان ما اجتمع حول بلدوين أفصالة من أمراء الصليبيين ومعهم جيوشهم ، فضلاً عن أرتاش ( بكتاش ) ابن تاج الدولة تنش الكبير المطالب بملك دمشق <sup>(٣)</sup> والذي رافق بلدوين لمساعدته ، ومعه مائة من

(١) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٤٩٨ هـ .

(٢) المرجع السابق ، حوادث سنة ٤٩٩ هـ .

(٣) توفي دقاق ملك دمشق في يونيه سنة ١١٠٤ ، فألقت السلطة الفعلية إلى الأتابك

طغتكين الذي اختار ألا يكشف عن مطامعه ، فأعلن قيام تنش الصغير ابن دقاق ، مع أن تنش ==



رجاله . ولم يكبد إمبرمار بطرق بيت المقدس يأتي ومعه صليب الصليبوت وعدد من الرجال في ٢٧ أغسطس ، حتى دارت المعركة المنتظرة مع المسلمين . وقد انتهت تلك المعركة بتمزيق القوات الفاطمية شرممزيق ، وفرار الدماشقة الذين أرسلهم طغتكين ، وقتل كثير من أمراء الجيش ، من جملتهم جمال الملك أمير عسقلان . هذا مع ملاحظة أن خسائر الصليبيين أيضاً كانت عظيمة في تلك الموقعة ، فقتل منهم كثيرون على رأسهم قائد قوات أرسوف وقائد قوات عكا . وقد عبر ابن الأثير تعبيراً دقيقاً عن نتيجة تلك الموقعة بقوله أنه « لم تظهر إحدى الطائفتين على الأخرى ، فقتل من المسلمين ألف ومائتان ومن الفرنج مثلهم <sup>(١)</sup> . » أما الأسطول الفاطمي فقد قفل راجعاً إلى صور وصيدا وطرابلس ، ولكنه تعرض بعد ذلك أثناء عودته إلى مصر لعاصفة هوجاء قذفت نحو عشرين سفينة من سفنه على الموانئ الصليبية ، فأسرها الصليبيون <sup>(٢)</sup> .

والواقع إن حملة الفاطميين سنة ١١٠٥ كانت آخر محاولة كبرى قام بها الفاطميون ضد الصليبيين في تلك الفترة ، هذا وإن ظل الفاطميون يهددون الصليبيين بين حين وآخر ولكن في نطاق محدود . وكان مركز الهجمات الفاطمية دائماً مدينة عسقلان ، ومن هذا المركز أغارت القوات الفاطمية سنة ١١٠٦ على قافلة من الحجاج الصليبيين بين يافا وأرسوف ، كما أغارت سنة ١١٠٧

== كان في العام الاول من عمره . وبعد قليل خلع طغتكين الطفل تتش وأحل محله عمه أرتاش أو بكتاش ، وهو أخو دقاق ، ولم يتجاوز عمره الثانية عشرة . على أن أرتاش خشي خطر طفكين ففر من دمشق إلى حوران ومنها لجأ إلى بلدوين الاول ملك بيت المقدس طالباً حمايته . وبعد أن اشترك أرتاش في مساعدة بلدوين في موقعة الرملة الثالثة سنة ١١٠٥ ، تخلى بلدوين عن مساعدته فانسحب أرتاش إلى الرحبة على الفرات . انظر :

( ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٨ - ١٤٩ هـ . &

Runciman : op. cit, II, p. 89.

( ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٩ هـ ) . &

Gesta Francorum, p. 541.

(2) Foucler de Chartres p. 414

( م ٢٠ - الحركة )

على الخليل؛ بل إن الفاطميين وصلوا سنة ١١١٠ إلى أسوار بيت المقدس ذاتها<sup>(١)</sup>.

### أمرء الجليل ومرب المسلمين:

وبينا الملك بلدوين الأول يواصل نشاطه وجهوده في المنطقة الساحلية، ظل فصله هيوفالكنبرج — خليفة تنكرد في حكم طبرية — يعمل على توسيع إمارته في الجليل على حساب المساهين، وذلك بالتوسع في الشمال الغربي تجاه صور وفي الشمال الشرقي في إقليم السواد. وكان هدفه الأول جهة البحر الاستيلاء على صور من الفاطميين. ولتحقيق هذا الغرض شيد حصن تبين في مواجهة ساحل صور، وهو الحصن الذي صار له شأن كبير في تاريخ مملكة بيت المقدس الصليبية<sup>(٢)</sup>. أما في الجهة الشرقية من بحيرة طبرية، فقد دأب هيو على القيام بإغارات في إقليم السواد — سواد طبرية — التابع لدمشق، فشيد هناك حصن عال على بعض المرتفعات الواقعة إلى الجنوب الغربي من البحيرة.

وقد تم بناء هذين الحصنين — تبين وعال — في خريف سنة ١١٠٥، الأمر الذي أزعج طغتكين صاحب دمشق، لأنه رأى في ذلك تهديداً خطيراً للبلاد<sup>(٣)</sup>. وكان أن انقضت جيوش دمشق على هيو حاكم الجليل في نهاية سنة ١١٠٥ أثناء عودته محملاً بالغنائم من إحدى إغاراته على المساهين، فأصيب هيو بجرح خطير مات بسببه، وتشتت رجاله<sup>(٤)</sup>. ولم يصعب بعد ذلك على طغتكين الاستيلاء على حصن عال « بما فيه من آلات وغيرها »، في حين عين بلدوين فارساً فرنسياً

(١) Runciman op. cit, II, p.p 90-91.

(٢) ابن القلانسي، ص ١٥١ &

Guillaume de Try, p. 459.

(٣) ابن القلانسي، ص ١٤٩؛ وقد أطلق ابن القلانسي على حصن عال اسم «عمال»

(٤) ابن الجوزي: مرآة الزمان سنة ٤٩٩ هـ (P. 530)

اسمه جرفيه Gervais ( جرفاش ) ليكون أميراً على الجليل<sup>(١)</sup> .

وسرعان ما استغل المسلمون في عسقلان وصور وصيدا وبيروت فرصة انشغال بلدوين الأول بأمور الجليل بإغارة على طريق يافا — بيت المقدس. وكان أن خرج سبعة آلاف فارس من الحاميات الفاطمية في تلك المدن في ٩ أكتوبر سنة ١١٠٦ إلى سهل نهر العوجة — بين أرسوف ويافا — وقتلوا قرابة خمسمائة من حجاج الصليبيين كانوا مجتمعين هناك . وبعد ذلك أوغل المسلمون حتى الرملة وقتلوا قوة استطلاعية من بعض الفرسان أرسلهم حاكم يافا الصليبي<sup>(٢)</sup> . وقد استمرت تلك القوة الإسلامية تواصل نشاطها ضد الصليبيين فيما بين يافا وبيت المقدس ، حتى إذا ما أحس المسلمون بأن الملك بلدوين في طريقه إليهم ، انسحبوا إلى مدنها الساحلية وتحصنوا فيها . وقد أراد بلدوين أن ينتقم من المسلمين بمهاجمة عسقلان ، ولكنه عدل عن ذلك مؤقتاً لعدم وجود سفن كافية تسانده من ناحية البحر<sup>(٣)</sup> .

وهكذا وجدت مملكة بيت المقدس الصليبية نفسها بين نارين ، أمام هجمات الدامشقة من ناحية الشمال وهجمات الفاطميين من ناحية الجنوب . ففي الوقت الذي أخذ طغتكين أنابك دمشق يهاجم إقليم طبرية ، أخذ صاحب صور يشن هجمات عنيفة ضد حصن تبين<sup>(٤)</sup> . ولم يلبث طغتكين أن نصب كميناً للصليبيين في أوائل ماير سنة ١١٠٨ في الجبال القريبة من طبرية ؛ ففقد الصليبيون كثيراً من الضحايا في ذلك الكمين ، ووقع جرفيه ( جرفاش ) أمير الجليل — « وهو من متدعي الإفرنج المشهورين بالفروسية والشجاعة » — أسيراً في أيدي

(1) Albert d'Aix, p. 635 &

ابن القلانسي ص ١٤٩ هـ

(2) Grousset: Hist. des Croisades. I, pp. 247-248.

(3) Albert d'Aix, pp. 635 - 638.

(4) Setton : op. cit. vol I. P. 386

المسلمين ، فحملوه إلى دمشق مقيدا بالسلاسل<sup>(١)</sup> . وقد أبدى طغتكين استعداداً لإطلاق سراح جرفيه مقابل ثمن باهظ ، هو جلاء الصليبيين عن طبرية وعكا وحيفا . ولكن الملك بلدوين الأول رد عليه بأنه غير مستعد للتنازل عن هذه المدن الثلاث حتى ولو كان الأسرى المطلوب إطلاق سراحهم هم جميع أهل بيته وجميع زعماء الفرنجة . وكان أن أمر طغتكين بقتل جرفيه<sup>(٢)</sup> .

على أن طغتكين لم يلبث أن وجد نفسه في نزاع مع عدد من جيرانه المسلمين ، ففكر في عقد هدنة مع بلدوين الأول ، في الوقت الذي كان الأخير لا يرجو أكثر من مسالة الدماشقة ، ليتفرغ للخطر المستمر الذي هدد يافا والرملة من جانب الفاطميين . لذلك أرسل طغتكين سفارة من خمسة رجال إلى بلدوين ليعقد هذه الهدنة ، فاستقبلهم بلدوين استقبالا حسنا . وقد تحدث كل من أبي المحاسن وابن الأثير عن هذه الهدنة فذكرا أنها كانت لبضع سنوات ، وأن الطرفين اتفقا فيها على اقتسام السواد وجبل عوف ، بحيث يكون ثلث دخلها للفرنجة والثلث الثاني لسلاجقة دمشق والثلث الأخير للفلاحين العرب<sup>(٣)</sup> . ويصف ابن الأثير مدى أهمية هذه الهدنة للمسلمين ، إذ لولاها « لكان الفرنج بلغوا من المسلمين بعد الهزيمة الآتية ذكرها أمرا عظيما ... »<sup>(٤)</sup>

---

(١) ابن الجوزي : مرآة الزمان (P 536) & ابن القلانسي ؛ ص ١٦١ &

Albert d'Aix, p. 657.

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦١ — ١٦٢ &

Guibert de Nogent P 259

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٢ هـ . ٩

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٨٠ . &

(4) Stevenson : op. cit. p 50.

### استيلاء الصليبيين على بيروت وصيدا :

وطوال تلك الأثناء لم يتدخل بلدوين مطلقاً عن فكرة الاستيلاء على بقية المدن الساحلية التي مازالت بأيدي الفاطميين ، وهي عسقلان في الجنوب وصور وصيدا وبيروت في الشمال . وقد أدرك بلدوين أن عسقلان وصور على جانب كبير من المناعة والقوة ، وأنه ليس من السهل الاستيلاء عليها دون استعدادات كبيرة. لذلك اختار أن يبدأ بمهاجمة صيدا في ربيع سنة ١١٠٦ مستغلا فرصة وجود عدد كبير من الحجاج الأنجليز والفاطميين والدانين عندئذ في بيت المقدس ليساعده في ذلك الأمر. وعندما علم حاكم صيدا بذلك أسرع بإرسال مبلغ كبير من المال إلى بلدوين لشراء مسالته، فقبل بلدوين الثمن وكف يده عن صيدا مدة عامين<sup>(١)</sup>.

ثم كان أن وصل إلى شواطئ فلسطين في أغسطس سنة ١١٠٨ عدد كبير من السفن الوافدة من بيزا وجنوا والبندقية وأمالفي، فأراد بلدوين الأول أن يستغل تلك القوة في الاستيلاء على صيدا من الفاطميين، وشرع فعلا في حصارها برا وبحرا . وقد بدأ الصليبيون عملياتهم الحربية الأولى ضد صيدا بنجاح ، ولكن لم يلبث ان تغير مجرى الأمور عندما وصلت إلى مياه صيدا عمارة بحرية فاطمية كبيرة استطاعت أن تنزل الهزيمة بالسفن الإيطالية<sup>(٢)</sup>. وكان ذلك في الوقت الذي طلب حاكم صيدا من طغتكين إمداده بقوة برية تساعد على دفع الصليبيين مقابل تعهده بدفع مبلغ كبير من المال ، فاجب طغتكين النداء وأرسل له نجدة كبيرة ، قدرها المؤرخون بخمسة عشر ألف مقاتل . وهنا أدرك بلدوين أن العملية فاشلة ، فأثر الانسحاب ومعه قواته إلى عكا . ولم يكده ينسحب بلدوين حتى امتنع أهل صيدا عن دفع المبلغ الذي تعهدوا بدفعه لحاكم دمشق ، بل لقد رفضوا أن يسمحوا للدماشقة بدخول المدينة خوفا من أن تكون هناك مؤامرة دبرها

(1) Albert d'Aix; p.p. 632 — 634.

(2) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 253

طغتكين للاستيلاء على صيدا<sup>١</sup> . وعندما هدد سلاجقة دمشق باستدعاء بلدوين لمهاجمة صيدا ، رضخ صاحبها ودفع مبلغا يقرب من ثلث الثمن المتفق عليه<sup>(١)</sup> .  
وفي صيف سنة ١١٠٩ اتجه بلدوين لمساعدة برتراند - ابن ريموند الصنجيلي - في جهوده للاستيلاء على طرابلس ، فسقطت هذه المدينة في ١٤ يوليو في أيدي برتراند مما أدى إلى مولد إمارة طرابلس الصليبية ، كما سيلى فيما بعد . ونكتفي الآن بالإشارة إلى أن برتراند بن ريموند أراد أن يعترف بالجميل لبلدوين الأول ، فساعده في العام التالي في الاستيلاء على بيروت<sup>(٢)</sup> . وقد استمر حصار بيروت عدة أشهر - من فبراير حتى مايو سنة ١١١١ - - وعبثا حاول الفاطميون خلال تلك المدة إرسال نجدات إلى بيروت عن طريق البحر . وعندما يئس صاحب بيروت من وصول مساعدات إليه ، فر في سفينته ليلا إلى قبرس ، فاضطر أهل بيروت إلى التسليم لبلدوين بعد أن حصلوا على وعد منه بالأمان<sup>(٣)</sup> . ومع ذلك فإن الجنوبية والبيزانة أحدثوا مذبحه رهيبه في أهل بيروت المساهمين ، ولم يستطع الملك بلدوين استعادة الأمن والسلام إلا في صعوبة بالغة<sup>(٤)</sup> .

ولم يلبث أن وصل عكا في صيف سنة ١١١٠ أسطول من الحجاج النرويجيين تحت زعامة سيجورد Sigurd ملك النرويج ، فرحب بلدوين الأول بالملك النرويجي ورجاله أجمل ترحيب ؛ ثم رأى - كما دته - أن يستغل تلك القوة في تحقيق مكاسب جديدة لملكه بيت المقدس ، وليتجه الصليبيون تلك المرة ضد صيدا التي فشلوا من قبل في الاستيلاء عليها . وعندما أخذ النرويجيون يحاصرون صيدا بجزراً في الوقت الذي كان بلدوين الأول يحاصرها براً ( أكتوبر

(١) ابن القلانسي ، ص ١٦٢ & Albert d'Aix ; p. 654 ~ 655.

(2) Michaud , op, cit, I, p. 40-44.

(3) Foucher de Chartres p. 51 & Albert d'Aix, P. 671 .

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٧ - ١٦٨ .

(١١١٠) ، شاء حسن حظ الصليبيين أن يأتى إلى الشام أسطول بندقى كبير تحت زعامة دوج البندقية نفسه ، فاشترك مع الأسطول النرويجى فى حصار صيدا ومهاجمتها من ناحية البحر<sup>(١)</sup> . وهكذا أدرك قاضى صيدا وشيوخها أنه لا أمل فى النجاة إلا بالتسليم ، فطلبوا الأمان ( ٤ ديسمبر ١١١٠ ) وعندئذ أمنهم بلدوين وسمح للتقاضى ومعه عدد كبير من الأهالى بالخروج إلى دمشق « وأقام بالبلدخلق كثير تحت الأمان »<sup>(٢)</sup> . وبعد ذلك عاد النرويجيون إلى بلادهم ، فى حين أنعم بلدوين على البنادقة بامتيازات كبيرة فى عكا<sup>(٣)</sup> .

### أطماع يامرويس الاول فى عسقلان وصور :

أما مدينة عسقلان — وهى القاعدة الحربية الرئيسية للفاطميين فى فلسطين — فقد أوشكت هى الأخرى أن تدخل تحت حماية الفرنجة . ذلك أن حاكم عسقلان — شمس الخلافة — أرسل إلى بلدوين الأول « مالا وعروضا » طالبا منه عقد اتفاقية دفاعية بين الطرفين ، مع استعداده لدفع الجزية للصليبيين<sup>(٤)</sup> وقد انزعج الوزير الأفضل لتلك الأخبار ، لأن عسقلان بالذات مفتاح فلسطين ، فأرسل حملة تحت ستار محاربة الصليبيين ، ولكنه أعطى تعليمات سرية لتأيد الحملة لى يعزل شمس الخلافة ويحل محله فى حكم المدينة<sup>(٥)</sup> . على أن شمس الخلافة أوجس خيفة من تلك الحملة . فرفض أن يفتح لها أبواب عسقلان ، كما رفض أن يخرج لمقابلة قائد الحملة ، فعادت أدراجها إلى القاهرة . ويروى ابن الأثير أن

(1) Heyd . op. cit, I, p 142.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، سنة ٥٠٤ هـ &

Guillaume de Tyr, p. 478.

(3) Hevd : op. cit; I, p. 142.

(٤) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٠٤ هـ .

(٥) ابن القلانسى ؛ ص ١٧٢ & Albert d'Aix p p 679—680

شمس الخلافة أخذ يتشكك فيمن حوله من العرب « فأحضر جماعة من الأرمن واتخذهم جنداً »<sup>(١)</sup> ؛ الأمر الذي أساء إلى شعور أهل عسقلان، فثاروا على شمس الخلافة وقتلوه ونهبوا داره ، كما قتلوا عدداً كبيراً ممن بالمدينة من الفرنج في يوليو سنة ١١١١ ؛ وفي الحال أرسلت القاهرة حامية قوية أعادت الأمور إلى نصابها<sup>(٢)</sup> .

وعند ما سمع بلدوين بنخبر تلك الثورة ضد شمس الخلافة ، أسرع إلى عسقلان ، ولكن بعد أن كان كل شيء قد انتهى ، فلم يسعه سوى العودة « وبذلك قدر لعسقلان أن تظل أربعين سنة أخرى شوكة في حلق الصليبيين »<sup>(٣)</sup> .

أما مدينة صور فكانت — مثل عسقلان — من المدن التي استعصت على بلدوين الأول ، لأنها اعتمدت دائماً على الخلافة الفاطمية وتلقت منها الإمدادات . ولكن أهل صور لم يلبثوا أن أحسوا بخرج موقفهم أمام الإغارات الصليبية المتكررة من ناحية ، وعجز الدولة الفاطمية عن مساعدتهم في كثير من الحالات من ناحية أخرى ، ولذلك أتجهوا نحو طغتكين أتا بك دمشق طالبين حمايته بوصفه أكبر قوة إسلامية قريبة منهم . وفعلاً أرسل أهل صور إلى طغتكين يطلبون منه أن يرسل إليهم أميراً من عنده يتولاهم ويحميهم « وإلا سلمنا البلد إلى الفرنج » فأجابهم طغتكين إلى ما طلبوا ، وعين عليهم والياً اسمه مسعود ، وفرق عليهم المؤن والأموال « فطابت نفوس أهل البلد »<sup>(٤)</sup> . وفي الوقت نفسه تم الاتفاق على أن

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٤ هـ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٤ هـ .

Albert d'Aix, p. 481.

(3) Runciman : op. cit, II, p. 95,

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٨ هـ .



يرسل أهل صور مالمديهم من ثروات وأموال يخشون عليها إلى دمشق ، حيث تحفظ أمانة لأصحابها . وعندما علم بلدوين — الذى استاء لهذه الاتفاقية — بموعد خروج القافلة التى تحمل ثروة الصليبيين إلى دمشق ، أطبقت قواته عليها ، وغنم الصليبيون تلك الثروة الطائلة<sup>(١)</sup> .

ويبدو أن الحصار الذى فرضه بلدوين على صور فى نوفمبر سنة ١١١١ لم يكن تاماً لعدم وجود أسطول صياحى قوى يحبس المدينة من ناحية البحر ، مثلما كان الحال فى حصار بيروت وصيدا . حقيقة إن بعض السفن البيزنطية وصلت أمام صور ، ولكن هذه السفن كانت على درجة من القلة والضعف حالت دون قيامها بعمل حاسم . وبعد أن حدثت عدة اشباكات محلية لم يوفق فيها الصليبيون ، لجأ بلدوين الأول إلى بناء ثلاثة أبراج من الخشب قرب صور لمهاجمة المدينة منها ، ووضع فى كل برج ألف رجل . ويروى ابن الأثير أن شيخاً من أهل طرابلس أحرقت تلك الأبراج ، بعد أن رماها بحطب « سقاه بالنقط والزفت والكتان والكبريت »<sup>(٢)</sup> .

أما طغتكين فقد استجاب لنداء أهل صور الذين أرسلوا إليه يعرضون تسليمه مفاتيح أبواب المدينة مقابل حمايتهم ، فذهب إليهم حيث تسلّم البلد ، وقال لهم « أنا ما فعلت إلا لله تعالى لا لرغبة فى حصن ومال ، وحتى دهمكم عدو جئتكم بنفسى ورجالى »<sup>(٣)</sup> . ثم رحل عنهم وأرسل فرقة قوية من جيشه إلى صور ، مما جعل بلدوين يقنط تلك المرة أيضاً من حصار صور ، فانصرف عنها

---

(1) Albert d'Aix, p. 690.

(٢) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٥٠٢ هـ .

(٣) ابن الجوزى : مرآة الزمان سنة ٥٠٦ هـ — ٥٠٨ هـ .

وأخذ يباشر نشاطه في منطقة طبرية ضد أتاكك دمشق<sup>(١)</sup> . كذلك لجأ بلدوين الأول إلى تهديد القوافل التجارية بين دمشق والقاهرة ، فكان يهاجمها في وادي موسى جنوبي البحر الميت وينهب ما تحمله من ثروات وبضائع<sup>(٢)</sup> .

---

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر . ( p 467 )

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٥٨ — ٢١٨ &

Albert d'Aix p. 693,

## الفصل الثالث

### بلدوين الأول والأتراك

هجوم الأتراك على الصليبيين سنة ١١١١، بلدوين الأول وسيزر:

سنعالج الأحداث الصليبية المرتبطة بأنطاكية وعلاقتها بالأتراك في باب آخر مستقل؛ ولكننا مضطرون هنا إلى التعرض لبعض هذه الأحداث في إيجاز، لإيضاح الدور الذي قام به الملك بلدوين الأول ملك بيت المقدس فيها.

ذلك أنه بينما كان بلدوين الأول مشغولا بموضوع خروج شمس الخلافة في عسقلان عن طاعة الخلافة الفاطمية في القاهرة واتجاهه نحو مخالفة الصليبيين، إذا برسالة تصله من بلدوين دي بورج أمير الرها تفيده بأن الأتراك غزوا إمارته. وكان بعض أهالي حلب قد شكوا إلى الخليفة العباسي وسلطان سلاجقة فارس من سياسة حاكمهم رضوان إزاء الصليبيين واستكاثنة لتنكر دحاكم إنطاكية، وطلبوا الجد في جهاد الصليبيين<sup>(١)</sup>، وفي الوقت نفسه وصلت إلى بغداد سفارة من الامبراطور البيزنطي لاستشارة الخليفة والسلطان ضد الصليبيين (تنكرد) «والإيقاع بهم والاجتماع عن طردهم، وترك التراخي في أمرهم واستعمال الجد والاجتهاد في الفتك بهم قبل إعصال خطبهم واستفحال شرهم»<sup>(٢)</sup>. ويبدو أن هذه

---

(١) وصف المؤرخ أبو المحاسن رضوان هذا بأنه «كان بخيلا شحيحا قبيح السيرة، ليس في قلبه رأفة ولا شفقة على المسلمين. وكانت الفرنج تغاور ونسي وتأخذ من باب حلب ولا يخرج اليهم».

(النجوم الزاهرة، ج ٥ ص ٢٠٥).

(٢) ابن القلاسي: ذيل تاريخ د. شق ص ١٧٣.

التيارات استنارت المسلمين في بغداد ضد الخليفة العباسي المستنصر والسلطان محمد السلجوقي لماطلتهما في الجهاد ، فهبت الثورة ، وصاح الناس في السلطان «أما تتقى الله تعالى أن يكون ملك الروم أكثر حمية منك للإسلام، حتى أرسل إليك في جهادهم !» (١) .

وإزاء تلك الثورة العنيفة ، أرسل الخليفة إلى حميه السلطان محمد السلجوقي في أصفهان يستحثه على القيام بعمل ما ضد الصليبيين ، فلجأ السلطان بدوره إلى تكليف مودود أتابك الموصل بجهاد الصليبيين في إبريل سنة ١١١١ (٢) . وعندما استعان مودود بجيرانه من الترك والأكراد - مثل أمراء ميفارقين ومراعة وأربل وهمدان وغيرهم - أحس بلدوين دى بورج أمير الرها بتلك التجمعات الإسلامية على حدود إمارته ، فشرع في تحصين الرها ، وخزن الميرة والطعام فيها ، مما جعل مودود ينصرف عن حصار الرها إلى ثانی مدن تلك الإمارة الصليبية ، وهي مدينة تل باشر غربى الفرات ( ٢٨ يوليو ) .

على أن أمير تل باشر الصليبي نجح هو الآخر في مقاومة الحصار (٣) ، في الوقت الذي طلب أمير شيزر بالشام النجدة ضد تنكرد صاحب أنطاكية ؛ كما أن رضوان ملك حلب تظاهر بالاستقامة فطلب مساعدة المسلمين ضد تنكرد . لذلك فكر مودود في مهاجمة إمارة أنطاكية الصليبية بمساعدة حلب ، وعندئذ كشف رضوان النقب عن وجهه ، وظهر أنه يخشى خطر سلاجقة فارس أكثر من خشيته خطر الصليبيين ، فأغلق أبواب مدينته في وجه مودود ، ورفض أن يتعاون معه ضد الصليبيين . وهكذا لم يبق أمام مودود سوى طغتكين أتابك

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٥ هـ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٥ هـ .

(٣) ابن القلانسی : ذیل تاریخ دمشق ص ١٧٥ هـ .

دمشق ، الذي كان يأمل في غزو طرابلس بمساعدة مودود ، فالتقى به قرب معرة النعمان ، واتفقا على الاشتراك في حرب الصليبيين<sup>(١)</sup> . ولكن طغتكين لم يلبث هو الآخر أن تخوف من ذلك الجيش السلجوقي الكبير الذي كان تحت إمرة مودود . ومن يدري فربما انتهز سلاجقة فارس تلك الفرصة التي أتاحتها لهم الحروب الصليبية لانتزاع دمشق منه ، ويرى ابن الأثير أن طغتكين عند ما اجتمع بالأمر مودود « اطلع من الأمراء على نيات فاسدة في حقه ، فخاف أن تؤخذ منه دمشق فشرع في مهادنة الفرنج مرأاً<sup>(٢)</sup> . وهكذا لم تلبث أن باءت جهود السلاجقة بالنشل ، بعد أن أخذ كل أمير منهم يتشكك في الآخر ، وبقي مودود في نهر العاصي مع طغتكين ، حليفة غير الوفي<sup>(٣)</sup> .

أما الصليبيون فسرعان ما أظهروا تماسكاً قوياً ، وتناسوا ما بين بعضهم وبعض من خلافات ؛ فانسحب تنكرد من أمام شيزر — التي كان يهاجمها — وعاد إلى فامية مسرعاً ، ومن هناك أرسل إلى الملك بلدوين الأول طالباً مساعدته ضد المسامين<sup>(٤)</sup> . ولم تلبث أن تجمعت قوات بيت المقدس وطرابلس وأنطاكية والرها قرب فامية — في الجزء الأوسط من حوض نهر العاصي — ومن ذلك الموقع بالذات كان يمكنهم الإشراف على شمال الشام ، فضلاً عن شاطئ لبنان وفلسطين . ويبدو أن مودود خشي الالتحام مباشرة مع تلك الحشود الصليبية التي بلغت نحواً من ستة عشر ألفاً ، فدخل على رأس جيوشه مدينة شيزر ومعه طغتكين في ١٥ سبتمبر سنة ١١١١ ، وذلك للاحتماء بها ، ونصب جنودها خيامهم فوق أسطح

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٧ .

ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٥٠٥ هـ .

(٢) ابن الأثير : السكامل ؛ حوادث سنة ٥٠٥ هـ .

(3) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 266

(4) Runciman : op. cit; I. P. 122.

المنازل<sup>(١)</sup> . وكان أن تحركت القوات الصليبية هي الأخرى - وعلى رأسها ملك بيت المقدس وأمراء طرابلس وأنطاكية والرها - إلى شيزر ، حيث عسكرت في مواجهة المدينة . ولم تلبث أن ساءت الأوضاع في معسكر المساهين ، إذ أصر طغتكين على أن يستجيب له بتمية أمراء المسلمين في الزحف جنوباً لمهاجمة طرابلس ، وهو أمر لم يقره عليه باقى زعماء القوى الاسلامية المتحالفة . أما برسق أمير شمدان فقد مرض ورغب في العودة ، في حين توفي نجاة سكان صاحب ميفارقين فانسحبت قواته ومعها جثمانه راجعة من حيث أتت . وكذلك احتار أحمد بك الثانى صاحب مراغة العودة إلى إمارته لبعض المشاغل الداخلية<sup>(٢)</sup> . وهكذا رأى مودود حلفاءه وقد انفضوا عنه ، مما جعله لا يتولى بمفرده على منازل الجيش الصليبي الكبير الذى ظل متماسكاً مستعداً للمعركة . لذلك لم يتعد الأمر بعض المناوشات التى قام بها فرسان السلاجقة لمنع الصليبيين من الوصول إلى مياه النهر للشرب ، ثم عاد مودود إلى الموصل وطغتكين إلى دمشق<sup>(٣)</sup> .

وإذ كانت تلك الحملة السلجوقية لم تحقق شيئاً للجانب الاسلامى ، بل على العكس أظهرت تفكك المسلمين عندئذ وعدم وحدتهم ، فإنها حققت الكثير بالنسبة للصليبيين . ذلك أنها جمعت صفوف القوى الصليبية في شمال الشام وجنوبها ، وحققت لبلدوين ملك بيت المقدس نوعاً من الزعامة والأولوية على بتمية أمراء الصليبيين<sup>(٤)</sup> . وكفى أن تنكرد - الخصم العتيد لبلدوين الأول - اعترف بتلك الزعامة ، وحأكاه في ذلك بلدوين دى بورج ، فصار بلدوين الأول يتصرف

(١) ابن القلانسى ، ص ١٧٧ .

(2) Runciman : op. cit. I. p. 123.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٥ هـ .

ابن القلانسى : ص ١٧٧ - ١٧٨ .

Albert d'Aix, P. 684.

(4) Setton : op. cit; I, p. 400.

في حملة سنة ١١١١ بوصفه القائد الأعلى لتوات الصليبيين، والزعيم الأوحده الذي دان له بالطاعة أمراء الرها وأنطاكية وطرابلس . ومنذ ذلك الوقت فصاعداً — حتى سنة ٨٦١١ — صار الصليبيون في بلاد الشام يؤلفون جبهة متماسكة، على الرغم من قيام تلك الجبهة على أسس إقطاعية . وبعبارة أخرى فإن النظم والتقاليد الملكية التي وضع أساسها الملك بلدوين الأول نجحت في أن تحقق للصليبيين ببلاد الشام قدراً من الاستقرار السياسي استمر نحواً من خمسة وثمانين سنة<sup>(١)</sup> .

### هجوم المراك سنة ١١١٣ ، صوفه الصنيرة

على أنه إذا كانت حملة سنة ١١١١ التي قام بها السلاجقة ضد الصليبيين قد باءت بالفشل وانتهت إلى لاشيء ، فإن هذه النتيجة لا ينبغي أن تقلل من قيمة جهود مودود أتابك الموصل ، وهورجل عرف بالتقوى والورع وتمسكه بفكرة الجهاد الديني<sup>(٢)</sup> . والواقع إن فشل تلك الحملة إنما يرجع أولاً إلى عدم إخلاص رضوان مالك حلب وطغتكين أتابك دمشق ، وتخونها من قوة مودود . لذلك عاد مودود إلى الموصل حزينا كاسف البال ، واكتفى مؤقتاً بمراقبة حدود الجزيرة ومسالك الشام ، تحقيقاً لرغبة الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي .

ثم كان أن تغيرت الأوضاع في بلاد الشام سنة ١١١٣ ، وكان ذلك عندما دخل طغتكين في صراع مع الملك بلدوين الأول حول صور — كما سبق أن رأينا — مما أثار الحزازات بينهما مرة أخرى . وعندئذ أتجه طغتكين نحو مودود أتابك الموصل « فأرسل إليه يعرفه الحال ويستنجده ويحثه على سرعة الوصول

(١) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. p. 268.

(٢) وصف أبوالمحسن مودود بأنه « كان من خيار الملوك ديناً وشجاعة وخيراً » .  
(النجوم الزاهرة ج ٥ ، ص ٢٠٧) .

إليه . «<sup>(١)</sup> والواقع إن مودود — لم يكن في حاجة إلى تحريض لمواصلة الجهاد، فعبر الفرات عند منتصف مايو سنة ١١١٣ ، وتبعه بعض أمراء السلاجقة في إقليم الجزيرة . وبعد أن تجمعت الجيوش السلجوقية عند سلمية — إلى الجنوب الشرقي من حماه — أجهت مباشرة صوب بحيرة طبرية . ولم يلبث مودود وطفتهكين أن حاصرا مدينة طبرية المنيعه ، وعندما استعصت عليهما ، أخذ السلاجقة يدمرون وينهبون الممتلكات الصليبية المجاورة حتى جبل الطور<sup>(٢)</sup> . على أن طفتهكين ومودود سمعا بأقتراب الصليبيين ، فاحتميا بسرعة في شبه الجزيرة التي يصنعها نهر الأردن مع نهر اليرموك جنوبي بحيرة طبرية ، وهي الجهة التي تعرف بالأقحوانه<sup>(٣)</sup> وكان الملك بلدوين في عكا عندما بلغه نبأ الحملة السلجوقية على إقليم طبرية، فأرسل في الحال يطلب المساعدة من أمراء أنطاكية وطرابلس . وفي ذلك الوقت كان روجر الصقلي Roger de Sicile قد خلف عمه تنكرد — الذي توفي سنة ١١١٢ — في حكم أنطاكية ؛ في حين خلف بونز Pons أباه برتراند في حكم طرابلس ، فقرر الأميران الإسراع لنجدة الملك بلدوين . غير أن بلدوين الذي طلب المساعدة لم يشأ أن ينتظرو وصولهما ، فنتعجل في مهاجمة السلاجقة دون أن يعتبر بما سبق أن حل به عند الرملة سنة ١١٠٢ . ولم يكد الملك بلدوين الأول يصل إلى جسر الصنبرة — إلى الجنوب الغربي من بحيرة طبرية — في ٢٠ يونيو سنة ١١١٣ ، حتى ذكر مودود وطفتهكين في نصب كمين له<sup>(٤)</sup> . وكان أن وقع بلدوين الأول في الكمين ، ولم ينتج ومعه البطرق أنرول مالكورن — إلا بمشمة

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٧ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٧ هـ .

Albert d'Aix, p. 694.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٧ هـ .

(٤) ابن الجوزي : مرآة الزمان ص ٥٤٦ — ٥٤٧ هـ .

ابن القلانسي : ص ١٨٥ هـ



بالغة ، في حين وقع جميع المشاة ، ومعهم متاع الملك نفسه في أيدي السلاجقة . هذا عدا من غرق من الصليبيين في نهر الأردن أو في بحيرة طبرية<sup>(١)</sup> ؛ حتى قدرت خسائر الصليبيين في تلك الموقعة بألف ومائتين من المشاة وثلاثين من الفرسان (٣٨ يونيو ١١١٣)<sup>(٢)</sup> .

ولم يلبث أن وصل روجر أمير أنطاكية وبونز Pons أمير طرابلس ومعهما رجالهما ، وبذلك « قويت نفوس الفرنج » وأخذت تتجمع القوى الصليبية مرة أخرى لمواجهة السلاجقة . وقد أحس الصليبيون بالتفوق العددي لخصومهم ، ولذلك تحاشوا الاشباك معهم في موقعة فاصلة ، واكتفوا بالاحتفاء ببعض المرتفعات الواقعة غربي بحيرة طبرية ، « فالتجأوا إلى جبل في المنزل » وظلوا قابعين في مكنتهم ستاً وعشرين يوماً « والمسلمون بإزائهم يرمونهم بالنشاب ، ومنعوا الميرة عنهم ، لعلمهم يخرجون إلى قتالهم ؛ فلم يخرج منهم أحد »<sup>(٣)</sup> .

ومن الواضح أن هذه الخطة الجامدة التي لجأ إليها الصليبيون أتاحت الفرصة للسلاجقة ، فخرّبوا المراكز الصليبية في إقليم الجليل حتى وصلوا إلى بيسان وناבלس « ولم يبق بين عكا والقدس ضيعة عامرة »<sup>(٤)</sup> .

ثم كان أن ازداد موقف الصليبيين حرجاً في ذلك الوقت عند ما قامت حامية عسقلان بهجوم على بيت المقدس نفسها ، مستغلة فرصة جمود الملك بلدوين

---

(١) يذكر ابن الأثير أن الملك بلدوين نفسه وقع أسيراً في تلك المعارك ، ولكن المسلمين لم يعرفوه فأخذوا سلاحه وأطلقوا سراحه (الكامل ، سنة ٥٠٧ هـ)

(2) Guillaume de Tyr, I p. 485. &

Foucher de Chartres. p. 426.

وقد قدر صاحب مرآة الزمان عدد قتلى الصليبيين في موقعة الصنبرة « بألفي فارس .

من الشجعان والأبطال » ( p. 547 )

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٧ هـ .

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٦ ؟

ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٧ هـ

الأول والجيش الصليبي قرب طبرية<sup>(١)</sup>. وهكذا تقدم الجيش الفاطمي من عسقلان يدمر وينهب ويقتني أثر الصليبيين حتى وصل إلى أسوار بيت المقدس ولكن حامية بيت المقدس ومن بقى فيها من الفرسان ظلت متمتعة تماما ، في الوقت الذي كان الجيش الفاطمي الذي خرج من عسقلان صغير العدد لا يستطيع القيام بعمل حربي ضخم ضد المدينة ، مما جعل المسلمين يشرعون في العودة إلى عسقلان في الليلة نفسها التي بلغوا بيت المقدس<sup>(٢)</sup> . ومن الواضح أنه لو كانت هناك عندئذ خطة شاملة توحد جهود القوى الإسلامية ، لأمكن أن تقوم الدولة الفاطمية بعمل حربي كبير يهدد الصليبيين تهديداً خطيراً ويجعلهم بين نارين<sup>(٣)</sup> .

ولم يلبث أن وصل إلى عكا في شهر أغسطس عدد من الحجاج الغربيين ، قدرتهم المراجع بستة عشر ألفاً<sup>(٤)</sup> مما بدل الموقف فجأة لصالح الصليبيين ، لاسيما وأن مودود وطغتكين لم يحاولا إطلاقاً الاستفادة من النصر الذي أحرزاه على بلدوين الأول عند الصنبرة . وكان أن انصرف مودود وطغتكين إلى دمشق ، وهناك أذن مودود لرجال جيشه «في العودة والاستراحة ثم الاجتماع في الربيع لمعاودة الغزاة»<sup>(٥)</sup> . أما مودود نفسه فقد بقى — ومعه بعض خواصه — في دمشق في ضيافة طغتكين ، وذلك لحين استئناف الحرب ضد الصليبيين (أوائل سبتمبر ١١١٣)<sup>(٦)</sup> .

(1) Stevenson : op. cit; p 63.

(2) Foucher de Chartres P. P. 426-427

(3) Grousset : Hist. des Croisades. I. P 274.

(4) Albert d'Aix, P 696 &

Guillaume de Tyr, P. 487.

(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٧ هـ.

(6) Setton : op. cit. P. 402

### مقتل مودود؛ التعاليف بين أتايك دمشق والصليبيين :

ولم تمض بضعة أسابيع حتى قتل مودود في الجامع الأموي بدمشق بيد أحد الباطنية ، وذلك عند ذهابه لتأدية صلاة الجمعة<sup>(١)</sup> . وقد اتهم المؤرخون — مثل ابن الأثير وابن القلانسي — طغتكين بالتآمر على ضيفه وتحريض ذلك الباطني على قتله<sup>(٢)</sup> . والواقع أننا لا نستبعد أن يكون وجود مودود في دمشق قد أثار مخاوف طغتكين الذي خشى أن يكون الغرض من حركة الجهاد هو رغبة سلطان السلاجقة في بسط سيطرته على دمشق تحت ستار محاربة الصليبيين . وربما كان في تعجل طغتكين في قطع رقبة التانل في الحال وإحراق جثته دليلا على رغبته في طمس معالم الجريمة والتخلص من أذاتها، فضلا عن إظهار استنكاره لتلك الجريمة<sup>(٣)</sup> . ولم ينفرد المؤرخون المسلمون وحدهم بتوجيه ذلك الاتهام إلى طغتكين، بل شاركهم في هذا الرأي أيضاً بعض المؤرخين الصليبيين<sup>(٤)</sup> .

ومهما يكن من أمر ، فإن الصليبيين هم الذين استفادوا من تلك الجريمة ، في الوقت الذي أحس طغتكين باتهام الرأي العام الإسلامي له ، فلم يجد حليفا يطمئن إليه سوى الصليبيين . وهكذا ثبت أن أمراء الشام في ذلك الوقت لم يقدرُوا المصلحة العليا للعالم الإسلامي ، وأنهم رفضوا التضحية بمصالحهم الخاصة في سبيل الصالح العام ، مما دفعهم إلى مخالفة الصليبيين للاحتفاظ باماراتهم، خوفاً من أن تلتهمها سلطنة السلاجقة في فارس واحدة بعد أخرى<sup>(٥)</sup> .

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٩ .

(٢) « فقيل إن الباطنية بالشام خافوه وقتلوه، وقيل بل خافه طغتكين فوضع عليه من قتله » . ( ابن الأثير : السكامل ؛ حوادث سنة ٥٠٧ هـ .

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٧ .

(4) Guillaume de Tyr, p. 487. &

(5) Albert d'Aix; p. 700.

(5) Grousset : Hist des Croisades, I; P 276-277

### حملة السلجوقية سنة ١١١٥:

وكان أن تعرضت الممتلكات الصليبية في شمال الشام والعراق لزلزال عنيف في نوفمبر سنة ١١١٤، دمر بلادهم من أنطاكية والمصيصة إلى مرعش والرها<sup>(١)</sup>، فرأى السلطان محمد السلجوقي أن يستغل تلك الظروف وما نجم عنها من تصدع أسوار المدن والقلاع الصليبية لإرسال حملة جديدة إلى بلاد الشام بزعامة برسق؛ إحصار الصليبيين فضلا عن الانتقام من طغتكين أتابك دمشق والقضاء على إيلغازي أمير ماردين<sup>(٢)</sup>. ولم تسكد تلك الحملة تعبر الفرات في مايو سنة ١١١٥، حتى أجمع الأمراء — سواء من المسلمين أو المسيحيين — على مقاومتها. فمن الجانب الإسلامي قاوم تلك الحملة إيلغازي بن أرتق أمير ماردين، ولؤلؤ الخادم الوصي على حلب، وطغتكين أتابك دمشق؛ في حين قاومها من الجانب المسيحي، روجر أمير أنطاكية وبونز أمير طرابلس. ومعنى ذلك أنه لم يبق على ولائه من أمراء الشام المسلمين لسلطان السلاجقة سوى بني منقذ في شيزر وابن قراجه صاحب حمص. ومع ذلك فإن برسق لم يبال بذلك العداء الذي صادفه من أمراء الشام على اختلاف أديانهم ومللهم، فمضى في طريقه يهاجم الأمراء المسلمين والمسيحيين جميعاً<sup>(٣)</sup>.

وهكذا استولى برسق على حماه التي كانت تابعة لطغتكين «وبها ثقله» كما هاجم قلعة فامية (أفامية) التي كانت تابعة لإمارة أنطاكية الصليبية<sup>(٤)</sup>، الأمر الذي أدى إلى التقارب بين الأمراء المسلمين والمسيحيين بالشام وجعلهم

(1) Archer : op cit P 151

(٢) خرج مع برسق «الإمير جيوش بك والامير كنتغدى وعساكر الموصل والجزيرة وأمرهم (السلطان) بالبداة بقتل إيلغازي وطغتكين، فإذا فرغوا منهم قصدوا بلاد الفرنج وقاتلوهم وحصروا بلادهم». (ابن الأثير الكامل، سنة ٥٠٩هـ).

(3) Runciman : op. cit, I, p. 131.

(٤) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٠٩هـ.

يقتفون على مقاومة العدو المشترك . من ذلك ما يرويّه ابن الأثير من أن طغتكين وقائد حلب شمس الخواص أسرعاً إلى طلب معونة أمير أنطاكية الصليبي ضد برسق<sup>(١)</sup> ، في حين ذكر المؤرخ الصليبي وليم الصوري أن أمير أنطاكية هو الذي بدأ بطلب محالفة طغتكين ضد الخطر المشترك . وسواء صححت هذه الرواية أم تلك فالمهم هو أن حملة برسق أدت إلى نوع من التقارب بين الأمراء المسلمين والصليبيين بالشام ، مما أدى إلى عقد اتفاقية بين أتابك دمشق والوصى على حلب من جهة وبين ملك بيت المقدس وأمير أنطاكية « وغيرهما من شياطين الفرنج » من جهة أخرى ، واستهدف ذلك الحلف الإسلامي الصليبي الجديد مقاومة سلاجقة فارس ومنعهم من غزو بلاد الشام<sup>(٢)</sup> .

وكان أن احتشدت فعلا قوات دمشق وقوات حلب جنباً إلى جنب مع قوات بيت المقدس وأنطاكية عند أفامية لمواجهة برسق ، الأمر الذي جعل برسق يدرك صعوبة موقفه وأنه من المجازفة الاشتباك مع ذلك العدد الضخم المتحالف من الأعداء ، فأثر الانسحاب إلى الجزيرة . ولم يكذب برسق ينصرف عائداً إلى الجزيرة حتى اعتقد ملك بيت المقدس وأمير طرابلس أن الخطر زال ، فانصرفا بجيوشهما . ولكن برسق لم يلبث أن عاد بعد قليل وعندئذ واجهه الصليبيون وأنزلوا به الهزيمة عند دانيث في ١٤ سبتمبر ، وقضوا على معظم جيشه « وتفرق العسكر وأخذ كل واحد جهة » . أما برسق نفسه فلم يستطع الفرار إلا في صعوبة ، ويقال إنه مات بعد عدة أشهر « وقد ندم على الهزيمة » ؛ وعندئذ لم يفكر السلطان محمد السلجوقي في المغامرة بحملة أخرى ضد الصليبيين في بلاد الشام<sup>(٢)</sup> .

(١) المرجع السابق

(2) Setlou : opcit I PP 404

(٢) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٥٠٩ هـ .  
وقد وصف ابن الأثير برسق بأنه كان « خيراً ديناً » .

وفي الوقت الذي كان بلدوين الأول مشغولاً بحملة برسق على شمال الشام «  
عادت حامية عسقلان إلى مهاجمة يافا وبعراً ، ولكن حامية يافا الصليبية  
صمدت أمام ذلك التهديد . وعندما علم الفاطميون بعودة الملك بلدوين  
من شمال الشام ، أسرعوا بالانسحاب إلى عسقلان دون أن يحققوا غرضهم  
( سبتمبر ١١١٥ )<sup>(١)</sup> .

---

(1) Guillaume de Tyr, I P. P. 494-495.

## الفصل الخامس

### سياسة بلدوين الأول

وصولته إلى البحر الأحمر وغزو مصر:

وبعد أن اطمان الملك بلدوين الأول من ناحية سلاجقة فارس وانفصام العروة التي كانت تربطهم بامارات الشام الإسلامية ، بدأ يفكر في عدة مشاريع توسعية قام بها في جرأة بالغة . ذلك أن بلدوين الأول عمل على حماية مملكة بيت المقدس من ناحية الجنوب الشرقي، وذلك عن طريق السيطرة على الصحراء الممتدة جنوبي البحر الميت حتى خليج العقبة ، وهي المنطقة المعروفة باسم وادي عربة . ومن الواضح أنه مع ما لهذا المشروع من أهمية دفاعية ، فإنه يمكن الصليبيين أيضا من عزل مصر عن بقية العالم الإسلامي في الشرق وقطع الطريق البري بينها وبين الشام والعراق والحجاز (١) .

وقد بدأ بلدوين الأول بالسيطرة على وادي عربة جنوبي البحر الميت ، ثم شيد سنة ١١١٥ حصن الشوبك ليكون مركزا يمكن الصليبيين من السيطرة على وادي عربة بأجمعه (٢) . وفي العام التالي ( سنة ١١١٦ ) خرج بلدوين في حملة أخرى ، ومضى حتى أيلة على ساحل خليج العقبة حيث فر الأهالي من وجهه خوفا . وقد بنى بلدوين في أيلة أيضا قلعة حصينة للتحكم في الطريق البري للقوافل بين مصر والشام (٣) ، كما شيد قلعة أخرى في جزيرة فرعون

(1) Grousset ; L'Empire du Levant, p. 213.

(2) Runciman : op. cit; I. p. p. 97-98.

(3) Setten : op. cit, I, p, 406.

الواقعه قبالة أيلة في خليج العقبة . وبذلك تمكن الصليبيون من الإشراف على شبه جزيرة سيناء الواسعة التي أخذت تحرك في قلوبهم ذكريات ومشاعر دينية عزيزة عليهم . هذا وإن كان رهبان دير القديسة كاترينة في شبه جزيرة سيناء قد رفضوا أن يستضيفوه بديرهم خشية انتقام الفاطميين في القاهرة ، مما جعل بلدوين ينصرف عائداً إلى بيت المقدس (١) .

وبعد أن أبل بلدوين الأول من المرض الذي أصابه أثناء عودته من أيلة إلى بيت المقدس ، قام بمحاولة أخرى للاستيلاء على مدينة صور التي لم يبق للفاطميين غيرها — فضلاً عن عسقلان — من موانئ الشام . ويبدو أن صور كانت مركز متاعب كثيرة للصليبيين في الشام ، حيث خرجت منها في تلك الفترة عدة إغارات لمهاجمة الممتلكات الصليبية القريبة ، فضلاً عن أنها كانت مركزاً بحرياً تأوى إليه السفن الفاطمية التي تهدد الأساطيل الصليبية (٢) . ولكن حاجة بلدوين إلى أسطول قوى لم تمكنه من الاستيلاء على صور ، وعندئذ شيد قلعة منيعة جنوبي صور — هي اسكندورنة — لإحكام الحصار على صور ، وكان ذلك سنة ١١١٦ (٣) .

وهكذا يمكن القول بأن مملكة بيت المقدس الصليبية وصلت سنة ١١١٦ على يد ملكها بلدوين الأول إلى حدودها التاريخية المعروفة ، وذلك باستثناء عسقلان وصور ؛ ولم يبق بعد ذلك أمام بلدوين إلا أن يهاجم الفاطميين في عتر دارهم ليشعرهم بقوته بعد أن أحس هو بضعفهم (٤) وربما استهدف بلدوين من مهاجمة الفاطميين أن يضطرهم إلى الاستعانة بحاميتي صور وعسقلان ، فيستولى على هاتين

(1) Albert d'Aix, p. 703 .

(2) Stevenson : op. cit. I p. p. 65-66.

(3) Guillaume de Tyr p. p. 507

(4) Grousset ; Hist. des Croisades I; p. 283.



المدينتين في غير عناء<sup>(١)</sup>. على أن بلدوين الأول لم يحاول أن يحشد جميع قوى الصليبيين في الشام لغزو الدولة الفاطمية ، وإنما خرج على رأس مائتين من الفرسان تقريبا وأربعائه من المشاة فقط ، مما يثبت أنه لم يكن ينوى القيام بعمل حربي واسع النطاق<sup>(٢)</sup>.

وكان أن استطاع بلدوين أن يعبر الصحراء الممتدة من غزة حتى العريش والفرما دون أن يتعرض لتهديد من جانب البدو ، الذين خشوا خطر الصليبيين فسهلوا لهم الحصول على مالزمهم من زادوماء<sup>(٣)</sup>. ولم يلبث أن وصل الصليبيون في ٢١ مارس سنة ١١١٨ إلى الفرما واستولوا عليها ، وهي أول المراكز الأمامية في الأراضي المصرية<sup>(٤)</sup>. وكانت دهشة الصليبيين عظيمة عندما دخلوا الفرما فوجدوها خالية بعد أن هجرها أهلها من المصريين وتركوا فيها متاعهم ، مماهيا للغزاة قدراً كبيراً من الغنائم. وبعد أن أحرق بلدوين جامع الفرما ومساجدها<sup>(٥)</sup>، أتجه غرباً نحو مصب النيل . ويروي ابن الأثير أن بلدوين الأول وصل إلى مدينة تنيس جنوبي بحيرة المنزلة ؛ كما يشير بعض المؤرخين الصليبيين إلى أنه وصل إلى مصب نهر النيل فعلاً<sup>(٦)</sup>.

على أن بلدوين الأول كان لا يستطيع أن يمضى أكثر من ذلك لصغر قوته

---

(1) Archer : The Crusades. p. 140.

(٢) ويلاحظ أن هذا الرأي يتعارض مع ما ذكره ابن الأثير من أن بلدوين في تلك الغزوة إنما كان «قاصداً ملك مصر والتغلب عليها وقوى طمعه في الديار المصرية». (الكامل ؛ حوادث سنة ٥١٢ هـ) .

(3) Albert d'Aix. p. 705.

(4) Michaud : op. cit; I, p. 52.

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٧١

(٦) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٢ هـ

Guillaume de Tyr. p. 508.

أولاً ثم لمرضه ثانياً ، وهو المرض الذي لم يلبث أن توفي بسببه قرب العريش في ٢ أبريل سنة ١١١٨ (١) .

### تعمير بيت المقدس بالسريان والأرثوذكس :

ومن الأعمال الداخلية التي قام بها الملك بلدوين الأول قبل أن يقوم بحملته على مصر ، تعمير بيت المقدس بمجموع المسيحيين الشرقيين من الأرثوذكس والسريان . وكان الباعث لبلدوين على هذا التفكير التجربة القاسية التي مر بها أثناء هجوم السلاجقة على إقليم الجليل سنة ١١١٣ ، إذا انتهز المزارعون وأهل الإقليم من المسلمين تلك الفرصة وخرجوا عن طاعة الصليبيين في الوقت الذي هدد الفاطميون بيت المقدس وهي شبه خاوية لتغيب بلدوين ورجاله عنها . وكان من الطبيعي أن يبدأ بلدوين بتعمير بيت المقدس أولاً وهي كبرى مدن المملكة ، فضلاً عما لها من مكانة في قلوب الصليبيين جميعاً (٢) .

والواقع أن بيت المقدس وغيرها من مدن الشام كانت زاخرة بأعداد كبيرة من المسيحيين المحليين ، وذلك عند وصول الصليبيين إلى الشرق . ولكن ما فعله أولئك المسيحيون الشرقيون من الترحيب بالصليبيين ومساعدتهم — وبخاصة في أنطاكية والرها — جعل المسلمين لا يطمأنون إليهم ويطردونهم من بقية المدن

(١) ذكر ابن الأثير أن سبب وفاة بلدوين أنه سميح في النيل عند تنيس « فانتقض جرح كان به » (حوادث سنة ٥١٢ هـ) في حين ذكر غيره من المؤرخين أن وفاته كانت بسبب أكلة سمك من بحيرة المنزلة. وذكر أبو المحاسن أنه عند وفاة بلدوين شق أصحابه بطنه وصبروه (حنظوه) ورموا أحشائه هناك فعرف ذلك المكان حق اليوم بسبخة بردويل أو البردويل (قرب بور سعيد الحالية) واعتاد الناس أن يرموها إلى أيام أبي المحاسن (النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٧١) .

(2) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 284.

التي كانت لاتزال تحت سيطرة المسلمين ، وبخاصة بيت المقدس<sup>(١)</sup> . ولم يلبث أن استولى الصليبيون على بيت المقدس وكثير من أقاليم الشام ، فعمدوا بدورهم إلى طرد المسلمين منها . وهكذا أمست بيت المقدس تشكو فراغاً ضخماً وتنقصاً كبيراً في السكان بعد أن فقدت معظم أبنائها المحليين من المسلمين والمسيحيين سواء<sup>(٢)</sup> . هذا في الوقت الذي كان الصليبيون أنفسهم قلة ، وتعجل كثير من الحجاج الوافدين من الغرب في العودة إلى أوطانهم بعد زيارة الأماكن المقدسة . فإذا أضفنا إلى ذلك أن الصليبيين الذين استقروا في الشام اشتغلت غالبيتهم بشئون الحرب والحكم ، وأنهم كانوا موزعين على عدد كبير من المدن والمعازل لحراستها ، أدر كنا مدى حاجة مملكة بيت المقدس بوجه خاص إلى سكان نشطين تظمن إليهم للنهوض بأعباء النشاط العمراني من زراعة وتجارة وصناعة وغيرها<sup>(٣)</sup> .

ولما كان من المستحيل أن يفكر بلدوين في الاعتماد على المسلمين في هذه المهام ، فإنه لم يبق أمامه سوى المسيحيين المحليين ، وبخاصة المشتتين منهم شرقي نهر الأردن وفي حوران ، وكانت بلاد الشام بوجه خاص تضم طوائف عديدة من المسيحيين المحليين مثل الموارنة في طرابلس والسريان والأرمن في أنطاكية والأرمن والنساطرة في الرها . وعندئذ فتح الملك بلدوين الأول أبواب مملكته أمام هذه الطوائف جميعها واتصل بهم سراً وأغراهم على الهجرة إلى المدينة المقدسة حتى اكتظت بيت المقدس بأعداد من الأرثوذكس والأرمن<sup>(٤)</sup> .

وهكذا يمكن القول بأن مملكة بيت المقدس قامت على أساس الترابط الشديد بين سكانها من المسيحيين الغربيين الكاثوليك من جهة والمسيحيين

(1) Guillaume de Tyr, P 500

(2) Runciman : op cit II. P. 100.

(3) Grousset : L'Empire du Levant, p. p 311-312.

(4) Richard : Le Royaume Latin. p. 124.

الشرقيين من جهة أخرى . وقد استطاع الملك بلدوين الأول أن يوفق بين الجميع رغم اختلاف مذاهبهم، ليعملوا جميعاً في إنعاش الأرض المقدسة وحمايتها. ولتحقيق هذا الترابط شجع بلدوين الأول التزاوج بين المسيحيين الغربيين والشرقيين ، وضرب هو نفسه مثلاً لذلك بزواجه من شرقية . وإذا كان قليل من الأمراء الغربيين قد أقبلوا على الزواج من المسيحيات الشرقيات فان جمهرة الفرسان الصليبيين وصغار جندهم لم يحدوا غضاضة في ذلك ، الأمر الذي أدى إلى ظهور جيل مولد في بلاد الشام قدر له أن يحمل عبء الدفاع عن الصليبيين فيما بعد عند ما تناقص عدد الوافدين من الغرب<sup>(١)</sup> .

#### سياسة بلدوين الأول المرفيئة :

على الرغم من أن شخصية بلدوين الأول ليس لها الطابع الديني القوي الذي اعتادت الأساطير المعاصرة أن تلصقه بأخيه جودفري<sup>(٢)</sup> ، إلا أنه من الثابت أن بلدوين الأول كان حريصاً على أن يجعل سيطرته على الكنيسة حقيقة واقعة<sup>(٣)</sup> . وقد دفع ذلك الملك بلدوين إلى العمل على محاربة فكرة إقامة حكومة ثيموقراطية في بيت المقدس، وهي الفكرة التي رأينا مدى حرص دايمبرت على تنفيذها. وإذا

(1) Runciman : op. cit, I, p. 100.

وقد ذكر Thompson أن ثمة زيجات تمت بالشام في عصر الحروب الصليبية بين الصليبيين والعرب، وأطلق على أبناء هذه الزيجات اسم (pullani) أى الأفراخ. كذلك أشار إلى أن الأرثوذكس كانوا أحط طبقة في المجتمع الصليبي ببلاد الشام ، وقد خشي الصليبيون دائماً تأمرهم مع الدولة البيزنطية أو المسلمين ، ولو أنه لم يكن غنى للصليبيين عنهم ، بسبب معرفتهم باللغات .

(Thompson : Economic & Social Hist of the Middle Ages; vol. I, p. 398 ).

(2) Cam, Med. Hist, vol. 5, p. 304.

(3) Runciman : op, cit, I, p. 100.

كان دايمبرت قد تنازل عن آرائه في إقامة حكومة دينية حتى هذا الموقف بينه وبين بلدوين ، وقام دايمبرت بتتويج بلدوين ملكا في كنيسة بيت لحم سنة ١١٠٠ ، إلا أن النزاع لم يلبث أن تجدد بين الطرفين في مارس سنة ١١٠١ . ويقف المؤرخ وليم الصوري في ذلك النزاع إلى جانب دايمبرت ، ويؤكد حسن نيته، وأن أرنولف مالكورن — بطرق بيت المقدس السابق — هو المسئول عن إفساد العلاقات بين الملك بلدوين ودايمبرت<sup>(١)</sup> أما المؤرخ ألبرت الآكسي — وهو المدافع دائما عن بلدوين الأول ومبدأ الملكية — فيقول إن الملك بلدوين كان لا يمكن أن يغفر لدايمبرت محاولاته للحيلولة دون وصوله إلى حكم بيت المقدس وحرمانه من أن يرث أخاه جودفري ويخلفه في الحكم ، فضلا عن مؤامرة دايمبرت لإعطاء ملك بيت المقدس إلى بيت بوهموند الأنطاكي<sup>(٢)</sup> .

ولعل استياء كل طرف من الآخر وعدم صفاء نياتهما، هو الذي جعل النزاع يطول بين الرجلين ، حتى انتهى الأمر — كما سبق أن أشرنا — بعزل دايمبرت نهائيا سنة ١١٠٢ ، واختيار إبرمار بطرقا جديدا لبيت المقدس . وقد أيد الملك بلدوين هذا الاختيار لما لسه في البطرقي الجديد من ورع وتقوى ورغبة تامة في الابتعاد عن الأشتغال بالمسائل السياسية ؛ وهذا كل ما كان يبتغيه بلدوين في الشخص الذي يتولى بطرقية بيت المقدس<sup>(٣)</sup> .

ولكن إبرمار لم يستمر طويلا في منصبه، إذ وصل النزاع حول شغل كرسي بطرقية بيت المقدس إلى البابوية ، فأرسل البابا باسكال الثاني مندوبا اسمه جيلين للتحقيق في الموضوع ، وانتهى الأمر باختيار جيلين نفسه بطرقا على بيت المقدس . سنة ١١٠٨ (٤) . وكان هذا البطرقي الجديد متقدما في السن، فلم يلبث أن توفي

(1) Guillaume de Tyr, p. p. 438 - 439

(2) Albret d'Aix p. p. 538

(3) Idem; p. 622.

(4) Guillaume de Tyr. P. 457.

في أبريل سنة ١١١٢ ، فاختر بعده أرنولف مالكورن بطرقا من جديد على بيت المقدس بعد أن ظل اثني عشرة سنة يترقب تلك الفرصة التي أعادت إليه كرسية السلوب<sup>(١)</sup> .

وهكذا يبدو أن بلدوين الأول اتبع سياسة دينية انصفت بالمهارة ، ومكنته من الاحتفاظ لنفسه بالسلطان الأعلى في حكومة بيت المقدس ، وتجنّب تلك المملكة الناشئة صراعا بين السلطتين الدينية والعلمانية . هذا إلى أن إخلاص أرنولف مالكورن للملك بلدوين الأول ، لم يمكن الملك من احكام اشرافه على كنيسة بيت المقدس فحسب ، بل ضمن أيضا لتلك المملكة الناشئة نظاما وراثيا في بيت بلدوين ، مما أتاح لها فرصة الاستقرار والثبات ، وجنبها النزاع والقتال<sup>(٢)</sup> .

وإذا كانت بطرقيّة بيت المقدس قد غدت — بفضل سياسة الملك بلدوين الأول — الحليف الخالص الوفي للملكية ، فإن الملك بلدوين لم يتقاعس من جانبه عن مؤازرة تلك البطرقيّة وتوسيع اختصاصها الديني ، وزيادة نفوذها على حساب أنطاكية . وكان ذلك عند ما نشب نزاع بين بطرقيّة بيت المقدس وبطرقيّة أنطاكية حول أسقفية بيروت ، وذلك بعد ما استولى بلدوين على هذه المدينة الأخيرة من الفاطميين سنة ١١١٠ . ذلك أن تنظيم الكنيسة البيزنطية كان يقضى بأن يتبع أسقف بيروت رئيس أساقفة صور ، وهذا الأخير يتبع بطرق أنطاكية . ولكن ذلك الوضع صار غير ذي موضوع سنة ١١١٠ عند ما كانت بيروت في أيدي الصليبيين في حين ظلت صور نفسها في قبضة المسلمين . لذلك طالبت بطرقيّة بيت المقدس بأن تكون أسقفية بيروت تابعه لها ، في حين تمسك بطرق أنطاكية بتبعية تلك الأسقفية له<sup>(٣)</sup> .

(1) Besant, Falmer : Jerusalem, p. 248.

(2) Grousset : L'Empire du Levant, p. 97.

(3) Richard : Le Royaume Latin p. 97.

وعندما اشتد الخلاف ، عرض الملك بلدوين الأمر على البابوية فأفتى البابا بإسكال الثاني سنة ١١١١ بأن الفتح الإسلامي غير الأوضاع القديمة التي كان معمولاً بها في الدولة البيزنطية ، وبناء على ذلك فإن البابوية ترى أن تكون الكنائس في جميع البلاد التي يفتحها بلدوين الأول تابعة لبطرق بيت المقدس<sup>(١)</sup> . ويبدو أن ما حقه الملك بلدوين الأول لنفسه من سيادة على أمراء أنطاكية ، والرها وطرابلس جعله يتمسك بأن تكون بطرقيّة بيت المقدس من جانبها لها الأولوية على بطرقيّة أنطاكية . وهكذا انتهى الأمر عند منتصف القرن الثاني عشر بأن ظلت أسقفيات إمارة طرابلس تابعة لبطرق أنطاكية ، ماعدا بيروت وصور وصيدا وعكا وبنياس فقد أصبحت تابعة لبطرقيّة بيت المقدس<sup>(٢)</sup> .

### زواج بلدوين الأول :

وثمة ناحية شخصية خاصة بالملك بلدوين الأول ولكنها ارتبطت بالكنيسة ، هي أنه طلق ، زوجته الملكة أردا Arda ، وتزوج من أدليدا الصقلية Adelaide de Sicile<sup>(٣)</sup> . أما عن أردا فهي ابنة زعيم أرمني تزوجها بلدوين أيام أن كان أميراً على الرها ليضمن ولاء الأرمن ، وهم كثيرون في إقليم الرها . ومن الواضح أن هذا الزواج السياسي كان يحقق كثيراً من النفع لبلدوين وهو أمير للرها ؛ ولكنه لم يلبث أن أحس — بعد أن أصبح ملكاً على بيت المقدس — أنه ليس في حاجة إلى ولاء الأرمن ، وبالتالي فإنه لم يعد حريصاً على تلك الزيجة السياسية ، لاسيما وأن أردا فقيرة لم تستطع أن تشبع حاجة الملك الجديد إلى المال ، فضلاً عن أنه لم يعش له منه أولاد يربطونه بها<sup>(٤)</sup> . وكان أن سعى الملك بلدوين سنة

(1) Guillaume de Tyr. p. 502.

(2) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 312.

(3) Set on : op. cit; I, p. 102.

(4) Ruaciman. : op. cit; I. P. 102.

١١٠ الذى كنيسته بيت لحم لإمام الطلاق من زوجته بعد أن أتهمها بالزنا. ولكن يصرى تلك الكنيسته على تأدية هذه الخدمة له أضفى عليها وعلى أسقفها كثيراً من النعم والامتيازات . كذلك استخدم الملك نفوذه لدى بطرق بيت المقدس من ناحية ولدى البابوية من ناحية أخرى لرفع كنيسته بيت لحم إلى أسقفية<sup>(١)</sup> أما أردا فقد طلبت من زوجها السماح لها بزيارة ولديها فى القسطنطينية ، وهناك لم تعبأ ببلدوين أو بيت المقدس وإنما حاولت أن تشبع نفسها بمباهج العاصمة البيزنطية .

ولم يلبث الملك بلدوين أن أخذ يبحث لنفسه عن صفقة أخرى رائجة ، وعثر على ضالته فى أدلياد أرملة روجر الأول صاحب صقلية الذى توفى سنة ١١٠١ وقد استهدف بلدوين الأول من وراء تلك الزيجة تحقيق مكاسب عدة ، سياسية ومالية ، منها ضمان صداقة النورمان فى إيطاليا وصقلية ، وبخاصة الملك روجر الثانى ابن الأميرة أدلياد ، ومنها أيضاً كسب الثروة الطائلة التى كانت تملكها تلك الأميرة التى كانت كنفيلة بإنعاش خزانة مملكة بيت المقدس<sup>(٢)</sup> . وبعد أن حصلت أدلياد على موافقة إبنها روجر الثانى على تلك الزيجة ، اشترطت على بلدوين الأول أنه فى حالة إذا مارزقت منه بمولود ذكر ، فإن هذا المولود يرث أباه فى عرش روجر الثانى . وكان أن وافق بلدوين الأول على هذا الشرط ، وأبجرت العروس من صقلية إلى عكا فى بداية أغسطس سنة ١١١٣ فى أسطول كبير يحمل ثروة طائلة ، من الذهب والفضة والتحف وغيرها<sup>(٣)</sup> .

على أن خصوم بلدوين لم يلبثوا أن أثاروا موضوع طلاق أردا وقالوا إن هذا الطلاق لم يكن قانونياً ، وأنه تم بالتواطئ مع صنائع بلدوين من رجال

(1) Guillaume de Tyr, p. p. 473-474.

(2) Cam. Med. Hist. vol. 5. P. 184

(3) Albert d'Aix, P. 597.



الكنيسة وأولهم أرنولف مالكورن ، ومن ثم أصبح بلدوين متهما بالزواج من امرأتين ، وهي تهمة لها خطورتها في المسيحية<sup>(١)</sup> . ولم تفلح جهود بلدوين الأول أو جهود ريبه أرنولف مالكورن أسقف بيت المقدس في دفع هذه التهمة عنه ، إذا أصر البابا باسكال الثاني ومندوبه الذي أرسله إلى بيت المقدس للتحقيق في الموضوع على أن طلاق إردا من بلدوين الأول باطل ، وبناء على ذلك يجب أن يطلق الملك زوجته الصقلية الجديدة . وصادف أن مرض بلدوين الأول مرضا خطيرا في أوائل سنة ١١١٧ ، فاستمر طريح الفراش في عكا بضعة أسابيع بين الحياة والموت ، مما جعله يخشى أن يموت مفصوبا عاياه من الله والكنيسة بسبب زواجه من امرأتين في وقت واحد . وهكذا انتهى الأمر بطلاق أدلياد فمادت كسيفة البال إلى صقلية في إبريل سنة ١١١٨<sup>(٢)</sup> .

ولا شك في أن طلاق أدلياد جاء لطمة قوية لإبناها روجر الثاني وجميع الأمراء النورمان في إيطاليا وصقلية . وإذا كان بلدوين الأول قد أراد بتلك النتيجة كسب النورمان في إيطاليا وصقلية وضمان مورد ثابت من الرجال والمال ليفذى مملكة بيت المقدس ، فإن النتيجة جاءت عكسيه بالنسبة للعلاقات بين مملكة بيت المقدس من ناحية ومملكة النورمان في إيطاليا وصقلية من ناحية أخرى .

### وتبعات الوعيايه :

ولم تلبث سنه ١١١٨ أن شهدت وفاة مجموعة من أعيان المسلمين والمسيحيين في الشرق والغرب ، ممن لهم علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالحركة الصليبية . ففي

(1) Runciman : op cit, II, p. 104.

(2) Guillaume de Tyr. P. 509.

( م ٢٢ - الحركة )

٢١ يناير سنة ١١١٨، توفي البابا باسكال الثاني في روما ، وفي ٢ إبريل توفي بلدوين الأول ملك بين المقدس ، وفي ٥ إبريل توفي السلطان محمد السلجوقي في فارس ؛ وفي ١٦ إبريل سنة ١١١٨ توفيت في صقلية أديلاذ زوجة بلدوين الأول والملكة السابقة على بيت المقدس ؛ وبعد ذلك ببضعة أيام توفي أرنولف بطرق بيت المقدس ، وفي ٦ أغسطس توفي الخليفة المستظهر العباسي في بغداد ، وفي منتصف أغسطس توفي ألكسيوس كومنين امبراطور الدولة البيزنطية بعد مرض طويل (١) .

### بلمروين الدول في نظر التاريخ :

وبعد ، فان أهميه بلدوين الأول في التاريخ ترجع إلى أنه لم يكن مثل أخيه جودفري محاربا صليبياً فحسب ، بل كان أيضاً سياسياً ومنظماً ومؤسساً لمملكة لها أهميتها في تاريخ العصر الذي عاش فيه . فبلدوين الأول هو الذي استطاع بمهارته أن يحقق لمملكة بيت المقدس مكانة مرموقة وسط المحيط الاسلامي في الشرق الأدنى ، وإليه يرجع الفضل في وضع دعائم تلك السياسة الناجحة التي سار عليها خلفاؤه ملوك بيت المقدس من بعده ، والتي حققت نوعاً من التوازن بين القوى الإسلامية والقوى الصليبية في الشرق الأدنى (٢) .

هذا إلى أن سياسة بلدوين الأول التوسعية أ كسبته أهمية خاصة في تاريخ الصليبيين بالشام ؛ إذ تسلم دولة بيت المقدس الصليبية محدودة المساحة ، تكاد لاتتعدى المدينة المقدسة ذاتها وضواحيها القريبة ، فما هي إلا سنوات قليلة حتى حولها إلى مملكة قوية تشمل كل فلسطين تقريباً ، وتمتع بشاطئ طويل على

(1) Runciman : op, cit, II, p. p. 105-106.

(2) Cam. Med. Hist. vol. 5. p. 304

البحر المتوسط مما حقق لتلك المملكة الصليبية اتصالاً آمناً مستمراً مع العالم الأوربي الغربي<sup>(١)</sup>. ثم كان أن توج بلدوين الأول أعماله قبل وفاته بأشهر معدودة بالسيطرة على وادي عربية والضفة الشرقية للأردن، والاستيلاء على أيلة على خليج العقبة، بل لقد أوغل في الأراضي المصرية نفسها شرقي الدلتا... كل ذلك ليقطع الصلة بين المسلمين في أفريقية وآسيا، أو بين الدولة الفاطمية من جهة والدولة العباسية من جهة أخرى؛ وهي الصلة التي كانت تهدد بوقوع الصليبيين في الشام بين شقي الرحي. ولاشك في أن سيطرة الصليبيين على ميناء أيلة كان من شأنها أن تمكنهم من قطع طريق القوافل بين القاهرة من ناحية ودمشق وبغداد من ناحية أخرى، فضلا عن تهديد الحجاج المسلمين وهم في طريقهم إلى الحرمين<sup>(٢)</sup>. وكما أن إمارة الرها الصليبية صارت تقف حاجزا بين الإمارات الإسلامية السكبيرتين في شمال الشام والعراق — وهما حلب والموصل — فكذلك أراد بلدوين الأول أن يجعل من أيلة وادي عربية حاجزا صليبيا بين القاهرة ودمشق. ولم تلبث تلك الخطة التي وضع أساسها بلدوين الأول أن نجحت في تمزيق أوصال العالم الإسلامي في الشرق الأدنى، وتمكين الصليبيين في الفترة الواقعة بين سنين ١١١٦، ١١٨٩ من التحكم في المسالك المؤدية إلى الحجاز<sup>(٣)</sup>.

أما عن سياسته الداخلية فإن بلدوين الأول كان لا يقل مهارة في توجيهها عنه في توجيه السياسة الخارجية، مثلما يتضح ذلك في إشرافه على الكنيسة ورجالها، وفي منع رجال الدين من إقامة حكومة ثيوقراطية في بيت المقدس.

(1) Grousset Hist. des Croisades, I, p. p. 314-315.

(2) Setton : op. cit; I, p. 406.

(3) Grousset Hist. des Croisades, I, p. p. 315-316.



# مقام إمارة طرابلس

## الباب السادس

« لا يزال بليانهم الذي بنوارية  
في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله  
عليم حكيم » .

[ التوبة : ١١٠ ]



## الفصل الأول

### ريموند الصنجيلي والصليبيون

ريموند والدولة البيزنطية :

رأينا ما أصاب ريموند الصنجيلي Raymond of St. Gilles من خيبة أمل واضحة في الحملة الصليبية الأولى ، إذ ظل يمني نفسه حيناً بعد آخر بأنطاكية ، أو على الأقل باقتسامها مع بوهيموند ، حتى انتهى الأمر باستئثار بوهيموند بها وحده<sup>(١)</sup> . فلما حاول ريموند أن يؤسس لنفسه إمارة في شمال الشام على حساب سلاجقة حلب — حول البارة ومعرة النعمان — انبرى له بوهيموند مرة أخرى ونافسه في الاستيلاء على معرة النعمان ، مما اضطر ريموند إلى التخلي عنها في يناير سنة ١٠٩٩<sup>(٢)</sup> . وكان أن فكر ريموند في تأسيس إمارة على شاطئ الشام ، فهاجم أنطربطوس وعرة إلى الشمال الشرقي من طرابلس ، ولكنه نجح في احتلال الأولى في فبراير سنة ١٠٩٩ وفشل في الاستيلاء على عرة مايو سنة ١٠٩٩<sup>(٣)</sup> . وعندما شرح اسمه كما لدولة بيت المقدس الصليبية ، أدى حسد زملائه الأمراء له وتخوفهم منه إلى ضياع تلك الفرصة من يده . وعندئذ اتجه ريموند إلى مهاجمة الثغور الفاطمية في فلسطين — مثل عسقلان وأرسوف — ولكن عداء جودفري بوايون له لم يمكنه من تحقيق غرضه ( أغسطس ١٠٩٩ ) .

(1) Runciman : op. cit, I, p. p. 249-251.

(٢) ابن الأثير: الكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ . &

Gesta Francorum, p. 172-178.

(3) Raymond d'Agiles, p. p. 279-288.

وأخيراً لم يجد ريموند وسيلة سوى تملق الدولة البيزنطية وخدمة سياستها وتحقيق أغراضها ومطامعها في بلاد الشام ، والمناداة بحقوقها في أنطاكية وغيرها من أقاليم الشام<sup>(١)</sup> .

وقد أخذت سياسة ريموند هذه تظهر في وضوح عندما استولى على اللاذقية في صيف سنة ١٠٩٨ ، إذ سلمها للبيزنطيين بعد قليل ، مما قوى الرابطة بينه وبين الامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين ، وجعل الأخير يثق إلى حد بعيد في إخلاص ريموند له<sup>(٢)</sup> .

ولم يلبث هذا التحالف بين ريموند والامبراطور البيزنطي أن اتخذ وجهة خاصة ضد بوهيموند صاحب أنطاكية الذي كان وجوده في ذلك الجزء من شمال الشام بالذات مهدداً لأطاع الامبراطور البيزنطي من ناحية وريموند من ناحيه أخرى<sup>(٣)</sup> . ومن أمثلة هذا التعارض بين الطرفين ما حدث في صيف سنة ١٠٩٩ ، إذ بينما تقدم ريموند إلى جانب جودفري صوب بيت المقدس للاستيلاء عليها من المسلمين ، اختار بوهيموند — كما سبق أن أشرنا — أن يبقى حيث هو في أنطاكية لينتهاز فرصة تغيب منافسه ويحاول الاستيلاء على اللاذقية من البيزنطيين بمساعدة الأسطول البيزي تحت زعامة دايمبرت<sup>(٤)</sup> . ولولا رجوع ريموند لسقطت اللاذقية في يد بوهيموند لأن الأخير لم يلبث أن انسحب — وكذلك الأسطول البيزي عند اقتراب ريموند — حتى لا يقع صدام بين القوات الصليبية بالشام ، وبذلك استرد ريموند اللاذقية<sup>(٥)</sup> . وكان أن توسط دايمبرت في الصلح بين ريموند

(1) Vasiliev op. cit; II, p. 409.

(2) Albert d'Aix, P. p. 500-501.

(3) Ostrogorsky : op. cit. p 323.

(4) Stevenscn . op cit: p. 39.

(5) Albert d'Aix, p. p. 502-504



وبوهيموند ، فاجتمع الأميران قرب اللاذقية ، وسويا ما بينهما من خلاف .  
ولكن هذه التسوية ، كانت في الظاهر فقط ، إذ ظل بوهيموند قائماً في أنطاكية  
على كره من الامبراطور البيزنطي ، في حين ظل ريموند يحمل في قلبه حقدنا  
دفيئاً على بوهيموند ، واكتفى مؤقتاً بأن سيطر على اللاذقية وانظرطوس باسم  
الامبراطور البيزنطي<sup>(١)</sup> .

وإذا كان ريموند قد يئس من القضاء على قوة بوهيموند في أنطاكية ، فإنه  
سرعان ما فكر في استغلال تحالفه مع البيزنطيين لإقامة إمارة جديدة لنفسه في  
شمال الشام تنافس إمارة أنطاكية . وهكذا استمرت روح التنافس والكراهية  
تسود العلاقات بين ريموند وبوهيموند . من ذلك أن بوهيموند مر في يناير  
سنة ١١٠٠ باللاذقية أثناء عودته من زيارة بيت المقدس ، وطلب من ريموند  
أن يمهده بالزاد ، فأعتذر الأخير بحجة نقص المؤن لديه<sup>(٢)</sup> . هذا بالإضافة إلى الدور  
الذي قام به ريموند لمنع بوهيموند من الاستيلاء على عرش بيت المقدس عتب  
وفاة جودفري بوايون ، إذ سبق أن رأينا كيف استطاعت قوات ريموند في اللاذقية  
أن تمنع الرسالة التي أرسلها دايمبرات إلى بوهيموند مستدعياً إياه ليتولى الحكم في  
المدينة المقدسة ( مايو — أغسطس ١١٠٠ )<sup>(٣)</sup> .

وأخيراً رحل ريموند إلى القسطنطينية في صيف سنة ١١٠٠ للاتفاق مع  
الامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين على القيام بعمل حاسم ضد بوهيموند ،  
في أنطاكية<sup>(٤)</sup> . ولم يكد ريموند يصل إلى القسطنطينية حتى جاءت الأخبار بوقوع  
بوهيموند أسيراً في قبضة التركان من بني دانشمند في كبادوكيا . ولكن

(1) Foucher de Chartres, I p 368

(2) Grousset : Hist. d-s ( roisauca , I, p. 321.

(٣) انظر ما سبق ص ٢٨١

(4) Chalandon : Alexis Comnene p p. 222-223.

هذا الحديث لم يكن له أثر في سياسة ريموند والامبراطور ألكسيوس كومنين تجاه أنطاكية ، لأن تنكرد الذى تولى الوصاية على أنطاكية عند أسر خاله ، لم يقل خطرا عن بوهيموند، فاتبع سياسة العداء نفسها تجاه الامبراطورية البيزنطية ، وبدأ بالاستيلاء على بعض المدن البيزنطية فى قىليقية مثل طرسوس وأذنه والمصيصة<sup>(١)</sup> . ولم يكد تنكرد يفرغ من ذلك حتى أتجه إلى اللاذقية ، ولكنها قاومتها مقاومة شديدة استمرت سنة ونصف حتى استولى عليها فى النصف الثانى من سنة ١١٠٢<sup>(٢)</sup> .

وفى الوقت الذى أخذ ريموند وألكسيوس كومنين يعدان العدة لإرسال حملة ضد تنكرد وإنقاذ اللاذقية، إذا بحملة صليبية جديدة تصل إلى القسطنطينية وتستأثر بتفكير الامبراطور وحليفه. وكان أن عين الامبراطور البيزنطى حليفه ريموند للإشراف على هذه الحملة وتوجيهها إلى الأراضى المقدسة . ويبدو أن ريموند سر لتلك المهمة ، إذ رأى فى الحملة الصليبية الجديدة أداة صالحة يمكن أن يستعملها فى تحقيق بعض أطباعه فى الشام<sup>(٣)</sup> .

### ريموند والحملة الصليبية سنة ١١٠١ :

لم يكد الغرب الأوروبى يعلم بالتوفيق الذى أصابته الحملة الصليبية الأولى فى بلاد الشام ؛ وبنجاح رجال تلك الحملة فى استرداد الأراضى المقدسة من المسلمين ، حتى تمس كثير من الأمراء الذين لم يشاركوا فى الحملة الأولى للذهاب إلى الشام ليفوزوا بنصيب من الأسلاب قبل ضياع الفرصة ؛ فضلا عما كانوا يرجونه

(1) Raoul de Caen; p. 706-707.

(2) Idem, p. 708.

(3) Grousset : His. des Croisades, I, p. 322.

من المشاركة في الحركة الصليبية وثوابها . ولا يخفى علينا أن الصليبيين في الشام كانوا عندئذ في حاجة ماسة إلى تلك المعونة البشرية ، لتعويض النقص في الرجال من جهة ، ولاستئناف سياسة التوسع من جهة ثانية ، ثم لحراسة ما حققوه من مكاسب ضد أية محاولة انتقامية من جانب المسلمين من جهة ثالثة (١) .

وقد تألفت أول مجموعة من أولئك الصليبيين من المباردين الذين تحركوا في نهاية سبتمبر سنة ١١٠٠ نحو القسطنطينية عن طريق الدانوب تحت قيادة أنسلم رئيس أساقفة ميلان وألبرت وجيورج وهيو من الأمراء (٢) . ويبدو أن هذه المجموعة من الصليبيين كانت شبيهة بحملة العامة في الحملة الصليبية الأولى ، إذ لم تضم — مع كثرة رجالها — سوى عدد قليل من الفرسان المحاربين ، في حين تألفت الغالبية العظمى من أفرادها من العامة والنساء والأطفال . هذا إلى أنهم أتوا من أعمال السلب والنهب ما جعل الامبراطور ألكسيوس كومنين يطلب منهم عند وصولهم إلى القسطنطينية في مارس سنة ١١٠١ أن يعبروا إلى آسيا الصغرى (٣) . وقد عارض المبارديون تلك الأوامر الإمبراطورية في أول الأمر بحجة الرغبة في انتظار بقية إخوانهم الوافدين من الغرب ، ولكنهم اضطروا أخيراً إلى الاستجابة لنصيحة الأمير ريموند الصنجيلي ، فعبروا البسفور في أبريل سنة ١١٠١ لينتظروا إخوانهم على الشاطئ الآسيوي (٤) .

ولم تلبث أن وصلت جموع صليبية أخرى من الفرنسيين والألمان ، فعبروا أيضاً البسفور وعسكروا عند نيقية على مقربة من المباردين ، حتى اجتمع الصليبيون جميعاً فبلغت عدتهم نحو مائتي ألف ، ومن ثم بدأوا زحفهم تحت قيادة ريموند

(1) Setton : op . cit, I, pp. 347-348.

(2) Runciman : op. cit. II, pp. 18-19.

(3) Chalandon : Alexis Comneue p,p, 224-225.

(4) Albert d'Aix, p,p 560-562

الصنجيلي . وكان الاتجاه الغالب في أول الأمر هو أن يسلك الصليبيون أقصر الطرق للوصول إلى إخوانهم في الشام ، وهو طريق ضورليوم وقونية ، وأيد هذا الرأي الامبراطور ألكسيوس والأمير ريموند نفسه<sup>(١)</sup>. ولكن جموع المباردين أصروا على عدم اتباع ذلك الطريق وأصروا بأن تتجه الحملة ضد بني دانشمند في كابا دو كيا للانتقام لبوهيموند وفك سراحه من الأسر<sup>(٢)</sup>. ومن الواضح أن هذا الاتجاه كان خاطئاً لأن الملك غازي كشتكين بن دانشمند كان قد نقل بوهيموند بعيداً في قلعة نيكسار على حدود بلاده ، أي في المنطقة الجبلية الواقعة على حافة البحر الأسود ، الأمر الذي تطلب من الصليبيين المغامرة للوصول إلى تلك الأطراف النائية<sup>(٣)</sup> ولكن المباردين ردوا على ذلك الاعتراض بأنه إن لم يمكن الوصول إلى بوهيموند فيكفي الانتقام له بتدمير أماسية وسيواس ، وهما المدينتان الرئيسيتان لبني دانشمند . وهكذا أدى جهل المباردين بطبيعة البلاد وعدم رغبتهم في الاستماع للنصح إلى الأتحراف بحملة سنة ١١٠١ عن طريقها الطبيعي ، مما عرضها لكوراث بالغة<sup>(٤)</sup>.

وكان أن أذعن البيزنطيون والأمير ريموند الصنجيلي وبقية الصليبيين لرأي المباردين ، فوصلت الحملة إلى أثقة في أواخر يونيه سنة ١١٠١ واستولت عليها في سهولة ، ومن هناك أجهه الصليبيون في الاتجاه الشمالي الشرقي إلى كنفري ، ولكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء على هذه المدينة ، فأنجسوا شمالاً للاستيلاء على قسطموني على ساحل البحر الأسود . وهناك أخذ التعب يحل بالصليبيين لصعوبة

(1) Runciman : op. cit; II p. 21.

(٢) ذكر ابن الأثير أن هدف تلك الحملة الصليبية كان تخليص بوهيموند من الأسر فقال: «... وصل من البحر سبعة قمامصة من الفرنج وأرادوا الخليص ييمند...» (الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٣ هـ).

(٣) Setton : op. cit. I, P 354

(4) Grousset : Hist des Croisades, I, P 324-325

البلاد وجذبها وطول الطريق وقلة المؤن ، بعد أن دأب قلعج أرسلان على الانسحاب من أمامهم ، مدمراً كل ما يمكن أن يستفيد منه الصليبيون ، وبخاصة مواد التموين<sup>(١)</sup> .

وفي ذلك الوقت أخذت تتجمع قوى الأتراك المشتتة لمواجهة الخطر الصليبي الجديد ، فأسرع قلعج أرسلان سلطان سلاجقة الروم ورضوان ملك حلب السلجوقي لنجدة الملك غازي كمشتكين ، واستعد الجميع للمعركة الحاسمة بين أماسية وسيواس<sup>(٢)</sup> . وعندما وقعت الواقعة في أوائل أغسطس سنة ١١٠١ كان اللمبارديون — وهم السبب في تلك الكارثة — أول من ولي الأذبار ، وعبثاً حاول الأمير ريموند الصنجيلي وبقية الأمراء الفرنسيين والألمان حشهم على الثبات والمقاومة . وهكذا اضطر ريموند ومعه القوات البيزنطية التي رافقت الصليبيين إلى الانسحاب ، ولم يلبث ريموند أن فر شمالاً نحو البحر الأسود — قرب سينوب — ومن هناك ركب سفينة إلى القسطنطينية<sup>(٣)</sup> .

وكان فرار ريموند بمثابة إعلان نهاية تلك الحملة ، إذ لم يلبث بقية الأمراء الصليبيين أن لاذوا بالفرار واستطاع معظمهم الوصول سالمين إن ميناء سينوب البيزنطي ، ولكن بعد أن تركوا في أيدي الأتراك أتباعهم ونساءهم وأطفالهم ومتاعهم ... ، وبذلك استولى السلاجقة على صفقة رابحة من الأسرى والغنائم . وبعد ذلك أخذ الأتراك في مطاردة فلول الصليبيين ، قتلوا منهم عدداً ضخماً قدره المؤرخون الصليبيون أنفسهم بما يتراوح بين مائة وستين ألفاً ، وخمسين

(1) Runciman : op cit; II P 22

(٢) ذكر ابن الاثير أن المسلمين نصبوا كميناً للصليبيين ، حتى إذا ما وصلوا إلى ذلك الموضع بين أماسية وسيواس «خرج السكمن عليهم»  
(السكامل ، حوادث سنة ٤٩٣ هـ)

(3) Albert d'Aix PP 569-570 &  
Foucher de Chartres, P. 377

ألفاً<sup>(١)</sup> في حين ذكر ابن الأثير أنه « لم يفلت أحد من الفرنج وكانوا ثلاثمائة ألف غير ثلاثة آلاف هربوا ليلاً وأفلتوا مجروحين<sup>(٢)</sup> ». .

وهكذا محت تلك الكارثة التي حلت بالصليبيين على أيدي السلاجقة الأثر الرنان الذي تركه انتصار الصليبيين على السلاجقة في صور ليوم سنة ١٠٩٧ . وزاد من وقعها أنها لم تكن الكارثة الأخيرة ، إذ لم يلبث أن وصل إلى التسطنطينية في منتصف يونية سنة ١١٠١ وليم الثاني كونت نفرز Nevers ( ١٨٩ - ١١١٧ ) على رأس خمسة عشر ألف من الفرسان والمشاه الفرنسيين<sup>(٣)</sup> . وقد أظهر أولئك الصليبيون الجدد رغبة في اللحاق بإخوانهم اللبارديين ، فأدركوا أنقرة في غير صعوبة ، ومن هناك لم يستطيعوا اقتفاء أثر اللباريين ، فأجهوا نحو قونية التي وجدوها محصنة تحصيناً قوياً ففشلوا في الاستيلاء عليها<sup>(٤)</sup> . وفي ذلك الوقت كان السلاجقة قد فرغوا من إبادة حملة اللبارديين السابقة ، فتقدم قلع أرسلان والملك غازي بن دانشمند نحو أولئك الصليبيين الجدد ، واستطاعوا أن يببدهم إبادة شبة تامة قرب مدينة هرقله في أواخر أغسطس سنة ١١٠١ . ولم يتمكن كونت نفرز من الفرار من مدينة أرمنالك البيزنطية إلا في صعوبة بالغة ، ومنها أخذه بعض البيزنطيين إلى أنطاكية<sup>(٥)</sup> .

وفي الوقت الذي كانت تلك الجموع الفرنسية تسعى إلى حتفها في آسيا الصغرى ، وصلت الدفعة الأخيرة من تلك الحملة المشثومة في أوائل يونيه سنة ١١٠١ إلى القسطنطينية ، وقد تألفت من ستين ألف صليبي بزعامه ليم التاسع دوق ا كوتين — وهو شاعر التروبادور الشهير — وولف الرابع دوق بافاريا . وعندما عبر

(1) Albert d'Aix, p.p. 571-572.

(٢) ابن الاثير : السكامل ، حوادث سنة ٤٩٣ هـ

Setton : op. cit I P 358.

(4) Runciman ; op cit II P. 26

(5) Albert d'Aix, PP 575-578.

هؤلاء الصليبيون البسفور على سفن بيزنطية ، تعرضوا أثناء عبورهم الأناضول لكثير من المتاعب بسبب صعوبة البلاد وقص الماء والزيادة<sup>(١)</sup> . وقد اتبع الأتراك مع تلك المجموعة من الصليبيين الخطة نفسها التي اتبعوها مع من سبقهم من الصليبيين ، فتركوا المدن مفتوحة أمامهم بعد إخلائها تماماً ، مع إحراق أو إتلاف كل ما يمكن أن يفيد منه الصليبيون من مؤن وخلافه ، حتى إذا وصل الصليبيون في طريقهم إلى أقصى ما يمكن أن يصلوا إليه من جوع وظمأ وإنهاك ، هاجوهم وقضوا عليهم في سهولة<sup>(٢)</sup> . وهكذا وصل الصليبيون إلى قونية ليجدوا المدينة خاوية الوفاض ، فواصلوا زحفهم في الوقت الذي اجتمع قلعج أرسلان سلطان قونية والأمير غازي بن دانشمند وقراجا أمير حران ، وتربصوا جميعاً للصليبيين على متربة من هرقله . وعندما انتفض الأتراك على الصليبيين في أوائل سبتمبر سنة ١١٠١ أبادوا الجيش الصليبي أولاً عن آخر ، ولم يتمكن من النجاة بصعوبة إلا قلة قليلة ، منهم ولیم التاسع دوق اكوئين وولف الرابع دوق بافاريا ، فأجبا إلى طرسوس ، ومنها إلى أنطاكية<sup>(٣)</sup> .

وهكذا لقيت حملة سنة ١١٠١ بأقسامها الثلاثة مصيرها المشؤم الذي جرتها إليه جموع اللبارديين . ولو كان اللبارديون استمعوا للنصح في أول الأمر ولم يتجهوا إلى شمال شرق الأناضول ، لأمكن لهذه الحملة أن تبدأ بداية طيبة ، وأن تتفادى الكوارث التي حلت بها . ولاشك في أن هذه الحملة كانت لها نتائج خطيرة ، أهمها تقوية الروح المعنوية عند الأتراك بعد أن تمكنوا من إنزال تلك الهزائم المتتالية بالصليبيين ، مما محأ أثر الهزيمة التي حلت منذ سنوات بالسلاجقة في ضورليوم<sup>(٤)</sup> . وبذلك انسد طريق آسيا الصغرى مرة أخرى في

(1) Matthieu d'Edesse (Hist Arm I) p 59

(2) Seton : op cit; I pp 361-362

(3) Foucher de Chartres p 399 & Guibert de Nogent p 243

(4) Runciman : op cit I, p ٢9

وجه الصليبيين؛ بعد أن كانت الحملة الأولى قد نجحت في اقتحامه وفتحه، واستمر هذا الطريق مغلقاً طوال عدة سنوات مقبلة، أي حتى أيام فردريك بربروسا في أواخر القرن الثاني عشر. أما بالنسبة للموقف في بلاد الشام، فإن الكارثة التي حلت بحملة سنة ١١٠١ حرمت الصليبيين في الشام من آلاف عديدة من الرجال كانت الإمارات الصليبية الناشئة - ومملكة بيت المقدس بوجه خاص - أخرج ما تكون إليهم للدفاع عن كيانها، بعد أن تناقص عدد الصليبيين بالشام بصورة ملحوظة<sup>(١)</sup>. وأما بالنسبة للمدن التجارية الإيطالية، فإن انسداد الطريق البري مرة أخرى إلى الشام جعل اعتماد الصليبيين في الشرق على الطريق البحري الذي سيطرت عليه الأساطيل الإيطالية، مما ضاعف من مكاسب البندقية وجنوا وبززا وغيرها من قوى الغرب البحرية<sup>(٢)</sup>.

(1) Grousset : *Hist. des Croisades*, I, p. 332-333

(2) Runciman. *op. cit*; I. p. 30.



## الفصل الثاني

### ريموند وتأسيس إمارة في الشام

تنازل ريموند عن مطالبه في أنطاكية والموزقية :

أجبه بعض أمراء حملة سنة ١١٠١ الصليبية — بعد الكارثة التي حلت بهم — إلى أنطاكية ، في حين استطاع معظم الناجين الفرار إلى القسطنطينية ، حيث أعد لهم الامبراطور ألكسيوس كومنين في أوائل سنة ١١٠٢ سفن حملتهم إلى الأراضى المقدسة (١). وكان أن صحب ريموند الصنجلي الفريق الأخير إلى الشام ، فوصلوا في غير صعوبة إلى السويدية ، وهو الميناء الطبيعي لأنطاكية ، ولكن ريموند لم يكند ينزل إلى البر في يناير ١١٠٢ حتى قبض عليه أحد الفرسان ، متهما إياه بخيانة الصليبيين في الأناضول ، مما عرضهم للكارثة التي حلت بهم ، وانتهى الأمر بتسليم ريموند لغريمه تنكرد الذي اعتقله في قلعة أنطاكية (٢). ولم يلبث تنكرد أن وجه إلى ريموند تهمة خيانة الصليبيين الغربيين والتواطؤ مع الدولة البيزنطية ضد مصالحهم بالشام . ولكن تنكرد وافق — تحت ضغط الأمراء الصليبيين — على إطلاق سراح ريموند ، بشرط أن يتمد بالتنازل عن جميع ادعاءاته ومطالبه ، ليس في أنطاكية فحسب ، بل في اللاذقية أيضا. وعندما وافق ريموند على ذلك وأقسم على التخلي عن جميع المطالب السابقة ، أطلق تنكرد سراحه (٣).

(1) Chalandon : Alexis Comnene, P. 231

(2) Matthieu d'Edesse (Doc. Ar, I); P. 27

(2) Albert d'Aix, P. P. 582-583.

ولاشك في أن هذه الاتفاقية جاءت فاتحة خير بالنسبة للصليبيين بالشام ، لأنها وضعت حداً للتنافس بين النورمان بزعامة بوهيموند ثم تنكرد من ناحية، وبين أبناء بروفانس بزعامة ريموند الصنجيلي من ناحية أخرى ، وضمنت لإمارة أنطاكية اعترافاً جديداً بوجودها مما ثبت أركانها. هذا فضلاً عن أن ريموند أخذ منذ ذلك الوقت يعمل لحسابه الخاص على ساحل الشام، بعد أن كان معظم نشاطه السابق مكرساً لخدمة الإمبراطورية البيزنطية وتنفيذ سياستها ، فاتجه نحو تأسيس إمارة لنفسه على حساب المسامين بدلا من العمل على تفويض أركان إمارة أنطاكية الصليبية<sup>(١)</sup>. ويبدو أن ريموند أدرك أخيراً أن سياسته في مخالفة الإمبراطور البيزنطي لم تأت له بشمرة سوى الخسارة الفادحة ، إذ اعتبر الصليبيون هذه السياسة خيانة لهم ؛ في حين اكتشف الإمبراطور البيزنطي في نهاية الأمر أن حليفه ريموند أضعف من أن يقدم له معونة فعلية تخدم مطامع الإمبراطورية ضد الصليبيين بالشام<sup>(٢)</sup>.

### استيلاء ريموند على أنظرطوس :

وعندما أجهت بقايا حملة سنة ١١٠١ من أنطاكية إلى بيت المقدس للحج ، فكر ريموند الصنجيلي في الاستفادة من تلك البقايا في الاستيلاء على أنظرطوس (طرطوس) ، وهي المدينة التي كانت وقت مجيء الحملة الصليبية الأولى تابعة لبني عمار — أمراء طرابلس — حتى استولى عليها ريموند سنة ١٠٩٩ ثم سنة ١١٠٠. ولكن بني عمار عادوا فاستردوها أثناء غياب ريموند مع الحملة اللباردية في آسيا الصغرى ، مما جعل ريموند يحرص على الاستيلاء عليها من جديد . وفعلاً بدأ حصار

(1) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 334-336

(2) Runciman : op. cit; II, p. 56.

انظر طوس بمساعدة من معه من زعماء حملة ١١٠١ الفاشلة<sup>(١)</sup>. وصادف في ذلك الوقت وصول أسطول جنوى إلى الشام، فاستعان به ريموند في حصار المدينة من ناحية البحر حتى سقطت المدينة في يده في فبراير سنة ١١٠٢<sup>(٢)</sup>. ولم يكدر ريموند يستولى على انظرطوس حتى اتخذها قاعدة لأعماله ومشروعاته المقبلة على ساحل الشام، وأول هذه المشروعات ففتح مدينة طرابلس ذاتها<sup>(٣)</sup>.

وكان صاحب طرابلس عندئذ هو القاضي فخر الملك أبو علي بن عمار (١٠٩٩-١١٠٨) الذي سبق أن رأينا سياسته المرنة تجاه الحملة الصليبية الأولى، وكيف أنه لم يعاد الصليبيين، حتى عندما هاجموا عرقة التابعة له، أو طرابلس ذاتها. كذلك أشرنا إلى أن القاضي فخر الملك هذا حالف بلدوين الأول ملك بيت المقدس، وحذره من السكين الذي نصبه سلاجمة دمشق. والواقع إن فخر الملك لم يأت بمجديد في سياسته هذه، إذ حرص أسلافه دائماً على الاحتفاظ باستقلالهم وسط النزاع بين الفاطميين من ناحية وسلاجمة الشام من ناحية أخرى. وكذلك حرص هو على أن يمسك العصا من الوسط بين الفاطميين والدماشقة من ناحية والصليبيين من ناحية أخرى<sup>(٤)</sup>.

على أن الموقف تبدل عندما استولى ريموند على أنظرطوس وأخذ يصر في عناد على الاستيلاء على طرابلس، فعندئذ أصبح لزاماً على فخر الملك أن يقبل مضطراً مبدءاً الحرب دفاعاً عن كيانه، وأن يلقي بنفسه — مكرهاً أيضاً — بين أحضان القوى الإسلامية القريبة لمواجهة ذلك الخطر<sup>(٥)</sup>. وكان أن أرسل فخر الملك أبو علي بن عمار مستنجداً بملك دمشق دقاق من ناحية، وبأمير حمص

(1) Albert d'Aix: p. 583.

(2) Heyd : op cit, I, p. 139.

(3) Archer : op, cit P. 156

(4) Grouset : Hist: des Croisades, I; p. 337.

(٥) ابن الأثير : السكامل، حوادث سنة ٥٠١ هـ.

— جناح الدولة — من ناحية أخرى . وفي ذلك الوقت كان أعوان ريموند من الصليبيين قد اتجهوا نحو بيت المقدس ، ولم يبق معه سوى جيش صغير من ثلثمائة رجل ، استغلهم في مهاجمة الجهات القريبة ، بل لقد بلغت به الجرأة حد مهاجمة طرابلس نفسها بذلك الجيش الصغير<sup>(١)</sup> . وكان من الممكن للمسلمين إذا تعاونوا أن يقضوا على ريموند وهو في تلك القوة الصغيرة ، إذ يذكر ابن الأثير أن فخر الملك أرسل إلى دقاق وإلى صاحب حصص يقول لهما « من الصواب أن نعاجل صنعيل إذ هو في هذه العدة القريبة »<sup>(٢)</sup> .

وكان أن أرسل جناح الدولة صاحب حصص قوة إلى طرابلس ، كما أرسل دقاق ألني فارس ، واجتمعت تلك الجيوش مع جيش ابن عمار عند أسوار طرابلس حيث بدأت المعركة ضد ريموند . وهنا يروى ابن الأثير كيف ثبت ريموند ، فخصص مائة من رجاله لقتال أهل طرابلس ، ومائة لقتال الدماشقة ، وخمسين لقتال عسكر حصص ، واحتفظ لحراسته بالخمسين الباقين . وبفضل تلك الخطة استطاع ريموند أن ينزل الهزيمة بالمسلمين الذين قتل منهم سبعة آلاف في حين ارتد الباقون داخل أسوار طرابلس<sup>(٣)</sup> .

ومهما يكن في هذا القول من مبالغة واضحة ، فالذي يهمننا هو أن ريموند لم يشأ أن يضيع ثمرة انتصاره ، وإنما شرع في حصار طرابلس فوراً ، وأقبل لمساعدته المسيحيون من الجهات القريبة مثل الجبل والسواد . ولكن يبدو أن ريموند سرعان ما أدرك صعوبة المهمة التي تنتظره وأن طرابلس ليست بالسهولة التي يظنها ، فقعق بما عرضه عليه صاحب طرابلس من جزية من المال

(١) Raoul de Caen. P. 707

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٥ هـ .

والخيل ، وانسحب بعد ذلك إلى أنظرطوس ( مارس - ابريل ١١٠٢ )<sup>(١)</sup>

### ريموند وإمارة حمص :

وبعد أن عقد ريموند الهدنة السابقة مع ابن عمار ، خرج في ربيع سنة ١١٠٢ لغزو سهل البقاع حيث كانت ممتلكات أمير حمص تمتد غربا حتى جبل عكار . وقد بدأ ريموند أولا بهجامة حصن الطوبان - إلى الشمال الشرقى من حصن الأكراد - وذلك لأن ابن العريض مقدم حصن الطوبان أسر فارسا من « أكابر فرسانه » ورفض إطلاق سراحه مقابل مبلغ كبير من المال<sup>(٢)</sup> . وفي السنة نفسها - ١١٠٢ - هاجم ريموند حصن الأكراد أيضا ، وهو حصن يمتاز بموقعه الحربى القوي حيث أنه شرف على كل الإقليم بين أنظرطوس وطرابلس من جهة وحمص من جهة أخرى<sup>(٣)</sup> . وكان ريموند قد سبق أن استولى على حصن الأكراد في يناير سنة ١٠٩٩ ، ولكن أمير حمص عاد فاسترده . وعندما سمع جناح الدولة صاحب حمص أن ريموند عاد إلى تهديد حصن الأكراد سنة ١١٠٢ ، أخذ يستعد ويجمع قواته للدفاع عنه ، عندما دهمه ثلاثة من الباطنية في جامع حمص الكبير أثناء تأديته الصلاة ، وقتلوه بغتة في مايو سنة ١١٠٢<sup>(٤)</sup> .

(١) المرجع السابق & Raoul de Caen, P 707.

ويذكر ابن الأثير أن ريموند عندما انصرف من منطقة طرابلس إلى أنظرطوس فتح هذه المدينة الأخيرة . والحقيقة إن فتح أنظرطوس سبق زمنياً الموقعة بين ريموند من ناحية وقوات طرابلس وحمص ودمشق من ناحية أخرى .

(٢) ابن الأثير : السكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٥ هـ .

(3) Stevenson op. cit; p. 54.

(٤) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان (Rec. Hist. Or P.P. 525-526)

وابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ

ويروى صاحب مرآة الزمان ، أن أولئك الباطنية كانوا من المعجم وأنهم اقتربوا =

ولاشك في أن هذه الجريمة التي خلصت ريموند من ألد خصومه تعطينا  
نكرة واضحة عن مدى انحلال المحيط الإسلامي في بلاد الشام عندئذ ، مما يمكن  
الصايبيين من تحقيق أطماعهم وسهل عليهم الحصول على مكاسب كبيرة ،  
ما كانوا ليحصلوا عليها بتلك السهولة لولا ذلك الانحلال في صفوف خصومهم<sup>(١)</sup>  
والتاريخ لا يتهم في جريمة ممثل جناح الدولة سوى رضوان ملك حلب ، الذي  
رابطته به رابطة وثيقة . ذلك أن جناح الدولة كان متزوجا من أم رضوان ،  
ولكن النزاع دب بين الرجلين سنة ١١٠٠ ، مما جعل رضوان يستأجر ثلاثة  
من الباطنية الفرس لتنفيذ جريمته الوحشية في زوج أمه<sup>(٢)</sup> .

ولم يكدر ريموند يسمع بتمتثل جناح الدولة صاحب حمص ، حتى أسرع  
بمغادرة حصن الأكراد واتجه صوب حمص ذاتها ، للاستفادة من حالة الاضطراب  
والقلق التي غدت فيها المدينة بعد مقتل صاحبها . وفعلا وصل ريموند إلى حمص  
« ونازلها وحصر أهلها وملك أعمالها<sup>(٣)</sup> » فأرادت الخاتون - أرملة جناح الدولة -  
أن تستدعي ابنها رضوان صاحب حلب للدفاع عن حمص ؛ ولكن رجال  
جناح الدولة عارضوا ذلك الاتجاه ، وفضلوا أن يستنجدوا بدقاق ملك دمشق .  
وعندما أحس ريموند باقتراب دقاق ، أدرك أن قوته أصغر من أن تستطيع  
الوقوف بين نارين ، فقفع بما فرضه على حمص من جزية مالية وانصرف عنها .

---

== من جناح الدولة وهم في زى الزهاد وأخذوا يدعون له ويستجثون ثم ضربوه بسكاكينهم  
فخرو قتيلا .

- (١) وصف المؤرخ أبو المحاسن صاحب حمص حسين بن ملاعب جناح الدولة بأنه « كان  
أمير أمجاد أشجاعا يباشر الحروب بنفسه » النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٦٨ .
- (٢) ذكر أبو المحاسن أن سبب قتل حسين بن ملاعب جناح الدولة « أنه كان عند  
رضوان بن تدش ملك حلب معجم باطنى ، فندب لقتل جناح الدولة هذا أولئك نفر ، ثم قتل  
المنجم بعد ذلك بأربعة عشر يوما » . (النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٦٩)
- أما ابن الأثير فقد قال في صراحة : « وقيل إن الملك رضوان ربيبه وضع عليه من قتله »  
(للكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ)
- (٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ

وهكذا وضع دقاق يده على حمص ، وأتاب عنه في حكمها أتابسكه طغتكين (أيتكين) (١) .

أما عن ريموند الصنجيل فقد عاد أدرجه لينوم بعملية حربية أخرى ناجحة . ذلك أنه انهمز فرصة وصول أسطول جنوى إلى اللاذقية في شتاء سنة ١١٠٣ واستغل تلك القوة البحرية في مهاجمة طرابلس . وعندما فشل الصليبيون في الاستيلاء على طرابلس «لم يروا فيها مطعماً» ، اتجهوا جنوباً لمهاجمة جبيل (٢) ، وهي قلعة صغيرة تقع على الساحل بين طرابلس وبيروت ، وكانت هي الأخرى تابعة لبني عمار (٣) . ولم تستطع جبيل الصمود في وجه الحصار البحري الذي فرضه الجنوية ، والهجوم البري من جانب ريموند ، فاضطرت إلى الاستسلام في أواخر سنة ١١٠٤ (٤) . ويرى ابن الأثير أن الصليبيين لم يفوا بالأمان الذي منحوه لأهالي جبيل ، فأخذوا أموالهم واستنقذوها بالعقوبات وأنواع العذاب (٥) . أما الجنوية فقد كافأهم ريموند بإعطائهم ثلث جبيل ، مما مهد فيما بعد لأن تصبح جبيل ذاتها مستعمرة جنوية لها أهميتها تحت إشراف أسرة أمبرياتشى Embriaci (٦) .

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ( Rec. Hist, Or. P 591 )

(٢) Heyd ; op cit I, P 139

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٣ ،

(٤) Albert d'Aix P. 606,

ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٤٩٧ هـ .

(٥) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٤٩٧ هـ .

(٦) Heyd ; op. cit. I, PP 139-141; 150 & 158

وكان الاسطول الجنوي الذي ساعد ريموند في الاستيلاء على جبيل بقيادة أمير

البحر هيوامبرياتشى .

### غائمة ريموند الصنجيلي :

وبالاستيلاء على انظرطوس في الشمال وجبيل في الجنوب تم وضع الإطار الخارجى لإمارة طرابلس الصليبية ، ولم يبق سوى الاستيلاء على العاصمة الطبيعية لتلك الإمارة ، وهى مدينة طرابلس ذاتها . ولكن هذه المدينة كانت محصنة تحصيناً طبيعياً يجعل من الصعب على ريموند انتزاعها ، إذ أنها قائمة على شبه جزيرة داخلية فى البحر ، مما مكن صاحبها ابن عمار من الحصول على ما يحتاج إليه من مؤن عن طريق البحر فى حالة حصار مدينته براً . لذلك لجأ ريموند إلى بناء قلعة أسماها المسلمون قلعة صنجيل نسبة إلى ريموند (Saint-Gilles) فى مواجهة طرابلس مباشرة ، أى على الجبال المقابلة لها ، وذلك لإحكام الرقابة عليها وقطعها عن العالم الداخلى . وأعانته فى بناء هذه القلعة الامبراطور البيزنطى الذى أرسل له الميرة والأخشاب والمعدات اللازمة لبنائها من جزيرة قبرس (١) . وهكذا أصبح موقف ابن عمار فى طرابلس خطيراً ولم يعد أمامه طريق للاتصال بالعالم الخارجى سوى طريق البحر ، فى حين تكاتف المسيحيون المحليون — من الموارنة وغيرهم — مع ريموند لإحكام الحصار المفروض على طرابلس (٢) .

وتروى المراجع العربية أن بنى عمار حاولوا هدم قلعة صنجيل (أغسطس — سبتمبر ١١٠٤) وإشعال النار فيها ، ولكنهم لم يحققوا غرضهم (٣) . وكل ما هنالك هو أن ريموند أصيب بجروح نتيجة لسقوط بعض أجزاء القلعة المشتعلة

(١) ابن الاثير : السكامل ، سنة ٤٩٩ هـ &

Guillaume de Tyr, I. p. 441.

(٢) المرجعان السابقان .

(٣) ابن الاثير : السكامل ، حوادث سنة ٤٩٩ هـ



عليه . ويشير صاحب مرآة الزمان إلى أن ريموند توفي بعد أن عقد هدنة مع ابن عمار تقضى بأن يكون للأول « ظاهر طرابلس دون أن يقطع الليرة والمسافرين عنها » ولكن هذا الرأي الأخير لا يوجد ما يدعمه في المراجع الصليبية ، فضلا عن بقية المراجع العربية (١) .

ومهما يكن من أمر ، فإن ريموند لم يلبث أن توفي في قلعة صنجيل في نهاية فبراير سنة ١١٠٥ متأثرا بجروحه ، قبل أن يحقق أمنيته في الاستيلاء على مدينة كبرى من مدن الشام مثل أنطاكية أو بيت المقدس ، يتخذها مركزاً لإمارة جديدة لنفسه . وإذا كانت مدينة طرابلس ذاتها لم تسقط في يد ريموند ، إلا أنه صاحب الفضل في تأسيس إمارة طرابلس ووضع إطارها العام وتسهيل مهمة الاستيلاء عليها أمام خلفائه .

وقد شاءت الظروف أن تكون طرابلس آخر مدينة كبرى بالشام تسقط في أيدي الصليبيين وآخر إمارة كبرى يؤسسها الصليبيون بعد الرها وأنطاكية وبيت المقدس ، ولكنها في الوقت نفسه كانت آخر إمارة صليبية في بلاد الشام يستردها المسلمون عندما دالت دولة الصليبيين في أواخر القرن الثالث عشر . فالرها التي سقطت في أيدي الصليبيين سنة ١٠٩٨ عادت إلى المسلمين سنة ١١٤٤ ، وبيت المقدس التي استولى عليها الصليبيون سنة ١٠٩٩ استردها المسلمون سنة ١١٨٧ ، وأنطاكية التي غزاها الصليبيون سنة ١٠٩٨ استعادها المسلمون ١٢٦٨ . أما طرابلس التي لم تقع في أيدي الصليبيين إلا سنة ١١٠٩ ، فقد ظلت باقية في قبضتهم حتى سنة ١٢٨٩ (٢) .

(١) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ( P 528 )

(3) Grousset : Hist des Croisades I. PP. 344-345.

## الفصل الثالث أعمال ولیم جوردان

ولیم جوردان وحصار طرابلس :

ترك ريموند الصنجيلى ابنه الأكبر برتراند يحكم أملاكه في الغرب الأوربي (تولوز)؛ في حين اختار أفصال ريموند وفرسانه في الشام ابن خالته ولیم جوردان ليتابع سياسته في الشرق. وكان أن استأنف ولیم سياسة ريموند بجميع أركانها، فاحتفظ بالعلاقات الطيبة مع البيزنطيين من جهة، واستمر في إحكام الحصار البري حول مدينة طرابلس عن طريق قلعة صنجيلى من جهة أخرى<sup>(١)</sup>. ودليل ذلك كله ما يرويّه ابن الأثير من أن الإمبراطور البيزنطي « أمر أصحابه باللاذقية ليحملوا الميرة إلى هؤلاء الفرنج الذين على طرابلس، فحملوها في البحر (من قبرس) »<sup>(٢)</sup>. وقد دارت عندئذ معركة بحرية بين السفن البيزنطية وسفن بني عمار، أسرت فيها سفينة بيزنطية واقتادها المسامون إلى ميناء طرابلس<sup>(٣)</sup>.

على أن ابن عمار وجد نفسه في حاجة إلى معونة خارجية عاجلة لمقاومة حصار ولیم جوردان، وبخاصة بعد أن ساءت أحوال طرابلس وارتفعت أسعار الطعام فيها ارتفاعاً فاحشاً، وهجرها الفقراء واقتصر الأغنياء وفشلت جهود نجر الملك بن عمار في تخفيف حدة الأزمة<sup>(٤)</sup>. ولما كان ابن عمار لا يستطيع طلب هذه المعونة

(1) Runciman : op. cit., II, p. 62.

(٢) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٤٩٩ هـ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٢ - ١٦٣ .

من طغتكين أنابك دمشق وحصص بسبب ما وقع بين الطرفين من خلاف وعداء، أو من الفاطميين الذين يرغبون في انتزاع طرابلس لأنفسهم من بني عمار، فإنه لم يبق سوى الأمير الأسبق لبيت المقدس وهو سحان بن أرتق التركاني الذي أصبح عندئذ صاحب حصن كيفا في ديار بكر. وكان أن تحرك سحان فعلا لتجدة طرابلس ولكنه لم يلبث أن توفي في الطريق، وبذلك انقطع آخر أمل تعلق به بنو عمار للحصول على معونة خارجية تمكنهم من إقصاد طرابلس (سنة ١١٠٥) (١).

وهكذا ضاقت دائرة الحصار حول طرابلس، فاضطر أهلها إلى بيع مالهديهم «من الحلى والأواني الغريبة» لشراء ما يلزمهم من قوت، في حين آثر بعضهم الفرار إلى صفوف الفرنجة (٢). ومع ذلك فقد استمرت المدينة تقاوم الحصار ثلاث سنوات أخرى بفضل قوة عزيمة ابن عمار من ناحية، وافتقار الصليبيين إلى أسطول بحري يحكم الحصار على طرابلس من ناحية البحر من ناحية أخرى (٣). ويبدو أن ثراء طرابلس وكثرة ما فيها من ذهب وفضة، ثم استعداد أهلها في محنتهم لدفع الأثمان الباهظة مقابل القليل من الغداء، ساعد كل ذلك على تهريب المؤن إليها من جزيرة قبرص البيزنطية، بل من إمارة أنطاكية الصليبية «وجزاير البنادقة» (٤). وإزاء إصرار الصليبيين على حصار طرابلس، اضطر فخر الملك ابن عمار إلى السفر في ربيع سنة ١١٠٨ إلى بغداد لطلب النجدة من زعيم العالم الإسلامي في المشرق، وهما الخليفة المستظهر العباسي (١٠٩٤ — ١١١٠) والسلطان محمد السلجوقي (١١٠٤ — ١١١٧) (٥). وقد أناب فخر الملك عنه في حكم طرابلس

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٤٩٨ هـ، ٤٩٩ هـ.

(٢) المرجع السابق، حوادث سنة ٤٩٩ هـ.

(٣) Setton; op. cit; P. 396.

(٤) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٠١ هـ.

(٥) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٥.

ابن عمه ذو المناقب بن عمار ، ودفع مرتبات الجند لسته أشهر مقبلة ، ثم أجه إلى بغداد حاملاً معه الهدايا الفاخرة للعاهلين العباسي والساجوقي<sup>(١)</sup> . وتلقى رواية ابن الأثير عن رحلة ابن عمار إلى بغداد ضوءاً ساطعاً على مدى تفكك المسلمين في المشرق عندئذ ، وانحلال الخلافة العباسية ، فضلاً عن السلطنة الساجوقية ، إذ لم يجد ابن عمار من الطرفين سوى الكليات المعسولة والسؤال « عن حاله وما يعانيه في مجاهدة الكفار ويقاسيه من ركوب الخطر في قتالهم » ؛ ولكنه لم يظفر بشيء من المعونة المنشودة<sup>(٢)</sup> .

وهكذا لم يسع ابن عمار سوى أن ينصرف عائداً إلى إمارته في أغسطس سنة ١١٠٨ بخفي حنين ؛ ولكنه لم يكد يصل إلى الشام حتى سمع أن طرابلس نفسها قد طارت من يده أثناء غيابه . ذلك أن أهل طرابلس عندما ضاق بهم الخلال أرسلوا إلى الوزير الأفضل الجمالي في القاهرة يطلبون منه حماية الدولة الفاطمية لهم ؛ ويعرضون عليه تسلم المدينة للدفاع عنها ؛ فأرسل إليهم شرف الدولة ابن أبي الطيب والياً سنة ١١٠٨ « ومعه الغلة وغيرها مما يحتاجون إليه أهل البلاد في الحصار . فلما سار فيها قبض على جماعة من أهل ابن عمار وأصحابه وأخذ ما وجد من آلاته وذخائره وغير ذلك وحمل الجميع إلى مصر في البحر » . وبذلك خرجت طرابلس من قبضة بني عمار وآلت إلى الفاطميين<sup>(٣)</sup> . ولم يبق لابن عمار بعد ذلك سوى جبلة ، وهي قلعة صغيرة على الساحل بين اللاذقية والمرقب<sup>(٤)</sup> .

ولكن إذا كان الفاطميون قد حققوا أمنيتهم في امتلاك طرابلس إلا أنهم

(1) Stevenson : op. cit, p. 56.

(٢) سبط ابن الجوزي P 535 &

ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠١ هـ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠١ هـ

(٤) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان P 539

كانوا أضعف من أن يستطيعوا حمايتها . ويمبر أبو الحسن عن ذلك بالتنديد بعدم اكتراث الفاطميين بالفرنج « من كل وجه وتقاعد من السير »<sup>(١)</sup> .

### استيلاء وليم جوردان على عرقة :

ولم يلبث أن كثر الطامعون في حطام إمارة بني عمار ، فبينما فاز الفاطميون بمدينة طرابلس ذاتها ؛ إذا بطغتكين أتاك دمشق يسعى للاستيلاء على عرقة الواقعة شمالي طرابلس . والمعروف أن حصن عرقة كان « من الحصون المنيعه »<sup>(٢)</sup> ، ويتمتع بموقع حربي هام لأنه بمثابة الباب الشمالي لطرابلس ، ويؤدي استيلاء الدماشقة عليه إلى قطع الطريق على الصليبيين بين أنطرطوس ( طرطوس ) وطرابلس<sup>(٣)</sup> .

وكان فخر الملك أبو علي ابن عمار في أواخر أيام حكمه قد عهد بتلعة عرقة إلى أحد رجاله ، ولكن هذا « الغلام » طمع في الاستقلال بعرقة « رعصى على مولاه » ؛ وفي الوقت نفسه لم يستطع الصمود في وجه وليم جوردان فعرض على طغتكين أن يعطيه إياها ، وبعث إليه يقول « أرسل من يتسلم هذا الحصن مني ، قد عجزت عن حفظه ، ولأن يأخذه المسلمون خير لي دنيا وآخره من أن يأخذه الفرنج » . لذلك أرسل طغتكين على الفور ثلثمائة من رجاله إلى عرقة تحت راسة رجل اسمه اسرائل<sup>(٤)</sup> .

وعندما خرج طغتكين من دمشق في مارس سنة ١١٠٨ لتقيام بعدة هجمات

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة سنة ٥٠٢ هـ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٢ هـ .

(3) Stovenson : op. cit, p 56.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٢ هـ .

على التلاع الصامبية القريبة ، ولزيارة حصن عرقة « والاطلاع عليه وتقويته  
بالمساكر والأقوات وآلات الحرب » ؛ تصدى له وليم جوردان ، فلاذ الدماشقة  
بالفرار ، وعلى رأسهم طغتكين نفسه ، وظل وليم يطاردهم حتى مشارف حص ،  
ثم عاد متجهاً صوب شيزر . وقد حاول الأخوان مرشدوسلطان — أمير اشيزر —  
الايقاع بوليم جوردان وأسرته ، ولكنه انتصر عليهما<sup>(١)</sup> . وهكذا عاد وليم بعد  
ذلك النصر المزدوج ليستولى على عرقة التي سقطت بعد حصار ثلاثة أسابيع  
(ابريل سنة ١١٠٨) . وبروى بعض المؤرخين الصليبيين أن حامية عرقة عندما  
يُست من المقاومة فرت ليلا وتركت القلعة خالية ليحتلها الصليبيون في الصباح  
التالي<sup>(٢)</sup> ؛ في حين يؤكد ابن الأثير أن أهل عرقة طلبوا « الأمان » ، فأمنهم  
(جوردان) على نفوسهم<sup>(٣)</sup> .

---

(١) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ٥٠ . ويطلق أسامة وابن الأثير على وليم  
جوردان اسم « السرداني » .

(2) Albert d'Aix, p 663.

(٣) ابن الأثير : المسكامل ، حوادث سنة ٥٠٣ هـ .

## الفصل الرابع

### برترام وظهور إمارة طرابلس

التنافس بين ولیم جوردان وبرترام :

وهكذا ظل ولیم جوردان أكثر من ثلاث سنوات يواصل جهوده الصليبية على ساحل الشام، مؤملاً أن يتوج تلك الجهود بالاستيلاء على طرابلس نفسها . ولكنه قبل أن يتمكن من تحقيق تلك الأمنية تعرض لمنافس خطير وصل إلى الشام لينتزع منه تلك الإمارة الصليبية الجديدة التي أوشكت أن تولد . ولم يكن هذا المنافس سوى برترام ( برتراند) الابن الأكبر لريموند الصنجيلى، وصاحب الحق الشرعى فى تركة أبيه (1) .

وكان برترام قد أعد العدة لرحلته إلى الشرق، وعمل حساب ما قد يواجهه من مصاعب ، فخرج من بلاده - بروفانس - على رأس أربعة آلاف فارس يحملهم أسطول قوى من أربعين سفينة . ويبدو أن برترام أتى إلى الشام وقد وضع فى برنامج ضرورة الاستيلاء على مدينة طرابلس ، لأنه حرص فى طريقه من الغرب على أن يمر بجنوا حيث أجرى مباحثات عن الشروط التى تقبل بها جنوا مساعدته فى تحقيق أغراضه (2) . هذا فى الوقت الذى كان ولیم جوردان من ناحية أخرى

---

(1) خلف برترام أباه ريموند الصنجيلى فى إمارة تولوز كما سبق أن ذكرنا . ولكن حق برترام فى وراثة أبيه كان مزعوماً لأنه كان إبناً غير شرعى له . وكان لريموند ابن آخر شرعى صغير السن هو ألفونسو جوردان ، فاستدعاه أهل تولوز وأمروه عليهم ، وتم الاتفاق بين الأخوين سنة 1108 على أن يرث ألفونسو أباه فى ممتلكاته الغربية ، فى حين يرث برترام أباه فى ممتلكاته بالشام . انظر :

(Runciman \* op. cit., I, ps. 61, 64 - 65)

(2) Grousset : Hist. des Croisades. I, p. 352.

قد أدرك ضرورة الحصول على مساعدة إحدى القوى البحرية الإيطالية للاستيلاء على طرابلس ، فأرسل هو الآخر سفيراً إلى جنوا للغاية ذاتها . ولكن وجود برترام بنفسه في جنوا جعله يكسب الجولة ، فتعهدت له جنوا بأن تساعدته في الحصول على تركة أبيه في الشام من ناحية وفي الاستيلاء على طرابلس من الناطقين من ناحية أخرى ، مقابل تعهد برترام بمنح الجنوية امتيازات تجارية واسعة في طرابلس <sup>(١)</sup> . وهكذا أبحر برترام من جنوا إلى الشرق وبصحبه أسطول جنوى قوى مؤلف من ثمانين سفينة . وعندما مرت هذه الحملة بالدولة البيزنطية ، رحب الامبراطور ألكسيوس كومنين ببرترام ابن حليفه ريموند ، وأكرم وفادته في القسطنطينية وقدم له كثيرا من الهدايا ، وفي مقابل كل ذلك أقسم برترام يمين الولاء للامبراطور ، مجدداً الحلف بين أمراء بروفانس والامبراطورية البيزنطية <sup>(٢)</sup> .

على أن الأسطول البروفنصالي — الجنوى لم يتجه نحو أنطرووس مباشرة ، وإنما اختار برترام أن ينزل في ميناء السويدية حيث قابل تنكرد أميراً أنطاكية . وقد طلب برترام من تنكرد إعطائه نصيب أبيه ريموند في أنطاكية ، فأجاب تنكرد بأنه مستعد لبحث هذا الموضوع بشرط أن يساعد برترام في الحملة التي يوشك تنكرد القيام بها ضد مدينة المصيصة في قيليقية ، لاستردادها من البيزنطيين <sup>(٣)</sup> . وعندئذ تذكر برترام عهده للامبراطور البيزنطى ، فرفض للواقعة على هذا الشرط ، الأمر الذى استثار غضب تنكرد ، فطلب منه الرحيل فوراً ، وألا تطأ قدمه بعد ذلك أرض إمارة أنطاكية <sup>(٤)</sup> .

(1) Høvd : op. cit. I, 140.

(2) Albert d'Aix, p. 664.

(3) Rancimau : op. cit; II, p. 66.

(4) Albert d'Aix, p.p. 665-666.



وهكذا أبحر أبحر برترام ومعه حلفاؤه الجنوبية نحو أنظرطوس، التي كانت حتى ذلك الوقت أهم مركز في ممتلكات أسرة ريموند بالشام . وعندما طالب برترام قريبه وليم جوردان بتسليمه تركة أبيه من المدن والبلاد ، رد الأخير بأن هذه البلاد جميعاً من حقه وحده ، لأنه هو الذى ظل يدافع عنها - بعد وفاة ريموند - قرابة أربع سنوات، ولولاه لضاعت تلك البلاد بين المسلمين من ناحية والنورمان في أنطاكية من ناحية أخرى . هذا بالإضافة إلى أنه - أى وليم - ضاعف تلك التركة بالاستيلاء على عرقه وحصن عكار (١) . وبذلك تعمد الموقف بين وليم جوردان من ناحية وبرترام من ناحية أخرى ، مما جعل الأول يستنجد بتسكرد بعد أن تعهد بأن يصبح تابعاً له ، فوعده تسكرد بالحضور على رأس قواته إلى أنظرطوس للاشتراك مع وليم في طرد برترام (٢) .

على أن برترام لم ينتظر وصول تسكرد ، وإنما ترك أنظرطوس واتجه على رأس قواته - وصحبه الأسطول الجنوى - إلى طرابلس ليحاصر هابراً وبحراً . وفي الوقت نفسه أرسل برترام رسالة عاجلة إلى بلدوين الأول ملك بيت المقدس مخبرة بتتحالف وليم جوردان وتسكرد ضده لحرمانه من تركة أبيه ، ويطلب إليه الحضور على عجل لمساعدته ، مع تعهده بالولاء والتبعية لمملكة بيت المقدس (٣) .

ولم يكن بلدوين الأول بالرجل الذى يترك تلك الفرصة تفلت من يده ، وهو الحريص على أن يجعل من مملكة بيت المقدس سلطنة عاياً تهيمن على جميع الإمارات الصليبية ببلاد الشام . لذلك أسرع بإيقاد رسولين إلى تسكرد ووليم جوردان لإحاطتهما علماً بأن برترام تحت رعاية الملك بلدوين نفسه وحمايته ،

(1) Foucher de Chartres, p. 419.

(2) Seton : op. cit. I, p. 397.

(3) Albert d'Aix, p. 606.

ويحذرهما من القيام بأي عمل عدواني ضده . ثم اختتم الملك رسالته إليهما بدعوتيهما إلى الحضور لمقابلته أمام طرابلس للنظر في رد تركة ريموند إلى ابنه برترام<sup>(١)</sup> . ولم يلبث أن خرج بلدوين الأول على رأس خمسمائة من فرسانه قاصداً طرابلس حيث التقى به برترام ، وأقسم له يمين الولاء . أما وليم جوردان ، فذهب إلى تنكرد وأراد أن يستحثه على القتال ، ولكن الأخير هدأ من ثورته ، وصحبه إلى طرابلس حيث لحق بهما بعد قليل بلدوين دي بورج أمير الرها<sup>(٢)</sup> .

وهكذا التقى جميع زعماء الصليبيين بالشام وشمال العراق في قلعة صنجيل أمام طرابلس ، حيث عرض النزاع بين برترام ووليم جوردان على بساط البحث . وفي ذلك الموقف أظهر الملك بلدوين الأول براعة وحكمة في تسوية الخلافات بين صفوف الصليبيين ، فتم الصلح بين تنكرد وبلدوين دي بورج ، كاتم الصلح بين برترام ووليم جوردان<sup>(٣)</sup> . وقد قام الصلح الأخير على أساس تقسيم تركة الأمير ريموند بين المتنازعين ، فأخذ وليم جوردان عرقه وانظرطوس ، في حين أخذ برترام قلعة صنجيل وجبيل ، علاوة على طرابلس عندما يتم فتحها . وتقرر أنه إذا مات أحدهما دون ولد فإن الآخر يرثه في ممتلكاته .

### استيلاء الصليبيين على طرابلس :

وكان النجاح في الوصول إلى الاتفاقية السابقة إيذاناً بتوجيه جهود الصليبيين ضد طرابلس ، تلك المدينة التي ظلت تقاوم الحصار ست سنوات متواصلة . ولم يكن بوسع طرابلس في تلك المرة أن تقاوم فرسان بيت المقدس وبروفانس وأنطاكية ،

(1) Runciman : op. cit; II. P. 68.

(2) Grousset : op. cit, I, p.p. 355 - 356.

(3) Stevenson : op. cit. p. 57.

(4) Albert d'Aix, p. p. 668 & Guillaume de Tyr. p 466.

والرها مجتمعين ، في الوقت الذي أخذ الأسطول الجنوى الكبير يحكم الحصار عليها من ناحية البحر <sup>(١)</sup> . ولو كانت الحكومة الفاطمية قد اتخذت إجراءً سريعاً عندئذ لتموين طرابلس وتزويدها بالرجال والسلاح ، لأمكن للمدينة أن تقاوم ، ولكن الأسطول الذي أعدته القاهرة لنجدة طرابلس ظل منتظراً في مواجى الدلتا حين صدور تعليمات بشأن الخلاف بين قاداته ؛ فلما أزمع الحركة صادفته رياح مضادة عرقلت سيره . وفي تلك الأثناء ساءت أحوال أهل طرابلس « وسقط في أيديهم ، وذلت نفوسهم ، وزادهم ضعفاً تآخر الأسطول المصرى عليهم بالنجدة والميرة » <sup>(٢)</sup> . وأخيراً أبحرت العمارة الفاطمية نحو طرابلس بعد فوات الأوان ، ، ولم تسكد تصل إلى مياه طرابلس نفسها « حتى وجدوا البلد قد أخذت ، فعادوا كاهم ! ! » <sup>(٣)</sup> .

وهنا يقف المؤرخ أبو المحاسن وقفة قصيرة ليلقى على الفاطميين تبعة سقوط طرابلس ويومهم لعدم اكتراثهم بمحاربة الصليبيين ، ثم يحدد مظاهر عدم الاكتراث بالدفاع عن طرابلس بثلاثة أمور الأول تقاعدهم عن المسير تلك المدة الطويلة ؛ والثاني ضعف العسكر الذى أرسلوه مع أسطول مصر ، ولو كان لعسكر الأسطول قوة ، لدفع الفرنج من البحر عن البلد ؛ والثالث عدم خروج الوزير الأفضل بنفسه على رأس العساكر المصرية . « هذا مع قوتهم (الفاطميون) فى العساكر والأموال والأسلحة <sup>(٤)</sup> ! » .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٧٩ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٠٣ هـ .

(٣) المرجع السابق ؛ ويذكر أبو المحاسن أن الأسطول الفاطمى حضر بمد تأخير « وصار كما سار نحو البلدة رده الفرنج إلى نحو مصر » حتى تمكن من الوصول إلى طرابلس أخيراً فوجدوها قد أخذت . (أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ١٧٩) .

(٤) أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ١٧٩ .

والواقع إن أهل طرابلس عندما وجدوا أنفسهم وحيدين أمام مجموعة من الأعداء ، واضطروا إلى التفكير في التسليم ، طلبوا أن يكون تسليمهم للملك بلدوين الأول والأمير برترام ، بشرط عدم الاعتداء على حياة من يرغب في الخروج من المدينة وعلى ممتلكات من يرغب البقاء فيها<sup>(١)</sup> . وقد قبل الملك بلدوين تلك الشروط ، وبذلك دخل الصليبيون طرابلس في ١٢ يولييه سنة ١١٠٩ فاحترموا الشروط السابقة ، وسمحوا للتائب الفاطمي — على قول ابن الأثير — بمغادرة المدينة ومعه فريق من رجاله ، وأمن الصليبيون طريقهم إلى دمشق<sup>(٢)</sup> . ولكن ذلك لم يمنع ابن الأثير من الإشارة إلى ما ارتكبه الصليبيون داخل طرابلس من حوادث النهب<sup>(٣)</sup> . ولعل تفسير هذا التناقض في مسلك الصليبيين إنما يبدو في أن بادوين ورجاله دخلوا المدينة من جانب ، فاحترموا شروط الصلح ولم يتعرضوا لأموال المسلمين وأرواحهم . ولكن الجنوية دخلوا المدينة في الوقت نفسه من جانب آخر فأتوا من أعمال السلب والعنف ما أشار إليه ابن الأثير<sup>(٤)</sup> .

(1) Guillaume de Tyr, p. 468.

(٢) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٥٠٣ هـ .

(٣) « إذ نهبوا ما فيها وأسروا الرجال وسبوا النساء والأطفال ونهبوا الأموال ، وغنموا من أهلها الأموال والامتعة وكتب دور العلم الموقوفة ما لا يحصى ؛ فإن أهلها كانوا أكثر البلاد أموالا وتجارة » .

(ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٥٠٣ هـ) .

أما أبو المحاسن فيقول : « ... وهجموا على طرابلس فأخذوها ونهبوا وأسروا رجالها وسبوا نساءهم وأخذوا أموالها وذخايرها ، وكان فيها ما لا يحصى ولا يحصر ، واقتسموها بينهم » . (النجوم الزاهرة ج ٥ ، ص ١٨٠) .

(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 358.

### الجنوية وامتيازاتهم التجارية:

ولم تسكد طرابلس تستقطب في أيدي الصليبيين حتى طالب الجنوية بالثمن ، بعد المساعدة الكبيرة التي قدموها لهم . وقد سبق أن رأينا كيف أعطى ريموند الصنجيلي الجنوية ثلث جبيل مقابل مساعدتهم له ؛ وبذلك أصبحت هذه المدينة الصغيرة مستعمرة جنوية . وقد عين لحكم هذه المستعمرة أحد أمراء الأسطول الجنوى — هو هيو امبرياتشو — الذي لم يلبث أن حصل من جنوا على حق الحكم الوراثي في جبيل ، مع تعهده بدفع المال اللازم للحكومة جنوا<sup>(١)</sup> .

وعندما مات هيو سنة ١١٣٥ تعاقبت سلالاته في حكم جبيل . وليست هناك أهمية خاصة لهؤلاء الحكام الجنوية الذين توارثوا تلك المدينة سوى أنهم أخذوا يتعدون تدريجياً عن أصلهم الإيطالي ونزعتهم التجارية ، ويندمجون في الوسط الفرنجي البروننساى المحيط بهم ، حتى أصبحوا مجرد أفضال تابعين لأمراء طرابلس<sup>(٢)</sup> . وساعد على ذلك أن حكام جبيل من بيت امبرياتشو الجنوى ارتبطوا برباط نسب ومصاهرة مع البيوت الصليبية في المدن المجاورة — مثل نابلس وطرابلس وأنطاكية — مما أدى إلى ذوبان تلك الأسرة الجنوية في المحيط الصليبي الواسع الذي يحف بها . ولا أدل على نسيان حكام جبيل لأصولهم الجنوية وتنكرهم لمصالح جنواذاتها ، من أنهم منحوا سنة ١٢١٧ امتيازاً تجارياً للبنادقة في جبيل<sup>(٣)</sup> .

(1) Albert d'Aix, p. 669 & Fulcher de Chartres, p. p. 420.

(2) Heyd : op, cit, I, p.p. 162—163.

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 359—360.

## ترويض إمارة طرابلس :

اتخذ برترام لقب أمير طرابلس ، وحرص على تأكيد تبعية ملك بيت المقدس ، وفي الوقت نفسه تناسى وعوده العريضة للإمبراطور البيزنطي<sup>(١)</sup> . على أن إمارة طرابلس ولدت ممزقة ، وأخذت تعاني من ذلك التمزيق ما لم تعانیه إمارة أخرى من الإمارات الصليبية ببلاد مشام ؛ لأن معنى استيلاء برترام على مدينة طرابلس واستيلاء وليم جوردان على أنطربوس وعرقه ، هو تقطيع أوصال الإقليم الواحد ، مع ما ينتج عن ذلك من ضعف وحزازات . هذا إلى أن اختلاف اتجاهات الحاكمين وتوزيع ولائهما توزيعاً متضاداً زاد من حدة الفرقة والانقسام ؛ لأنه بينما اعترف برترام أمير طرابلس بالتبعية لملك بيت المقدس ، إذا بوليم جوردان صاحب أنطربوس وعرقه يقدم ولاءه لأمير أنطاكية . وجميع تلك الظواهر — وغيرها — كانت بدون شك لا تبشر بخير ، وأنذرت بالصدام بين الرجلين الذين اقسما أملاك بيت ريموند الصنجيلي في الشرق .

ولكن شاء حسن حظ إمارة طرابلس الصليبية أن ينتهي ذلك الوضع بمقتل وليم جوردان بيد أحد رجاله في ظروف غامضة أشارت إليها المراجع الصليبية إشارة مقتضبة غير واضحة<sup>(٢)</sup> . وهكذا ضم برترام جميع الممتلكات البروفنسالية في الشام تحت سيادته ، وأصبحت إمارة طرابلس إمارة كبيرة مترابطة لا تقل عن إمارة الرها أو أنطاكية في أهميتها ، ويحكمها برترام بن ريموند الصنجيلي مؤسس الإمارة ، وهو الذي ربطته علاقات وثيقة بملك بيت المقدس

(1) Runciman : op. cit; I p. 69.

(2) Albert d'Aix, p. 669 & Foucher de Chartres, p 400

أما تنكرد - الذي « قامر على الحصان الخاسر » - فلم يعد له نفوذ إطلاقاً في إمارة طرابلس الجديدة بعد مقتل حليفه<sup>(١)</sup>.

### استيلاء الصليبيين على بانياس وجبله وعصمه الأكراد :

وسرعان ما أعقب سقوط طرابلس في أيدي الصليبيين استيلاؤهم على ما تبقى من المعاقل الإسلامية على شاطئ الشام - من ذلك أن تنكرد احتل في طريق عودته من حصار طرابلس مدينة بانياس التي لم تبد سوى مقاومة ضعيفة، مما جعل تنكرد لا يتعرض لأرواح أهلها<sup>(٢)</sup>.

ومن بانياس زحف تنكرد على جيلة التي أوى إليها أمير طرابلس السابق فخر الملك عمار، كما سبق أن أشرنا. ولم تستطع جيلة هي الأخرى أن تقاوم حصاراً طويلاً « وكان القوت فيها قليلاً » فاضطر ابن عمار إلى تسليمها في يوليو سنة ١١٠٩. وقد سمح تنكرد لابن عمار بأن يخرج سالماً إلى شيزر ومنها إلى دمشق، حيث أشفق عليه طفتكين « وأقطعة الزبداني وأعماله »<sup>(٣)</sup>. وهكذا أصبحت بانياس وجيلة أجزاء من إمارة أنطاكية الصليبية.

أما في داخلية البلاد فيروى لنا ابن القلانسي أن الصليبيين من أتباع برترام زحفوا في السنة السابقة نفسها (١١٠٩ - ١١١٠) على ريفية شرقي أنطروتوس.

(1) Runciman : op cit; I, p. 69.

(٢) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٥٠٣ هـ .

ابن القلانسي ، ص ١٦٣ - ١٦٤

وقد أخطأ ابن الأثير فقال : إن تنكرد استولى في تلك السنة على جبل من المسلمين؛ والحقيقة إنها جيلة أماجيل فاستولى عليها الصليبيون سنة ١١٠٤ كما مر بنا، وتم ذلك على يد ريموند الصنجيلي لا تنكرد .

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٥ .

على أن طغتكين عندما سمع بذلك أسرع من دمشق للدفاع عن تلك القلعة ،  
واكتفى مؤقتاً بأن عسكر على رأس قواته قرب حصص لمراقبة الأمور ؛ « فلم يقدرُوا  
(الصليبيون) على منازلة رفنيه »<sup>(١)</sup> . وكان أن انتهى الموقف بعقد اتفاق ودى  
بين طغتكين والصليبيين ، وافق بمقتضاه الطرف الأول على أن يستولى الصليبيون  
— برترام — على ثلث دخل البقاع ، فضلاً عن حصص المنيطرة وابن عكار<sup>(٢)</sup> .  
ولاشك في أن استيلاء الصليبيين على هذين الحصنين الأخيرين أمر له أهميته ، لأن  
المنيطرة تسيطر على الطريق بين جبيل وبعليك ، في حين أن سيطرتهم على  
حصن ابن عكار تمكنهم من الإشراف على الطريق بين عرقه وحصص . وفي  
مقابل ذلك كله تعهد برترام أمير طرابلس بعدم الاعتداء على مصيآث وحصن  
الطوفان وحصن الأكراد ، وكان الأخير تابعاً لقرآجا صاحب حصص .

على أن الصليبيين لم يحافظوا على كلتهم مدة طويلة ، إذ لم يلبث تنكرد  
صاحب أنطاكية أن استولى على حصن الأكراد سنة ١١١٠ أثناء قيامه بغارة  
على شيزر<sup>(٣)</sup> . ومن الواضح أن حصن الأكراد بحكم موقعه كان يجب أن يتبع  
إمارة طرابلس لا أنطاكية ؛ ولذلك لم يلبث تنكرد أن تخلى عنه للأمير بونز  
Pons الذي خاف أباه برترام في حكم طرابلس سنة ١١١٣ . ومنذ هذه السنة  
ظل حصن الأكراد تابعاً لإمارة طرابلس حتى أعطاه ريموند الثاني أمير  
طرابلس للفرسان الاسبتارية سنة ١١٤٣<sup>(٤)</sup> .

- 
- (١) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ( p. 537 )  
(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٥ .  
(٣) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ( p. 537 ) .  
(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٧ .  
سبط بن الجوزى ، ( p. 539 ) .



### سياسة بونز أمير طرابلس :

أما عن العلاقات بين الصليبيين بعضهم وبعض في تلك الفترة ، فأهم ما يميزها التقارب الشديد بين الإمارات الصليبية الأربع في الشرق الأدنى ، وهي الرها وأنطاكية وطرابلس ومملكة بيت المقدس ، حتى أن تاريخها في الفترة التي أعقب سقوط طرابلس في أيدي الصليبيين جرى في اتجاه واحد (١) . وقد ظهر ذلك التقارب عندئذ أشد ما يكون وضوحاً بين أمراء طرابلس وأنطاكية حتى أن برترام أرسل ابنه وخليفته بونز إلى بلاط غريمه القديم تنكرد في أنطاكية ، ليتلقى هناك تعاليم الفروسية وآدابها . ويقال إن بونز تعاقب في تلك الفترة بغرام سيسيل - زوجة تنكرد الشابة - حتى إذا ما توفي تنكرد في ١٢ ديسمبر سنة ١١١٢ ، تزوج بونز من أرملة سيسيل على الفور (٢) . ولا شك في أن هذه الزيجة كان لها أثرها الخطير من الناحية السياسية ، إذ ربطت بين الأسترتين الحاكمتين في طرابلس وأنطاكية .

وفي الوقت نفسه ، لم يتخل بونز عن علاقته الودية مع ملك بيت المقدس ، فرافقه سنة ١١١٥ لصد الأتابك برسق عندما هدد الأخير إمارة أنطاكية (٣) .

هذا عن سياسة بونز أمير طرابلس تجاه القوى الصليبية المجاورة . أما عن سياسته تجاه المسلمين ، فقد اتبع الخطة التي وضعها أسلافه بخصوص مهاجمة ممتلكات دمشق وحمص ، وذلك لحدود دولته في الاتجاه الشرقي . من ذلك مايرويه ابن الأثير من أن الصليبيين استولوا سنة ١١١٥ على رمنية ، وهي

(1) Setton : op. cit; I p. 399.

(2) Guillaume de Tyr, I, p. 483 &  
Albert d'Aix, P. 701.

(3) Albert d'Aix, p. 701.

من أملاك طفتكين صاحب دمشق « وبالغوا في تحصينها ». ولكن ابن الأثير يضيف أن طفتكين لم يلبث أن حضر بنفسه واقترح ريفية واستردها من الصليبيين بعد أن « أخذ كل من فيه من الفرنج أسيراً فقتل البعض وترك البعض ، وغنم المسلمون من دوابهم وكراعهم وذخائرهم ما امتلأت به أيديهم ، وعادوا إلى بلادهم سالمين » (١) .

أما الحصن الثاني للصليبيين في إقليم البقاع فكان حصن بعيرين الذي شيده بونز أمير طرابلس حوالي ذلك الوقت . وهناك إشارات في المراجع الصليبية تفيد أن برسق استطاع أن يستولى على ذلك الحصن من الصليبيين سنة ١١١٥ . على أن الصليبيين لم يلبثوا أن استردوا ريفية وحصن بعيرين ، فهاجم بونز ريفية واستطاع أن يستولى عليها بمساعدة بلدوين الثاني ملك بيت المقدس في نهاية مارس سنة ١١٢٦ وذلك بعد حصار بضعة أيام (٢) . أما قلعة بعيرين فقد استولى عليها أيضاً بونز بعد ذلك بقليل ، بدليل ما تواتر في المراجع من أن بعيرين كانت سنة ١١٣٢ إحدى القلاع المنيعات التابعة لإمارة طرابلس .

وخلاصة القول إن إمارة طرابلس ظلت في نمو حتى بلغت أقصى اتساعها سنة ١١٣٢ عندما صارت تمتد من الرقب شمالاً حتى نهر الكلب جنوباً ، ومن شاطئ البحر المتوسط غرباً حتى بعيرين وريفية وحصن الكراد وعكار شرقاً . ومنذ ذلك الوقت وتاريخ إمارة طرابلس مرتبط إلى حد كبير بتاريخ إمارة أنطاكية من جهة وتاريخ مملكة بيت المقدس من جهة أخرى ، مما يجعلنا نعرض له أثناء كلامنا عن هاتين الوحدتين (٣) .

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٩ هـ .

سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ( P. S. 555, 557 )

(٢) ابن المديم : زبدة الحلب ( Rec. Hist. Or. P. 652 ) &

Foucher de Chartres p. 480.

(٣) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 367-368.

## الباب السابع

### إمارة أنطاكية والبيزنطيون

- ﴿ إن هؤلاء لشرذمة قليلون • وإنهم لنا لمارغون •  
• وإنا لجميع حاذرون ﴾

[ الشعراء : ٥٤ - ٥٦ ]



## الفصل الأول

### بوهيموند وتأسيس إمارة أنطاكية

مستطناً أنطاكية واللازفية سنة ١٠٩٩ :

رأينا كيف اتجه زعماء الحملة الصليبية الأولى جميعاً صوب بيت المقدس في يناير سنة ١٠٩٩ ، عدا بوهيموند الذي ظل باقياً في أنطاكية ، وبلدوين البولوني الذي استقر في الرها . ومهما يقال في أن هذين الأمرين إنما اختاراً ألا يصحبا بقية الزعماء الصليبيين حرصاً على مصالحهما الخاصة ورغبة في الاحتفاظ بالمكاسب التي حققها ، وطمعاً في إنشاء إمارتين مستقلتين إحداهما في أنطاكية والأخرى في الرها ، فإنه ينبغي أن نعرف بأن بقاء هذين الأمرين في شمال الشام والعراق جاء عظيم الفائدة بالنسبة للصليبيين ، لأنه حمى ظهورهم من خطر السلاجقة أثناء زحفهم على بيت المقدس . ونستطيع أن نتصور مدى الخطر الذي كان من الممكن أن يتعرض له الصليبيون لو أنهم استمروا يستولون على المدن والبلاد الإسلامية لتركوها خلفهم دون حماية كافية ، ويتابعون سيرهم نحو بيت المقدس غير عابئين بالاحتفاظ بسلامة خطوط مواصلاتهم وتأمين ظهورهم . ولا شك في أن النتيجة الوحيدة لهذه السياسة كانت ملاحقة السلاجقة للصليبيين واستردادهم ما استولى عليه الصليبيون من مدن ، ثم حصر الجوع الصليبية في نهاية الأمر في منطقة بيت المقدس والفتك بهم بعد أن يكون الأعداء قد استبد بهم بسبب مشقة الطريق<sup>(١)</sup> . وعندئذ لا يجد الصليبيون مخرجاً أو منفذاً ، فالطريق وراءهم

(١) Grousset : Hist. des Croisades. I, p. 369-370.

قد قطع ، وصحراء سيناء أمامهم ، وبادية الشام عن يسارهم ، والبحر عن يمينهم . ولكن بقاء بوهيموند في شمال الشام وبلدوين في شمال العراق جاء بمثابة إقامة حراسة صليبية قوية على الأبواب الشمالية لطريق بيت المقدس ، فاستطاع بقية الصليبيين بفضل هذه الحراسة أن يزحفوا في اطمئنان نحو المدينة المقدسة ، وأن يتفرغوا لما عساه أن يبديه الفاطميون من مقاومة ، دون أن يعملوا حسابا كبيرا لظعن السلاجقة لهم من الخلف .

على أنه إذا كان بوهيموند قد ارتاح لابتعاد ريموند الصنجيلي عن أنطاكية<sup>(١)</sup> ، فليس معنى ذلك أن بوهيموند اطمأن تماما للملكية أنطاكية . ذلك أن مدينة أنطاكية كانت أغنى المدن الصليبية جميعا في الشرق الأدنى ، بفضل ما امتازت به من موقع فريد جعلها واسطة التجارة بين حلب وإقليم الجزيرة من ناحية والغرب الأوربي من ناحية أخرى ؛ فضلا عما اشتهرت به من صناعات الأقمشة والسجاد والزجاج والخزف<sup>(٢)</sup> . لذلك لاعجب إذا اشتد التنافس بين مختلف الأطراف المسيحية على امتلاك أنطاكية بالذات . وهنأنا لاحظنا أن مشكلة أنطاكية لم تكن مشكلة داخلية بين زعماء الصليبيين بعضهم وبعض ؛ وإنما كان لها وجه خارجي خطير يتعلق بحقوق الإمبراطورية البيزنطية في تلك المدينة ، وهي حقوق لها سندها التاريخي والقانوني . ولم يستطع الإمبراطور ألكسيوس كومنين أو خلفاؤه المباثرون أن يتناسوا حقوقهم في أنطاكية ، مما يجعلنا نقرر أن إمارة أنطاكية الصليبية لم تقم رغم إرادة السلاجقة المسلمين وخدمهم ، بل أيضاً رغم إرادة الإمبراطورية البيزنطية ذاتها<sup>(٣)</sup> . ومع ذلك فقد استطاع النورمان — بما هو معروف عنهم من صلابة عود — ، وبفضل قوة ومهارة أميرهم بوهيموند ثم

(1) Albert d'Aix, p. 448.

(2) Runciman : op. cit, II, p. 9.

(3) Brehier : Vie et Mort de Byzance, P.P. 314-315.

تسكرد ، أن يواجهوا عداة السلاجمة والبزنطيين جميعاً ، وأن يقيموا دعائم إمارتهم في أنطاكية ويحتفظوا بها قائمة في وجه العواصف المضادة التي واجهتهم من قبل أعدائهم<sup>(١)</sup> .

أما مشكلة اللاذقية ، فكانت هي الأخرى لا تقل تعقيداً عن مشكلة أنطاكية . ذلك أنه بعد أن قام أحد القراصنة — ويدعى ونمار البولوني — بالاستيلاء عليها من الأتراك في صيف ١٠٩٧ ؛ لم يلبث أن انتزعها من ونمار بعض البحارة الإنجليز بزعمارة إيدجار اثلنج . وهكذا أخذت أيادي المغامرين تتلطف اللاذقية حتى استولى عليها ريموند الصنجيلي في صيف سنة ١٠٩٨ ، فسلمها بدوره للبزنطيين<sup>(٢)</sup> .

على أن امتلاك البزنطيين اللاذقية شكل خطراً كبيراً على إمارة أنطاكية ، إذ كان في استطاعة البزنطيين أن يشرفوا من تلك المدينة الهامة على وادي نهر العاصى بأكمله ، وبالتالي يهددون مطامع بوهيموند ويحولون بينه وبين التوسع<sup>(٣)</sup> . لذلك لم يكذب بقية الأمراء الصليبيين يستولون على بيت المقدس ، حتى شرع بوهيموند في حصار اللاذقية في صيف سنة ١٠٩٩ . وإذا كانت هذه العملية الحربية في حاجة إلى أسطول قوى لكي تتم بنجاح ؛ فإن الظروف سرعان ما أمدت بوهيموند بالأسطول البيزى الذى وصل — وعلى رأسه رئيس الأساقفة دايمبرت — إلى أنطاكية ، في الوقت المناسب<sup>(٤)</sup> .

ولم يلبث أن تمسكن بوهيموند من فرض حصار قوى على اللاذقية بمساعدة

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, pp. 370-371

(2) Albert d'Aix, p. 500 &  
Raoul de Caen, p. 649.

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 371.

(4) Heyd : op. cit. I, p. 135.

الأسطول البيزى، حتى أوشكت الحامية البيزنطية في المدينة أن تستسلم، في الوقت الذى اقترب ريموند الصنجيلى عائداً إليها بعد الاستيلاء على بيت المقدس (سبتمبر سنة ١٠٩٩). وكان ذلك عند جبله — أى على بعد ثلاثين كيلو مترا من اللاذقية — عندما سمع ريموند بهجوم بوهيموند على اللاذقية، فاستشاط غضباً، وأرسل إنذاراً عاجلاً إلى أمير أنطاكية يطلب منه رفع الحصار فوراً عن المدينة والعودة من حيث أتى<sup>(١)</sup>. وإذا كان بوهيموند قد رفض ذلك الإنذار وأصر على مهاجمة اللاذقية، فإنه كان ينتظر أن يساعده في موقفه دايمبرت زعيم البيازنة؛ ولكن دايمبرت تخلى عنه في تلك اللحظة الحرجة، مما اضطر بوهيموند إلى رفع الحصار عن اللاذقية والعودة إلى أنطاكية. وهكذا دخل ريموند في اليوم الثانى اللاذقية ليرفع رايته — إلى جانب الراية البيزنطية — على قلعتها؛ وتم الاتفاق بعد ذلك على تسوية المسألة بين بوهيموند وريموند في مقابلة ودية<sup>(٢)</sup>.

أما عن دايمبرت، فإن تخليه عن بوهيموند أمام طرابلس لم يؤثر في الصداقة بين الرجلين، وقد تجلت هذه الصداقة في موقف بوهيموند من أطاع دايمبرت للوصول إلى بطريركية بيت المقدس، كما مر بنا.

### فتومات بوهيموند فيما وراء نهر العاصى :

ويعد أن قام بوهيموند بالحج وزيارة بيت المقدس، أخذ يفكر في توسيع إمارته بالاستيلاء على بعض المواقع الإسلامية القريبة. وكان أن بدأ بالمحجم على قلعة نامية في حوض نهر العاصى. وكانت هذه المدينة تابعة للامير العربى سيف الدولة خلف بن ملاعب الذى كان في عداة دائم مع جيرانه من أرواء

(1) Setton : op. cit; I, p. 374.

(2) Albert d'Aix, p. 504.



المسلمين ، وبخاصة بنى منقذ في شيزر<sup>(١)</sup>. وربما ظن بوهموند أن تلك المنازعات بين الأمراء المسلمين - بعضهم وبعض - من شأنها أن تمكنه من تحقيق أطماعه والاستيلاء على فامية في سهوله ، ولكنه لم يكده يصل إلى تلك المدينة حتى وجد مهمته أصعب مما يظن ، فقتل راجعا بعد أن « أفسد زرعها » ( يونية ١١٠٠ )<sup>(٢)</sup>.

ويروى ابن العديم أن بوهموند قام في تلك الفترة بالذات بهجامة سلاجقة حلب ، وأن رضوان السلجوقي صاحب حلب طرد النورمان من كلاً، وهو مكان شرقي العاصى في منتصف الطريق بين أنطاكية وحلب . على أنه كان للصليبيين - أى النورمان من أتباع بوهموند - عدة قلاع في تلك المنطقة عدا كلاً ، مثل زردنا وسرمين ، فخرجت الحاميات الصليبية من تلك المراكز وطاردت الأمير رضوان وأنزلت به الهزيمة في ٥ يولية سنة ١١٠٠ ، وعندئذ ولّى رضوان الأدبار « واستبيح عسكره وقتل خلق كثير وأسر قريب من خمس مائة نفس ومنهم بعض الأمراء »<sup>(٣)</sup>. وقد ترتب على هذا النجاح أن تمكن النورمان من احتلال برج الحاضر - قرب قنسرين - وكفر طاب شمالي شيزر، في منتصف الطريق بينها وبين معرة النعمان<sup>(٤)</sup>.

ولم يسع رضوان ملك حلب - عقب تلك الهزائم التي حلت به - سوى أن يستنجد بالأمير العربي جناح الدولة صاحب حمص ؛ دون أن يقدر مدى ما تسببه استعانتته بذلك الأمير العربي الصغير من مساس بمكانة السلاجقة وهيبتهم . وقد ذهب جناح الدولة إلى حلب فعلا لمساعدة رضوان ، ولكنه

(١) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ٥٢ ، ٥٥ .

(٢) ابن الأثير الكامل ، حوادث سنة ٤٩٣ هـ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. III, p. 588)

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب (Hist. Or. III, p. 583)

صادف من المهانة وعدم التقدير ما جعله يعود بسرعة إلى حمص، وهو راغب في الانتقام من رضوان السلاجوقي<sup>(١)</sup>.

أما بوهموند فقد استمر يباشر نشاطه حول حلب، فعسكر في أواخر يولية سنة ١١٠٠ على ضفاف نهر قويق، ومن هناك أخذ يراقب الموقف. ويذكر ابن العديم أن بوهموند كان ينوي تحويل الكثبان القريبة من حلب — والتي كانت مدافن للمسلمين — إلى حصون تحيط بالمدينة، وبذلك يضمن حصار حلب ومواصلة التضيق عليها حتى تستط في يده<sup>(٢)</sup>. ولا يخفى علينا أن قوة سلاجقة حلب كانت قد أخذت تنحل سريعاً في ذلك الوقت. وكان من الممكن أن يستولى بوهموند على تلك المدينة لو أنه واصل الهجوم عليها، ولكنه تركها وغير اتجاهه فجأة صوب ملطية، وذلك عندما علم بهجوم كشتكين الداغشمندي عليها<sup>(٣)</sup>.

ومن هذا يبدو أن بوهموند ظل يحارب في أكثر من جبهة واحدة، وينازل أكثر من عدو في وقت واحد. ففي الوقت الذي كان يحارب المسلمين — من عرب وسلاجقة — لم يتردد في منازلة البيزنطيين — أعدائه القدامى — ليسترد منهم مدينة مرعش. وكانت هذه المدينة — في جبال طوروس — قد استولى عليها الصليبيون في الحملة الأولى سنة ١٠٩٧ — كما مر بنا — وسلموها للبيزنطيين، ولكن بوهموند عاد وأصر على استردادها. ولم يستطع بوهموند في حملته التي قام بها ضد مرعش أن يحقق غرضه، وكل ما استطاعه هو السيطرة على الأراضي المكشوفة المحيطة بها<sup>(٤)</sup>. وربما كانت هذه الحملة في ذاتها لا تهمنا كثيراً إلا

(1) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 277.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ( Hist. Or. III, 588 — 589 )

(٣) المرجع السابق والصفحة ذاتها.

(4) Matthieu d'Edesse (Doc. Ar. I,) p. 50.

من ناحية أن أهل ملطية الأرمن ما كادوا يعلمون بوجود بوهيموند على مقربة منهم عند مرعش حتى استنجدوا به ضد الأتراك المسلمين .

### أسر بوهيموند :

رأينا أن مدينة ملطية — عند أطراف الفرات — كان يحكمها وقت وصول الصليبيين إلى الشرق أحد زعماء الأرمن ، واسمه جبريل . وقد أفتد وصول الحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٦ جبريل هذا من هجوم قلعج أرسلان سلطان سلاجقة الروم . ولكن ملطية سرعان ما وجدت نفسها أمام عدو آخر لا يقل خطورة ، هو الملك غازي كشتكين ( نوشتكين ) ابن الدانشمند — أمير سيواس<sup>(١)</sup> — الذي ظل ثلاث سنوات كاملة يهدد ملطية ويعيث في أراضيها فساداً وتخريباً<sup>(٢)</sup> . وعندما عاد كشتكين إلى مهاجمة ملطية في صيف سنة ١١٠٠ ، استنجد جبريل ببوهيموند ، وتعهد له بتسليمه المدينة إذا هو نجح في إنقاذها<sup>(٣)</sup> .

وكان بوهيموند يدرك تماماً أهمية الأرمن والدور الذي يمكن أن يقوموا به في المسائل المتعلقة بالشرق الأدنى — وبخاصة الأزمة بينه وبين الإمبراطورية البيزنطية — ولذلك حرص على حمايتهم والدفاع عنهم ، واعتد دائماً أن النورمان والأرمن لهم جميعاً عدوان مشترك ؛ هم البيزنطيون والأتراك<sup>(٤)</sup> . لذلك أسرع بوهيموند لنجدة ملطية ومعه خمسمائة فارس فقط ، وهو عدد صغير لم يكن يكف للوقوف به في وجه جموع الأتراك<sup>(٥)</sup> .

(١) كتبه ابن العديم نوشتكين الدانشمند وكتبه ابن الأثير كشتكين بن الدانشمند .

(2) Michel Le Syrien (ed Chabot) III. p, 187.

(3) Matthieu d'Edesse, p 51

(4) Grousset : Hist' des Croisades, I. p. 378.

(٥) قدر ابن الأثير عدد رجال بوهيموند بخمسة آلاف ، وهو عدد مبالغ فيه ، كما يبدو من تطور الأحداث التي أدت إلى أسره ( السكامل ، حوادث سنة ٤٩٣ هـ ) .

ولم يلبث أن وقع بوهيموند في كمين نصبه الأتراك ، وانتهى الأمر بأسره  
وذبح رجاله في أوائل أغسطس سنة ١١٠٠<sup>(١)</sup>. ولا شك في أن وقوع بوهيموند في  
الأسر جاء كارثة على الصابيين، نظراً لنشاطه وبلائه في حرب المسلمين، مما جعل  
أحد المؤرخين الأرمن — وهو متى الرهاوى — يقول إن إسم بوهيموند كان  
يثير الرعب في قلوب المسلمين حتى خراسان<sup>(٢)</sup>. أما الملك غازي كمشكين،  
فقد استغل ذلك النصر ليشدد قبضته على ملطية، فأجبه في اليوم التالي إلى أسوار  
المدينة ورءوس الفرنجة من اتباع بوهيموند معلّقة على أسنة الرماح، والأسرى بجانبه  
مكبّين بالأغلال ليثير الرعب في نفوس أهل ملطية ويضطرهم إلى التسليم.

ويقال إن بوهيموند أرسل عند أسره رسالة سرية إلى بلدوين البولوني حاكم  
الرها — الذي صار بلدوين الأول ملك بيت المقدس فيما بعد — يستنجد به لتلك  
أسره، فخرج بلدوين على رأس مائة وأربعين فارساً فقط قاصداً ملطية: وكان من  
الممكن أن يقع بلدوين في المصير نفسه الذي وقع فيه بوهيموند، لولا أن الملك غازي  
كان قد غادر ملطية قبل وصوله، وأجبه شمالاً إلى بلاده حيث سجن بوهيموند في  
قلعة نيكسار قرب شاطئ البحر الأسود<sup>(٣)</sup>.

أما بلدوين فقد استقبل في ملطية استقبال المحرر، وأعلن جبريل حاكم  
المدينة تبعيته له. وبعد أن ترك بلدوين خمسين فارساً من فرسانه في ملطية للدفاع  
عنها، انصرف عائداً إلى مركز إمارته بالرها. على أن تلك المعونة الصغيرة لم  
تكف لحماية ملطية من هجمات الملك غازي، وهي تلك الهجمات التي لم تهدأ  
إلا باستيلائه عليها « وأسر صاحبها » سنة ١١٠١ أو سنة ١١٠٢ حسب اختلاف  
الروايات<sup>(٤)</sup>.

(1) Albert d'Aix p. p. 524 &

Matthieu d'Edesse, p. 52.

(2) Matthieu d'Edesse, p. 52.

(3) Albert d'Aix, p. 525.

(٤) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٤٩٣ هـ.

## الفصل الثاني وصاية تنكرد على أنطاكية

( ١١٠٠ - ١١٠٣ )

الموقف في أنطاكية يوم أسر بوهيموند :

ترك أسر بوهيموند فراغاً كبيراً في شمال الشام ، لاسيما وأن بلدين البولوني أمير الرها لم يلبث هو الآخر أن استدعى إلى بيت المقدس ليرث أخاه جودفري في الحكم .

وبالنسبة لأنطاكية بالذات ، قرر أمراؤها ورجال الدين فيها استدعاء تنكرد للقيام بالوصاية على الإمارة أثناء أسر خاله <sup>(١)</sup> . وقد جاء ذلك العرض على تنكرد في الوقت المناسب بعد أن ساء موقفه مع ملك بيت المقدس الجديد بلدين الأول ، كما مر بنا . وهكذا ترك تنكرد إقطاعه في الجليل ، واتجه إلى أنطاكية لياشر مهمته الجديدة ( أواخر مارس ١١٠١ ) <sup>(٢)</sup> .

ولم يلبث أن وجد نورمان أنطاكية في تنكرد زعيماً يفيض قوة وحماسة ، ولا يقل عزيمة وبأساً عن سلفه بوهيموند . ثم إن تنكرد حرص على أن يكون أميناً في وصايته على أنطاكية ، فلم يتخذ لنفسه لقب « أمير أنطاكية » ؛ وإن لقبته الوثائق الصليبية المعاصرة بلقب « الأمير الكبير » أو لقب « خادم الله »

(1) Guillaume de Tyr, I, p. 413 &

Foucher de Chartres p 384.

(2) Setton : op. cit; I, p. 382.

لتمييزه عن سائر أمراء الإمارة . والواقع إنه لم يكن في استطاعة تنكرد أن يتصرف غير ذلك ، نظراً لبقاء أهل إمارة أنطاكية على ولائهم لبوهيموند ، مما كان من المحتمل أن يعرضه لمقاومة شديدة إذا هو حاول أن يعتدى على حقوق بوهيموند في حياته <sup>(١)</sup> .

أما عن سياسة تنكرد فقد سارت في الطريق نفسه الذي رسمه بوهيموند ، فعمل على تنظيم الإدارة وتركيبتها ، وصنع كنيسة أنطاكية بالصبغة اللاتينية الكاثوليكية ؛ ثم توسيع حدود إمارة أنطاكية على حساب البيزنطيين والمسلمين جميعاً . وكان أول ما فعله تنكرد لتحقيق ذلك البرنامج ، هو اكتساب ود القوى البحرية الإيطالية ، فعقد اتفاقاً مع الجنوبية في صيف سنة ١١٠١ منحهم بمقتضاه ثلث دخل ميناء السويدية ، وشارعاً في أنطاكية يباشرون فيه نشاطهم التجاري . على أن المهم في هذه الاتفاقية هو أن تنكرد وعد الجنوبية بإعطائهم نصف دخل ميناء اللاذقية في الوقت الذي كانت اللاذقية نفسها بأيدي البيزنطيين <sup>(٢)</sup> . ومن الواضح أن ذلك يعني طلب مساعدة الأسطول الجنوبي في انتزاع اللاذقية من البيزنطيين . وهكذا يمكن تلخيص البرنامج الذي وضعه تنكرد لسياسته الخارجية خلال وصايته على أنطاكية في شطرين : الشطر الأول الاستيلاء على اللاذقية وقيليقية من البيزنطيين ؛ والشطر الثاني الاستيلاء على الجزء الأوسط من وادي نهر العاصي من سلاجقة حلب وأتباعهم <sup>(٣)</sup> .

(1) Runciman : op. cit, II, ps. 9,32.

(2) Chaladon : Alexis Comnene. p. 232 & Heya : op cit, I. p. 135.

(3) Grousset : Hist des Croisades I. p. 383.

### مروء تنكرود ضم البيزنطيين

وإذا كان تنكرود - مثل خاله بو هيوند - حريصاً على حماية إمارة أنطاكية من خطر البيزنطيين الذين لم ينفروا للنورمان استيلائهم على تلك المدينة ، فإن حسن الحظ شاء أن تحول ظروف الامبراطورية البيزنطية عندئذ دون قيامها بأية محاولة ضد أنطاكية ، سواء هجومية أو حتى دفاعية . ذلك أن الكارثة التي حلت بالحملة الصليبية سنة ١١٠١ أضعفت مركز البيزنطيين في آسيا الصغرى وقوت مركز الأتراك ، مما جعل من المتعذر على الإمبراطور البيزنطي أن يرسل حملة في تلك الظروف عبر آسيا الصغرى إلى قيليقية وشمال الشام . وكان أن استغل تنكرود الفرصة ، فلم يكذب يسمع بهزيمة الصليبيين في آسيا الصغرى سنة ١١٠١ حتى فكر في مهاجمة المدن البيزنطية في قيليقية ، عملاً بالحكمة القائلة بأن الهجوم خير وسائل الدفاع (١) .

ولا أدل على ضعف مركز الامبراطورية البيزنطية في آسيا الصغرى في مستهل القرن الثاني عشر من أن تنكرود لم يكذب يشرع في غزو قيليقية في أواخر سنة ١١٠١ حتى استطاع في مدة قصيرة أن يستولى على المصيصة وأذنة وطرسوس - وهي المدن الرئيسية الثلاث في ذلك الاقليم - ، ثم انصرف بعد ذلك ليبدأ حصار اللاذقية (٢) .

على أن اللاذقية امتازت عندئذ بقوة تحصيناتها ، فضلاً عن وجود فرقة من رجال ريموند الصنجيلي داخلها للدفاع عنها وبعض قطع من الأسطول البيزنطي في مياهها ؛ مما تطلب حصاراً طويلاً وجهداً عنيفاً من تنكرود ليستولى عليها .

(1) Runciman : op. cit, II, p. 33.

(2) Raoul de Caen, p. 706

ومع ذلك فإن تنكرد استغل وقته أثناء مدة الحصار استغلالاً طيباً ، فقام في تلك الأثناء بمحاولة فاشلة للاستيلاء على جبلة — إلى الجنوب من اللاذقية — ثم شاء حسن حظه أن ريموند الصنجلي لم يكن موجوداً في الشام حينئذ ليدافع عن اللاذقية وعن حقوق الامبراطورية البيزنطية. كما سبق أن دافع عنها سنة ١٠٩٩ - وإنما كان ريموند مشغولاً سنة ١١٠١ بمرافقة الحملة الامباردية المشؤمة في شمال شرق الأناضول . ولم يكد ريموند ينتهي من أمر تلك الحملة ويعود إلى ميناء السويدية حتى قبض عليه تنكرد واعتقله في قلعة أنطاكية كما مر بنا<sup>(١)</sup>.

ومن الواضح أن حرص تنكرد على اعتقال ريموند إنما كان مصدره تخوفه من أن يتهمز ريموند فرصة أسر بوهيموند، ويجدد النعمة القديمة فيطالب بحقه في أنطاكية فضلاً عن تهديده لمشروع تنكرد الخاص بالاستيلاء على اللاذقية. لذلك لم يطلق تنكرد سراح خصمه سنة ١١٠٢ إلا بعد أن أقسم له على أن يتخلى عن مطالبه وادعاءاته في شمال الشام . وهكذا انصرف ريموند من محبسه ليتجه نحو أنطرسوس (طرطوس) ومر أثناء طريقه باللاذقية فأمر رجاله بالانسحاب منها ومراقبته لتحقيق مشروعه الخاص بتأسيس إمارة لنفسه حول طرابلس<sup>(٢)</sup>.

ولم تلبث الحامية البيزنطية أن وجدت نفسها وحيدة في اللاذقية بعد أن انسحب أتباع ريموند من البروة فساليين ، في الوقت الذي شدد تنكرد هجماته عليها بمساعدة حلفائه الجنوبية من ناحية البحر ، مما أدى إلى سقوط اللاذقية في يده في أواخر سنة ١١٠٢ وأوائل سنة ١١٠٣ . وبذلك حصلت إمارة أنطاكية على واجهة بحرية عريضة ، فضلاً عن ميناء بحري رئيسي يربطها بالغرب<sup>(٣)</sup> .

(1) Albert d'Aix p. 582.

(2) Runciman : op cit II, p. 34

(3) Raoul de Caen; p. 708-709.



ثم إن تلك الحرب ضد البيزنطيين جاءت مصحوبة بتغيير في أوضاع بطرقيّة أنطاكية . ذلك أن الصليبيين عندما فتحوا أنطاكية احتفظوا بالبطرق الأرثوذكسي حنا الرابع ، الذي قاسى كثيراً أثناء فترة الحصار ، ومن ثم ازدادت مكانته في نظر المسيحيين جميعاً ، واحترمه الصليبيون الكاثوليك رغم مذهبه الأرثوذكسي (١) . ولكن نظرة النورمان إلى حنا الرابع لم تلبث أن تبدلت أثناء عدائهم للبيزنطيين ، إذ أخذوا يعتبرون ذلك البطرقي رسولا للبيزنطيين وعينا للإمبراطور البيزنطي عليهم . لذلك عزل بوهيموند — قبل أسره مباشرة — بطرق أنطاكية الأرثوذكسي حنا الرابع ، وعين بدله أحد رجال الدين الكاثوليك ، هو برنارد دي فالنس أستف ارتاح الذي شغل كرسي بطرقيّة أنطاكية من سنة ١١٠١ حتى سنة ١١٣٥ وقام خلال تلك المدة بدور كبير فعال في النشاط الداخلي والخارجي لامارة أنطاكية . وقد استأنف تنكرد سياسة خاله إزاء الكنيسة ، فحرص دائماً على استبدال رجال الدين الأرثوذكس بغيرهم من الكاثوليك ، مما أثار غضب الإمبراطور البيزنطي والكنيسة الأرثوذكسية جميعاً (٢) .

ولا شك في أن الانتصارات التي أحرزها تنكرد على البيزنطيين جعلت له كلمة مسموعة في شئون فلسطين وبيت المقدس ، كما ظهر ذلك في تدخله لدى بلدوين سنة ١١٠٢ عقب الكارثة التي حلت بالأخير عند الرملة لإعادة دابرت إلى كرسي بيت المقدس ، كما سبق أن ذكرنا (٣) .

### انقسام المسلمين :

أما عن جانب المسلمين ، فإن خبر أسر بوهيموند أثار موجة الحماسة

(1) Albert d'Aix p. 433.

(2) Runciman : op. cit, II, p. p. 32—33.

(٣) انظر ما سبق ص ٢٩٦ .

المؤقتة بين صفوفهم ، ظهر صداها في النكسة التي منى بها الصليبيون . من ذلك ما يخبرنا به ابن العديم من أن النورمان أسر عوا عقب تلك الكارثة إلى الانسحاب من إقليم حلب ، في حين تشجع صاحب حلب رضوان السلجوقي وخرج من مدينته ليحتل مزارع الغلال المجاورة ، متخذاً معسكره قرب سرمين . أما أمير حمص العربي — جناح الدولة — فإنه عقب أسر تنكرد استرد من الصليبيين قلعة أسفونا ، غربي سرمين وشمالي معرة النعمان (١) .

على أن اشتقاق المسلمين وانقسام صفوفهم وتصدع وحدتهم في ذلك الوقت ، حالت دون قيامهم بعمل حاسم ضد الصليبيين . ذلك أن النزاع سرعان ما دب بين رضوان صاحب حلب وجناح الدولة صاحب حمص ، ليس فقط لأن الأول كان سلجوقياً تركياً والثاني كان عربياً ؛ وإنما أيضاً بسبب الخلاف المذهبي ، لأن رضوان على الرغم من أصله السلجوقي كان مقلداً لاسماعيليين المذهب ، في حين كان جناح الدولة سنياً (٢) . ولعل هذه النعرة المذهبية هي التي دفعت جناح الدولة إلى مهاجمة رضوان في معسكره قرب سرمين ، وعندئذ لاذ رضوان بالفرار ، ووقع وزيره أبو الفضل ابن الموصل أسيراً . وهكذا أخذ المسلمون يهاجمون بعضهم بعضاً بدلاً من توحيد جهودهم ضد عدوهم المشترك .

ثم إن عطف رضوان على الباطنية وتشجيعه للتزايد لهم ، سرعان ما أوجد انقساماً بين صفوف المسلمين في حلب ، وهو الانقسام الذي أفاد منه الصليبيون وحدهم . ذلك أن رضوان ساعد دعاة الاسماعيلية في نشر دعوتهم ، وعينهم في المناصب الكبيرة في إمارته ، « وحفظ جانبهم ، وصان لهم بحلب الجاه العظيم والقدرة الزائدة ، وصارت لهم دار الدعوة بحلب في أيامه ، وكاتبه الملوك في أمرهم

(١) ابن العديم : زبدة الحلب (Hist. Or III, p 589)

(٢) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 386 .

فلم يلفت ولم يرجع عنهم!!<sup>(١)</sup>. وكان زعيم الباطنية عندئذ هو الحكيم المنجم الباطنى الذى قر به رضوان إليه ، ومن ثم عمل على إفساد العلاقة بين رضوان وجناح الدولة ، مما أثار استياء كثير من أهل حلب المخلصين .

وقد ذكرنا كيف أن رضوان ملك حلب لم يستطع أن يغفر لتأبمه جناح الدولة صاحب حمص — الذى كان متزوجاً من أمه — ما حل به قرب سمرمين ، لذلك تظاهر رضوان بمصالحة جناح الدولة ودعاه إلى حلب حيث أكرم وفادته ، حتى إذا مدخل جناح الدولة جامع حلب لتأدية فريضة الجمعة ، انتقض عليه ثلاثة أعجام من الباطنية — بإيحاء من زعيمهم الحكيم المنجم الباطنى — ليمزقونه إرباً<sup>(٢)</sup> . ومن الواضح أن هذه الجريمة إنما تمت بتدبير رضوان ، الذى لم يكتف بتشجيع الباطنية ، وإنما قتل صاحب حمص بدلا من أن يؤازره ويشجعه على الصمود في وجه الصليبيين<sup>(٣)</sup> .

### جمود السلاجقة

ومن الظواهر التى تسترعى الانتباه فى تلك الفترة بالذات — أى فى أوائل القرن الثانى عشر — جمود سلاجقة فارس وأتابكتهم فى الموصل ، بحيث أنهم لم يتحركوا للأحد مع توسع الفرنجة ، على الأقل فى شمال العراق والشام وشرق آسيا الصغرى ، ولم يحاولوا الاستفادة من الموقف السيئ الذى بات فيه الصليبيون عقب أسر بوهموند أمير أنطاكية . ثم إنه حدث فى العام نفسه

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب (Hist. Or. III, p. 590) &

(٣) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان (Rec. Hist. Or. p. 525)

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب (Hist. Or. III: p. 591)

(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ .

تقريباً الذي شهد أسر بوهموند ، أن أصيبت حملة صليبية كبيرة — هي الحملة المباركية — بهزيمة ساحقة في شمال شرق الأناضول (سنة ١١٠١). ومع كل ذلك لم يحاول سلاجقة فارس أن يهتبلوا الفرصة لتحويل التيار في الشرق الأدنى ضد الصليبيين لطردهم من البلاد التي اغتصبوها . ثم كيف ارتضى سلاجقة فارس لأنفسهم أن تقوم القوى التركمانية الصغيرة — مثل الأرتاكة — بمحاربة إمارة الرها ، دون أن يشاركوهم عبء الجهاد للتضاء على تلك القوة الصليبية الرابضة في شمال العراق والتي تهدد سلامة الخلافة العباسية في بغداد (١) ؟

لاشك في أن موقف السلاجقة المتسم بالجمود في أواخر القرن الحادي عشر وأوائل القرن الثاني عشر ، إنما مرده النزاع الداخلي بين زعمائهم وقادتهم (٢) . ذلك أن وصول الصليبيين الغربيين إلى الشرق الأدنى وانتصارهم على السلاجقة في آسيا الصغرى والشام وشمال العراق ، كان له رد فعل عنيف داخل دولة السلاجقة ، إذ انحلت السلطة المركزية وضعفت سيطرة السلطان بركياروق على مختلف حكام الأقاليم التي تألفت منها دولته . ولم يلبث أن اشتد النزاع بين قادة السلاجقة وحكامهم مما أضعف من قوتهم وأضعف هيبة السلطان السلجوقي نفسه . من ذلك ما يروي ابن الأثير عن القتال الذي نشب بين زعماء السلاجقة حول حكم الموصل عند وفاة حاكمها كربوغا (كربوقا) في أواخر سنة ١١٠٢ ، والسلطان السلجوقي يسمع ويرى دون أن يتدخل (٣) .

وهكذا صار من المتعذر على سلطان سلاجقة فارس أن يقوم بحرب ضد

(1) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 394.

(2) Setton : op cit I, p. p 167-169.

(٣) ابن الأثير . السكاه ، حرادث سنة ٤٩٥ هـ .

الصليبيين في شرق آسيا الصغرى أو في الشام وشمال العراق ، وقادته في شغل  
بالنزاع الداخلي ومقاتلة بعضهم بعضاً . وبعبارة أخرى فقد أفاد الصليبيون من  
انقسام دولة ملكشاه وتفتتها ، وما نشأ بين زعمائها وقادتها من خلافات شغلهم  
جميعاً عن محاربة الدخلاء (١) .

---

(1) Archer : *op. cit.* p 144.

## الفصل الثالث

### عودة بوهموند إلى حكم أنطاكية

اطلاق سراح بوهموند :

استاء البيزنطيون من الحرب السافرة التي شنّها ضدّهم تنكرد الوصى على أنطاكية ، وهي الحرب التي أدت إلى استيلائه على مدن قيليقية واللاذقية . ولما كان من الصعب على الإمبراطور البيزنطي وجيوشه اختراق آسيا الصغرى لعاقبة النورمان في تلك الظروف التي أعقبت فشل الحملة الصليبية سنة ١١٠١ ، فإن الإمبراطور لم يجد وسيلة للانتقام سوى الحصول على شخص بوهموند نفسه بأي ثمن . ولم تكن محاولة الإمبراطور البيزنطي عندئذ هي المحاولة الأولى مع الملك غازي كمشكين لإطلاق سراح بوهموند ؛ إذ أخذ بلدوين دي بورج أمير الرها يتخوف عندئذ من أطاع تنكرد وسياسته ، ولم يجد سبيلا لمنع الصدام مع النورمان في أنطاكية سوى إطلاق سراح بوهموند وإعادةه إلى إمارته<sup>(١)</sup> . لذلك قام بلدوين دي بورج - بالاشتراك مع برنارد بطرق أنطاكية - بمحادثات مع الملك غازي لإطلاق سراح بوهموند ، وعندئذ تقدم الإمبراطور البيزنطي فجأة بعرض سخى ، إذ عرض على الملك غازي مائتين وستين ألف دينار ثمنًا لتسليمه بوهموند ، وقام حاكم طرابزون بالوساطة بين الطرفين<sup>(٢)</sup> .

وعندما علم قلعج أرسلان سلطان سلاجقة الروم بتلك المحادثات بين الإمبراطور

(1) Runciman : op. cit. II, p. 38.

(2) Albert d'Aix, P. 610.

البيزنطي والملك غازي حول تسليم بوهيموند ، تدخل ليطلب من الملك غازي تسليمه نصف المبلغ السابق مقابل المساعدة التي قدمها للملك غازي سنة ١١٠١ ضد حملة للمباردين . ولكن الملك غازي رفض طلب قلعج أرسلان ، فأعلن الأخير الحرب على الأول ، في الوقت الذي كان بوهيموند لا يزال أسيراً في نيكسار .

والواقع إن بوهيموند لم يكن في عزلة تامة عن تلك المحادثات الدائرة بشأن شخصه وتحديد مصيره ، فوصلت إليه الأخبار - في محبسه - بعرض الإمبراطور البيزنطي من ناحية وطلب السلطان قلعج أرسلان من ناحية أخرى ، ثم موقف الأمير التركي الملك غازي من الطرفين . ويقال إن بوهيموند - وهو النورمانى الموسيم - كان على صلة ببعض النساء في حريم الملك غازي ، مما مكّنه من متابعة الأخبار الخارجية من ناحية ، ثم من العثور على شفعاء عند الملك غازي من ناحية أخرى (١) . وكان أن أرسل بوهيموند إلى الملك غازي يدكرة بأن كلامن الطرفين الذين يتساومان عليه - الإمبراطور البيزنطي و السلطان سلاجقة الروم - عدو مشترك لبوهيموند والملك غازي نفسه ، وأن مصلحة الملك غازي تتطلب منه أن يطلق سراح بوهيموند دون أن يسلمه لأحد ، وفي هذه الحالة يتعهد بوهيموند بمخالفة الملك غازي ضد أعدائهما المشتركين . أما من ناحية المال فإن معنى إصرار قلعج أرسلان على مقاسمة الملك غازي المبلغ الذي سيدفعه الإمبراطور البيزنطي ، هو أن الملك غازي لن يتسلم سوى مائة وثلاثين ألف دينار ، في الوقت الذي تعهد بوهيموند بدفع مائة ألف دينار عن طريق الصليبيين بالشام .

وفي تلك الأثناء أخذت جيوش الملك غازي تهاجم ملطية ، وعندئذ استنجد

(1) Runciman : op cit; II, 301.

(2) Setton : op. cit; vol, I. p. 388.

(3) Albert d'Aix, p. p 610 - 612.

حاكمها جبريل بزواج ابنته بلدوين دى بورج أمير الرها . ولكن الأخير خشى أن يؤدي تدخله لمساعدة ملطية إلى تعثر المفاوضات الدائرة بشأن إطلاق سراح بوهيموند ، فأصم أذنيه عن نداء جبريل ، مما أدى إلى سقوط ملطية في قبضة الملك غازى ومقتل جبريل نفسه . ولم يلبث الملك غازى أن قبل العرض الذى تقدم به بوهيموند لإطلاق سراحه ، فاقْتيد إلى ملطية حيث تبادل مع الملك غازى أيمان الإخلاص والتحالف ، وبعد ذلك تم إطلاق سراحه فى أوائل مايو سنة ١١٠٣ أما عن مقدم الفدية المتفق عليه ، فقد اشترك فى جمعة الصليبيون فى الرها وأنطاكية ، فضلاً عن الأرمن فى إقليم طوروس ، فى حين دفع المؤخر أتباع بوهيموند فى صقلية<sup>(٥)</sup> .

ومن الواضح أن إطلاق سراح بوهيموند فى ذلك الوقت جاء كارثة على المسلمين ، كما يعبر عن ذلك ابن الأثير ، لأنه «عاد إلى أنطاكية فقويت نفوس أهلها به » . هذا إلى أن إطلاق سراح بوهيموند أوقع الملك غازى فى نزاع مريم مع سلطان سلاجقة الروم ، الذى عز عليه أن يرفض غازى طلبه ويحرمه من مبلغ ضخم . وهكذا تفككت جبهة الأتراك فى آسيا الصغرى ، وهى الجبهة التى أمكنها سنة ١١٠١ أن تقضى على الحملة المباردية ، وأرسل قلاج أرسلان إلى سلاجقة فارس وإلى الخليفة العباسى يستعديهما على الملك غازى التركمانى ، مما زاد من تشقق الجبهة الإسلامية ، وتصدعها فى الشرق الأدنى .

أما بوهيموند فقد وصل أنطاكية فى مايو سنة ١١٠٣ ليستقبل استقبالاً رائعاً فى إمارته بعد أن غاب عنها ثلاث سنوات قام فيها ابن أخته تنكرد برعاية

(1) Michael Le Syrien, III, p. p. 185—189.

(2) Runciman : op. cit II, p. 39.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ .

(4) Albert d'Aix, p. p. 613 — 614.



شئون الإمارة في الداخل والخارج بمهارة فائقة . ولم يسع بوهيموند سوى أن يشكر تنكرد لإخلاصه وأمانته ، وإن كان يبدو وجود قدر من الخلفات الشخصية بين بوهيموند وتنكرد في تلك الفترة ، بسبب رغبة الأخير في الاحتفاظ لنفسه بالفتوحات التي فتحها أثناء قيامه بالوصاية على إمارة أنطاكية<sup>(١)</sup> . ومهما يكن من أمر ، فإن تلك الحزازات قدر لها ألا تنكشف ، فاضطر تنكرد إلى مسألة خاله على طول الخط تحت تأثير الرأي العام ، في حين اكتفى أخاه بإقطاعه إقطاعاً صغيراً في إمارة أنطاكية<sup>(٢)</sup> .

### مروءة بوهيموند ضد البيزنطيين والمسلمين :

ولم يسكد بوهيموند يعود إلى أنطاكية حتى افتتح صفحة جديدة في سلسلة عداوته للدولة البيزنطية . ذلك أن الامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين جدد طلبه الخاص بتنفيذ اتفاقية سنة ١٠٩٧ بينه وبين أمراء الحملة الصليبية الأولى ، وطالب بإعطائه أنطاكية وغيرها من البلدان البيزنطية التي انتزعتها الصليبيون من السلاجقة<sup>(٣)</sup> . ولكن بوهيموند رد على الامبراطور بالرفض ، محتجاً بأن مسلك الامبراطور أثناء صراع الحملة الصليبية الأولى ضد السلاجقة ، يجعل الصليبيين في حل من عدم الالتزام بالاتفاقية السابقة. لذلك أرسل الإمبراطور حملة كبيرة سارت في آسيا الصغرى بجذاء شاطئ البحر المتوسط لاحتلال طرسوس وأذنه والمصيصة ، وانتزاعها جميعاً من النورمان . ولكن تلك الحملة لم توفق في مهمتها بسبب موقف أهالي تلك البلاد - وجلهم من الأرمن - مما

(1) Runciman op. cit. II. p. 39.

(2) Setton : op. cit. I. P. 388.

(3) Chalandon : Alexis Comnene, p. 233.

جعل قائد الجيش البيزنطي يتجه إلى مرعش التي كان حاكمها الأرمني تناول Thatoul تابعاً للامبراطور البيزنطي<sup>(١)</sup>.

ولم يكد القائد البيزنطي يعود من مرعش إلى القسطنطينية حتى زحف بوهموند أمير أنطاكية وجوسلين دي كورتنای — نائباً عن بلدوين دي بورج أمير الرها — على مرعش، فاستولى عليها جوسلين باسم أمير الرها سنة ١١٠٣، في حين استولى بوهموند على مدينة الأباستين شمال مرعش<sup>(٢)</sup>.

وفي الوقت نفسه لم يهمل بوهموند بعد إطلاق سراحه جانب جيرانه المسلمين، فشرع يحاربهم بشراسته المعروفة، وبدأ بمهاجمة البلدان التابعة لسلاجقة حلب، كما فرض الجزية على قسرين<sup>(٣)</sup>. ويروي ابن العديم أن الصليبيين في أنطاكية والرها اشتركوا في مهاجمة المسامية على نهر قويق شمال حلب، فزقوا الأهالي إرباً وفرضوا عليهم الأموال الباهظة. وبعد أن قضوا بضعة أيام في إقليم حلب تم الاتفاق مع صاحبها رضوان السلجوقي على أن يدفع لهم «سبعة آلاف دينار وعشرة رؤوس من الخيل، ويطلقون الأسرى ما خلا من أسروه على المسلمية من الأمراء». ويبدو أن هذه الأموال التي حرص بوهموند على فرضها على جيرانه المسلمين في تلك الفترة بالذات إنما كان الغرض منها رد المبالغ التي اقترضها بلدوين دي بورج والبطرق برنارد من المسيحيين للحصول على الفداء اللازم لإطلاق سراح بوهموند<sup>(٤)</sup>. يدل على ذلك ما ذكره ابن الأثير من أن بوهموند «لم يستقر حتى أرسل إلى أهل العواصم وقسرين وماجاورها يطالبهم بالإتاوة...»<sup>(٥)</sup>.

(1) Chalandon : Alexis Comnene, p. 234.

(2) Raoul de Caen. p. p 710-712.

(٣) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ .

(4) Runciman : op. cit. II p.39.

(٥) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ .

كذلك يروى ابن المديم أن الصليبيين التابعين لإمارة الرها خرجوا بعد ذلك من تل باشر ، ودمروا الأجزاء الشمالية والشرقية من حلب ، وعاثوا فيها فسادا وتحويقا ، ثم اتجهوا إلى قلعة بسرفوث واستولوا عليها ، كما هاجموا قلعة كفر لاثا ، ولكن قبيلة بنى عليم تصدت لهم وردتهم عنها فعادوا أدراجهم إلى بسرفوث <sup>(١)</sup> . ولا شك في أن استيلاء الصليبيين على قلعة بسرفوث أمر له أهميته لأن تلك القلعة تتحكم في الطريق بين حلب وأنطاكية <sup>(٢)</sup> .

#### موقعة هرايه وأرها في انطاكية :

وفي ذلك الوقت استغل أمير الرها انقسام السلاجقة على أنفسهم ، والنزاع بين بركياروق ومحمد ابني ملكشاه - كما سيلي فيما بعد - وقام بحملته الشهيرة على حران في ربيع سنة ١١٠٤ . ويهمننا في هذا المقام أن بوهيموند أمير أنطاكية - ومعة تنكرد - لم يترك بلدوين الثاني ( دى بوج ) أمير الرها وحيدا أمام حران ، نظراً لأهمية هذه المدينة ووقوعها على الطريق الموصل إلى بغداد قلب العالم الإسلامي في المشرق . وكان معنى استيلاء الصليبيين على حران أنهم سيتمكنون من قطع الصلة بين المسلمين في العراق وفارس وإخوانهم في الشام ، فضلا عن أن سقوط حران سيعطي الصليبيين فرصة لمهاجمة الموصل نفسها وتأمين الرها والسيطرة على إقليم الجزيرة .

على أن تهديد الصليبيين لحران على تلك الصورة جعل اثنين من أمراء الأتراك - هما شمس الدولة جكرمش أتاتك الموصل ، ومعين الدولة سكيان الأرتقي

(Hist. Or. III p. 591)

(١) ابن المديم : زبدة الحلب

(2) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 401

(3) Runciman : op. cit. II, p. 40.

صاحب ماردین فی دیار بکر (وهو الذي كان أمير سروج من قبل) - يقناسيا ما بينهما من حزازات قديمة ، ويتفقان على مقاومة ذلك الخطر . وهكذا التقى الأميران عند رأس العين على الخابور للزحف على الصليبيين . وكان مع سكان سبعة آلاف فارس من التركان ، ومع جكرمش ثلاثة آلاف فارس من الترك والعرب والأكراد (١) .

ولم تلبث أن دارت المعركة في مايو سنة ١١٠٤ بين الطرفين على ضفة نهر البليخ (٢) . وفي تلك الموقعة أظهر المسلمون «الانهزام فتبعهم الفرنج نحو فرسخين فعاد عليهم المسلمون قتلوهم كيف شاءوا ، وامتلأت أيدي التركان من الغنائم ووصلوا إلى الأموال العظيمة..» . وهكذا حلت الهزيمة بالصليبيين ، ووقع أمير الرها - بلدوين الثاني دى بروج - ومعه جوسلين حاكم تل باشر، أسيرين في قبضة المسلمين (٣) . أما بوهيموند ومعه معظم جيشه فقد لاذوا بالفرار بعد أن بلغ بهم الاضطراب والذعر حداً جعل برنارد بطرق أنطاكية يقطع ذيل فرسه لئلا يجذبه منه أحد الأتراك ويفتك به (٤) .

وسنتنصر في هذا الموضع على علاج أثر تلك الكارثة التي حلت بالصليبيين في أحوال إمارة أنطاكية، على أن نؤجل الكلام عن أثرها في إمارة الرها إلى الباب الآتي . ذلك أن موقعة حران أو البليخ أوقفت تقدم الصليبيين

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٧ هـ . ٢

Albert d'Aix p. 615.

ويلاحظ أن الراجع الصليبية قدرت عدد جيوش المسلمين بثلاثين ألف رجل، وهو رقم مبالغ فيه، ربما قصد به تبرير الهزيمة التي حلت بالجيوش الصليبية.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، سنة ٤٩٧ هـ &

Rsoul de Caen, p. 170,

(٣) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٤ هـ . &

Foucher de Chartres, p 409.

4) Runciman : op. cit. p. 43.

وتوسمهم جهة الشرق على حساب المسلمين ، كما أتاحت لرضوان ملك حلب الساجوق فرصة ليثار لنفسه من نورمان أنطاكية. حقيقة إن رضوان لم يشترك في موقعة حران مع أتاك الموصلي وصاحب ماردين ، ولكن رضوان وقف على رأس جيشه قرب الفرات ليتابع سير المعركة . ولم يكذب يعلم بانتصار الأتراك حتى أسرع بالاستفادة من الموقف ، فاسترد القلاع والمدن القريبة من حلب — مثل معرة مصرين وسرمين — وساعده في ذلك أهالي تلك البلاد من المسلمين الذين اقتضوا على حكامهم الصليبيين<sup>(١)</sup> . هذا في الوقت الذي هب شمس الخواص أمير رمنية لمهاجمة القلاع الصليبية القريبة ، فاسترد صوران ، شرقي شيزر. وهكذا تلبث الحاميات الصليبية الموجودة في البارة ومعرة النعان وكفر طاب واطمين أن انسحبت ولاذت بالفرار إلى أنطاكية ، وبذلك انكسرت حدود إمارة أنطاكية الصليبية إلى القويق وبحيرة العمق ، بعد أن كانت تلك الحدود قد قاربت مشارف حلب ذاتها<sup>(٢)</sup> .

وزاد موقف النورمان سوءا استيلاء رضوان ملك حلب على أرتاح ، وهي القلعة ذات الموقع الهام بالنسبة لأنطاكية . ويؤكد ابن العديم وصاحب مرآة الزمان أن الأرمن في أرتاح ثاروا ضد حكم النورمان ، وأنهم نادوا رضوانا لاستلام القلعة ، وذلك « لخور الفرنج » و « لاشلمهم جوار الفرنج »<sup>(٣)</sup> . ثم إن بعض المؤرخين يرون أن أرتاح لم تكن المدينة الوحيدة التي سلمها أهلها من الأرمن للمسلمين ، وإنما كانت هناك حالات أخرى مشابهة ، مما يمكن المسلمين من استرداد عدة مدن وقلاع في ذلك الإقليم دون أن يتحملوا جهدا أو عتاء<sup>(٤)</sup> .

(1) Brehier : Vie et Mort de Byzance, p. 315.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. III, p. 592)

(٣) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان (p. 52g) &

ابن العديم : زبدة الحلب (p. 593)

(4) Stevenson : op. cit. p. 78.

وخلاصة القول ، إن هزيمة البليخ التي حلت بالصلبيين سنة ١١٠٤ ، أضاعت كثيراً من المكاسب التي حققتها إمارتا أنطاكية والرها على حساب المسلمين بالشام .

ثم إن المسلمين لم يكونوا وحدهم الذين أفادوا من تلك الكارثة، بل سرعان ما استغل الإمبراطور ألكسيوس كومنين الفرصة ليثار من خصمه بوهموند ويسترد منه بعض الممتلكات البيزنطية<sup>(١)</sup>. ذلك أن الرعايا البيزنطيين في مدن قيليقية — مثل طرسوس وأذنه والمصيصة — ثاروا بدورهم ضد حكم النورمان وسلموا مدنهم للبيزنطيين<sup>(٢)</sup>. ويبدو أن الأرمن في تلك الجهات شاركوا الرعايا البيزنطيين ثورتهم ، بدليل ما نلاحظه من أن الإمبراطور ألكسيوس كومنين عهد بعد ذلك بقيادة الجيوش البيزنطية في فيليقية إلى قائد أرمني . ولم يلبث أن أرسل الإمبراطور أسطولا بيزنطيا إلى اللاذقية ، استطاع أن يفاجئ المدينة ويستولى على معظمها من النورمان<sup>(٣)</sup>. ولم يكد ذلك الأسطول يفرغ من الاستيلاء على اللاذقية حتى شرع ينزع من النورمان عدة مراكز أخرى على الشاطئ — فيما بين اللاذقية وانطرطوس — فضلا عن قلعة المرقب<sup>(٤)</sup>. وهكذا وجد بوهموند نفسه بين نارين ، وعليه أن يحارب في جبهتين لينتقد إمارته ، فالمسلمون عن يمين يهاجمونه على جبهة نهر العاصي ، والبيزنطيون عن يسار يهددون شواطئ أنطاكية . وزاد من حرج موقف بوهموند أنه لم يجد بين الصليبيين في طرابلس أو أريت المقدس نصيراً بعطف عليه ويساعده في محنته .

(1) Brehier : Vie et Mort de Byzance, p. 314.

(2) Raoul de Caen p. 712.

(3) Stevenson : op. cit, p. p. 78 — 79.

(4) Grousset : Hist. des Croisades, 1, p. 414.

## زهاية بوهموند

ولم يكن في استطاعة بوهموند أن يقف موقف المتفرج على إمارته التي أجهد نفسه في إقامتها ، وهي تنهار لبنة بعد أخرى أمام غزوات البيزنطيين من جهة والمسلمين من جهة أخرى<sup>(١)</sup> . والواقع أنه على الرغم من خطورة إغارات رضوان ملك حلب - الذي بلغت قواته جسر الحديد على نهر العاصي - ؛ إلا أن رضوان لم يكن بالرجل الذي يحرص على الاستفادة فائدة كاملة من الموقف ؛ فلم يلبث أن صرف نظره عن أنطاكية وشغل بأمر دمشق . وكان بوهموند نفسه يدرك أن رضوان ليس بالخصم الخطير ، وأنه من الممكن أن يصفى موقفه معه في سرعة فيما بعد ، وأن مصدر الخطر الحقيقي الذي هدد أنطاكية عندئذ إنما كان الإمبراطورية البيزنطية<sup>(٢)</sup> ؛ لذلك فكر بوهموند في القيام بعمل سريع حاسم للانتقام من القسطنطينية وإمبراطورها ، وقرر العودة إلى غرب أوروبا ليثير الرأي العام ضدها ، عليه ينجح في الدعوة لحملة صليبية جديدة يتخذها أداة يثار بها لنفسه من القسطنطينية . وكان تنكرد عندئذ في الزها ، يدير شئونها عقب أسر أميرها بلدوين دي بورج فاستدعاه بوهموند ، وعهد إليه من جديد برعاية شئون إمارة أنطاكية أثناء غيابها في إيطاليا وفرنسا .

وفي أواخر سنة ١١٠٤ أبحر بوهموند إلى إيطاليا وبصحبته صديقه القديم البطرق دايمبرت ؛ ويقال إنه حمل معه كل ما استطاع جملة من أموال ومجوهرات وتحف ، فضلا عن بضعة نسخ من تاريخ الحملة الصليبية الأولى التي لا يعرف مؤلفها ( *Gesta Francorum* ) ، والتي تعالج تاريخ تلك الحملة من وجهة نظر

(1) Vasiliev : op. cit. II, p. 410.

(2) Stevenson : op. cit. ; p 78.

النورمان<sup>(١)</sup> . وتحتل رحلة بوهيموند إلى غرب أوروبا في ذلك الوقت مكانة هامة في تاريخ الحروب الصليبية ، لأنه لم يقنع بجمع المحاربين من إيطاليا وصقلية وفرنسا لحرب المساهين ؛ وإنما أخذ يقوم بدعاية واسعة في تلك البلاد ضد الامبراطورية البيزنطية ، ليصورها للغربيين في صورة حايفة الإسلام والعقبة الكؤود في وجه الصليبيين ؛ وأن القضاء على الامبراطورية البيزنطية هو الضمان الوحيد لاستقرار الصليبيين بالشام .

وهكذا لم يكتف بوهيموند بمحاولة تجديد محاولات أبيه — روبرت جويسكارد — في غزو الدولة البيزنطية (دورازو) فحسب، بل إنه بذر في الغرب الأوربي البذور الأولى لفسكرة توجيه جهود الصليبيين ضد القسطنطينية، والدولة البيزنطية ؛ مما يعتبر أساساً للحملة الصليبية الرابعة التي أسقطت القسطنطينية سنة ١٢٠٤<sup>(٢)</sup> . وقد ساعد على تثبيت دعاية بوهيموند ضد الدولة البيزنطية في عقول الغربيين ، ما حدث من أن الإمبراطور البيزنطي لجأ فعلاً عند تعرضه لهجوم بوهيموند سنة ١١٠٧ إلى طلب المعونة من السلاجقة ، فأمده قنچ أرسلان — سلطان سلاجقة الروم — «بجمع كثير من عسكره» ؛ وذكر هذه الحقيقة ابن الأثير وبعض المؤرخين الصليبيين<sup>(٣)</sup> . ولم يلبث أن قدم بوهيموند للغرب الأوربي الدليل المادي على التحالف بين البيزنطيين والسلاجقة ، عندما أسر بعض أولئك السلاجقة في القتال مع البيزنطيين .

ومهما يكن من أمر ، فإن بوهيموند زار البابا باسكال الثاني واستثاره ضد

(1) Raouf de Caen Hist. Occid. III. p. p. 712-713 &

Guillaume de Tyr I, p. 450.

(2) Vasiliev : op. cit; II, p. p. 410-411.

(3) Ostrogorsky : op. cit, p. 324.

(٤) ابن الأثير: الكامل ، حوادث سنة ٥٠٠ هـ . &



الإمبراطورية البيزنطية<sup>(١)</sup>؛ ثم انتقل إلى فرنسا حيث استقبله ملكها استقبالا طيبا وسمح له بجمع الحاربين ، وتمت عدة مصاهرات بين بوهيموند وأسرته من ناحية والأسرة الملكية في فرنسا من ناحية أخرى ، مما قوى رابطة التحالف بين الطرفين<sup>(٢)</sup> . وأخيرا عاد بوهيموند إلى أبوليا في أواخر سنة ١١٠٦ ، ومعه جموع غفيرة من الصليبيين من مختلف الجنسيات الأوروبية مثل الفرنسيين والإيطاليين والأسبان والإنجليز والألمان الذين شاركوا بوهيموند الرأي في أن تكون الإمبراطورية البيزنطية وجهة حملتهم<sup>(٣)</sup> . وقد اختار بوهيموند أن يهاجم مدينة دورازو، وهي أقوى قلعة بيزنطية عند مدخل الإديرياتيك وتعتبر مفتاح مقدونيا ( اكتوبر ١١٠٧ ) .

على أن دورازو قاومت مقاومة باسلة في الوقت الذي حضر الإمبراطور ألكسيوس بنفسه ليهاجم النورمان براً وبحراً، ولم يلبث أن ساء موقف بوهيموند ورجاله أمام دورازو وتعرضوا للجوع والهلاك بسبب افتقارهم إلى القوة البحرية من ناحية وانتشار الأمراض بين صفوفهم من ناحية أخرى . ولم يجد بوهيموند مخرجاً من ذلك الموقف سوى الاستسلام لشروط الإمبراطور التي فرضها في صلح دفول Devol سنة ١١٠٨ . وبمقتضى هذا الصلح تعهد بوهيموند بأن يصبح تابعا أميناً لألكسيوس وخلفائه ، وأن يعاونهم ضد جميع أعدائهم ، وأن يعيد للإمبراطورية كل أراضيها القديمة<sup>(٤)</sup> . ومعنى ذلك أن إمارة أنطاكية قبلت وفقاً لتلك الشروط أن تصبح قاصرة على أنطاكية ومينائها السويدية، ثم المنطقة الممتدة في الشمال الشرقي حتى مرعش ، مضافاً إلى ذلك ما يستطيع بوهيموند الاستيلاء عليه من الساميين . أما مدن قيليقية والمنطقة الساحلية المحيطة باللاذقية

(1) Vasiliev : op. cit, II, 410.

(2) Runciman : op cit, II, p. 49.

(3) Vasiliev : op. cit; II, p. p. 410-411.

(4) Chalandon : Alexis Comnene. p. 246

تعمود جميعها للامبراطورية البيزنطية ، وليس للصليبيين أى حق فيها . هذا كله بالإضافة إلى موافقة بوهيموند على عزل البطريرك الكاثوليكي في أنطاكية وتعيين بطريرك أرثوذكسى محله . وأخيراً ، فقد تعهد بوهيموند بأن يحارب تنكرد ويعتبره عدواً ، إذا هو رفض أن يقبل شروط تلك الاتفاقية التى عقدها خاله مع البيزنطيين (١) .

ومن هذا تبدو أهمية اتفاقية دفول فى أنها كشفت النقاب عن موافقة الامبراطورية البيزنطية على مبدأ قيام إمارة أنطاكية الصليبية ، وعلى بقاء أنطاكية نفسها فى يد بوهيموند والنورمان ، طالما أنهم يرتبطون برباط التبعية والولاء للامبراطور البيزنطى . هذا إلى ما تكشف عنه تلك الاتفاقية من حرص الامبراطور ألكسيوس كومنين عن مصالح الكنيسة الشرقية ورعاياه من المسيحيين الأرثوذكس ، بحيث يكون تعيين بطريرك أرثوذكسى لأنطاكية ، بمثابة رداً اعتباراً للكنيسة الشرقية . على أن هذه الاتفاقية ظلت من الناحية العملية حبراً على ورق طالما أن بوهيموند كان واثقاً من أن تنكرد لن يقبل شروط الاتفاقية شكلاً وموضوعاً (٢) .

أما بوهيموند نفسه فكان الموقف مشيناً وسيئاً للغاية بالنسبة له ، بعد أن رأى آماله العريضة تنحطم فجأة وتنتهى إلى ما انتهت إليه سنة ١١٠٨ . وبعد ذلك الاستسلام الفاضح لم يستطع بوهيموند العودة إلى إمارته بالشام ، فذهب إلى إيطاليا حيث قضى حياته محتجباً عن الأنظار إلى أن مات فى مارس سنة ١١١١ (٣) .

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 418.

(2) Runciman : op. cit. II p. 51.

(3) Vasiliev : op. cit. II, p. 411.

## الفصل الرابع

### الفترة الثانية لحكم تنكرد في أنطاكية

( ١١٠٤ - ١١٠٢ )

تنكرد وسلاطنة حلب :

عندما ألقه بوهيموند إلى الغرب سنة ١١٠٤ ، ترك تنكرد في موقف لا يحسد عليه ، إذ كان عليه أن يدافع عن أنطاكية أمام عدوين الأيرحان : هما السلاجقة من الشرق والبيزنطيون من الغرب . هذا فضلا عن أن بوهيموند ترك الخرازة خاوية ، مما أوجد تنكرد أمام مشكلة الحصول على المال اللازم لتجنيد الرجال وإعداد التحصينات . ومن الواضح أن هذه المشكلة الأخيرة كانت تمثل العقبة الأساسية التي علي تنكرد أن يبدأ بعلاجها ؛ ولذلك استدعى كبار الأثرياء في أنطاكية - وكانوا خمسة من السريان والأرمن - وطلب منهم تقديم الأموال اللازمة لمواجهة الموقف . وبهذه الأموال استطاع تنكرد أن يستأجر الجنود اللازمين له ، فلم يحل ربيع سنة ١١٠٥ إلا وكان تنكرد على رأس جنده يحاصر أرتاح<sup>(١)</sup> .

وكان أن أسرع رضوان ملك حلب للدفاع عن أرتاح ، مصطحباً معه فرسانه من الأتراك فضلا عن المشاة العرب . وعندما التقى الطرفان عند تيزين - شرق أرتاح - دارت معركة حادة انتهت بانتصار الصليبيين وهزيمة رضوان ورجاله ،

(1) Gro<sup>u</sup>sset : Hist. des Croisades I, p. 420.

الدين قتل منهم حوالي ثلاثة آلاف رجل « ما بين فارس وراجل ، وهرب من  
بارتاح من المسلمين »<sup>(١)</sup> .

وهكذا استطاع تنكرد أن يحو بسرعة أثر هزيمة البليخ ، وأن يسترد  
أرتاح من المسلمين ، وبذلك اثلب الموتف مرة أخرى في جبهة العاصي ، فأخذ  
الصليبيون يطاردون المسلمين ، ويستردون البلاد التي فتدوها في العام السابق .  
ويروى ابن العديم أن الخراب الذي أصاب إقليم حلب عندئذ فاق ما حدث لإقليم  
كلا سنة ١١٠٠ ، إذ عسكر تنكرد عند تل أغدى — من أعمال ليون عند  
جبل بركات — أي على الطريق الرئيسي بين أنطاكية وحلب ، وبذلك هدد  
حلب وما حولها تهديدا مباشرا<sup>(٢)</sup> . ويضيف ابن الأثير أن الصليبيين استردوا  
في تلك الفترة سرمين ، وهو مركز هام في إقليم الجزر<sup>(٣)</sup> .

ولم يلبث أن استولى تنكرد على فامية من الباطنية بعد أن اشتد الصراع  
داخلها وقتل حاكمها خلف بن ملاعب بيد جماعة من الباطنية<sup>(٤)</sup> . وعندئذ استنجد  
أهل الحصن من المسيحيين بتنكرد ، الذي حضر في سرعة واسكنه لم يوفق أول  
الأمر في الاستيلاء على المدينة ، فانصرف عنها بعد حصار بضعة أسابيع . وبعد  
أشهر حضر إلى أنطاكية مصباح بن ملاعب — ابن الأمير خلف الذي قتل —  
وطالب من تنكرد معاودة الكرة ضد فامية ؛ فاستجاب له تنكرد وسقطت  
فاميه في سبتمبر سنة ١١٠٦ . كذلك استرد تنكرد كفر طاب شرقي فامية

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب (p. 593) &

ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٨ هـ . &

Albert d'Aix, p. 620.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب (III. p. 593)

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٩ هـ .

(٤) المرجع السابق . & Albert d'Aix. 641.

وقد ذكر ابن الأثير أن خلف بن ملاعب عندما استقر في فامية كان في مخيف السبيل =

... بين معرة النعمان وشيزر - مما يمكنه من شن إغارات عنيفة وتهديد المدن والقلاع والضياع الإسلامية القريبة ، وبخاصة مدينة شيزر سنة ١١٠٨ (١) .

### تسكرد والبيزنطيون :

ولم يكن تسكرد أقل رغبة في الثأر من البيزنطيين ، حيث ظلت اللاذقية دائماً ميدان صدام بين البيزنطيين والنورمان في جبهة الشام . ولم يستطع تسكرد أثناء اشقبا كاته مع المسلمين في حوض نهر العاصي أن يواجه البيزنطيين في اللاذقية ؛ ولكنه بعد أن حقق انتصاراته على المسلمين - واسترد ارتاح وقامية - بدأ يفكر في طرد البيزنطيين من اللاذقية (٢) . ويبدو أنه لم يكن للبيزنطيين عندئذ حاميات قوية في اللاذقية ، لأن الإمبراطور اضطر إلى استدعاء معظم جيوشه من اللاذقية وقيليقية في صيف سنة ١١٠٧ عندما هدد بوهموند الجبهة الغربية للإمبراطورية (٣) . ومع ذلك فقد كان تسكرد في حاجة إلى أسطول قوى يمكنه من محاصرة البيزنطيين وطردهم من اللاذقية ، ولذلك استعان بالبيزانة . واستطاع بهذه الطريقة أن يسترد اللاذقية في منتصف سنة ١١٠٨ . وقد كافأ تسكرد البيزانة على ما قدموه له من معونه بإعطائهم شارعا في أنطاكية وحيما في اللاذقية ، فضلا عن أنه كفّل لهم حرية التجارة والعمل في جميع موانئ إمارة أنطاكية (٤) .

== ويقطع الطريق واجتمع عنده كثير من المفسدين فكثرت أمواله . »

كذلك ذكر ابن الأثير أن أهل سرمين كانوا « غلاة في التشيع » ؛ فلما ملك الصليبيون سرمين نفروا أهلها وذهب بعضهم إلى أفامية حيث دبروا مؤامرة مع أبي طاهر المعروف بابن الصائغ للفتك بابن ملاعب ، ونجحت المؤامرة . ويصف ابن الأثير أفامية بأنها « من أمنع الحصون » .

(١) أسامة بن منقذ : الاعتبار من ٧٥ - ٧٦ .

(2) Chalandon ; Alexis Comnene, p 250.

(3) Runciman, op. cit.; I, p. 53-54.

(4) Heyd ; op. cit. I. p. 145-146.

وأخيراً توج تنكرد انتصاراته على البيزنطيين بالقيام بهجوم على قيليقية في أواخر سنة ١١٠٨ وأوائل سنة ١١٠٩. وفي ذلك الهجوم نجح تنكرد في الاستيلاء على المصيصة بعد حصار قصير، كما استطاع بعد بضعة أشهر أن يبسط سيطرته على أذنه وطرسوس في حين ظلت الأجزاء الغربية من إقليم قيليقية خاضعة للامبراطورية<sup>(١)</sup>.

وهكذا استطاع تنكرد في مدى أربع سنوات أن يسترد معظم ما خسرتَه إمارة أنطاكية عقب هزيمة البليخ، وأن يحفظ تلك الإمارة من الضياع نهائياً بين المساميين والبيزنطيين. ولا شك في أنه أفاد في تلك الفترة فائدة عظيمة من الانقسام بين صفوف السلاجقة.

#### تنكرد والمهروجة :

ظل الأتابكة في شمال الشام وأرض الجزيرة مصدر جميع القلاقل التي شهدتها تلك البلاد عند مطلع القرن الثاني عشر. وإذا كان أولئك الأتابكة في نظر الصليبيين حكاماً مستقلين فإنهم في حقيقة الأمر كانوا — من الناحية النظرية على الأقل — تابعين لسلطين السلاجقة في فارس<sup>(٢)</sup>.

ويطول بنا الأمر لو دخلنا في تفاصيل المنازعات بين أتابكة الشام والجزيرة، ولكن تكفي الإشارة إلى ما سبق أن ذكرناه من عقد صلح سنة ١١٠٤ بين بركيارق ومحمد ابني ملكشاه؛ وأن الموصل — بمقتضى ذلك الصلح — صارت من نصيب محمد. على أن جكرمش أتابك الموصل رفض أن يسلم محمد المدينة،

(١) Guillaume de Tyr I, p. p. 635-636.

(٢) Gibb: The Damascus Chronicle of the Crusades p. 24

واعتذر بأنه لن يسلمها إلا لبر كيارق نفسه<sup>(١)</sup>. ولم تؤثر وفاة بر كيارق في بناير سنة ١١٠٥ في موقف جكرمش، إذ « جدد سور الموصل ورم جميع ما يحتاج إلى الإصلاح » ورفض دفع المسال المقرر عليه لمحمد الذي غدا السلطان الوحيد لسلاجقة فارس. ويبدو أن جكرمش اعتمد إلى حد كبير على ولاء أهل الموصل له ومحبتهم « لحسن سيرته فيهم »، الأمر الذي جعل السلطان محمد يزحف على الموصل « بالتقايين والدبابات »، ويقا تل أهل الموصل قتالا شديداً، ولكن دون أن يظفر بغرضه<sup>(٢)</sup>.

وأخيراً فكر السلطان محمد في وسيلة لاسترجاع الموصل وديار بكر والجزيرة، ففتح حكمها جميعاً لأحد رجاله — واسمه جاو لي سقاووا — وعهد إليه سنة ١١٠٦ بمحاربة الصليبيين في أطراف العراق والشام، وتحت هذا الستار يستطيع أن يقضى على جكرمش. ولم يلبث الأخير أن حلت به الهزيمة، فأمر على ضفاف دجلة، ولكن أهل الموصل رفضوا أن يسلموا مدينتهم لجاو لي وأقاموا زسكي الصغير ابن جكرمش — وسنه إحدى عشرة سنة — أتابكا عليهم<sup>(٣)</sup>.

ثم إن أهل الموصل لم يقنعوا بكل ذلك وإنما استنجدوا بتلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم في قونيه، فحضر إليهم ووضع يده على الموصل وتعهد بمحبتهم<sup>(٤)</sup>. أما جاو لي فقد انسحب إلى سنجار حيث اتصل به إيلغازي بن أرتق، كما اتصل به الملك رضوان صاحب حلب، واتفق الطرفان على طرد

---

(١) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص ١٩٧ — ١٩٨. وقد كتبه ابن العبري « جكرميش ».

(٢) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٤٩٨ هـ.

(٣) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص ١٩٨.

(٤) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٠٠ هـ.

قلج أرسلان من الموصل أولاً ، ثم التوجه بعد ذلك لمهاجمة أنطاكية . وقد انتهت الحرب ضد قلج أرسلان بهزيمة وغرقه في نهر الخابور ، مما مكن جاولى من الاستيلاء على الموصل سنة ١١٠٧<sup>(١)</sup> . على أن جاولى لم يكذب بنجاح في تحقيق ذلك حتى أعلن استقلاله بالموصل ، مما جعل السلطان محمد يعهد سنة ١١٠٨ إلى أحد رجاله — وهو مودود ألتوينسكى — بطرد جاولى من الموصل على أن يحل محله في حكمها<sup>(٢)</sup> . وهكذا اضطر جاولى مرة أخرى إلى الفرار من الموصل سنة ١١٠٨ ، حيث التف حوله في الجزيرة جميع أعداء سلطنة السلاجقة ، وعلى رأسهم قبيلة بنى مزيد العربية التي طردها السلطان محمد من الحلة سنة ١١٠٨ . كذلك لم يتردد جاولى في مخالفة القوى الصليبية المجاورة ليكون جبهة قوية ضد السلطنة السلجوقية ، مما جعله يطلق سراخ بلديون الثانى دى بوج أمير الرها ، ويعقد معه تحالفاً ضد السلاجقة ، كما سيملى فيما بعد<sup>(٣)</sup> .

على أن تنكرد الذى كان يسيطر على أمور الرها منذ أربع سنوات رفض أن يسلم المدينة لبلديون إلا إذا أقسم له يمين الولاء . وكان من المستحيل أن يفعل بلديون دى بوج ذلك وهو تابع فعلاً لملك بيت المقدس ، فانصرف غاضباً إلى تل باشر حيث انضم إليه جوسلين وأخذ يفكران فى الاستعانة بجاولى ضد تنكرد<sup>(٤)</sup> . وفى تلك الأثناء كان جاولى يسعى لإقامة إمارة له فى الجزيرة ، فلم يجد مفراً من الاعتداء على ممتلكات رضوان ملك حلب . وكان أن أخذ رضوان

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٠ هـ .

Runciman op.cit; II, p. 110.

ويذكر أبو المحاسن أن قلج أرسلان «لما رأى الهزيمة عليه ألقى نفسه فى الخابور فغرق ، فأخرج وحمل تابوته إلى ميافارقين ودفن بها» .

(النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٩١) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٠١ هـ .

(٣) ابن الأثير الكامل ، حوادث سنة ٥٠٢ هـ .

(٤) Setton : op. cit; I. p. p. 393-394.



يبحث لنفسه بين صفوف الصليبيين عن حليف ، مثلما اعتمد جاولى على محالفة بلدوين الثانى أمير الرها ، فلم يجد رضوان حليفا سوى خصمه القديم تنكرد صاحب أنطاكية .

وهكذا انقسم المسلمون والصليبيون فى شمال الشام والعراق على أنفسهم ، فظهر حلفان الأول من جاولى وبلدوين دى بورج أمير الرها ، والثانى من رضوان وتنكرد حاكم أنطاكية . وقد انتهت المعركة التى دارت بين الطرفين فى نهاية سبتمبر سنة ١١٠٨ بهزيمة الفريق الأول وانتصار تنكرد ، ولكن بعد أن خسر الصليبيون جميعاً ألفى رجل (١) .

### تنكرد وبقيّة الإمارات الصليبية بالشام :

وقد حاول تنكرد أن يستغل انتصاره السابق على بلدوين دى بورج ليضع يده على إمارة الرها الصليبية ، ولكنه فشل فى محاولته هذه بعد أن حصل بلدوين دى بورج على مساعدة جميع أمراء الأرمن فى الجهات الواقعة شرق آسيا الصغرى وأطراف الجزيرة . لذلك استجاب تنكرد لنصيحة بطرق أنطاكية ، فسحب نائبه ريتشارد دى سالرنو من الرها، ودخلها بلدوين دى بورج ظافرا حيث استقبل فى حماسة بالغة (٢) .

أما تنكرد فلم يجد أمامه — بعد أن فشلت خطته فى الرها — سوى إمارة طرابلس ليتدخل فى شئونها ، علىه ينجح فى السيطرة على تلك الإمارة . وقد سبق أن ذكرنا كيف حضر برترام بن ريموند الصنجيلى إلى الشام سنة ١١٠٨

(١) ابن الأثير: الكامل ، حوادث سنة ٥٠٢ هـ .

(2) Matthieu d'Edesse p. 87.

(3) Foucher de Chartres. p. p. 477 481.

(م ٢٧ — الحركة)

للمطالبة بحقه في تركه أبيه واستلامها من وليم جوردان . كذلك أشرنا إلى أنه عند وصول برترام إلى ميناء السويدية أسرع تنكرد للاقائه ، ثم عاد وطرده عندما رفض برترام أن يخالفه في مشاركة العدوانية ضد الدولة البيزنطية<sup>(١)</sup> . وكان أن ألقى وليم جوردان بنفسه بين أحضان تنكرد وأعلن تبعيته له ، فوجد تنكرد في ذلك فرصة طيبة لتحقيق أطماعه في الإمارة الجديدة عن طريق الوقوف إلى جانب وليم . ولكن برترام فوت على تنكرد هدفة عندما استنجد ببلدوين الأول ملك بيت المقدس الذي أعلن وضع برترام تحت حمايته باسم كنيسة بيت المقدس ، كما حذر تنكرد من القيام بأى عمل عدوانى ضد برترام<sup>(٢)</sup> .

ومهما يكن من أمر ، فإن حضور بلدوين بنفسه ، وتقسيمه ساحل لبنان بين وليم جوردان وبرترام - كما سبق أن ذكرنا - ثم مساعدته برترام في فتح طرابلس واتخاذها قاعدة للإمارة الجديدة ؛ كل ذلك أتخذ إمارة طرابلس من الوقوع تحت سلطان تنكرد . ثم إن برترام لم يعترف وحده بالولاء لملك بيت المقدس ، بل اضطر تنكرد هو الآخر إلى الاعتراف بذلك الولاء ، وبزعامة مملكة بيت المقدس على كافة الإمارات الصليبية في الشام وشمال العراق<sup>(٣)</sup> .

### توسع تنكرد على حساب المسلمين :

وعندما قنط تنكرد من التوسع على حساب إمارة الرها من جهة وإمارة طرابلس من جهة أخرى ، لم يجد أمامه سوى جيرانه المسلمين ، فاستولى على بانياس في بولية سنة ١١٠٩ ، وهي تقع بين أنطربطوس واللاذقية ، وبذلك

(1) Albert d'Aix, p.p. 665-666.

(2) Setton : op. cit; I, p. 367.

(3) Grousset Hist des Croisades, I, p. p. 445-447.

صارت بمثابة الحد الجنوبي لإمارة أنطاكية على شاطئ البحر . وإلى الشمال من بائياس استولى تنكرد أيضاً على جبلة التي كان فخر الملك بن عمار أمير طرابلس السابق قد أوى إليها . وفي الداخل — في مواجهة جبلة — استولى تنكرد سنة ١١١١ على حصن بكسراثل (١) .

أما في الجهة الشرقية ، فبعد أن قام تنكرد بمصاحبة بلدوين الأول ملك بيت المقدس في الدفاع عن إمارة الرها ضد مودود أنابك الموصل الذي هاجمها وأوشك أن يقضى عليها سنة ١١١٠ — كما سيلى بالتفصيل — ، عاد تنكرد ليحارب رضوان ملك حلب الذي تنكرد لمساعدة تنكرد له من قبل ضد الرها وحليفه جاولي ، وهاجم تنكرد أثناء حربه الأخيرة ضد السلاجقة دفاعاً عن الرها (٢) . وكان أن هاجم تنكرد النقرة — قرب منبج — فاستولى عليها بعد أن فر أهلها إلى الجزيرة تاركين خلفهم كل ما يملكون من مال ومتاع . ومن هناك أجه تنكرد لمحصنة الأتاب إلى الجنوب الغربي من حلب ، على الطريق بينها وبين أنطاكية (٣) .

أما رضوان فقد احتفى بمدينته حلب ، واكتفى بأن عرض على تنكرد مبلغ عشرين ألف دينار ليتخلى عن حصار الأتاب ، ولكن تنكرد تمسك بثلاثين ألف دينار ، فضلاً عن إطلاق سراح جميع من في حلب من أسرى الصليبيين . ولما كان رضوان لا يريد دفع ذلك المبلغ الضخم ، فقد ترك الأتاب تستط في يد تنكرد في نهاية سنة ١١١٠ . ويذكر ابن العديم ومتى الرهاوى أن تنكرد ترك حامية التلعة تخرج من غير سوء ، في حين قال ابن الأثير

(١) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٥٠٣ هـ .

(٢) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٥٠٥ هـ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ( Rec: Hist. Or. III' p. 597 )

أنه قتل ألفين من رجالها وأسرى الباقي (١).

والواقع إن سقوط الأتارب التي لا تبعد عن حلب أكثر من ثلاثين كيلومتراً، جاء بمثابة ضربة خطيرة لرضوان. ذلك أن تنكرد صار يستطيع من تلك القلعة مهاجمة حلب نفسها في عصف، فضلاً عن حرمانها من الغلال والغذاء الذي تحصل عليه من السهول المحيطة بها. وبعبارة أخرى فإن تنكرد أصبح في موقف يجعله يئلى إرادته على رضوان الراغب في الصالح، فأصر في تلك المرة على الشروط التي طلبها من قبل، وأضاف إليها الاستيلاء على حصن زردنا، فضلاً عن إطلاق سراح جميع الأرمس المحبوسين في حلب (٢). وكان أن ارتضى رضوان كل هذه الشروط القاسية، فتم الصالح بينه وبين تنكرد، ولكن حلب نفسها غدت في حالة سيئة من المهانة والضعف، لا سيما بعد أن هجرها جزء كبير من أهلها وفروا إلى بغداد. كذلك ساءت أحوالها الاقتصادية بعد أن استولى الصليبيون على معظم مزارعها ودمروا الباقي وانصرف عنها التجار « وأقام الناس ما يجدون شيئاً يقتاتون به، فكثرت اللصوص من الضعفاء، وخاف الأعيان على أنفسهم، وساء تدبير الملك رضوان، فأطلق العوام ألسنتهم بالسب له وتعييبه » (٣).

ثم إن تنكرد الذي أصبح السيد المسيطر على الأطراف الشمالية من بلاد الشام لم يقتنع بفرض كلمته على ملك حلب وإذلاله، وإنما أخذ يسعى لتحقيق مكاسب أخرى على حساب القوى الإسلامية الصغيرة المجاورة. ولم يلبث سلطان بن منقذ أمير شيزرو على الكردى أمير حماه أن تعهدا بدفع « قطيعة » طائلة، ثمناً

(1) Matthieu d'Écasse, I. p. 95 &

ابن الاثير، سنة ٥٠٤ هـ

ابن العديم: زبدة الحلب. 568 (p)

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب. 599 (p) &

Albert d'Aix, p. 684

(Hist. Or. III. p. 600)

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب

لشراء مسالة تنكرد ، فدفع الأول أربعة آلاف دينار ، ودفع الثاني عشرة آلاف دينار<sup>(١)</sup> .

نهاية تنكرد :

وبعد أن قام تنكرد- بالاشتراك مع بلدوين دى بورج أمير الرها وبلدوين الأول ملك بيت المقدس — بدور ملحوظ في محاربة سلاجقة فارس ، الذين تجمعوا مرة أخرى سنة ١١١١ تحت قيادة مودود أتابك الموصل ، عاد تنكرد إلى أنطاكية حيث توفي في ١٢ ديسمبر سنة ١١١٢<sup>(٢)</sup> ، دون أن يترك وريثا من زوجته سيسيل ، التي لم تلبث أن تزوجت بعد قليل من بونز بن برترام أمير طرابلس ؛ مما أدى إلى تهدئة الموقف بين إمارتي أنطاكية وطرابلس كما مر بنا<sup>(٣)</sup> .

ولا شك في أن وفاة تنكرد جاءت خسارة عظيمة للصليبيين في الشام بوجه عام وإمارة أنطاكية بوجه خاص ، الأمر الذي جعل المؤرخ الأرمني متى الرهاوى يرثيه في حرارة بالغة<sup>(٤)</sup> . ذلك أنه يعتبر المؤسس الحقيقي لإمارة أنطاكية ، فاستطاع أن يحتفظ لتلك الإمارة بمكانتها خلال مدة أسر خاله بوهيموند (١١٠٠-١١٠٣) ، ثم طوال غيبته في الغرب (١١٠٤-١١١١) كما دافع عن كيان الإمارة ومصالحها ضد البيزنطيين من ناحية والمسلمين من ناحية أخرى<sup>(٥)</sup> . وأكثر من هذا أن تنكرد هو صاحب الفضل في توسيع إمارة أنطاكية ، والاستيلاء على كثير من

(١) أسامة بن منقذ - كتاب الاعتبار ص ١٢٠ - ١٢١ .

(2) Foucher de Chartres, p. 425.

(٣) انظر ما سبق ص ٣٧٧ .

(4) Matthieu d'Edesse p. p. 281-282

(5) Setton : op. cit. I, P 401

الرا كز الهامة من البيزنطيين والمسلمين ، سواء على شاطئ الشام أو في داخلية .  
أو في قيايقية . وساعد على تحقيق كل تلك المكاسب شجاعة تنكرد التي بلغت  
أحيانا حد التمهور ، وصلابته في كثير من المواقف ، وهي صفات ورثها عن  
أسلافه النورمان في غرب أوروبا وجنوبها<sup>(١)</sup> .

ولم يمض عام على وفاة تنكرد حتى لحق به حليفه رضوان ملك حلب  
الساجوقى (ديسمبر ١١١٣) ، الذى اعتمد على الصليبيين من ناحية وعلى الباطنية  
من ناحية أخرى في مقاومة سلاجقة فارس وخلافة بغداد . وقد سبق أن ذكرنا  
أن رضوان أفرط في الاعتماد على الباطنية حتى ازداد نفوذهم في حلب « وبأيهم  
خاق كثير على مذهبهم طلبا لجاههم . وكان كل من أراد أن يحمى نفسه من  
قتل أو ضيم التجأ اليهم . »<sup>(٢)</sup> . وقد ترك رضوان من بعده في حكم حلب ابنة  
الشاب ألب أرسلان المعروف بالأخرس ، وهو الذى وصفه المؤرخ ابن العديم  
بأنه كان « مهورا قليل العقل » ، فبدأ حكمه بقتل أخويه ملكشاه  
ومباركشاه<sup>(٣)</sup> . ويبدو أن الباطنية وصلوا عندئذ إلى درجة من خطورة النفوذ  
جعلت السلطان محمد الساجوقى يرسل إلى ألب أرسلان يأمره بقتلهم ، في  
الوقت الذى ضاق أهل حلب ذرعا بهم واستاءوا من حماية رضوان لهم ، فانقضوا  
عليهم عقب وفاة رضوان وقتلوا زعيمهم أبا طاهر الصايغ واسماعيل الداعى وغيرهم  
من زعماء الباطنية ، في حين حبسوا كثيرين وفر الباقى « وفرقوا في البلاد »<sup>(٤)</sup> .  
ويقول ابن الأثير أن من استطاعوا النجاة من الباطنية فروا إلى الصليبيين  
واحتتموا بهم<sup>(٥)</sup> . وقد حاول الباطنية الاستيلاء على قلعة شيزر ولسكنهم فشلوا

(1) Grousset: Hist des Croisades, I: P 476-477

(٢) ابن العديم . زبدة الحلب (Hist Or, III, p, 603)

(٣) ابن الأثير: السكاهل ، حوادث سنة ٥٠٧ هـ .

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب (p. 604)

(٥) ابن الأثير : السكاهل ، حوادث سنة ٥٠٧ هـ .

في ذلك ، ولم ينجحوا سوى في الاستيلاء على التليعة قرب بالس والقرات ، على الطريق بين حلب وبغداد . ومنذ تشريد الباطنية في ذلك الوقت أخذوا ينزحون إلى جبال لبنان ويستقرون هناك <sup>(١)</sup> .

أما عن سياسة ألب أرسلان ملك حلب الجديد تجاه الصليبيين فلم تختلف عن سياسة أبيه ، إذ سارع بدفع الجزية إلى روجر الأنطاكي — خليفة تنكرد — للاستعانة به ضد بقية السلاجقة . ولم يلبث ألب أرسلان « أن رأى أن المملكة تحتاج إلى من يدبرها أحسن تدبير » ، فقصده طغتكين أتابك دمشق ، وطلب منه الحضور لاستلام حلب وإدارة شئونها . وقد قبل طغتكين تلك الدعوة وذهب مع ألب أرسلان إلى حلب في نهاية فبراير سنة ١١١٤ <sup>(٢)</sup> . على أن ألب أرسلان انهمك « في المعاصي واغتصاب الحرم والقتل » ، فاستاء طغتكين من مسلكه « ورأى من سوء السيرة وفساد التدبير مع التقصير في حقه والإعراض عن مشورته ما أنكره » ؛ ولذلك عاد طغتكين إلى دمشق بعد قليل .

ولم يلبث أن دبر بدر الدين لؤلؤ اليايا مؤامرة لقتل ألب أرسلان أثناء زومه . وعندما نجحت المؤامرة أعلن أخوه الصغير سلطان شاه ملكا على حلب . غير أن سلطان شاه كان صغيرا في السادسة من عمره ، فتولى لؤلؤ مع القائد شمس الخواص — أمير رفية السابق — السيطرة على قلعة حلب وجيشها ، وإن كانت السلطة الفعلية في الإمارة قد آلت إلى أعيان حلب . ولعل ضعف مركز حلب بين جيرانها في ذلك الوقت ، هو الذي دفع لؤلؤ إلى اتباع سياسة رضوان في مخالفة الصليبيين بأنطاكية <sup>(٣)</sup> .

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٩٠ ٩٠ .

أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، ص ١٤٦ — ١٥٣ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب (p. 004)

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب (Hist. Or. III, P. 505-506) &

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٩٠ .

## الفصل الخامس

### روجر الأنطاكية

انتصار روجر ما كما على أنطاكية :

ظل تنكرد يحكم أنطاكية بمقتضى العرف الاقطاعى الغربى حتى وفاة بوهيموند سنة ١١١١ . ومعنى ذلك أن تنكرد حتى تلك السنة كان نائبا عن بوهيموند فى حكم أنطاكية ، ولم يصبح أميرا على تلك الإمارة إلا بعد وفاة بوهيموند ، لأن الأخير ترك طفلا صغيرا فى الثانية من عمره - هو بوهيموند الثانى - الذى ظل فى إيطاليا بين أحضان أمه . وهكذا كان على تنكرد أن يفكر فى من يخلفه فى حكم أنطاكية ، فاختار ابن عمه روجر دى سالرنو ، وأوصى له بالحكم وهو على فراش الموت ، ولكنه اشترط أن يتنازل روجر عن الحكم لبوهيموند الثانى إذا بلغ الأخير سن الرشد وأتى إلى الشرق للحصول على ترعة أبيه (١) .

وعلى هذا الأساس أصبح روجر دى سالرنو - الذى عرف بالأنطاكي - أميراً على أنطاكية فى نهاية ديسمبر سنة ١١١٢ . وهنا نلاحظ أن روجر هذا كان متزوجا من سيسليا Cecilia أخت بلدوين دى بورج أمير الرها ، كما أن ماري أخت روجر صارت الزوجة الثانية لجوسلين دى كورتناى ، مما أوجد رباطاً قوياً بين إمارتى الرها وأنطاكية (٢) . وعندما أصبح بلدوين دى بورج ملكا

(1) Foucher de Chartres, P. 425 & Guillaume de Tyr, p 483

(2) Runciman : op cit; II, p. 126.



على بيت المقدس سنة ١١١٨ ، حظيت إمارة أنطاكية — بفضل علاقة المصاهرة  
هذه — بتأييد مملكة بيت المقدس ومساعدتها<sup>(١)</sup> .

### عملية السلاجقة سنة ١١١٣ :

وصف أسامة بن منقذ روجر دى سالرنو بأنه كان « شيطاناً من الفرنج »<sup>(٢)</sup> ،  
وذلك لقوته ودهائه ومثابرتة على حرب المسلمين والاعتداء عليهم . ولم يسكد  
روجر يتولى حكم إمارة أنطاكية حتى أتاحت له فرصة يظهر فيها شجاعته في محاربة  
السلاجقة الذين قاموا بحملة على بيت المقدس .

ذلك أن مودود بن ألتنتاش<sup>(٣)</sup> — أتاكبك الموصل — ظل متمسكاً  
بفكرة الجهاد والحرب الدينية ضد المسلمين ، وهى المهمة التى عهد إليه بها محمد ،  
سلطان سلاجقة فارس . وكان مودود هو الممثل للسلطان الساجوقى فى إقليم  
الجزيرة والشام ، وذلك بوصفه حاكم الموصل . لذلك دعا جيرانه من أمراء المسلمين  
لمحاربة الصليبيين سنة ١١١٣ ، وانضم إليه بعض زعماء السلاجقة مثل تيمرك صاحب  
سنجار ، وأياز بن إيلغازى أمير ماردين ، وطفتكين أتاكبك دمشق<sup>(٤)</sup> . وكان  
طفتكين هو الذى وجه تلك الحملة ضد مملكة بيت المقدس الصليبية للانتقام من  
الإغارات التى دأب الصليبيون على القيام بها لمهاجمة دمشق وملحقاتها<sup>(٥)</sup> .

وعند ما علم بلدوين دى بورج بنية المسلمين ، أسرع بتحذير بلدوين الأول

(١) Grousset I Hist. des Croisades, I, p p. 482-483.

(٢) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١١٨ .

(٣) ورد هذا الاسم فى المراجع العربية فى صور عديدة ، منها « ألتونطاش »  
و « التون تسكش » .

(٤) ابن الأثير ( السكامل ) حوادث سنة ٥٠٧ هـ .

(٥) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 484.

ملك بيت المقدس، فاستنجد الأخير باتباعه في الشام، وخف لنجدته روجر أمير أنطاكية، وبونز أمير طرابلس، في حين لم يستطع أمير الرها الحضور لأن إمارته في شمال العراق، أي أنها كانت في مهب العاصفة وفي حاجة إلى حماية خاصة . وبعد أن أنزل المسلمون هزيمة بالملك بلدوين الأول عند الصنبرة ، ارتد ملك بيت المقدس مدحورا إلى طبرية . ولم يلبث أن وصل روجر الأنطاكي وبونز لنجدته<sup>(١)</sup> . على أن زعماء السلاجقة لم يلبثوا أن تفرقوا - كما سبق أن ذكرنا - بعد أن أضعوا بضعة أسابيع في الانتظار غربي طبرية<sup>(٢)</sup> . قاتجه مودود صحبة طفتكين إلى دمشق في أغسطس سنة ١١١٣ حيث قتل مودود بيد أحد الباطنية وبتحريض من طفتكين ، كما سبق أن أشرنا<sup>(٣)</sup> . وبذلك استراح الصليبيون من ذلك الرجل الذي آمن بفكرة الجهاد من ناحية ، واحتفظ بولائه لسلطان السلاجقة من ناحية أخرى ، مما جعله يسبب للصليبيين رعبا كثيرا<sup>(٤)</sup> .

أما عن خليفة مودود، وهو آقسنقر البرسقي، فقد صار لزاما عليه عقب أن عينه السلطان الساجوق في حكم الموصل أن يستأنف سياسة الجهاد ضد الصليبيين . وقد قام بهجوم سنة ١١١٤ على الرها - كما سيلى في الباب الآتي - ولكنه لم يستطع حصارها أكثر من شهرين ، ثم ارتد عنها فاشلا، بعد أن « صبر له الفرنج »<sup>(٥)</sup> .

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٧ هـ . &

Guillaume de Tyr. P. 489.

(٢) ذكر ابن العبري أن مودود « أذن للمساكر في المود والاستراحة، ثم الاجتماع في الربيع » تاريخ مختصر الدول ص ١٩٩ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٧ هـ .

Matthieu d'Edesse. d. p. 107-108.

(4) Runciman: op cit; II. P. 127

(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٨ هـ . &

Matthieu d'Edesse. p. p. 282-283.

صحيفة السلطنة سنة ١١١٥ :

وكان أن تعرضت أنطاكية في أواخر نوفمبر سنة ١١١٤ لزلزال شديد دمر جزءاً كبيراً من مبانيها ، فضلاً عما أحدثته بالمدن والقلاع التابعة لتلك الإمارة (١) . وقد تخوف الصليبيون من أن يحاول المسلمون في حلب ودمشق الاستفادة من تلك الكارثة في مهاجمة أنطاكية ، ولكن شيئاً من تلك المخاوف لم يتحقق . والواقع إن الخطر الذي هدد أنطاكية والصليبيين جميعاً في بلاد الشام وأطراف العراق في ذلك الوقت إنما انبعث من الموصل ، حيث تجمعت حملة جديدة ، لاستئناف الجهاد ضد الصليبيين .

وكان السلطان محمد السجوق قد عزل آقسنقر البرسقي من أنابكية الموصل ، ومن زعامة الحرب الدينية ضد الصليبيين بعد فشله أمام الرها ، وأحل محله أحد مماليك الأتراك ، وهو المعروف باسم جيوش بك (٢) . وقد أرسل السلطان ابنه مسعود ليتدرب على شئون الحكم عند جيوش بك في الموصل ، في حين عهد السلطان بقيادة الحرب ضد الصليبيين في فبراير سنة ١١١٥ إلى برسق بن برسق صاحب همدان وخوزستان ، وهو أحد القادة المعروفين بمهارتهم في شئون الحرب . وتحت قيادة برسق هذا ، سار جيوش بك ومعه قوات الموصل ، وميرك صاحب سنجار ومعه قوات الجزيرة (٣) .

ويبدو أن سلطنة السلاجقة في أصفهان لم تستهدف من هذه الحملة محاربة

---

(١) أشار ابن الأثير إلى هذا الزلزال فقال : « إنه كان شديداً بديار الجزيرة والشام ، وأنه خرب كثيراً من المدن مثل الرها وحران وسميساط وغيرها » وهلك خلق كثير تحت الهدم » . ( السكامل ، حوادث سنة ٥٠٨ هـ ) .

(٢) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. p. 465-466

(٣) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٥٠٩ هـ .

الصلبيين فقط ، بل بسط هيمنة السلطنة الساجوقية على كافة الإمارات الإسلامية في الشام وشمال الجزيرة ، حيث استطاع كثير من حكام المسلمين — مثل طفتكين في دمشق ، وبدر الدين لؤلؤ في حلب ، وإيلغازى والأراغمة في ديار بكر — أن يستغلوا فرصة الفوضى التي عمت البلاد نتيجة للحرب بين المسلمين والصلبيين لقطع صلتهم بالسلطنة الساجوقية في أصفهان . بل إن بعض أولئك الأمراء — مثل إيلغازى الأرتقى — لم يترددوا في محاربة قوات السلطان محمد ، مما جعل السلطان يعد هذه الحملة بقصد إخضاع أولئك الأمراء ، ثم محاربة أنطاكية والرها وغيرها من القوى الصليبية بعد ذلك <sup>(١)</sup> .

وسرعان ما أحس ذلك الثنفر من أمراء المسلمين بالخطر ، وكان أكثرهم إحساسا به هو إيلغازى في ديار بكر ، فأرسل بسرعة إلى طفتكين أتابك دمشق يستنجد به ضد الخطر المشترك <sup>(٢)</sup> . ولعله من الواضح مدى الحرج والخطر اللذين أحس بهما طفتكين عقب مقتل مودود ، لأن هذه الجريمة التي اتهمه الرأي العام الإسلامي بتدبيرها ، إنما راح ضحيتها زعيم حركة الجهاد في العالم الإسلامي ، فضلا عما فيها من مساس بالسلطان محمد نفسه ، لأن مودود كان أحد رجاله الخلفيين <sup>(٣)</sup> . لذلك أخذ طفتكين يعمل حسابا كبيرا لانتقام السلطان محمد ، وأدرك أن مخالفة الصليبيين في ذلك الموقف خير له بكثير من مشاركته السلاجقة تحت ستار الجهاد <sup>(٤)</sup> . وفعلا لم يكف

(١) « وأمرهم (السلطان) بالبداية بقتل إيلغازى وطفتكين ، فاذا فرغوا منهما قصدوا بلاد الفرنج وقاتلوهم ... » .

(ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٩ هـ) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، سنة ٥٠٨ هـ .

(3) Grousset : His. des Croisades, I, p, 494.

(4) Foucher de Chartres p, 429. & Guillaume de Tyr, p, p. 493.

إيلغازى يذهب إلى طفتكين لطلب المساعدة ، حتى اتفق الطرفان على محالفة الصليبيين<sup>(١)</sup> .

أما بدر الدين لؤلؤ صاحب حلب فكان على ولائه في أول الأمر لسلطنة السلاجقة ، ولكنه غير رأيه في آخر لحظة . وهكذا لم يبق لسلطنة أصفهان غير داعمين اعتمدت على ولائهما في بلاد الشام ، هما بنو منقذ في شيزر الذين أفرعهم تهديد إمارة أنطاكية لفامية وكفر طاب<sup>(٢)</sup>؛ ثم أمير حمص قيرخان بن قيراجا الذى كان يرغب فى الاستيلاء على حماة من طفتكين . وفعلا لم يكد إيلغازى يفرغ من مباحثاته مع طفتكين فى دمشق، حتى قبض عليه قيرخان عند الرستن — بين حمص وحماة — أثناء عودته ، وإن كان لم يلبث أن أفرج عنه بعد قليل عندما تأخر ظهور الجيش السلجوقى<sup>(٣)</sup> .

وكان أن تجمعت الحملة السلجوقية أخيراً فى الجزيرة، ومنها اتجهت صوب حلب، فنخسى « المولى لأمرها » بدر الدين لؤلؤ الخادم غدر السلاجقة. وعندما استنجد بدر الدين لؤلؤ بطفتكين وإيلغازى، أمرعا لنجدته على رأس ألفين من الفرسان، ودخلا حلب لينتظروا جميعاً وصول قوات السلطان محمد. أما الصليبيون فلم يكونوا أقل تخوفاً واستعداداً للاقاة الجيش السلجوقى ، فأمرع روجر الأنطاكى أمير أنطاكية بجمع جيوشه على نهر العاصى — عند جسر الحديد — للدفاع عن أنطاكية من جهة، ومراقبة تطورات الموقف فى حلب من جهة أخرى. ثم حدث الاتصال بين الجانبين لمواجهة الخطر المشترك، فاجتمعت قوات الحلفاء جميعاً البالغة اثني عشر ألفاً، منهم ألفان من الصليبيين وعشرة آلاف من المسلمين، وتم الاجتماع عند فامية<sup>(٤)</sup> .

(١) ابن الأثير : السكامل ؛ حوادث سنئى ٥٠٨ ، ٥٠٩ .

(٢) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١١٥

(٣) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٥٠٨ .

(٤) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١٢٠ .

وكان برسق قائد الجيش السلجوقي قد وضع خطته على أساس اتخاذ حلب قاعدة لعملياته الحربية في الشام، فلما وجد أن بدر الدين أولو الخادم تنكر للسلطان وانضم إلى الجبهة المعادية ؛ اضطر إلى أن يغير وجهته شطر بني منقذ في شيزر وقيرخان في حمص ، وهما اللذان بقيا على ولائهما للسلطان محمد<sup>(١)</sup> .

وقد اختار برسق أن يبدأ بحماة التابعة لطغتكين أتابك دمشق ، فاستولى عليها بمساعدة حليفه قيرخان « ونهبها ثلاثة أيام » أتى فيها من أعمال السلب والتخريب ما جعل المسلمين في الشام يتخوفون من جيوش السلطان محمد ويرغبون في مقاومتها<sup>(٢)</sup> . ثم اتجه برسق بعد ذلك إلى شيزر ، ومن هناك هاجمت قواته كفر طاب التابعة للصليبيين . على أنه يبدو أن وصول بلدوين الأول ملك بيت المقدس وبونز أمير طرابلس على رأس قوات كبيرة ، جعل برسق يدرك أن السلامة في الانسحاب، فتراجع فوراً على رأس قواته إلى الجزيرة وتمت عملية الانسحاب بنجاح . وهكذا لم يلبث أن تفرق الحلفاء، فعاد الملك بلدوين الأول إلى بيت المقدس ، وبونز إلى طرابلس ، وطغتكين إلى دمشق ، وشمس الخواص قائد جيش حلب إلى حلب ، وروجر إلى أنطاكية ، وإيلغازي إلى ماردين<sup>(٣)</sup> .

على أن انسحاب برسق لم يكن في حقيقة الأمر سوى خدعة بارعة ، لأنه لم يلبث أن عاد فجأة بجيوشه إلى كفر طاب وحاصرها ، حتى إذا ما استولى عليها في أوائل سبتمبر سنة ١١١٥ ، دمرها وأسر من بقي على قيد الحياة من حاميتها الصليبية ، ثم أعطاها لحلفائه بني منقذ أمراء شيزر . وبعد ذلك اتجه برسق إلى معرة النعمان ومنها أخذ يستعد للاستيلاء على زردنا ، وهي قلعة

(1) Stevenson : op cit; p. 98.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٩ هـ .

(٣) المرجع السابق .

للصليبيين قرب حلب<sup>(١)</sup> . وفي الوقت نفسه أرسل برسق قوة كبيرة تحت قيادة جيوش بك صوب حلب . على أن هذه العملية الأخيرة لم يكن لها أثر سوى إضعاف قوة برسق من ناحية ، واستثارة روجر الأنطاكي من ناحية أخرى . وفي الوقت الذي كانت قوات السلاجقة تعسكر غربى سرمين — عند دانيث — إذا بالصليبيين بقيادة روجر الأنطاكي وبلدوين دى بورج أمير الرها ينقضون عليهم فيقتلون منهم كثيرين ، في حين فر الباقون ، وعلى رأسهم برسق نفسه ( ١٤ سبتمبر ١١١٥ ) ؛ وقد حصلوا على كثير من الغنائم « وأخذ الكفار من هذا ما يقوت الوصف وغنموا من السكراع والسلاح والخيام والدواب والأمتعة ما لا يحصى »<sup>(٢)</sup> . وكان أن قسم أمراء الصليبيين على أنفسهم تلك الغنيمة الضخمة ، فسر أهل أنطاكية سرورا عظيما عندما عاد روجر ومعه تلك الثروة الطائلة في ١٨ سبتمبر<sup>(٣)</sup> .

وهكذا جاء انتصار الصليبيين في دانيث ليضع نهاية لجهود سلاطين سلاجقة فارس لاسترداد الشام . ولم يلبث أن توفي برسق بعد بضعة أشهر متأثراً بمار الهزيمة ، في حين أعرض السلطان محمد الساجوقى عن بذل تضحية أخرى في بلاد الشام<sup>(٤)</sup> . ثم إن هذه الهزيمة كان لها رد فعل قوى في بلاد الشام ، سواء في القوى الخالفة للسلطان السلاجوقى أو المعادية له . ومن ذلك أن بنى منقذ شيزر أسرعوا إلى إخلاء كفر طاب فاحتلها النورمان أثناء عودتهم إلى أنطاكية بعد الواقعة<sup>(٥)</sup> . أما طفتكين أنابك دمشق — حليف الصليبيين — فقد تشجع وانزع

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ( Rec. Hist. Or. p. 609. )

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ( Hist. Or. III, p. p. 609-610 )

(٣) Guillaume de Tyr, p. 498.

(٤) Runciman : op. cit; II, P. 133.

(٥) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١٤٤ .

رفنية من أمير حمص<sup>(١)</sup> . ثم إن بى منقذ فى شيزز لم يكتفوا بقسليم كفر طاب لروجر الأنطاكي ، وإنما عقدوا معه صلحا لمسالته كما حرصوا على عدم الاعتداء على القوافل الصليبية بين أنطاكية وبيت المقدس<sup>(٢)</sup> .

### روجر الأنطاكي والمسلمون بموقعة دانيث

استطاع روجر الأنطاكي بمسد الانتصار الكبير الذى حققه على السلاجقة فى موقعة دانيث أن يضفى على نفسه مكانة عظيمة فى المحيط الصليبي من ناحية ، وفى المحيط الإسلامى من ناحية أخرى ، فأخذت القوى الإسلامية المجاورة تعمل حسابا كبيرا لروجر - أوسير جال - كما أسماه المسلمون ( Sir Roger )<sup>(٣)</sup> . حقيقة إن طفتكين ذهب إلى بغداد فى مارس سنة ١١١٦ ليظهر التوبة عن مخالفة الصليبيين ، ويطلب العفو من السلطان محمد ، « فرضى عنه السلطان وخلص عليه »<sup>(٤)</sup> ولكن كل ذلك لا يجنب وجه الحقيقة الكبرى وهى أن القوى الإسلامية فى الشرق الأدنى ظلت عندئذ مفككة لا تربطها رابطة ، مما مكن الصليبيين من إحراز نصر تلو آخر . ثم إن كل قوة من تلك القوى الإسلامية كانت تعاني خلافا واضطرابا فى جهازها الداخلى ، مما أتاح فرصة طيبة للصليبيين للتدخل فى شئونها وابتلاع الممتلكات الإسلامية قطعة بعد أخرى<sup>(٥)</sup> .

من ذلك ما حدث فى حلب عندئذ من قيام بدر الدين لؤلؤ بقتل ألب

(١) ابن العديم : زبدة الحلب (p. 610) .

(2) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 510.

(3) Setton : op. cit, I, P. 404.

(٤) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٥٠٩ هـ .

(5) Stevenson : op. cit, p. p. 100-101



أرسلان « ابن أستاذه » لينفرد هو بحكم الإمارة ( ١١١٤ — ١١١٧ )<sup>(١)</sup> .  
وعندما أحسن بدر الدين لؤلؤ بضعفه ، وعدم قدرته على الوقوف بمفرده وسط  
العواصف الداخلية والخارجية المحيطة به ، طلب مخالفة طفتكين أنابك دمشق .  
على أن هذه المخالفة لم تنجهم من المصير السيء الذي انظره ، إذ قتله بعض أعوانه عند  
رجوعه من قلعة جعبر سنة ١١١٧ وهم بصيحوون « الأرنب | الأرنب » ليوهموه  
أنهم يتصيدون أرناب<sup>(٢)</sup> .

ويهمنا من تلك الأحداث أن الفرصة أتت لروجر الأنطاكي عندما  
وجد حلب دون ملك يزود عنها ، ففزا أرض حلب « وأخذ ما قدر عليه من  
أعمال الشرقية » على قول ابن العديم . وعندما تولى ياروق تاش ( ياروق تاش )  
— الأرمي الأصل — الوصاية على حلب ، أسرع إلى استرضاء روجر الأنطاكي ،  
فعد معه صلحا وتنازل له عن حصن القبة — أوقبة ملاعب — على الطريق بين  
حلب ودمشق — فضلا عن إعطاء روجر الحق في فرض ضرائب على قسوافل  
الحجاج بين حلب والحجاز<sup>(٣)</sup> ،

ولم يكن جيران حلب المسلمين أقل طمعا في تلك الإمارة المتداعية ،  
فأسرع نجم الدين إيلغازي بن أرتق — أمير ماردين — إلى احتلال بالس على  
الفرات ، وكانت تابعة لحلب . وعندما تقدم طفتكين أنابك دمشق وآقسنقر  
البرسقي أمير الرحبة لاحتلال حلب سنة ١١١٧ — ١١١٨ ، استنجد ابن الملحي  
الوصي على حلب بروجر الأنطاكي الذي أدى ظهوره على المسرح إلى اختفاء  
الأميرين المسلمين<sup>(٤)</sup> .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٠٨ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. III. p. 611)

(٣) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان (p. 559)

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٩٩ .

ولكن إذا كانت حلب قد غدت منذ سنة ١١١٨ تحت حماية الصليبيين من أهل أنطاكية ، بعد أن فضل الحلبيون هذه الحماية عن الوقوع تحت سيطرة « أحد من الشرق » على قول ابن العديم<sup>(١)</sup> ؛ فإن الأوضاع لم تلبث أن تغيرت عندما تغلب الشعور الديني وسلم الحلبيون بلدهم للأمير التركاني نجم الدين إيلغازي بن أرتق صاحب ماردين وديار بكر<sup>(٢)</sup> . وهكذا تجدد العداء بين حلب وأنطاكية ، فتقدم النورمان لحصار عزاز — شمالي حلب — ثم زحفوا على بزاع — إلى الشمال الشرقي من حلب — سنة ١١١٩ ، وبذلك بسط وجر الأنطاكي سيطرته على جميع الأجزاء المحيطة بحلب من ناحيتي الغرب والشمال . وجدير بالذكر أن الصليبيين عند استيلائهم على تلك الأجزاء الجديدة لم يدمروها هاهنا ويخربوا مزارعها ، وإنما « زرعوا أعمال عزاز وقووا فلاحهم وصار يدخل إلى حلب ما يتبعون به من القوت »<sup>(٣)</sup> .

ويرجح أنه حوالي ذلك الوقت أيضاً — أي سنة ١١١٧ — ١١١٨ — استولى الصليبيون على حصن المرقب أيضاً إلى الجنوب الشرقي من بانياس ، وذلك استطاعت إمارة أنطاكية — في عهد أميرها روجر — أن تقوم بدورها كاملاً في تدعيم السياسة الصليبية بالشام<sup>(٤)</sup> .

(١) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. III, p. 612)

(٢) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١١ هـ

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب (p. 615) &

Matthieu d'Edesse, P. p. 297-298

(4) Runciman : op. cit; II, p. 135.

## الباب الخامس

### إمارة الرها والمسيحيون الشرقيون

« وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكاتبتكم

إنا عاملون . وانتظروا إنا منتظرون . »

[ هود : ١٢١ - ١٢٢ ]



## الفصل الاول

### بلدوين دى بوج وإمارة الرها

امراء الرها والدرع :

رأينا في الأبواب السابقة كيف نجح بلدوين الأول في تأسيس أولى الإمارات الصليبية في الرها ، وهي الإمارة التي أصبحت الدرع الواقى للصليبيين بالشام ضد الأخطار التي هددتهم من جانب سلاجقة فارس والعراق . ولم تلبث إمارة الرها أن نمت وامتدت على ضفتى الفرات من راوندان وعين تاب غربا إلى مشارف حران شرقا ؛ ومن بهسنى وكيسون شمالا إلى منبج جنوبا .

على أن إمارة الرها ظلت دائما تعاني من تقطى ضعف واضحتين : أولا لعدم وجود حدود طبيعية تحميها وتزود عنها وتكسيها وقاية ومناعة ؛ والثانية عدم تجانس سكانها ، إذ كانوا خليطا من المسيحيين الشرقيين - السريان والأرمن - والصليبيين الغربيين ، فضلا عن المسلمين الذين تركزوا في مدن بأكلها داخل تلك الإمارة - مثل سروج . وكان من الصعب على أمراء الرها في تلك الظروف أن يحكموا إمارتهم حكما مركزيا يضمن لهم إشرافا دقيقا على مختلف أجزاء الإمارة ، ولذلك لجأوا إلى تحصين المدن ولتقلع التابعة لهم ، وجمع الضرائب من المناطق المحيطة بتلك المدن<sup>(1)</sup> .

وإزاء النقص الأخير في عدد الصليبيين وفرسانهم ، اضطر الأمير بلدوين الأول إلى الاعتماد في إمارة الرها على الأرمن الذين بلغوا ثلاثة أرباع عدد سكان

(1) Runciman : op. cit. II, p. 10.

الإمارة . وعندما استدعي بلدوين الأول ليتولى حكم بيت المقدس عقب وفاة أخيه جودفري سنة ١١٠٠ ؛ اختار ابن عمه بلدوين دى بوج ليخلفه في إمارة الرها تحت لقب الأمير بلدوين الثاني . وهكذا قدر لبلدوين الثاني هذا أن يتم عمل سلفه في الرها<sup>(١)</sup>، ثم يخلفه بعد سنين طوال ليتم عمله أيضاً في بيت المقدس<sup>(٢)</sup> .

على أن بلدوين دى بوج وجد نفسه في مركز لا يحسد عليه حاكم ، بسبب قلة الحاربين وخطر الأعداء ونقص المال . وهنا لم يجد بلدوين دى بوج مفر من اتباع سياسة سلفه بلدوين الأول في الاعتماد على الأرمن ؛ ولكن دون أن يرهقهم أو يتعنت معهم . لذلك عمل على استرضائهم والتقرب إليهم ، وتحقيق نوع من التآلف بينهم وبين الصليبيين الغربيين . ومن الواضح أن هذه السياسة كان من شأنها أن تخفف من الأثر السيء الذي تركه بلدوين الأول في النفوس ، عندما تخلص من سلفه ثوروس الأرمني بطريقة تم عن الغدر والخيانة . هذا فضلاً عما فرضه بلدوين الأول عليهم من ضرائب باهظة أثقلت كاهل الطبقة البورجوازية . حقيقة إنه قام بحماية الأرمن من خطر السلاجقة ، ولكنه تقاضى ثمنها باهظاً مقابل تلك الحماية<sup>(٣)</sup> .

أما بلدوين الثاني دى بوج فلم يتبع سياسة تصفية تجاه الأرمن، وإنما حصل منهم على الأموال والمصاريف اللازمة للدفاع ضد الأتراك، دون أن يلجأ إلى أساليب التعسف والإجحاف . هذا بالإضافة إلى حسن معاملته للكنيسة الأرمنية ورجالها ، مما جعل المؤرخ الأرمني متى الرهاوى يشيد بتلك المعاملة<sup>(٤)</sup> . كذلك يذكر المؤرخ ميخائيل السرياني أن بلدوين الثاني دى بوج قام بحماية مطران اليعاقبة في

(1) Setton : op cit; I. sp. 381-407

(2) Grousset : Hist. des Croisades, p. 388.

(3) Matthieu d'Edesse P. p. 70-71.

الرها<sup>(١)</sup>. ولم تلبث هذه السياسة أن قوت الرابطة بين المسيحيين الشرقيين والصلبيين الغربيين. ولتوثيق تلك الرابطة أيضا ، لجأ بلدوين الثاني دى بورج إلى الزواج من أرمينية — هي مورفيا ابنة جبريل حاكم ملطية — الذى كان تابعا لأمير الرها منذ أن قام بلدوين الأول بالدفاع عن مدينته ضد بني دانشمندان سنة ١١٠٠<sup>(٢)</sup>.

ولم يلبث بلدوين الثاني أن وجد سندا كبيرا فى شخص ابن عمته جوسلين دى كورتناى الذى وصل إلى الرها بعد قليل. وقد بلغ من سرور بلدوين بجوسلين أن منحه حكم جميع أراضي إمارة الرها غربى الفرات — بما فيها حصن تل باشر لتكون مركزاً له — ، ودلوك عند مفرق الطرق بين مرعش وحلب والرها ، وعينتاب ( عين تاب ) إلى الجنوب الشرقى من دلوك ، وغيرها . وهكذا أصبح جوسلين دى كورتناى الرجل الثانى فى إمارة الرها بعد بلدوين دى بورج ، وشاركه فى السيطرة على تلك المنطقة ذات الموقع الهام بين سلاجقة حلب وسلاجقة فارس<sup>(٣)</sup>.

#### الحرب ضد الأتراك :

وسرعان ما أدرك بلدوين الثانى دى بورج أنه لى يقوى صلته بملطية ، لا بد وأن يتوسع على حساب الأتراك فى الموصل وديار بكر ، واختار أن يبدأ بالأراتقة فى ديار بكر . وكان بلدوين الأول قد استولى على مدينة سروج — على بعد أربعين كيلو مترا إلى الجنوب الغربى من الرها — من حاكمها الأرتقى بلك بن بهرام أرتقى<sup>(٤)</sup>. ولم تلبث أن أصبحت سروج المدينة الثانية فى

(1) Michel Le Syrien, ed. C habot, II, P. 167.

(2) Guillaume de Tyr, P. P. 347-348.

(3) Setton, op. cit I, P. 363.

(٤) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٧ هـ

إمارة الرها شرق الفرات، وأقطعها لفارس اسمه فوشيه دى شارتر. ولسكن لم يكذب بلدوين الثانى دى بروج يتولى حكم إمارة الرها، حتى لجأ ستمان بن أرتق صاحب حصن كيفا إلى مهاجمة سروج، فتصدى له بلدوين دى بروج وفوشيه دى شارتر<sup>(١)</sup>. وفى القتال الذى دار بين الطرفين، حلت الهزيمة بالصليبيين، وقتل فوشيه فى المعركة (يناير سنة ١١٠١)، واستولى المسلمون على سروج فى حين لم يبق فى قبضة الصليبيين سوى قلعتها. أما بلدوين الثانى فقد انسحب عقب تلك الهزيمة إلى الرها— حيث كان لا يزال يتمتع بمحبة الأرمن وعظمتهم— ثم أتجه بعد ذلك إلى أنطاكية لطلب المعونة من تنكرد<sup>(٢)</sup>. وعندما عاد بلدوين الثانى من أنطاكية وجد الأراقة لا يزالون يهاجمون قلعة سروج. فانقض عليهم، واستطاع— بفضل ما حصل عليه من أنطاكية— أن يمزق شملهم فى أوائل فبراير سنة ١١٠١، ثم دخل سروج نفسها وعاقب أهلها المساكين لساندهم الأراقة، وحمل منهم أسرى كثيرين<sup>(٣)</sup>.

وقد شجع هذا الانتصار بلدوين الثانى على القيام بإغارات على المدن والأقاليم الإسلامية المجاورة التابعة للأراقة. ومن ذلك ما يرويه المؤرخ متى الرهاوى من أنه قام فى سبتمبر وأكتوبر سنة ١١٠٣ بإغارة على الأراقة حول ماردين، فأمر منهم كثيرين وحمل قدراً كبيراً من الغنائم<sup>(٤)</sup>. ويذكر ابن الأثير أن بلدوين الثانى قام فى نوفمبر سنة ١١٠٣ بإغارة على مختلف المدن والقلاع الإسلامية فى إقليم الجزيرة، مثل جعبر والرقعة على الفرات— وكانتا تابعتين للعقيليين (بنى عقيل)— «فأغاروا واستاقوا المواشى وأسروا من وقع بأيديهم من المسلمين»<sup>(٥)</sup>.

(1) Grousset : Hist. des Croisades p. p. 363.

(2) Ruaciman : op, cit, II, p. 37.

(3) Matthieu d'Edesse (Doc Arm. I.) p. p. 53-54.

(4) Idem, P. 70

(٥) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٤٩٧ هـ



### أموال السلاجقة :

وقد يبدو غريباً أن يتمكن الصليبيون في الرها من مواصلة اعتداءاتهم المتكررة على البلدان الإسلامية في الجزيرة عندئذ ، دون أن يحاول سلاجقة فارس — ونوابهم أتابكة الموصل — التدخل لصد الصليبيين . بل إن أتابكة الموصل لم يحاولوا استغلال الفرصة الذهبية التي أتاحها لهم وقوع بوهموند أميراً نطاكية في أسر بنى دانشمد ( ١١٠٠ — ١١٠١ ) ؛ والفشل الذريع الذي منيت به حملة المباردين الصليبية في الأناضول ؛ وكان في استطاعتهم أن يستغلوا كل هذه الظروف للانفراد بإمارة الرها وإنزال ضربة قاصمة بها .

ولكن نظرة عاجلة نلقيها على أتابكية الموصل في تلك الفترة كقيلة بأن توضح لنا أن الموقف السلبي لتلك الأتابكية عندئذ إنما يرجع إلى اختلال أحوالها الداخلية اختلالاً جعلها مسرحاً لكثير من الفتن والثورات والمنازعات بين أمراء السلاجقة (١) . أما السلطان بركيارق فقد صار عاجزاً عن إخضاع بنى جلدته السلاجقة في بلاد الروم وحلب ودمشق ، بل إنه عاجز عن ردع نوابه في الأقاليم .

من ذلك أن قوام الدولة كربوقا ( كربوغا ) أتابك الموصل أوصى وهو على فراش الموت سنة ١١٠٢ بأن يخلفه في حكم الموصل أحد رجاله ، واسمه سنقرجه (٢) . ولكن موسى التركماني — وهو أيضاً أحد رجال كربوغا — نازع سنقرجه حكم الموصل ، واستطاع موسى هذا أن يقتل منافسه ويفوز بحكم الموصل ، بوصفه نائباً عن السلطان بركيارق . ولم يكده موسى التركماني يهنأ بذلك النصر حتى

---

== ويقول ابن الاثير أن السلطان ملكشاه كان قد سلم سنة ٤٧٩هـ قلعتي جمبر والرقعة لسالم بن مالك بن بدران بن المقلد بن المسيب، وهو من بنى هقيل .

(١) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. P. 394\_395.

(٢) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥هـ .

ظهر له منافس جديد في شخص جكرمش الذى استولى على نصيبين والذى طمع في الموصل أيضاً ، مما جعل موسى يستنجد بسقمان بن أرتق ، وأعطاه حصن كيفا وعشرة آلاف دينار لمساعدته . على أن ذلك لم يغن موسى التركمانى شيئاً إذ لم يلبث أن قتل ، وبذلك أصبح جكرمش حاكم الموصل وما حولها<sup>(١)</sup> .

ولعل هذا المثل عما كان يحدث بالموصل في تلك الفترة يعطينا صورة واضحة عن مدى انحلال السلطة المركزية في سلطنة سلاجقة فارس ، مما أتاح للأتابكة أن يتوارثوا مدن الدولة وأقاليمها ويتقاتلوا فيما بينهم وبين بعض ، وهم في شغل بكل ذلك عن الصليبيين في الرها وغير الرها<sup>(٢)</sup> . أما سبب ذلك الاضطراب في السلطنة السلجوقية في أوائل القرن الثانى عشر ، فرجعه — كما سبق أن أشرنا — الخلاف بين بركيارق وأخيه محمد حول تقسيم ملك أبيهما ملكشاه . وإذا كان ذلك الخلاف قد انتهى باتفاق الأخوين سنة ١١٠٤ على أن يأخذ بركيارق فارس وبغداد ويترك لأخيه محمد الأقليم الغربية من الدولة — أعنى ديار بكر والجزيرة والموصل والشام<sup>(٣)</sup> — ؛ إلا أنه من الواضح أن سلطة كل منهما غدت اسمية إلى حد كبير أمام ازدياد نفوذ الأتابكة والحكام المحليين . ولم تغب هذه الحقيقة عن بال الصليبيين الذين رأوا « اشتغال عساكر الإسلام وملوكه بقتال بعضهم بعضاً » فأسرعوا إلى استغلال الفرصة ، بعد أن تفرقت عندئذ بالمسلمين الآراء واختلفت الأهواء وتمزقت الأموال<sup>(٤)</sup> .

(١) المرجع السابق .

(٢) ويعبر ابن الأثير تعبيراً بليغاً عن أحوال السلطنة السلجوقية في ذلك الوقت فيقول « صارت الأموال منهوبة والدماء مسفوكه ، والبلاذ مخربة ، والقرى محرقة ، والسلطنة مطموعا فيها محكوما عليها . وأصبح الملوك مقهورين بهد أن كانوا قاهرين وكان الأمراء الأكابر يؤثرون ذلك ويختارونه ليدوم تحكمتهم وانبساطهم وإدلالهم ٠٠٠ »

(السكامل؛ حوادث سنة ٥٩٧هـ) .

(٣) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٧ .

(٤) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٥٩٧هـ .

### سوفته هرايه وأسر بلدوين الثانى :

وكانت إمارة الرها - بحكم تطرفها فى الشمال الشرقى - أكثر إحساساً من غيرها من الإمارات الصليبية فى الشرق الأذنى بأحوال سلاجقة فارس ، وأكثرها رغبة فى الاستفادة من تلك الأحوال. لذلك فكر بلدوين الثانى دى بورج أمير الرها فى الاستيلاء على حران - إلى الجنوب الشرقى من الرها - وهى التى لم تكن أحوالها الداخلية عندئذ أفضل بكثير مما كانت عليه الموصل<sup>(١)</sup> . ذلك أن أحد ممالك السلطان ملكشاه - واسمه قراجه - كان يحكم حران حكماً استبدادياً تعسفياً سنة ١١٠٣ ، عندما اتهمز أحد رجاله - واسمه محمد الأصبهاني - فرصة تغيبه عن المدينة وانزع الحكم بمساعدة الأهالى .

ولكن محمد هذا لم يلبث أن قتل ، قتله «غلام تركى يعرف بجاولى» وأعلن نفسه حاكماً على المدينة<sup>(٢)</sup> . وكان ذلك فى ربيع سنة ١١٠٤ عندما وصل بلدوين الثانى دى بورج إلى حران لحصارها ومعه تابعه جوسلين دى كورتناى صاحب تل باشر ، وبوهيموند أمير أنطاكية وابن اخته تنكرد ، فضلاً عن عدد آخر كبير من الأمراء الصليبيين ورجال الدين<sup>(٣)</sup> . ويبدو أن الصليبيين أضاعوا وقتاً ثميناً أمام حران ، لأنهم لم يحاولوا اقتحامها واكتفوا بحصارها حتى يضطرها إلى الجوع والتسليم . وفى الوقت الذى أوشكت حران على التسليم ، وقع نزاع بين بلدوين دى بورج أمير الرها وبوهيموند أمير أنطاكية حول أيهما يرفع يده أولاً على المدينة عند سقوطها<sup>(٤)</sup> . وكان ذلك فى المساء عندما ظن الصليبيون أن

(1) Setton : op. cit, I, P. 389

(٢) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٧ هـ .

(3) Guillaume de Tyr. I. P. 444.

(4) Runciman : op. cit, p. 42.

المدينة ستسقط في أيديهم في صباح اليوم التالي . ولم يدر الصليبيون عندئذ أن جيشاً كبيراً من الأتراك في طريقه لإنقاذ حران ، وأن هذا الجيش سيكون على مقربة منهم في الصباح الموعد<sup>(١)</sup> .

ذلك أن هجوم بلدوين على حران ألف بين خصمين متعادين هما جكرمش أتاتك الموصل وسقمان بن أرتق صاحب ماردين وحصن كيفا ، « فأرسل كل منهما لصاحبه يدعوهُ إلى الاجتماع معه لتتلاقى أمر حران ويعلمه أنه قد بذل نفسه لله تعالى وثوابه ، وكل واحد منهما أجاب صاحبه إلى ما طلب منه »<sup>(٢)</sup> . ولم يلبث أن جمع هذان الأميران ما يقرب من عشرة آلاف محارب من الترك والعرب والأكراد ؛ وبعد أن تم الاجتماع عند رأس العين — على الخابور — اتجه الزعيمان للقاء الصليبيين . وفي موقعة حران — أو البليخ — التي دارت بين الطرفين على ضفاف نهر البليخ في ٧ مايو سنة ١١٠٤ ، أبيض جيش الرها إبادة شبه تامة ، وقتل من الصليبيين « عشرة آلاف ما بين راجل وفارس »<sup>(٣)</sup> . وقد حاول بلدوين الثاني دى بوج وجوسلين دى كورتناى الفرار ، ولكنهما وقعا أسيرين في أيدي التركمان . وسرعان ما أوشك النزاع أن يدب بين التركمان من أتباع سقمان الأرتقى والأتراك السلاجقة من أتباع جكرمش حول الاستئثار بتلك الغنيمة الثمينة من الأسرى ، حتى انتهت الأمر بأن أخذ السلاجقة الأمير بلدوين . وبعد أن استولى جكرمش على حران ، اتجه لحصار الرها ومعه أسيره « القمص » ، بلدوين دى بوج<sup>(٤)</sup> .

ولا شك في أن موقعة حران (البليخ) كانت لها نتائجها السيئة بالنسبة

(1) Guillaume de Tyr, p. 445-446

(٢) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٤٩٨ هـ .

(٣) سبط ابن الجوزى . p. 527. & p. 615. Albert d'Aix.

(4) Foucher de Chartres P. 409.

(٥) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٤٩٧ هـ .

لصليبيين بوجه عام وإمارة الرها بوجه خاص . فمعنى انتصار الترك على قوات الرها وأنطاكية ، هو أن مركز الأولى غداً مزعزعة في حين أن الثانية فقدت الأمل في قرب الاستيلاء على حلب . هذا إلى فشل خطة الصليبيين في عزل المسلمين في الأناضول والعراق والشام بعضهم عن بعض<sup>(١)</sup> .

وإذا كانت إمارة أنطاكية قد تعرضت لتسفي البيزنطيين بعد موقعة حران ، فإن إمارة الرها تعرضت هي الأخرى لكثير من المتاعب الداخلية ، وبخاصة من جانب الأرمن الذين لم يلبثوا أن أظهروا ضجرهم من حكم الصليبيين ؛ والواقع إن انتصار الأتراك وهزيمة الصليبيين على ضفاف البليخ ، كشفت عن حقيقة شعور الأرمن تجاه حكامهم الصليبيين الغربيين ومدى استيائهم من حكم الفرنجة . حقيقة إن الأرمن تضامنوا مع الصليبيين في الرها ، وأظهروا ولاءهم لتتسكرد عندما أسر أميرهم بلدوين دى بروج ، ولكن ذلك لا ينسبنا أن الأرمن هم الذين سلموا أرتاح لسلاجقة حلب ، تخلصاً من « جور الفرنج »<sup>(٢)</sup> . ويعلل متى الرهاوى موقف الأرمن هذا بتعسف الصليبيين الغربيين مع الكنيسة الأرمنية وإهمالها بل اضطهاد رجالها في كثير من الأحيان ، مما دفع الأرمن إلى الاتصال سرراً بالأتراك<sup>(٣)</sup> .

وهكذا يبدو أنه إذا كانت الرها وغيرها من المعاقل الصليبية قد استطاعت البقاء وسط المحيط الأرمني شرقي آسيا الصغرى وفي أطراف العراق والشام ، فإن الفضل في ذلك كله إنما يرجع إلى انقسام المسلمين على أنفسهم<sup>(٤)</sup> .

---

(1) Runciman : op. cit, II, p 44.

(٢) ابن العديم . زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. p. 593)

(3) Matthieu d'Edesse. Hist Arm, I; p. p. 80-81

(4) Croussel : Hist des Croisades, I, p. 412-413.

## وصاية تنكرد على الرها :

وعندما اتجه جكرمش لحصار الرها ، وجد أهل المدينة من المسيحيين أنفسهم في مأزق خطير بعد أن قضى المسلمون على جيشهم ، وغداً أميرهم بلدوين أسيراً في قبضة جكرمش الذي ألقى به في سجن الموصل ، في حين ظل جوسلين دى كورتناى أسيراً في قبضة سقمان بن أرتق الذي حبسه في قلعة حصن كيفا . ولكن بوهموند وتنكرد اللذين هربا في موقعة البليخ استطاعا الوصول إلى الرها سالين ( مايو سنة ١١٠٤ ) ليرفعا من الروح المعنوية للأهالى ، ويعدان المدينة للدفاع ضد الهجوم الاسلامى المنتظر<sup>(١)</sup> . وهنا أظهر الأرمن في الرها ولاءهم الشديداً لهذين الأميرين الصليبيين ، بل إنهم دعوا تنكرد للقيام بالوصاية على مدينتهم ورعاية شئون الامارة حتى يتم إطلاق سراح أميرهم بلدوين دى بوج<sup>(٢)</sup> . وهكذا ترك بوهموند ابن أخته تنكرد في الرها ، وعاد هو في سرعة ليرعى شئون إمارته أنطاكية التي تأثرت هي الأخرى تأثراً عميقاً بهزيمة الصليبيين في البليخ<sup>(٣)</sup> .

ولم يكذب بوهموند يرحل عن الرها حتى ظهر جكرمش أمام أسوارها . على أن تنكرد لم يجبن أمام آلاف السلاجقة الذين تأهبوا للهجوم على الرها ، وإنما استمر يبيت في الأهالى روح العزيمة ، واكتفى بأن أرسل رسالة سرية إلى خالة بوهموند يطلب منه نجدة عاجلة لانتقاذ المدينة . وفي الوقت الذي وصل بوهموند إلى مشارف الرها لنجدتها ، كان السلاجقة قد تراجعوا بعد اشتباك قصير مع أهل الرها<sup>(٤)</sup> . وهكذا انسحب جكرمش بعد أن حاصر الرها أسبوعين

(1) Setton : op. cit. I, p. 339.

(2) Archer op. cit p. 616.

(3) Runciman : op. cit, II, p. 43.

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٣ &

Albert d'Aix, P. p. 617-619.

(يونيه — يولية ١١٠٤) دون أن يتمكن من اقتطاف الثمرة الحقيقية لانتصاره  
في البليخ .

ويقال إن الصليبيين أسروا عندئذ أحد كبار الأمراء السلاجقة، فعرض  
جكرمش على بوهموند استمداه لمبادلة ذلك الأمير ببلدين الثاني ، أو دفع  
مبلغ ١٥ ألف دينار مقابل إطلاق سراح ذلك الأمير السلجوقي . وعندما وصلت  
أخبار ذلك العرض إلى بيت المقدس ، أرسل الملك بلبدين الأول إلى بوهموند  
يطلب منه مبادلة الأمير السلجوقي ببلدين دي بوج فوراً ، ولكن بوهموند  
فضل المال لحاجته إليه ، وبذلك ظل بلبدين الثاني أمير الرها أسيراً <sup>(١)</sup> .

---

(1) Runciman : op cit; II. p. 45.

## الفصل الاول

### عودة بلدوين الثاني لحكم الرها

إطراف سراح بلدوين :

وفي تلك الأثناء كانت دولة سلاجقة فارس لا تزال تعاني الكثير بسبب الانقسامات والحروب الداخلية . ومن ذلك ما سبق أن أشرنا إليه في الباب السابق من نجاح جاولى في القضاء على جكرمش وانتزاع الموصل منه ليستقل بها ، ثم ثورة أهل الموصل على جاولى سقاوا ومناداتهم بزئكي - ابن جكرمش - حاكما عليهم ، مما اضطر جاولى إلى الانسحاب من المدينة سنة ١١٠٦<sup>(١)</sup> .

ولكن جاولى لم يلبث أن عاد إلى الموصل وتمكن من استردادها سنة ١١٠٧ ، وعندئذ حاكى سلفه جكرمش ، وعمل على أن يستقل بتلك الأتابكية متناسيا كل حق للسلطنة السلجوقية فيها . لذلك أسرع السلطان محمد الساجوقى إلى عزل جاولى في العام التالي وأحل محله مودود في حكم الموصل ، فاضطر جاولى إلى الخروج إلى قلعة جعبر على الفرات ومعه أسيره بلدوين الثاني لبحث عن المال والحلفاء لمحاربة مودود<sup>(٢)</sup> .

وفي ذلك الوقت كان جوساين دى كورتناى حاكم تل باشق قد حصل على حريته سنة ١١٠٧ بعد دفع مبلغ ضخم بلغ عشرين ألف دينار<sup>(٣)</sup> . ولم يكف جوساين نعم بحريته حتى أخذ يعمل على تحرير سيده بلدوين الثاني دى بورج

(١) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص ١٩٨ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٢ هـ .

(٣) للرجع السابق .



— الذى كان فى قبضة جاولى — من الأسر . والواقع إن بلدوين الثانى كان قد فقد الأمل فى إطلاق سراحه عندما انتقل من قبضه جكرمش إلى قبضة جاولى . ولكن جوسلين دى كورتناى استغل الظروف الجديدة التى غدا فيها جاولى ، وحاجته إلى المال من جهة ، وإلى مخالفة الصليبيين ضد السلطنة الساجوقية من جهة أخرى ، وسأومه على إطلاق سراح بلدوين دى بورج<sup>(١)</sup> . وكان أن تم الاتفاق على ذلك مقابل سبعين ألف دينار ، بشرط أن يتعهد بلدوين بإطلاق سراح جميع أسرى المسلمين فى الرها ، وبأن يتف إلى جانب جاولى فى مشاريعه المقبلة ضد السلطنة الساجوقية « وينصره متى أراد ذلك منه بنفسه وعسكره وماله<sup>(٢)</sup> » .

وهكذا تم إطلاق سراح بلدوين دى بورج سنة ١١٠٨ ، بعد أن دفع له جوسلين دى كورتناى مقدم الفدية المتفق عليها وهى ثلاثون ألف دينار . ثم إن جاولى لم يكتف بإطلاق سراح بلدوين ، وإنما أحاطه — هو وجوسلين — بكثير من مظاهر التكريم « وخلع عليه » مما جعل العلاقة بين جاولى من ناحية وبلدوين وجوسلين من ناحية أخرى تتحول إلى مخالفة شخصية<sup>(٣)</sup> .

### النزاع بين بلدوين وتسكررد حول الرها:

وكان أول ما فعله بلدوين دى بورج عقب إطلاق سراحه سنة ١١٠٨ هو أنه توجه إلى أنطاكية ليطلب من تسكررد رد إمارته فى الرها . ولكن تسكررد الذى ظل يحكم الرها أربع سنوات ، يجمع داخلها ويدافع عنها ويدير أمورها ، عز عليه أن يتنازل عن ذلك السلطان ، فأمد بلدوين ببعض المال والخيل والسلاح ، ولكنه

(1) Setton : op cit, I, p. D, 393.

(٢) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٠٢ هـ .

(3) Michel Le Syrien, III, p. 196.

امتنع عن الاعتراف بحقه في استرداد الرها، وأصدر تنكرد أوامره لثأبه ريتشارد دي سالرفو بالألا يسلم الرها لبلدوين<sup>(١)</sup>.

ولم يسع بلدوين دي بورج سوى أن يقادر أنطاكية غاضباً ، فاتجه إلى تل باشر حيث اجتمع بجوسلين دي كورتناى . ولكن تنكرد لم يلبث أن لحق بهما « ليحاربهما قبل أن يتوى أمرهما ويجمعاً عسكرياً وليتحق بهما جاولى وينجدهما » . ويبدو مما ذكره ابن الأثير أن نزاعاً شب عندئذ بين الأمراء الصليبيين الثلاثة ، وإن كان هذا النزاع لم يطل ، فكف ثلاثتهم على بحث المشكلة عن طريق التفاوض<sup>(٢)</sup> . وعندما فشلت تلك المباحثات في إيجاد حل للموقف ، انصرف تنكرد إلى أنطاكية ، في حين تطلع بلدوين دي بورج وجوسلين دي كورتناى إلى حليفهما جاولى لمساعدتها . وقد بلغ من حرص بلدوين الثانى على استرضاء جاولى ، أن بعث إليه بمائة وستين رجلاً من أسرى المسامين ، بعد أن حررهم وسلاحهم « وكساهم » ليقوموا بدورهم في مساعدة جاولى وبلدوين جميعاً<sup>(٣)</sup> .

ولم يلبث أن ظهر على مسرح الأحداث حليف آخر لبلدوين دي بورج ، ساعده على حل المشكلة واستخلاص إمارته من قبضة تنكرد . أما هذا الحليف الجديد فهو كوغ باسيل<sup>(٤)</sup> - أحد زعماء الأرمن - وكان قد نجح أيام الحملة الصليبية

(1) Matthien d'Edesse (Doc. Ar 1) ; p. 86.

ويذكر ابن الأثير أن تنكرد طيب خاطر ببلدوين دي بورج وأعطاه « ثلاثين ألف دينار وخيلاً وسلاحاً وثياباً وغير ذلك » (الكامل، حوادث سنة ٥٠٢هـ).

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٢هـ .

وقد ذكر ابن الأثير أن زعماء الصليبيين الثلاثة « كانوا يقتتلون ، فاذا فرغوا من القتال

اجتمعوا وأكل بعضهم مع بعض وتحادثوا » .

(3) Ruuciman : op. cit; II, p. 112 &

ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٢هـ .

(٤) هكذا كتب اسمه جهمرة المؤرخين (انظر ابن العبري، ص ١٩٩).

أما ابن الأثير فقد كتبه (كواسيل).

الأولى في إقامة إمارة مستقلة لنفسه حول كيسوم (كيسون) ، في الجزء الشرقي المواجه للفرات من مرتفعات طوروس. وسرعان ما غدت تلك الإمارة الأرمينية قلعة منيعة ، ومأوى لكثير من الأرمن ومحوراً لآمالهم<sup>(١)</sup>. ذلك أن الأرمن أخذوا ينظرون إلى كوغ باسيل على أنه بطل قومي ، لاسيما بعد أن نجح سنة ١١٠٧ في دفع هجوم الأتراك عن إمارته ، ثم إنزال الهزيمة مرة أخرى في العام التالي — سنة ١١٠٨ — بسلاجقة الروم عندما حاولوا الاعتداء على تلك الإمارة . وهكذا بلغ هذا الزعيم الأرمني أوج مجده وقوته عندما قصده بلدوين دي بورج وجوسلين دي كورتنای طالبين منه مساعدتهما على استرداد الرها من تنكرد<sup>(٢)</sup>.

ويؤكد المؤرخ الأرمني متى الرهاوي أن كوغ باسيل أحسن استقبال الأرمين الصليبيين ورحب بهما ترحيباً كبيراً ، لأنه وجد مصالحه تتفق ومصالحة بلدوين دي بورج بسبب تخوف الأرمن من سياسة تنكرد. ذلك أن تنكرد وضع سياسة استهدفت ضم قيليقية بأجمعها إلى الصليبيين وطبعها بالطابع اللاتيني الغربي ، كما بدا ذلك من استيلائه على المصيصة . وبعبارة أخرى فإن سياسة تنكرد في تلك المنطقة لم تكن موجهة ضد البيزنطيين فحسب ، بل ضد الأرمن أيضاً. هذا فضلاً عن أن تنكرد أناب عنه ابن عمه ريتشارد دي سالرنو في الرها ، وهذا الأخير أساء معاملة الأرمن وعجز عن حمايتهم ، كما فشل في صد جكرمش عندما غزا المنطقة المحيطة بالرها سنة ١١٠٥ . ولعل فشل النورمان في اكتساب محبة الأرمن هو الذي جعل أهل الرها يحنون إلى حكم بلدوين دي بورج ، وهو الأمير الذي تقرب منهم وحافظ على شعورهم وتزوج أميرة أرمينية<sup>(٣)</sup>.

(1) Matthieu d'Edesse, I p. 77.

(2) Grousset : Hist. des Croisades, I. P 437.

(3) Matthieu d'Edesse. p. 79 & Albert d'Aix, p. 648.

لذلك كله لم يتردد كوغ باسيل في إعطاء بلدوين دى بورج قوة كبيرة من الحاربيين الأرمن تبلغ ألف فارس وألفى راجل<sup>(١)</sup>. وعندما خرج بلدوين على رأس تلك القوة لاسترداد إمارته دارت مناوشات بينه وبين خصمه، وعندئذ - وقبل أن يشتم القتال - تدخل بطرق أنطاكية لحسم النزاع بين الطرفين. وكان لذلك البطرق - وهو برنارد دى فالنس - مكانة كبيرة في نفوس المسيحيين؛ حتى قال عنه ابن الأثير إنه « كالإمام للمسلمين لا يخالف أمره » ، فحكم بأن يأخذ بلدوين الرها ويعود تنكرد إلى أنطاكية ، وتم ذلك في ١٨ سبتمبر سنة ١١٠٨<sup>(٢)</sup> .

ولم يكد بلدوين دى بورج يعود إلى إمارته ، حتى اتبع سياسة مشبعة بالتسامح والأخاء تجاه حليفه جاولى ، فاطاق سراح أسرى المسلمين ، سواء في الرها أو حران أو غيرها من المدن المجاورة . بل إن رئيس سروج « كان مسلماً قارتد ، فسمعه أصحاب جاولى يقول في الإسلام قولاً شنيعاً فضربوه ، وجرى بينهم وبين الفرنج بسببه نزاع ، فذكر ذلك للقمص ( بلدوين دى بورج ) فقال : هذا لا يصح لنا ولا للمسلمين ، فقتلوه ! »<sup>(٣)</sup>

### الانشقاق في صفوف المسلمين والمسيحيين :

على أن الحل الذي وضعه بطرق أنطاكية لم يمح ما في النفوس من كراهية وحقد ، وإن كان قد وضع حداً للصراع المسلح بين تنكرد وبلدوين دى بورج. وزاد من اتساع الفجوة بين الرجلين أن كلا منهما وجد من يسانده بين صفوف

(1) Stevenson : The Crusaders p. 85.

(٢) ابن الأثير : السكامل ؛ حوادث سنة ٥٥٠٢ هـ .

(٣) المرجع السابق

للمسلمين ؛ فبلدوين دى بورج له صديقه جاولى أتابك الموصل السابق ، الذى لم يفتأ منذ طرده من الموصل يعمل على إنشاء إمارة لنفسه فى الجزيرة رغم إرادة السلطان محمد السليجوقى ؛ مما أوقعه فى خلاف وعداء مع رضوان ملك حلب الذى بدأ يتأثر بأطباع جاولى التوسعية <sup>(١)</sup> . من ذلك أن جاولى هاجم فى سبتمبر سنة ١١٠٨ مدينة بالس على الفرات ، وهى لا تبعد أكثر من خمسين ميلا عن حلب ، واستولى عليها حيث قتل أعوان رضوان داخلها . وفى ذلك الموقف لم يجد رضوان بدا من مخالفة عدوه القديم تنكرد ؛ وربما وجد الأخير فى ذلك التحالف فرصة للانتقام من بلدوين دى بورج الذى استطاع أن يسترد الرها على كره منه <sup>(٢)</sup> .

وهكذا تألفت جبهتان متعارضتان : الأولى من بلدوين دى بورج وجاولى ، والثانية من تنكرد ورضوان . وفى المعركة التى دارت بين الفريقين قرب منبعج - غربى الفرات على الطريق بين حلب والرها - انتصر فريق تنكرد ، وفر جوساين دى كررتناى إلى تل باشرو بلدوين دى بورج إلى دلوكت فى أكتوبر سنة ١١٠٨ <sup>(٣)</sup> . وقد تبع تنكرد غريمه بلدوين دى بورج لمحاصرته فى دلوكت ، ولكن تخوفه من أن يهاجمه جاولى من الخلف ويقطع عليه خط الرجعة ، جعله يعدل عن خطته وينصرف إلى أنطاكية . وقد قدرت خسارة للمسيحيين فى معركة منبعج هذه بما يقرب من ألفين <sup>(٤)</sup> .

### انتداب سياسة بلدوين دى بورج ضد العرب :

ولم يلبث ذلك الانقسام فى صفوف الصليبيين أن ظهر له رد فعل عنيف

(1) Setton : op. cit; I, p. p. 393—394.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٢ هـ .

(3) Albert d'Aix, P, 649.

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب (Hist. Cr. Or III) p. 595

داخل الرها ذاتها . ذلك أن الأرمن في الرها عندما سمعوا بالهزيمة التي لحقت بأمرهم بلدوين دى بوج وتابعه جوسلين دى كورتناى توجسوا شراً ، وتخوفوا من أن يعود إليهم حكم تنكرد وقريبه ريتشارد دى سالرفو ، وهو الحكم الذى ظل يذكره أهل الرها بالسوء والشر . لذلك عقد الأرمن اجتماعا كبيرا في كنيسة القديس حنا بالرها ، ودعوا إلى ذلك الاجتماع رئيس الأساقفة الكاثوليكي . ويبدو أن الأرمن وجهوا بعض الإساءات والالتهامات إلى رئيس الأساقفة ، مما أندر بحدوث صدام بين الأرمن والصلبيين داخل المدينة (١) .

على أن الأرمن الذى ظنوا أن بلدوين دى بوج وجوسلين دى كورتناى لا بد وأن يكونا قد هلكا وأسرا في الصراع ضد تنكرد ، فوجئوا بالأمرين يدخلان الرها سالمين . ولم يلبث أن علم بلدوين دى بوج بما فعله الأرمن في غيابه ، فأدرك خطورة ذلك الاتجاه على مستقبله ومستقبل إمارته . ومنذ ذلك الوقت انقلبت سياسته تجاه الأرمن رأسا على عقب ، وأخذ ينظر إليهم نظرة الريبة والشك ، ولم يتورع عن اضطهادهم وإذلالهم وسلبهم ممتلكاتهم والاعتداء على حرياتهم الدينية وغير الدينية . هذا فضلا عما وقع على المذنبين منهم من عقوبات بلغت حد الحبس والطرده وسمل الأعين ، حتى أن الأسقف الأرمني لم يسلم من سمل عينيه إلا بعد أن دفع مبلغا باهظا من المال (٢) .

وبعد أن كانت سياسة بلدوين في حكم الرها تقوم على أساس الربط بين الصليبيين والأرمن ؛ إذا به يغير سياسته تغييرا تاما ، فاستبعد الأرمن من حسابه كلية ، واعتمد في حكومته اعتمادا واضحا على رجاله من الصليبيين الغربيين وحدهم . ومن الواضح أن هذه السياسة زادت الموقف سوءا ، لأن الأرمن في الرها ضاقوا

(1) Matthieu d'Edesse p. 268.

(2) Idem; p. 267—268.

بحكم الصليبيين ، ورأوا فيهم أعداء فاقوا الأتراك المسلمين في تطرفهم<sup>(١)</sup> . ولذلك لم يكن عجبا أن يتصل الأرمن في الرها بمودود أتابك الموصل ، عند قيام الأخير بحماته صد الصليبيين سنة ١١١٣ ، عارضين عليه استمدادهم لتسليمه الرها .

وعندما علم بلدوين دى بوج بتآمر الأرمن مع مودود صده ، جاء انتقامه شديداً في تلك المرة ، إذ طرد من الرها جميع أبنائها الأرمن ، ولم يترك فيها — عدا الفرنجة — سوى السريان واليعاقبة وغيرهم من الطوائف المسيحية الأخرى<sup>(٢)</sup> .

---

(1) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 443.

(2) Michel Le Syrien, III, p. 196.

## الفصل الثالث

### مودود وإمارة الرها

هجمة مودود أتابك الموصل على الرها سنة ١١١٠ :

سبق أن رأينا كيف أعلن جاولى أتابك الموصل استقلاله بتلك المدينة وقطع كل صلة تعبر عن ولائه للسلطان محمد السلجوقي ، الأمر الذي جعل السلطان يعهد إلى مودود بن ألتونتكين بالتضاء على جاولى والقيام بحمله في حكم الموصل<sup>(١)</sup> . وعندما نجح شرف الدولة مودود في مهمته وأصبح أميراً على الموصل سنة ١١٠٩ ، عهد إليه السلطان محمد في العام التالي باستئناف الجهاد ضد الصليبيين . وكان أن أعد مودود حملة كبيرة لمحاربة الصليبيين ، واشترك معه في تلك الحملة سكان القطبي أمير خلاط وميفارقين ، وبجم الدين إيلغازي بن أرتق أمير ماردين في ديار بكر ، ومع الأخير « خلق كثير من التركمان »<sup>(٢)</sup> .

وقد أجهت تلك الحملة الكبيرة من الأتراك لحصار الرها ( ابريل - مايو سنة ١١١٠ ) ، فأسرع بلدوين الثاني دي بوج إلى إرسال جوسلين دي كورتناى إلى فلسطين للاستنجاد بالملك بلدوين الأول . أما تنكرد الذي لم يعبأ بانقضاء الرها ، فإن بلدوين الثاني دي بوج آتهم بتحرك تلك الحملة الإسلامية ضد الرها والتآمر مع المسلمين ضده<sup>(٣)</sup> . ولم يستطع بلدوين الأول ملك بيت المقدس الحضور على عجل لأنه كان يحاصر بيروت ، وأوشكت المدينة أن تسقط في يده

(١) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٩ .

(٢) ابن العديم زبدة الحلب (Rec. Hist. Cr, III, p. p. 595-596)

(3) Albert d'Aix, p. 670.



عندما بلغته استغاثة بلدوين دى بورج<sup>(١)</sup> . ولم يكسد الملك بلدوين الأول يستولى على بيروت في مايو سنة ١١١٠ ، حتى جمع قواته واتجه صوب الرها، وصحبتة برترام أمير طرابلس على رأس فرسانه<sup>(٢)</sup> . وفي طريق بلدوين إلى الرها انضم إليه قرب سميساط بعض زعماء الأرمن ، وعلى رأسهم كوغي باسيل<sup>(٣)</sup> .

وعندما اقترب الملك بلدوين الأول من الرها ، رفع مودود الحصار عن المدينة واتجه صوب حران ، حيث انضم إليه طغتكين ومعه قوات دمشق<sup>(٤)</sup> . وقد رأى الملك بلدوين الأول أن يقوم الصليبيون بعمل جامع ضد تلك الحشود التركية الضخمة ، التي أخذت تهدد الصليبيين وتبعثر قواهم . ولذلك أرسل ملك بيت المقدس إلى أنطاكية يستدعى تنكرد وقواته للمشاركة في حرب فاصلة ضد الأتراك<sup>(٥)</sup> . وقد تردد تنكرد أول الأمر في تلبية نداء الملك ، ولكنه عاد وأدرك أن عدم تعاونه مع إخوانه الصليبيين في حربهم الجامعة ضد الأتراك سيؤدي إليه وإلى سمعته في المحيط الصليبي ، فاتجه على رأس ألف وخمسمائة فارس إلى الملك بلدوين ، الذي قام بدور الوسيط لتصفية الخلاف بينه وبين بلدوين دى بورج، وحشد جميع جهود الصليبيين للمعركة الفاصلة ضد المسلمين<sup>(٦)</sup> . وهكذا «انفق الفرج كلهم وأزالوا ما كانوا بينهم من الشحنةاء ... فتصافى طنكريد وبقديون وابن صنجيل بعد النصار ...»<sup>(٧)</sup> .

ويبدو أن الخطة التي وضعها مودود عندما ترك حصار الرها واتجه إلى حران

(١) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت، ص ١٨.

(2) Albert d'Aix, p. 672.

(3) Stevenson : op. cit; I. p 88.

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٩ — ١٧١ .

(5) Setten : op. cit. I. P. 399

(6) Stevenson : op. cit. p. 88.

(٧) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Cr. Or. III, p. 596)

استهدفت استدراج الصليبيين إلى أقصى مكان بعيد عن قاعدتهم في الجزيرة ، ثم الإيقاع بهم ، كما حدث في موقعة الليخ سنة ١١٠٤<sup>(١)</sup> . وكان في استطاعة الصليبيين - بعد أن وحدوا صفوفهم - أن يلاحقوا المسلمين عند حران ، ولكن الملك بلدوين الأول فطن إلى خطة مودود وأراد أن يسرع بإنزال ضربته بالأتراك قبل أن يتمكنوا من تنفيذ خطتهم . وكان من المحتمل أن ينجح بلدوين في ذلك لولا أن الأحقاد القديمة بين زعما الصليبيين عادت إلى الظهور ، فانسحب تنكرد ومعه قواته إلى سميساط على الفرات ؛ مما اضطر الملك بلدوين الأول إلى الرجوع إلى الرها<sup>(٢)</sup> . وفي ذلك الوقت جاءت الأخبار تترى على الملك بلدوين بمخطورة هجمات الفاطميين على مملكة بيت المقدس ، فلم يعد أمام الملك متمسعا من الوقت ليحاول أن يوفقى بين أمراء الصليبيين مرة أخرى . وتم الاتفاق على تحديد الأماكن التي يحشد فيها المسيحيون ليسهل الدفاع عنها - مثل الرها - على أن تحلى بقيمة المراكز على شاطئ الفرات من سكانها الأرمن واليعاقبة .

### أهل الرصه عن أرض الجزيرة وأسفيوز المسلمين عليها :

وكان أن بدأ الصليبيون تنفيذ الخطة السابقة ، فزودوا الرها بالذخائر والسلاح والمواد اللازمة لمقاومة حصار طويل ، ووضعوا فيها حامية قوية تكفي للدفاع عنها<sup>(٣)</sup> . وبعد ذلك اتجه الصليبيون نحو تطهير ضياع الجزيرة من الأرمن ، وسحب ذلك الفريق من المسيحيين الشرقيين إلى الجهات الشمالية الغربية في اتجاه سميساط ،

---

(١) ذكر ابن الأثير أن المسلمين «رحلوا عن الرها إلى حران ليطلع الفرنج ويمبروا الفرات إليهم...» (الكامل؛ حوادث سنة ٥٠٥هـ).

(2) Matthieu d'Edesse. p. 93.

(3) Guillaume de Tyr. p. 463.

أى عبر الفرات ، حيث يمكن أن يأوى أولئك الأرمن في المناطق الجبلية المحيطة بكيسوم (كيسون)<sup>(١)</sup> .

وفي تلك الأثناء كان مودود ورجاله عند حران، يرقبون الموقف عن كنب، ويتحينون الفرصة المناسبة للعمل ، فأخذوا يجتاحون المزارع والضياع والقرى للمسيحية ، حتى وصلوا إلى الفرات . وهناك علما أن جيوش الصليبيين قد عبرت الفرات ، في حين بقيت بضعة آلاف من المهاجرين الأرمن ينتظرون دورهم في عبور النهر ، بسبب قلة السفن اللازمة لنقلهم إلى الضفة الغربية<sup>(٢)</sup> . وكان أن هاجم الأتراك أولئك اللاجئين وأعملوا فيها السيف ، حتى قتلوا منهم عدة آلاف ، في حين وقف الجيش الصليبي على الضفة الغربية للنهر لا يدرى ماذا يفعل . وبعد ذلك عاد مودود إلى حران ومعه عدد كبير من الأسرى وقدر هائل من الغنائم<sup>(٣)</sup> .

وهكذا ساء موقف الصليبيين عند أطراف الفرات إلى درجة كبيرة. حقيقة إن الصليبيين ظلوا يحتفظون بالرها وسروج ، وهما أكبر قلعتين في تلك المنطقة شرق الفرات . ولكن هاتين القلعتين أصبحتا قائمتين وسط أرض خربة مقفرة ، ليس فيها زرع ولا ضرع ولا سكان . أما بلدوين دى بوج فقد عاد إلى الرها بمعنى إمارته الخربة ، في حين رجع بلدون الأول إلى بيت المقدس ، وتنكرد إلى أنطاكية<sup>(٤)</sup> .

---

(1) Grousset : *Hist. des Croisades I*; p. 454.

(2) Stevenson : *op cit.* P. P. 88

(3) *Matthieu d'Edesse*, p. p. 93-94.

(4) *Albert d'Aix*; p. 675.

## استيلاء المسلمين والدعوة للجهاد :

على أن الوضع الذي أمسى فيه المسلمون في أوائل القرن الثاني عشر، وشعورهم بسوء موقفهم في الشام وأطراف العراق ، أثار بينهم موجة عامة من الاستياء ، فارتفعت الأصوات تستنكر ذلك الوضع وتنادى بالجهاد . هذا إلى أن سيطرة الصليبيين على كثير من المراكز والمعقل في أرض الجزيرة والشام ، قطع أوصل العالم الإسلامي في الشرق الأدنى ، وحال دون انتقال القوافل والتجارة بين العراق والشام ومصر والحجاز ، وهو أمر لم يألنه المسلمون منذ حركة الفتوح العربية في القرن السابع للميلاد . ويروي ابن الأثير أن بعض أهالي حلب قصدوا عندئذ بغداد للتعبير عن استيائهم وطلب المساعدة ضد الفرنجة ، وهناك « اجتمع معهم خلق كثير من الفقهاء وغيرهم ، وقصدوا جامع السلطان ، واستغاثوا ، ومنعوا من الصلاة ، وكسروا المنبر ، فوعدهم السلطان بإنفاذ العسكر للجهاد »<sup>(١)</sup> . وفي يوم الجمعة التالي قصد جمهور الغاضبين جامع القصر بدار الخلافة في بغداد حيث كرروا العملية نفسها ، فاقترحوا الجامع وكسروا شبك المقصورة والمنبر ؛ وعندئذ أدرك الخليفة المستظهر خطورة الموقف ، فأرسل إلى السلطان الساجوق « يأمره بالاهتمام بهذا الفتق ورتقه »<sup>(٢)</sup> . وكان أن أخذ السلطان محمد الساجوق يعد العدة لحملة ثانية ، على أن تكون تحت قيادة ابنه مسعود والأمير مودود أتابلك الموصل .

يروى ابن القلانسي أنه في ذلك الوقت بالذات ، بلغ العداء أشده بين البيزنطيين والصليبيين ، مما جعل الامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين

(١) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٥٠٤ هـ .

(٢) المرجع السابق .

يرسل مبعوثاً إلى السلطان محمد الساجوقى يحضه على محاربة الفرنجة وطردهم من البلاد<sup>(١)</sup>؛ «وترك التراخي في أمرهم واستعمال الجِد والاجتهاد في الفتك بهم قبل إعضال خطبهم واستفحال شرهم!»<sup>(٢)</sup>. وقد وصل المبعوث البيزنطي إلى بغداد قبل وصول وفد حلب، الأمر الذي جعل المسلمين في بغداد يصيحون في السلطان «أما تتقى الله تعالى أن يكون ملك الروم أكثر حمية منك للإسلام، حتى قد أرسل إليك في جهادهم<sup>(٣)</sup>!». .

### صحة مودود الثانية على الرها سنة ١١١١

وقد أخذت الاستعدادات تجري على قدم وساق في دولة سلاجقة فارس في ربيع سنة ١١١١ لإعداد حملة كبيرة لحرب الصليبيين. وكان أن اجتمع تحت قيادة مودود حاكم الموصل جميع حكام الأقاليم في دولة السلاجقة: سكان القطبي صاحب خلاط وتبريز وبعض ديار بكر، والأميران أيلنكي وزنكي ابنا برسق - وكانا يحكان هذان وخوزستان - والأمير أحمد بك (أحمديل) صاحب مراغة في أذربيجان... وغيرهم. وكذلك كوتب الأمير أبو الهيجاء صاحب أربل والأمير مودود؛ فاجتمعوا، ما عدا إياغازي صاحب ماردين فإنه سير ولده أياز بدله<sup>(٤)</sup>.

وبعد أن اجتمع أولئك الأمراء على رأس قواتهم قرب سنجار اتجهوا لمهاجمة الرها، وكانت الرها على استعداد منذ العام السابق لمواجهة مثل ذلك الهجوم، وبها من الزاد والمؤن والسلاح - فضلا عن المحاربين - ما كان كفيلاً بأن

(1) Chalandon : Alexis Commenc, p. 252.

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٣.

(٣) ابن الاثير : المكامل ؛ سنة ٥٠٤ هـ .

(٤) المرجع السابق ، حوادث سنة ٥٠٥ هـ .

يمكنها من الصمود . وفعلا لم يلبث أن قنط المسلمون من الاستيلاء على الرها بعد أن « رأوا أسراً محكاً قد قويت نفوس أهلها بالذخائر التي تركت عندهم وبكثرة المقاتلين عنهم »<sup>(١)</sup> . لذلك رأى مودود أن يعبر نهر الفرات لمهاجمة تل باشر ، وفي الطريق لم يحجم الأتراك عن تدمير كل مصادفهم من ضياع الصليبيين ومزارعهم<sup>(٢)</sup> .

وقد حاصر المسلمون تل باشر خمسة وأربعين يوماً ، ولكن جوسلين دي كورتناى استطاع الصمود في وجه المسلمين « فرحلوا عنها ولم يبلغوا غرضاً » . ويذكر ابن العديم أن المسلمين كانوا على وشك الاستيلاء على تل باشر ، لولا أن جوسلين اتصل بأحمد بك الكردي أمير مراغة « فتطارح جوسلين الفرنجي صاحبها على أحمد بك الكردي ، وحمل إليه مالا ، وطلب منه رحيل العسكر عنه ، فأجابته إلى ذلك ! » . وفي ذلك الوقت كان رضوان صاحب حلب قد أرسل إلى مودود وإلى أحمد الكردي يخبرهم « بأنني قد تلفت ، وأريد الخروج من حلب ، فبادروا إلى الرحيل ! » . وعلى هذا الأساس نجح أحمد بك الكردي في إقناع الأتراك بترك حصار تل باشر والاتجاه إلى حلب لنجدة رضوان<sup>(٣)</sup> . وعندما اطمأن جوسلين إلى ابتعاد المسلمين عن قلعته ، خرج على رأس مجموعة من فرسانه ، واستطاع أن يدهم مؤخرة جيش المسلمين ، ويقتل من الأتراك نحو ألف رجل ، ثم أسرع بالعودة إلى تل باشر محملاً بالغنائم<sup>(٤)</sup> .

ولم يسكد الأتراك يقر بون من حلب لنجدة رضوان حتى فوجئوا بموقف غريب . ذلك أن رضوان طلب مساعدة الأتراك عندما كان هؤلاء بعيدين

(١) المرجع السابق .

(٢) Stevenson : sp cit; p 91.

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب (599-600) (Rec. Hist. Or. III, p. p. 599-600)

(4) Albert d'Aix. p. 681.

عند تل باشر ؛ ولكن اقتراب الأتراك من حلب أثار مخاوف رضوان لكثرتهم وبدأ يحسب حساباً لخطرهم ، وأدرك أن تلك الجيوش التركية الكثيفة وذلك نفر من الأمراء ذوى اللطامع يشككون خطراً عليه وعلى سلطانه أكثر من خطر تنكرد نفسه<sup>(١)</sup>. وهكذا سرعان ما ظهرت المفاجأة الكبرى ، وهى أن رضوان الذى كان يستعجد بالأتراك ضد تنكرد أغاق فى وجه المسلمين « أبواب البلد ولم يجتمع بهم »<sup>(٢)</sup> ، بل إنه لم يلبث أن تحالف بسرعة مع تنكرد للوقوف فى وجه ذلك الخطر المشترك<sup>(٣)</sup>. ويروى ابن العديم أن أهل حلب لم يرضوا عن مسلك ملكهم رضوان ، فغضبوا ونادوا بالجهاد ؛ وعندئذ أخذ رضوان بعض أعيانهم رهائن وحبسهم فى قلعة المدينة ، ورتب قوماً من الجند والباطنية لحراسة سور حلب ، ومنع الحلبيين من الصعود إليه ؛ وبذلك ظلت أبواب حلب مغلقة سبع عشرة ليلة فى وجه الجيش الإسلامى المتحالف<sup>(٤)</sup>.

وإزاء ذلك الموقف الذى وقفه رضوان من الأمير مودود وحلفائه ، اتجه الجيش المشترك إلى حوض نهر العاصى لاسترداد الجهات التى استولى عليها تنكرد أخيراً فى إقليم معرة النعمان . وهناك عند معرة النعمان حضر طغتكين أتاك دمشق على رأس جيشه وانضم لحلف الأمراء ، وبذلك اكتملت رابطة الأتراك ولم يعد متخلفاً سوى رضوان صاحب حلب الذى « لم يانفت إلى أخدمتهم »<sup>(٥)</sup>. على أن طغتكين لم يلبث أن « اطلع من الأمراء على نيات فاسدة فى حقه فخاف أن تؤخذ منه دمشق فشرع فى مهادنة الفرنج سراً »<sup>(٦)</sup>. وهكذا صدق المؤرخ

(1) Setton : op. cit; I, p. 400.

(٢) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٥٠٥ هـ.

(3) Albert d'Aix; p. p. 682.

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ( Rec. Hist. III, p. 600 )

(٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٥ .

(٦) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٥٠٥ هـ ، التاريخ الباهر ص ١٧ — ١٨ .

ابن العديم حين قال إن أمراء المسلمين في ذلك العصر كانوا يرجون استمرار بقاء الصليبيين ليضمن أولئك الأمراء استمرار بقائهم في مناصبهم ! (١)

وقد عرض طغتكين على أمراء الأتراك أن يتوجهوا جميعاً للاستيلاء على طرابلس ، ولكن بنية الأمراء - عدا مودود - عارضوا ذلك الرأي ، واعتقدوا أنه من الجازفة الابتعاد حتى طرابلس من أجل تحقيق مصالحة خاصة لأتابك دمشق (٢) . وعندئذ قرر طغتكين أن يقف موقفاً سليباً من الحملة الإسلامية ، فرفض أن يتعاون مع إخوانه المسلمين في أي عمل يقومون به ضد الصليبيين إلا إذا أطاعوه واتجهوا صحبته إلى طرابلس ، مع ما في ذلك العمل من خطورة بالغة . ولم يلبث الأمير برسق أن اشتد به المرض وأعلن الرغبة في العودة ، في حين كان الأمير سكان القطبي قد توفي فجأة عند بالس وعاد جنده بجثمانه ، في حين انسحب أحمد بك الكردي مسرعاً ليطلب من السلطان أن يقطعه ما كان لسكان القطبي من البلاد . وبذلك لم يبق إلى جانب الأمير مودود سوى إياز الأرتقي بن إيلغازي ، فضلاً عن طغتكين صاحب دمشق (٣) .

وفي الوقت الذي انفرط عقد الجيش التركي ، أخذت القوى الصليبية تتجمع من جديد « بعد الاختلاف والتباين » لمواجهة الخطر الناجم من اتحاد كلمة أمراء المسلمين . وكان أن أقبل بلدوين دي بورج أمير الرها وجوسلين دي كورتناي صاحب تل باشر وتفكردي أمير أنطاكية لملاقاة بلدوين في ملك بيت المقدس ومعه برترام أمير طرابلس ، وغير هؤلاء كثيرين من أمراء

---

(١) « وكان السبب في ذلك أن المتقدمين كانوا يريدون بقاء الفرنج ليثبت عليهم ما هم فيه » ( ابن العديم : زبدة الحلب 606 - 607 - p. p. )

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ( Rec. Hist. Cr. III, p. 601 )

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٦ - ١٧٧ هـ .  
ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٥ هـ .



الصلبيين<sup>(١)</sup>. وأخيراً اجتمعت الجيوش الصليبية كلها قرب فامية — على الضفة الشرقية لنهر العاصي — في حين كان طفتكين ومودود على الضفة الغربية للنهر عند شيزر، حيث اجتمع بهما سلطان بن منقذ صاحب شيزر « وهون عليهما أمر الفرنج وحرصهما على الجهاد »، (١٥ سبتمبر ١١١١)<sup>(٢)</sup>. وبعد عدة أيام وقف فيها الفريقان وجها لوجه، عبر الأنراك نهر العاصي إلى الضفة التي عليها الصليبيون ودارت مناوشات بين الفريقين بلغت أحيانا درجة عنيفة، ثم انسحب بعدها مودود إلى الموصل وعاد كل أمير إلى إمارته<sup>(٣)</sup>.

وهكذا أثبتت تلك التجربة فشل حركة الجهاد الإسلامية طالما أن المسلمين كانوا منقسمين إلى وحدة تنظم صفوفهم. ذلك أن أمراء المسلمين ظلوا منقسمين على أنفسهم في الوقت الذي ترابط الصليبيون جميعاً من أطراف العراق وشمال الشام إلى جنوب فلسطين، تحت زعامة بلدوين الأول ملك بيت المقدس<sup>(٤)</sup>.

(1) Grousset : *Hist. des Croisades*, I, p. 469.

(٢) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٠٥ هـ.

(3) Setton : *op. cit*; I, p. 400.

(4) Runciman : *op. cit*, II, p. 123.

(م ٣٠ — الحركة)

## الفصل الرابع

### تدهور إمارة الرها

مؤامرة الأرمين في الرها سنة ١١١٢

ومع أن الأمير مودود وجد نفسه وحيدا في حركة الجهاد ضد الصليبيين ، إلا أنه قام في صيف سنة ١١١٢ بمهاجمة الرها فجأة ، فترك قواته تحاصرها قرابة شهرين ، في حين انصرف هو — عندما رأى قوة تحصين الرها وتعذر الاستيلاء عليها في سهولة — إلى سروج ، بوصفها المركز الثاني للصليبيين شرق الفرات<sup>(١)</sup> . على أن جوسلين دى كوتناى استطاع أن يلاحق بمودود عند سروج وأنزل به الهزيمة ، وقتل عددا كبيرا من رجاله في يونية سنة ١١١٢ . ويرجع ابن الأثير تلك الهزيمة إلى أن مودود لم يحتفظ بوحدة جيشه كاملة ، وإنما ترك جزءا يحاصر الرها وأتى بالجزء الباقي لمهاجمة سروج ، وبذلك « أهمل الفرنج ولم يحترز منهم ، فلم يشعر إلا وجوسلين صاحب تل باشر قد كبسهم » . ولم يسع مودود في ذلك الموقف سوى التراجع نحو الرها ، فسبقه جوسلين إليها اساعدة بلدوين دى بورج في الدفاع عنها<sup>(٢)</sup> .

وفي تلك المرحلة بالذات تأمر الأرمين في الرها ضد بلدوين دى بورج واتصلوا بالأتراك طالبين مساعدتهم للتخلص من حكم الصليبيين<sup>(٣)</sup> . وقد تم

(1) Stevenson : op. cit; p. 95.

(2) Matthieu d'Edesse. p. 100 &

ابن الأثير: السكامل ، حوادث سنة ٥٠٦ هـ .

(3) Matthieu d'Edesse. p. 101.

الاتفاق في تلك المؤامرة على أن يساعد الأرمن مودود في الاستيلاء على قلعة تسيطر على القطاع الشرقي من مدينة الرها ، مما يمكنه بعد ذلك من الاستيلاء على بقية المدينة في سهولة . على أن وصول جوسلين دي كورتناى حال دون تنفيذ المؤامرة ، لأنه عندما علم بها أسرع إلى احتلال القلعة التي كان مفروضاً أن يبدأ السلاجقة بالاستيلاء عليها ، وهاجم الأتراك الذين أخذوا يتسللون إليها حتى ردهم عن آخرهم ، و بذلك حال دون سقوط المدينة في أبدى السلاجقة (١)

ومع أن تلك المؤامرة باءت بالفشل إلا أنها تكشف النقاب عن مدى انحلال الأوضاع الداخلية في الرها بسبب الأتسام بين شطى السكان المسيحيين : الأرمن والصلبيين الغربيين . وكان أن أدى كشف تلك المؤامرة إلى تطرف بلدوين دي بورج وجوسلين دي كورتناى في معاملة الأرمن معاملة وحشية صارمة ، فاستحلا دماء كثيرين من الأبرياء ، وأمرنا بذبح وإحراق عدد غير قليل من أهل الرها الأرمن . ولم يلبث بلدوين دي بورج بعد ذلك بعدة أشهر أن طرد من الرها عدداً كبيراً من الأرمن بعد أن أدرك أن وجودهم داخل أسوار المدينة يعرض سلامته وسلامة المدينة للخطر (٢) .

ويبدو أن شعور الأرمن في تلك الفترة بالذات صار معبئاً ضد الصليبيين بوجه عام ، ليس داخل الرها فحسب ، بل في جميع الأقاليم التي انتشر فيها الأرمن شرقي آسيا الصغرى وشمال العراق . وليس أدل على شعور الكراهية المتبادل بين الصليبيين والأرمن في تلك الفترة ، من حقد الصليبيين على كوغ باسيل ( كواسيل ) بسبب ازدياد نفوذ الأخير واتساع ملكه . وكان أن تحالف بلدوين الثاني دي بورج أمير الرها ، وتنفرد أمير أنطاكية ضد كوغ باسيل

(1) Michel Syrien p. p. 196.

(2) Matthieu d'Édesse, p. p. 102—105.

الأرمني ، واستطاع تنكرد أن يستولى على رعبان ، واستعمل فعلا لمحاورة كيسوم ،  
عندما عقد الصلح بين الطرفين (١) .

١١١٣ : ١١١٣ : مودود بلدين دي بوج أمير في انفاذ مملكة بيت المقدس سنة ١١١٣ :

أما مودود حاكم الموصل فلم يهدأ ، وظلت فكرة الجهاد تتحكم في مشاعره  
وأحاسيسه ؛ فأعد حملة جديدة سنة ١١١٣ لغزو بلاد الصليبيين ، واشترك معه  
تميرك صاحب سنجار ، والأمير إياز الأرتقي بن إيلغازي أمير ماردين ، وطفعتين  
أنابك دمشق . واستطاع الأخير — كما سبق أن أوضحتنا — أن يوجه تلك  
الحملة ضد مملكة بيت المقدس (٢) .

وكان بلدين دي بوج أمير الرها — بحكم قربه من الموصل — أول من  
أحس بمحنة مودود وحلفائه ، فأسرع إلى تحذير الملك بلدين الأول ملك بيت  
القدس . وعندما أحس الملك بلدين بخطورة الموقف استنجد بأفصاله الأقربين ،  
مثل روجر الأنطاكي وبونز أمير طرابلس . أما بلدين دي بوج أمير الرها ،  
فكان من الواضح أنه يتعرض لخطر شبه دائم من جانب الأتراك ، لذلك لم  
يطلب إليه الملك بلدين الحضور (٣) .

وقد سبق أن شرحنا ما حدث لتلك الحملة قرب بحيرة طبرية ، ثم ما كان من  
مقتل مودود في دمشق في سبتمبر سنة ١١١٣ ، مما أدى إلى فشلها (٤) .

(١) Runciman : op cit, II, P. 123.

(٢) انظر ما سبق ص ٣٢٠ — ٤٢٦ .

(٣) Grousset : Hist des Croisades' I, p. 484

(٤) انظر ما سبق ص ٣٢٠ — ٣٢٣ .

### سوء الاحوال الاقتصادية في السرها؛ طرد مهوسلين

والواقع إن اتجاه الحملة الإسلامية السابقة صوب إقليم الجليل جاء رحمة للرها التي تعرضت — بحكم تطرفها — لكثير من هجمات السلاجقة ، والتي كانت لا تستطيع المقاومة والثبات أكثر مما قاومت وثبتت. ذلك أن الأتراك خربوا الأراضي المحيطة بها ودمروا ما فيها من أشجار وزرع ، حتى صارت الرها بمثابة قلعة وسط صحراء واسعة مجدبة مليئة بالأعداء من كل جانب . أما الجزء الواقع غربي الفرات من إمارة الرها — أي إقليم تل باشر — فكان على العكس في حالة نسبية من الهدوء ، لأنه لم يتعرض لما تعرضت له الرها من إغارات أتابكة الموصل ، فضلا عن أن نهر الفرات كان يحميها من هجماتهم المتكررة .

وتشير المراجع إلى أن جوسلين دي كورتناي أخذ يتصرف في ذلك الوقت تجاه سيده بلدوين دي بروج تصرفات تدل على عدم اللياقة والإخلاص ، مما أثار حنق بلدوين وشكوكه . ومع أنه لا توجد في الواقع أدلة ثابتة على خيانة جوسلين لبلدوين الثاني ، إلا أنه من المحتمل أن يكون سبب سوء التفاهم بين الطرفين هو حقد بلدوين دي بروج على جوسلين ، لاسيما وأن بلدوين — وسط المتاعب الداخلية والخارجية التي ألمت به وإمارته — أخذ يتشكك في جميع من حوله ؛ فلم يكتف بالشك في الأرمن وإخلاصهم ، وإنما شك أيضاً في أقرب أعوانه إليه وهو جوسلين نفسه ، بعد أن وجد أنه محبوب من الأرمن . ومهما يكن من أمر ، فقد انتهى الموقف بأن قبض بلدوين دي بروج على جوسلين وحبسه ؛ ثم أطلق سراحه بعد أن عزله عن حكم تل باشر (١) .

ولم يجد جوسلين دي كورتناي أمامه سوى الملك بلدوين الأول ملك

(1) Runciman. : op cil; II, P 124.

بيت المقدس ؛ فذهب إليه طامعا في عطفه وكرمه . وكان أن أقطع الملك بلدوين جوسلين إمارة طبرية والجليل ، حيث أظهر جوسلين نشاطاً واسعاً في مهاجمة الساين . وبخاصة في إقليم صور . وتدل الشواهد على أن جوسلين لم يحاول — وهو في إمارته الجديدة — أن يسيء إلى بلدوين دى بورج أمير الرها ؛ مما جعل الأخير — عندما تولى عرش بيت المقدس عقب وفاة بلدوين الأول — لا يكتفى بإعادة جوسلين إلى تل باشر ، بل أعطاه إمارة الرها بأكملها سنة ١١١٩ (١) .

### مؤامرة الأرمين سنة ١١١٣ لتسليم الرها لمودود :

أما الأرمين في الرها ، فظفوا بضمرون البغض وسوء النية لبلدوين دى بورج والصليبيين عموماً ، وزاد من كراهيتهم وحقدهم تلك الإجراءات التعسفية التي اتخذها بلدوين الثاني ضد الأرمين سنة ١١١٢ . ولم يلبث استياء الأرمين أن دفعهم إلى التفكير في تسليم الرها للسلاجقة سنة ١١١٣ ، أى في الوقت الذي بدأ مودود حاكم الموصل يتأهب لحملة الجديدة ضد الصليبيين . وربما ظن الأرمين أن الظروف مواتية لتسليم الرها لمودود أثناء غياب بلدوين دى بورج في تل باشر ، لأخذ قلعها بعد طرد جوسلين دى كورتناي منها . ومع أنه لا يوجد دليل ثابت على أن الأرمين تواطأوا فعلاً ضد الأتراك في تلك المرة ، إذ ربما لا يعمد الأمر مجرد إشاعة أو دسيسة ، إلا أن تجربة العام السابق جعلت بلدوين دى بورج يسرع إلى اتخاذ إجراءات عنيفة لحماية الرها من جهة وللانتقام من الأرمين من جهة أخرى (٢) .

ولم يلبث أن عهد بلدوين دى بورج إلى أحد رجاله بعقاب الأرمين

(1) Stevenson : op. cit; p. 106.

(2) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 490.

وطردهم من الرها ، فانتشر الصليبيون في المدينة يذبجونهم بالجملة ، كما لجأوا في ١٣ مايو سنة ١١١٣ إلى طرد من تبقى منهم على قيد الحياة خارج المدينة ويصف المؤرخ الأرمني متى الرهاوى حالة الأرمن في ذلك الوقت ، وكيف أنهم مروا بأيام حالكة ليس لها مثيل في تاريخهم ، فكان الأب لا يعرف أبنائه ، والأبناء يفرون من آبائهم ، والكل لا يعينهم سوى النجاة بأرواحهم ، وقد غادروا الرها تاركين خلفهم كل ما امتلكوه من مال ومتاع . أما من بقي منهم داخل منزله وأغلق عاينه بابه ، فإن الصليبيين اقتحموا عليه داره وأحرقوه حياً . وهكذا لم يتبق في الرها من أبنائها الأرمن سوى ثمانين رجلاً لاذوا بكيسة القديس تيمودور ، حتى تم القبض عليهم فحبسوا في قلعة المدينة تحت الحراسة المشددة<sup>(١)</sup> . وقد اتجه معظم الأرمن المطرودين من الرها إلى المدن والبلاد الأرمينية الأخرى القريبة — وبخاصة سميساط — في حين صارت الرها مدينة شبه خربة ، فازداد ركودها وضعفها ، بعد أن فقدت عنصراً أساسياً من سكانها المعروفين بنشاطهم ودأبهم .

ولم يلبث أن أحس بلدوين دى بورج بأن طرد الأرمن من الرها عاد عليه وعلى إمارته بالخسارة ، وأن من بقي بالمدينة من المسيحيين الغربيين والسريان لا يكفون للاحتفاظ للرها بنضارتها وقوتها ، فسمح للأرمن في فبراير سنة ١١١٤ بالعودة إلى الرها مرة أخرى<sup>(٢)</sup> .

### استنجار الأرمن بالسلامة :

وإذا كان الأرمن بعد عودتهم إلى الرها قد ركنوا إلى الهدوء التام ولم يحاولوا القيام بأي عمل يسىء إليهم ، إلا أنهم ظفروا مع ذلك — داخل الرها

(١) Matthieu d'Edesse p. p. 104-106.

(٢) Grousset : Hist. des Croisades, I; P. 491.

وخارجها - لا يستطيعون أن يغفروا للصليبيين سوء معاملتهم واضطهادهم لكنيستهم .

وكان السلطان محمد الساجوقى قد عهد بحكم الموصل بعد مقتل مودود إلى حاكم جديد هو أفسنقر البرسقى ، مع تكليفه - مثل سلفه - بمواصلة الجهاد ضد الصليبيين . وفي سنة ١١١٤ قام أفسنقر بحملة كبيرة ضد الرها ، وكان صحبته ابنه عماد الدين زنكى وتميرك صاحب سنجار وغيرها . والمعروف أن أفسنقر كان رجلاً ماهراً ، بدأ بتدعيم نفوذه والاستيلاء على أعمال الموصل مثل جزيرة ابن عمر ، كما استولى على ماردين من صاحبها إيلغازى ، وبعد ذلك سير إيلغازى ابنه إيلاز مع أفسنقر لمهاجمة الرها . وقد ظل أفسنقر يحاصر الرها شهرين كاملين ، قاومه طوالها الفرنجة « وصبروا له » على قول ابن الأثير<sup>(١)</sup> . ويبدو أن صمود الرها على ذلك الوجه جعل أفسنقر يرفع حصاره عنها ، ويوجه إغاراته ضد الضياع الصليبية المحيطة بها وبسروج وسميساط . وفي تلك المرحلة أرسل حاكم كيسوم ورعبان الأرمنى إلى أفسنقر يعرض عليه محالته ضد الصليبيين .

وكان كوغم باسيل (كواسيل) الأرمنى - حاكم إمارة كيسوم ورعبان - قد توفى في أكتوبر سنة ١١١٣ تاركا إمارته المستقلة لأرملته وابنها بالتبني ، دغا باسيل . وعندما أحس هذان الأخيران بأن تنكرد أمير أنطاكية يطمع في إمارتها ، طلبا حماية الأتابك أفسنقر البرسقى واعترفا بتبعيتهما له وسيادته على إمارتها ؛ وقبل أفسنقر ذلك بعد فرض جزية معينة على تلك الإمارة الأرمينية ، رمزاً لتبعيتهما<sup>(٢)</sup> . ويبدو أن بعض الأرمن الذين طردهم بلدوين الثانى من الرها

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٨ هـ

(٢) ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٥٠٨ هـ « في هذه السنة توفى بعض كتود الفرنج ويعرف بكواسيل ، وهو صاحب مرعش وكيسوم ورعبان وغيرها ، =



سنة ١١١٣ نزعوا إلى كيسوم حيث حرضوا دغا باسيل على مخالفة السلاجقة ضد الصليبيين<sup>(١)</sup>.

بلمدوين الثاني دى بوج و التوسع على حساب الأرمن :

على أن الصليبيين اعتبروا ما قام به أمراء كيسوم الأرمن من تحالف مع السلاجقة ، خيانة كبرى في حق المسيحية ، فضلاهما في ذلك التحالف من تهديد صريح للإمارات الصليبية في شمال العراق والشام . لذلك لم يلبث بلدوين دى بوج أمير الرها أن خرج لحصار رعبان سنة ١١١٥ ، وعندئذ استنجد دغا باسيل بأحد حكام الأرمن في منطقة طوروس الجبلية . ولكن الأخير لم يهتم بأمر مساعدة دغا باسيل وانتهز فرصة مجيئه إليه وقبض عليه وسله لخصمه بلدوين دى بوج أمير الرها ؛ الذي لم يطلق سراح دغا باسيل إلا بعد أن أجبره على تسليم مدينتي كيسوم ورعبان سنة ١١١٦ ، في حين لجأ دغا باسيل نفسه إلى بلاط القسطنطينية<sup>(٢)</sup> .

ثم إن بلدوين دى بوج لم يكتف بذلك ، وإنما طمع في ضم بقية الإمارات الأرمينية المستقلة في أطراف العراق والشام . لذلك خرج بلدوين في العام التالي ومعه تابعه صاحب سروج لمهاجمة إمارة أخرى للأرمن ، هي البيرة ، وكانت بيد زعيم أرمني آخر هو أبو الغريب . والمعروف أن البيرة ذات موقع هام على مجرى الفرات في الطريق بين الرها وعينتاب . وعلى الرغم من أنها دانت بالطاعة لبلدوين الأول سنة ١٠٩٩ ، إلا أنه تركها تتمتع بكيانها كإمارة أرمينية

---

== فاستولت زوجته على المملكة وتمصنت من الفرنج وأحسنّت إلى الأجناد وراسلت آسنقر البرسقي وهو على الرها واستدعت منه بعض أصحابه لتطيعه .

(1) Runciman : op. cit; II, p. 129.

(2) Matthieu d'Edesse, p. p. 116-117.

صغيرة<sup>(١)</sup> . وقد استطاعت البيرة أن تقاوم حصار بلدوين دى بورج نحو سنة ، حتى سلمت له أخيراً سنة ١١١٧ ؛ وهنا يظهر المؤرخ الأرمني متى الرهاوى استيائه ، لأن أمير الرها وجه نشاطه ضد الأرمن المسيحيين بدلا من المسلمين ، واتهم ذلك الأمير بأنه لم يفرق بين السلاجقة المسلمين والأرمن المسيحيين<sup>(٢)</sup> . أما البيرة فقد ظلت بأيدي الصليبيين حتى سنة ١١٤٥

وأخيرا استولى بلدوين دى بورج على قلعة قورس شمالى حاب سنة ١١١٧ ، وبذلك يكون الأرمن فى أطراف العراق والشام قد لقوا على أيدي الصليبيين ما لم يلاقوه على أيدي المسلمين . ومهما يكن من أمر ، فإن بلدوين دى بورج لم يستمر بعد ذلك فى حكم الرها طويلا ليتابع سياسته ضد الأرمن ، إذ توج ملكا على بيت المقدس فى ١٤ أبريل سنة ١١١٨ بعد وفاة الملك بلدوين الأول ، واتخذ لقب الملك بلدوين الثانى . ولم يجد ملك بيت المقدس بلدوين الثانى أكفاً وأشجع من جوسلين دى كورتنای ليحل محله فى حكم الرها ، وينهض بمهمة الدفاع عن الجبهة الشمالية الشرقية للصليبيين . وهكذا عادت المياه إلى مجاريها بين الرجلين ، واتجه جوسلين إلى الرها ليتولى مهام منصبه الجديد<sup>(٣)</sup> .

---

(1) Setton : op. cit. p. 405.

(2) Matthieu d'Edesse, p. 117.

(3) Cam. Med. Hist. vol. 5. p. 301.

## الباب التاسع

### الصلبيون في أوج مجدهم

« فليضحكوا قليلا وليسكوا كثيراً

جزاء بما كانوا يعملون »

• [ التوبة : ٨٢ ]



## الفصل الأول

### حياة الصليبيين ونظمهم في الشام

#### البناء السياسي :

لم يقدر للصليبيين منذ دخولهم بلاد الشام سنة ١٠٩٧ حتى طردهم منها سنة ١٢٩١ أن يسيطروا على تلك البلاد بأجمعها ، وإنما احتلوا أجزاء متفرقة منها لا تربط بينها رابطة ، وتفصل بينها أراضى ومدن وبلاد إسلامية . ويمكن تشبيه دولة الصليبيين في أقصى اتساعها بشبه منحرف كبير امتد ضلعه في الشمال من أنطاكية غربا إلى الرها شرقا ، وضلعه الأيمن من الرها إلى أيلة على البحر الأحمر ، وضلعه الجنوبي من أيله إلى غزة ، وضلعه الغربى من غزة إلى أنطاكية . هذا مع ملاحظة مع مافى هذا التشبيه من تجاوز ملحوظ ، إذ امتلك الصليبيون أراضى ومدن عديدة خارج حدود تلك الرقعة ، وفي الوقت نفسه وجدت داخلها مدن كبرى ظلت محتفظة بوضعها الإسلامى دون أن يستطيع الصليبيون الاستيلاء عليها مطلقا ، مثل حلب وحمه ودمشق (١) .

وقد سبق أن رأينا كيف ظهرت النوايا والاطماع السياسية للأمرء المشتركين في الحملة الصليبية الأولى ، وذلك قبل وصولهم إلى بلاد الشام ذاتها ، الأمر الذى جعل من المتعذر قيام وحدة سياسية تضم شمل الصليبيين في الشرق الأدنى . وهكذا قامت إمارة الرها ، ثم إمارة أنطاكية ، ثم مملكة

(1) Thompson ; Economic and Social History of the Middle Ages, p. 396.

بيت المقدس ، وأخيراً إمارة طرابلس<sup>(١)</sup> . وعلى الرغم مما ادعاه كل واحد من أمراء تلك الوحدات الصليبية من استقلال وسيادة ، إلا أن مملكة بيت المقدس الصليبية تمتعت بأولوية ظاهرة ، وذلك بحكم أوضاعها الدينية والتاريخية . ويكفي أن المسيحيين جميعاً نظروا إليها على أنها مدينة المسيح وبها كنيسة القيامة ، مما جعلها مقصد الحجاج من جميع أنحاء العالم المسيحي<sup>(٢)</sup> .

والواقع إن الفضل في بناء مملكة بيت المقدس الصليبية التي قامت في أواخر القرن الحادى عشر ، إنما يرجع إلى الملوك الستة الأوائل الذين تعاقبوا على عرش تلك المملكة ، والذين حملوا أسماء بلدوين وفولك وعمورى . وقد رأينا كيف أن بلدوين الأول ملك بيت المقدس (١١٠٠ — ١١١٨) جمع من الصفات السياسة والحربية والخلقية والعقلية ، ما جعل منه حاكماً ناجحاً ، استطاع أن يرسى الدعائم الأولى التي قامت عليها مملكة الصليبيين في بيت المقدس . وقد شاء حسن حظ تلك المملكة أن يخلف بلدوين الأول مجموعة من الملوك عرفوا جميعاً بالمقدرة والكفاية والحرص على الصالح الصليبي العام بالشام ، وهم بلدوين الثانى ، وفولك الأنجوى ، وبلدوين الثالث ، وعمورى الأول ، وأخيراً بلدوين الرابع (١١٧٣ — ١١٨٥)<sup>(٣)</sup> . ومصدر نجاح هؤلاء الملوك جميعاً هو مقدرتهم على استغلال الظروف ، واختيار الرجال ، والإفادة من المنافسات والحزازات بين الترك والعرب ، وبين السنة والشيمة ، وبين حكام حلب وحكام دمشق . هذا فضلاً عما لجأ إليه بلدوين الثانى من مخالفة الباطنية ، وتمسكين تلك الفرقة الهدامة من إشاعة الفوضى في المجتمع الإسلامى بالشام ، وقتل جماعة من أعلام المجاهدين<sup>(٤)</sup> .

(1) Longnon : Les Francais d'Outremer au Moyen Age p. p. 108—109.

(2) Grousset : L'Empire du Levant, p. p. 197—199.

(3) Grousset : Hist des Croisades, III, p. XIV.

(4) Setton : op. cit; I, p. p. 110—120.

## نظم الحكم والادارة .

وقد طبق الصليبيون بالشام كثيراً من النظم الإقطاعية التي خبروها وعاشوا في ظلها في الغرب الأوربي قبل حضورهم إلى الشرق .

ففي مملكة بيت المقدس كان الملك على رأس الهرم الإقطاعي وتآلف أملاكه الخاصة (الدومين) من ثلاث مدن رئيسية هي بيت المقدس وعكا وناבלس ، ثم أضيف إليها الداروم بعد ذلك <sup>(١)</sup> . وكان يلي الملك أربعة من كبار الأمراء — أشبه بالذوقات في الغرب — هم أمراء يافا والجليل وصيدا وشرق الأردن — ؛ ولكل واحد من هؤلاء الأمراء الأربعة الكبار موظفوه وإدارته ، أشبه بالملك نفسه ، ولكن على مقياس أصغر . وبعد ذلك جاءت مجموعة الأمراء الذين حكموا بقية مدن المملكة ، وعددهم حوالي اثني عشر أميراً أهمهم أمير قيسارية وأمير تبنين <sup>(٢)</sup> وكان على كل فصل من أولئك الأمراء — الكبار والصغار — أن يعترف بالتبعية لسيده الإقطاعي ، ويقدم له الخدمة العسكرية والفرسان المحاربين ، وفقاً للقواعد والأصول الإقطاعية . هذا مع ملاحظة أن الخدمة العسكرية لم تكن محدودة في بلاد الشام بموسم معين أو أيام معدودة في السنة ، كما هو الحال في الغرب الأوربي ، وإنما تطلبت ظروف إقامة الصليبيين في الشام ، وما كان بينهم وبين المسلمين من حروب شبه مستمرة ، أن تكون الخدمة الحربية غير مشروطة إلا من ناحية عدد الفرسان الذين يقدمهم الفصل لسيده الإقطاعي في الحرب <sup>(٣)</sup> .

وكان إقطاع كل أمير وحدة متماسكة من الأرض — مدينة وأعمالها أو حصن

(1) Richard : Le Royaume Latin de Jerusalem, p. 71—72.

(2) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 302.

(٣) من ذلك أن أمراء يافا وصيدا والجليل كان على كل منهم أن يقدم للملك مائة فارس كاملي العدة في وقت الحرب ، في حين كان على أمير شرق الأردن تقديم ستين فارساً فقط .

أو عدة قرى متلاصقة مثلاً — إلا في حالة أراضى الكنيسة التى آلت إليها عن طريق الإحسان ، أو أراضى هيئات الفرسان — وبخاصة الاستبارية والداوية — التى آلت إليهم عن طريق الفتح والغزو ، فكانت متناثرة فى مختلف أنحاء الشام . أما الموارد المالية التى عاش عليها الملك والأمراء فكانت عديدة ، منها ما يتحصل من السلب والنهب عن طريق الإغارة على القرى والضياع والقوافل الإسلامية ، ومنها ما يتحصل من الحقول والمزارع التابعة للصليبيين والمحيطة بهم ؛ وأهمها الضرائب العديدة التى فرضت على الصادرات والواردات والمبيعات والمشتريات ، فضلاً عن الحجاج والموانئ والسفن (١) .

أما عن دستور مملكة بيت المقدس فأول ما نلاحظه عليه أنه لم يكن ثابتاً على حال واحد ، وإنما تعرض لكثير من التغيير والتبديل حسب الظروف . ويبدو مما كتبه المتأخرون أن ملك بيت المقدس — على الرغم مما تحقق له من سيادة على أمراء أنطاكية والرها وطرابلس — إلا أنه كان محدود السلطان فى مدينته أمام سطوة الدين ورجال الدين ، إذ لا ينبغى للملك أن يرفع رأسه فى مدينة المسيح . وامل هذا هو السبب الذى جعل أمراء الحملة الصليبية الأولى — واحداً بعد آخر — يرفضون شرف تولى حكم مدينة بيت المقدس بعد أن فتحها الصليبيون سنة ١٠٩٩ ، حتى إذا ما قبل جودفرى ذلك المنصب بعد ضغط شديد ، اشترط عدم تنويجه ملكاً ، اعتقاداً منه بأنه لا يجوز أن يقوم ملك فى مدينة المسيح (٢) .

وبينما كان أمراء أنطاكية وطرابلس يتوارثون منصب الإمارة وفقاً للقانون الإقطاعى المعروف فى الغرب ، إذا بالملكى فى بيت المقدس تظل

(1) Runciman : op. cit, II, p. 298

(2) Cam Med. Hist, vol. 5. p. 300



انتخابية من ناحية المبدأ ، وإن كان أمراء المملكة قد أخذوا بعد ذلك بالمبدأ الوراثي ، كما حدث عند تولية بلدوين الرابع ملكا سنة ١١٧٤ وهو في الثالثة عشر من عمره بعد وفاة أبيه<sup>(١)</sup> . ومهما تعددت سلطات الملك ، فإنه كان مقيدا في كثير من المسائل برأي أمراة فضلا عن رأي المحكمة العليا ؛ فكان مثلا لا يستطيع أن يعزل أميراً من إقطاعه إلا بموافقة تلك المحكمة .

وكانت تلك المحكمة العليا في أساسها هيئة قضائية ، ولكن لم يلبث أن اتسع اختصاصها فأصبحت بمثابة هيئة تشريعية لا بد من موافقتها على أي قانون أو تشريع جديد في المملكة ، فضلا عن الفصل فيما ينشأ بين الأمراء بعضهم وبعض من خلافات ومنازعات ، أو ما يرتكبه من مخالفات وجرائم<sup>(٢)</sup> . وفوق هذا وذلك ، فقد كان لتلك المحكمة رأي مسموع في توجيه السياسة العامة للمملكة ، لأن المحكمة العليا تألفت من أفصال الملك المباشرين — وهم كبار الأمراء — فضلا عن أنها ضمت ممثلين للكنيسة من كبار رجالها ، وممثلين للجاليات الأجنبية التي امتاكت أراضي ومدن في المملكة — مثل البنادقة والجنوية والبيازنة — وممثلين لهيئات الفرسان ، مثل الإسبتارية والداوية . ومن الواضح أن ملك بيت المقدس كان لا يستطيع أن يتخذ قراراً سياسياً خطيراً دون الرجوع إلى رأي جميع الفئات السابقة<sup>(٣)</sup> .

وبالإضافة إلى المحكمة العليا التي اختصت بالتشريع والسياسة العليا للمملكة ، والمنازعات والمخالفات بين النبلاء بعضهم وبعض ، وجدت محاكم أخرى في مملكة بيت المقدس تعددت اختصاصاتها وتنوع نشاطها . من هذه المحاكم مثل تلك

(1) Roussel : Hist. des Croisades, II, p. 609

(2) Longnon · op. cit. p. 137.

(3) Runciman : op. cit; II. P. P. 300 - 301

التي أطلق عليها اسم المحاكم البورجوازية Cours des bourgeois ، وهي خاصة بالفرنجة من غير النبلاء - أي عامة الفرنجة من البورجوازيين - وتفصل فيما يجرى بينهم من معاملات مالية ومدنية فضلاً عما صار لها من نفوذ في القضايا الجنائية<sup>(١)</sup> . وقد قامت هذه المحاكم البورجوازية في كل مدينة من المدن الصليبية الكبرى ، وتولى رأسها فيكونت المدينة يساعده إثناعشر محلفاً يختارهم الأمير الذي تتبعه المدينة . أما المدن الإيطالية أو التي كان للتجار الإيطاليين أحياء بها ، فقد ظهر بها نوع آخر من المحاكم ذات الطابع التجاري : النوع الأول هو محاكم المدن Cours de la foire وقد قامت في المدن ذات النشاط التجاري ، والنوع الثاني محاكم الموانئ والسفن Cours de la chaine وقد قامت في الموانئ البحرية ، ويتولى رأسها جميعاً القناصل أو وكلاؤهم<sup>(٢)</sup> .

هذا عن المحاكم ، أما الجهاز الإداري في المملكة فكان يشرف عليه مجموعة من كبار الموظفين ، أولهم القهرمان Seneschal وكان يشرف على الاحتفالات الكبرى وعلى الشؤون المالية والخزانة ؛ ويأتي بعده كند اسطبل المملكة Constable وهو قائد الجيش تحت رآسة الملك العليا ، ويشرف على كل ما يتعلق بتنظيماته وإمداداته ، ويساعده المارشال . وبعد ذلك يأتي الياور Chamberlian ويشرف على القصر الملكي وعلى مالية الملك الخاصة . وهكذا تعدد الموظفون في مملكة بيت المقدس بتعدد الاختصاصات واتساع النشاط الإداري<sup>(٣)</sup> .

ومع أنه لم يصلنا الكثير عن النظم التي كانت سائدة في إمارة الرها ، إلا أنه بدراسة ما وصلنا من نظم إمارتي أنطاكية وطرابلس يمكننا القول بأن

(1) Grousset : L'Empire du Levant, p 283.

(٢) باركر : الحروب الصليبية ص ٧٨ — ٧٩ .

(3) Runciman : op. cit. II. p. p. 303 - 304.

الإمارات الصليبية شابهت مملكه بيت المقدس في نظمها القضائية والإدارية مع بعض الاختلافات المحلية البسيطة التي نتجت عن الظروف التي أحاطت بكل إمارة من ناحية والعناصر البشرية التي تألفت منها الإمارة من ناحية أخرى<sup>(١)</sup>. فإمارة الرها مثلاً أدى تطرفها في الشمال الشرقى ، وإحاطة الأرمن والأتراك بها ، وبعدها نسبياً عن التيار الصليبي العام في بلاد الشام ، إلى وقف تطورها الدستوري وإلى اعتماد أمرائها على نسبة كبيرة من الموظفين الأرمن الذين تأثروا بالنظم البيزنطية<sup>(٢)</sup>. وفي إمارة أنطاكية أيضاً نجد روح النورمان ونزعتهم الاستبدادية ورغبة أمرائها في كبت أية معارضة من جانب كبار النبلاء في الإمارة ، كما نجد التأثيرات البيزنطية تبدو في بعض النظم والتشريعات لاسيما تلك الخاصة بالضرائب<sup>(٣)</sup>.

وهكذا كان من المتعذر على الصليبيين أن يتجاهلوا في نظمهم بالشام آثار البيئة والظروف التي أحاطت بهم .

### الكنيسة والريبات الميريّة :

كان من الطبيعي أن يكون للكنيسة أهمية كبرى في مجتمع ادعى أنه قام على أساس الدين ، وزعم أنه يسعى لتحقيق أهداف دينية . ومهما تكن الأسباب التي دفعت البابوية إلى الدعوة للحروب الصليبية ، فالهم هو أن قيام البابوية فعلاً بتلك الدعوة جعل لها هيمنة عليا على الحركة الصليبية من أولها لآخرها ، وعلى الصليبيين جميعاً بالشام ، الكبير منهم والصغير<sup>(٤)</sup>.

(1) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 304.

(2) Longnon : op cit, p 137.

(3) Runciman : op. cit, II, 306-307.

(4) Grousset ; L'Empire du Levant, p. 295.

وإذا كان للملك بيت المقدس نفسه ثمة رئيس أو سيد ، فإن هذا الرئيس كان البابا في روما . وقد سبق أن أوضحنا كيف كان من المتوقع أن تقوم حكومة ثيوقراطية في بيت المقدس لولا وفاة أدهار المنسوى البابوي في الحملة الصليبية الأولى ، ثم سوء سيرة دايمبرت . هذا إلى أن البابوية رأت من صالحها عدم قيام حكومة دينية في بيت المقدس ، لأن ظهور أحد رجال الدين الأقوياء في مدينة المسيح معناه قيام بابوية جديدة في الشرق ، وفي تلك الحالة يستطيع البابا الجديد في بيت المقدس أن يطالب - بوصفه خليفة المسيح في مدينته - بالسيادة على بابا روما ، الذي لن ينفعه عندئذ أنه خليفة القديس بطرس في كنيسته . ولعل هذه المخاوف هي التي جعلت بابوات روما يؤيدون دايمبرت في خلافه مع ملك بيت المقدس ، ولا يشجعون بأي حال قيام حكومة ثيوقراطية في الأراضي المقدسة<sup>(١)</sup> .

ولعل أول ما يسترعي انتباهنا عن الكنيسة في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية هي أنها فازت بنصيب الأسد ، إذ أنها ربحت كثيراً ولم تفقد سوى القليل . فعند دخول الصليبيين إلى الشام طردوا رجال الدين الأرثوذكس ، واستحوذ أخوانهم الكاثوليك على كل شيء ليظهروا جشعاً كبيراً في امتلاك الأراضي والأموال ، عدا الهبات والهدايا التي انبالت عليهم<sup>(٢)</sup> . وهكذا تميزت الأديرة والكنائس التي أقامها الصليبيون بالشام بوفرة ثروتها واتساع أملاكها التي لم تقتصر على بلاد الشام ، بل امتدت إلى القارة الأوربية نفسها . ويكفي أن نعرف أن أحد تلك الأديرة - وهو دير جبل صهيون في بيت المقدس - امتلاك سنة ١١٧٨ حياً بأكمله في مدينة القدس ذاتها مع تمتعه بحق فتح بوابة في أسوار المدينة . وكانت لذلك الدير أيضاً ممتلكات وأراضي وبساتين وأسواق في عسقلان ويافا ونابلس وقيسارية وعكا وصور وأنطاكية وقيليقية ؛ بل إن

(1) Setton : op. cit; I, p. p. 379 - 383.

(2) Longnon : op. cit. p. 133.

بعض الخبيرين من حجاج بيت المقدس وهبوا ذلك الدير بعد عودتهم إلى أوروبا ضياعاً وأملاً كما فصارت له ممتلكات في صقلية وإيطاليا فضلاً عن فرنسا<sup>(١)</sup>. وهذا مثل واحد من أمثلة كثيرة يضيق المتناهي عن ذكرها، وإنما سقناه لناخذ فكرة عامة عن مدى ثروة الكنيسة ومؤسساتها في الشام على عصر الحرب الصليبية. ويبدو أن تلك الثروة الطائلة التي تمتعت بها المؤسسات الدينية، أثارت حقد النبلاء في بلاد الشام، لاسيما وأن ممتلكات الكنيسة معفاة من الضرائب، كما كان رجالها معفيين من الخدمة العسكرية، مما جعل النبلاء والفرسان يشعرون أن الكنيسة ورجالها يتضحخون على حسابهم ويجمعون الأموال والثروات، في الوقت الذي يتحملون هم المغارم وعبء الدفاع عن السكبان الصليبي بأجمعه في بلاد الشام.

أما عن التنظيم الكنسي في بلاد الشام، فيلاحظ أن الوضع جرى منذ القرن الرابع للميلاد على أن يكون بتلك البلاد كرسيان بطرقيان كبيران، أحدهما في بيت المقدس والآخر في أنطاكية؛ وقد استمر هذا الوضع سائداً في العصر الصليبي. أما بطرق بيت المقدس فقد ضعف مركزه أمام الملك بعد الفشل الذي منى به دايمرت. وعندما يخلو منصب بطرقيّة بيت المقدس، كان رجال البطرقيّة ينتخبون اثنين للمنصب، يختار الملك أحدهما. ويقع بطرق بيت المقدس خمسة من رؤساء الأساقفة في صور، وقيسارية، والناصرية، والكرك، وبصرى. ويقع هؤلاء تسعة أساقفة<sup>(٢)</sup>. أما بطرق أنطاكية، فكانت تتبعه كنائس أنطاكية وطرابلس والرها، بمعنى أنه كان يتبعه رؤساء أساقفة طرابلس وأنظر طوس وجبلّة والبارّة وطرس وسوس والمصيصة فضلاً عن الرها<sup>(٣)</sup>.

(1) Thompson : op. cit, p. 406.

(2) Richard : Le Royaume Latin, p. 98.

(3) Runciman : op cit; II p, p, 311-312.

وقد شهدت بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية عديداً من الهيئات الدينية ، أهم ما يعيننا منها هيئات الفرسان ، وبخاصة الاسبتارية والداوية . وقد أشرنا في موضع آخر إلى نشأة هاتين الهيئتين . ويهمننا في هذا المقام أن نؤكد نموها السريع في القرن الثاني عشر وازدياد أملاكهما عن طريق الهدايا والهبات والغزو والنهب ، حتى صارتا على درجة خطيرة من القوة والثروة واتساع النفوذ<sup>(١)</sup> . والواقع أن منظمتي الداوية والاسبتارية سدتا فراغاً ضخماً في حياة الصليبيين بالشام . فمن الناحية الروحية ، كان هناك كثيرون من الأتقياء الذين عز عليهم أن تحرمهم حياة الزهد والعبادة في ظل الكنيسة أو الدير من المشاركة في محاربة المسلمين ، وهؤلاء وجدوا ضالتهم في تلك المنظمات التي جمع أفرادها بين حياة المتعبد وحياة المحارب . ومن الناحية السياسية قام فرسان الاسبتارية والداوية بجهد ضخم في حماية الكيان الصليبي بالشام والزود عنه ، وفي محاربة المسلمين وغزو بلادهم ودفع هجماتهم ، في وقت قل عدد المحاربين الصليبيين بالشام نتيجة المرض والوفاة أو العودة إلى الغرب الأوربي<sup>(٢)</sup> . ويشهد تاريخ الحروب الصليبية بالشام على أن فرسان الداوية والاسبتارية كانوا أثبت فئات الصليبيين على القتال وأصلبهم عوداً وأكثرهم صبراً وشجاعة ، وأنه لولا ما قام به أولئك الفرسان من جهود حربية لانتهمى أجل الكيان الصليبي بالشام قبل نهاية القرن الثالث عشر بمدة طويلة<sup>(٣)</sup> .

ومن الواضح أن نشاط هيئات الفرسان بالشام في عصر الحروب الصليبية لم يقتصر على ما أسهموا به من جهد حربي ، وإنما قاموا أيضاً بجهد كبير في ميدان الخدمة الاجتماعية . من ذلك أن ملجأ الاسبتارية في بيت المقدس كان يتسع

(1) Grousset : L'Empire du Levant, p. p. 291-292.

(2) Cam. Med. Hist. vol.5, p. p. 305-306.

(2) Runciman : op. cit, II, p. 312.

لألف حاج ، فضلا عن المشفى الكبير المخصص لعلاج المرضى والعناية بهم<sup>(١)</sup> .  
وكان الاستثنائية والداوية يوزعون صدقات يومية، على فقراء الصليبيين والمعوزين  
منهم ، وبلغت هذه الصدقات درجة من السخاء أثارت انتباه الزوار والأغراب .  
وبالإضافة إلى كل ذلك قام أولئك الفرسان بحراسة طرق الحجاج من يافا وعكا  
إلى بيت المقدس ، وبذلوا في ذلك جهدا استحق شكر المعاصرين . أما عن نشاطهم  
المالى والمصرفى فقد بدأ بتقديم تسهيلات ائتمانية للحجاج الوافدين من الغرب ،  
ولم يتخذ هذا النشاط شكلا استغالياً إلا بعد ذلك فى أواخر العصر الصليبي ، مما  
أثار ضدهم سخط الكثيرين<sup>(٢)</sup> .

على أن هـ... ذه المزايا الضخمة التى حققتها هيئات الفرسان للصليبيين قابلها  
مثالب كثيرة ترتبت على وجودهم . ذلك أن هذه الهيئات كانت مستقلة تماما فى  
بلاد الشام عن كل نفوذ سياسى ، ولا تعترف بالتبعية إلا للبابا فى روما مباشرة ، مما  
جعل منها دولة داخل الدولة . وكثيراً ما نجد إحدى الهيئتين تتخذ لنفسها سياسة  
خاصة معينة فى مشكلة من المشاكل ، أو تعتمد صلحاً أو هدنة مع المسلمين دون أن  
ترتبط أو تتقيد بالسياسة العامة للدولة الصليبية . هذا إلى أنها... مثل الكنيسة -  
تمتعت بأموال واسعة ، فلم تمتلك ضياعاً وأراضى وأسواقاً ومراعى ومواشى  
فحسب ، بل امتلكت أيضاً كثيراً من المدن والحصون والقلاع ، وتعهدت  
بالدفاع عنها ضد المسلمين . ولا شك فى أن هذه الممتلكات جاءت على حساب  
بقية الفئات الصليبية بالشام<sup>(٣)</sup> .

(1) King : The Knights Hospitallers, p. p. 64-67.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا المصور الوسطى ج ١ ص ٢٨٢ - ٢٨٣

(3) Thompson . op. cit. p. 407.

## الحياة الاقتصادية

امتازت حياة الصليبيين في بلاد الشام بنشاط اقتصادى واسع ، وإن كان الصليبيون أنفسهم لم يسهموا في ذلك النشاط إلا بقسط ضئيل <sup>(١)</sup> . والمعروف أن معظم الأجزاء التي احتلها الصليبيون من الشام وأقاموا فيها مدة طويلة ، فقير مجذب ، حتى أنهم اضطروا عندما انكشفت رقعة بلادهم في المدن الساحلية إلى استيراد القمح من خارج بلاد الشام . ومع ذلك فإن سفوح الجبال والمروج هيأت لهم مراعي طيبة ، فضلا عن بساتين الفاكهة ومزارع الزيتون والخضروات التي أحاطت بالمدن . ومن الثابت أن الصليبيين شرعوا في تصدير بعض تلك الحاصلات مثل الزيتون والمواالح إلى الغرب . أما قصب السكر فتد عرف الصليبيون زراعته في الشام ، كما تعلموا استخراج السكر منه ، فأقاموا مصانع للسكر في عكا وصور وغيرهما من موانئ الشام ، ومنها صدروا السكر بكميات كبيرة إلى الغرب الأوربي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر <sup>(٢)</sup> . كذلك صدر الصليبيون بالشام الأقمشة والملابس الحريرية والتيلية والحمل إلى الغرب . واهتم اليهود في المدن الصليبية — وبخاصة في صور وأنطاكية — بإنتاج الزجاج وتصديره إلى غرب أوروبا ، وإن تعرضوا في هذه الصناعة لمنافسة شديدة من الزجاج المصدر من مصر .

وكان للملوك الصليبيين وأمرائهم دخل كبير من الرسوم التي فرضوها على تجارة المرور ، أى التجارة المارة ببلادهم من الشرق الأقصى إلى الغرب الأوربي ، عن طريق بغداد ودمشق وعكا وغيرها من الموانئ الصليبية . هذا فضلا عما فرضوه على البضائع الواردة إلى بلادهم والمصدرة منها إلى الغرب . ومن الواضح أن الجزء الأكبر من ذلك النشاط التجارى تركز في قبضة التجار الإيطاليين ، وبخاصة

(1) Longnon : op. cit, p. 141.

(2) Heyd : op cit, II, p. p. 680-686.



البنادقة والبيازنة والجنوية ، وهم الذين امتلكوا أحياء بأكملها في كثير من المدن الصليبية بالشام ، وأنشأوا فيها فنادق خاصة بتجارهم ، زدوها بكل ما يجعل الواحد منهم يشعر أنه يعيش في بلده الأصلي<sup>(١)</sup> .

وقد برزت عكا بالذات في النشاط التجاري للصليبيين ببلاد الشام ، وهو النشاط الذي بلغ ذروته في أواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر. فابن جبير قال عن عكا عندئذ إنها « قاعدة الإفرنج بالشام ومحط الجوارى المنشآت في البحر كالأعلام » وشبهها بالتسطنطينية في كونها مجتمع السفن « وماتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق »<sup>(٢)</sup> . ذلك أن عكا كانت الميناء لطبيعي لإقليم دمشق ، وإليها يتجه التجار الوافدون من اليمن وجنوب شبه الجزيرة العربية إلى الشام . وقد حكى ابن جبير أنه سافر من دمشق سنة ١١٨٤ « في قافلة كبيرة من التجار المسافرين بالسلع إلى عكا » ؛ وأشار إلى أن مثل هذه القوافل كانت كثيرة ، كما أظهردهشته لسهولة الإجراءات المتعلقة بالمكوس<sup>(٣)</sup> . هذه إلى أن الحجاج الوافدين من غرب أوروبا إلى الشام كانوا يفضلون عادة النزول بعكا بالذات ، ومنها يتجهون إلى بيت المقدس وغيرها من المراكز الصليبية في الداخل .

ومع ذلك فإن صغر ميناء عكا وعجزه في كثير من الحالات عن استقبال عدد كبير من السفن الكبيرة ، جعلها تتعرض لمنافسة شديدة من جانب ميناء صور ، فضلا عن الموانئ الأخرى في شمال الشام ، مثل اللاذقية والسويدية<sup>(٤)</sup> . وهنالك نلاحظ أن هذه الموانئ الصليبية لم تستقبل التجار المسلمين فحسب ، بل

(1) Richard : p. cit, I, p. 217-227.

(٢) رحلة ابن جبير ص ٢٧٦ ( طبعة بيروت ) .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٧١ .

(4) Grousset : L'Empire du Levant, p. p. 319-320.

استقبلت أيضاً في عصر الحرب الصليبية كثيراً من التجار المسلمين ، وبخاصة من المغاربة الذين أتوا عن طريق البحر ، وقاموا برحلات داخل الشام حتى دمشق يقصد المتاجرة<sup>(١)</sup> . وكان للتجار المسلمين خانات ينزلون بها في الموانئ الصليبية . وأخيراً ، فإننا نلاحظ على النشاط الاقتصادي في بلاد الشام على عصر

الحروب الصليبية عدة ملاحظات نوجزها فيما يلي : —

أولاً : أن السلع التجارية التي كانت محوراً للتجارة عندئذٍ معظمها يدخل تحت باب الكماليات ، مثل الأقمشة الشرقية الفاخرة والحجارة الثمينة والزجاج المزخرف والعاج والعطور وغيرها .

ثانياً : أن النقود المتداولة في بلاد الشام عندئذٍ تنوعت وتباينت تبايناً شديداً ، لا يقل عن تنوع العناصر والأجناس التي اجتمعت في تلك البلاد . فبالإضافة إلى العملات الغربية التي أحضرها معهم التجار والحجاج الوافدون من غرب أوروبا ، ظلت النقود العربية الإسلامية والنقود البيزنطية متداولة أيضاً في بلاد الشام طوال العصر الصليبي<sup>(٢)</sup> .

ثالثاً : أن ملوك بيت المقدس لم يستفيدوا كثيراً من ذلك النشاط الاقتصادي المحيط بهم في بلاد الشام . حقيقة إنهم فرضوا كثيراً من الضرائب على الصادرات والواردات ، وعلى القوافل المارة بأراضيهم ، فضلاً عن الاحتكارات التي حاكي فيها ملوك بيت المقدس النظم البيزنطية<sup>(٣)</sup> . ولـكن أولئك الملوك دأبوا دائماً

(١) رحلة ابن جبير ص ٢٧٤ .

وقد أظهر ابن جبير دهشته من أن التبادل التجاري يتم بين المسلمين والصليبيين رغم ما بينهما من حروب ، وأن القوافل تنقل بين أراضي الطرفين في سهولة ، فقال : « ومن أعجب ما يحدث في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الفرنج وسببهم يدخل إلى بلاد المسلمين » .

انظر رحلة ابن جبير ص ٢٨٠ ( طبعة بيروت ) .

(2) Thompson : op. cit, p. p. 404-405.

(3) Longnon : op. cit, p. 140.

على توزيع تلك الموارد على الكنيسة وهيئات الفرسان ، فكان ريع الضريبة الفلانية يخصص لمساعدة الاستبارية ، وريع المكس الفلاني يخصص للدواية ، ودخل ميناء كذا يخصص للكنيسة الفلانية أو الدير الفلاني . . . . مما حرم الملكية نفسها من ثروة طائلة . هذا وإن ظل ملوك بيت المقدس أوفر ثروة وأحسن حالاً بكثير من بعض ملوك الغرب الأوربي في ذلك الوقت<sup>(١)</sup> .

### الحياة الاجتماعية :

لعل الخلل الاجتماعي وعدم وجود انسجام بين الطبقات المختلفة التي تألفت منها المجتمع الصليبي في الشام ، كان من العوامل الرئيسية التي أدت إلى ما لحق بالصليبيين من فشل في نهاية الأمر . ذلك أن الصليبيين الغربيين الذين عاشوا في بلاد الشام ، ظلوا دائماً قلة قليلة ، بعد أن عادت نسبة كبيرة ممن شاركوا في الحملة الصليبية الأولى إلى بلادهم بعد فتح بيت المقدس ، في حين تألفت الغالبية العظمى من سكان دولة الصليبيين بالشام من المسيحيين الشرقيين على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم . وإذا كانت الأقلية الغربية قد استطاعت أن تحتفظ بنفوذها السياسي في بلاد الشام ، وتجعل من نفسها أرستقراطية حاكمة ، فإنها لم تستطع مطلقاً أن تحتفظ بعاداتها وتقاليدها وأصولها الغربية سليمة نقية ، وإنما اضطرت بحكم قلة عددها وسط محيط شرقي واسع أن تفقد كثيراً من صفاتها الأصلية وتكتسب الكثير من التعديلات الجديدة<sup>(٢)</sup> .

ونستطيع أن نحدد الطبقات التي تألفت منها مجتمع دولة الصليبيين بالشام على عصر الحروب الصليبية بما يأتي —

(1) Thompson : op. cit, I, p. 406.

(2) Richard : op cit, p. 122.

(١) الأرسقراطية الحاكمة من النبلاء والفرسان ، وهؤلاء كانوا قلة إذ لم يزد عددهم في مملكة بيت المقدس عن ألف من الرجال ومثلهم من النساء والأطفال ، ومثل ذلك العدد أيضاً في إمارات الرها وأنطاكية وطرابلس مجتمعين. وقد ظلت الطبقة التي كان مفروضاً أن تظل بمثابة العمود الفقري للمجتمع الصليبي بالشام — تعاني نقصاً كبيراً في العدد بسبب كثرة الضحايا في الحرب، وقلة الوارد من الغرب<sup>(١)</sup>. حقيقة إن جموع الحجاج لم ينقطع وصولهم إلى الشام منذ سقوط بيت المقدس، ولكن قليل من هؤلاء اختاروا الإقامة في الشام بعد الحج، وكانت الغالبية العظمى منهم تؤثر العودة إلى غرب أوروبا. ثم إنه إذا كان الصليبيون قد انجذبوا كثيراً من الأطفال في الشام ، فإنه لم يعش من تلك الذرية سوى نسبة ضئيلة بسبب العوامل الجوية والصحية التي لم يألفوها. وأخيراً فإنه يلاحظ إنه إذا كانت هذه الأرسقراطية الصليبية الحاكمة قد ظلت تقيّة في مملكة بيت المقدس ، فإن الأمر في أنطاكية والرها لم يظل كذلك ، إذ تزوج بعض نبلاء الصليبيين وفرسانهم من الأرسقراطية المحلية ، وبخاصة من عنصر الأرمن<sup>(٢)</sup>.

(٢) طبقة عامة المحاربين من الصامبيين ؛ وهؤلاء عبارة عن عامة الصامبيين الذين لم ينتموا إلى الفرسان والنبلاء ، والذين شاركوا في الحركة الصليبية. وكان هؤلاء العامة من الصامبيين الغربيين يؤلفون فرق المشاة في الجيش الصليبي ، واضطروا بعد استقرارهم بالشام إلى التزاوج مع المسيحيين الشرقيين المحليين — وبخاصة الأرمن — ؛ مما أدى قرب منتصف القرن الثاني عشر إلى ظهور طبقة جديدة هي :

---

(1) Longnon : op. cit, p. p. 153 - 155.

(٢) وخير مثل لذلك ما سبق أن أشرنا إليه من زواج أمراء الرها — بلدوين الأول وجوسلين — من أرمنيات .

(٣) طبقة الأفراخ pullani ؛ وهؤلاء نتاج التزاوج بين الصليبيين الغربيين والمسيحيين الشرقيين المحليين ، من أرمن وسريان وغيرهم . ومن الواضح أنه مع مرور الوقت حلت هذه الطبقة الجديدة محل الطبقة السابقة ، وقامت بدورها في خدمة المجتمع الصليبي بالشام<sup>(١)</sup> .

(٤) طبقة المسيحيين المحليين من أرمن وموارنة وبيزنطيين وسريان ويعاقبة وأقباط وغيرهم . وقد احتقر الصليبيون الغربيون هؤلاء المسيحيين الشرقيين عموماً ، وأحسوا نحوهم بالكراهية نتيجة للخلافات المذهبية . ولعله من الواضح أن فئة البيزنطيين أو اليونانيين كانوا أبعث فئات المسيحيين الشرقيين إلى الصليبيين ، بسبب التخوف دائماً من تأمرهم مع الإمبراطورية البيزنطية ضد مصالح الصليبيين . ومع ذلك فإن الصليبيين لم يطردوهم أو يقضوا عليهم — كما فعلوا مع اليهود — وإنما استبقوهم لمهارتهم اليدوية وقيامهم بالخدمات والأعمال الحثيرة ، التي أنف الصليبيون الغربيون من القيام بها . أما الأرمن فقد كانوا أحسن حالا ، وشجعهم ملوك بيت المقدس على الهجرة إلى أراضي المملكة ومدنها لتعميرها بعد أن هجرتها نسبة كبيرة من سكانها المسلمين . كذلك نسمع عن تولى الأرمن بعض الوظائف الهامة في الدويلات الصليبية بالشام ، فضلاً عما كان هناك من تزاوج بينهم وبين الصليبيين الغربيين<sup>(٢)</sup> .

(٥) التجار الإيطاليون ، وهؤلاء تركزوا في المدن الصليبية وبخاصة الموانئ الساحلية ، مثل يافا وعكا وقيسارية وأرسوف وصور وبيروت وطرابلس وجبيل واللاذقية والسويدية . وقد ظل هؤلاء التجار يكوّنون طبقة مستقلة قائمة بذاتها ،

(1) Grousset : L'Empire du Levant, p. p. 315 - 316.

(2) Thompson : op. cit, pp. 398 - 399.

يتكلمون الإيطالية ، ولا يختلطون بغيرهم إلا في نطاق المعاملات المالية والتجارية. ويشبه التجار الإيطاليين في وضعهم تجار مرسلين في عكا ويافا وصور وجبيل ، وتجار برشلونة في صور (١) .

(٦) المسلمون : وهم أهل البلاد الأصليين ، وسكان المدن والبلاد التي احتلها الصليبيون . ومع أن بعض تلك المدن هجرها أهلها من المسلمين عقب الغزو الصليبي ، إلا أنه لا يخفى علينا أن نسبة كبيرة من المسلمين ظلت قائمة وسط المجتمع الصليبي وتؤثر فيه (٢) . ومن أهم الجاليات الإسلامية التي ظلت باقية رغم احتلال الصليبيين لبلادها ، الجالية التي سكنت المنطقة الممتدة من بانياس إلى عكا ، والجالية القائمة في حوض نهر العاصي وسهل البقاع . يضاف إلى هؤلاء قبائل البدو الرحل الذين ظلوا يفتقون خلف المرعى من مكان إلى آخر ، معهم قطعانهم من المواشي ، وينتهبون أية فرصة مناسبة للانتقاض على قوافل الصليبيين وممتلكاتهم (٣) .

(٧) الرقيق والأقنان : كان لا يمكن للصليبيين بالشام أن يستغنوا عن الرقيق والأقنان ، بعد أن اعتادوا في الغرب وجود تلك الطبقة ليعمل أفرادها في فلاحه الأرض وغيرها من الأعمال الشاقة . وكانت الغالبية العظمى من الرقيق في الشام — على عصر الحروب الصليبية — من الأقنان . وإذا كانت أوضاع العبيد والأقنان قد أخذت تتحسن في القرن الثاني عشر في الغرب الأوربي ، وأصبح في استطاعة كثيرين منهم أن يتحرروا ويمارسوا حقوقهم المشروعة في الحياة (٤) ، فإن الوضع لم يكن كذلك ببلاد الشام . ذلك أن العبيد والأقنان

(1) Runciman : op. cit, II. p- 294.

(2) Richard : Le Royaume Latin. p. p. 123-124.

(3) Thompson : op. cit, p. 398.

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا في العصور الوسطى ج ٢ ص ٨٨ .

قاسوا الكثير من العنت بسبب تعسف الصليبيين وجورهم في بلاد الشام، مما جعلهم يترحمون على أيام الحكم الإسلامي<sup>(١)</sup>. وتنص قوانين مملكة بيت المقدس الصليبية على أن « العبيد والفلاحين والأسرى كالمواشي يخضعون لقانور البيع والشراء، وأن للسيد أن يفعل ما شاء بعبده ! »<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

هذا عن البناء الاجتماعي لدولة الصليبيين بالشام، ومنه يتضح أن ذلك البناء تألف من طبقات متباينة معظمها غير متألف مع بعضه البعض، مما عاد بأوخم العواقب على الصليبيين. وكانت اللغة السائدة بين الصليبيين بوجه عام فرنسية الأصل وإن اختلفت لهجاتها، فاستخدم الصليبيون في أنطاكية ومملكة بيت المقدس اللهجة الشمالية من اللغة الفرنسية ( Langue d'oeil )، واستخدم الصليبيون في إمارة طرابلس اللهجة الجنوبية من الفرنسية ( Langue d'oc ) أما الأقليات الأخرى التي وجدت داخل المجتمع الصليبي، فاستخدم كل منها لغته الخاصة. ويشهد عصر الحروب الصليبية بالذات على انسياب بعض الألفاظ العربية في اللغات الأوروبية، وهي ألفاظ اضطر الصليبيون إلى استخدامها بحكم البيئة<sup>(٣)</sup>.

أما العادات والتقاليد، فإن تناقص أعداد الصليبيين الأصليين في بلاد الشام جعل من المتعذر عليهم الاحتفاظ طويلاً بعاداتهم وتقاليدهم، الغربية<sup>(٤)</sup>. ويروى لنا أسامة بن ممتد كثيراً من غرائب أخلاق الصليبيين وعاداتهم وتقاليدهم، وفي الوقت نفسه يحكي لنا كثيراً من القصص الطريفة التي تشهد على مدى تأثير الصليبيين

(1) Thompson : op. cit, I, p, 398.

(2) Besant, Palmer : Jerusalem. p. 226.

(3) Longnon : op. cit; p. p. 155\_156.

(4) Runciman : op. cit, II, p. 291.

بالبيئة الشرقية ومحاكلتهم العرب في كثير من عاداتهم<sup>(١)</sup> .

ولم يختلف نظام الأسرة وأوضاعها عند الصليبيين في الشام عما كان عليه الوضع السائد في الغرب الأوروبي في العصور الوسطى . وكل ما هنالك هو أن طبيعة الحرب الطويلة، ووجود عدد كبير من شباب الغرب الأعزاب الذين طال بعدهم عن بلادهم ،أدى أحياناً إلى شيء من الانحلال الخلقى بين الصليبيين بالشام . وقد ذكر أسامة بن منقذ بضعة ملاحظات على الصليبيين في هذا الشأن فقال : أنه « ليس عندهم شيء من النخوة والغيرة » ، وقال إن الرجل منهم يمشى هو وامرأة عندما يلقاه صديق له فيأخذ المرأة ويعتزل بها ، ويتحدث معها ، والزوج منتحياً بعيداً ينتظر فراغهما من الحديث « فإذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى !! »<sup>(٢)</sup> .

كذلك يبدو أن الأوضاع التي عاش فيها الصليبيون في الشام أدت إلى ظهور عدة أمراض خلقية ، حتى انحرف بعضهم نحو الشذوذ الجنسي<sup>(٣)</sup> ، الأمر الذي جعلهم يلجأون إلى فكرة جلب نساء من غرب أوروبا وجزائر البحر المتوسط للترفيه عن الجنود المحاربين . من ذلك ما يرويهِ عماد الدين الكاتب والمؤرخ أبو شامة من أنه حدث أثناء حصار الصليبيين لعكا سنة ١١٨٩ أن « وصلت في مركب ثلثمائة امرأة فرنجية مستحسنة اجتمعن من الجزائر (جزر البحر) وانتدبن للجزائر ، واغتربن لإسعاف الغراء ، وقصدن بخروجهن

(١) انظر ما كتبه أسامة بن منقذ عن « طبائع الإفونج وأخلاقهم » .

(٢) كتاب الاعتبار ص ١٣٢ - ١٤١ .

(٣) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١٣٥ .

(٣) المرجع السابق ص ١٣٦ .



تسبيل أنفسهم للاسقياء ، وأنهن لا يمتنعن عن العزبان ، ورأين أنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القربان ، وزعمن أن هذه قربة ما فوقها قربة ، لاسيما فيمن اجتمعت فيه غربة وعزبة . . . » (١).

---

(١) عماد الدين السكاتب : الفتح القسوى ١٨٤ م .  
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٤٩ .

## الفصل الثاني

### بلدوين الثاني ملك بيت المقدس

#### ميشطة الوراثة في مملكة بيت المقدس :

لم يترك بلدوين الأول ملك بيت المقدس ولداً يرثه في الملك ، ولم يعمل حساباً لموت فيوصى في حياته بتعيين شخص معين يتولى عرش المملكة من بعده ، ليتفادى ما حدث في أنطاكية بعد وفاة تنكرد . لذلك اجتمع أمراء المملكة ومعهم البطارق أرنولف مالكورن في اليوم التالي لبحث مشكلة مل العرش<sup>(١)</sup> .

وفي المؤتمر الذي عقده الصليبيون لبحث مشكلة عرش بيت المقدس ، أجمه الرأي أولاً نحو استدعاء الأخ الثالث لجودفري بوايون وبلدوين بوايون ، وهو الأمير ايستاش البولوني<sup>(٢)</sup> . ولكن البعض اعترض هل ذلك الرأي ، وناذى المعارضون بأن أحوال المملكة تتطلب عدم انتظار وصول ذلك الأمير من فرنسا ، فضلاً عن أن المصلحة العامة قضت بأن يكون خليفه بلدوين الأول من الأمراء الذين عاشوا في الوسط الصليبي بالشرق وأحسوا بإحساسات الصليبيين وخبروا حرب المسلمين . وهنا انبرى جوسلين دى كورتنای ينادى بأن هذه الشروط كلها متوافرة في الأمير بلدوين دى بورج أمير الرها ، فضلاً عن أنه ابن عم الملك الراحل ، والوحيد الذى ما زال على قيد الحياة من كبار الأمراء الذين شاركوا في توجيه الحملة الصليبية الأولى<sup>(٣)</sup> .

(1) Guillaume de Tyr, p. p. 513-516.

(2) Ibid.

(3) Runciman. op. cit. II, p. p. 143-144.

وكان من المستغرب حقاً أن يأتي ذلك الترشيح من جوسلين دي كورتناى بالذات ، وهو الذى طرده بلدوين دي بورج من تل باشر . ولعل جوسلين رأى فى ذلك فرصة طيبة لاسترضاء بلدوين دي بورج وإزالة ما فى نفسه من رواسب الماضى<sup>(١)</sup> . ثم إن جوسلين دي كورتناى ، صار عندئذ أبرز أمراء مملكة بيت المقدس بوصفه أمير الجليل وطبرية ، فوجد رأيه أذناً صاغية من بقية زعماء الصليبيين ، وبخاصة البطرقي أرنولف . وشاءت الصدفة العجيبة أن يكون بلدوين دي بورج فى تلك الأثناء فى طريقه إلى بيت المقدس للزيارة والحج ، فتم تتويجه ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية فى كنيسة القيامة يوم ١٤ أبريل سنة ١١١٨<sup>(٢)</sup> .

ولم يعيش أرنولف مالكورن بطارق بيت المقدس طويلاً بعد تتويج بلدوين الثانى ملكاً ، فخل محله البطرقي جرموند Germond . أما جوسلين دي كورتناى فقد كافأه بلدوين الثانى على موقفه ووفائه بإعطائه إمارة الرها ، على أن يكون تابعاً له فى حكم الإمارة<sup>(٣)</sup> .

وكان أن أخذ بلدوين الثانى يعمل بسرعة فى تثبيت سلطانه ، لا داخل مملكة بيت المقدس فحسب ، بل فى مختلف الإمارات الصليبية ببلاد الشام وشمال العراق . وقد أتت أول عقبة واجهت الملك الجديد من جانب بونز أمير طرابلس ، الذى رفض سنة ١١٢٢ أن يقدم الولاء ويعترف بالتبعية الإقطاعية لبلدوين الثانى ملك بيت المقدس . ولكن بلدوين الثانى اتخذ موقفاً حازماً سريعاً ، لاسيما وأن أراتقة حلب غزوا إمارة أنطاكية — التى كانت عندئذ تحت وصاية بلدوين الثانى — فى الوقت نفسه الذى أعلن بونز عصيانه<sup>(٤)</sup> . وبذلك تمكن بلدوين الثانى من

(1) Michaud : Hist des Croisades II, p p. 56—57.

(2) Guillaume de Tyr, I, p. 519.

(3) Stevenson : op. cit, p. 106.

(4) Foucher de Chartres, p. p. 515—516.

إخضاع أمير طرابلس في سرعة ليمتفرغ للأرانة ويردهم عن إمارة أنطاكية ،  
كاسيلي .

ثم إن بلدوين الثاني حرص في تلك الأثناء على إنعاش الأحوال الاقتصادية  
في مملكته ، فأصدر قراراً سنة ١١٢٠ بإعطاء جميع الغريبيين — من التجار  
والحجاج والزوار الحرية في نقل البضائع من المملكة وإليها ، كما سمح لجميع  
المسيحيين الشرقيين — من السريان والأرثوذكس والأرمن — بدخول بيت  
المقدس والمتاجرة فيها<sup>(١)</sup> .

#### الفرسان الاستبارية والداوية :

وفي عهد بلدوين الثاني بدأ نشاط هيئات الفرسان يستمرى الانتباه في  
الحروب الصليبية ، بعد أن تكونت هيئة الفرسان الداوية ، في حين تحولت  
الاستبارية من هيئة للعناية بمرضى الصليبيين وعلاجهم إلى منظمة عسكرية .  
والواقع إن الهدف الأساسي من قيام هيئات الفرسان — وبخاصة الاستبارية  
والداوية — بالشام على عصر الحروب الصليبية ، إنما كان العناية بمرضى الصليبيين  
ورعايتهم . ولكن هذا الهدف لم يلبث أن تحول بعد قليل ، فاتخذت تلك الهيئات  
طابعاً حربياً ، وصار عليها أن تدافع عن ممتلكات الصليبيين بالشام ، وتحمى  
أماكنهم المقدسة وتحارب المسلمين ، حتى جاء وقت أصبح فيه الداوية والاستبارية  
هم حماة السكيا الصليبي بالشام<sup>(٢)</sup> . وساعدت تلك الهيئات على ذلك ما جمعه من  
نروة طائلة ، وما استولوا عليه من ممتلكات عديدة ، حتى صارت لهم مدن  
وحصون ومعقل بأكراها ، يمتلكونها ويزودون عنها .

(1) Guillaume de Tyr, I, p. p. 534—535.

(2) King: The Knights Hospitaliers in the Holy Land, p.I.

وثمة رأى يقول إن جذور هيئة الاستبارية ترجع إلى ما قبل قيام الحروب الصليبية ، عندما أسس بعض تجار مدينة أمالفي سنة ١٠٧٠ جمعية خيرية في بيارستان قرب كنيسة القيامة في بيت المقدس ، للعناية بفقراء الحجاج ، ومن ثم أطلق عليهم اسم فرسان المستشفى Hospitallers التي حرفت بالعربية إلى استبارية<sup>(١)</sup> . ولم يلبث أولئك الاستبارية أن دخلوا تحت لواء النظام الديرى البندكتى المعروف في غرب أوروبا ، وصاروا يقعون البابا في روما تبعية مباشرة . وعند وصول الصليبيين إلى بيت المقدس وحصارهم لها ، قام أولئك الاستبارية — بحكم درايتهم بأحوال البلاد — بتقديم مساعدات قيمة للصليبيين<sup>(٢)</sup> . ومنذ ذلك الوقت أخذت هيئة الاستبارية تتبلور ويصبح لها كيان ثابت مستقل ونظام خاص بها . وقد تعاقب في رآسة تلك الهيئة بعض الرؤساء المصلحين الذين عملوا دائماً على إكساب منظماتهم أهمية خاصة في النشاط الصليبي<sup>(٣)</sup> . وساعد الاستبارية على ذلك حصولهم على كثير من الأراضى والإعانات ، فضلاً عن أن كثيران كنائس بيت المقدس خصصت عشر دخلها لمساعدة الاستبارية على النهوض برسالتهم . وهكذا لم تجل سنة ١١٣٧ إلا وكان للاستبارية دور فعال في محاربة المسلمين<sup>(٤)</sup> .

أما هيئة الداوية فقد نشأت من أول الأمر على أساس عسكري حربى . ويرجع تأسيس تلك الهيئة إلى سنة ١١١٨ عندما وضع أساسها فارس فرنسى اسمه هيو دى باينز Hugue de Payens . وقد اختار ذلك الفارس جزءاً من هيكل سليمان في المسجد الأقصى ببيت المقدس ليكون مقراً لمنظمتة الجديدة ،

(1) Delaville Le Roulx : Les Hospitaliers en Terre Saint te en Chypre, p. 29.

(2) Guillaume de Tyr p. p. 822-823.

(3) King: op. cit, p. p. 19-23.

(4) Runciman: op. cit, II, p. 157.

ومن ثم أطلق على أتباعه اسم فرسان المعبد Templars ، التي حرفت في العربية إلى الداوية<sup>(١)</sup> . ولم تلبث هذه الهيئة الجديدة أن تبلورت هي الأخرى ، واتخذت طابعها الخاص ، فذهب رئيسها هييو إلى فرنسا وانجلترا لحث الفرسان على الانضمام لهيئته ، حتى أصبحت هيئة الداوية تضم نخبة ممتازة من الفرسان والنبلاء الذين جمعوا في الأراضى المقدسة بين الحياة الدينية والحياة العسكرية . وكان أول عمل تعهد الداوية بالقيام به هو حماية الطريق بين بيت المقدس وشاطئ البحر ، ثم لم يلبثوا أن أسهموا في كل همل حربي آخر قام به الصليبيون في بلاد الشام<sup>(٢)</sup> .

ولاشك في أن تأسيس هيئة الداوية من جهة ، وتحول الاستتارية إلى هيئة عسكرية من جهة أخرى ، قد هيا لملكة بيت المقدس قوة حربية دائمة ساعدتها في تحقيق كثير من أغراضها . وقد حظيت تلك الهيئات بعطف الملك بلدوين الثانى ومساعدته ، مع أنها ظلت مستقلة عن سلطانه وتتبع البابوية ، لا تدين لغيرها بالولاء<sup>(٣)</sup> . على أننا نلاحظ أنه إذا كانت تلك الهيئات قد استطاعت أن تقوم بدورها كاملا في أول الأمر ، فإنها لم تلبث أن تحولت عن مبادئها وأغراضها عندما ازدادت امتيازاتها وكثرت ثروتها وأخذت تتدخل فيما لا يعينها . هذا إلى أنها أصبحت كنيسة داخل الكنيسة ، ولم يحجم رؤساؤها عن الدخول في منازعات مع بطرق القسطنطينية نفسه<sup>(٤)</sup> .

### الخصائف بين دمشق والقاهرة :

وكان أخطر ما يهدد ملكة بيت المقدس الصليبية منذ قيامها ، هو نشأة

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 542.

(2) Guillaume de Tyr, p. 520-521.

(3) King op. cit, p. p. 31-32.

(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. p. 544-545.

تحالف بين القاهرة ودمشق ، مما يوقع تلك المملكة بين شقي الرحي ، لذلك حرص بلدوين الثاني على أن يسترضى طغتكين في دمشق ، وأرسل إليه عقب توليه عرش بيت المقدس يطلب تجديد الهدنة بين الطرفين ؛ ولكن طغتكين طلب ثمناً باهظاً لم يوافق عليه بلدوين الثاني « وأظهر القوة » . وكان رد طغتكين على ذلك بمهاجمة الصليبيين في الجليل وطبرية « فنهبها وما حولها » ، ثم اتجه إلى عسقلان (١) .

وفي ذلك الوقت كان الوزير الأفضل الفاطمي قد قام بمحاولة جديدة ضد الصليبيين ، فحشد جيوشه في عسقلان وأرسل أسطوله إلى صور . وقد تمت تلك المحاولة التي قام بها الأفضل الفاطمي لضرب الصليبيين بعد اتفاق مع طغتكين الذي حضر بنفسه إلى عسقلان لقيادة القوات المشتركة ، وعندئذ أخبره المقدم على الجيش الفاطمي أن لديه تعليمات « بالوقوف عند رأى طغتكين والتصرف على ما يحكم به » . وهكذا تمت المعجزة ، فتحالف الدماشقة السنوي مع الفاطميين الشيعة ضد الصليبيين ، مما أفنر بتهديد مملكة بيت المقدس تهديداً خطيراً (٢) .

ولم يسع الملك بلدوين الثاني في ذلك الموقف الخروج سوى الاستنجد بالصليبيين في أنطاكية وطرابلس ، ثم رابط الملك نفسه شمالي عسقلان حيث تجدد الموقف بين الصليبيين والمسلمين مدة شهرين أو ثلاثة أشهر ، عاد بعدها كل فريق من حيث أتى (٣) . واختار بلدوين الثاني ألا يترك تلك الأزمة تمر دون أن يثار من طغتكين ، فأغار على أذرعات ، واستولى على بعض المواقع شمالي عال وشرقي طبرية ، مثل حصن الحبس المعروف بحصن جلدك (٤) .

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥١٢ هـ .

(٢) Setton : op. cit., I, p p. 411—412.

(٣) Foucher de Chartres, p p. 617—619. & Guillaume de Tyr, p. p. 518—519.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٢ هـ .

وفي الوقت نفسه قام جوسلين دي كورتناي — الذي لم يكن قد سافر بعد إلى الرها — بالإغارة سنة ١١١٩ على قبائل العرب في منطقة طبرية ، مثل بني خالد وبني ربيعة « فكبس طايفة طى ويعرفون ببني خالد فأخذهم وأخذغنائهم ، وسألهم عن بقية قومهم وأخبروه أنهم بوادي السلالة » . وقد أمرع جوسلين على رأس خمسين فقط من فرسانه للحاق بذلك النفس من الأعراب في وادي السلالة لنهب قطعانهم . ولكن جوسلين ضل الطريق « فسار على طريق آخر » ، وعندئذ أحاط بهم العرب وطعنوا خيولهم ، فقتل من الصليبيين سبعون عدا الأمرى . أما جوسلين فأتجه إلى طرابلس حيث جمع بعض القوات أغار بها على عسقلان ، ولكن المسلمين هزموه « فعاد مذلولاً » (١) .

### موقعة البطر سنة ١١١٩ — مقتل روجر الأنطاكي :

رأينا كيف اختلت أحوال إمارة حلب بعد وفاة ملكها رضوان سنة ١١١٣ ، إذ حكم بعده ابنه ألب أرسلان مدة قصيرة ، حتى قتل في سبتمبر سنة ١١١٤ ؛ وعندئذ تولى بدر الدين لؤلؤ البابا الوصاية على الإمارة (١١١٤ — ١١١٧) ؛ وبعده تولى يارقتاش ، ثم ابن الملقى . ولم تسكد تحمل سنة ١١١٨ حتى كانت حلب قد صارت تحت رحمة النورمان في أنطاكية ، الأمر الذي جعل الحلبيين يتجهون نحو إيلغازي الأرتقي طالبين حمايتهم من روجر الأنطاكي .

ولم يلبث أن استولى روجر على بزاع سنة ١١١٩ (٢) وبذلك صارت حلب محاصرة من نواح ثلاث ، وهو أمر لم يَحتمله الحلبيون أو إيلغازي نفسه . لذلك حشد إيلغازي جيوشه من التركان في أبريل سنة ١١١٩ ، وانضم إليه

(١) المرجع السابق ، حوادث سنة ٣ ٥١٠ هـ

(٢) المرجع السابق .



بعض الأمراء — مثل أسامة بن المبارك بن شهبل الكلابي ، والأمير طغان أرسلان صاحب بدليس وأرزن ، وغيرهم<sup>(١)</sup> . كذلك يرجح أن إيلغازي طلب المعونة من السلطان محمود السلجوقي — الذي خلف أباه محمد عند وفاته سنة ١١١٨ — ، ولكنه لم يلق رداً ؛ في حين رضى طمتمكين صاحب دمشق أن يذهب بنفسه لمساعدته ، كما أعلن أبو العساكر سلطان بن منقذ — أمير شيزر — استعداده لمهاجمة إمارة أنطاكية من الجنوب<sup>(٢)</sup> .

وقد اختار إيلغازي أن يتجه على رأس القوات المتحالفة إلى الفرات أولاً ، فهاجم تل باشر والرها ، ثم عبر الفرات عند بالس وأتجه إلى قنسرين لينقذ حلب التي لم تقم تستغيث به . وكانت قوة الجيش الإسلامي عندئذ تبلغ أربعين ألفاً ، ومع ذلك استخف روجر الأنطاكي بأمر المسلمين ، لولا أن حثه برنارد بطرق أنطاكية على طلب النجدة العاجلة من بلدوين الثاني ملك بيت المقدس وبونز أمير طرابلس<sup>٣</sup> . وقد أرسل ملك بيت المقدس من طبرية يفيد روجر أنه سيحضر على وجه السرعة ومعه أمير طرابلس ، وفعلاً خرج الملك بلدوين الثاني على رأس جيش بيت المقدس ومعه صليب الصليبوت قاصداً الشمال<sup>(٣)</sup> .

على أن روجر الأنطاكي لم ينتظر وصول الملك بلدوين الثاني إليه ، وإنما تعجل في الخروج — ٢٠ يونية — لصد المسلمين ومعه قوة بلغت سبعمائة فارس وأربعة آلاف من المشاة ، واستمر في سيره حتى وصل إلى جسر الحديد على نهر العاصي ، قرب أرتاح . وكان أن علم إيلغازي — عن طريق عيون — بضعف قوة روجر ، فرأى أن يستغل الفرصة ويعاجله بالهجوم قبل وصول النجدة إليه . وفعلاً تقدم إيلغازي من قنسرين صوب الجيوش الصليبية في أواخر

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٣ هـ .

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٠ .

3) Gautier Le Changelier, II, p. p. 100 - 101.

يونيه ، حيث دارت موقعة البلاط في سهل قريب من أرتاح في ٢٨ يونيو ، وهي الموقعة التي انتهت بتدمير الجيش الصليبي أولاً عن آخر « وأخذهم بالسيف من سائر نواحيهم » ، في حين خر روجر الأنطاكي نفسه ( سرجال ) صريعاً في المعركة (٢) . وقد بلغ من كثرة قتلى الصليبيين أن أطلقوا على السهل الذي دارت فيه المعركة اسم « ساحة الدم » ( Ager Sanguinis ) .

وكان لذلك النصر رد فعل قوى عند المسلمين والصليبيين جميعاً. ولا عجب ، فالموقعة في حقيقة أمرها قررت مصير حلب ، فإما أن تبقى في قبضة المسلمين وأما أن يسلبها الصليبيون ، لذلك جاءت فرحة المسلمين بالنصر عظيمة ، فنظم شعراؤهم القصائد في مدح إيلغازي ، وأرسل إليه الخليفة المسترشد بالله العباسي الخلع « وشكره على ما يفعله من غزو الفرنج » (٢) . والواقع أن إيلغازي كان يستطيع بعد ذلك النصر المبين أن يجني ثماراً كثيرة لا سيما وأن الطريق إلى أنطاكية صار مفتوحاً أمامه. ولو أسرع إيلغازي إلى أنطاكية عندئذ « لما تمتعت عليه » على قول ابن العديم (٣) .

أما بالنسبة للصليبيين ، فإن السكارثة التي حلت بهم كانت فادحة . ويكفي أن إمارة أنطاكية - وهي الباب الشمالي للأملك الصليبية ببلاد الشام - صارت فجأة بلا أمير ولا فرسان ولا جيش ، في الوقت الذي أخذ المسيحيون الحليون - السريان والأرمن والأرثوذكس - يتآمرون للخلاص من حكم الصليبيين الغربيين (٤)

(١) ابن العديم : زبدة الحلب & (p. p. 616 - 618)

Guillaume de Tyr, p. p. 525 - 526.

(٢) ابن الأثير : حوادث سنة ٥١٤ هـ .

ومما قاله الشعراء المعاصرون في مدح إيلغازي في تلك المناسبة قول العظيمي :  
قل ما تشاء وقولك للقبول وعليك بمسد الخالق النعويل  
واستبشر القرآن حين نصرته وبسكى لفقده رجاله الإنجيل

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. III, p. 219 - 220)

(4) Stevenson : op. cit, p 104.

ويرجع الفضل إلى بطرق أنطاكية عندئذ - وهو برنارد دي فالنس - في رعاية شؤون المدينة وحراسة تحصيناتها ، حتى حضر الملك بلدوين الثاني ملك بيت المقدس<sup>(١)</sup> . وكان أن وجد الملك إمارة أنطاكية ، في حال يرثى له ، بعد أن اجتاح الأتراك أراضيها ودمروا ضواحيها . ولم يكد الملك بلدوين الثاني يتسلم الوصاية على إمارة أنطاكية لحين وصول بوهيموند الثاني ابن بوهيموند الكبير مؤسس الإمارة من الغرب - حتى أخذ يعمل بسرعة لتنظيم الأمور وإعادة الثقة إلى الأهالي وإعداد العدة لصد المسلمين<sup>(٢)</sup> .

وكان إيلغازي الأرتقي قد ازداد قوة بعد أن انضم إليه طغتكين أتاك بك دمشق ، فاتجه الإثنان لمحاصرة الأنارب حتى سقطت في أيديهما ( أغسطس سنة ١١١٩ ) ؛ ثم اتجها بعد ذلك إلى زردنا التي استسلمت أيضاً بعد مقاومة عنيفة . وفي ١٤ أغسطس سنة ١١١٩ دارت المعركة عند دانيث بين المسلمين والملك بلدوين الثاني وانتهت المعركة بهزيمة إيلغازي وطغتكين ، وإن كان انتصار الصليبيين غير حاسم<sup>(٣)</sup> . وبعد ذلك عاد إيلغازي وطغتكين إلى حلب ومعهما عدد كبير من الأسرى ، وهناك أشاعا أنها انتصرا على الأعداء ، كما انتقما بقتل من بقي من أسرى المعركة السابقة الذين كانوا بحلب<sup>(٤)</sup> .

وقبل أن يستأنف بلدوين الثاني حرب الأتراك ، استرد قلعة عاروز غربي البارة ، وكفر طاب وسرمين ومعرة مصرين من المسلمين ؛ وكان المسلمون قد

---

(1) Gautier Le Changelier, p. 115.

(٢) يدكر ابن العديم عن الإجراءات السريعة التي اتخذها الملك بلدوين الثاني عندئذ في أنطاكية أنه « قبض على أموال القتلى ودورهم وأخذها ، وزوج نساء القتلى بمن بقي ، وأثبت الخيل ، وجمع وحشد واستولى على أنطاكية ... »

(III, p. 619 - 620)

ابن العديم : زبدة الحلب

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب (III, p. p. 620 - 622) & Gautier, p. 123

(٤) المرجع السابق .

انتهزوا فرصة الكارثة التي حلت بروجر الأنطاكية واستولوا عليها<sup>(١)</sup>. وبعد ذلك عاد بسرعة إلى أنطاكية لينظم أمورهما ثم قفل راجعاً إلى بيت المقدس<sup>(٢)</sup>. على أن الأراقة لم يخلدوا لهزيمتهم السابقة، وإنما أخذ إيلغازي يحدد هجماته على الصليبيين منذ أواخر مايو سنة ١١٢٠، فاجتاح كل المنطقة بين تل باشر وكيسوم (كيسون) حيث قتل كثيراً من الأعداء وخرب ضياعهم وقراهم، رغم المقاومة الشديدة التي أبداها جوسلين دي كورتناي<sup>(٣)</sup>. ثم غادر إيلغازي إقليم سميساهل وتل باشر ليستولى على عزاز من إمارة الرها. وعند اقتراب إيلغازي من أنطاكية هرب كثير من أهلها، وأرسلوا إلى الملك بلدوين الثاني يطلبون النجدة السريعة، فحذف الملك لنجدتهم ومعه صليب الصلبوت في يونية سنة ١١٢٠. وبعد أن انضم إليه جوسلين دي كورتناي، خرج الملك على رأس القوات الصليبية إلى دانيث لملاقاة الأتراك<sup>(٤)</sup>.

وفي تلك المرة أيضاً حضر طفتكين من دمشق لمساعدة إيلغازي، ولكن اشتباكاً بين الطرفين لم يحدث، إذ انتقل بلدوين الثاني إلى الشمال لاسترداد الأجزاء التي استولى عليها إيلغازي في العام السابق حول زردنا والأثارب، في حين تحرك إيلغازي وطفتكين صوب حلب<sup>(٥)</sup>. وكان أن انتهى الموقف بين بلدوين الثاني وإيلغازي بمقدرة اعترف فيها إيلغازي بحق إمارة أنطاكية في الاحتفاظ بممتلكاتها شرقي نهر العاصي، وهي من الجنوب إلى

(١) أسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار ص ١١٩ - ١٢٠.

ابن العديم (p 623)

(2) Setton : op. citi, I, p. 414.

(3) Matthieu d'Edesse, p. 127. &

ابن العديم (p. 623 - 624)

(4) Foucher de Chartres, p. 445 - 446.

& (III, p p. 624 - 625)

(٥) ابن العديم: زبدة الحلب

Foucher de Chartres, p. 446.

الشمال كقنطرة ومعرة النعمان والبارة وغيرها<sup>(١)</sup> . وبذلك يكون بلدوين الثاني قد حقق نجاحاً كبيراً للصليبيين بدون حرب ، وبعد ذلك قفل راجعاً إلى بيت المقدس .

على أن العداء لم ينقطع بين الأراقة والصليبيين رغم الهدنة السابقة، إذ دأب حاكم منبج الأرتق على الإغارة على أراضي الرها، مما جعل جوسلين دي كورتناي يرد عليه بالإغارة على أراضي منبج وإقليم صفين على الضفة الغربية للفرات<sup>(٢)</sup> . بل إنه أوغل في مايو سنة ١١٢١ حتى خرب بزاعه وهاجم الأثارب إلى الجنوب الشرقي من حلب ، وأحدث مذبحه ضخمة في أهلها من المسلمين ، وعندئذ عهد إيلغازي إلى ابنه سليمان حاكم حلب بمقتد الصلح مع الصليبيين والتنازل لهم عن بعض المناطق الغربية من حلب<sup>(٣)</sup> .

وفي تلك الأثناء لم تنقطع الاشتباكات بين طفتكين أتابك دمشق وبلدوين الثاني ملك بيت المقدس في صيف سنة ١١٢١ في منطقة الجليل والجولان وجبل مجلون<sup>(٤)</sup> . أما الأمير إيلغازي فقد أحاطت به المتاعب عندما أعلن ابنه سليمان عصيانه وخروجه عن طاعة أبيه ، ثم عقد صلحا مع الصليبيين أعطاهم بمقتضاه زردنا والأثارب ، وهي الثمار التي حصل عليها إيلغازي من انتصارته الأخيرة<sup>(٥)</sup> . وقد أفرغت تلك الأخبار إيلغازي، فأراد أن يعاقب ابنه ويسترد زردنا والأثارب .

(١) للرجع السابق .

(٢) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٥١٤ هـ .

(٣) ابن المديم : زبدة الحلب (III, p. 627)

(4) Guillaume de Tyr p. 535. &

Foucher de Chartres, d. 446.

(٥) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٥١٥ هـ .

ابن المديم : زبدة الحلب (p. 629)

# التتريك الأذنى فى النصف الأول من القرن الثامن عشر



وفعلا شرع في مهاجمة زردنا ، مما تطلب عودة الملك بلدوين الثاني إلى شمال الشام في صيف سنة ١١٢٢ .

على أنه لم يحدث صدام مسلح عندئذ بين إيلغازي وبلدوين الثاني ، فعاد الأخير إلى بيت المقدس في سبتمبر سنة ١١٢٢ بعد أن خلص زردنا من الحصار دون إراقة دماء<sup>(١)</sup> . أما في الجزيرة فقد ظلت كفة الصليبيين راجحة في تلك الفترة ، حتى وقع جوسلين دى كورتناى أمير الرها في قبضة ملك غازي بن بهرام الأرتقي صاحب خرتبرت في ١٣ سبتمبر سنة ١١٢٢ ، مما أساء فجأة إلى موقف الصليبيين<sup>(٢)</sup> . وإذا كان بلدوين الثاني قد قام بالوصاية على أنطاكية بعد مقتل أمهرها منذ ثلاث سنوات ، فإن ملك بيت المقدس لم يجد بدأ من القيام بالوصاية أيضاً على الرها عند أسر جوسلين سنة ١١٢٢ .

ولم تلبث إمارة الأرتاقة أن تمزقت بعد ذلك عند وفاة عاهلها إيلغازي في أوائل نوفمبر سنة ١١٢٢ ، فأخذ ابنه شمس الدولة سليمان ميسافارقين — أى الجزء الشمالي من ديار بكر ، وأخذ ابنه الثاني تمرناش ماردين والجزء الجنوبي

(١) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Cr. III, p. 633) ويلاحظ أنه على الرغم من تفوق إيلغازي في حروبه ضد الصليبيين ، إلا أنه كان لا يبصر طويلاً على حروبهم ، وإنما يتعجل في الصلح والعودة . ويعمل ابن الأنير ذلك بأن جيوش إيلغازي كانت مؤلفة من التركان المرتزقة الذين يبغون الغنيمة السريعة « فيحضر أحدهم معه جراب فيه دقيق وشاه ، وبعد الساعات لفنيمة يتعجلها ويعود ؛ فإذا طال مقامهم تفرقوا . ولم يسكن له ( إيلغازي ) من الأموال ما يفرقها فيهم » . (الكامل ؛ حوادث ٥١٤) .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب & (p 634) Matthieu d'Edesse, p. 131. ويروى ابن الأثير أن المسلمين عندما أسروا جوسلين وضعوه في جلد جمل « وخط عليه » وطلب منه أن يسلم الرها فرفض وعرض الأموال الطائلة لثداء نفسه . ولكن المسلمين رفضوا إطلاق سراحه وحملوه إلى قلعة خرتبرت ومعه ابن خالته وليم (كليام) « وجماعة من فرسانه المشهورين » . (الكامل ، حوادث سنة ٥١٥) .

من ديار بكر . أما بلك بن بهرام الأرتقى — وهو ابن أخ إيلغازى — فقد احتفظ بمنقطة خرزبرت في الشمال وأضاف عليها حران في الجنوب ، في حين آلت حلب إلى بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتقى ، وهو ابن أخ آخر للامير إيلغازى (١) .

وقد حاول الملك بلدوين الثانى أن يستفيد من تفكك دولة الأراقة، فنحى إلى شمال الشام حيث غزا إقليم بزاعه إلى الشمال الشرقى من حلب ، وهاجم بالس إلى الجنوب الشرقى من حلب على الفرات ، واستولى على البيرة شرق حلب ، وبذلك أصبحت حلب شبه محاصرة تماماً بتمتلكات الصليبيين وقواتهم (٢) . ولما وجد سليمان بن عبد الجبار بن أرتقى صاحب حلب أن الصليبيين « قد أكثروا قصد حلب وأعمالها بالإغارة والتخريب والتحريق ... ولم يكن له بالفرنج قوة وخافهم » فكرفى مهادنتهم ، وطلب الصلح من بلدوين الثانى فى أبريل سنة ١١٢٣ مقابل رد الأثارب — إلى الجنوب الغربى من حلب — إلى إمارة أنطاكية ، « واستمرت المودعة على هذا واستقامت أحوال الأعمال من الجانبين » (٣) . وبذلك يكون بلدوين الثانى ملك بيت المقدس قد نجح فى أقل من أربع سنوات فى إعادة حدود إمارة أنطاكية إلى ما كانت عليه سنة ١١١٨ .

(١) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Cr. III, p. 632 - 634)

(2) Setton : op. cit, I, 418.

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٠٩

ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٧ هـ .

ويذكر ابن العديم عن ذلك الصلح : « فصالحوهم على سرمين والجزر وليون وأعمال الشمال على أنها للفرنج وما حول حلب للفرنج منه النصف حتى إنهم ناصفوهم فى رحا العربية . وعلى أن يهدم تل هراق بحيث لا يبقى للفتنين فيه حكم ؛ وطلبوا الأثارب ، فأجاب إيلغازى الى ذلك ... »

ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. III, p.627) &



### وقوع بلدوين الثاني في الأسر :

ثم كان أن قام بلدوين الثاني ملك بيت المقدس بمحاولة لنك أسر جوسلين دي كورتناى الذى كان لا يزال حبيس بلك الأرتقى في خرتبرت<sup>(١)</sup> . ولكن شاءت الظروف أن يقع الملك بلدوين الثانى نفسه أسيراً في ١٨ أبريل سنة ١١٢٣ أثناء قيامه بتلك العملية ، إذ اقتض عليه بلك فجأة عند موضع اسمه أورش بالقرب من قنطرة سنجه ، وحمل الملك أسيراً إلى قلعة خرتبرت ليأتمس به جوسلين في وحدته<sup>(٢)</sup> . ومن الواضح أن أسر الملك بلدوين الثانى جاء خسارة كبرى للصليبيين بالشام ، وإن كانت الأمور في مملكته استمرت على وضعها الطبيعى بعد أن اختير إيستاش جرنيه Eustache Grenier - صاحب قيسارية وصيدا - للوصاية على مملكة بيت المقدس ، والبطرق برنارد دي فالنس للوصاية على أنطاكية<sup>(٣)</sup> . وعند وفاة إيستاش في يونيه ١١٢٣ ، حل محله في الوصاية وليم دي بور .

أما بلك فيكفيه فخراً عندئذ أنه كان يمسك في قبضته ملك بيت المقدس وأمير الرها ، الأمر الذى جعله يشعر بالزهو والذى دفعه إلى التفكير في توحيد ملك الأراتقة من جديد . وكان أن استولى بلك على حران ثم أسرع إلى مهاجمة حلب لانتزاعها من ابن عمه سليمان ، ونجح في تحقيق ذلك في ٢٦ يونيو سنة

---

(١) يذكر ابن الأثير أن الغرض من خروج الملك بلدوين لم يكن إطلاق سراح جوسلين من الأسر؛ وإنما الحد من نفوذ بلك بن بهرام الذى حاصر قلعة كركر قرب خرتبرت؛ فأسرع إليه بلدوين «خوفاً أن يقوى بملكها» .

( السكامل؛ حوادث سنة ٥١٧هـ )

(1) Matthieu d'Edesse, p. 133 &

ابن المديم زبدة الحلب (p. 635)

(2) Guillaume de Tyr, p. 538. &

Foucher de Chartres p. 450.

( م ٣٣ — الحركة )

١١٢٣<sup>(١)</sup>. ومن ذلك المركز الجديد أخذ بلك يهاجم أنطاكية ، فاستولى على البارة غربي معرة النعمان ، ثم توجه لحصار كفر طاب عندما سمع في ٧ أغسطس أن بلدوين الثاني وجوسلين دي كورتناي قد استوليا على قلعة خرتبرت بمساعدة المسيحيين في تل باشر<sup>(٢)</sup>.

ذلك أن جوسلين بالذات كان محبوباً من الأرمن ، لا لزواجه من أميرة أرمنية فحسب ، وإنما لأنه أحسن إليهم وأكرم معاملتهم ولم يفعل بهم مثلما فعل سلفه بلدوين الثاني من اضطهاد وتنكيل . وكانت خرتبرت نفسها تقع في منطقة أرمنية ، مما جعل الأرمن يدبرون مؤامرة للاستيلاء على القلعة وإطلاق سراحه<sup>(٣)</sup> . وفي الوقت الذي أخذت الخطة تسير بنجاح إذا بالأمر بالملك يعود إلى خرتبرت فجأة ، ولكن بعد أن كان جوسلين قد استطاع الفرار ، وبذلك لم يبق سوى الملك بلدوين الثاني الذي وقع في أسر غريمه من جديد ( سبتمبر ١١٢٣ )<sup>(٤)</sup> .

وكان المفروض أن يعمل جوسلين على جمع الجيوش لإطلاق سراح بلدوين ، لا سيما وأن بقية الأسرى في خرتبرت « حلفوه على أنه لا يغير ثيابه ولا يأكل لحماً ولا يشرب إلا وقت القربان ، إلى أن يجمع المجموع الفرنجية ويصل بهم إلى خرتبرت ويخلصهم » . ولكن بلك احتاط للأمر ، فنقل الملك بلدوين وبقية الأسرى من خرتبرت إلى قلعة حران ليكونوا بعيداً عن منال الصليبيين<sup>(٥)</sup> .

(١) يذكر ابن الأثير أن سبب شروع بلك بنهرام في الاستيلاء على حلب هو استيائه من صاحبها بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار ، لأنه سلم قلعة الأتاب إلى الفرنج « فعظم ذلك عليه ، وعلم عجزه عن حفظ بلاده فقوى طمعه في ملكها » .  
(السكامل ، حوادث سنة ٥١٧هـ).

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب (Rec. Hist. Or, III, p. 636)

(٣) Runciman : op. cit, II, p. 163 - 164.

(٤) Foucher de Chartres, p. 457.

(Rec. Hist. p. 637)

(٥) ابن العديم: زبدة الحلب

أما جوسلين دي كورتناى ، فإن أسره ثم فراره ، جعله يتطرف في الانتقام من المسلمين ، فخرج من تل باشر على رأس رجاله صوب حلب ، واستمر طوال الطريق ينهب ويدمر ويحرق ما يصادفه من قرى المسلمين وضياعهم ، حتى قبورهم لم تسلم من عبثه<sup>(١)</sup> . وهكذا استمر جوسلين دي كورتناى يحمل عبء محاربة المسلمين في شمال الشام بوجه عام وإقليم حلب بوجه خاص ، طوال المدة التي قضاها ببلدوين الثاني في الأسر . وقد اضطر بلك إلى العودة إلى حلب في أوائل سنة ١١٢٤ ، حيث عقد تحالفاً مع طغتكين أنابك دمشق .

ثم كان أن شغل بلك بعد ذلك بأمر منبج ، فقبض على صاحبها حسان البعلبكي وحصرها ، وعندئذ سار « الفرنج إليه ليرحلوه عنها لئلا يقوى بأخذها » ولكن بلك تغلب على الفرنج وطردهم . ثم عاد إلى منبج ليستأنف الحصار ، وعندئذ أصابه سهم طائش قتله فجأة في ٦ مايو سنة ١١٢٤ ؛ فخلقه في حكم حلب ابن عمه حسام الدين تمرتاش بن إيلغازى بن أرتق . ويصف ابن الأثير الأمير تمرتاش هذا بأنه كان « رجلاً يحب الدعة والرفاهية » ، فأثر أن يترك حلب ويقيم في ماردين « لأنه رأى الشام كثير الحروب مع الفرنج<sup>(٢)</sup> » .

### الفاطميون ومملكة بيت المقدس :

اختار الفاطميون أن يتهزوا فرصة أسر الملك بلدوين الثاني لمعاودة الهجوم على الصليبيين ، وذلك بتحريض من طغتكين وأقسنتر البرسقى . وكان أن حشد الفاطميون في مايو سنة ١١٢٣ حملة كبيرة في عسقلان أتجهت لحصار يافا ، في

(١) يروي ابن العديم أن جوسلين نبش الضريح الذي يشهد الدعة فلم يجد فيه شيئاً

فألقى فيه النار؛ زبدة الحلب (III, p. p. 638-639)

(٢) ابن الأثير: السكامل، حوادث سنة ٥١٨هـ .

الوقت الذي خرج الأسطول الفاطمي لمهاجمته من ناحية البحر<sup>(١)</sup>. وكانت الحامية الصليبية في يافا صغيرة ، فاشترك نساء الصليبيين مع رجالهم في الدفاع . وفي الوقت الذي أوشكت يافا على التسليم ، إذا بنجدة صليبية تأتي لإتقاذها ، مما جعل القوات الفاطمية تنسحب إلى بينا ، على الطريق بين يافا وعسقلان<sup>(٢)</sup> . وفي المعركة التي دارت في ٢٩ مايو سنة ١١٤٣ عند بينا بين الفاطميين والصليبيين ، هزم الفاطميون وولوا الأدبار ، واقتنى أثرهم الصليبيون يقتلون ويأسرون وينهبون ما يصل إلى أيديهم<sup>(٣)</sup> .

وفي تلك الأثناء ساء موقف مدينة صور بسبب تعرضها لهجمات الصليبيين بين حين وآخر ، في الوقت الذي كانت الدولة الفاطمية عاجزة عن إرسال قوة برية كبيرة تحميها من الأخطار . وقد سبق أن ذكرنا كيف اتجه أهالي صور نحو طفتكين أنابك دمشق ، الذي أرسل إليهم سنة ١١١٢ أحد رجاله - واسمه مسعود - « ومعه من يعتمد عليه من العسكر » وقدر كاف من المال والعتاد والميرة<sup>(٤)</sup> . ولم يكن معنى ذلك خروج صور من قبضة الفاطميين ، إذ ظل الدعاء للخليفة الفاطمي في المساجد ، كما استمرت السكة تضرب باسمه في صور ؛ وكل ما هنالك هو أن الوزير الأفضل قبل مساعدة طفتكين على ذلك الوجه لإتقاذها من السقوط في يد الصليبيين<sup>(٥)</sup> .

ولسكن موافقة الوزير الأفضل الفاطمي على السماح لقوة من قبل طفتكين - وهو الأتابك السني - باحتلال صور ، أثار غلاة الشيعة في مصر ، مما أدى إلى

(1) Setton : op. cit, I, p. 421.

(2) Foucher de Chartres, p. p. 450-451.

(3) Stevenson : op cit; p. 114.

(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 599.

(٥) « وأجروا على الرسم في إقامة الدعوة والسكة على ما كانت عليه لصاحب مصر ، ولم يغير لهم رسم » . [ ابن القلانسي : ص ١٨٢ ] .

مقتل الأفضل في أحد شوارع القاهرة في ٢١ ديسمبر سنة ١١٢١ بيد بعض الباطنية . ويقال إن الباطنية كانوا « يكرهون الأفضل لأسباب منها تضييقه على إمامهم » ؛ وإن كان يغاب على الظن أن الخليفة الفاطمي الأمر كانت له يد في مقتل الأفضل للتخلص من سطوته من ناحية ، وطمعا في ثروته من ناحية أخرى<sup>(١)</sup> .

ويذكر ابن القلانسي أن أهل صور شكوا عندئذ إلى الخليفة الفاطمي من سوء سيرة مسعود « وما يعتمده مع الرعية من الأضرار لهم والمخالفة للسادة » . ولذلك أرسل الخليفة الأمر أسطولا إلى صور سنة ١١٢٢ لعزل الحاكم الدمشقي مسعود ، قبض عليه وأحضر إلى القاهرة حيث « أكرم وانزل في دار وأطلع له ما يحتاج إليه »<sup>(٢)</sup> . وقد انتقد المؤرخ أبو الحسن الفاطميين في ذلك التصرف ، لأنه حرم صور من الرجل القوي الذي « فعل ما فعل مع الفرنج من قتالهم وحفظ سور المدينة هذه المدة الطويلة » . أما الصليبيون فقد ارتاحوا لخروج مسعود وشددوا هجماتهم على صور ، فأرسل إليها إلى مصر يخبر الخليفة الفاطمي أنه لا قبل له بالدفاع عن صور لقلة النجدة والميرة ، فرد عليه الخليفة الأمر قائلا : « قد ردنا أمرها إلى ظهير الدين طفتكين ليتولى حمايتها والذب عنها » ؛ فكان هذا الرد اعترافا من الدولة الفاطمية بجزءها عن حماية صور وتنازلها عن تلك المهمة لطفتكين<sup>(٣)</sup> .

ومهما يكن من أمر ، فإن تلك الأوضاع أتاحت فرصة طيبة للصليبيين ليستغلوا الموقف السيء الذي أمست فيه صور من ناحية ، والشقاق بين دمشق

(١) ابن الأثير: السكامل ، حوادث سنة ٥١٥ هـ .

ويروي ابن الأثير أنه « لما توفي الأفضل نقل من أمواله ما لا يعلمه إلا الله ، وبقي الخليفة

في داره نحو أربعين يوماً والسكراب بين يديه والدواب تحمل وتنقل ليلا ونهاراً . . . »

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢١١ .

(٣) أبو الحسن: النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٨٢ — ١٨٣ .

والتاهرة من ناحية أخرى «فتحرك طمعهم فيها وحدثوا نفوسهم بتملكها وشرعوا في الجمع والتأهب للنزول عليها والمضايقة لها». وفي الوقت الذي أخذتفتكين يعزز حامية صور « ويرتب بها من الجند وغيرهم ما ظن أن فيه الكفاية »<sup>(١)</sup> ، بدأ الصليبيون - بمساعدة الأسطول البندقي - يوجهون جهودهم ضد تلك المدينة بالذات .

### البنادقة في الشوم : سقوط صور :

وكان ذلك عقب موقعة البلاط التي قتل فيها روجر الأنطاكي سنة ١١١٩ عند ما أرسل الملك بلدوين الثاني إلى البندقية طالبا المعونة ضد المسلمين ، وأعلى وجه التعديد ضد الفاطميين ، الذين كانوا يسيطرون على شواطئ الشام . وقد أيد البابا طلب ملك بيت المقدس ، وحث البندقية على المساهمة في مساعدة الصليبيين ، مما جعل دوج البندقية يعد حملة كبيرة من ثلثمائة سفينة تحمل خمسة عشر ألف جنديا للرحيل إلى الشام . هذا وإن كان الإعداد النهائي لتلك الحملة لم يتم إلا بعد مرور ثلاث سنوات ، أي في صيف سنة ١١٢٢<sup>(٢)</sup> .

ولكن سوء حظ الصليبيين شاء أن تشتعل نار الحرب بين البندقية والإمبراطورية البيزنطية عندئذ ، مما جعل البنادقة يوجهون حملتهم الصليبية ضد البيزنطيين ، فهاجموا جزيرة كورفو وقضوا في حصارها ستة أشهر ، في الوقت الذي أخذ الصليبيون في الشام ينتظرون وصول النجدة الموعودة<sup>(٣)</sup> . وأخيرا وقع الملك بلدوين الثاني في الأسر - في ١٨ أبريل سنة ١١٢٣ - فأرسل الصليبيون

---

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥١٨هـ.

(2) Heyd : op. cit, I, p. 142-143.

(3) Brehier : op. cit, p. 322.

إشارة عاجلة إلى البنادقة يخبرونهم بالكارثة التي حلت بهم ، ويرجون سرعة المعونة . وعندئذ رفع البنادقة حصارهم عن كورفو سنة ١١٢٣ ، وأقامت عمارتهم إلى عكا لتقديم المساعدة إلى الصليبيين ، في وقت كان هؤلاء أحوج ما يكونون إلى المساعدة بعد مقتل أمير أنطاكية ، وأسر أمير الرها، وملك بيت المقدس . وكان أول مافعله البنادقة وهم في طريقهم إلى الشام إرسال جزء من أسطولهم إلى عسقلان حيث استطاعوا تدمير الأسطول الفاطمي هناك . وبعد ذلك أغار البنادقة على الشاطئ الجنوبي لفلسطين حتى العريش (مايو ١١٢٣) ، وفي طريق عودتهم إلى عكا أسروا أسطولا تجارياً إسلامياً من عشر سفن محملة بالبضائع (١) .

ولا شك في أن تدمير الأسطول الفاطمي في فلسطين أعطي الصليبيين حربة العمل ضد المعازل والموانئ الفاطمية القليلة التي مازالت باقية للمسلمين على الشاطئ ، وأهمها صور وعسقلان . وهنا انقسم الصليبيون في الرأي حول النقطة التي يبدأون منها : صور أم عسقلان ؛ إذ أيد أمراء الجليل مهاجمة صور ، في حين رأى أمراء بيت المقدس البدء بعسقلان ؛ حتى انتصر الرأي الأول نظراً لأهمية صور الحربية والتجارية (٢) . وقبل أن يبدأ البنادقة في مهاجمة صور كان عليهم أن يعرفوا ممن المساعدة التي يقدمونها للصليبيين ، فعدوا اتفاقية مع وليم دي بورز Guillaume de Bures الرصي على مملكة بيت المقدس في أوائل سنة ١١٢٤ ، وحققت لهم أكبر قدر من الامتيازات مقابل المساعدة الحربية التي سيقدمونها لمملكة بيت المقدس (٣) من ذلك حق البنادقة في الحصول على أحياء كاملة في كافة مدن مملكة بيت المقدس — وبخاصة عكا — يقيمون فيها مؤسساتهم المختلفة اللازمة لإقامتهم ومباشرة نشاطهم التجاري ، كالفنادق والمخابز والطواحين والحمامات ... بحيث

(1) Foucher de Chartres, p. p 452-453.

(2) Guillaume de Tyr ps. 459-574.

(3) Michaud : op. cit, II, p. 63.

تكون جميع هذه المؤسسات والمرافق معفاة من الضرائب والمكوس تماماً<sup>(١)</sup>. كذلك اشترط البنادقة حقهم في استخدام موازينهم ومقاييسهم ومكاييلهم الخاصة، سواء في المعاملة فيما بينهم وبين بعض أو فيما بينهم وبين بقية رعايا مملكة بيت المقدس. هذا مع إعفائهم من كافة الضرائب الجركية وغير الجركية بحيث يكون التجار البنادقة بكاً أحراراً تماماً في كافة شئون الاستيراد والتصدير. فإذا تم فتح صور وعسقلان بمساعدتهم، حصل البنادقة على ثلث كل مدينة منها، مع تمتعهم في ذلك الحى بكافة الامتيازات الاقتصادية السابقة<sup>(٢)</sup>.

هذا إلى أن البنادقة حرصوا على ألا يتعرضوا لمنافسة اقتصادية من جانب المدن والجمهوريات الأخرى في غرب أوروبا. فاشترطوا ألا تقوم مملكة بيت المقدس بتخفيض الضرائب المفروضة على بقية الجاليات والهياث إلا بعد موافقة البندقية نفسها. ومع أن بطرق بيت المقدس - جرموند - أقسم للبنادقة على أن ملك بيت المقدس سيوافق على جميع هذه الشروط عند إطلاق سراحه، إلا أن بلديون الثاني لم يوافق فيما بعد على الشرط الأخير الذى يجعل المملكة وتجارها حكرًا للبنادقة<sup>(٣)</sup>.

ولم يكذب يتم عقد الاتفاقية السابقة بين البنادقة ومملكة بيت المقدس، حتى تعاونت جميع القوى الصليبية، على حصار صور في منتصف فبراير سنة ١١٢٤. وكان حكم صور - كما سبق أن أشرنا - قد انتقل أخيراً إلى طفتكين أتابك دمشق، فأمد طفتكين المدينة «بعسكر وسير إليهم ميرة ومالاً فرقه فيهم وطابت نفوس أهل البلد»<sup>(٤)</sup>. ولا ننسى بالإضافة إلى ذلك أن صور مدينة

(1) Ibid.

(2) Heyd : op. cit, 1, p p. 143-144.

(3) Foucher de Chartres, p. 460.

(٤) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥١٨هـ.



محصنة طبيعياً حتى وصفها ابن جبير في عصر الحروب الصليبية بأنها « مدينة يضرب بها المثل في الحصانة ، لا تلقى لطالبها بيسد طاعة ولا استمكانة » (١) . ولكن يبدو أن كل ذلك لم يكف لمقاومة الهجوم العنيف الذي شنه الصليبيون على المدينة من ناحيتي البر والبحر . وقد هبت القوى الإسلامية المجاورة للدفاع عن صور ، أو لمحاولة الضغط على الصليبيين لإجبارهم على التخلي عنها . ومن ذلك ما قامت به حامية عسقلان الفاطمية أثناء حصار صور — من محاولة الزحف على بيت المقدس ومهاجمتها أكثر من مرة في تلك الفترة (٢) . كذلك خرج طغتكين أنابك دمشق على رأس جيوشه « إلى بانياس للذب عن صور » ، فعهد الصليبيون إلى بونز أمير طرابلس بالتصدي له .

ولكن جهود القوى الإسلامية المجاورة لم تفلح في إنقاذ صور ، في الوقت الذي توفي بك الأرتقي صاحب حلب وديار بكر في مايو سنة ١١٢٤ ، عندما كان يستعد للحضور على رأس جيش كبير لإنقاذ صور (٣) . وعندما أدرك طغتكين تعذر الاحتفاظ بصور « راسل الفرنج بالملاطفة والمداهنة والإرهاب والإرغاب ، إلى أن تقررت الحال على تسليمها إليهم بحيث يؤمن كل من بها ، ويخرج من أراد الخروج من العسكرية والرعية ، بما يقدرون عليه من أموالهم ، ويريد من أراد الإقامة » (٤) . وهكذا اضطرت صور إلى التسليم في أوائل يوليو سنة ١١٢٤ « بعد أن أشرف أهاها على الهلاك » ، واحترم الصليبيون شروط الأمان الذي منحوه لأهلها (٥) .

(١) زحلة ابن جبير ص ٢٧٧ (طبعة بيروت) .

(2) Guillaume de Tyr, p. p. 566, 572.

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب (Rec. Hist. Or, III, p. 642)

(٤) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٧ .

(٥) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥١٨ هـ .

أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٥١٨ هـ .

ويصف أبو المحاسن عملية انسحاب المسلمين من صور فيقول: « جاء الأناباك بمسكروه =

ومن الواضح أن سقوط صور في أيدي الصليبيين جاء حدثاً له أهميته في تاريخ الحروب الصليبية . ويذكر المؤرخ ابن الأثير أن ضياع صور سبب «وهنا عظيماً على المسلمين» . وفي الوقت نفسه أدى استيلاء الصليبيين على صور إلى تدعيم مركزهم لأنها « من أحسن البلاد وأمنعها<sup>(١)</sup> » ، مما أدى إلى تدعيم مركز الصليبيين بالشام وإمدادهم بقاعدة بحرية من الطراز الأول من ناحية الموقع ذي الأهمية الفائتة في حالتها المهجومة والدفاع جميعاً<sup>(٢)</sup> . لذلك اهتم الصليبيون بتحسين صور وأعدوها « مفزعةً لحادثة زمانهم وجعلوها مثابة لأمانهم » ، على قول ابن جبير<sup>(٣)</sup> .

أما البنادقة فلم يهتموا بالحصول على مراكز لهم في المدن الداخلية ، عدا مدينة القدس ذاتها ؛ في حين اهتموا بتركيز نشاطهم في المدن الساحلية وبخاصة عكا ثم صور وصيدا وحيثما بعد ذلك<sup>(٤)</sup> .

### تهجير الملك بلديون الثاني واستئناف الحرب ضد المسلمين:

أما الملك بلديون الثاني فقد ظل أسيراً في قبضة ملك الذي نقله من قلعة حران إلى قلعة حلب ، حتى إذا ما توفي ملك وآلت حلب إلى تتراش بن إيلغازي ، وافق الأخير — بفضل وساطة أمير شيزر العربي أبو العساكر سلطان ابن منقذ — على إطلاق سراح الملك بلديون مقابل مائة ألف بيزانتي — أي قرابة

---

= فؤوف بازاء الفرنج، وركبت الفرنج ووقفوا بازائه وصاروا صفيين، وخرج أهل البلد بمرون بين الصفيين، ولم يعرض لهم أحد» .

(النجوم الزاهرة، ج ٥ ص ١٨٣) .

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥١٨ هـ .

(2) Grousset : Hist. des Croisades I, p 618

(٣) رحلة ابن جبير ص ٢٧٧ (طبعة بيروت)

(4) Heyd : Hist de Commerce. I, p. p 148-151.

ثمانين ألف دينار — يدفع منها عشرين ألف دينار مقدماً<sup>(١)</sup> . هذا علاوة عما تعهد به الملك بلدون — بوصفه وصياً على إمارة أنطاكية — من إعادة عزاز والأتاب وزردنا والجزر وكفر طاب ، إلى إمارة حلب . كذلك تعهد الملك الصليبي بمساعدة تمرناش في إخضاع ديبس بن صدقه ، وهو أمير عربي شيعي نزح إلى الجزيرة بعد أن طرده الخليفة المسترشد العباسي من حكم الحلة بالعراق<sup>(٢)</sup> .

وعلى أساس هذه الشروط تم الإفراج عن الملك بلدوين الثاني في أواخر يونية سنة ١١٢٤ ، أى في الوقت الذي كان وليم دى بورز الوصى على مملكة بيت المقدس يفزو صور بمساعدة البنادقة . وكان من الطبيعي أن يتجه ملك بيت المقدس أولاً صوب أنطاكية حيث أنكر عليه يرنارد دى فالنس ردمدن والقلاع السابقة للمسلمين ، لأن ملك بيت المقدس بوصفه وصياً على إمارة أنطاكية كان ينبغي أن يرضى الأمانة وألا يفرط في أملاك أنطاكية وأراضيها؛ أو أن يدفع جزءاً من أملاك غيره ثمناً لحرية<sup>(٣)</sup> . ولذلك أرسل الملك بلدوين الثانى رسالة إلى صاحب حلب — أورد نصها ابن العديم — يستعطفه فيها أن يتنازل عن الشرط الخاص بتسليم عزاز وغيرها من القلاع للمسلمين ، ويعلمه أن بطرق أنطاكية معترض على ذلك الشرط<sup>(٤)</sup> .

ولكن المفاوضات طالت بين الطرفين دون الوصول إلى نتيجة ، في الوقت الذي كان بلدوين الثانى يشفق على مصير الرهائن التي قدمها لأمير حلب ضمناً

(١) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١٢٠ .

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب (Rec. Hist. Cr. III, p. 643.)

(3) Matthieu d'Edesse p. p. 312-313 &

Michael Le Syrien, p. p. 212-225.

(٤) «البطرق الذي لا يمكن خلافة سألني عما بذلت وما الذي استقر، فحين سمع حديث عزاز وتسليم حصنها ، أبى وأمرني بالدفع وقال: إن خطيتك تازمني، ولا أقدر على خلافة!»

ابن العديم: زبدة الحلب (Rec. Hist Or, p. p. 644-645)

لتنفيذ شروط الاتفاقية السابقة . ومن هذه الرهائن ابنة الملك بلدوين نفسه وهي طفلة في الخامسة من عمرها ، وجوسلين الثاني ابن جوسلين دي كورتنای أمير الرها ، ومعهما عشرة من زهرة شباب الصليبيين<sup>(١)</sup> . وأخيراً لمجد الملك بلدوين الثاني بدأ من الاصطدام بصاحب حلب ، خالف خصمه الأمير العربي الشيعي ديس بن صدقه . ويروي ابن الأثير أن ديس بن صدقه أطمع الصليبيين في الاستيلاء على حلب « وقال لهم إن أهلها شيعة وهم يميلون إلى لأجل المذهب ، فحتى رأوني سلموا البلد إلى »<sup>(٢)</sup> . وفي الوقت نفسه وجد الصليبيون في ديس خير قوة تمسكهم من الوقوف في وجه صاحب حلب وإجباره على إطلاق سراح من لديه من رهائن ، فبدلوا له المال ووعده بإعطائه ملك حاب<sup>(٣)</sup> .

وهكذا لعب الصليبيون دورهم بمهارة في تفرقة صفوف المسلمين ، وضرب العرب بالأترک ، والشيعية بالسنة ، لإضافتهم جميعاً . وفي أكتوبر سنة ١١٢٤ اشترك بلدوين الثاني وجوسلين دي كورتنای مع ديس بن صدقه في مهاجمة حلب وأعمالها<sup>(٤)</sup> . وقد حرص بلدوين الثاني في تلك الحرب على أن يؤلف جبهة إسلامية — تحت قيادته — ضد تمشناش صاحب حلب التركي ، فاشترك معه بنو مزيد ، وساطان شاه بن الملك رضوان الساجوق الذي عزله الأرتقة من ماسكة في حلب<sup>(٥)</sup> .

(١) أسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار، ص ١٠٣ .

(٢) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥١٨ .

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب (p. 645)

(4) Setton : op. cit. I, p. p. 423 - 424.

(٥) ابن العديم: زبدة الحلب (III, p. 646)

ويروي ابن العديم أن الصليبيين أتوا في تلك الغزوة مساويء كثيرة « فنبشوا قبور موتى المسلمين وأخذوا توابعهم إلى الخيم وجعلوها أوعية لطعامهم، وسلبوا الأ كفان، وعمدوا إلى من كان من الموتى لم تنقطع أوصاله فربطوا في أرجلهم العجبال وسحبوهم مقابل المسامين، وجعلوا يقولون: هذا نبيكم محمد وآخر يقول: هذا عليكم . وأخذوا مصحفاً من المشاهد بظاهر حلب وقالوا يا مسلم أبصر كتابكم . . . »

ولم يكن تمر تاش في حلب عندئذ ، وإنما كان في ماردين مترقبا وفاة أخيه سليمان حاكم ماردين ليرثه في ملكه ، في حين ترك حلب لنوابه وأعيان المدينة يتآمرون الحصار . وعندما رأى أهل حلب عجز « صاحبهم تمر تاش » أرسلوا إلى آقسنقر البرسقي أتاك الموصلي « يستنجذونه ويستلونه الجيء إليهم ليسلموا البلد إليه » (١) . ويبدو أن آقسنقر — الذي عينه السلطان محمود أتاكبا على الموصل وعهد إليه بجهاد الصليبيين — وجد فرصة طيبة في تلك الاستغاثة لتحقيق رغبة السلطان الجديد في استئناف حركة الجهاد ضد الصليبيين . لذلك أمرع آقسنقر البرسقي إلى تأليف حلف ، فانضم إليه في الرحبة طغتكين أتاكبا دمشق ، وصمصام الدين خير خان بن قراجا صاحب حصص ، واتجهوا جميعاً صوب حلب ، فوصلوها في أواخر يناير سنة ١١٢٥ (٢) .

وكان ظهور تلك القوة الجديدة أمام حلب كافياً لإحباط مشروع بلدوين الثاني الخالص بالاستيلاء على تلك المدينة ، فانفض عنه حلقاؤه ، وانسحب ديس ابن صدقة شرقاً ، في حين عاد الملك نفسه إلى بيت المقدس في أوائل أبريل سنة ١١٢٥ بعد غيبة قاربت العامين (٣) . أما آقسنقر البرسقي ، فقد خرج إلى أهل حلب « ولقوه وفرحوا به » ، فأقام عندهم بعض الوقت لإصلاح أحوال المدينة ، ثم قفل راجعاً إلى الموصل بعد أن ترك في حلب من يرعى شئونها . وبذلك جمع آقسنقر البرسقي بين ملكي الموصل وحلب ، مما جعله خطراً كبيراً على الصليبيين في شمال العراق والشام (٤) .

---

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥١٨هـ.

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٢١١—٢١٢.

ابن العديم: زبدة الحلب (III p. 649)

(3) Guillaume de Tyr, I, p. 557.

(٤) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥١٨هـ.

على أن الملك بلدوين الثانى كان لا يستطيع البقاء طويلا فى بيت المقدس، فى الوقت الذى كان مسئولاً — بحكم وصايته على أنطاكية — عن حمايتها من ضغط القوى الإسلامية المحيطة بها من ناحيتى الشمال والشمال الشرقى. هذا فضلا عن أن ازدياد نفوذ آقسنقر البرسقى — الذى جمع بين السيطرة على حلب والموصل، وتمتع بتأييد السلطان محمود السلجوقى، واعترف له بالسيادة والزعامة كل من طغتكين أتابك دمشق وخيرخان بن قراجا — جعل منه خطراً كبيراً على الصليبيين فى شمال العراق والشام. وزاد من ذلك الخطر أن البرسقى واصل نشاطه فى بلاد الشام، فزار شيزر فى شهر مارس، حيث رحب به أميرها سلطان ابن منقذ وسلمه رهائن الصليبيين، وعلى رأسهم ابنة الملك بلدوين الثانى وجوسلين الصغير ولى عهد الرها<sup>(١)</sup>. وهكذا بدأ البرسقى فى صورة زعيم القوى الإسلامية فى بلاد الشام مما مكنته من مهاجمة إمارة أنطاكية، فحاصر كفر طاب واستولى عليها فى أوائل مايو سنة ١١٢٥ قبل وصول بلدوين الثانى. وبعد ذلك شرع فى حصار زردنا<sup>(٢)</sup>.

وعندما استنجدت أنطاكية بالملك بلدوين الثانى، أسرع إليها، ومر فى طريقه بطرابلس حيث استصحب معه بونز أميرها ثم انضم إليهما جوسلين دى كورتناى أمير الرها. وفى تلك الأثناء كان البرسقى وطغتكين وخيرخان وبقية حلفائهم قد تركوا حصار زردنا واتجهوا إلى حصار عزار — شمالى حلب على الطريق بين أنطاكية والرها<sup>(٣)</sup> — وعند عراز دارت المعركة بين الصليبيين بقيادة بلدوين الثانى والمسلمين بقيادة البرسقى (أواخر مايو وأوائل يونيه سنة ١١٢٥)؛ فانتصر الجانب الأول انتصاراً كاملاً، وكسر البرسقى كسرة عظيمة واستشهد

(1) Runciman: op. cit; II, p. 173.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب (P. 651) &

Foucher de Chartres, p. 471.

(3) Guillaume de Tyr, p. 580.

جماعة من المسلمين من السوقة والعامّة « (١) . وقد قدر المؤرخون الصليبيون عدد قتلى المسلمين بألفين ، وقدرهم ابن الأثير بأكثر من ألف (٢) . أما بقية الجيش الإسلامي فقد ولى الأدبار ، تاركين خلفهم عدداً كبيراً من الأسرى وقدرا هائلا من الغنائم . وبعد ذلك دارت بين الفريقين مفاوضات قصيرة انتهت بتسليم اجنة بلدوين الثاني الصغيرة وابن الأمير جوسلين دي كورتناى ، وغيرهما من الرهائن التي كانت فى حوزة سلطان بن منتقد أمير شيزر (٣) . ثم عاد بلدوين الثانى إلى بيت المقدس بعد أن عقد صلحا مع البرسقى احتفظ فيه المسلمون بكفر طاب ، فى حين رجع البرسقى إلى الموصل بعد أن ترك حامية فى حلب (٤) .

على أن الملك بلدوين الثانى لم يهدأ عن حرب المسلمين ، واختار تلك المرة أن يهاجم طغتكين ، فقام بحملة على إمارة دمشق سنة ١١٤٦ . وقد استهدفت خطة بلدوين مهاجمة مدينة دمشق نفسها ، فأبحه إلى حوران ومنها إلى وادى النقرة فوادى مرج الصفرفوادى العجم ، حتى وصل فى منتصف يناير سنة ١١٢٦ إلى الأطراف الشمالية من إقليم شرخوب . وعند تل شتجب - إلى الجنوب الغربى من دمشق - دارت المعركة بين طغتكين وبلدوين الثانى فى ٢٥ يناير سنة ١١٢٦ ، وفيها هزم طغتكين وقتل عدد كبير من رجاله (٥) وعندما انصرف الصليبيون لمطاردة المسلمين ، انقض التركان على المعسكر الصليبي وقد خلا من المدافعين عنه ، فتهبوا « خيامهم وأموالهم وجميع مامعهم » (٦) . أما بلدوين الثانى فقد طارد الدماشمة حتى عمبة شحوا ، ثم عاد إلى بيت المقدس

(١) ابن العديم: زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. III, p. p. 651)

(٢) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥١٩ هـ .

(٣) Guillaume de Tyr, p. 580.

(٤) ابن العديم: زبدة الحلب (p. 651)

(٥) سبط بن الجوزى: مرآة الزمان (Rec. Hist. Or. p. 506)

(٦) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٣٠ هـ .

وقد ذكر ابن الأثير أن هذه المعركة دارت عند قرية شقجيا .

حيث استنجد به أمير طرابلس لمعاونته في حصار ريفية<sup>(١)</sup>.

ذلك أنه حدث في مارس سنة ١١٢٦ أن هاجم بونز أمير طرابلس قلعة ريفية التي كانت — مثل حمص — تابعة لأتابك دمشق، وتمتع بموقع هام بحكم إشرافها على أطراف وادي نهر العاصي فيما بين حماة وحمص. ولم يرض الصليبيون عن انتزاع المسلمين ريفية منهم سنة ١١١٥، بل شيد الأمامير بونز صاحب طرابلس فوق مرتفع على مقربة منها قلعة بعين، لشن إغارات دائمة على ريفية<sup>(٢)</sup>. وعندما هدد بونز ريفية سنة ١١٢٦ وساعده بلدوين الثاني «وضيقوا عليها»، لجأ حاكم ريفية — شمس الخواص — إلى الاستنجد بطغتكين أتابك دمشق، والبرستي أتابك حلب والموصل. على أن ريفية لم تستطع المقاومة حتى تأميمها النجدة، فاستسلمت بعد حصار ثمانية عشر يوماً، واستولى عليها أمير طرابلس ليشن منها غارات مستمرة على منطقة حمص. هذا إلى أن استيلاء الصليبيين على ريفية أمن الطريق بين بيت المقدس وأنطاكية، كما أن إمارة طرابلس ذاتها<sup>(٣)</sup>.

وفي ذلك الوقت خرج البرستي من الموصل إلى بلاد الشام عن طريق منبج فأرسل ابنه عز الدين مسعود إلى حمص لإبعاد الصليبيين عنها، واتجه هو نفسه إلى إمارة أنطاكية حيث حاصر الأتارب واستولى على بعض أطرافها، مما جعل الملك بلدوين الثاني يسرع إليه لصدده<sup>(٤)</sup>. ويبدو أن موقف ملك بيت المقدس عندئذ كان حرجاً إلى حد كبير، لأنه في الوقت الذي تعرضت إمارة أنطاكية

(1) Stevenson : op. cit. p. 118.

(2) Grousset : Hist. des Croisades I D, 641.

(٣) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٦

ابن العديم: زبدة الحلب (p. 652) &

Foucher de Chartres, p. 480.

(٤) ابن العديم: زبدة الحلب (Rec. Hist. Or III, p. p. 652-953)



لهجوم البرسقي ، قام أسطول فاطمي بمهاجمة موانئ فلسطين الصليبية . على أن خطر البرسقي كان أوضح وأشد قربا ، ولذلك اتجه بلدوين لإبعاده أولا ، واشترك معه جوسلين دي كورتناي أمير الرها . ويروي ابن العديم أن الملك بلدوين الثاني بعث إلى البرسقي يعرض عليه الصلح ، ويقول له « ارحل عن هذا الموضع واتفق على ما كنا عليه في العام الخالي ونعيد رغبة عليك »<sup>(١)</sup> . فوجد البرسقي أن هذا العرض مرضي ، لاسيما وأنه كان يخشى أن يحل بالمسلمين مثلما حدث لهم عند عزاز ، فانسحب وعدل عن حصار الأثارب . ولم تلبث أن تجددت الهدنة بين الطرفين ، وعاد البرسقي من حيث أتى بعد أن قام ببعض غارات محليّة في مناطق سرمين ودانيث ، ووصل الموصل يوم ٢٦ نوفمبر سنة ١١٢٦ حيث قتل في اليوم نفسه بيد أحد الباطنية<sup>(٢)</sup>

أما الأسطول الفاطمي الذي خرج من الاسكندرية ودمياط فقد اتجه إلى العريش فغزة وعسقلان ، ثم أخذ يقسّم بعضاً من الوقت أمام موانئ يافا وقيسارية وعكا وصور وصيدا ويبروت ، على إيجاد فرصة لمباغطة الصليبيين . وأخيراً دت السفن الفاطمية إلى مصر بعد اشتباك قصير مع الصليبيين في مدينة بروت<sup>(٣)</sup>

### بوهيموند الثاني أمير أنطاكية

لم يهمل تنكرد أو روجر الأنطاكي أو الملك بلدوين الثاني ملك بيت المقدس حق بوهيموند الصغير — أو الثاني — ابن بوهيموند الكبير في إمارة أنطاكية؛ وكل ما هنالك هو أن بوهيموند الثاني كان صغيراً وقت وفاة أبيه ، فظل في

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ( p. 654 ) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٠ هـ .

ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٤ .

(3) Guillaume de Tyr, p. p, 587 — 588.

( م ٣٤ — الحركة )

كنف أمه في إيطاليا حتى بلغ الثامنة عشر من عمره ، وعثدئذ خرج من أوترانتو هلى رأس أسطول من أربع وعشرين مركبا مليئا بالمقاتلين والخيول والزاد ، وأتجه إلى الشام لمباشرة حقه الشرعى فى حكم أنطاكية ، فوصل ميناء السويدية فى أوائل أكتوبر سنة ١١٢٦<sup>(١)</sup> . وكان أن استقبله الملك بلدوين التسانى فى أنطاكية استقبالا حاراً ليسلمه إمارته ، ثم ليعرض عليه الزواج من ابنته الثانية إليس ؛ الأمر الذى تم فعلا فى سبتمبر سنة ١١٢٧ والذى ترتبت عليه تقوية الرابطة بين مملكة بيت المقدس وإمارة أنطاكية فى عهدنا الجديد<sup>(٢)</sup> .

وسرعان ما أثبت بوهيموند الثانى أنه لا يقل تحمسا للهدف الصليبي وبلاءاً فى محاربة المساهين عن أبيه ، حتى لقد وصف أسامة بن منقذ مجيئه إلى الشرق بأنه « بلية عظيمة » على المسلمين<sup>(٣)</sup> . ولم يلبث أن استرد بوهيموند الثانى كفرطاب التى سبق أن انتزها آقسنقر أنابك الموصل وحلب سنة ١١٢٥ من إمارة أنطاكية . كذلك قام بوهيموند الثانى بعدة هجمات سنة ١١٢٩ على المسلمين ، فاستولى منهم على حصن القدموس<sup>(٤)</sup> .

وفى ذلك الوقت ساءت أحوال حلب بعد مقتل البرستقى فى نوفمبر سنة ١١٢٦ . ويبدو أن حالة الفوضى التى غرقت فيها حلب فى تلك الفترة ، أغرت جميع جيرانها الأبعدين والأقربين — من المسلمين والصليبيين سواء — على اهتبال تلك الفرصة للاستيلاء على المدينة . من ذلك أن جوساين دى كورتناى أمير الرها أسرع إلى حلب سنة ١١٢٧ ، فى الوقت الذى خف إليها أيضا بوهيموند

(1) Foucher de Chartres, p. p. 481 - 483.

(2) Foucher de Chartres, p. 485.

(٣) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١٢١ .

ويطلق أسامة على بوهيموند الثانى اسم « ابن ميمون » وعلى أبيه بوهيموند الأول

اسم « ميمون » .

(٤) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٣٤ .

الثانى أمير أنطاكية ، مما أثار نوعاً من التنافس الشديد ، بل العداء المكشوف بين الأميرين الصليبيين بسبب رغبة كل منهما فى الافراد بالقيصة وحده<sup>(١)</sup> .  
والواقع أنه ربما كانت هناك عوامل أخرى باطنية سببت النفور بين الأميرين . ذلك أنه يبدو أن جوسلين دى كورتناى كان يأمل أن يفوز فى يوم ما بعرش مملكة بيت المقدس بحكم قرابته من بلدوين الثانى من ناحية ، وبحكم السوابق التى جعلت كلا من بلدوين الأول وبلدوين الثانى يرتقى من أمير للرها إلى ملك على بيت المقدس من ناحية أخرى . ولكن زواج بوهيموند الثانى من ابنة الملك بلدوين الثانى ملك بيت المقدس ، جعلت من بوهيموند منافساً خطيراً لجوسلين فى مطامعه فى عرش بيت المقدس ؛ وهذا هو بسض السرفى النفور بين الرجلين<sup>(٢)</sup> . ومهما يكن من أمر ، فقد أسرع بلدوين الثانى إلى أنطاكية ونجح بمهارته فى تسوية النزاع بين بوهيموند الثانى وجوسلين قبل أن يتفاقم .  
على أن الخطر الذى هدد بوهيموند الثانى وأودى بحياته جاء من ناحية الشمال ، أى من ناحية بنى دانشمند التركمان . ذلك أن الأمير الأرمنى ثوروس الأول ( ١١٠٠ - ١١٢٩ ) استطاع أن يؤسس إمارة قوية فى قيليقية ، وانتزع من البيزنطيين سيس وعين زارب ( عين زربة ) . ولكن وفاة ثوروس سنة ١١٢٩ ، ثم وفاة ابنه قنسطنطين مسموماً بعد قليل ، جعلت تلك الإمارة الأرمينية تعاني كثيراً من المطامع الخارجية والمتاعب الداخلية<sup>(٣)</sup> . وقد جاء الخطر الكبير الذى واجهته تلك الإمارة من جانب الأمير إبلغازى بن الدانشمند — صاحب ملطية — من ناحية الشمال ، والأمير بوهيموند الثانى — صاحب أنطاكية — من ناحية الجنوب . ولم يلبث أن تقابل هذان الخصمان — الأتراك والنورمان —

(1) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 651.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٢ هـ .

(3) Iorga : L'Arménie Cilicienne, pp 92 - 93.

في سهل عين زربة ، حيث دارت في فبراير سنة ١١٣٠ معركة انتصر فيها الأتراك وقتل بوهيموند الثاني نفسه لعدم معرفة شخصيته . ويقال إن الأمير إيلغازي عندما عرف رأس بوهيموند أرسلها إلى الخليفة العباسي في بغداد ، ومعها هدايا كثيرة من الخيل والسلاح ( فبراير سنة ١١٣٠ ) (١) .

ولا شك في أن مقتل بوهيموند الثاني وهو في شرح شبابه ولم ، يمض على قيامة في حكم أنطاكية سوى ثلاث سنوات وثلاثة شهور ، جاء كارثة كبيرة للصليبيين ، لأنه كان يبشر بأمل عظيم ومستقبل زاهر في مجال النشاط الصليبي . وهكذا عادت أنطاكية مرة أخرى تحت وصاية الملك بلدوين الثاني . وكان بوهيموند الثاني قد أنجب من زوجته إليس - ابنة الملك بلدوين الثاني - طفلة صغيرة هي الأميرة كونستانس . وهذه الأميرة الصغيرة صارت الوريثة الشرعية لإمارة أنطاكية ، وذلك وفقاً للقانون الإقطاعي الغربي . لذلك حزنت إليس في قرارة نفسها ، وكان يهمها أن ترث الإمارة بعد زوجها التذوق طعم السلطان (٢) ولم تحجم إليس في سبيل تحقيق أطباعها عن التآمر مع المسلمين ضد المصالح الصليبية ، فأرسلت فرساً مطهما مع رسول يحمل رسالة سرية إلى زنكي - أنابك حاب - تطالب مساعدته ، مقابل تعهدا بالتبعية له (٣) . وقد شاء حسن حظ الصليبيين ألا تصل هذه الرسالة وإنما وقعت في يد الصليبيين وعلم بها الملك بلدوين الثاني الذي استشاط غضبا من حماقة ابنته ، واتجه فوراً صوب أنطاكية ليحقق بنفسه في الأمر . وهنا تمادت إليس في طيشها فأعلنت الثورة على أبيها ، وأغلقت في وجهه أبواب أنطاكية (٤) . ولم يكن معقولا أن يوافق أعيان أنطاكية وأمرائها

(1) Michel Le Syrien, p. 227 .

(2) Setton : op. cit, I, p. 431.

(3) Runciman : op. cit; II, p. 183.

(4) Stevenson : op. cit, p. 129.

على تلك التصرفات من جانب إيلس ، فثاروا ضدها وفتحوا الملك ومن معه  
— مثل جوسلين دي كورتناى وفولك الأنجوى — أبواب المدينة . وكان أن  
وضع بلدوين الثانى أنطاكية تحت وصايته إلى أن تسكبر الأمير كونستانس ، فى  
حين أقطع ابنته إيلس اللاذقية وجبله لتميش فى تلك الجهات الساحلية بعيداً  
عن أنطاكية وعن الأتراك فى حلب<sup>(١)</sup> .

---

(1) Guillaume de Tyr. p. p. 599 — 601 &  
ابن العديم : زبدة الحلب ( III, p. p. 660 — 661 ) .

## الفصل الثالث فولك الأنجوى ملك بيت المقدس

### نهاية بلدوين الثانى :

كان على بلدوين الثانى أن يفكر فى مصير عرش مملكة بيت المقدس من بعده ، حيث أنه لم يرزق من زوجته الأرمينية مورفاسوى أربع بنات ، زوج إحداهن — إليس — للأمير بوهيموند الثانى صاحب أنطاكية سنة ١١٢٦ ، كما مر بنا . غير أن بلدوين الثانى لم يفكر إطلاقاً فى أن يجعل من بوهيموند الثانى وريثاً له فى مملكة بيت المقدس ، وإنما اختار أن يبعث سفارة من رجاله إلى فرنسا سنة ١١٢٨ لاختيار أحد الأمراء المعروفين بشجاعتهم ومقدرتهم ، فرشح لويس السادس ملك فرنسا لتلك المهمة فولك الخامس الأنجوى ، وهو من أقدر أمراء المملكة الفرنسية عندئذ . وكان أن حضر الأمير فولك إلى مملكة بيت المقدس فى ربيع سنة ١١٢٩ ، وبعد قليل تزوج من ميلزاند ابنة الملك بلدوين الثانى الكبرى ، ثم أقطع الملك زوج ابنته مدينتى صور وعكا . وهكذا أصبح فولك الأنجوى — بحكم زواجه من وريثة بلدوين الثانى — هو ملك بيت المقدس المقبل<sup>(١)</sup> .

ثم إن بلدوين الثانى أراد أن يرثه خليفته فولك على محاربة المسلمين ، فصاحبه عقب زواجه من ابنته سنة ١١٢٩ فى حملة لهاجمة دمشق ، التى كان حاكماً

(1) Guillaume de Tyr, I, p. 594.

طفتكين قد توفي في فبراير سنة ١١٢٨ تاركا المدينة في حالة شديدة من الفوضى ، بسبب ازدياد نفوذ الباطنية الذين « قويت شوكتهم وتضاعفت مضرتهم »<sup>(١)</sup> .

وأخيراً توفي بلدوين الثاني في ٢١ أغسطس سنة ١١٣١ بعد أن حكم ثلاثة عشر عاماً ، تاركا خلفه فولك الأنجوى ليخلفه في حكم بيت المقدس . وقد احتفل بتتويجه ملكاً بكنيسة القيامة في ١٤ سبتمبر سنة ١١٣١<sup>(٢)</sup> ،

### أحوال الإمارات الصليبية عند قيام فولك في الحكم:

ولم يكد الملك فولك يتولى حكم مملكة بيت المقدس ، حتى توفي جوسلين دى كورتناى أمير الرها ، تاركا فراغاً كبيراً في المجال الصليبي في شمال العراق والشام . وقد ظل جوسلين يحارب المسلمين — رغم تقدم سنه — حتى آخر لحظة؛ ومن ذلك ما يرويهِ ابن العديم من أنه اشتبك سنة ١١٣١ — وهى السنة نفسها التى توفي فيها — في حرب ضد الحلبيين شمالى مدينة حلب « وقتل من المسلمين جماعة »<sup>(٣)</sup> .

وكان جوسلين أثناء تلك العمالية الحربية الأخيرة يفحص لغماً بثه الصليبيون تحت جدار أحد الحصون في تلك المنطقة ، فأنهار الحائط عليه وأخرجه أصحابه بصعوبة وقد تهشمت عظامه ، فنقل إلى تل باشر في حالة سيئة حيث باتت وفاته متوقعة بين لحظة وأخرى<sup>(٤)</sup> .

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق س ٢٠ ، — ٢٢١ .  
ابن الأثير : الكامل ، سنة ٥٢٣ هـ .

(2) Guillaume de Tyr, p. p. 601 — 602

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ( Rec. Hist. Or. III, p. 661 )

(4) Michel Le Syrien p. 232.

وبينا جوسلين دى كورتنای يعانى آلام الموت البطيء ، جاءت الأخبار بأن مسعود الأول سلطان قونية (١١١٦ - ١١٥٥) أخذ يحاصر قلعة كيسوم فى الشمال الغربى من إمارة الرها ، جنوبى بهسنى . وكانت كيسوم هذه تتمتع بأهمية خاصة عند الصليبيين ، لالموقعها الحربى الهام فحسب ، بل أيضاً بسبب أهميتها الدينية ، بعد أن انتقل إليها كرمى بطرق اليعاقبة بأنطاكية<sup>(١)</sup> . لذلك خرج جوسلين دى كورتنای - وهو على شفا الموت - لتتال الأتراك ، فحملوه إلى كيسوم . ولكنه وجد أن السلاجقة تركوا حصار القلعة وانصرفوا . ولم يلبث أن توفى جوسلين دى كورتنای بعد ذلك ، فى أواخر سنة ١١٣١<sup>(٢)</sup> .

وكان أن خلف جوسلين دى كورتنای - فى إمارة الرها - ابنه جوساين الثانى ، الذى كان جباناً لا يملك شيئاً من عزيمته أبية وحماسته وشجاعته . وسنرى أنه عند ما رأى الرها معرضة لتهديد المسلمين المستمر ، آثر أن يتركها ويقيم فى تل باشر لينعم بتسقط من الهدوء ، مما ترتب عليه ضياع الرها من قبضة الصليبيين . وهكذا مرت إمارة الرها بفترة عصيبة دون رجل قوى يذود عنها فى الوقت الذى جمع عماد الدين زنكى بين حكم الموصل وحلب «فاشند أزر المسلمين بتلك الأعمال وضعفت قوى الكافرين ، وعلموا أن البلاد قد جاها ما لم يكن فى حساب . وصار قصاراهم حفظ ما فى أيديهم بعد أن كانوا قد طمعوا فى الملك الجميع»<sup>(٣)</sup> .

هذا عن الرها ، أما أنطاكية فكانت أحوالها لا تقل خطورة فى الوقت الذى اعتلى فولك عرش بيت المقدس . ذلك أن إمارة أنطاكية ظلت بلا رائد

(1) Grousset : Hist. des Croisades II, p. 7.

(2) Guillaume de Tyr, p ٤10.

(٣) يشير ابن الأثير فى هذا النص إلى بداية انحلال الصليبيين من ناحية ومولد الوحدة الإسلامية على يد زنكى من ناحية أخرى (الكامل؛ حوادث سنة ٥٢٤ هـ) .



عقب مقتل بوهيموند الثاني في فبراير سنة ١١٣٠ لأن ابنته الوحيدة ووريثته — كونستانس — كانت طفلة صغيرة . ولم تنقطع أم هذه الطفلة — الأميرة إليس — عن تدبير المؤامرات للوصول إلى الحكم في أنطاكية ، بعد أن توفي والدها بلدوين الثاني الذي أحبط مؤامرتها الأولى <sup>(١)</sup> . وفي تلك المرة لم تحاول إليس الإلتجاء إلى عماد الدين زنكي ، وإنما استطاعت أن تكتسب بمهارتها وكياستها وهداياتها ثلاثة من أمراء الصليبيين ، هم ولئم صاحب حصن صهيون على بعد عدة كيلو مترات من اللاذقية ، وجوسلين الثاني أمير الرها ، وبونز أمير طرابلس . وبمساعدة هؤلاء الثلاثة دبرت إليس مؤامرة سنة ١١٣٢ للعودة إلى أنطاكية والتبض على زمام الأمور فيها . على أن فرسان أنطاكية أحسوا بالمؤامرة ، وأدركوا أنه إذا نجحت إليس في تحقيق أهدافها ، فإن ذلك يعنى القضاء المبرم على الإمارة ، فأرسلوا إلى فولك ملك بيت المقدس يستنجدون به <sup>(٢)</sup> .

وعندما أسرع الملك فولك لإحباط المؤامرة ، لم يسمح له بونز أمير طرابلس بالمرور في أراضيه ، ولكن فولك نفذ إلى بيروت رغم ذلك ، واختار أن يرجع انتقامه من بونز إلى وقت آخر <sup>(٣)</sup> . ومن بيروت ركب الملك فولك البحر إلى السويدية ومنها إلى أنطاكية ، حيث رحب به فرسانها ونادوا به وصياً على الأميرة الصغيرة كونستانس بدلا من سلفه بلدوين الثاني . ويبدو أن تلك الغطورات لم تعجب بونز ، فتدخل بوصفه حامياً للأميرة إليس ، وساعده بعض الأمراء الصليبيين في التلاع المجاورة ، حتى اتخذت الحركة شكل ثورة عامة ضد الملك فولك في شمال الشام <sup>(٤)</sup> . ولكن يبدو أن أولئك الأمراء الثائرين لم يعرفوا فولك حق المعرفة ، وهو الفارس القوي الذي قضى عشرين سنة في فرنسا ،

(1) Stevenson : op. cit, n. 131.

(2) Guillaume de Tyr, p. 611.

(3) Michaud : op. cit, II, p. 85.

(4) Stevenson : op. cit, p. 141

عرك فيها حياة الفروسية والإقطاع . لذلك لم يتردد فولك أمام تهديد بونز وحلفائه ، ونازلهم حتى اضطر بونز إلى الفرار ، تاركاً عدداً من فرسانه أسرى في قبضة الملك فولك<sup>(١)</sup> . ومع ذلك فإن الملك فولك لم يمانع في العفو عن بونز ورفاقه بعد أن لقنهم درساً قاسياً في وجوب احترام سلطة الملك من ناحية ، ومراعاة الآداب والأصول الإقطاعية من ناحية أخرى<sup>(٢)</sup> .

وبعد أن أقام فولك عدة أيام في أنطاكية نظم فيها أمورها بوصفه وصياً على الإمارة ، وعهد بشئونها الإدارية إلى رينو ماسوير Renaud Masoier ، عاد إلى بيت المقدس .

### فولك واندفاع عن الإمارات الصليبية ضد المسلمين :

وقد رأى الأتراك التركان أن يفيدوا من حوادث الشقاق السابقة بين الصليبيين ، فأتت جموع كبيرة منهم من أرض الجزيرة وعبروا الفرات ، وأغاروا على الأراضى الواقعة شرقي نهر العاصى من ممتلكات إدارة أنطاكية ، واتخذوا مناطق معرة النعمان وكفر طاب قواعد لأعمالهم الحربية في تلك الجهات<sup>(٣)</sup> على أن الصليبيين لم يلبثوا أن تناسوا خصوماتهم أمام ذلك الخطر ( أبريل سنة ١١٣٣ ) وطردوا أولئك المغيرين ، وافتهمزوا فرصة تلك المطاردة ليستولوا أيضاً على حصن قبة ابن ملاعب قرب حماة « وخربوا الموضع »<sup>(٤)</sup> .

(١) أشار كل من ابن الأثير وابن العديم إلى تلك الأحداث الصليبية . فقال ابن الأثير : « وفيها (سنة ٥٣٧ هـ) وقع الخلف في الشام بين الفرنج ، فقاتل بعضهم بعضاً ، فلم يجر لهم بذلك عادة قبل هذه السنة ، وقتل بينهم جماعة » . أما ابن العديم فقال : « وقع بين الفرنج في هذه السنة فتين ، وقتل بعضهم بعضاً ، وقتل صاحب زردنا » . (زبدة الحلب 664 p.)

(2) Guillaume de Tyr, p. p, 612 — 613.

(3) Setton : op. cit; I, p. 433

(4) ابن العديم : زبدة الحلب (665 - 664) (Rec. Hist. Or. III, 664 - 665)

على أنه إذا كان التركمان قد اضطروا إلى الابتعاد عن إمارة أنطاكية ، فإنهم لم يلبثوا أن اتجهوا صوب إمارة طرابلس حيث اعتقدوا على الأهالي واستولوا على كثير من ممتلكاتهم . وهنا خرج بونز أمير طرابلس للدفاع عن إمارته ، فاستدرجه التركمان حتى أوقعوا به الهزيمة وأخذوا مذبحاً كبيرة بين الصليبيين ، في حين اضطر بونز نفسه إلى اللجوء إلى قلعة بعيرين - شرقي أنطراطوس - حيث حاصره التركمان ( أكتوبر ١١٣٣ )<sup>(١)</sup> .

وفي تلك الأثناء كان الصليبيون في أنطاكية قد استنجدوا بالملك فولك الذي زحف على الفور صوب الشمال ، في الوقت الذي استطاع بونز الفرار من قلعة بعيرين . ويذكر ولیم الصوري أن التركمان سرعان ما جلوا عن بعيرين عندما علموا باقتراب فولك ، في حين ذكر ابن الأثير وابن القلانسي أن التركمان لم يتراجعوا عن بعيرين إلا بعد معركة حامية بينهم وبين الصليبيين<sup>(٢)</sup> .

وبعد أن أمن فولك إمارة طرابلس من خطر التركمان ، اتجه صوب أنطاكية . وفي ذلك الوقت قصد سيف الملك بن عمرون - صاحب حصن القدموس السابق<sup>(٣)</sup> - أنطاكية لمخالفة الصليبيين ضد حلب . وقد رحب فولك على الفور بتلك المخالفة ، لا سيما وأن سوار حاكم حلب من قبل زنكي كان يستعد للاشتراك مع التركمان للقيام بغارة على أنطاكية سنة ١١٣٣ . وكان أن دارت معركة بين الطرفين عند قنسرين جنوبي حلب ، انتهت بانتصار فولك

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٠

ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٥٢٧ هـ .

(٢) « وتوجه بهم نحو التركمان ليرحلمهم عن بعيرين ، فلما سمع التركمان بذلك قصدوهم والتقوا بهم وقتل بينهم خلق كثير ، وأشرف الفرنج على الهزيمة . . . »

ابن الأثير : السكامل ؛ حوادث سنة ٥٢٧ هـ .

(٣) يذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٥٢٧ هـ أن الإسماعيلية في الشام اشتروا في تلك السنة قلعة حصن القدموس من صاحبه ابن عمرون :

وهزيمة سوار والتركان<sup>(١)</sup>؛ وإن كانت بعض المراجع العربية لم تشر في وضوح إلى تلك الهزيمة<sup>(٢)</sup>. وهكذا استطاع الصليبيون أن يحتفظوا بمكانتهم في شمال الشام بفضل جهود الملك فولك، على الرغم من الإغارات التي دأب سوار على شنّها على الممتلكات الصليبية مثل الجزر وحصن زردنا ومعرة النعمان ومعرة مصرين سنة ١١٣٤، أي بعد عودة فولك إلى بيت المقدس<sup>(٣)</sup>.

وفي تلك الأثناء لم يهمل الصليبيون مملكة بيت المقدس ذاتها، التي كانت أمورها — أثناء غياب فولك في الشمال — تسير سيراً طيباً بفضل توجيهات البطارق وليم دى مسين. من ذلك ما لجأ إليه الصليبيون من تأمين طريق الحجاج بين يافا وبيت المقدس، وحمايتهم من إغارات المسلمين الذين كثيراً ما كانوا يخرجون من عسقلان تهديدهم. ولذلك شيد الصليبيون في أواخر سنة ١١٣٢ وأوائل سنة ١١٣٣ حصن بيت نوبا في منتصف الطريق بين اللد وبيت المقدس<sup>(٤)</sup>. ثم أكمل الملك فولك تلك التحصينات بإقامة بيت جبرين (جبريل) سنة ١١٣٧ في منتصف الطريق بين الخليل وعسقلان، وعهد بحماية تلك القلعة إلى الفرسان الاستبارية<sup>(٥)</sup>.

(1) Guillaume de Tyr, p. 616.

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٠ — ٢٤١ &

ابن الأثير: الكامل، سنة ٥٢٧ هـ.

وقد ذكر ابن القلانسي عن تلك الواقعة «خمل الأفرنج عليهم فكسروهم كسرة عظيمة قتلوا فيها من المسلمين تقدير مائة فارس، فيهم جماعة من المقدمين المشهورين المذورين».

أما ابن الأثير فقد قال عن تلك الواقعة: «فاقتلوا عند قنسرين فقتل من الطائفتين جماعة كثيرة، وانهمزم المسلمون إلى حلب».

(٣) ابن المديم: زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. III, p. 667)

ويذكر الأثير: (الكامل، حوادث سنة ٥٢٧ هـ) «وفيها أغار الأمير سوار مقدم عسكر زنكي بحلب على ولاية تل باشر فغتم السكثير؛ فخرج إليه الفرنج جموع كثيرة فقاتلوه، فظفر بهم وأكثرت القتل فيهم».

(4) Guillaume de Tyr, I, p. 617.

(5) King: The Knights Hospital'ers, p. 34.

### متاعب الصليبيين الراملية :

على أن الأمور لم تنتظم لفولك في سهولة على طول الخط ، إذ واجهته أثناء حكمه متاعب كثيرة ، ومشاكل داخلية هددت جهاز الصليبيين بالشام . ومن هذه المتاعب ما ارتبط بالأطباع السياسية للامراء ، ومنها ما تعلق بالأمور الكنسية . من ذلك الثورة التي قام بها هيو الثاني حاكم يافا ضد فولك ملك بيت المقدس سنة ١١٣٢ . وكان هيو الثاني هذا على علاقة بالملكة ميلزاند ابنة بلدوين الثاني وزوجة فولك — وهي العلاقة التي قواها أن هيو الثاني كان متزوجا من أرملة تكبره بكثير في السن ، في حين أن الملكة ميلزاند لم تبادل زوجها فولك الحب لأنه كان بدوره يكبرها بكثير في السن . ولم تلبث أن انقضت الشائعات بالعلاقة بين هيو الثاني أمير يافا وملكة بيت المقدس زوجة فولك ، مما أثار غيرة الأخير وحقد الأول . وعندما ساء موقف هيو الثاني اضطر إلى الفرار للاختباء بالفاطميين في عسقلان (١) .

وقد استغل الفاطميون تلك الخيانة — وما نتج عنها من فرقة في صفوف الصليبيين — وأغاروا على إقليم يافا حتى وصلوا إلى مشارف أرسوف ، في الوقت الذي أسرع أتابك دمشق من جانبه إلى تهديد الممتلكات الصليبية واحتلال بانياس . ولكن الجيوش الصليبية أسرعت من بيت المقدس واحتلت يافا لحمايتها من الفاطميين . أما هيو الثاني فقد حكم عليه بالنفي ثلاث سنوات ، ولكنه قبل رحيله تعرض لاعتداء من أحد فرسان بيت المقدس فأصيب بإصابة خطيرة ، ومهما يكن من أمر ، فإن هيو الثاني لم يمت ، وإنما أبحر إلى روجر الثاني ملك صقلية الذي منحه إمارة جارجانو ، حيث مات بعد قليل (٢) . وأما ميلزاند ملكة بيت المقدس

(1) Besant, Palmer: Jerusalem, p. p. 291—292.

(2) Guillaume de Tyr, p. p. 627—633.

فقد غضبت غضباً شديداً لما حل بعشيتها هيو الثاني ، وأخذت تتحين الفرص للانتقام ، في حين لم يجد فولك بداً من استرضاء زوجته الشابة بإعطائها مزيداً من السلطان والنفوذ<sup>(١)</sup> . ولم يلبث أن ظهر نفوذ الملكة واضحاً ، ليس فقط في شئون مملكة بيت المقدس ، بل أيضاً في شئون أنطاكية .

ذلك أن المتاعب الداخلية التي واجهت الملك فولك في تلك الفترة لم تنحصر داخل حدود مملكته فحسب ، بل عمت أيضاً بقية الإمارات الصليبية ، وبخاصة إمارة أنطاكية التي قام فولك بالوصاية عليها وعلى صاحبها القاصر الأميرة كونستانس . ولم يلبث الملك فولك أن واجه في أنطاكية المتاعب نفسها التي واجهها سلفه بلدوين الثاني ، وهي متاعب مصدرها أطماع البطرق رادلف من جهة والأميرة إليس من جهة أخرى<sup>(٢)</sup> . وكان البطرق رادلف طموحاً ، استطاع بذلك أن يمكن نفسه في قلوب الأمراء والعامة في أنطاكية ، وحاول أن يستغل بشئون كنيسته متجاهلاً سلطة البابوية وحقوقها ، فضلاً عن أنه دأب على التدخل في الشؤون السياسية والحربية<sup>(٣)</sup> .

أما الأميرة إليس فلم تتنازل في منفاها باللاذقية عن رغبتها في السيطرة على شئون أنطاكية وانزعاق حقوق ابنتها كونستانس ، واستعانت في تحقيق ذلك بأختها الملكة ميلزاند ، زوجة فولك الشابة المدللة<sup>(٤)</sup> . وكان تأثير ميلزاند على زوجها قد أخذ يزداد وطأة ووضوحاً ، فرضخ الملك لزوجته ووافق على عودة إليس إلى أنطاكية والقيام بتوزيع المناصب على فرسان الإمارة ، مما جعل إليس — بالاشتراك مع البطرق رادلف — يمثلان السلطة الفعلية الحاكمة في إمارة أنطاكية<sup>(٥)</sup> .

(1) Ranciman : op. cit, II, p. 193.

(2) Setton : op. cit, I, p. 436.

(3) Guillaume de Tyr. I, p. p. 619—620.

(4) Stevenson : op. cit, p. 135.

(5) Guillaume de Tyr, p. 636.

وسرعان مادب التنافس بين إليس والبطرق رادلف في الوقت الذي كان زنكي والمسلمون يرقبون بعين الرضى ضعف إمارة أنطاكية وانحلال أمورها، ثم إن رادلف لم يلبث أن وقع في خلاف مع رجال كنيسة، مما ترك إليس مطلقة اليد في شئون الإمارة. وقد أحست إليس بكره الصليبيين لها بعد أن انكشفت علاقتها بزنكي، فحاولت أن تعتمد على تأييد المسيحيين المحليين، وأرسلت في نهاية سنة ١١٣٥ إلى الإمبراطور البيزنطي تعرض عليه زواج ابنتها كونستانس من ابن الإمبراطور<sup>(١)</sup>. وقد ارتاع أمراء أنطاكية ورجال كنيسة لذلك الاتجاه الذي سيجعل منهم تابعين للدولة البيزنطية وكنيسة الشرقية، فأرسلوا فوراً إلى الملك فولك طالبين منه اختيار عريس مناسب للأميرة كونستانس، ليرعى شئون الإمارة ويحفظها من الفوضى الداخلية والأخطار الخارجية، فوقع اختيار الملك على ريموند ابن الأمير ولیم التاسع أمير بواتيه<sup>(٢)</sup>.

ومع إحاطة ذلك المشروع بالسرية التامة خوفاً من أن تفسده الأميرة إليس أو البطرق رادلف، فقد صادف العريس ريموند بواتيه صعوبات كبيرة في طريقه، سواء في صقلية أو في أنطاكية، حتى تم تنفيذ الخطة سنة ١١٣٦ وأصبح ريموند أمير أنطاكية الجديد. وهكذا وجدت إليس نفسها وقد غلبت على أمرها فلم يسعها سوى الانسحاب إلى اللاذقية حيث قضت حياتها في شبه عزلة إلى أن ماتت بعد قليل<sup>(٣)</sup>. أما إمارة أنطاكية فقد وجدت ضالتها أخيراً في شخص ريموند، ذلك الأمير القوي الذي أجمع المؤرخون المسلمون والصليبيون على وصفه بقوة الإرادة والعزيمة<sup>(٤)</sup>.

ولم يلبث أن صادف ريموند أمير أنطاكية الجديد منافسة حادة، بل عداء

(1) Runciman : op. cit; II, p. p. 198\_199.

(2) Guillaume de Tyr, p. 618.

(3) Idem : p. p. 636-637.

(4) Grousset : Hist, des Croisades, II, p. 40.

ظاهراً — من رادلف بطرق أنطاكية . وهنابح الأمير ريمون في استماله بعض رجال الدين في أنطاكية إليه، فضلا عن بعض الأمراء؛ وشكوا جميعاً إلى البابوية سوء تصرفات رادلف مما اضطر الأخير إلى السفر إلى إيطاليا للدفاع عن نفسه (١) وعند عودة رادلف إلى أنطاكية، وجد أن أعداءه — من رجال الدين وغير رجال الدين — لم يتركوا رادلف مستمراً . ولم يلبث أن أدى تفاقم الموقف في أنطاكية بالبابا إلى إرسال مندوب للتحقيق، فعقد ذلك المندوب مجمعاً في كنيسة القديس بطرس بأنطاكية في ٣٠ نوفمبر سنة ١١٣٩، حضره جمع كبير من زعماء رجال الدين في مختلف الإمارات الصليبية، وانتهى الأمر بعزل البطريرك رادلف ثم وفاته مسموماً سنة ١١٤٢ . وبعد قليل أختير أميرى دى ليموج بطرقاً على أنطاكية محل رادلف (٢) .

### فوائد وثقافة كل الكنيسة :

وبالإضافة إلى المشاكل الداخلية ذات الطابع السياسى التي واجهها الملك فولك أثناء حكمه، صادفته أيضاً بعض مشاكل دينية ارتبطت بالكنيسة . وقد دارت أولى هذه المشاكل حول أسقفية صور . ذلك أن استيلاء الصليبيين على مدينة صور سنة ١١٢٤ أثار مشكلة حول تبعية كرسى صور، وهل يتبع هذا الكرسى بطريركية بيت المقدس أم أنطاكية، فوفقاً للنظام الكنسى البيزنطى فى القرن الحادى عشر، كانت صور مركزاً لرئيس أساقفة يتبعه أساقفة عكا وصيدا وبيروت وجبيل وطرابلس وأنطرسوس . وكان هؤلاء جميعاً — وعلى رأسهم رئيس أساقفة صور — يتبعون بطرق أنطاكية لا بطرق بيت المقدس (٣) . ولكن

(1) Setton : op. cit, p. 437.

(2) Guillaume de Tyr. I, p. p. 678—686.

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. p. 24—25



استيلاء جيوش مملكة بيت المقدس على صور ، ووجود بطرق بيت المقدس على رأس تلك الجيوش التي انزعت صور من المسلمين ، جعل بطرق بيت المقدس يطمع في أن يجعل صور خاضعة لإشرافه، للإشراف بطرق أنطاكية . أما رؤساء أساقفة صور أنفسهم فقد رفضوا أن يربطوا أنفسهم بأحد الطرفين المتنازعين ، على أساس أن البابا وحده هو الذى يمتلك حق الفصل فى النزاع ؛ وبذلك ظل رؤساء أساقفة صور يتمتعون باستقلالهم دون أن يعترفوا بالتهيبة لبطرق بيت المقدس أو لبطرق أنطاكية<sup>(١)</sup> .

ومن الواضح أن فولك وجد نفسه فى موقف حرج صعب إزاء تلك المشكلة، بوصفه ملك بيت المقدس من ناحية والوصى على إمارة أنطاكية من ناحية أخرى . وهكذا التزم فولك الحذر الشديد حتى لا يفضب أحد الجانبين ، حتى استطاع البابا أنوسنت الثانى أن يحل المشكلة حلا موفقا ارتاح له الجميع<sup>(٢)</sup> .

ويرتبط بالجانب الكنسى فى سياسة فولك ذلك الجمع الكبير الذى عقد فى بيت المقدس فى أبريل سنة ١١٤٠ . ذلك أن المنسوب البابوى الذى حكم بعزل رادلف بطرق أنطاكية ، أتجه بعد ذلك إلى بيت المقدس حيث عقد مجمعا كبيرا حضره زعماء الكنيسة الكاثوليكية فى مختلف الإمارات الصليبية . وترجع أهمية ذلك الجمع إلى أن جريجورى الثالث - رئيس الكنيسة الأرمنية - اشترك فيه ، مما أكسب الجمع أهمية سياسية خاصة . فكما أن ملكية بيت المقدس عملت على جمع شمل القوى الصليبية فى الشرق الأدنى تحت رايتها ، فكذلك عملت الكنيسة الكاثوليكية فى الشام على توحيد المسيحيين الشرقيين تحت زعامتها<sup>(٣)</sup> .

(1) Guillaume de Tyr, I, p. p. 623-624.

(2) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 26.

(3) Guillaume de Tyr, I, p. 687.

## الفصل الرابع

### القوى الإسلامية في الشام والعراق

أهوال - ملهقة فارس :

استطاع محمد بن ملكشاه سلطان سلاجقة فارس ( ١١٠٥ - ١١١٨ ) أن ينقذ الدولة السلجوقية من الاستمرار في طريق الانزلاق الذي تردت فيه منذ عهد بركيارق، وأن يقوم بنصيب وافر في محاربة الصليبيين في العراق والشام . حقيقة إن بعض المؤرخين العرب مثل ابن الأثير يأخذون عليه عدم خروجه بنفسه للجهاد ، وأنه كان يكتبني بإرسال أتابكة الموصل وهذان إلى الشام لتمثال الصليبيين ، ولكننا يجب أن نتدر الظروف التي أحاطت بالسلطان محمد السلجوقي ، وأنه كان لا يستطيع أن يترك أملاكه في فارس والعراق ليتنازعاها أمراؤه ، فضلا عن تربص العرب بالعراق ورغبتهم في التحرر من سيطرة السلاجقة . ولا أدل على ذلك من ثورة بنو مزيد ، وهي القبيلة العربية التي كانت تنتشر في العراق غربي دجلة في المنطقة من البصرة حتى هيت<sup>(٢)</sup> ، إذ انهز صدقه بن مزيد ( ١٠٨٦ - ١١٠٨ ) فرصة ضعف دولة السلاجقة للاستيلاء على المنطقة الواقعة حول الحلة ، غربي الفرات . ولم يلبث صدقه أن «عظم شأنه وعلاقده وامتنع جاهه واتسع ، واستجار به صغار الناس وكبارهم فأجارهم» ، فأخذ لنفسه لقب «سيف الدولة» ، وأخذ يعمل لإنشاء دولة لنفسه في العراق ، مستقلة عن نفوذ السلاجقة والخلافة العباسية جميعا ، مما جعل المؤرخ ابن الأثير يطلق عليه لقب «أمير العرب»<sup>(٢)</sup> . كذلك لم يتردد صدقه في مساعدة محمد بن ملكشاه ضد

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٠١ هـ .

(٢) المرجع السابق ؛

أخيه السلطان بركيارق ، مما جعل محمد يكافئه باعطائه واسط ويسمح له باحتلال البصرة . ولكن لم يكده محمد بن ملكشاه يتولى السلطنة حتى تنسك لصدقة وخشي عاقبة أطاعه ، لاسيما عندما رفض صدقة إطاعة أوامر السلطان والمسير ضد الصليبيين للجهاد ، بل أنه رفض الاجتماع بالسلطان . هذا إلى أن بنى مزيد كانوا جميعا من الشمعية ، وصفهم أبو المحاسن بأن « الجميع رافضة » مما أثار حنق السلاجقة — وهم سنيون — عليهم <sup>(١)</sup> . وكان أن انتهى الأمر بأن أرسل السلطان محمد شاه جيوشه ضد صدقة ، فأنزلت به الهزيمة ، وسقط صدقة قتيلا سنة ١١٠٨ ، وإن كان السلطان السلجوقي قد أكرم أرملة صدقة فأرسل لها أمانا « واعتذر إليها من قتل زوجها » وسمح لابنها ديبس بأن يحل محل أبيه صدقة في إمارته <sup>(٢)</sup> .

أما في الميدان الصليبي فقد فشل السلطان محمد السلجوقي في حملاته وجهوده ضد الصليبيين . ومع ذلك فقد نجح في نشر نفوذ السلطنة على الأمراء الأتراك في منطقة الشرق الأدنى . وعند وفاة السلطان محمد سنة ١١١٨ خلفه ابنه محمود الذي كان في الرابعة عشرة من عمره ، فترك شؤون الحكم في أيدي وزرائه وعمه سنجار شرف الدين أنوشروان ، في حين انغمس محمود نفسه في اللهو . وفي ذلك العصر بالذات أخذ يبدو بوضوح ضعف السلطنة السلجوقية وتدهور أحوالها <sup>(٣)</sup> ؛ وانعكس ذلك الضعف في العلاقة بين المسلمين والقوى المسيحية في الشرق الأدنى . ذلك أن سنجار وجه كل جهوده نحو الشرق والأجزاء الشرقية من الامبراطورية ، ولم يعبأ بالشام وما كان يجري فيه من أحداث بين المسلمين والصليبيين . وكذلك فعل الفرع السلجوقي في الأناضول ، إذ شغلت سلطنة الروم بالنازعات

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٢٢ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠١ هـ .

وقد اتهم البعض الأمير صدقة بأنه أتبع مذهب الباطنية ، ولكن ابن الأثير ينفي هذه التهمة ويقول . « إنما كان مذهبه التشيع لا غير » .

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. p. 522-523.

بين أمرائها بعضهم وبعض ، أو بينهم وبين بني دانشمندحينا والبيزنطيين أحياناً ،  
وتركوا إخوانهم في الشام يواجهون الصليبيين وحدهم (١) .

### الخطر العباسية والخطر الفاطمية :

أما الخلافة العباسية فكانت في ذلك الوقت مجرد صورة شكلية ، دون أن  
يكون للخلفية العباسي أي ظل من السلطان والنفوذ . ولعل ضعف الخلافة العباسية  
في ذلك الوقت هو الذي شجع ديبس بن صدقة على مهاجمة بغداد نفسها سنة  
١١٢٠ . وكان ديبس — مثل أبيه صدقة — شيعياً ، فلم يحجم عن نهب المدينة  
وسلبها « وأتى بها من النهب والقتل والفساد ما لم يجز مثله » ، بل إنه نصب  
نخيمه في مواجهة قصر الخليفة العباسي المسترشد بالله ، الذي لم يجد وسيلة لدفع  
ذلك الخطر سوى الاستنجاد بالسلطان محمود السلجوقي (٢) .

وهكذا ظل ديبس يهدد بغداد من مركزه — الحلة — حتى أمر السلطان  
محمود أحد رجاله — وهو آقسنقر البرسقي أتاك الموصلي — بمحاربتة ، ولكن  
الهزيمة حلت بأتابك الموصل على الضفة الشرقية للفرات سنة ١١٢٢ (٣) . وقد  
أدى انتصار ديبس على البرسقي إلى ازدياد نفوذه ، مما جعل الخليفة العباسي  
يستغيث بالسلاجقة من جديد . وأخيراً حلت الهزيمة بالأمر ديبس عند المباركة  
بين بغداد والكوفة — في ربيع سنة ١١٢٣ ، فنقل ديبس نشاطه إلى البصرة  
ثم إلى قلعة جعفر في شمال الشام حيث « التحق بالفرنج وحضر معهم حصار حلب  
وطمعهم في أخذها » (٤) .

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٣ هـ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٤ هـ .

(٣) المرجع السابق ، حوادث سنة ٥١٦ هـ .

(٤) المرجع السابق ، حوادث سنة ٥١٧ هـ .

ولعل في قصة ديبس بن صدقة ما يكفي لإيضاح الوضع المؤسف الذي اتحدت إليه القوى الإسلامية في الشرق الأدنى ، في الوقت الذي كان فيه الصليبيون يمكنون لأنفسهم في بلاد الشام وشمال العراق . وكان المفروض في الخلافة العباسية عندئذ أن تتزعم القوى الإسلامية لدفع خطر الصليبيين عن البلاد الإسلامية ، ولكن ظهر أنها كانت أضعف من أن تحمي نفسها من المسلمين أنفسهم . ولما أراد الخليفة العباسي المسترشد ( ١١١٨ — ١١٣٥ ) أن يكون له كيان سياسي مستقل عن السلطنة السلجوقية ، وطالب بإنشاء جيش للخلافة خاص بها ؛ عارضه السلطان محمود السلجوقي ورأى أن يوقف الخليفة عند حده ، فزحف على رأس جيش كبير إلى بغداد . وكان أن خرج الخليفة ومعه أفراد أسرته إلى الضفة الغربية لنهر دجلة ومن ورائه أهل بغداد فيكون « بكاء عظيما لم يشاهد مثله » . وقد استطاع عماد الدين زنكي — حاكم الموصل من قبل السلطان محمود السلجوقي — أن ينزل الهزيمة بجيوش الخليفة عند واسط . ثم دخلت جماعة من عسكر السلطان دار الخلافة ونهبوها واعتدوا على الأهالي ؛ في حين اضطر الخليفة إلى الخضوع في نهاية الأمر « واعتذر السلطان مما جرى وعفا عن أهل بغداد جميعهم » ( سنة ١١٢٧ ) (١) .

أما الخلافة الفاطمية — على الجبهة الغربية للصليبيين — فلم تكن أحسن حالا من الخلافة العباسية ؛ إذ جاء مقتل الوزير الأفضل في ٥ ديسمبر سنة ١١٢١ بمثابة بداية النهاية في تاريخ الخلافة الفاطمية . ولم تظهر بعد ذلك في الدولة شخصية قوية تستطيع أن تقوم بما قام به بدر الجمالي أو الأفضل من رعاية سياسة الدولة وتدير أمورها (٢) . وهكذا ضمن الصليبيون في الشام قسطا من الاستقرار في أوائل القرن الثاني عشر أمام تدهور نفوذ السلاجقة والخلافة العباسية في الشرق

(١) ابن الاثير : التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ص ٢٩ — ٣٠

(2) Wiet: L'Egypte Arabe, p. 268

من ناحية ، وأحلال الخلافة الفاطمية من ناحية أخرى<sup>(١)</sup>.

### طائفة الإسماعيلية الباطنية :

وثمة طائفة لعبت دوراً خطيراً في تاريخ الشرق الأدنى في عصر الحروب الصليبية وأثرت عن طريق مباشر أو غير مباشر في مجرى وأحداث تلك الحروب ، مما يجعلها تتطلب منا عناية خاصة في هذه الدراسة . وتصد بهذه الفرقة الإسماعيلية ، الذين ينسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ( ت ١٤٥ هـ ) . وقد نجح أتباع إسماعيل هذا في إقامة الدولة الفاطمية ، ومن ثم ظلت هذه الدولة تزعم الدعوة الإسماعيلية التي اشتد ساعدها بصفة خاصة في مصر وفارس والشام . على أنه حدث عند وفاة الخليفة المستنصر بالله الفاطمي سنة ٤٨٧ أن تصدعت الدعوة الإسماعيلية ، فانشق أتباعها في فارس والشام وانتموا إلى نزار بن المستنصر ، ومن ثم أطلق على هذا الفريق اسم النزارية<sup>(٢)</sup>.

ومن أهم المبادئ التي أقام عليها الإسماعيلية مذهبهم إيمانهم بأن للعتيدة ظاهراً وباطناً ، وأن الشخص الذي يدرك كنه الباطن ويتبعه لا يستحق العقاب . وقد أدى بهم هذا الرأي إلى تأويل أحكام الشريعة ، فجعلوا لكل نوع من أنواع العبادة باطناً مما جعل الناس يطلقون عليها اسم « الباطنية »<sup>(٣)</sup>.

وكان أول دعاة الباطنية ، أحمد بن عبدالمك بن عطاش الذي قدمه الباطنية عليهم وألبسوه تاجاً وجمعوا له الأموال . وبعد وفاته حل محله الحسن بن الصباح ، الذي وصفه المؤرخون بأنه كان شهماً ذكياً عالماً بالهندسة والحساب والنجوم . وسرعان ما اشتد ساعد الحسن بن الصباح في فارس ، وساعده على ذلك تفسكك

(1) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 530.

(2) Setton : op. cit, I, p. 101-102

(3) عبد النعيم حسنين : سلاجقة إيران والعراق ص ٧١ .

الدولة الإسلامية وضعف الخلافة العباسية من ناحية ، ثم بعد فارس عن مركز الخلافة العباسية من ناحية أخرى . وقد لجأ الحسن الصباح في نشر دعوته إلى سلاحين : الأول استمالة بعض الزعماء المحليين وأمرأء القلاع في بلاد فارس ، والثاني محاولة امتلاك بعض القلاع المنيعه لتكون معاقل له ولأتباعه يحتمون بها من مطاردة الخلافة العباسية السنية وحماتها من السلاجقة . وكانت أهم هذه القلاع التي استولى عليها الحسن الصباح قلعة الموت في طبرستان قرب قزوین ، وقلعة شاه ذر وقلعة خاب ، وهما على جبل أصبهان قرب أصفهان عاصمة السلاجقة عندئذ<sup>(١)</sup> .

وترجع أهمية الحسن الصباح في التاريخ إلى براعته الفاتحة في التنظيم ، إذ نظم جماعته تنظيمًا محكمًا أساسه مبدعان هما : السرية التامة والطاعة العمياء . واما كان هدف الحسن تأسيس دولة كبيرة ثابتة ، فإنه قسم مراتب الدعوة الزارية إلى خمس :

١ - مرتبة شيخ الجبل ، وهو الحسن نفسه وخلفاؤه من رؤساء الدعوة الذين جمعوا في قبضتهم بين شئون الدين والدنيا ، - أي الدعوة والدولة جميعاً - فكانوا يصدرون تعاليمهم إلى أتباعهم في فارس والشام وغيرها من البلاد<sup>(٢)</sup> .

٢ - مرتبة كبار الدعاة ، وكانوا ثلاثة كل منهم يعمل على نشر الدعوة الباطنة في جزء من العالم الإسماعيلي ، على أن يخضع ثلاثتهم للحكومة المركزية الزارية في الموت .

٣ - مرتبة الدعاة ، وهم جماعة من المعروفين بصدق عقيدتهم ، يقبعون دعاة

(1) Setton : op. cit, I, p. p. 108-109.

(٢) طه أحمد شرف : دولة الزارية ص ٨٠ .

الدعاة ويتلقون تعاليمهم في قلعة الموت ، ثم ينشرون الدعوة ويعطون اليهود للمستجيبين لها<sup>(١)</sup> .

٢ — مرتبة الرفاق ، وهم دعاة تحت التمرين لم يسمح لهم بعد بنشر الدعوة ، ويصل الواحد منهم بالتدريج إلى مرتبة الدعاة بعد امتحانات واختبارات طويلة<sup>(٢)</sup> .

٣ — مرتبة الفداوية أو الفدائيين : وهم الذين كانوا يضحون بأنفسهم فداء رئيسهم . وصاروا بمثابة الأداة الفعالة التي استخدمها الحسن الصباح وخلفاؤه في قتل خصومهم . ومن الواضح أنه روعى في اختيار أولئك الفداوية الشجاعة التي هي أقرب إلى التهور ، والقوة البدنية الفائقة التي تمكنهم من تأدية المهام الخطيرة للموكلة إليهم<sup>(٣)</sup> .

ومن التنظيم السابق يبدو لنا أن الفداوية كانوا أهم مرتب التنظيم الإسماعيلي . بوصفهم الأداة العاملة التي فامت فعلا بتنفيذ سلسلة الاغتيالات الشهيرة في عصر الحروب الصليبية . لذلك اهتم الحسن الصباح بتدريب الفداوية تدريباً خاصاً طويلاً يتناول الجانبين الروحي والمادى ويبدأ منذ الطفولة ، فيدرب الأطفال المختارون لتلك المهمة على حياة الزهد والمخاطرة والرغبة في التضحية<sup>(٤)</sup> . وقد ذكر الرحالة البندقى ماركو بولو (١٢٥٤ — ١٣٢٤) أن شيخ الجبل أنشأ قرب قلعة الموت حديقة حرص على أن يجعل لها جميع صفات الجنة ، من أنهار فيها خمر لذة للشاربين ، ولبن لم يتغير طعمه ، وعسل مصفى ، وفواكه شهية من كل الثمرات ، وفتيات حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون . . وغير

(1) Sykes: History of Persia vol. 2, p. p. 37-38.

(2) Browne : Lit. Hist. of Persia, vol. 2, p. 206.

(3) Ivanow : An Islamic Ode in Praise of Fidawia, p. p. 63-64

(4) Setton: op cit, I, p. 108.



ذلك من مختلف أنواع المفريات التي جاءت في أوصاف اللجنة . وبعد أن يتسامر شيخ الجبل بعض الوقت مع الفتية الفداوية الذين تم اختيارهم ، يعطيهم مشروباً مخدراً - لعله من نبات الحشيش - مما جعل اسم « الحشيشية » يلصق بتلك الطائفة من الإسماعيلية في التاريخ<sup>(١)</sup> . فإذا ما فقدوا وعيهم حلوا إلى تلك اللجنة ، حتى إذا أفاقوا حسبوا أنفسهم في اللجنة فعلاً<sup>(٢)</sup> . على أنهم لا يتركون في جنتهم طويلاً ، إذ يخذرون مرة أخرى ليحملوا أثناء غيبتهم إلى دار شيخ الجبل حيث كان المجلس الأول . وعندما يفيقون يسألهم أين كانوا فيكونون له أنهم كانوا في اللجنة ، وعندئذ يعدهم شيخ الجبل بالخود في تلك اللجنة إذا هم تناولوا فلاناً وفلاناً من الأشخاص الذين يمددهم لهم ، بذلك يشير فيهم الحماسة لتنفيذ تعاليمه . ويشعرون بالرغبة في التضحية بكل شيء في سبيل العودة إلى اللجنة التي سبق أن رأوها وأحسوا بلذة الإقامة فيها<sup>(٣)</sup>

ومن الثابت أن نشاط الباطنية الهدام أخذ يمتد إلى بلاد الشام منذ بداية القرن الثاني عشر . وينقسم الدور الذي قام به الإسماعيلية في عصر الحرب الصليبية إلى قسمين : أولهما : مقاومة المذهب السني والعمل على الفتك بزعمائه . وثانيهما : مقاومة الصليبيين وقتل بعض زعمائهم . ولم يفرق الإسماعيلية خلال كل ذلك بين المسلمين السنيين والصليبيين والمسيحيين ، وإنما اهتموا بتحقيق مصالحهم على حساب الفريقين جميعاً . وفي سبيل هذه المصلحة الخاصة لم يتحرج

(١) يؤكد بعض علماء اللغويات أن الفعل الإنجليزي to assassinate بمعنى يقتل أو يقتل ، والاسم منه assassin بمعنى قاتل ، إنما مشتقة من كلمة الحشاشين ، وهم تلك الفئة من الفداوية الذين اشتهروا بالقتل والاعتقال في عصر الحروب الصليبية والذين أطلقت عليهم بعض اللواجيع العربية اسم الحشيشية لتناولهم الحشيش . وقد جاء في قاموس الكسفورد أن أصل هذا اللفظ الأوربي هي كلمة « حشاش وحشيشية » العربية . ويدل هؤلاء العلماء على رأيهم بأن ذلك اللفظ لم يظهر بمعناه الحالي في اللغات الأوربية إلا في عصر الحروب الصليبية .

(2) Michand : op. cit, II. p p. 72 - 73.

(3) Marco Polo : Travele, p p. 49-53.

زعمائهم من مخالفة الصليبيين حيناً أو مهادنة السفين أحياناً . وهكذا أدى اتساع نشاط الباطنية في بلاد الشام بوجه خاص إلى إضافة عامل جديد قوى إلى عوامل التفكك التي تعرضت لها تلك البلاد في عصر الحروب الصليبية<sup>(١)</sup> .

ذلك أنه حدث في الوقت الذي كان المسلمون في حالة دفاع ضد الصليبيين ، أن تعرضوا لطعنات قوية من خلف من جانب الباطنية ، مما أضعف المسلمين وأحدث ثغرة قوية في جبهتهم ، في حين تماسك الصليبيون وحرص أمراؤهم على شد أزر بعضهم بعضاً . وحسبنا ما فعله الباطنية في حصن شيزر سنة ١١٠٩ ، «إذ ثار جماعة من الباطنية فيه على حين غفلة من أهله . . . فملكوه وأخرجوا من كان فيه » وانتزعوه من أصحابه بنى منقذ<sup>(٢)</sup> .

وكان القتل هو السلاح الرهيب الذي استغله الباطنية في تنفيذ أغراضهم والتخلص من خصومهم ، بحيث يضيق بنا المقام عن حصر ضحاياهم في عصر الحروب الصليبية بالذات من الأمراء وغير الأمراء . ومن ضحايا الحسن الصباح كان الوزير السلجوقي نظام الملك الذي قتله الباطنية سنة ١٠٩٢ ، نفسرت دولة السلاجقة بمقتله شخصية من أعظم الشخصيات التي ارتبط بها تاريخ السلاجقة ، وأسف الناس عليه «لما كان عليه من حسن الطريقة وآثار العدل والنصفة والإحسان إلى أهل الدين والفقه والقرآن»<sup>(٣)</sup> .

وزاد من نفوذ الباطنية في بلاد الشام منذ بداية القرن الثاني عشر ، عطف رضوان ملك حلب عليهم وحمايتهم لهم . وكان الحكيم المنجم وأبو طاهر الصائغ

(1) Setton : op. cit; I, p. p. 109 - 110.

(٢) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ٧٧

ابن الاثير : الكامل ، سنة ٥٠٢ هـ

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢١ .

أول زعماء الباطنية بالشام ، وحصلا على مكانة كبيرة لدى رضوان ، فاستغل الباطنية تلك المكانة وأخذوا يباشرون أعمالهم الإجرامية ضد زعماء المسلمين والصليبيين جميعاً . وقد افتتح الباطنية نشاطهم في بلاد الشام بقتل جناح الدولة أمير حمص سنة ١١٠٣<sup>(١)</sup> ؛ ثم قتلوا خلف بن ملاعب صاحب فامية بعد ذلك بثلاث سنوات «قتله قوم من الباطنية تفذهم إليه المعروف بأبي طاهر الصائغ العجمي من حلب<sup>(٣)</sup>» .

ويبدو أن بعض زعماء المسلمين وأمرائهم بالشام وجدوا في الحشيشية أداة طيبة للتخلص من منافسيهم وخصومهم . ومن ذلك ما حاوله رضوان ملك حلب سنة ١١١١ من تحريض الباطنية على قتل طغتكين أنابك دمشق<sup>(٢)</sup> ؛ وما لجأ إليه طغتكين أنابك دمشق فعلا من استخدام بعض الباطنية في قتل ضيفه مودود أنابك الموصل سنة ١١١٣<sup>(٤)</sup> . وعند ما أحس الباطنية أنهم مكروهون في حلب وأن موقفهم صار حرجاً بعد وفاة رضوان ، حاولوا مرة أخرى الاستيلاء على شيرز ، ولكنهم فشلوا في ذلك .

ولم يسكت سلاطين السلاجقة عن عبث الباطنية بمصالح البلاد وأرواح العباد ، ولكن يبدو أن جهودهم لم تكفل بالنجاح التام ، كما أنهم فشلوا في الاستيلاء على قلعة الموت ، ومن تلك المحاولات ما قام به السلطان محمد الساجوق ، «فإن لما علم أن مصالح العباد والبلاد بمحو آثارهم (الباطنية) وإخراب ديارهم وملك حصونهم وقلاعهم ، جعل قصدهم دأبه . وكان في أيامه المقدم عليهم والقيم

(1) Lewis : The Sources for the Hist. of the Syrian Assassins, p. p.] 585 - 486.

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٩ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ( Rec Or, Hist. III p. p. 601 - 602 )

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٧ .

بأمرهم الحسن بن الصباح الرازي صاحب قلعة ألموت ؛ فأمر السلطان بعض أمرائه بمهاجمته ، وما زالوا يحاصرونه ويهاجمونه حتى وفاة السلطان . ولكن الحسن الصباح ظل رابضاً في قلعة ألموت في خراسان ، ومن ذلك المركز الحصين استمر يوجه تلك الشبكة الخطيرة حتى وفاته سنة ١١٣٤ . وطوال تلك السنوات استمر اسم الحسن الصباح يثير الرعب في قلوب الناس في الجهات المجاورة « لكثرة إغاراته عليهم وقتله لهم وأسر رجالهم وسبي نساءهم » ، دون أن تستطيع الجيوش السلجوقية الوصول إليه أو القضاء عاياه<sup>(١)</sup> .

ثم إن نشاط الباطنية في الشرق الأدنى في ذلك الدور لم يقتصر على بلاد فارس وإقليم حلب ، وإنما امتد أيضاً إلى القاهرة ودمشق ، ففي القاهرة نسمع من المراجع عن مقتل الوزير الأفضل يبدأ أحد الباطنية في أحد طرق القاهرة سنة ١١٢١ . أما في دمشق فقد ازداد نفوذهم وانتقل إليها مركز نشاطهم بعد أن توفي رضوان صاحب حلب سنة ١١٣٣ وتعرضوا للتنكيل ابنه الملك البارسلان الذي قتل زعيمهم أباطاهر الضائع واسماعيل الداعي وأخى الحكيم المنعم وغيرهم ، مما جعل أتباعهم يتفرقون في البلاد<sup>(٢)</sup> . ولم يلبث أن وفد على الشام من فارس أحد زعماء الباطنية واسمه بهرام ، فنزل على حلب ثم انتقل إلى دمشق حيث حظى برعاية طغتكين « وأكرم لاتقاء شره وشر جماعته ، وحملت له الرعاية وتأكدت به العناية<sup>(٣)</sup> » . وهكذا أخذ بهرام ينشر الدعوة الإسماعيلية ، حتى « استفعل أمره وعظم خطبه في حلب والشام ، وهو على غاية من الاستتار والاختفاء وتغيير الزى واللباس ، بحيث يطوف البلاد والمعازل ولا يعرف أحد شخصه<sup>(٤)</sup> » . على أن بهرام خشى أهل دمشق وهم من السنة ، فما زال يسعى

(١) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٥١١ هـ .

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٩ هـ .

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٥ هـ .

(٤) الرجوع السابق .

عند طغتكين حتى منحة بانياس سنة ١١٢٦. وسرعان ما عدت بانياس « حصنا يأوى إليه ومعقلا يحتجى به ويعتمد عليه » (١). ويعبر ابن الأثير عن استيلاء الباطنية على بانياس بأن ذلك جاء كارثة على البلاد « إذ عظم خطبه (بهرام) وحلت الحنة بظهوره ، واشتد الحال على الفقهاء والعلماء وأهل الدين ، لاسيما أهل السنة ، إلا أنهم لا يقدرون على أن ينطقوا بحرف واحد خوفا من سلطانهم (طغتكين) أولا ومن شر الاسماعيلية ثانيا ، فلم يقدر يقدم أحد على هذه الحال وانتظروا بهم الدواير ... » (٢). أما ابن القلانسي فيقول إن بهرام لم يسكده يستولى على بانياس حتى « اجتمع إليه أوباشه من الرعاع والسفهاء والفلاحسين والعوام وغوغاء الطغام الذين استغواهم بحاله وأباطيله ؛ واستألمهم بخدعه وأضاليه ، فهظمت المصيبة بهم وجلت الحنة بظهور أمرهم ، وضاعت صدور الفقهاء والمتدينين والعلماء وأهل السنة والمقدمين » (٣).

وهكذا لم يستطع الناس الاعتراض على أعمال الباطنية ، نظراً لحماية طغتكين لهم من ناحية ولعنف وسائلهم ووحشية انتقامهم من ناحية أخرى ، إذ « شرعوا في قتل من يعاندهم ، ومعاودة من يؤازرهم على الضلال ، ويرافدهم بحيث لا ينكر عليهم سلطان ولا وزير ولا يغفل حد شرهم متقدم ولا أمير ! » (٤). وإذا كانت جهود السلطان محمد شاه السلجوقي في فارس ضد الباطنية قد أسفرت عن محاصرة قلعهم شاه ذر — المجاورة لأصفهان — وفتحها وقتل من فيها من الباطنية (٥) ، فإن هذه الضربة التي حلت بالباطنية في فارس لم تؤثر في نشاطهم بالشام ، حيث

(١) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٥٢٠ هـ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٥ .

(٤) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٥٢٠ هـ ، ابن القلانسي ؛ ص ٢١٥ .

(٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٥١ هـ .

استمروا يدعمون نفوذهم ويوسعون سلطانهم ويضاعفون نشاطهم يوماً بعد يوم<sup>(١)</sup> ذلك أن بهرام أخذ يبعث من بانياس الدعاة والفداوية إلى مختلف أنحاء الشام لنشر الدعوة الاسماعيلية من ناحية ولتنفيذ مآرآه من اغتيالات سياسية من ناحية أخرى . وقد نجح بعض أولئك الأعوان بدورهم في الاستيلاء على حصون جديدة في جبال الشام ، مثل حصن القدموس<sup>(٢)</sup> . وأخيراً أفاق طغفكين إلى خطر الباطنية وأخذ يفكر في التخلص منهم ، ولكنه توفي في فبراير سنة ١١٢٨ قبل أن يتمكن من القيام بأي عمل ضدهم . وعند وفاة طغفة-كين خلفه ابنه تاج الملوك بوري في حكم دمشق ، فاحتفظ بأبي علي طاهر بن سعد المزدقاني (المزدغاني) وزيراً له . وقد أفرط المزدقاني في العطف على الباطنية ، وقرب مندوبهم في دمشق - واسمه أبو الوفاء - الذي وصفه ابن الأثير بأن سلطته في دمشق فاقت سلطة تاج الملوك بوري نفسه « وأن حكمه أكثر من حكم صاحبها تاج الملوك »<sup>(٣)</sup> .

ثم كان أن قتل بهرام أحد مقدمي وادي التيم - واسمه برق بن جندل - دون سبب ، فأصر قومه على الأخذ بثأره . وفي الاشتباك الذي حدث بين الطرفين سنة ١١٢٨ ، حلت الهزيمة بالباطنية ، وقتل منهم كثيرون ، وقطع رأس بهرام ، وبذلك ضعف شأن الباطنية « وقات عدتهم واتقصفت شوكتهم وانفلت شكتم<sup>(٤)</sup> » ! وقد خلف بهرام في بانياس رفيقه اسماعيل العجمي الذي حظى هو الآخر بعطف الوزير أبي علي طاهر المزدقاني في دمشق « في المساعدة على

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٥١، ٢١٥ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٣ هـ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) ابن القلانسي ؛ ص ٢٢٣ .

مراده والمعاوضة على أغراضه»<sup>(١)</sup> . واستمر الأمر على ذلك حتى وجد ذلك الوزير الفرصة مناسبة لتدبير مؤامرة مع الصليبيين، فعرض عليهم تسليمهم دمشق مقابل إعطائه — هو والإسماعيلية — مدينة صور بدلها<sup>(٢)</sup> . وكان أن أبرمت الاتفاقية ، وحدد أحد أيام الجمعة والمساءون في المساجد لفتح أبواب دمشق للصليبيين<sup>(٣)</sup> .

على أن المؤامرة انكشفت قبل موعد تنفيذها ، فقتل بوري وزيره الخائن أبو علي طاهر المزدقاني وأحرق جثته<sup>(٤)</sup> ، وبذلك حادت الفرصة سنة ١١٢٩ لتخلص من الباطنية ، «ونادى (بوري) بقتل الباطنية فقتل منهم ستة ألف نفس» . وهكذا استمر أهل دمشق يذبحون فيهم ، فتعقبوهم «وتبعوهم في أماكنهم واستخرجوهم من مكانهم وأفنوهم جميعاً تقطيعاً بالسيوف وذبحاً بالخناجر» . ولم تلبث أخبار ماحدث للباطنية في دمشق أن وصلت إلى مسامع إخوانهم في بانياس «فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون» ، واستنجد اسماعيل العجمي بالصليبيين وعرض عليهم تسليمهم بانياس ليحموه . وهكذا تسلل الباطنية من بانياس إلى البلدان المجاورة وهم «في غاية من الذلة ونهاية من القلة» في حين مات إسماعيل العجمي بعد قليل ودفن في بانياس<sup>(٥)</sup> .

ومع ذلك فقد استمر نشاط الحشيشية الهدام في منطقة الشرق الأدنى بقية عصر الحروب الصليبية . من ذلك أنهم قتلوا في همدان قاضي القضاة زين الإسلام أباسعد محمد بن نصر الهروي أثناء عودته من خراسان الى بغداد ، ولم

(١) للرجع السابق ، ص ٢٢٢ — ٢٢٣ .

(٢) ابن الاثير : السكامل ، حوادث سنة ٥٢٣ .

(٣) ابن الاثير : السكامل ، حوادث سنة ٥٢٣ هـ ، ابن القلانسي ، ص ٢٢٣ .

(٤) النويري : نهاية الأرب ج ٢٥ ورقة ٤١ (مخطوط)

(٥) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ( Rec. Hist Or. p. 567 )

يجرؤ شخص على أن يتبعهم « للخوف منهم »<sup>(١)</sup> . وفي ٢٦ نوفمبر سنة ١١٢٦ قتلوا البرسقى أتابك الموصل<sup>(٢)</sup> . وفي سنة ١١٢٧ قتلوا المعين وزير السلطان سنجر ابن ملكشاه صاحب خراسان ، وكان ذلك الوزير قد فتك بجاعة منهم وحرص السلطان على « النكاية فيهم وتطهير الأرض منهم »<sup>(٣)</sup> . وفي سنة ١١٣٠ أرسل الباطنية من مركزهم في الموت اثنين من الخراسانية لقتل تاج الملوك بوري أتابك دمشق والانتقام منه لما حل ياخوانهم في دمشق وبانياس . وقد تحايل هذان القاتلان على تنفيذ غرضهما حتى نجحا في الاعتداء على بوري ، ولكن إصابته لم تكن قاتلة فبرأ وفشت خطة الباطنية<sup>(٤)</sup> . وفي سنة ١١٣٤ نفى السلاجقة الخليفة المسترشد العباسي إلى أذربيجان حيث قتل بواسطة جماعة من الباطنية . وفي سنة ١١٤٠ استطاع الباطنية أن يملكوا حصن مصياث ( مصياث ) « بحيلة دبرت عليه ومكيدة نصبت له »<sup>(٥)</sup> . وفي سنة ١١٥٢ قتل بعض الباطنية ريموند الثاني أمير طرابلس . ويطول بنا الأمر لو حاولنا تسجيل كافة اغتياالات الباطنية ولكن يكفي أن نختتم هذه القائمة بالإشارة إلى أنهم حاولوا أكثر من مرة قتل صلاح الدين الأيوبي نفسه — كما سيلي فيما بعد — ولكن الله سلم .

وهكذا ظلت الاسماعيلية مصدراً خطيراً للانحلال السياسي والاجتماعي في بلاد الشام بالذات على عصر الحروب الصليبية<sup>(٦)</sup>

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٠ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. III, p. 653)

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٦ .

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٣٠ .

(٥) للرجع السابق ، ص ٢٧٤ .

(6) Setton : op. cit; I, p. p. 109 - 110.



## حلب والموصل :

اختار السلطان محمد السلاجوقي سنة ١١١٨ آقسنقر البرسقي حاكم الموصل ليلبي شجنكية بغداد ، أي ينوب عنه في بغداد لدى الخليفة العباسي المسترشد<sup>(١)</sup> ، ثم عاد السلطان محمود سنة ١١٢٤ فأقطع البرسقي من جديد الموصل وأعمالها مع تكليفه بمواصلة الجهاد ضد الصليبيين<sup>(٢)</sup> . ولم يلبث البرسقي وهو بالموصل أن تلقى نداء من أعيان حلب لتجدتهم ضد الصليبيين ، فرحب حاكم الموصل بتلك الفرصة التي أتاحت له السيطرة على حلب ، لاسيما بعد أن وافق الحلبيون على تسليمه قلعة المدينة ؛ فخف إليها - وصحبته طفلة تكين أتابك دمشق وصمصام الدين خير خان بن قراجا صاحب حمص - ووصلوا جميعا إلى حلب في أواخر يناير سنة ١١٢٥<sup>(٣)</sup> .

وهكذا اجتمعت حلب والموصل في قبضة حاكم مسلم واحد - هو البرسقي - مما يعتبر نواة لتوحيد المسلمين في أطراف العراق والشام ، ثم تكوين الجبهة الإسلامية المتحدة فيما بعد . ولا شك في أن هذا الارتباط بين حلب والموصل كان أخطر مما يحشاه الصليبيون ، نظراً لما يمكن أن ينجم عنه من قطع الصلة بين إمارة الرها من ناحية وبقية الإمارات الصليبية بالشام من ناحية أخرى ، فضلاً عما في تكثيل القوى الإسلامية نفسها من معاني القوة التي لم يشعر بها الصليبيون حتى ذلك الوقت بسبب تفرق كلمة المسلمين وعدم وحدتهم<sup>(٤)</sup> .

(١) أطلق على نائب سلطان السلاجقة أو ممثله لدى الخليفة العباسي في بغداد لقب شحنة ، وهو لقب فارسي . أما الوظيفة نفسها ، فقد أطلق عليها اسم «شجنكية بغداد» .

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ٣٠ - ٣١ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٨ هـ .

(٤) Grousset : Hist. des Croisadesl. p. 631 .

ثم إن هذه الخطوط التي اتخذها البرسقي زاد من خطرها أنه كان يتمتع بمطغف السلطان محمود الساجوقى «لأنه كان ناصحاً له ملازماً له في حروبه كلها»<sup>(١)</sup>. وقد ظل البرسقي محتفظاً بولائه للسلطان الذى عهد إليه بمهمة الجهاد ، وبناء على ذلك فإن البرسقي كان يمثل في تصرفاته وجهوده السلطة السياسية الشرعية الكبرى في الجبهة الشرقية من العالم الإسلامى ، ولاستطيع قوة أخرى من القوى الإسلامية الصغيرة المبعثرة في أطراف العراق أو بلاد الشام أن تقف في وجه البرسقي أو أن تنافسه في مكائته وزعامته . وعلى هذا الأساس أخذ البرسقي يتصرف تجاه القوى الإسلامية المجاورة وتجاه الصليبيين في بلاد الشام وشمال العراق ، طوال سنتى ١١٣٥ ، ١١٣٦ ، حتى كان مقتله في يوم الجمعة ٢٦ نوفمبر سنة ١١٣٦ بأيدي الباطنية في الموصل<sup>(٢)</sup> .

وقد خلف آقسنقر البرسقي في حكم حلب والموصل ابنه عز الدين مسعود . على أن مسعود لم يلبث أن وقع في خلاف مع طغتكين أتابك دمشق ، ففس له الأخير السم ، وبذلك توفى مسعود في العام التالى بالرحبة<sup>(٣)</sup> . ولا شك في أن هذه الأحداث أوقعت حلب بالذات في حالة من الفوضى شديدة لاسيما وأن الحلبيين لم يرضوا عن قتلغ ، وهو الذى عينه السلطان محمود سنة ١١٢٧ على حلب بعد وفاة عز الدين مسعود بن البرسقي . لذلك استنجد أهل حلب ببدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق ، وهو الذى سبق له أن حكم حلب سنة ١١٢٣ - ١١٣٣ ، قبل أن يطرده بلك<sup>(٤)</sup> .

ولا شك في أن تلك التطورات كلها أضعفت من موقف المسلمين وقوت

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٨هـ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٥ ورقة ١٠ (مخطوط) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢١هـ .

(٤) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٥ ورقة ٣٩ (مخطوط) .

موقف الصليبيين ، فتعرضت حلب بالذات لهجمات من جانب بوهموند الثاني أمير أنطاكية وجوسلين أمير الرها<sup>(١)</sup> . بل إن الملك بلدوين الثاني - ملك بيت المقدس هدد دمشق نفسها سنة ١١٢٩ ، كما سبق أشرنا<sup>(٢)</sup> . وهكذا حتى ظهر على المسرح عماد الدين زنكي ، فبدأت صفحة جديدة في ميزان القوى بين المسلمين والصليبيين في الشرق الأدنى .

### ظهور عماد الدين زنكي :

أما عماد الدين زنكي هذا ، فكان أبوه قيس الدولة آقسنقر الحاجب ، قائداً من قادة جيش السلطان ملكشاه السلجوقي ، « ومن أعيان دولته وأكابر أمرائه وأخص أوليائه ، واعتمد عليه في أموره كلها »<sup>(٣)</sup> . وقد كافأ ملكشاه قائده بإعطائه حكم حلب سنة ١٠٩٢ ، ولكن آقسنقر لم يلبث أن قتل سنة ١٠٩٤ ؛ قتله تنش أخو ملكشاه ، فنشأ زنكي بعد أبيه نشأة بعيدة عن النفوذ والسلطان ، ودخل في خدمة أنابكة الموصل : جاولى ثم البرسقي ، حتى وصل إلى حكم البصرة ، وعندئذ كلفه السلطان محمود السلجوقي بإخضاع الخليفة المسترشد سنة ١١٢٦<sup>(٤)</sup> .

(١) ابن الاثير : السكامل ، حوادث سنة ٥٢٢ هـ . &

Gaillaume Tyr p. 590.

(٢) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ( 567-568 ) p. &

ابن القلانسي ؛ ص ٢١٢-٢١٣ .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ص ١١ ( مطبوع ) .

(٤) ولي المسترشد الخلافة العباسية سنة ١١١٨ ، وأراد أن يستغل المنازعات التي غرق فيها حكام السلاجقة عندئذ ليحرر الخلافة العباسية من سيطرتهم ، الامر الذي جعل السلطان محمود السلجوقي يمهّد إلى زنكي بإخضاع حركة الخليفة سنة ١١٢٦ . ويقول ابن الاثير إن برنقش الزكوي شحنة بغداد هو الذي سار إلى السلطان ، واستثاره على الخليفة « وحذر السلطان جانبه وأعلمه أنه قد جمع العساكر عازماً على منعه عن العراق » . ( التاريخ الباهر ، ص ٢٨ - ٢٩ ) .

وكان أن أظهر زنكي همة كبيرة وكفاية عالية في تلك المهمة التي كلفه بها السلطان؛ فأنزله الهزيمة بجيوش الخليفة عند واسط وزحف على بغداد، وانتصر على الخليفة المسترشد الذي اضطر إلى الإذعان للسلطان في يناير سنة ١١٢٧<sup>(١)</sup>. وهكذا لفت زنكي الأنظار إليه بشجاعته ومقدرته، فولاه السلطان «شحنكية العراق» في إبريل سنة ١١٢٧، وهو المنصب الذي جعل منه رقيباً على الخليفة<sup>(٢)</sup>. وحوالي ذلك الوقت - أو بعده بقليل - توفي عز الدين مسعود بن البرسقي أتاك الموصل وحلب، فذهب وفد من أعيان الموصل إلى بلاط السلطان السلجوقي في فارس طالبين تعيين حاكم جديد على مدينتهم، يستطيع الدفاع عنها ضد تهديد الصليبيين<sup>(٣)</sup>.

وكان أن وقع اختيار السلطان على زنكي «لما يعلمه من كفايته لما يليه»، فعينه أتاكاً على الموصل سنة ١١٢٧. وبعد أن نظم زنكي أمور الموصل، استولى على نصيبين من الأراتقة، ثم توجه إلى حران التي كانت دائماً تحت رحمة الصليبيين وشبه محاصرة بهم، بسبب تعرضها للهجمات المتكررة من الرها وسروج والبيرة؛ فاستولى عليها وفرح أهلها بذلك لأنهم اعتقدوا أن مدينتهم صارت في يد أمينة<sup>(٤)</sup>. ثم إن زنكي اختار ألا يبدأ عملية الجهاد ضد الصليبيين

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٢٠ هـ.

(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص ٣٠ - ٣١.

(٣) يروي ابن الأثير أن أهل الموصل عندما قابلوا الوزير شرف الدين بن خالد قالوا له: (قد علمت أنت والسلطان أن ديار الجزيرة والشام قد تمسكن الفرنج منها وقويت شوكتهم فاستولوا على أكثرها). وقد أصبحت ولايتهم من حدود مardin إلى عريش مصر ماعدا البلاد الباقية بيد المسلمين. وقد كان البرسقي مع شجاعته وتجربته وانقياد المسكر إليه مكف بعض عاديتهم وشمرهم، ثم قتل ازداد طمعهم، وهذا ولده صغير. ولا بد للبلاد من رجل شجاع ذراى وتجربة يذب عنها ويحفظها ويحمي حوزتها. (٠٠٠٠)

وقد أورد ابن واصل أيضاً نصاً مشابهاً (مفرج السكروب ج ١ ص ٣٢ - ٣٣).

(٤) ابن واصل: مفرج السكروب ج ١ ص ٣٤ - ٣٦.

إلا بعد أن يضع يده على حلب أولاً وينظم أمور تلك البلاد . لذلك أسرع عقب استيلائه على نصيبين إلى عقد هدنة مع جوسلين أمير الرها (١).

وكانت حلب - كما سبق أن ذكرنا - قد وقعت في حالة شديدة من الفوضى عقب وفاة الأتابك عز الدين مسعود بن البرسقى ، فأصبحت ميداناً للنزاع بين سليمان بن عبد الجبار الأرتقى ، وإبراهيم بن رضوان السلجوقي ؛ في الوقت الذي أراد كل من جوسلين الثاني أمير الرها وبوهيموند الثاني أمير أنطاكية أن يستفيد من تلك الأوضاع للاستيلاء على حلب (٢). ولكن وصول زنكى إلى حلب في ذلك الوقت - سنة ١١٢٨ - أفسد على جميع أولئك الطامعين أغراضهم ، لأن زنكى كان يحمل تقليداً من السلطان بحكم حلب ، وبهذه الصفة الشرعية استطاع أن يسكن نفسه في حلب بسهولة ، فدخلها في ١٨ يونيو ١١٢٨ ، حيث استقبله أهل حلب استقبالا رائعاً « وأظهروا من الفرح والسرور ما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى ... ولولا أن الله تعالى من على المسلمين بولاية الشهيد (زنكى) لكان الفرنج قد استولوا على الشام جميعه » (٣).

وهنا نلاحظ أن الظروف كلها كانت معدة عندئذ لأن يقوم زنكى بمشروعه الضعيف الخاص بتوحيد القوى الإسلامية في العراق والشام ؛ وذلك بعد وفاة طغتكين أتابك دمشق العتيد في فبراير ١١٢٨ ؛ وهو الرجل الذي حظى بنفوذ قوى فاق نفوذ بقمية الأمراء المسلمين ببلاد الشام . ولكن يتمكن زنكى من إتمام ذلك المشروع بدأ بخطوتين : الأولى الزواج من خانون بنت الملك رضوان

(١) (فهادته مدة يسيرة ، وكان غرضه أن يتفرغ لاصلاح البلد) .  
ابن الأثير : للكمال ، حوادث سنة ٥٢١ هـ .

(2) Stevenson : op. cil, p. 119

(٣) ابن الأثير ، التاريخ الباهر ص ٣٧ - ٣٨ .

ابن نقش ملك حلب الساجوقى<sup>(١)</sup> الأسبق؛ وذلك ليثبت مركزه في حلب ويرث عن طريق تلك الزيجة حقوق بيت رضوان في شمال الشام. والثانية ذهابه سنة ١١٢٩ إلى بلاط السلطان محمود الساجوقى، الذى منحه «التواقيع السلطانية بملك الغرب كله»<sup>(٢)</sup>. وبعد ذلك عاد زنكى إلى حلب «في عسكره عازماً على الجهاد»<sup>(٣)</sup>؛ ومعه «منشوره بالجزيرة والشام وما اتصل بهما»<sup>(٤)</sup>.

وكانت ممتلكات المسلمين في بلاد الشام مقسمة عندئذ بين ثلاث قوى؛ الأولى محورها بورى بن طفتكين أتابك دمشق، وكان يسيطر على دمشق وحمه في الشمال وهوران في الجنوب. والثانية محورها صمصام الدين خيرخان (قيرخان) ابن قراجا أمير حمص. والثالثة محورها سلطان بن منقذ، وهو الأمير العربى الذى سيطر على شيزر. ولم يستطع خيرخان بن قراجا أو سلطان بن منقذ مقاومة الأتابك زنكى، فأعلنوا ولاءهما وخضوعهما له، وبذلك لم يبق أمام زنكى سوى تاج الملوك بورى أتابك دمشق<sup>(٥)</sup>.

والواقع إن بورى الذى تعرض لتهديد الصليبيين وغزؤهم سنة ١١٢٩، كان يخشى خطراً دائماً من جانب بلدوين الثمانى ملك بيت المقدس، ولذلك رحب بما عرضه عليه زنكى من مخالفته ضد الصليبيين. على أن زنكى لم يلبث أن تنكر لذلك الحلف مع بورى، واتقض على حمه واستولى عليها في سبتمبر سنة ١١٣٠ ليبيعه مقابل مبلغ كبير من المال للأمبر خيرخان (قيرخان) صاحب حمص<sup>(٦)</sup>. ولم يكده خيرخان يدفع المبلغ المتفق عليه ويستولى على حمه في ٢٠ سبتمبر

(١) ابن واصل: مفرج السكروب، ج ١ ص ٤٠ (مطبوع).

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. III, p. 658)

(٣) ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢٧.

(٤) ابن واصل: مفرج السكروب، ج ١ ص ٤٠ (مطبوع).

(٥) ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢٨.

(٦) ابن العديم: زبدة الحلب، (p. 650)

(٦) ابن الاثير: السكامل، حوادث سنة ٥٢٣ هـ.

حتى غدر به زنكي ، فانقض عليه هو الآخر فجأة وحبسه بقلعة حلب ، ثم اتجه ليستولى على حمص ذاتها مثلهما استولى على حماه (١) . ولكن زنكي ظل يحاصر حمص ويهاجمها أربعين يوماً « لم يظفر منها بطايل (٢) » ؛ فعاد إلى حلب في أواخر سنة ١١٣٠ . ولا شك في أن فشل زنكي أمام حمص جاء ضربة قوية عرقلت وحدة المسلمين في شمال الشام بضعة سنوات .

على أنه يلاحظ أن زنكي لم يمض في طريقه على الوجه السابق دون أن يصادف معارضة من الأمراء المسلمين المحليين . وقد ظهرت تلك العقبات من جانب الأراقة الذين حكموا حلب في وقت من الأوقات . ذلك أنه عز على الأراقة أن يستأثر زنكي بحكم حلب وأن يزداد نفوذه في شمال الشام والعراق بصورة تهدد مصالحهم ؛ فجمع حسام الدين تمرناش بن إيلغازي صاحب ماردين ، وابن عمه ركن الدولة داود بن معين الدين ستمان بن أرتق صاحب حصن كيفا وغيرهما من أمراء الأراقة في ديار بكر ، قوة تبلغ عشرين ألف من التركان ضد زنكي ؛ ولكن الهزيمة حلت بهم عند مدينة سرجى فيما بين ماردين ونصيبين . ولا شك في أن هذا النصر ضمن لزنكي سيادته على شمال الشام وأطراف آسيا الصغرى (٣) . أما عن علاقة زنكي بإمارة أنطاكية الصليبية في تلك الفترة فاهم ما فيها مؤامرة الأميرة إليس ، وطلبها مساعدة زنكي للوصول إلى حكم أنطاكية (٤) . وقد سبق أن رأينا كيف أسرع الملك بلدوين الثاني إلى أنطاكية وأجبت المؤامرة ، وبذلك حال دون استعادة زنكي من اضطراب أحوال الصليبيين في أنطاكية

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٤٢ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ( Rec. Hist. Or. III, p. 660 )

(٣) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٤ هـ . ٩

ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٣٥—٣٦ .

(4) Stevenson : op. cit., p. 129.

في ذلك الوقت . هذا وإن كان زنكي قد استغل تلك الفرصة وهاجم بعض الحصون القريبة التابعة لإمارة أنطاكية ، مثل الأتاب و حارم ومرة مصرين . ويقول المؤرخ ابن العديم إن زنكي لم يستطع الاستيلاء على حصن الأتاب إلا بعد خمس سنوات ، أي سنة ١١٣٥ ؛ في حين ذكر ابن الأثير وابن واصل أن زنكي استولى على ذلك الحصن فعلا سنة ١١٣٠ « وجعله دكا وبقى إلى الآن خراباً » (١) .

### التقاء المسلمين :

على أن زنكي لم يستطع أن يمضى قدماً في مشروعه الخالص بتوحيد قوى المسلمين بسبب الأحداث التي قامت في فارس والعراق ، والتي أدى تدخل زنكي فيها إلى صرفه عن ميدان الشام .

ذلك أن وفاة السلطان محمود بن محمد السلجوق سنة ١١٣١ أعقبها انقسام خطير في دولة السلطنة ، إذ تعرض ابنه البكر داود - الذي ورثه في السلطنة - لثورة أعمامه : عمه الأول سلجوق بن محمد صاحب فارس ، وعمه الثاني مسعود ابن محمد ، وعمه الثالث طغرل بن محمد صاحب قزوین (٢) . ولم يلبث أن اشتد الصراع بين هؤلاء الأعمام الثلاثة ، وبخاصة سلجوق شاه ومسعود . وفي إحدى حلقات النزاع ، أيد الخليفة العباسي المسترشد سلجوق شاه ، فاستنجد مسعود بهام الدين زنكي أتائبك الموصل الذي « سار إلى بغداد لقتال الخليفة وسلجوق » ؛

(١) ابن العديم : زبدة الحطب (Ps. 661, 670) & ١

ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣٤ هـ

ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٤٣ .

وقد نص ابن واصل على أنه أخذ رأيه عن ابن الأثير .

(٢) النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٥ ، أوراق ١٣، ١٤، ١٥ (مخطوط) .



وبذلك دخل زنكى دائرة الصراع الدائر في العراق وفارس ، مما صرفه مؤقتاً عن الشام وفلسطين<sup>(١)</sup> .

وعندما زحف زنكى على بغداد لمنازلة الخليفة وسلجوق شاه ، حلت به الهزيمة عند تكريت سنة ١١٣٢<sup>(٢)</sup> . على أن زنكى لم يلبث أن عاد في السنة نفسها لمهاجمة بغداد بعد أن حالفه « ملك العرب » ديس بن صسدة ؛ ولكن الهزيمة حلت بزنى من جديد « وقتل بينهم خلق كثير » فاضطر إلى الفرار نحو الموصل<sup>(٣)</sup> .

ويبدو أن تلك الهزائم التي حلت بزنى شجعت الخليفة المسترشد، فزحف على الموصل في صيف سنة ١١٣٣ للاستيلاء عليها في ثلاثين ألفاً ؛ وعندئذ اضطر زنكى إلى الرحيل عنها ، وترك فيها بعض عسكره مع نائبه نصير الدين جقر<sup>(٤)</sup> وفي الوقت الذي كانت جيوش الخليفة محاصرة الموصل ؛ لجأ أتاك دمشق اسماعيل ابن بورى إلى مهاجمة أملاك زنكى في الشام ، فحاصر حماة « وملك البلد قهراً » سنة ١١٣٣ . وهكذا أخذ البناء الذي أقامه زنكى يتداعى لبنة بعد أخرى على أيدي المسلمين أنفسهم سواء في العراق أو الشام<sup>(٥)</sup> .

ولا شك في أن سوء موقف زنكى أتاح فرصة طيبة للصليبيين الذين شددوا هجماتهم على حلب ، مما أدى إلى الهزيمة التي حلت بالأمرسوار — نائب زنكى

(١) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ؛ حوادث سنة ٥٢٧ هـ .  
(٢) كان حاكم تكريت عندئذ هو نجم الدين أيوب الكردي والدصلاح الدين مؤسس الدولة الايوبية . ويقال إن نجم الدين أيوب حمى زنكى عندئذ وساعده على الفرار والعبور إلى الضفة الاخرى لنهر دجلة ( وكان هذا الفعل من نجم الدين أيوب سبباً للاتصال بهاد الدين ، حتى ملك بنو أيوب البلاد ) . ( أبو الفدا : المختصر ؛ سنة ٥٢٧ هـ ) .

(٣) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ٤٦ .

(٤) المرجع السابق ص ٤٧ .

(5) Grousset: Hist. des Croisades, II, p. 55.

في حلب — في موقعة قنسرين (١١٣٢ - ١١٣٣) (١).

على أن مجرى الأمور أخذ يتحول في صالح زنكي بعد قليل؛ إذ فشل الخليفة العباسي في الاستيلاء على الموصل بعد حصار ثلاثة أشهر، فارتد إلى بغداد بعد أن « ضاقت الأمور بالعسكر » بسبب قلة الميرة والقوت (٢). هذا في الوقت الذي اضطرت أحوال أتابكية دمشق بعد وفاة بوري سنة ١١٣٣ وقيام ابنه شمس الملك أبو الفتح اسماعيل في الحكم. وقد بدأ إسماعيل بن بوري حكمه بداية طيبة، فاسترد بانياس من الصالبيين، واسترد حصن اللبوة والرأس من أخيه شمس الدولة محمد صاحب بعلبك، كما هاجم بعلبك نفسها (٣). ولكنه لم يلبث أن تعسف وتطرف مع رعايه، وأظهر « دناءة نفس » (٤)، فأمن في « ارتكاب القبائح والمنكرات، وإيقاله في اكتساب المآثر والحظورات الدالة على فساد التصور والعقل، وصداء الحسن، وظهور الجهل، وتبلد الفهم وحب الظلم! » (٥) وهكذا أصبح كل أحد في دمشق يخشى على حياته من تصرفات اسماعيل بن بوري؛ ولم يسلم من ذلك أهل اسماعيل أنفسهم، إذ قتل أخاه سونج « أشنع قتلة بالجوع في بيت، وبالغ في الأفعال القبيحة والظلم، ولم يقف عنده حد » (٦). وكان أن دبرت المؤامرات ضد اسماعيل من جميع من حوله، حتى بات يخشى على نفسه من أشد المقرين إليه، فأرسل إلى زنكي يستعين به. ويعرض عليه استلام دمشق « ليمكنه من الانتقام من كل من يكره من المتقدمين والأمراء والأعيان بإهلاكهم وأخذ أموالهم وإخراجهم من منازلهم ». ثم إن اسماعيل هدد زنكي بتسليم

(١) أنظر ما سبق .

(٢) ابن الاثير : السكامل ؛ حوادث سنة ٥٢٧ هـ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٥٧ .

(٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٤٥ هـ .

(٦) المرجع السابق ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

دمشق للصليبيين وقال له «إن أهملت الحجيء سلمت المدينة إلى الفرنج<sup>(١)</sup>». وقد وجد زنكي في ذلك العرض فرصته التي طالما تمنّاها لتوحيد الشام الإسلامية، فأسرع من الموصل لاستلام دمشق. على أنه في الوقت الذي أخذ زنكي يشق طريقه إلى دمشق، تبدلت الأحوال فجأة، إذ قتل إسماعيل بن بوري في مؤامرة دبرتها أمه — صفوة الملك زمرد — (أول فبراير سنة ١١٣٥)، وتولى حكم دمشق أخوه شهاب الدين محمود بن بوري الذي التف حوله أهل دمشق ضد مطامع زنكي والصليبيين جميعاً. ولما راسل زنكي أهل دمشق «لم يجيبوه إلى مطلوبه، وردوا عليه رداً خشناً يتضمن أن الكلمة قد اتفقت على حفظ الدولة والذب عنها<sup>(٢)</sup>». وهكذا فشلت جميع الجهود التي بذلها زنكي أمام دمشق لضم المدينة، وتزعم حركة المقاومة ضده أحد مماليك طغتكين واسمه معين الدين أنر؛ فاضطر زنكي إلى عقد الصلح مع الدماشقة في منتصف مارس سنة ١١٣٥ والعود إلى حلب؛ لاسيما بعد أن أرسل إليه الخليفة المسترشد بالله العباسي يأمره «بالرحيل عن دمشق وترك التعرض لها والوصول إلى العراق لتولى أمره والتديبره». وهكذا ظلت دمشق أمداً طويلاً تمثل عقبة كئودا في سبيل إتمام الجبهة الإسلامية ببلاد الشام نتيجة لسياسة حكامها الخوفاة<sup>(٣)</sup>.

على أن تحول مجرى الأمور في العراق لم يلبث أن أدى إلى تعويض زنكي عمافاته في دمشق. وذلك أن صحوة الخلافة العباسية على أيام المسترشد (١١١٨ — ١١٣٥) لم تدم طويلاً، ولا سيما بعد أن هدأت الأمور في الدولة السلجوقية، ونجح

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ج ١ ص ٥٧.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب (III, p. p. 668-669) &

ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٢٩ هـ.

ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٦ — ٢٤٧.

(٣) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٤٨.

ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٢٩ هـ.

السلطان مسعود بن محمد (١١٣٤ — ١١٥٢) في التغلب على منافسيه والفوز بالسلطنة<sup>(١)</sup>. وقد حاول الخليفة المسترشد بالله منازلة السلطان الجديد، ولكن الأمر انتهى بهزيمة ونفيه، ثم قتله بأيدى الباطنية في نهاية أغسطس سنة ١١٣٥، حيث مثلوا بجثته تمثيلاً شديداً<sup>(٢)</sup>. ولم يجد خلفاء المسترشد، أعنى الخليفة الراشد (١١٣٥ — ١١٣٦) والخليفة المقتفي (١١٣٦ — ١١٦٠) بدءاً من الاستعانة بزنسكي «على خلاف السلطان مسعود»، مما قوى نفوذه في شؤون الخلافة العباسية ببغداد<sup>(٣)</sup>.

### زنسكي والصليبيون:

ولم يسكد زنسكي يطمئن إلى جبهة العراق، ويحصل على تأييد الخليفة المقتفي العباسي والسلطان مسعود الساجوق، حتى انصرف إلى ميدان الشام من جديد<sup>(٤)</sup>. وكان أن بدأ زنسكي في ربيع ١١٣٥ بتوجيه هجمات ضد المراكز الصليبية شرقي نهر العاصي، ونجح في تلك السنة في الاستيلاء على الأثارب وزردنا وتل أغدى ومعرة النعمان وكفر طاب<sup>(٥)</sup>. ثم إن زنسكي حرص على

(١) النوري: نهاية الأرب، ج ٢٥ ورقة ١٧ (مخطوط).

(٢) ابن الأثير: التلخيص الباهر، ص ٥٠.

(٣) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٥٣٠ هـ.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١ ص ٦٧ — ٧٩.

وبروى ابن واصل أنه عندما صلحت الأمور بين زنسكي والخليفة المقتفي لاسر الله، أمر الأخير باقطاع عماد الدين زنسكي بعض نواحي من أملاك الخليفة الخاصة، كما أمر بأن يزداد في ألقابه «وهذه قاعد لم يسمح لاحد من زعماء الاطراف أن يكون له نصيب في خاص الخليفة».

(٥) ابن المديم: زبدة الحباب (٦٧١ - 670، III).

وقد سبق أن أشرنا إلى أن ابن المديم هو الذي قال بأن عماد الدين زنسكي استولى على الأثارب في تلك السنة. في حين قال ابن الأثير — وأخذ عنه ابن واصل — إن زنسكي استولى على الأثارب قبل ذلك بخمس سنوات، أي سنة ١١٣٠.

إعادة أهالي تلك المدن من المسلمين إلى بلادهم ورد إليهم أملاكهم ودورهم .  
وبعد ذلك قام زنكي بإغارات متفرقة في السنة نفسها على مناطق شيزر وحمص  
وقنسرين ، حتى عاد إلى الموصل في خريف سنة ١١٣٥<sup>(١)</sup> .

وبدنا زنكي في الموصل مشغولاً مرة أخرى بالخلافات بين الخلافة العباسية  
والسلطنة السلاجوقية<sup>(٢)</sup> ، إذا بنائيه في حلب - سيف الدين سوار - يفتيز فرصة  
الاضطراب الذي كانت تعانیه إمارة أنطاكية عندئذ ويفزو أراضيها في  
أبريل سنة ١١٣٦ حتى وصل إلى اللاذقية<sup>(٣)</sup> . وتروى المراجع أن سوار أختار  
في تلك الغزوة على مائة قرية صليبية ، وعاد ومعه « ما يزيد على سبعة آلاف  
أسير ما بين رجل وامرأة وصبي وصبية ، ومائة ألف رأس من البقر والغنم والخيل  
والحمير ... »<sup>(٤)</sup> .

ولم يتعرض الصليبيون لهجمات الحلبيين وحدهم في ذلك الدور ؛ بل قام  
الدماشقة أيضاً بحملة كبيرة على إمارة طرابلس سنة ١٢٣٧ . وكانت دمشق قد  
تعرضت لبعض الفتن والاضطرابات ، ظهرت خلالها شخصية أحد المماليك واسمه  
بزواش ، الذي لم يلبث أن توصل إلى منصب مقدم العسكر في دمشق « وجعل  
إليه الحل والعقد »<sup>(٥)</sup> . ويبدو أن هذا الأمير أراد أن يمكن لنفسه ، ففكر  
في القيام بحملة ضد الصليبيين تضيف عليه شيئاً من المهابة والأهمية ؛ وشجعه على  
ذلك النجاح الذي أصابه سوار عندما غزا إمارة أنطاكية في العام السابق<sup>(٦)</sup> .

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣٢ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ( III , p. 671 )

(3) Stevenson : The Crusaders, p. 134.

ويصف هذا المؤرخ إغارة سوار على إمارة أنطاكية بأنها ليس لها نظير في عهدها  
في تاريخ تلك الإمارة منذ قيامها .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣٠ هـ .

(٥) المرجع السابق .

(6) Stevenson : op. cit, p. p. 137.

بذلك غزا بزواش إمارة طرابلس « واجتمع معه كثير من الغزاة المتطوعة ومن التركان أيضاً خلق كثير ». وعلى مقربة من قلعة صنعيل ، دارت المعركة بين الدماشقة وبونز أمير طرابلس ، فقتل الأخير في أواخر مارس سنة ١١٢٧ ، وأمر عدد كبير من أتباعه ، فضلاً عن الغنائم الوفيرة التي حصل عليها المسلمون (١) . وهكذا ساء موقف الصليبيين في أنطاكية وطرابلس في الوقت الذي عاد زنكي سنة ١١٣٧ من العراق إلى الشام لاستئناف الجهاد (٢) .

على أن زنكي آمن دائماً بأن قيام وحدة الإمارات الإسلامية في الشام يجب أن يسبق أية خطوة عملية ضد الصليبيين . لذلك بدأ زنكي في يونية سنة ١١٣٧ بمحاولة جديدة ضد حمص ، التي كان يحكمها معين الدين أنر نائباً عن البوريين في دمشق . وفي ١١ يولية سنة ١١٣٧ علم زنكي أن الصليبيين أتوا لنجدة حمص ، فاضطر إلى أن يترك حصارها وأتجه لمواجهة الصليبيين عند قلعة بعين ( بارين ) (٣) . وكانت الجيوش الصليبية التي تقدمت لصد زنكي عند بعين بقيادة الملك فولك ملك بيت المقدس والأمير ريموند الثاني أمير طرابلس الجديد . ولم تلبث أن حلت الهزيمة ساحقة بالصليبيين ، فقتل منهم أكثر من ألفين وأسر كثيرون ، من بينهم ريموند الثاني صاحب طرابلس ، « وحمل عليهم عسكر عماد الدين فكسرهم ومحتهم قتلاً وأسرا ، وحصل لهم من الغنائم الشيء الكثير » . أما الملك فولك فقد استطاع الفرار إلى قلعة بعين حيث حاصره زنكي (٤) . على أن فولك استطاع أن يرسل طلباً للنجدة السريعة إلى بطرق

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣١ هـ .

Guillaume de Tyr p. 640.

(2) Grousset : Hist. des Croisades, p. 69.

(٣) ابن المديم : زبدة العجب ( III. p. p. 672-673 ) &

ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥٨-٢٥٩ :

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣١ هـ .

بيت المقدس وجوساين الثاني أمير الرها وريموند دي بواتيه أمير أنطاكية<sup>(١)</sup> ويبدو أن زنكي عمل حسابا لتلك النجدة التي بدأت تشق طريقها صوب بعين<sup>(٢)</sup> قلم يمانع في عقد صلح في أغسطس سنة ١١٣٧ مع الصليبيين المحاصرين، ينص على أن يأخذ المسلمون خمسين ألف دينار مقابل إطلاق سراح الملك وبقية الأسرى، كما يستولى المسلمون على بعين فضلا عن المراکز التي سبق أن استولى عليها زنكي سنة ١١٣٥ شرقي نهر العاصي، وهي زردنا ومعة النعان وكفر طاب<sup>(٣)</sup>

---

(1) Guillaume de Tyr, p. 644 - 645.

(٢) ذكر ابن واصل أن الصليبيين بالشام عندما علموا بحصر الملك فولك في بعين أرسلوا طالبين النجدة من الامبراطور البيزنطي، والغرب الاوربي « فدخلت القسوس والرهبان بلاد الروم والفرنج وما والاها من بلاد النصرانية مستنصرين على المسلمين، وأعلموهم أن زنكي إن أخذ حصن بارين ومن فيها من الفرنج ملك جميع بلادهم في أسرع وقت، وأن همه المسلمين مصروفة إلى فتح بيت المقدس، فشدت النصرانية وجمعت وقصدوا الشام مع ملك قسطنطينية ».

( ابن واصل : مفرج السكروب ، ج ١ ص ٧٣ ) .

(٣) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٥٣١ هـ ،

Guillaume de Tyr, p. p. 650.651.

## الفصل الخامس

### الامبراطورية البيزنطية والصليبيون في الشام

#### الكسيوس كومنين وامارة أنطاكية

سبق أن تعرضنا للعداء بين البيزنطيين والصليبيين ، وهو ذلك العداء الذي بدأ يشتد منذ وصول الصليبيين إلى أطراف الشام والعراق ، ورفضهم التمسك بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم للامبراطور البيزنطي بتسليمه كافة المدن والبلاد التي كانت في وقت مامن ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية، قبل أن يستولى عليها المسلمون. وقد تركز جزء كبير من العداء بين الطرفين في العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية وإمارة أنطاكية<sup>(١)</sup> ، لأن مدينة أنطاكية بالذات كانت لها أهمية خاصة — دينية وحربية وسياسية — في نظر الدولة البيزنطية ؛ فضلا عن أنها كانت أكثر الإمارات الصليبية في الشام تطرفا جهة الشمال ، مما جعل الحدود مباشرة بينها وبين البيزنطيين في قيليقية . فإذا أضفنا إلى ذلك كله الموقف المتشدد الذي وقفته بوهيموند الأول وتنكرد في أنطاكية من الإمبراطور ألكسيوس كومنين ، أدركنا السر في اتساع شقة الخلاف حتى تحول إلى عداء ظاهر مستحکم بين البيزنطيين من ناحية والنورمان في أنطاكية من ناحية أخرى<sup>(٢)</sup>

وقد اتخذ ذلك النزاع بين إمارة أنطاكية والبيزنطيين صوراً متعددة وميادين كثيرة سبق أن تعرضنا لها في مواضع متفرقة من هذا الكتاب ؛ ولا بأس من

(1) Vasiliev : op. cit, II, p. p. 408 , 409.

(2) Chalandon : Alexis Comnene, p. 219.



أن نجملها هنا في إشارة عابرة سريعة تساعد على ربط حلقات ذلك النزاع بعضها ببعض . فمن ذلك مثلاً الخلاف الذي قام بين الطرفين حول اللاذقية ، تلك المدينة التي استولى عليها البيزنطيون سنة ١٠٩٩ ، والتي تتمتع بموقع هام يجعلها عظمة المكافحة بالنسبة لإمارة أنطاكية بالذات<sup>(١)</sup> . وإذا كان بوهموند وحلفاؤه البيازنة لم يتمكنوا من الاستيلاء على اللاذقية عند ماهاجموها سنة ١٠٩٩ بسبب تدخل ريموند دي تولوز ، فإن النورمان في أنطاكية لم يهدوا بعد ذلك إلا عندما استولوا على تلك المدينة سنة ١١٠٢ ، كما سبق أن شرحنا . وقد حاول الإمبراطور البيزنطي أن يرد على ذلك العدوان بإرسال حملة إلى الجنوب الشرقي من آسيا الصغرى لانتزاع طرسوس وأذنه والمصيصة من النورمان ، ولكن الحملة فشلت في غرضها ؛ بل إن جوسلين دي كورتناي صاحب تل باشر استطاع سنة ١١٠٢ الاستيلاء على مرعش من البيزنطيين<sup>(٢)</sup> .

وهكذا لم يستطع ألكسيوس كومنين سوى أن يتحين الفرصة المناسبة للانتقام من الصليبيين . ولم تلبث أن أتت هذه الفرصة عند ما حلت بالصليبيين كارثة حران سنة ١١٠٤ ، فأرسل الإمبراطور أسطولا استطاع أن يسترد اللاذقية<sup>(٣)</sup> ، ويستولى على بعض مراكز قرب الشاطئ فيما بين اللاذقية وانطربوس . هذا فضلا عما قام به الأرمن في قيلية من طرد الصليبيين النورمان من طرسوس وأذنه والمصيصة ، واستدعاء البيزنطيين ليحلوا محلهم<sup>(٤)</sup> . ولم يستطع بوهموند إزاء ذلك التهديد من جانب البيزنطيين والسلاجقة جميعاً سوى الرحيل إلى غرب أوروبا في أوائل سنة ١١٠٥ ، لاستحضار نجده تمكن إمارته من الصمود في وجه الأخطار المحدقة بها . وهناك في الغرب لم يسكتف بوهموند باستئثاره

(1) Albert d'Aix, p. p. 500. & Raoul de Caen; p. 649.

(2) Ostrogorsky op cit, p. 323.

(3) Brehier : Vie et Mort de Byzance, p. 315.

(4) Raoul de Caen p. p. 271 - 272.

الرأى العام ضد الإمبراطور البيزنطى ودواته ، وإظهارها فى صورة التتوة المعتادة للصليبيين ، الممثلة للمسلمين ، وإنما عبر بوهيموند عن شعوره العدائى ضد البيزنطيين عمليا ، فقام بمحماته على الدولة البيزنطية سنة ١١٠٧ ، وهاجم مدينة دورازو ، مما يعتبر مقدمة لما حدث بعد ذلك بأقل من قرن من اتجاه الحملة الصليبية الرابعة ضد القسطنطينية نفسها (١) .

وإذا كان بوهيموند قد فشل أمام البيزنطيين ، واضطر إلى مصالحتهم كما سبق أن ذكرنا ، فإن تنكرد - خليفة بوهيموند فى أنطاكية - لم يرتبط بذلك الصلح ، وإنما واصل سياسته العدوانية ضد الدولة البيزنطية ، واستطاع أن يسترد اللاذقية من البيزنطيين سنة ١١٠٨ بمساعدة البيازنة (٢) . ويهمنان هذه الأحداث أن الإمبراطور البيزنطى فى صراعة ضد النورمان الصليبيين ، لم يجمع عن الاستعانة بالأتراك السلاجقة ، فاستنجد بسلطان قونية قلاج أرسلان عندما هدد بوهيموند دورازو سنة ١١٠٧ ، وأرسل السلطان السلاجقى فرقة كبيرة من فرسانه لمساعدته ، مما جعل الغرب الأوروبى يميل إلى تصديق التهم الموجبة ضد الدولة البيزنطية ، ويعتقد أن هذه الدولة ترتكب فعلا خيانة كبرى فى حق المسيحية والقضية الصليبية (٣) .

والواقع إن الغرب الأوروبى لم يكن مبالغا عندئذ فى سوء الظن بالإمبراطورية البيزنطية ، إذ تشهد المراجع المعاصرة على وجود تيمة اتصالات مريبة بين البيزنطيين

(1) Setton : op. cit. I, p. p. 391-392-

(2) Stevenson : op. cit: p. 82.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٠ هـ .

Albert d'Aix, p. 651.

ويقول ابن الأثير فى حوادث سنة ٥٠٠ هـ : « فى هذه السنة كانت وحشة مستحكمة بين ملك الروم صاحب القسطنطينية وبين يموند الفرنجى ... فأرسل ملك الروم إلى الملك قلاج أرسلان صاحب قونية وأقصرا وغيرهما من تلك البلاد فاستنجده ، فأمر بجمع كثير من العسكر فقوى بهم ... » .

والمسلمين ، هدفها استئثار السلطنة السلجوقية والخلافة العباسية ضد الصليبيين بالشام . من ذلك ما يؤكد ابن الأثير مرة أخرى من مجيء سفارة من قبل الامبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين إلى السلطان محمد السلجوقى سنة ١١١١ تعرض عليه عقد تحالف بين الطرفين لمحاربة الصليبيين وطردهم من الشام . ولعل فى هذه الشواهد ما يثبت تأمر البيزنطيين فعلا ضد الصليبيين فى الشام بوجه عام والنورمان فى أنطاكية بوجه خاص ، وأنهم كانوا يفضلون عودة الشام إلى أيدي السلاجقة المسلمين عن بقائها فى أيدي الصليبيين . ويبدو أن عداوة ألكسيوس كومنين للصليبيين عندئذ أنسته ما صادفته دولته من قبل على أيدي السلاجقة ، مما جعله يستغيث بالغرب الأوروبى ضد السلاجقة المسلمين حتى سنة ١٠٩٥ (١)

### الامبراطور هنا كومنين و'الأتراك

وفى عهد الامبراطور البيزنطى حنا الثانى كومنين (١١١٨ — ١١٤٣) ؛ دخلت العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية من جهة وكل من الصليبيين والمسلمين من جهة أخرى دوراً جديداً . ذلك أن حنا كومنين — الذى تولى العرش بعد أبيه ألكسيوس كومنين مباشرة — كان محاربا قديراً ، قضى معظم سنوات حكمه على رأس جيوشه لتحقيق الأهداف التى وضعها لنفسه ، وهى إعادة الحدود الآسيوية للامبراطورية إلى ما كانت عليه قبل الغزو السلجوقى ، وطرد سلاجقة الروم من آسيا الصغرى واسترداد قيليقية من الأرمن ؛ فضلا عن إجبار الصليبيين فى أنطاكية على الاعتراف بسيادة الامبراطورية (٢) .

وكان أن بدأ الامبراطور حنا كومنين بمحاربة الأتراك فى الأناضول

(1) Grousset : op. cit, I, p. 462.

(2) Ostrogorky : op. cit, p. 335.

للاستفادة من الشقاق الذي دب بين سلاجقة الروم وأمراء بني دانشمند في سيواس ؛ وهو الشقاق الذي اتسعت فجوته عند ما استولى سلاجقة الروم على مدينة ملطية التابعة لبني دانشمند . على أن هذا الشقاق لم يمنع من اتحاد سلطان قونية الساجوقى مسعود مع الأمير التركمانى غازى بن دانشمند سنة ١١١٩ لمهاجمة حاكم طرايزون البيزنطى <sup>(١)</sup> . وكان ذلك في السنة نفسها - ١١١٩ - عندما بدأ الإمبراطور البيزنطى حنا كومنين هجومه على سلاجقة الروم فى الأناضول . وبعد أن استرد منهم الإمبراطور بضعة مواقع ، اضطر إلى العودة إلى البلقان <sup>(٢)</sup> وإلى جانب الخلاف بين سلاجقة قونية وبني دانشمند ، نشب خلاف داخلى بين أمراء السلاجقة داخل قونية حوالى سنة ١١٢٦ عند ماثار عرب على أخيه السلطان مسعود ، واضطر الأخير إلى الإلتجاء إلى بلاط القسطنطينية حتى تمكن بمساعدة البيزنطيين من استرداد عرشه ؛ وعندئذ لجأ عرب بدوره إلى الأرمن فى قيليقية ثم إلى الإمبراطور البيزنطى فى القسطنطينية <sup>(٣)</sup> وهكذا أدى الشقاق الداخلى فى سلطنة سلاجقة الروم إلى إضعاف تلك السلطنة ووقوف الإمبراطورية البيزنطية من أمرائها موقف الحكم والمعين ، فى حين ظل الأتراك من بني دانشمند فى كبادوكيا محتفظين بقوتهم ويمثلون خطراً على الدولة البيزنطية فى آسيا الصغرى <sup>(٤)</sup> .

لذلك اختار الإمبراطور حنا كومنين أن يوجه فى تلك المرة جهوده ضد أولئك التركمان ، فقاد حملة ضدهم على شاطئ البحر الأسود ، ونجح فى الاستيلاء على مدينة قسطنطين سنة ١١٣٠ - ١١٣٢ <sup>(٥)</sup> . ولم يابث بعض الأمراء المحليين

(1) Mattnier d'Edesse p. 33.

(2) Vasiliev : op. cit. II, p. p. 415 - 416.

(3) Michel Le Syrien, p. p. 219-224.

(4) Grousset : op. cit. II. op. 84.

(5) Brehier : op. cit. p. 323.

أن اعترفوا بولائهم للإمبراطور البيزنطي ، مثل ألب أرسلان أمير كنعري وطغرل أمير أماسيا . ثم إن هذه لم تكن آخر حملات حنا كومنين ضد بني دانشمند ، إذ لم يلبث أن عاد إليهم مرة أخرى عندما استولوا على قسطنطيني فاستردها منهم سنة ١١٣٤ ، كما استولى على كنعري (١) . وبذلك يكون الإمبراطور حنا كومنين قد استرد للإمبراطورية البيزنطية الشاطئ الجنوبي للبحر الأسود إلى ما بعد طرابزون شرقاً .

#### حنا كومنين والأرمن :

وكانت الخطوة التالية أمام حنا كومنين هي استرداد إقليم قيليقية في الجنوب الشرقى لآسيا الصغرى من الأرمن ، تمهيداً لاسترداد أنطاكية من الصليبيين . وقد حشد الإمبراطور لذلك الغرض حملة كبيرة ضمت صفوة جنوده وفرسانه ، وسار على رأسها مخترباً آسيا الصغرى حتى وصل إلى مرسين سنة ١١٣٧ ، ثم استولى في غير صعوبة على المدن الرئيسية الثلاث في سهول قيليقية ، وهي طرسوس وأذنة والمصيصة . وبعد ذلك أتجه الإمبراطور نحو الشمال حيث استولى في بوليه سنة ١١٣٧ على عين زربه بعد حصار عنيف ، ثم على بعض الحصون الأخرى المجاورة مثل تل حمدون (٢) . أما الأمير الأرمني ليون الأول (ابن لاوون) فقد استمر يقاتل البيزنطيين عدة أشهر حتى سقط أخيراً في يد الإمبراطور البيزنطي سنة ١١٣٧ ، وأرسل وأسرته وأسرى إلى القسطنطينية (٣) . ولم يلبث أن استولى حنا كومنين بعد ذلك على الاسكندرونة وحصنها وعمر ميناءها ، وبذلك دخل أراضي إمارة أنطاكية (٤) .

(١) Grousset : Hist, des Croisades II, p. 85.

(٢) Chalandon : Comnenes, II, p. p. 115-116.

(٣) Iorga : L'Arménie (ilicienne p. p. 94.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٥٣١ هـ .

### منا كومنين وانطاكية :

كانت دولة الأرمن التي قامت في قيليقية في الربع الأول من القرن الثاني عشر بمثابة حاجز بين الإمبراطورية البيزنطية وإمارة أنطاكية. ولسكن اقتطاع هذا الحاجز على يد الإمبراطور حنا كومنين، جعل الحدود مباشرة بين البيزنطيين والنورمان في أنطاكية ، وبالتالي فإن الخطوة التالية أمام الإمبراطور البيزنطي بعد استرداده قيليقية ووصوله إلى مشارف الشام ، ضارت المطالبة من جديد بأنطاكية (١) .

والواقع إن الإمبراطور حنا كومنين كان قد حاول من قبل حل مشكلة أنطاكية حلاسيميا ، فأرسل في السنة التالية لاعتلائه عرش الإمبراطورية (سنة ١١١٩) مبعوثا إلى روجر دي سالرنو أمير أنطاكية عندئذ ، يقترح عليه زواج ابنة روجر من أمير من أسرة كومنين ، على أمل أن يؤدي هذا الحل - ولو مع مضي الزمن - إلى عودة أنطاكية إلى حظيرة الإمبراطورية . ويبدو أن روجر كان لا يعارض هذا الرأي ، ولسكن حدث قبل أن يبت فيه برأى حاسم أن خرقتيلا في موقعة البلاط سنة ١١١٩ ، ومن ثم قام بلدوين الثاني ملك بيت المقدس بالوصاية على إمارته ليقرب الموقف رأسا على عقب .

على أن فشل ذلك المشروع لم يمنع حنا كومنين من محاولة إعادة الكرة ، وذلك حوالي سنة ١١٣٦ عقب وفاة بوهيموند الثاني ومحاولة أرملة أليس السيطرة على أنطاكية (٢) . ذلك أن الأميرة أليس لم تكف بطلب المساعدة من زنكي وإنما لجأت - كما سبق أن أشرنا - إلى الإمبراطور حنا كومنين فعرضت

(١) Setton : op. cit, I, p. 49.

(٢) انظر ما سبق ص ٥٣٢ .

عليه زواج ابنه وولى عهده مانويل كومنين من ابنتها كونستانس ، الورثية الشرعية لإمارة أنطاكية<sup>(١)</sup>. وقد عقدت اتفاقية سرية فعلا بخصوص ذلك الشأن بين أليس وبلاط القسطنطينية ، ولكن مجيء ريموند دي بواتيه وزواجه من الأميرة كونستانس سنة ١١٣٦ ، قطع الأمل نهائيا في تنفيذها . وبذلك لم يبق أمام الإمبراطور البيزنطي حنا كومنين سوى استخدام القوة لحل المسألة الأنطاكية ، فخرج على رأس جيوشه في يوليو سنة ١١٣٧ قاصدا أنطاكية<sup>(٢)</sup>. ولم يكن لدى ريموند دي بواتيه — أمير أنطاكية عندئذ — من القوة ما يمكنه من الصمود في وجه الجيوش البيزنطية الضخمة ، فأرسل يستنجد بفولك ملك بيت المقدس وبقيّة أمراء الصليبيين . ولكن شاء سوء حظ الصليبيين أن تتعرض إمارة طرابلس في ذلك الوقت — كما سبق أن أشرنا — لهجوم زنكي ، مما جعل الملك فولك يتجه أولا لنجدة قلعة بعين ، على أن يذهب إلى أنطاكية بعد ذلك . ولم يدر فولك عندئذ أنه سيبتلى بالهزيمة وحصار المسلمين له في بعين . وكان أن انقلب الوضع فاستنجد فولك بأمير أنطاكية ريموند دي بواتيه ليفك حصاره ، وعندئذ أسرع ريموند إلى بعين دون أن يبالي بالبيزنطيين الذين صاروا على مشارف مدينة أنطاكية نفسها<sup>(٣)</sup>. وعندما عاد ريموند بواتيه إلى أنطاكية في أواخر أغسطس سنة ١١٣٧ ، كان حنا كومنين قد بدأ فعلا حصار المدينة « وضيق على أهلها » ، ومسع ذلك فقد استطاع ريموند دخول مدينته لهدفها عنها<sup>(٤)</sup>.

(1) Chalandon : Comnènes, II. p. 122.

(2) Brehier : Vie et Mort de Byzance, p. 324.

(3) Guillaume de Tyr p. 646.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٣ هـ

ابن القلانسي ، ص ٢٦٣ .

Guillaume de Tyr, p. 645.

وسرعان ما اكتشف حنا كومنين أن اقتحام أنطاكية والاستيلاء عليها بالقوة ليس بالمهمة السهلة . هذا فضلا عن أن الإمبراطور خشي تحطيم قوة الصليبيين في الوقت الذي كان زنكي يعمل في نشاط ضد الصليبيين والبيزنطيين جميعا . لذلك لم تلبث أن تعاقبت روح الاعتدال على حنا وريموند جميعا ، فدخل الطرفان في مفاوضات انتهت بعقد اتفاقية وافق فيها مندوبو ريموند على الاعتراف بسيادة الإمبراطورية على أنطاكية ، على أن يحكمها الصليبيون نيابة عن الإمبراطور<sup>(١)</sup> وكان أن قدم ريموند دي بواتيه ولاءه وأعان تبعيته للإمبراطور البيزنطي ، وذلك بعد موافقة الملك فولك الذي رأى هو الآخر أنه من الأفضل كسب ود البيزنطيين ومعاونتهم ضد المسلمين ، وبخاصة زنكي<sup>(٢)</sup> .

وبعد عمدة الاتفاقية السابقة ، أقسم ريموند يمين الولاء للإمبراطور ، الذي ثم يقشده بدوره في ضرورة دخول أنطاكية واكتفى برفع العلم الإمبراطوري فوق قلعة المدينة<sup>(٣)</sup> .

ولم يلبث أن أدى تفاهم الصليبيين والبيزنطيين بصدد أنطاكية سنة ١١٣٧ إلى تحالف الفريقين ضد المسلمين ، فتم الاتفاق على تنفيذ مشروع حملة صليبية كبرى في الربيع التالي ، يشترك فيها البيزنطيون والفرنجة ضد مسلمي الشام . وقد تحدت أهداف تلك الحملة في تحطيم قوة زنكي في حلب ، وإمارة بني منقذ في شيزر ، وانتزاع حمص من أتابكته دمشق ، ثم إقامة إمارة صليبية جديدة من الأجزاء السابقة تشمل الجهات الداخلية من بلاد الشام ، بما فيها حلب وشيزر وحمص . وكذلك تم الإتفاق على أن يعين ريموند دي بواتيه

(1) Vasiliev : op. cit, II, p. 416.

(2) Setton : op. cit, I, p. 439.

(3) Brebier : op. cit, p. 324.



أمير أعلى تلك الإمارة الجديدة ، ويترك إقليم أنطاكية للإمبراطور البيزنطي<sup>(١)</sup>

### مناكوبينج ومحاربة المسلمين :

وفي فبراير من العام التالي - سنة ١١٣٨ - نفذت تعليمات الإمبراطور ، فألقى القبض في أنطاكية فجأة على جميع التجار والرعايا المسلمين الوافدين من حلب والمناطق المجاورة ، حتى لا تتسرب أخبار الاستعدادات الصليبية إلى زنكي<sup>(٢)</sup> . ثم كان أن وصل الإمبراطور البيزنطي حنا كومنين إلى أنطاكية في أواخر مارس سنة ١١٣٨ ، حيث انضمت إليه القوات الصليبية التابعة لأنطاكية والرها ، ثم زحف الجميع على حلب في ابريل سنة ١١٣٨ ؛ وفي الطريق استولى المسيحيون على حصن بزاعة ( بزاعا ) بين حلب ومنجج<sup>(٣)</sup> .

ولاشك في أن الوقت الذي أضاعه المسيحيون في الاستيلاء على بزاعة سبب لهم خسارة كبيرة ، لأنه أفتقد حركتهم عنصر المفاجأة والمباغطة ، وأتاح للمسلمين - وزنكي بوجه خاص - فرصة طيبة للاستعداد ؛ « فتحرز الناس وتحفظوا وكاتبوا أتابك زنكي بذلك<sup>(٤)</sup> » . وكان زنكي عثدئذ على رأس جيشه عند حصن يعمل لطرده الدماشقة منها ، وعند ما علم بحملة الصليبيين أرسل بعض قواته تحت قيادة الأمير سيف الدين سوار لتعوية حلب والدفاع عنها . وهكذا ضاعت على الإمبراطور البيزنطي فرصة أخذ حلب على غرة ، فلم يتنبه إلى غلظته إلا بعد فوات الأوان . وأخيراً أدرك الإمبراطور أن سياسة التباطؤ - أتاح حلب فرصة الحصول على إمدادات قوية من زنكي ، وأنه

(1) Guillaume de Tyr, I, p 652

(2) Runciman : op. cit, II, p. 215.

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٥ .

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ( Rec. Hist Or. III, p p 675-676 )

لا فائدة بعد ذلك من حصارها ، فانصرف عنها بعد أن أقام عليها ثلاثة أيام ،  
واتجه إلى الأتارب التي هرب من بها من المسلمين بعد أن أشعلوا فيها النار ،  
فاستولى عليها المسيحيون في ٢١ ابريل سنة ١١٣٨<sup>(١)</sup>

وبعد أن حبس الإمبراطور أسرى بزاعة في قلعة الأتارب ، اتجه على  
رأس الجيوش المسيحية صوب معرة النعمان ، ولكن دون أن يترك حامية كافية  
في الأتارب ، مما مكن بعض أسرى المسلمين من الفرار إلى حلب حيث أخبروا  
الأمير سوار نائب زنكي بضعف الحامية المسيحية في الأتارب .  
وهكذا استطاع سوار أن يغير بدوره على الأتارب ، ويطلق سراح بقية أسرى  
المسلمين « فسر أهل حلب بهذه النوبة سروراً عظيماً »<sup>(٢)</sup>.

أما الجيوش المسيحية فقد وصلت زحفها ، فاستولت في ٢٧ أبريل على  
كفر طاب التي كان زنكي قد أخذها من الصليبيين سنة ١١٣٥ ؛ ثم اتجه  
الإمبراطور هنا كومين بعد ذلك على رأس الجيوش المسيحية المتحالفة إلى شيزر ،  
المدينة الإسلامية الكبرى التي تسيطر على أواسط حوض نهر العاصي<sup>(٣)</sup> . وقد  
أخذ المسيحيون يهاجمون شيزر في عنف منذ ٢٩ ابريل سنة ١١٣٨ . فاستجد  
صاحبها — أبو العساكر سلطان علي بن منقذ — بزنكي . وكان أن أتى زنكي  
مسرعاً لتجدة شيزر ، فنصب معسكره على ضفة نهر العاصي بينها وبين حماة<sup>(٤)</sup> .  
ولم يشأ زنكي أن يقامر بشن هجوم عام على المسيحيين بسبب تفوقهم العددي .  
فاكتفى بالخروج كل يوم « هو وعسكره ويسيرون إلى شيزر ويقفون بحيث  
يراهم الروم . ويرسل السرايا فتأخذ من ظفر به منهم » . وفي الوقت نفسه تبدو

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ١ ص ٧٨ .

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٥ — ٢٦٦ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٧٨ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣٢ هـ .

عبثوية زنسكي في تلك المرحلة في أنه استغل مبادئ علم النفس الحربى أتم استغلاله،  
فعمل على تحطيم الروح المعنوية للصليبيين، وأخذ يرسل إلى الامبراطور البيزنطى  
يقول :

« إنكم قد تحصنتم منى بهذه الجبال، فأنزلوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقى ،  
فإن ظفرت بكم أرحت المسلمين منكم ، وإن ظفرتم بى استرحتم وأخذتم شيزر  
وغيرها ! » . وهنا يعترف النويرى أن زنسكى « لم تكن له بهم قوة ، وإنما كان  
يرهبهم بهذا القول وأشباهه ! »<sup>(١)</sup> .

وفى تلك الأثناء أيضاً أرسل زنسكى القاضى كمال الدين الشهرزورى إلى  
السلطان مسعود السلجوقى ، ففتاعس السلطان فى أول الأمر ، « وأظهر قلة اهتمام » .  
ولكن ثورة الأهالى فى بغداد ورغبتهم فى الجهاد ، واستغاثتهم وقت الصلاة يوم  
الجمعة « وإسلاماه ! وادين محمداه » ، أخافت السلطان فأمر بإعداد حملة  
سريعة ، كما تعهد الأمير الأرتقى داود بإرسال حملة من الجزيرة من خمسين ألف  
من التركان<sup>(٢)</sup> .

وفى انتظار وصول تلك المساعدات، لجأ زنسكى إلى العمل على تفرقة صفوف  
المسيحيين ، وإثارة النفور بين البيزنطيين والصليبيين ، فكان « يرسل إلى  
ملك الروم ، يوجهه أن فرنج الشام خايفون منه فلو فارق مكانه لتخلوا عنه، ويرسل  
إلى فرنج الشام يخوفهم من ملك الروم ويقول لهم إن ملك بالشام حصناً واحداً  
ملك بلادكم جميعها ، فاستشعر كل من صاحبه<sup>(٣)</sup> » . وسرعان ما أفلحت سياسة

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٣٥ ورقة ٧٢ (مخطوط) ص ٩٠

ابن واصل : مغرب السكروب ، ج ١ ص ٨١ .

(٢) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٥٣٣ هـ . ص ٩٠

ابن واصل : مغرب السكروب ، ج ١ ص ٧٩ - ٨٠ .

(٣) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٥ ورقة ٧٢ ص ٩٠

ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٥٣٣ هـ .

زنكي وآتت أكلها ، فلم يلبث أميراً الرها وأنطاكية أن غيرا سياستهما وأحجبا على مشاركة الإمبراطور في مهاجمة شيزر . ووقفت قواتهما من الجيوش البيزنطية المحاربة موقف المتفرج (١) .

ويلاحظ أن ريموند بالذات أخذ يعمل حساباً لنجاح خطة الصليبيين وما يترتب على ذلك النجاح من إعطائه حلب وشيزر تنفيذاً للاتفاقية بين الصليبيين والإمبراطور البيزنطي ، مما يجعله في موقف متطرف على خط النار أمام المسلمين ، بعيداً عن أنطاكية وموقعها ؛ في حين كره جوسالين الثاني أن يرى ريموند قريباً منه في حلب (٢) . وهكذا أدى عدم توافر حسن النية بين الصليبيين بعضهم وبعض من جهة وبينهم وبين البيزنطيين من جهة أخرى إلى فشل الحملة المشتركة ، إذ قبل الإمبراطور حنا كومنين العروض التي عرضها عليه أبو العساكر سلطان صاحب شيزر ، والتي تضمنت دفع مبلغ كبير من المال وجزية سنوية رمزاً للتبعية للإمبراطور البيزنطي ، فضلاً عن الهدايا والخيول والمنسوجات الثمينة (٣) . ولم ينته شهر مايو سنة ١١٣٨ إلا وكانت الجيوش البيزنطية قد انسحبت تماماً من شيزر متجهة إلى أنطاكية عن طريق قامية (٤) .

#### نفكك الخلف الصليبي البيزنطي :

ولم يستطع الإمبراطور البيزنطي أن يغفر للصليبيين موقفهم منه أمام شيزر ، فرد على ذلك الموقف رداً عملياً بأن دخل أنطاكية ومن حوله جنوده دخول

(1) Guillaume de Tyr. p; 656.

(2) Runciman : op. cit, II. p. 216.

(3) Setton : op. cit, I, p. 440.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣٢ هـ . ابن القلانسي ص ٢٦٦  
أسامة بن مقذ : كتاب الاعتبار ، ص ١١٣ — ١١٤ .

Chalandon : Comnens, II, p. 146.

السيد صاحب الحق الشرعى فى ملكية المدينة ، ثم استدعى أماله ر هو ندى بواتيه وجوسلين الثانى ووبخهما على موقفهما وتناحسهما عن الحرب ، وطالبهما بتسليم قلعة أنطاكية<sup>(١)</sup> . وكان أن ساء موقف ريموند ووجد نفسه فى قبضة الإمبراطور البيزنطى الذى سيطرت جيوشه على المدينة ، ولسكن زميله جوسلين الثانى أمير الرها أقتد الموقف ، فاتفق سرأ بفرسان أنطاكية ، ومن بها وحوها من الترنبجة وأثار نفوسهم ضد البيزنطيين الأرثوذكس ، وخوفهم من نوايا الإمبراطور البيزنطى واتجاهاته ضد الصليبيين<sup>(٢)</sup> . ولم تلبث أن شبت ثورة عارمة فى أنطاكية ضد حنا كومنين ورجاله ، فتمعج الناس فى الطرقات واعتدوا على الجيش البيزنطى الذى أخذ على غرة . ولم يستطع الإمبراطور عندئذ سوى أن يعلق على نفسه أبواب قصره ليحمى نفسه من غضب الجماهير الثائرة ، فى الوقت الذى سمع بأن سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى غزوا قيليقية وأغاروا على أذنه — بإيحاء من زنكى — الأمر الذى جعل الإمبراطور ينسحب من أنطاكية عائداً إلى التسطنطينية بعد أيام<sup>(٣)</sup> .

ولا يخفى علينا أن تلك النهاية الفاشلة التى آل إليها أمر الحملة الصليبية — البيزنطية الفرنجية — سنة ١١٣٨ ، كان لها أثرها بالنسبة للموقف بين المسلمين والصليبيين فى الشام من ناحية وفى تقوية جبهة المسلمين من ناحية أخرى<sup>(٤)</sup> . ذلك أن الخلاف الذى دب بين البيزنطيين والفرنجة أمام شيزر ، وما تبع ذلك من انسحاب الصليبيين ، جعل زنكى يشعر بأنه فى غير حاجة إلى المساعدة التى وعد بها سلطان السلاجقة . والمعروف أن عماد الدين زنكى كان — كما وصفه

(1) Guillaume de Tyr, p. 658.

(2) Brehier : op. cit, p. 324.

(3) Guillaume de Tyr, p. 662-665.

(4) Grousset : Hist. des Croisades, II, p. p. 121-122.

ابن واصل — « عنده من الدهاء والمكر شيء كثير »<sup>(١)</sup>؛ فأدرك بسرعة أن أن مصالحه بالشام تتعارض ومجىء حملة كبرى من قبل السلطان الساجوقى يقوى بها نفوذ السلطان — على حساب زنكى نفسه بالشام . لذلك أرسل زنكى على الفور يافى طلبه السابق ويعلمن عدم حاجته إلى مساعدة السلطان<sup>(٢)</sup> .

ولم يكد الصليبيون ينسحبون من إقليم شيزر حتى أرسل زنكى قواته فاستولت على كفرطاب (حوالى ٢١ مايو سنة ١١٣٨) <sup>(٣)</sup> وفى شهر سبتمبر من العام نفسه استولى زنكى على حصن بزاعه ، ثم على الأثارب فى أوائل شهر أكتوبر ؛ وبذلك ضاعت جميع المكاسب التى حققتها الحملة البيزنطية الفرنجية<sup>(٤)</sup>

### مجرد الصراع بين هذا كورسبين والصليبيين

على أن الإمبراطور حنا كومنين لم يلبث أن عاد إلى الشام عن طريق قيليقية، ومعه جيش كبير سنة ١١٤٢ ليستولى على أنطاكية استيلاء فعلياً . وعند وصوله فى أواخر سبتمبر إلى قلعة بفراس — وهى قلعة كانت بيد الداوية تسيطر على الطريق بين قيليقية وأنطاكية — أرسل إنذاراً نهائياً إلى ريموند بواتيه بقسليمه أنطاكية فوراً<sup>(٥)</sup> . وكان هذا الإنذار ضربة قاسية للأمير أنطاكية ، لاسيما فى الوقت الذى لم تفتأ جيوش المسلمين تغير على إمارته<sup>(٦)</sup> . لذلك استشار ريموند فرسانه فى أنطاكية ، فأجمعوا على رفض الإنذار وعدم تسليم أنطاكية

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٩١ .

(٢) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٥٣٢ هـ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ( Rec. Hist. Or. III, p 678 )

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٨٣ .

(5) Guillaume de Tyr, p 689.

(٦) ابن العديم : زبدة الحلب ( Rec. Hist. Or. III, p. 683-684 )

للإمبراطور البيزنطى<sup>(١)</sup> . على أن الشتاء لم يلبث أن أقبل بيرده ، وصار الوقت غير مناسب للقيام بعمل حربي كبير ، فأكتفى الإمبراطور بالإغارة على الأقاليم والقرى المجاورة لأنطاكية ، ثم عاد ليتمضى فترة الشتاء في قيليقية قرب المصيصة . وفي فترة الانتظار هذه ، أخذ حنا كومنين يعيد النظر في موقفه من الصليبيين وموقف الصليبيين منه ، وانتهى تفكيره إلى أن حقوق الإمبراطورية البيزنطية في بلاد الشام ثابتة لها سندها التاريخي ، فضلاً عن اعتراف الصليبيين أنفسهم في المعاهدات والاتفاقات التي عقدها مع الإمبراطورية سنة ١٠٩٧ ، ١١٠٨ ، ١١٣٧ . ثم إن الإمبراطورية البيزنطية ليس لها الحق في السيادة على أنطاكية وحدها ، بل على بيت المقدس أيضاً<sup>(٢)</sup> . لذلك فكر الإمبراطور في إثبات سيادته على بيت المقدس ، فأرسل إلى الملك فولك مبعوثاً يخبره بأن الإمبراطور سيأتي على رأس جيوشه للحج<sup>(٣)</sup> . ولكن فولك رد على الإمبراطور البيزنطى رداً لبقاً أنكر فيه أى حق شرعى للإمبراطور البيزنطى في بيت المقدس . وقال إن الأحوال الاقتصادية في المملكة لا تسمح بإيواء جيش الإمبراطور الضخم ، وأنه إذا كانت هناك ضرورة لحج الإمبراطور فليأت على رأس عشرة آلاف فقط من رجاله<sup>(٤)</sup> . ولم يجب ذلك الرد الإمبراطور حنا كومنين ، فأخذ يستعد للقيام بحملة كبيرة شاملة على الشام عندما توفي فجأة في قيليقية في ٨ إبريل سنة ١١٤٣ ، وبذلك تخلى الصليبيون بالشام من خطر جاثم<sup>(٥)</sup> .

على أنه يلاحظ أن العداء بين البيزنطيين والصليبيين لم ينته بوفاته حنا كومنين ،

(1) Guillaume de Tyr, p. p. 690 691.

(2) Vasiliev : op. Cit, II, p. 416.

(3) Guillaume de Tyr p. p. 691-692.

(4) Brehier : op. cit, II. p. 325.

(5) Runciman : op. cit; II. p. 224.

وإما استمر طالما قامت للصليبيين قائمة في الشام . من ذلك أن ريموند أمير أنطاكية أسرع إلى إرسال جيش إلى قيايقية عند سماعه بوفاة حنا كومنين ، للاستيلاء على المراكز البيزنطية هناك، ولكن الإمبراطور البيزنطي الجديد - مانويل كومنين أرسل جيشاً وأسطولا طرد الصليبيين من قيايقية ، ثم هاجم أنطاكية نفسها وأسر الهزيمة بريموند<sup>(١)</sup> .

وهكذا ساءت العلاقات بين البيزنطيين والصليبيين، مما حال دون اشتراك الطرفين في عمل سريع ضد زنكي ، هذا وإن كان سقوط الرها في يد زنكي سنة ١١٢٤ ، واستفحال قوة الأخير في شمال الشام ، جعل ريموند دي بواتيه يؤمن بأنه من التعتذر الاحتفاظ بأنطاكية في وجه ذلك الخطر الجديد دون مخالفة البيزنطيين ومساعدتهم . لذلك ذهب ريموند دي بواتيه أمير أنطاكية إلى القسطنطينية سنة ١١٤٥ ، ليطلب مساعدة الإمبراطور البيزنطي ، وهناك أعلن توبته وندمه عما بدر منه من قبل ، وزار قبر الإمبراطور الراحل حنا كومنين ليترحم عليه ويشيد بحاسنه !! وبعد أن أعلن ريموند ولاءه للإمبراطورية البيزنطية وتبعيته للإمبراطور القائم مانويل كومنين ، عفا مانويل عنه ووعد بمساعدته ضد زنكي<sup>(٢)</sup> .

وليس معنى ذلك أن العلاقات عادت صافية بين البيزنطيين والصليبيين بالشام ، وإنما استمر العداء بين الطرفين يمتد حتى حيناً ويظهر أحيانا ، حتى كان استيلاء الصليبيين على القسطنطينية في أوائل القرن الثالث عشر ، كما سنرى فيما بعد .

(1) Brehier : op. cit, p. 328.

(2) Michel Le Syrien, III, p. 267.









